الضوء المنير على التفسير

جمعه الفقير إلى ربه العلي عبده

علي الحمد المحمد الصالحي رحمه الله

١٣٢٣هـ - ١٤١٥هـ

من كتاب الإمام المحدث المفسر الفقيه

شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي

المعروف بابن قيم الجوزية رحمه الله

المجلد السابع

المنافقون - الناس

تحقيق

صبري بن سلامة شاهين

دار القبس للنشر والتوزيع

الضوء المنير على التفسير

المجلد السابع

ح دار القبس للنشر والتوزيع ، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصالحي، علي الحمد

الضوء المنير على التفسير./علي الحمد الصالحي- ط٢- الرياض، ١٤٣٦هـ

ردمك ٣-٠-٩٠٦١٤-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٥-٦-٩٠٦١٤-٦٠٣-٩٧٨ (ج٦)

١-القرآن - تفسير أ- شاهين، صبري سلامة (محقق) ب- العنوان

ديوي ٢٢٧،٣ رقم الإيداع ١٤٣٦/١٥

طبعة جديدة مصححة ومحققة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الثانية

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

الموقع الرسمي للمؤلف: www.assalehi.com - البريد الإلكتروني: assalehi@hotmail.com

هاتف: ٩٦٦١١٤١١٨٨٩٨+ ، ٩٦٦١١٤١١٨٨٧٤+ ؛ فاكس: ٩٦٦١١٤١٣١٤٧٤+

جوال: ٩٦٦٥٠٥٤٦٥١٩٣+

العنوان البريدي: المملكة العربية السعودية ص.ب: ٢١١٧٠ الرياض:١١٤٧٥

إنَّ الوَفاء وبذل المعروف من العمل الصَّالح، وإنَّ الله لا يُضيع أجر من أحسن عملاً. أخي الحبيب، وإن كان لديك معلومات أو وثائق عن والدنا: الشيخ علي الحمد المحمَّد الصَّالحي رحمه الله، نرجو التكرم والتفضّل بالاتصال علينا على العنوان أعلاه. نسأل الله للجميع التَّوفيق والسَّداد؛ لما يحبُّه ويرضاه من الأقوال والأعمال، وأن يجعلَ لنا ولكم لسانَ صدق في الآخرين، والحمد لله ربِّ العالمين.

لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه أو نسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكّن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من المؤلف.

بسم الله الرحمن الرحيم

صف وتصميم وإخراج
دار القبس للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية ـ الرياض
شارع الأمير سطام بن عبدالعزيز
هاتف: ٢٦٨١٠٤٥ ـ فاكس: ٤٣٥١٣٩٥
جوال: ٠٠٩٦٦٥٥٢٢٩٣٩٣٨
darulqabas@yahoo.com

سُورَةُ المنَافِقُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤ ﴾.

[1] طبقة الزنادقة، وهم قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل، وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسله. وهؤلاء المنافقون، وهم في الدرك الأسفل من النار. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٥]. فالكفار المجاهرون بكفرهم أخف، وهم فوقهم في دركات النار. لأن الطائفتين اشتركتا في الكفر ومعاداة الله ورسله، وزاد المنافقون عليهم بالكذب والنفاق، وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين، ولهذا قال ـ تعالى ـ في حقهم: ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾ [المنافقون: ٤]. ومثل هذا اللفظ يقتضي الحصر، أي لا عدو إلا هم، ولكن لم يرد هاهنا حصر العداوة فيهم وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم، بل هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف، وأنه لا يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهرًا وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم، بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم في الدار، ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها، فإن ضرر هؤلاء المخالطين لهم المعاشرين لهم ـ وهم في الباطن على خلاف دينهم ـ أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم، لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أيامًا ثم ينقضي

(١) ٤٠٢ طريق الهجرتين.

ويعقبه النصر والظفر، وهؤلاء معهم في الديار والمنازل صباحًا ومساء، يدلون العدو على عوراتهم، ويتربصون بهم الدوائر، ولا يمكنهم مناجزتهم. فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر، فلهذا قيل: ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾ لا على معنى أنه لا عدو لكم سواهم، بل على معنى أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدوًا من الكفار المجاهرين.

ونظير ذلك قول النبي ﷺ: **«ليس المسكين الطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس ولا يفطن له فيتصدق عليه»**(١) فليس هذا نفيًا لاسم المسكين عن الطواف، بل إخبار بأن هذا القانع الذي لا يسمونه مسكينًا أحق بهذا الاسم من الطواف الذي يسمونه مسكينًا، ونظيره قوله ﷺ: **«ليس الشديد بالصرعة، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب»**(٢) ليس نفيًا للاسم عن الصرعة، ولكن إخبار بأن من يملك نفسه عند الغضب أحق منه بهذا الاسم. ونظيره قوله ﷺ: **«ما تعدون المفلس فيكم؟»** قالوا: من لا درهم له ولا متاع، قال: **«المفلس من يأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، ويأتي قد لطم هذا، وضرب هذا، وأخذ مال هذا، فيقتص هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من سيئاتهم، ثم طرح عليه، فألقي في النار»**(٣). ونظيره قوله ﷺ: **«ما تعدون الرقوب فيك؟»** قالوا: من لا يولد له. قال: **«الرقوب من لم يقدم من ولده شيئًا»**(٤). ومنه عندي قوله ﷺ: **«الربا في النسيئة»**، وفي لفظ: **«إنما الربا في النسيئة»**(٥). هو إثبات لأن هذا النوع هو أحق باسم الربا من ربا الفضل، وليس فيه نفي اسم الربا عن ربا

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٤٧٩) ومسلم (رقم ١٠٣٩) وانظر: فتح ا لباري (٤/ ١٨٥) وشرح النووي (٧/ ١٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦١١٤) ومسلم (رقم ٢٦٠٩) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥١٩).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٨١) وانظر: فتح الباري (٤/ ١٠٩) وشرح النووي (١٦/ ١٣٥-١٣٦).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٠٨) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٦٠) وشرح النووي (١٦/ ١٦١-١٦٢).

(٥) أخرجه مسلم (رقم ١٥٩٦) وانظر: فتح الباري (٤/ ٣٨١-٣٨٢) وشرح النووي (١١/ ٢٣-٢٤).

الفضل. فتأمله.

والمقصود أن هذه الطبقة أشقى الأشقياء، ولهذا يستهزأ بهم في الآخرة، وتعطى نورًا يتوسطون به على الصراط ثم يطفئ الله نورهم، ويقال لهم: ﴿ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾ [الحديد: ١٣] ويضرب بينهم وبين المؤمنين: ﴿ بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [الحديد: ١٣- ١٤] وهذا أشد ما يكون من الحسرة والبلاء أن يفتح للعبد طريق النجاة والفلاح، حتى إذا ظن أنه ناج ورأى منازل السعداء اقتطع عنهم وضربت عليه الشقوة، ونعوذ بالله من غضبه وعقابه، وإنما كانت هذه الطبقة في الدرك الأسفل لغلظ كفرهم، فإنهم خالطوا المسلمين وعاشروهم، وباشروا من أعلام الرسالة وشواهد الإيمان ما لم يباشره البعداء، ووصل إليهم من معرفته وصحته ما لم يصل إلى المنابذين بالعداوة، فإذا كفروا مع هذه المعرفة والعلم كانوا أغلظ كفرًا وأخبث قلوبًا، وأشد عداوة لله ولرسوله وللمؤمنين من البعداء عنهم، وإن كان البعداء متصدين لحرب المسلمين، ولهذا قال تعالى في المنافقين: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [المنافقون: ٣]، وقال ـ تعالى ـ فيهم: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٨]. وقال تعالى في الكفار: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [البقرة: ١٧١]. فالكافر لم يعقل. والمنافق أبصر، ثم عمي، وعرف ثم تجاهل، وأقر ثم أنكر، وآمن ثم كفر. ومن كان هكذا كان أشد كفرًا، وأخبث قلبًا، وأعتى على الله ورسله، استحق الدرك الأسفل...

(١)قال تعالى عن المنافقين: ﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ [المنافقون: ٤]. وقال: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴾ [مريم: ٧٤]، أي: أموالًا

---

(١) ١٨٥ الفوائد.

ومناظر. قال الحسن: هو الصور. وفي صحيح مسلم عنه ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلي قلوبكم وأعمالكم**»(١). قالوا: ومعلوم أنه لم ينف نظر الإدراك، وإنما نفى نظر المحبة. قالوا: وقد حرم علينا لباس الحرير والذهب وآنية الذهب والفضة، وذلك من أعظم جمال الدنيا. وقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١]. وفي الحديث: «**البذاذة من الإيمان**»(٢) وقد ذم الله المسرفين، والسرف، كما يكون في الطعام والشراب؛ يكون في اللباس.

وفصل النزاع: أن يقال: الجمال في الصورة واللباس والهيئة ثلاثة أنواع، منه ما يحمد، ومنه ما يذم، ومنه ما لا يتعلق به مدح ولا ذم. فالمحمود منه ما كان لله، وأعان على طاعة الله، وتنفيذ أوامره، والاستجابة له، كما كان النبي ﷺ، يتجمل للوفود؛ وهو نظير لباس آلة الحرب للقتال، ولباس الحرير في الحرب والخيلاء فيه، فإن ذلك محمود إذا تضمن إعلاء كلمة الله ونصر كلمة الله ونصر دينه وغيظ عدوه، والمذموم منه ما كان للدنيا والرياسة والفخر والخيلاء والتوسل إلى الشهوات وأن يكون هو غاية العبد، وأقصى مطلبه، فإن كثيرًا من النفوس لها همة في سوى ذلك. وأما مالا يحمد ولا يذم، هو ما خلا عن هذين القصدين، وتجرد عن الوصفين.

والمقصود أن هذا الحديث الشريف مشتمل على أصلين عظيمين: فأوله معرفة، وآخره سلوك، فيعرف الله ـ سبحانه ـ بالجمال لا يماثله فيه شيء، ويعبد بالجمال

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٦٤) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٧٣).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٤١٦١) وابن ماجه (رقم ٤١١٨) والشيباني في الآحاد والمثاني (٦/ ١٦٧ رقم ٣٣٩٦) والحميدي في مسنده (١/ ١٧٣ رقم ٣٥٧) والطبراني في الكبير (١/ ٢٧١ رقم ٧٨٨) والقضاعي في الشهاب (رقم ١٥٧) والبيهقي في الشعب (٥/ ١٥٥ رقم ٦١٧٣) وأحمد في الزهد (ص ٧) وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (رقم ١٢٨) وصححه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٠/ ٣٦٨).

الذي يحبه من الأقوال والأعمال والأخلاق، فيحب من عبده أن يجمل لسانه بالصدق، وقلبه بالإخلاص والإنابة والتوكل، وجوارحه بالطاعة، وبدنه بإظهار نعمه عليه في لباسه، وتطهيره له من الأنجاس والأحداث والأوساخ والشعور المكروهة والختان، وتقليم الأظفار، فيعرفه بصفات الجمال، ويتعرف إليه بالأفعال والأقوال والأخلاق الجميلة، فيعرفه بالجمال الذي هو وصفه، ويعبده بالجمال الذي هو شرعه ودينه، فجمع الحديث قاعدتين: المعرفة، والسلوك.

***

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

[(١)] في مرجعهم من هذه الغزوة[(٢)]: قال رأس المنافقين ابن أبيّ: ﴿ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ [المنافقون: ٨]. فبلغها زيد بن أرقم رسول الله ﷺ، وجاء ابن أبي يعتذر، ويحلف ما قال، فسكت عنه رسول الله ﷺ، فأنزل الله تصديق زيد في سورة المنافقون، فأخذ النبي ﷺ، بأذنه فقال: «أبشر، فقد صدقك الله»، ثم قال: «هذا الذي وفى الله بأذنه»، فقال له عمر: يا رسول الله، مر عباد بن بشر فليضرب عنقه. فقال: «فكيف إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟»[(٣)].

[(٤)] ...والعزة تتضمن القوة، ولله القوة جميعًا. يقال: عز يعز بفتح العين إذا اشتد وقوي، ومنه الأرض العزاز: الصلبة الشديدة، وعز يعز بكسر العين إذا امتنع ممن يرومه، وعز يعز بضم العين إذا غلب وقهر، فأعطوا أقوى الحركات ـ وهي الضمة ـ لأقوى المعاني وهو الغلبة والقهر للغير، وأضعفها وهي الفتحة لأضعف هذه المعاني، وهو كون الشيء

(١) ٢٨٨ زاد المعاد جـ٢.
(٢) هي غزوة المُرَيْسيع، وتسمى أيضًا غزوة بني المصطلق، وكانت في شعبان سنة خمس.
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٤٩٠٠-٤٩٠٥) ومسلم (رقم ٢٧٧٢) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٤٦-٦٤٩).
(٤) ١٠٨ طريق الهجرتين.

في نفسه صلبًا، ولا يلزم من ذلك أن يمتنع عمن يرومه، والحركة المتوسطة وهي الكسرة للمعنى المتوسط وهو القوي الممتنع عن غيره، ولا يلزم منه أن يقهر غيره ويغلبه، فاعطوا الأقوى للأقوى، والأضعف للأضعف، والمتوسط للمتوسط.

ولا ريب أن قهر المربوب عما يريده من أقوى أوصاف القادر، فإن قهره عن إرادته وجعله غير مريد كان أقوى أنواع القهر، والعز ضد الذل، والذل أصله الضعف والعجز، فالعز يقتضي كمال القدرة، ولهذا يوصف به المؤمن، ولا يكون ذمًا له بخلاف الكبر، قال رجل للحسن البصري: إنك متكبر. فقال: لست بمتكبر، ولكني عزيز.

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. وقال ابن مسعود: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر، وقال النبي ﷺ: **«اللهم أعز الإسلام بأحد هذين الرجلين: عمر بن الخطاب، أو أبي جهل بن هشام»**[١] وفي بعض الآثار: أن الناس يطلبون العزة في أبواب الملوك، ولا تجدونها إلا في طاعة الله ﷻ.

وفي الحديث: **«اللهم أعزنا بطاعتك، ولا تذلنا بمعصيتك»**، وقال بعضهم: من أراد عزًا بلا سلطان، وكثرة بلا عشيرة، وغنى بلا مال، فلينتقل من ذل المعصية إلى عز الطاعة. فالعزة من جنس القدرة والقوة. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير»**[٢].

***

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝﴾.

---

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٧/ ١٤٣ رقم ٢٥٧٦) والحاكم (٣/ ٨٩ رقم ٤٤٨٦) والترمذي (رقم ٣٦٨١) وقال: هذا حديث حسن صحيح. والطبراني في الأوسط (٢/ ٢٤٠ رقم ١٨٦٠) وفي الكبير (١٠/ ١٥٩ رقم ١٠٣١٤) وأحمد (٢/ ٩٥) والبزار (٦/ ٥٧ رقم ٢١١٩) وعبد بن حميد (رقم ٧٥٩) وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٦١-٦٢): رواه الطبراني في الكبير والأوسط بنحوه باختصار وقال: أيد الإسلام. ورجال الكبير رجال الصحيح غير مجالد بن سعيد وقد وُثِّق. وانظر: فتح الباري (٧/ ٤٨).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٦٤) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٢٢٧) وشرح النووي (١٦/ ٢١٥).

[1]السعيد الرابح من عامل الله فيهم ولم يعاملهم في الله، وخاف الله فيهم ولم يخفهم في الله، وأرضى الله بسخطهم، ولم يرضهم بسخط الله، وراقب الله فيهم ولم يراقبهم في الله، وآثر الله عليهم ولم يؤثرهم على الله، وأمات خوفهم ورجاءهم وحبهم من قلبه وأحيا حب الله خوفه ورجاءه فيه، فهذا هو الذي يكتب عليهم، وتكون معاملته لهم كلها ربحًا، بشرط أن يصبر على أذاهم ويتخذه مغنمًا لا مغرمًا وربحًا لا خسرانًا.

ومما يوضح الأمر أن الخلق لا يقدر أحد منهم أن يدفع عنك مضرة البتة إلا بإذن الله ومشيئته وقضائه وقدره، وفهو في الحقيقة الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧]، قال النبي ﷺ، لعبدالله بن عباس: **«واعلم أن الخليقة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك ولم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك»**[2]. وإذا كانت هذه حال الخليقة فتعليق الخوف والرجاء بهم ضار غير نافع، والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المنافقون

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٦٣ طريق الهجرتين.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥١٦) وأبو يعلى (٤/ ٤٣٠ رقم ٢٥٥٦) وأحمد (١/ ٣٠٣) وعبد بن حميد (رقم ٦٣٦) والبيهقي في الشعب (١/ ٢١٦ رقم ١٩٥) وهناد في الزهد (١/ ٣٠٤ رقم ٥٣٦) والحاكم (٣/ ٦٢٣ رقم ٦٣٠٣) والطبراني في الأوسط (٥/ ٣١٦ رقم ٥٤١٧) وفي الكبير (١١/ ١٢٣ رقم ١١٢٤٣) وقال الترمذي: هذا حديث حسنٌ صحيحٌ. وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٩٢).

سُورَةُ التَّغَابُنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾.

[(١)]الطمأنينة إلى أسماء الرب تعالى وصفاته نوعان: طمأنينة إلى الإيمان بها وإثباتها واعتقادها، وطمأنينة إلى ما تقضيه وتوجبه من آثار العبودية، مثاله الطمأنينة إلى القدر وإثباته، والإيمان به يقتضي الطمأنينة إلى مواضع الأقدار التي لم يؤمر العبد بدفعها ولا قدرة له على دفعها فيسلم لها، ويرضى بها، ولا يسخط، ولا يشكو، ولا يضطرب إيمانه، فلا يأسى على ما فاته، ولا يفرح بما آتاه، لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه وقبل أن يخلق، كما قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٢ - ٢٣] وقال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن: ١١] قال غير واحد من السلف: هو العبد تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم، فهذه طمأنينة إلى أحكام الصفات وموجباتها وآثارها في العالم، وهي قدر زائد على الطمأنينة بمجرد العلم بها واعتقادها، وكذلك سائر الصفات وآثارها ومتعلقاتها: كالسمع، والبصر، والعلم، والرضا، والغضب، والمحبة؛ فهذه طمأنينة الإيمان.

وأما طمأنينة الإحسان فهي الطمأنينة إلى أمره امتثالًا وإخلاصًا ونصحًا، فلا يقدم على أمره إرادة ولا هوى ولا تقليد، فلا يساكن شبهة تعارض خبره ولا شهوة تعارض أمره، بل إذا مرت به أنزلها منزلة الوساوس، التي لأن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يجدها، فهذا كما قال النبي ﷺ: «**صريح الإيمان**»[(٢)]. وعلامة هذه

(١) ٢٦٩ الروح.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٣٢) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٢٧٣-٢٧٤).

الطمأنينة أن يطمئن من قلق المعصية وانزعاجها إلى سكون التوبة، وحلاوتها وفرحتها، ويسهل عليه ذلك بأن يعلم أن اللذة والحلاوة والفرحة في الظفر بالتوبة وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاق الأمرين، وباشر قلبه آثارهما، فللتوبة طمأنينة تقابل ما في المعصية من الانزعاج والقلق، ولو فتش العاصي عن قلبه لوجد حشوه المخاوف والانزعاج والقلق والاضطراب، وإنما يواري عنه شهود ذلك سكر الغفلة والشهوة، فإن لكل شهوة سكرًا يزيد على سكر الخمر، وكذلك الغضب له سكر أعظم من سكر الشراب، ولهذا ترى العاشق والغضبان يفعل ما لا يفعله شارب الخمر. وكذلك يطمئن من قلق الغفلة والإعراض إلى سكون الإقبال على الله وحلاوة ذكره، وتعلق الروح بحبه ومعرفته؛ فلا طمأنينة للروح بدون هذا أبدًا، ولو أنصفت نفسها لرأتها إذا فقدت ذلك في غاية الانزعاج والقلق والاضطراب، ولكن يواريها السكر، فإذا كشف الغطاء تبين له حقيقة ما كان فيه.

***

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

[(١)]...حذر الله عباده من فتنة المال والأزواج، فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [المنافقون: ٩] وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن: ١٤] وليس المراد من هذه العداوة ما يفهمه كثير من الناس إنها عداوة البغضاء والمحادة، بل إنما هي عداوة المحبة الصادة للآباء عن الهجرة والجهاد وتعلم العلم والصدقة وغير ذلك من أمور الدين وأعمال البر، كما في جامع الترمذي من حديث إسرائيل حدثنا سماك عن عكرمة عن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

(١) ٦٥ عدة الصابرين.

ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ قال: هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة فأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله ﷺ، فلما أتوا رسول الله ورأوا الناس قد فقهوا في الدين هموا أن يعاقبوهم، فأنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ الآية قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده. وفي الحديث: «**الولد مبخلة مجبنة**»(١) وقال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب قال: حدثني زيد بن واقد قال: حدثني عبدالله بن بريدة قال سمعت أبي يقول: كان رسول الله ﷺ يخطبنا فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران بمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال: «**صدق الله** ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التعابن: ١٥] **نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما**». وهذا من كمال رحمته ﷺ ولطفه بالصغار وشفقته عليهم، وهو تعليم منه للأمة: الرحمة، والشفقة، واللطف بالصغار.

***

﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾.

(٢)... تطلق الفتنة على أعم من ذلك، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن: ١٥] قال مقاتل: «أي بلاء، وشغل عن الآخرة. قال ابن عباس: فلا تطيعوهم في معصية الله تعالى». وقال الزجاج: أعلمهم الله ﷻ أن الأموال والأولاد مما يفتنون به.

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ١٧٩ رقم ٤٧٧١) وابن ماجه (رقم ٣٦٦٦) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٠٢ رقم ٢٠٦٥٢) وابن أبي شيبة (٦/ ٣٧٨ رقم ٣٢١٨٠) وعبدالرزاق (١١/ ١٤٠ رقم ٢٠١٤٣) والطبراني في الكبير (١/ ٢٣٦ رقم ٦٤٧) وأبو يعلى (٢/ ٣٠٥ رقم ١٠٣٢) وأحمد (٤/ ١٧٢) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٤٩ رقم ٢٥) وقال الكناني في مصباح الزجاجة (٤/ ٩٩): هذا إسناد صحيح.

(٢) ١٦٠ إغاثة.

وهذا عام في جميع الأولاد، فإن الإنسان مفتون بولده. لأنه ربما عصى الله تعالى بسببه، وتناول الحرام لأجله، ووقع في العظائم، إلا من عصمه الله تعالى.

ويشهد لهذا ما روي أن النبي ﷺ «كان يخطب، فجاء الحسن والحسين - رضي الله عنهما - وعليهما قميصان أحمران يعثران، فنزل النبي ﷺ إليهما فأخذهما، فوضعهما في حجره على المنبر، وقال: «صدق الله[1] ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن: ١٥] رأيت هذين الصبيين، فلم أصبر عنهما». وقال ابن مسعود ﷺ: «لا يقولن أحدكم: اللهم إني أعوذ بك من الفتنة، فإنه ليس منكم أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، لأن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن: ١٥] فأيكم استعاذ فليستعذ بالله تعالى من مضلات الفتن»[2].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة التغابن

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

---

(١) تقدم في تفسير سورة الجمعة نقلًا عن زاد المعاد بلفظ: «صدق الله العظيم». (ج).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ٢٢٤) وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٨٥ رقم ٨٩٨٤).

سُورَةُ الطَّلَاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾.

(١)قال الربيع بن خثيم: يجعل له مخرجًا من كل ما ضاق على الناس. وقال أبو العالية: مخرجًا من كل شدة. وهذا جامع لشدائد الدنيا والآخرة، ومضايق الدنيا والآخرة، فإن الله يجعل للمتقي من كل ما ضاق على الناس واشتد عليهم في الدنيا والآخرة مخرجًا. وقال الحسن: مخرجًا مما نهاه عنه ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣] أي كافي من يثق به في نوائبه ومهماته. يكفيه كل ما أهمه. و«الحسب» الكافي ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾ [التوبة: ٥٩] كافينا الله. وكلما كان العبد حسن الظن بالله، حسن الرجاء له، صادق التوكل عليه، فإن الله لا يخيب أمله فيه البتة. فإنه سبحانه لا يخيب أمل آمل، ولا يضيع عمل عامل. وعبر عن الثقة وحسن الظن بالسعة. فإنه لا أشرح للصدر، ولا أوسع له ـ بعد الإيمان ـ من ثقته بالله ورجائه له وحسن ظنه به.

(٢)... فإن قلت: فما معنى التوكل والاستعانة؟

قلت: هو حال للقلب بنشأ عن معرفته بالله، والإيمان بتفرده بالخلق، والتدبير والضر والنفع، والعطاء والمنع، وأنه ما شاء كان، وإن لم يشأ الناس. وما لم يشأ لم يكن، وإن شاءه

---

(١) ٤٧١ مدارج جـ١.

(٢) ٨٢ مدارج جـ١.

الناس. فيوجب له هذا اعتمادًا عليه، وتفويضًا إليه، وطمأنينة به، وثقة به، ويقينا بكفايته لما توكل عليه فيه، وأنه ملي به، ولا يكون إلا بمشيئته. شاءه الناس أم أبوه.

فتشبه حالته حال الطفل مع أبويه فيما ينوبه من رغبة ورهبة هما مليان بهما. فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه. وحبس همه على إنزال ما ينوبه بهما. فهذه حال المتوكل. ومن كان هكذا مع الله، فالله كافيه ولا بد. قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣] أي كافيه. و«الحسب» الكافي. فإن كان ـ مع هذا ـ من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة، وإن لم يكن من أهل التقوى فهو القسم الرابع...

[١] قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣] فأخبر الله ﷻ أنه إذا اتقاه بترك أخذ ما لا يحل له؛ رزقه [الله] من حيث لا يحتسب، وكذلك الزاني لو ترك ركوب ذلك الفرج حرامًا [لله] لأثابه الله بركوبه أو ركوب ما هو خير منه حلالًا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، حدثنا عبدالرحمن بن إسحاق، عن محارب بن دثار، عن صلة، عن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«النظرة إلى المرأة سهم من سهام إبليس مسموم، من تركه خوف الله أثابه الله إيمانًا يجد حلاوته في قلبه»**[٢]. وقال عمر بن شبة: حدثنا أحمد بن عبدالله بن يونس، حدثنا عنبسة ابن عبدالرحمن، حدثنا أبو الحسن المدني، عن علي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«نظر الرجل في محاسن المرأة سهم من سهام إبليس مسموم؛ فمن أعرض عن ذلك السهم أعقبه الله عبادة تسره»**.

---

(١) ٤٧٦ روضة المحبين.

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٤٩ رقم ٧٨٧٥) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٧٣ رقم ١٠٣٦٢) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ١٩٥ رقم ٢٩٢) والديلمي في مسند الفردوس (٤/ ٢٩٧ رقم ٦٨٧٢) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٣/ ١٨١) وهناد في الزهد (٢/ ٦٥١ رقم ١٤٢٥) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١٠١) وانظر: فيض القدير (١/ ١٣٣).

[(١)]...قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده، فقال: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣] ولم يقل: نؤته كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد علىٰ الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن؛ لجعل له مخرجًا من ذلك، وكفاه، ونصره. وقد ذكرنا حقيقة التوكل وفوائده وعظم منفعته وشدة حاجة العبد إليه في (كتاب الفتح القدسي) وذكرنا هناك فساد من جعله من المقامات المعلولة وأنه من مقامات العوام، وأبطلنا قوله من وجوه كثيرة، وبينا أنه من أجل مقامات العارفين، وأنه كلما علا مقام العبد كانت حاجته إلىٰ التوكل أعظم وأشد، وأنه علىٰ قدر إيمان العبد يكون توكله. وإنما المقصود هنا ذكر الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر والباغي.

السبب الخامس: فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له، فلا يلتفت إليه، ولا يخافه، ولا يملأ قلبه بالفكر فيه. وهذا من أنفع الأدوية وأقوىٰ الأسباب المعينة علىٰ اندفاع شره؛ فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه، فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه، بل انعزل عنه لم يقدر عليه، فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر، وهكذا الأرواح سواء، فإذا علق روحه وشبثها به وروح الحاسد الباغي متعلقة به يقظة ومنامًا لا يفتر عنه، وهو يتمنىٰ أن يتماسك الروحان ويتشبثا، فإذا تعلقت كل روح منهما بالأخرىٰ عدم القرار ودام الشر حتىٰ يهلك أحدهما، فإذا جبذ روحه عنه، وصانها عن الفكر فيه والتعلق به، وأن لا يخطره بباله، فإذا خطر بباله بادر إلىٰ محو ذلك الخاطر والاشتغال بما هو أنفع له وأولىٰ به بقي الحاسد الباغي يأكل بعضه بعضًا، فإن الحسد كالنار، فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضًا، وهذا باب عظيم النفع لا يلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفة

(١) ٢٤٠ بدائع جـ٢.

والهمم العلية. وبين الكيس الفطن وبينه حتى يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه، كأنه يرى من أعظم عذاب القلب والروح اشتغاله بعدوه وتعلق الدنيا بالشهوات واللذات، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤] فأخبر أنه ييسر على المتقي ما لا ييسر على غيره، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣] وهذا أيضًا ييسر عليه بتقواه. وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ [الطلاق: ٥] وهذا يتيسر عليه بإزالة ما يخشاه، وإعطائه ما يحبه ويرضاه.

(١)...وأخبر أن كفايته لهم مقرونة بتوكلهم عليه، وأنه كاف من توكل عليه وحسبه. وجعل لكل عمل من أعمال البر، ومقام من مقاماته جزاء معلومًا وجعل نفسه جزاء المتوكل عليه وكفايته. فقال: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق: ٢]: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ ﴾ [الطلاق: ٥]، ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤]: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [النساء: ٦٩] ثم قال في التوكل: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣].

فانظر إلى هذا الجزاء الذي حصل للمتوكل، ولم يجعله لغيره، وهذا يدل على أن التوكل أقوى السبل عنده وأحبها إليه. وليس كونه وكل الأمور إلى نفسه بمناف لتوكل العبد عليه. بل هذا تحقيق كون الأمور كلها موكولة إلى نفسه. لأن العبد إذا علم ذلك وتحققه معرفة: صارت حالة التوكل قطعًا على من هذا شأنه، لعلمه بأن الأمور كلها وموكولة إليه، وأن العبد لا يملك شيئًا منها. فهو لا يجد بدًا من اعتماده عليه، تفويضه إليه، وثقته به من الوجهين: من جهة فقره، وعدم ملكه شيئًا البتة. ومن جهة كون الأمر كله بيده وإليه، والتوكل ينشأ من هذين العلمين.

فإن قيل: فإذا كان الأمر كله لله، وليس للعبد من الأمر شيء، فكيف يوكل المالك

---

(١) ١٢٨ مدارج جـ٢.

على ملكه؟ وكيف يستثنيه فيما هو ملك له، دون هذا الموكل؟ فالخاصة لما تحققوا هذا نزلوا عن مقام التوكل وسلموه إلى العامة. وبقي الخطاب بالتوكل لهم دون الخاصة.

قيل: لما كان الأمر كله لله ﷻ وليس للعبد فيه شيء البتة. كان توكله على الله تسليم الأمر إلى من هو له، وعزل نفسه من منازعات مالكه، واعتماده عليه فيه، وخروجه عن تصرفه بنفسه، وحوله وقوته، وكونه به، إلى تصرفه بربه، وكونه به سبحانه دون نفسه. وهذا مقصود التوكل.

وأما عزل العبد نفسه عن مقام التوكل: فهو عزل لها عن حقيقة العبودية.

وأما توجه الخطاب به إلى العامة: فسبحان الله! هل خاطب الله بالتوكل في كتابه إلا خواص خلقه، وأقربهم إليه، وأكرمهم عليه؟ وشرط في إيمانهم أن يكونوا متوكلين، والمعلق على الشرط يعدم عند عدمه.

وهذا يدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل، فمن لا توكل له: لا إيمان له، قال الله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣] وقال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [إبراهيم: ١١] وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ﴾ [الأنفال: ٢] وهذا يدل على انحصار المؤمنين فيمن كان بهذه الصفة. وأخبر تعالى عن رسله بأن التوكل ملجأهم ومعاذهم. وأمر به رسوله في أربعة مواضع من كتابه. وقال: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝٨٤ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [يونس: ٨٤- ٨٥] فكيف يكون من أوهى السبل، وهذا شأنه؟ والله ﷻ أعلم.

(١) والفرق بين التوكل والعجز: أن التوكل عمل القلب وعبوديته اعتمادًا على الله، وثقة به، والتجاء إليه، وتفويضًا إليه، ورضا بما يقضيه له لعلمه بفكايته سبحانه وحسن اختياره لعبده إذا فوض إليه مع قيامه بالأسباب المأمور بها واجتهاده في تحصيلها، فقد

---

(١) ٣١٠ الروح.

كان رسول الله ﷺ أعظم المتوكلين، وكان يلبس لأمته ودرعه، بل ظاهر يوم أحد بين درعين، واختفى في الغار ثلاثة فكان متوكلًا في السبب، لا على السبب.

وأما العجز فهو تعطيل الأمرين أو أحدهما: فإما أن يعطل السبب عجزًا منه، ويزعم أن ذلك توكل ولعمر الله أنه لعجز وتفريط، وإما أن يقوم بالسبب ناظرًا إليه معتمدًا عليه غافلًا عن المسبب معرضًا عنه، وإن خطر بباله لم يثبت معه ذلك الخاطر، ولم يعلق قلبه به تعلقًا تامًا بحيث يكون قلبه مع الله وبدنه مع السبب فهذا توكله عجز وعجزه توكل.

وهذا موضع انقسم فيه الناس طرفين ووسطًا (فأحد الطرفين) عطل الأسباب محافظة على التوكل (والثاني) عطل التوكل محافظة على السبب (والوسط) علم أن حقيقة التوكل لا يتم إلا بالقيام بالسبب، فتوكل على الله في نفس السبب، وأما من عطل السبب وزعم أنه متوكل فهو مغرور ومخدوع متمن كمن عطل النكاح والتسرى وتوكل في حصول الولد، وعطل الحرث والبذور وتوكل في حصول الزرع وعطل الأكل والشرب وتوكل في حصول الشبع والري، فالتوكل نظير الرجاء، والعجز نظير التمني، فحقيقة التوكل أن يتخذ العبد ربه وكيلًا له قد فوض إليه كما يفوض الموكل إلى وكيله العالم بكفايته ونهضته ونصحه وأمانته وخبرته وحسن اختياره. والرب ـ سبحانه ـ قد أمر عبده بالاحتيال، وتوكل له أن يستخرج له من حيلته ما يصلحه، فأمره أن يحرث ويبذر ويسعى ويطلب رزقه في ضمان ذلك، كما قدره ـ سبحانه ـ ودبره واقتضته حكمته، وأمره أن لا يعلق قلبه بغيره، بل يجعل رجاءه له وخوفه منه وثقته به وتوكله عليه، وأخبره أنه ـ سبحانه ـ الملي بالوكالة الوفي بالكفالة. فالعاجز من رمى هذا كله وراء ظهره، وقعد كسلان، طالبًا للراحة مؤثرًا للدعة، يقول: الرزق يطلب صاحبه كما يطلبه أجله، وسيأتيني ما قدر لي على ضعفي، ولن أنال ما لم يقدر لي مع قوتي، ولو أني هربت من رزقي كما أهرب من الموت للحقني، فيقال له: نعم هذا كله حق، وقد علمت أن الرزق مقدر، فما يدريك كيف قدر لك، بسعيك أم يسعي غيرك، وإذا كان بسعيك فبأي سبب ومن أي وجه، وإذا خفي عليك هذا كله، فمن أين

علمت أنه يقدر لك إتيانه عفوًا بلا سعي ولا كد، فكم من شيء سعيت فيه فقدر لغيرك، وكم من شيء سعى فيه غيرك فقدر لك رزقًا! فإذا رأيت هذا عيانًا فكيف علمت أن رزقك كله بسعي غيرك؟ وأيضًا فهذا الذي أوردته عليك النفس يجب عليك طرده في جميع الأسباب مع مسبباتها حتى في أسباب دخول الجنة والنجاة من النار، فهل تعطلها اعتمادًا على التوكل أم تقوم بها مع التوكل؟ بلى لن تخلو الأرض من متوكل: صبر نفسه لله، وملأ قلبه من الثقة به ورجائه وحسن الظن به، فضاق قلبه مع ذلك عن مباشرة بعض الأسباب فسكن قلبه إلى الله، واطمأن إليه، ووثق به، وكان هذا من أقوى أسباب حصول رزقه، فلم يعطل السبب، وإنما رغب عن سبب إلى سبب أقوى منه فكان توكله أوثق الأسباب عنده، فكان اشتغال قلبه بالله وسكونه إليه، وتضرعه إليه أحب إليه من اشتغاله بسبب يمنعه من ذلك أو من كماله، فلم يتسع قلبه للأمرين، فأعرض عن أحدهما إلى الآخر، ولا ريب أن هذا أكمل حالًا ممن امتلأ قلبه بالسبب واشتغل به عن ربه، وأكمل منهما من جمع الأمرين، وهي حال الرسل والصحابة، فقد كان زكريا نجارًا، وقد أمر الله نوحًا أن يصنع السفينة، ولم يكن في الصحابة من يعطل السبب اعتمادًا على التوكل، بل كانوا أقوم الناس بالأمرين. ألا ترى أنهم بذلوا جهدهم في محاربة أعداء الدين بأيديهم وألسنتهم؟ وقاموا في ذلك بحقيقة التوكل وعمروا أموالهم وأصلحوها وأعدوا لأهليهم كفايتهم من القوت اقتداء بسيد المتوكلين ـ صلوات الله وسلامه عليه وآله ـ.

***

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝٤﴾.

[1] عدة الآيسة والتي لم تحض فقد بينها سبحانه في كتابه، فقال: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ

(١) ٣٩٩ زاد المعاد جـ٤.

ﭐلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ [الطلاق: ٤] وقد اضطرب الناس في حد الإياس اضطرابًا شديدًا: فمنهم من حده بخمسين سنة. وقال: لا تحيض المرأة بعد الخمسين. وهذا قول إسحاق، ورواية عن أحمد. واحتج أرباب هذا القول بقول عائشة: «إذا بلغت خمسين خرجت من حد الحيض» وحده طائفة بستين سنة. وقالوا: لا تحيض بعد الستين. وهذه رواية ثانية عن أحمد.وعنه رواية ثالثة: الفرق بين نساء العرب وغيرهم. فحده ستون في نساء العرب،وخمسون في نساء العجم، وعنه رواية رابعة: أن ما بين الخمسين والستين دم مشكوك فيه. تصوم وتصلي، وتقضي الصوم المفروض. هذا اختيار الخرقي. وعنه رواية خامسة: أن الدم إن عاد بعد الخمسين وتكرر فهو حيض، وإلا فلا. وأما الشافعي: فلا نص له في تقدير الإياس بمدة. وله قولان بعد.

أحدهما: أنه يعرف بإياس أقاربها.

والثاني: أنه يعتبر بإياس جميع النساء، فعلى القول الأول: هل المعتبر جميع أقاربها، أو نساء عصباتها، أو نساء بلدها خاصة؟ فيه ثلاثة أوجه، ثم إذا قيل: يعتبر بالأقارب: فاختلفت عادتهن: هل يعتبر بأقلهن عادة منهن، أو بأكثرهن، أو بأقصر امرأة في العالم عادة؟ على ثلاثة أوجه، والقول الثاني للشافعي: أن المعتبر جميع النساء، ثم اختلف أصحابه: هل لذلك حد أم لا؟ على وجهين:

أحدهما: ليس له حد. وهو ظاهر نصه.والثاني له حد. ثم اختلفوا فيه على وجهين. **أحدهما**: أنه ستون سنة، قاله أبو العباس بن القاص، والشيخ أبو حامد.

والثاني: اثنان وستون. قاله الشيخ أبو إسحاق في المهذب، وابن الصباغ في الشامل. وأما أصحاب مالك: فلم يحدوا سن اليأس بحد البتة.

وقال آخرون ـ منهم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ: اليأس مختلف باختلاف النساء، وليس له حد يتفق عليه في النساء. والمراد بالآية: أن إياس كل امرأة من نفسها، لأن اليأس ضد الرجاء. فإذا كانت المرأة قد يئست من الحيض ولم ترجه: فهي آيسة، وإن كان لها أربعون، أو نحوها، وغيرها: لا تيأس منه، وإن كان لها خمسون. وقد ذكر الزبير

ابن بكار: أن بعضهم قال: لا تلد لخمسين سنة إلا عربية، ولا تلد لستين سنة إلا قرشية،وقال: «إن هند بنت أبي عبيدة بن عبيد الله بن ربيعة ولدت موسى بن عبدالله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب ولها ستون سنة» وقد صح عن عمر بن الخطاب في امرأة طلقت فحاضت حيضة أو حيضتين، ثم ارتفع حيضها: لا تدري ما رفعه «أنها تتربص تسعة أشهر، فإن استبان بها حمل، وإلا اعتدت ثلاثة أشهر» وقد وافقه الأكثرون على هذا، منهم مالك، وأحمد، والشافعي، في القديم. قالوا: تتربص غالب مدة الحمل، ثم تعتد عدة الآيسة، ثم تحل للأزواج، ولو كانت بنت ثلاثين سنة أو أربعين. وهذا يقتضي أن عند عمر بن الخطاب، ومن وافقه من السلف والخلف تكون المرأة عندهم آيسة قبل الخمسين، وقبل الأربعين. وأن اليأس عندهم ليس وقتًا محدودًا للنساء. بل مثل هذه تكون آيسة، وإن كانت بنت ثلاثين، وغيرها لا تكون آيسة، وإن بلغت الخمسين، وإذا كانوا فيمن ارتفع حيضها ـ ولا تدري ما رفعه ـ جعلوها آيسة بعد تسعة أشهر، فالتي تدري ما رفعه ـ إما بدواء يعلم أنه لا يعود معه، وإما بعادة مستقرة لها من أهلها وأقاربها ـ أولى أن تكون آيسة، وإن لم تبلغ الخمسين. وهذا بخلاف ما إذا ارتفع لمرض، أو رضاع، أو حمل، فإن هذه ليست آيسة. فإن ذلك يزول.

فالمراتب ثلاث. أحدها: أن ترتفع ليأس معلوم متيقن، بأن تنقطع عامًا بعد عام، ويتكرر انقطاعه أعوامًا متتابعة. ثم يطلق بعد ذلك. فهذه تتربص ثلاثة أشهر بنص القرآن، سواء كانت بنت أربعين، أو أقل أو أكثر. وهي أولى بالتربص بثلاثة أشهر من التي حكم فيها الصحابة والجمهور بتربصها تسعة أشهر، ثم ثلاثة. فإن تلك كانت تحيض وطلقت وهي حائض، ثم ارتفع حيضها بعد طلاقها، لا تدري ما رفعه؟ فإذا حكم فيها بحكم الآيسات بعد انقضاء غالب مدة الحمل، فكيف بهذه؟ ولهذا قال القاضي إسماعيل في أحكام القرآن: إذا كان الله سبحانه قد ذكر اليأس مع الريبة، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق: ٤] ثم جاء عن عمر بن الخطاب لفظ موافق لظاهر القرآن، لأنه قال: «أيما امرأة طلقت،

فحاضت حيضة أو حيضتين، ثم ارتفعت حيضتها، لا تدري ما رفعها، فإنها تنتظر تسعة أشهر، ثم تعتد ثلاثة أشهر»[١] فلما كانت لا تدري ما الذي رفع الحيضة: كانت موضع الارتياب، فحكم فيها بهذا الحكم. وكان اتباع ذلك ألزم وأولى من قول من يقول: إن الرجل يطلق امرأته تطليقة أو تطليقتين، فيرتفع حيضها وهي شابة: أنها تبقى ثلاثين سنة معتدة. وإن جاءت بولد لأكثر من سنتين: لم يلزمه. فخالف ما كان من إجماع المسلمين الذين مضوا، لأنهم كانوا مجمعين على أن الولد يلحق بالأب ما دامت المرأة في عدتها. فكيف يجوز أن يقول قائل: إن الرجل يطلق امرأته تطليقة أو تطليقتين، ويكون بينها وبين زوجها أحكام الزوجات ما دامت في عدتها، من الموارثة وغيرها، فإن جاءت بولد لم يلحقه؟ وظاهر عدة الطلاق: أنها جعلت من الدخول الذي يكون منه الولد. فكيف تكون المرأة معتدة والولد لا يلزم؟

قلت: هذا إلزام منه لأبي حنيفة، فإن عنده أقصر مدة الحمل سنتان، والمرتابة في أثناء عدتها لا تزال في عدة حتى تبلغ سن اليأس، فتعتد به، وهو يلزم الشافعي في قوله الجديد سواء، إلا أن مدة الحمل عنده أربع سنين. فإذا جاءت به بعدها لم يلحقه، وهي في عدتها منه، قال القاضي إسماعيل: واليأس يكون بعضه أكثر من بعض، وكذلك القنوط، وكذلك الرجاء، وكذلك الظن، ومثل هذا يتسع الكلام فيه، فإذا قيل: منه شيء أنزل على قدر ما يظهر من المعنى فيه، فمن ذلك أن الإنسان يقول: قد يئست من مريضي، إذا كان الأغلب عنده: أنه لا يبرأ، ويئست من غائبي إذا كان الأغلب عنده: أنه لا يقدم، ولو قال: إذا مات غائبه، أو مات مريضه، قد يئست منه: لكان الكلام عند الناس على غير وجهه، إلا أن يتبين معنى ما قصد له في كلامه، مثل أن يقول: كنت وجلًا في مرضه، مخافة أن يموت، فلما مات وقع اليأس، فينصرف

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٧/ ٤١٩ رقم ١٥١٨٩) والشافعي في المسند (ص٢٩٨) وفي الأم (٥/ ٢١٣) ومالك (٢/ ٥٨٢ رقم ١٢١٢) وانظر: الاستذكار (٦/ ١٧٤) والمحلى (١٠/ ٢٧٠) والمدونة الكبرى (٤/ ١٥٨).

الكلام على هذا وما أشبهه، إلا أن أكثر ما يلفظ باليأس: إنما يكون فيما هو الأغلب عند اليأس أنه لا يكون. وليس واحدًا من اليأس. والطامع يعلم يقينًا أن ذلك الشيء يكون، أو لا يكون، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ﴾ [النور: ٦٠] والرجاء ضد اليأس، والقاعدة من النساء: قد يمكن أن تتزوج. غير أن الأغلب عند اليأس فيها: أن الأزواج يرغبون عنها، وقال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ ﴾ [الشورى: ٢٨] والقنوط: شبه اليأس، وليسوا يعلمون يقينًا أن المطر لا يكون، ولكن اليأس داخلهم حين تطاول إبطاؤه، وقال الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [يوسف: ١١٠] فلما ذكر أن الرسل هم الذين استيأسوا كان فيه دليل على أنهم قد دخل قلوبهم يأس من غير يقين استيقنوه، لأن اليقين في ذلك إنما يأتيهم من عند الله، كما قال في قصة نوح: ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [هود: ٣٦] وقال الله تعالى في قصة إخوة يوسف: ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ﴾ [يوسف: ٨٠] فدل الظاهر على أن يأسهم ليس بيقين، وقد حدثنا ابن أبي أويس، حدثنا مالك عن هشام بن عمروة عن أبيه، أن عمر بن الخطاب كان يقول في خطبته يعلمهم: «أيها الناس، إن الطمع فقر، وإن اليأس غنى، وإن المرء إذا يئس من شيء استغنى عنه»(١) فجعل عمر اليأس بإزاء الطمع، وسمعت أحمد بن المعدل ينشد شعرًا لرجل من القدماء يصف ناقة:

صفراء من تلد بني العباس ... ضرتها كالظبي في الكناس
تدر أم تسمع الإياس ... فالنفس بين طمع وياس

فجعل الطمع بإزاء اليأس، حدثنا سليمان بن حرب حدثنا جرير بن حازم عن

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (ص ١١٧) وابن المبارك في الزهد (رقم ٦٣١) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٥٠) وابن عساكر في تاريخه (٤٤/ ٣٥٧) وعمر بن شبة في أخبار المدينة (١/ ٤٠٧ رقم ١٣٠٣).

الأعمش عن سلام عن شرحبيل، قال: سمع حية بن خالد وسواء بن خالد: أنهما أتيا النبي ﷺ فقالا: علمنا شيئًا، ثم قال: «**لا تيأسا من الخير ما تهزهرت رءوسكما، فإن كل عبد يولد أحمر ليس عليه قشرة، ثم يرزقه الله ويعطيه**»[1] وحدثنا علي بن عبدالله حدثنا ابن عيينة قال: قال هشام بن عبد الملك لأبي حازم: «يا أبا حازم، مالك؟ قال: خير مالي ثقتي بالله، ويأسي مما في أيدي الناس»[2] قال: وهذا أكثر من أن يحصى، انتهى.

قال شيخنا: وليس للنساء في ذلك عادة مستمرة، بل فيهن من لا تحيض وإن بلغت، وفيهن من تحيض حيضًا يسيرًا بتباعد ما بين أقرائها، حتى تحيض في السنة مرة، ولهذا اتفق العلماء على أن أكثر الطهر ـ بين الحيضتين ـ لا حد له، وغالب النساء يحضن كل شهر مرة، ويحضن ربع الشهر، ويكون طهرهن ثلاثة أرباعه، ومنهن من تطهر الشهور المتعددة لقلة رطوبتها، ومنهن من يسرع إليها الجفاف فينقطع حيضها وتيأس منه، وإن كان لها دون الخمسين، بل والأربعين، ومنهن من لا يسرع إليها الجفاف، فتجاوز الخمسين وهي تحيض، قال: وليس في الكتاب ولا السنة تحديد اليأس بوقت، ولو كان المراد بالآيسة من المحيض من لها خمسون سنة، أو ستون سنة، أو غير ذلك لقيل: واللائي يبلغن من السن كذا وكذا، ولم يقل: «يئسن» وأيضًا: فقد ثبت عن الصحابة أنهم جعلوا من ارتفع حيضها قبل ذلك يائسة كما تقدم، والوجود مختلف في وقت يأسهن، غير متفق. وأيضًا: فإنه سبحانه قال: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ﴾ [الطلاق: ٤] ولو كان له وقت محدود لكانت المرأة وغيرها سواء في معرفة يأسهن، وهو ـ سبحانه ـ قد خص النساء بأنهن اللاتي يئسن كما خصهن بقوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَ﴾ [الطلاق: ٤] فالتي تحيض هي التي تيأس: وهذا بخلاف الارتياب، فإنه سبحانه قال: ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ [الطلاق: ٤] ولم يقل: إن ارتبتن، أي إن ارتبتم في حكمهن

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٦/ ٣٣).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٢/ ١٠٦ رقم ١٣٠٠) والفسوي في المعرفة والتاريخ (١/ ٣٨١).

وشككتم فيه. فهو هذا. هذا هو الذي عليه جماعة أهل التفسير، كما روى ابن أبي حاتم في تفسيره من حديث جرير وموسى بن أعين ـ واللفظ له ـ عن مطرف بن طريف عن عمر بن سالم عن أبي بن كعب قال: «قلت: يا رسول الله إن ناسًا بالمدينة يقولون في عدد النساء ما لم يذكر الله في القرآن: الصغار والكبار وأولات الأحمال، فأنزل الله سبحانه في هذه السورة: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾(١) [الطلاق: ٤] فأجل إحداهن أن تضع حملها، فإذا وضعت فقد قضت عدتها، ولفظ جرير «قلت: يا رسول الله، إن ناسًا من أهل المدينة لما نزلت هذه الآية التي في البقرة في عدة النساء، قالوا: لقد بقي من عدد النساء عدد لم يذكرن في القرآن: الصغار والكبار واللاتي انقطع عنهن الحيض، وذوات الحمل، قال: فأنزلت التي في النساء القصرى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ ثم روي عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ يعني «الآيسة العجوز التي لا تحيض، أو المرأة التي قعدت عن الحيضة، فليست هذه من القروء في شيء» وفي قوله: ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ في الآية، يعني «أن شككتم فعدتهن ثلاثة أشهر» وعن مجاهد ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ «لم تعلموا عدة التي قعدت عن الحيض، أو التي لم تحض فعدتهن ثلاثة أشهر، فقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ يعني إن سألتم عن حكمهن، ولم تعلموا حكمهن وشككتم فيه: فقد بيناه لكم، فهو بيان لنعمته على من طلب ذلك، ليزول ما عنده من الشك والريب، بخلاف المعرض عن طلب العلم.

وأيضًا: فإن النساء لا يستوين في ابتداء الحيض، بل منهن من تحيض لعشر، أو اثنتي عشرة، أو خمس عشرة، أو أكثر من ذلك، فلذلك لا يستوين في آخر سن الحيض

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٨/ ١٤١) والحاكم (٢/ ٥٣٤ رقم ٣٨٢١) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٤٢٠ رقم ١٥١٩٣) وابن أبي شيبة (٣/ ٥٥٤ رقم ١٧١٠٤).

الذي هو سن اليأس، والوجود شاهد بذلك. وأيضًا فإنهم تنازعوا فيمن بلغت ولن تحض: هل تعتد بثلاثة أشهر، أو بالحول، كالتي ارتفع حيضها. ولا تدري ما رفعه؟ وفيه روايتان عن أحمد.

قلت: والجمهور على أنها تعتد بثلاثة أشهر، ولم يجعلوا للصغر الموجب للاعتداد بها حدًا، فكذلك يجب أن لا يكون للكبر الموجب للاعتداد بالشهور حدًا، وهو ظاهر. ولله الحمد.

وأما عدة الوفاة: فتجب بالموت سواء دخل بها أو لم يدخل اتفاقًا: كما دل عليه عموم القرآن والسنة. واتفقوا على أنهما يتوارثان قبل الدخول، وعلى أن الصداق يستقر إذا كان مسمى؛ لأن الموت لما كان انتهاء للعقد وانقضاء له. استقرت به الأحكام، فتوارثا، واستقر المهر، ووجبت العدة.

واختلفوا في مسألتين: إحداهما: وجوب مهر المثل، إذا لم يكن المهر مسمى. فأوجبه أحمد وأبو حنيفة والشافعي في أحد قوليه. ولم يوجبه مالك والشافعي في القول الآخر. وقضى بوجوبه رسول الله ﷺ. كما جاء في السنة الصحيحة الصريحة من حديث بروع بنت واشق، وقد تقدم. ولو لم ترد به السنة لكان هو محض القياس. لأن الموت أجرى مجرى الدخول في تقرير المسمى. ووجوب العدة. والمسألة الثانية: هل يثبت تحريم الربيبة بموت الأم، كما ثبت بالدخول بها؟ وفيه قولان للصحابة. وهما روايتان عن أحمد.

والمقصود: أن العدة فيه ليست للعلم ببراءة الرحم؛ فإنها تجب قبل الدخول، بخلاف عدة الطلاق. وقد اضطرب الناس في حكمة عدة الوفاة وغيرها: فقيل: هي لبراءة الرحم. وأورد على هذا القول وجوه كثيرة. منها: وجوبها قبل الدخول في الوفاة. ومنها: أنها ثلاثة قروء، وبراءة الرحم يكفي فيها حيضة، كما في المستبرأة. ومنها: وجوب ثلاثة أشهر في حق من يقطع ببراءة رحمها لصغرها أو كبرها. ومن الناس من يقول: هو تعبد لا يعقل معناه. هذا فاسد، لوجهين:

أحدهما: أنه ليس في الشريعة حكم إلا وله حكمة: وإن لم يعقلها كثير من الناس أو أكثرهم. **الثاني**: أن العدد ليست من العبادات المحضة. بل فيها من المصالح رعاية حق الزوجين، والولد، والناكح.

قال شيخنا: والصواب أن يقال: إن عدة الوفاة هي حرم لانقضاء النكاح ورعاية لحق الزوج. ولهذا تجد المتوفى عنها في عدة الوفاة رعاية لحق الزوج. فجعلت العدة حريمًا لحق هذا العقد الذي له خطر وشأن. فيحصل بها فصل بين نكاح الأول ونكاح الثاني. ولا يتصل النكاحان. ألا ترى أن رسول الله ﷺ لما عظم حقه: حرم نساؤه بعده؟ وبهذا اختص الرسول. لأن أزواجه في الدنيا هن أزواجه في الآخرة، بخلاف غيره. فإنه لو حرم على المرأة أن تتزوج بغير زوجها لتضررت المتوفى عنها. وربما كان الثاني خيرًا لها من الأول، ولكن لو تأيمت على أولادها من الأول لكانت محمودة على ذلك مستحبًا لها. وفي الحديث «**أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة**» ـ وأومأ بالوسطى والسبابة ـ امرأة تأيمت من زوجها ذات منصب وجمال، وحبست نفسها على يتامى لها، حتى بانوا أو ماتوا(١). وإذا كان المقتضى لتحريمها قائمًا فلا أقل من مدة تربصها. وقد كانت في الجاهلية تتربص سنة، فخففها الله ـ سبحانه ـ بأربعة أشهر وعشر. وقيل لسعيد بن المسيب: ما بال العشر؟ قال: «فيها ينفخ الروح» فيحصل بهذه المدة براءة الرحم، حيث يحتاج إليه، وقضاء حق الزوج إذا لم يحتج إلى ذلك.

وأما عدة الطلاق: فهي التي أشكلت فإنها لا يمكن تعليلها بذلك؛ لأنها إنما تجب بعد المسيس، ولأن الطلاق قطع للنكاح، ولهذا يتنصف فيه المسمى. ويسقط فيه مهر المثل.

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٥١٤٩) وعبدالرزاق (١١/ ٢٩٩ رقم ٢٠٥٩١) والطبراني في الكبير (١٨/ ٥٦ رقم ١٠٣) وأحمد (٦/ ٢٩) والبيهقي في الشعب (٦/ ٤٠٥ رقم ٨٦٨٠) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ١٤١).

فيقال: ـ والله الموفق للصواب ـ: عدة الطلاق وجبت ليتمكن الزوج فيها من الرجعة. ففيها حق للزوج، وحق لله، وحق للولد، وحق للناكح الثاني. فحق الزوج: ليتمكن من الرجعة في العدة. وحق الله: لوجوب ملازمتها المنزل. كما نص عليه ـ سبحانه ـ. وهو منصوص أحمد ومذهب أبي حنيفة. وحق الولد: لئلا يضيع نسبه، ولا يدري لأي الواطئين. وحق المرأة: لما لها من النفقة زمن العدة، ولكونها زوجة ترث وتورث.

ويدل على أن العدة حق للزوج قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَا ﴾ [الأحزاب: ٤٩] فقوله: ﴿ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ ﴾ دليل على أن العدة للرجل على المرأة وأيضًا فإنه سبحانه قال: ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فجعل الزوج أحق بردها في العدة. وهذا حق له، فإذا كانت العدة ثلاثة قروء وثلاثة أشهر: طالت مدة التربص، لينظر في أمره: هل يمسك ويفيء أو يطلق؟ وكان تخيير المطلق كتخيير المولى، لكن المولى جعل له أربعة أشهر، كما جعل مدة التسيير أربعة أشهر، لينظروا في أمرهم.

ومما يبين ذلك أنه سبحانه قال: ﴿ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٣٢] وبلوغ الأجل: هل الوصول والانتهاء، وبلوغ الأجل في هذه الآية مجاوزته. وفي قوله: ﴿ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ ﴾ [الطلاق: ٢] مقاربته ومشارفته. ثم فيه قولان. أحدهما: أنه حد من الزمان. وهو الطعن في الحيضة الثالثة، أو انقطاع الدم منها، أو من الرابعة، وعلى هذا: فلا يكون مقدورًا لها، وقيل: بل هو فعلها. وهو الاغتسال، كما قاله جمهور الصحابة. وهذا كما أنه بالاغتسال يحل للزوج وطؤها. ويحل لها أن تكمنه من نفسها. فالاغتسال عندهم شرط في النكاح الذي هو العقد. وفي النكاح الذي هو

الوطء، وللناس في ذلك أربعة أقوال:

أحدها: أنه ليس شرطًا، لا في هذا ولا في هذا، كما يقوله من يقوله من أهل الظاهر.

والثاني: أنه شرط فيهما، كما قاله أحمد وجمهور الصحابة كما تقدم حكايته عنهم.

والثالث: أنه شرط في نكاح الوطء لا في نكاح العقد. كما قاله مالك والشافعي.

والرابع: أنه شرط فيهما، أو ما يقوم مقامه. وهو الحكم بالطهر بمقتضى وقت صلاة وانقطاعه لأكثره. كما يقول أبو حنيفة. فإذا ارتجعها قبل غسلها لأجل وطئه لها وإلا كان لأجل حلها لغيره، وبالاغتسال يتحقق كمال الحيض وتمامه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢] والله ـ سبحانه ـ أمرها أن تتربص ثلاثة قروء، فإذا مضت الثلاثة فقد بلغت أجلها، وهو ـ سبحانه ـ لم يقل: إنها عقيب القرأين تبين من الزوج، بل خير الزوج عند بلوغ الأجل بين الإمساك والتسريح. فظاهر القرآن ما فهمه الصحابة: أنه عند انتهاء القروء الثلاثة: يخير الزوج بين الإمساك بالمعروف، أو التسريح بالإحسان. وعلى هذا: فيكون بلوغ الأجل في القرآن واحدًا لا يكون قسمين. بل يكون باستيفاء المدة واستكمالها. وهذا كقوله تعالى إخبارًا عن أهل النار: ﴿وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٢٨] وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٤] وإنما حمل من قال: «إن بلوغ الأجل هو مقارنته» أنها بعد أن تحل للخطاب لا يبقى الزوج أحق برجعتها، وإنما يكون أحق بها ما لم تحل لغيره، فإذا حل لغيره أن يتزوجها صار هو خاطبًا من الخطاب، ومنشأ هذا: ظن أنها ببلوغ الأجل تحل لغيره. والقرآن لم يدل على هذا، بل القرآن جعل عليها أن تتربص ثلاثة قروء، وذكر أنها إذا بلغت أجلها فإما أن تمسك بمعروف، وإما أن تسرح بإحسان.

وقد ذكر ـ سبحانه ـ هذا الإمساك أو التسريح عقيب الطلاق، فقال: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩] ثم قال: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٢] وهذا هو تزويجها بزوجها

الأول المطلق الذي كان أحق بها. فالنهي عن عضلهن مؤكد لحق الزوج، وليس في القرآن أنها بعد بلوغ الأجل تحل للخطاب، بل فيه: أنه في هذه الحال إما أن يمسك بمعروف، أو يسرح بإحسان فإن سرح بإحسان حلت حينئذ للخطاب.

وعلى هذا: فدلالة القرآن بينت أنها إذا بلغت أجلها، وهو انقضاء ثلاثة قروء بانقطاع الدم، فإما أن يمسكها قبل أن تغتسل فتغتسل عنده، وإما أن يسرحها، فتغتسل وتنكح من شاءت. وبهذا يعرف قدر فهم الصحابة، وأن من بعدهم إنما يكون غاية اجتهاده أن يفهم ما فهموه ويعرف ما قالوه.

فإن قيل: فإذا كان له أن يرتجعها في جميع هذه المدة ما لم تغتسل، فلم قيد التخيير ببلوغ الأجل؟

قيل: ليتبين أنها في مدة العدة كانت متربصة لأجل حق الزوج. والتربص الانتظار، وكانت متنظرة: هل يمسكها، أو يسرحها؟ وهذا التخيير ثابت له من أول المدة إلى آخرها، كما خير المولى بين الفيئة وعدم الطلاق، وهنا لما خيره عند بلوغ الأجل كان تخييره قبله أولى وأحرى، لكن التسريح إنما يمكن إذا بلغت الأجل، وقبل ذلك هي في العدة، وقد قيل: إن تسريحها بإحسان مؤثر فيها حين تنقضي العدة، ولكن ظاهر القرآن يدل على خلاف ذلك. فإنه ـ سبحانه ـ جعل التسريح بإحسان عند بلوغ الأجل. ومعلوم أن هذا الترك ثابت من أول المدة. فالصواب: أن التسريح إرسالها إلى أهلها بعد بلوغ الأجل ورفع يده عنها. فإنه كان يملك حبسها مدة العدة. فإذا بلغت أجلها فحينئذ إن أمسكها كان له حبسها، وإن لم يمسكها كان عليه أن يسرحها بإحسان. يدل على هذا قوله ـ تعالى ـ في المطلقة قبل المسيس ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤٩] فأمر بالسراح الجميل، ولا عدة. فعلم أن تخلية سبيلها: إرسالها، كما يقال: سرح الماء والناقة: إذا مكنهما من الذهاب، وبهذا الإطلاق والسراح يكون قد تم تطليقها وتخليتها، وقبل ذلك لم يكن الإطلاق تامًا، وكان له أن يمسكها وأن يسرحها، وكان مع كونه مطلقًا قد

جعل أحق بها من غيره مدة التربص، وجعل التربص ثلاثة قروء لأجله.

ويؤيد هذا أشياء أحدها: أن الشارع جعل عدة المختلعة حيضة، كما ثبت بالسنة: وأقر به عثمان بن عفان وابن عباس وابن عمر وحكاه أبو جعفر النحاس في ناسخه ومنسوخه: إجماع الصحابة وهو مذهب إسحاق وأحمد بن حنبل في أصح الراويتين عنه دليلا كما سيأتي تقرير المسألة عن قريب إن شاء الله تعالى.

***

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾.

[(1)] يقال: وجد فلان وجدًا ووجدًا ـ بضم الواو وفتحها وكسرها ـ إذا صار ذا جدة وثروة. ووجد الشيء كذا وكذا، فهو موجود، وأوجده الله، ويقال: وجد الله الشيء كذا وكذا على غير معنى أوجده. كما قال تعالى: ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠٢] فالله سبحانه أوجده على علمه، بأن يكون على صفة. ثم وجده بعد إيجاده على تلك الصفة التي علم أن سيكون عليها.

وأما «الواجد» في أسمائه سبحانه: فهو بمعنى ذو الوجد والغنى. وهو ضد الفاقد. وهو كالموسع ذي السعة. قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧] أي ذوو سعة وقدرة وملك. كما قال تعالى: ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ ﴾ [البقرة: ٢٣٦] ودخل في أسمائه سبحانه الواجد، دون «الموجد» فإن «الموجد» صفة فعل. وهو معطي الوجود كالمحيي معطي الحياة، وهذا الفعل لم يجئ إطلاقه في أفعال الله في الكتاب ولا في السنة. فلا يعرف إطلاق: أوجد الله كذا وكذا. وإنما الذي جاء وخلقه وبرأه، وصوره وأعطاه خلقه» ونحو ذلك. فلما لم يكن يستعمل فعله لم يجئ

---

(١) ٤١٤ مدارج جـ٣.

اسم الفاعل منه في أسمائه الحسنى. فإن الفعل أوسع من الاسم. ولهذا أطلق الله على نفسه أفعالًا لم يتسم منها بأسماء الفاعل. كأراد، وشاء، وأحدث. ولم يسم «بالمريد» و«الشائي» و«المحدث» كما لم يسم نفسه «بالصانع» و«الفاعل» و«المتقن» وغير ذلك من الأسماء التي أطلق أفعالها على نفسه. فباب الأفعال أوسع من باب الأسماء.

وقد أخطأ - أقبح خطإ - من اشتق له من كل فعل اسما، وبلغ بأسمائه زيادة على الألف. فسماه «الماكر، والمخادع، والفاتن، والكائد» ونحو ذلك. وكذلك باب الأخبار عنه بالاسم أوسع من تسميته به. فإنه يخبر عنه بأنه «شيء وموجود، ومذكور، ومعلوم، ومراد» ولا يسمى بذلك.

فأما «الواجد» فلم تجئ تسميته به إلا في حديث تعداد الأسماء الحسنى والصحيح: أنه ليس من كلام النبي ﷺ ومعناه صحيح...

(١)...الوجه الرابع: وهو أن الله سبحانه - نص في كتابه على إجارة الظئر، وسمى ما تأخذه أجرًا. وليس في القرآن إجارة منصوص عليها في شريعتنا إلا إجارة الظئر بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٦] قال شيخنا: وإنما ظن الظآن أنها خلاف القياس، حيث توهم أن الإجارة لا تكون إلا على منفعة . وليس الأمر كذلك. بل الإجارة تكون على كل ما يستوفى مع بقاء أصله. سواء كان عينًا أو منفعة، كما أن هذه العين هي التي توقف وتعار، فما استوفاه الموقوف عليه والمستعير بلا عوض، يتسوفيه المستأجر بالعوض. فلما كان لبن الظئر مستوفى مع بقاء الأصل جازت الإجارة عليه، كما جازت على المنفعة. وهذا محض القياس. فإن هذه الأعيان يحدثها الله شيئًا بعد شيء وأصلها باق، كما يحدث الله المنافع شيئًا بعد شيء وأصلها باق.

يوضحه الوجه الخامس: وهو أن الأصل في العقود: وجوب الوفاء، إلا ما حرمه الله ورسوله: فإن المسلمين على شروطهم إلا شرطًا أحل حرامًا أو حرم حلالًا، فلا

(١) ٥١٩ زاد المعاد جـ٤.

يحرم من الشروط والعقود إلا ما حرم الله ورسوله. وليس مع المانعين نص بالتحريم البتة. وإنما معهم قياس قد علم بأن بين الأصل والفرع فيه من الفرق ما يمنع الإلحاق. وأن القياس الذي مع من أجاز أقرب إلى مساواة الفرع الأصلي. وهذا ما لا حيلة فيه: وبالله التوفيق.

[١]ثبت أن فاطمة بنت قيس طلقها زوجها البتة، فخاصمته في السكن والنفقة إلى رسول الله ﷺ قالت: لم يجعل لي سكنى ولا نفقة. وفي السنن أن النبي ﷺ قال: «**يا بنت آل قيس إنما السكنى والنفقة على من كانت له رجعة**»، ذكره أحمد.

وعنده أيضًا «**إنما السكنى والنفقة للمرأة على زوجها ما كانت له عليها رجعة، فإذا لم يكن له عليها رجعة فلا نفقة ولا سكنى**»[٢]. وفي صحيح مسلم عنها: طلقني زوجي ثلاثًا، فلم يجعل لي رسول الله ﷺ سكنى ولا نفقة[٣].

وفي رواية لمسلم أيضًا أن أبا عمرو بن حفص خرج مع علي ـ كرم الله وجهه ـ إلى اليمن، فأرسل إلى امرأته بتطليقة بقيت من طلاقها، وأمر عياش بن أبي ربيعة والحارث بن هشام أن ينفقا عليها، فقالا: والله ما لها نفقة، إلا أن تكون حاملًا، فأتت النبي ﷺ، فذكرت له قولهما، فقال: «**لا نفقة لك**» فاستأذنته في الانتقال، فأذن لها، فقالت له: أين يا رسول الله؟ فقال: «**عند ابن أم مكتوم**» وكان أعمى، تضع ثيابها عنده ولا يراها، فلما مضت عدتها أنكحها النبي ﷺ أسامة بن زيد، فأرسل إليها مروان قبيصة بن ذؤيب يسألها عن الحديث، فحدثته، فقال: لم نسمع هذا الحديث إلا من امرأة، سنأخذ بالعصمة التي وجدنا الناس عليها، فقالت فاطمة حين بلغها قول مروان: بيني وبينكم القرآن، قال تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾

---

(١) ٣٥٧ أعلام جـ٤.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور (رقم ١٣٥٧) وعبدالرزاق (٧/ ٢٣ رقم ١٢٠٢٦) والحميدي (١/ ١٧٦ رقم ٣٦٣) وأحمد (٦/ ٤١٥).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٤٨٠) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٧٧-٤٨١).

[الطلاق: ١] الآية، قالت: هذا لمن كانت له مراجعة، فأي أمر يحدث بعد الثلاث؟ وأفتى النبي ﷺ بأن للنساء على الرجال رزقهن وكسوتهن بالمعروف[١]، ذكره مسلم.

وسئل ﷺ: ما تقول في نسائنا؟ فقال: **«أطعموهن مما تأكلون، واكسوهن مما تلبسون، ولا تضربوهن، ولا تقبحوهن»** ذكره مسلم.

وسألته ﷺ: هند امرأة أبي سفيان فقالت: إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطيني من النفقة ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، قال: **«خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»**[٢] متفق عليه.

فتضمنت هذه الفتوى أمورًا، أحدها: أن نفقة الزوجة غير مقدرة، بل المعروف ينفي تقديرها، ولم يكن تقديرها معروفًا في زمن رسول الله ﷺ ولا الصحابة ولا التابعين ولا تابعيهم. الثاني: أن نفقة الزوجة من جنس نفقة الولد كلاهما بالمعروف. الثالث: انفراد الأب بنفقة أولاده. الرابع: أن الزوج أو الأب إذا لم يبذل النفقة الواجبة عليه فللزوجة والأولاد أن يأخذوا قدر كفايتهم بالمعروف. الخامس: أن المرأة إذا قدرت على أخذ كفايتها من مال زوجها لم يكن لها إلى الفسخ سبيل. السادس: أن ما لم يقدره الله ورسوله من الحقوق الواجبة فالمرجع فيه إلى العرف. السابع: أن ذم الشاكي لخصمه بما هو فيه حال الشكاية لا يكون غيبة، فلا يأثم به هو ولا سامعه بإقراره عليه. الثامن: أن من منع الواجب عليه وكان سبب ثبوته ظاهرًا فلمستحقه أن يأخذ بيده إذا قدر عليه، كما أفتى به النبي ﷺ هندًا، وأفتى به ﷺ الضيف إذا لم يقره من نزل عليه، كما في سنن أبي داود عنه ﷺ أنه قال: **«ليلة الضيف حق على كل مسلم، فإن أصبح بفنائه محرومًا كان دينًا عليه إن شاء اقتضاه وإن شاء تركه»**[٣] وفي لفظ: **«من نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه فله**

(١) أخرجه مسلم (١٤٨٠) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٧٩-٤٨٠) وشرح النووي (١٠/ ٩٥-٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٣٦٤) ومسلم (رقم ١٧١٤) وانظر: فتح الباري (٩/ ٥٠٩-٥١٠).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ٣٧٥٠) وابن ماجه (رقم ٣٦٧٧) والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٩٧ رقم ١٨٤٧٤) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٢٤٢) والطبراني في الكبير (٢٠/ ٢٦٣ رقم ٦٢١، ٦٢٢) وأحمد =

أن يعقبهم بمثل قراه»[١] وإن كان سبب الحق خفيًا لم يجز له ذلك، كما أفتى النبي ﷺ في قوله: «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»[٢].

***

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾.

[٣]قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق: ١٢].

فتضمنت هاتان الآيتان أنه ـ سبحانه ـ إنما خلق السموات والأرض وما بينهما ليعرف بأسمائه وصفاته وليعبد، فهذا المطلوب، وما كان طريقًا إليه من العلم والتعلم فهو المستثنى من اللعنة، واللعنة واقعة على ما عداه إذ هو بعيد عن الله وعن محابه وعن دينه، وهذا هو متعلق العقاب في الآخرة، فإنه كما كان متعلق اللعنة التي تتضمن

(٤/ ١٣٠) والطيالسي (رقم ١١٥١) والبخاري في الأدب (رقم ٧٤٤) وهناد في الزهد (٢/ ٥١٢ رقم ١٠٥٥) وتمام في فوائده (٢/ ٢٤٢ رقم ١٦٣٣).

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٦٠٤) والبيهقي في الكبرى (٩/ ٢٣٢ رقم ١٩٢٥٣) والدارقطني (٤/ ٤٨٧ رقم ٥٩) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٢٤٢) والطبراني في الكبير (٢٠/ ٢٨٢ رقم ٦٦٨) وفي مسند الشاميين (٢/ ١٣٧ رقم ١٠٦١) وانظر: عون المعبود (١٠/ ١٩٨) (١٢/ ٢٣٢) والمغني (٩/ ٣٤٢-٣٤٣) وقال الشوكاني في نيل الأوطار (٩/ ٣٦): سكت عنه أبو داود هو والمنذري. قال الحافظ في التلخيص: وإسناده على شرط الصحيح.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٣ رقم ٢٢٩٦) وأبو داود (رقم ٣٥٣٥) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٧٠ رقم ٢١٠٩١) والترمذي (رقم ١٢٦٤) والدارقطني (٣/ ٣٥ رقم ١٤١) والدارمي (رقم ٢٥٩٧) والطبراني في الأوسط (٤/ ٥٥ رقم ٣٥٩٥) وفي الصغير (رقم ٤٧٥) وفي الكبير (١/ ٢٦١ رقم ٧٦٠) وفي مسند الشاميين (٢/ ٢٥١ رقم ١٢٨٤) وأحمد (٣/ ٤١٤) وانظر: التمهيد (٢٠/ ١٥٩) وصححه الحاكم وحسنه الترمذي.

(٣) ٧٠ مفتاح جـ١.

الذم والبغض فهو متعلق العقاب، والله ـ سبحانه ـ إنما يجب من عباده ذكره وعبادته ومعرفته ومحبته ولوازم ذلك وما أفضىٰ إليه. وما عداه فهو مبغوض له مذموم عنده.

(١)ولما كان طلب العلم والبحث عنه وكتابته والتفتيش عليه من عمل القلب والجوارح كان من أفضل الأعمال ومنزلته من عمل الجوارح كمنزلة أعمال القلب من الإخلاص والتوكل والمحبة والإنابة والخشية والرضا ونحوها من الأعمال الظاهرة، فإن قيل: فالعلم إنما هو وسيلة إلىٰ العمل ومراد له، والعمل هو الغاية، ومعلوم أن الغاية أشرف من الوسيلة، فكيف تفضل الوسائل علىٰ غايتها؟!

قيل: كل من العلم والعمل ينقسم قسمين: منه ما يكون وسيلة، ومنه ما يكون غاية، فليس العلم كله وسيلة مراده لغيرها، فإن العلم بالله وأسمائه وصفاته هو أشرف العلوم علىٰ الإطلاق، وهو مطلوب لنفسه مراد لذاته.

قال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢] فقد أخبر سبحانه أنه خلق السموات الأرض ونزل الأمر بينهن ليعلم عباده أنه بكل شيء عليم وعلىٰ كل شيء قدير، فهذا العلم هو غاية الخلق المطلوبة، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] فالعلم بوحدانيته تعالىٰ وأنه لا إله إلا هو مطلوب لذاته، وإن كان لا يكتفي به وحده، بل لا بد معه من عبادته وحده لا شريك له، فهما أمران مطلوبان لأنفسهما: أن يعرف الرب تعالىٰ بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه وأن يعبد بموجبها ومقتضاها. فكما أن عبادته مطلوبة مرادة لذاتها فكذلك العلم به ومعرفته. وأيضًا فإن العلم من أفضل أنواع العبادات كما تقدم تقريره، فهو متضمن للغاية والوسيلة.

وقولكم: إن العمل غاية، إما أن تريدوا به العمل الذي يدخل فيه عمل القلب والجوارح أو العمل المختص بالجوارح فقط، فإن أريد الأول فهو حق وهو يدل علىٰ أن العلم غاية مطلوبة لأنه من أعمال القلب كما تقدم، وإن أريد به الثاني وهو عمل

---

(١) ١٧٨ مفتاح جـ١.

الجوارح فقط فليس بصحيح، فإن أعمال القلوب مقصودة ومرادة لذاتها، بل في الحقيقة أعمال الجوارح وسيلة مرادة لغيرها، فإن الثواب والعقاب والمدح والذم وتوابعها هو للقلب أصلًا وللجوارح تبعًا.

وكذلك الأعمال المقصودة بها أولًا صلاح القلب واستقامته وعبوديته لربه ومليكه، وجعلت أعمال الجوارح تابعة لهذا المقصود مرادة له، وإن كان كثير منها مرادًا لأجل المصلحة المترتبة عليه فمن أجلها صلاح القلب وزكاته وطهارته واستقامته، فعلم أن الأعمال منها غاية ومنها وسيلة، وأن العلم كذلك.

وأيضًا فالعلم الذي هو وسيلة إلى العمل فقط إذا تجرد عن العمل لم ينتفع به صاحبه، فالعمل أشرف منه.

وأما العلم المقصود الذي تنشأ ثمرته المطلوبة منه من نفسه، فهذا لا يقال: إن العمل المجرد أشرف منه، فكيف يكون مجرد العبادة البدنية أفضل من العلم بالله وأسمائه وصفاته وأحكامه في خلقه وأمره، ومن العلم بأعمال القلوب وآفات النفوس والطرق التي تفسد الأعمال وتمنع وصولها من القلب إلى الله، والمسافات التي بين الأعمال والقلب وبين القلب والرب تعالى، وبما تقطع تلك المسافات إلى غير ذلك من علم الإيمان وما يقويه وما يضعفه، فكيف يقال: إن مجرد التعبد الظاهر بالجوارح أفضل من هذا العلم خير من فضل العبادة، فإذا كان في العبد فضلة عن الواجب كان صرفها إلى العلم الموروث عن الأنبياء أفضل من صرفها إلى مجرد العبادة، فهذا فصل الخطاب في هذه المسألة، والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الطلاق

والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ۝ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۝ ﴾.

(١)ثبت في الصحيحين أنه ﷺ شرب عسلًا في بيت زينت بنت جحش، فاحتالت عليه عائشة وحفصة، حتى قال: «لن أعود له». وفي لفظ: «وقد حلفت لا تخبري بذلك أحدًا»(٢).

وفي سنن النسائي عن أنس: «أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾»(٣).

---

(١) ١٤٣ زاد المعاد جـ٤.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٩١٢) ومسلم (رقم ١٤٧٤) وانظر: فتح الباري (٩/ ٢٨٩) (٩/ ٣٧٦-٣٧٧) وشرح النووي (١٠/ ٧٤-٧٥).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٥/ ٢٨٦ رقم ٨٩٠٧) وفي المجتبى (رقم ٣٩٥٩) والضياء في المختارة (٥/ ٦٩-٧٠ رقم ١٦٩٤) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٣٥٣ رقم ١٤٨٥٣) وصححه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٩/ ٣٧٦) والصنعاني في سبل السلام (٣/ ١٧٨) وانظر: نيل الأوطار (٧/ ٥٦).

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال: «إذا حرم الرجل امرأته فهي يمين يكفرها. وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾»(١) [الأحزاب: ٢١].

وفي جامع الترمذي عن عائشة قالت: «آلىٰ رسول الله ﷺ من نسائه وحرم، فجعل الحرام حلالًا. وجعل في اليمين كفارة»(٢) هكذا رواه مسلمة بن علقمة عن داود عن الشعبي عن مسروق عن عائشة. ورواه علي بن مسهر وغيره عن الشعبي عن النبي ﷺ مرسلًا. وهو أصح. انتهىٰ كلام أبي عيسىٰ.

وقولها: «جعل الحرام حلالًا» أي جعل الشيء الذي حرمه وهو «العسل» أو الجارية» حلالًا، بعد تحريمه إياه. وقال الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن عبدالله بن هبيرة عن قبيصة بن ذؤيب قال: سألت زيد بن ثابت، وابن عمر عمن قال لامرأته «أنت عليَّ حرام؟ فقالا جميعًا: كفارة يمين»(٣).

وقال عبدالرزاق عن ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن مسعود قال في التحريم: «هي يمين يكفرها»(٤). قال ابن حزم: وروي ذلك عن أبي بكر الصديق وعائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنهما ـ.

وقال الحجاج بن منهال: حدثنا جرير بن حازم قال: «سألت نافعًا مولىٰ ابن عمر عن الحرام: أطلاق هو؟ قال: لا، أو ليس قد حرم رسول الله ﷺ جاريته فأمره الله ﷻ أن يكفر عن يمينه، ولم يحرمها عليه(٥).

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٤٧٣) وانظر: فتح الباري (٩/ ٣٧٦) وشرح النووي (١٠/ ٧٣).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ١٢٠١) والبيهقي في الكبرىٰ (٧/ ٣٥٢ رقم ١٤٨٤٨) وابن ماجه (رقم ٢٠٧٢) وابن حبان (١٠/ ١٠٤ رقم ٤٢٧٨) وفي موارد الظمآن (رقم ١٣١٧) وتمام في فوائده (٢/ ٢٤٩ رقم ١٦٥٢) وانظر: عمدة القاري (٢٠/ ٢٧٦) وتحفة الأحوذي (٤/ ٣٢٢).

(٣) انظر: المحلىٰ لابن حزم (١٠/ ١٢٥).

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٦/ ٤٠١ رقم ١١٣٦٦) والطبراني في الكبير (٩/ ٣٢٧ رقم ٩٦٣٢) وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٣٣٧): رواها كلها الطبراني ورجاله ثقات إلا أن مجاهداً لم يدرك ابن مسعود.

(٥) انظر: المحلىٰ (١٠/ ١٢٦).

(١)وأما من قال: إنه يمين مكفرة بكل حال فمأخذ قوله: إن تحريم الحلال ـ من الطعام والشراب واللباس ـ يمين يكفر بالنص والمعنى وآثار الصحابة. فإن الله سبحانه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ [التحريم: ١ ـ ٢].

ولابد أن يكون تحريم الحلال داخلًا تحت هذا الفرض، لأنه سببه، وتخصيص محل السبب من جملة العام ممتنع قطعًا، إذ هو المقصود بالبيان أو لا. فلو خص لخلا سبب الحكم عن البيان، وهو ممتنع، وهذا استلالال في غاية القوة.

فسألت عنه شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ فقال: يعم التحريم، لكنه يمين كبرى في الزوجة، كفارتها كفارة الظهار، ويمين صغرى فيما عداها، كفارتها كفارة اليمين بالله، قال: وهذا معنى قول ابن عباس وغيره من الصحابة ومن بعدهم «إن التحريم يمين تكفر». فهذا تحرير المذاهب في هذه المسألة نقلًا، وتقريرها استدلالًا. ولا يخفى على من آثر العلم والإنصاف. وجانب التعصب والاعتساف، ونصرة ما بنى عليه من الأقوال: الراجح من المرجوح، والله المستعان.

وقد تبين بما ذكرنا أن من حرم شيئًا غير الزوجة، من الطعام، والشراب، واللباس، أو أمته: لم يحرم عليه بذلك، وعليه كفارة يمين، وفي هذا خلاف في ثلاثة مواضع:

أحدها: أنه لا يحرم، وهذا قول الجمهور، وقال أبوحنيفة: يحرم تحريمًا مقيدًا، تزيله الكفارة، كما إذا ظاهر من امرأته، فإنه لا يحل له وطؤها حتى يكفر، ولأن الله ـ سبحانه ـ سمى الكفارة في ذلك تحلة، وهي ما يوجب الحل، فدل على ثبوت التحريم قبلها، ولأنه سبحانه قال لنبيه ﷺ: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١] ولأنه تحريم لما أبيح له، فيحرم بتحريمه، كما لو حرم زوجته.

ومنازعوه: يقولون: إنما سميت الكفارة تحلة من الحل، الذي هو ضد العقد. لا

(١) ١٥٢ زاد المعاد جـ٤.

من الحِل الذي هو مقابل التحريم. فهي تحل اليمين بعد عقدها، وأما قوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ فالمراد: تحريم الأمة أو العسل ومنع نفسه منه، وذلك يسمى تحريمًا. فهو تحريم بالقول لا إثبات للتحريم شرعًا.

وأما قياسه على تحريم الزوجة بالظهار، أو بقوله: «أنت عليّ حرام» فلو صح هذا القياس لوجب تقديم التكفير على الحنث، قياسًا على الظهار، إذا كان في معناه. وعندهم لا يجوز التكفير إلا بعد الحنث. فعلى قولهم: يلزم أحد أمرين ولا بد: إما أن يفعله حرامًا، وقد فرض الله تحلة اليمين. فيلزم كون المحرم مفروضًا، أو من ضرورة المفروض. لأنه لا يصل إلى التحلة إلا بفعل المحلوف عليه، أو إنه لا سبيل له إلى فعله حلالًا، لأنه لا يجوز تقديم الكفارة، فيستفيد بها الحل. وإقدامه عليه ـ وهو حرام ـ ممتنع. هذا ما قيل في المسألة من الجانبين.

وبعد فلها غور، وفيها دقة وغموض. فإن من حرم شيئًا فهو بمنزلة من حلف بالله على تركه. ومن حلف على تركه لم يجز له هتك حرمة المحلوف به بفعله إلا بالتزام الكفارة. فإذا التزمها جاز له له الإقدام على فعل المحلوف عليه ويأذن له فيه وإنما يأذن له فيه ويبيحه إذا التزم ما فرض الله من الكفارة، فيكون إذنه له فيه وإباحته بعد امتناعه منه بالحلف أو التحريم: رخصة من الله له، ونعمة منه عليه، بسبب التزامه لحكمه الذي فرض له من الكفارة، فإذا لم يلتزمه بقي المنع الذي عقده على نفسه إصرًا عليه. فإن الله إنما رفع الآصار عمن اتقاه والتزم حكمه. وقد كانت اليمين في شرع من قبلنا يتحتم الوفاء بها، ولا يجوز الحنث، فوسع الله على هذه الأمة، وجوز لها الحنث بشرط الكفارة، فإذا لم يكفر ـ لا قبل ولا بعد ـ لم يوسع له في الحنث. فهذا معنى قوله: «إنه يحرم حتى يكفر» وليس هذا من مفردات أبي حنيفة، بل هو أحد القولين في مذاهب أحمد...

[1] قال تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ

(١) ٧٦ التبيان.

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤] ومن كان هذا القوي وليه، ومن أنصاره وأعوانه ومعلمه فهو المهدي، والله هاديه وناصره.

***

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾.

[(١)]قال علي ﷺ علموهم وأدبوهم[(٢)] وقال الحسن: مروهم بطاعة الله، وعلموهم الخير[(٣)]. وفي المسند وسنن أبي داود من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال رسول الله ﷺ: **«مروا أبناءكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع»**[(٤)] ففي هذا الحديث ثلاثة آداب: أمرهم بها، وضربهم عليها والتفريق بينهم في المضاجع.

وقد روى الحاكم عن أبي النضر الفقيه ثنا محمد بن حمويه ثنا أبي ثنا النصر بن محمد الثوري عن إبراهيم بن مهاجر عن عكرمة حدثنا ابن عباس عن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: **«افتحوا على صبيانكم أول كلمة [بـ] لا إله إلا الله، ولقنوهم عند الموت: لا إله إلا الله»**[(٥)].

---

(١) ١٣٣ تحفة المودود.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٦/ ٣٩٧ رقم ٨٦٤٨) والحسين بن الحسن بن حرب المروزي في البر والصلة (رقم ١٨٩) وابن أبي الدنيا في العيال (رقم ٣٢٣).

(٣) انظر: فتح الباري (٨/ ٦٥٩) ومختصر شعب الإيمان (ص ١٢٠).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ١٨٧) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٢٢٩ رقم ٣٠٥١) والدارقطني (١/ ٢٣٠ رقم ٢) والحاكم (١/ ٣١١ رقم ٧٠٨) والطبراني في الأوسط (٤/ ٢٥٦ رقم ٤١٢٩) وانظر: فتح الباري (٩/ ٣٤٨).

(٥) أخرجه البيهقي في الشعب (٦/ ٣٩٧-٣٩٨ رقم ٨٦٤٩) والديلمي في الفردوس (١/ ٧١ رقم ٢٠٧) وانظر: تحفة الأحوذي (٤/ ٤٦).

وفي تاريخ البخاري من رواية بشر بن يوسف عن عامر بن أبي عامر سمع أيوب بن موسى القرشي عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «**ما نحل والد ولدًا أفضل من أدب حسن**»[١]، قال البخاري: ولم يصح سماع جده من النبي.

وفي معجم الطبراني من حديث سماك عن جابر بن سمرة قال، قال رسول الله ﷺ: «**لأن يؤدب أحدكم ولده خير له من أن يتصدق كل يوم بنصف صاع على المساكين**»[٢]، وذكر البيهقي من حديث محمد بن الفضل بن عطية وهو ضعيف عن أبيه عن عطاء عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول الله! قد علمنا ما حق الوالد، فما حول الولد؟ قال: «**أن يحسن اسمه، ويحسن أدبه**»[٣].

قال سفيان الثوري: ينبغي للرجل أن يُكْرِه ولده على طلب الحديث، فإنه مسئول عنه[٤]، وقال: إن هذا الحديث عِزٌّ، من أراد به الدنيا وجدها، ومن أراد به الآخرة وجدها[٥]. وقال عبدالله بن عمر: أدب ابنك فإنك مسئول عنه، ماذا أدبته؟ وماذا

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٢/ ١٨ رقم ٢١٠٦) والترمذي (رقم ١٩٥٢) والحاكم (٤/ ٢٩٢ رقم ٧٦٧٩) وأحمد (٣/ ٤١٢) والطبراني في الكبير (١٢/ ٣٢٠) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٢٥١ رقم ١٢٩٥) وعبد بن حميد (رقم ٣٦٢) وابن أبي الدنيا في العيال (رقم ٣٢٦) وقال الترمذي: غريب.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/ ٢٤٦ رقم ٢٠٣٢) والحاكم (٤/ ٢٩٢ رقم ٧٦٨٠) والبيهقي في الشعب (٦/ ٣٩٩ رقم ٨٦٥٥) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ١١٢) وابن حرب المروزي في البر والصلة (رقم ١٦٤) وأبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان (٣/ ٤٠٠) والعقيلي في الضعفاء (٤/ ٣١١).

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (٦/ ٤٠٠ رقم ٨٦٥٨) وابن حرب المروزي في البر والصلة (رقم ١٥٥) وابن أبي الدنيا في العيال (رقم ١٧١) والديلمي في الفردوس (٢/ ١٣١ رقم ٢٦٧٠) وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٤٧): رواه البزار وفيه عبدالله بن سعيد المقبري وهو متروك. وانظر: فيض القدير (٢/ ٥٣٨) (٣/ ٣٩٤) والمغني (٩/ ٣٦٥).

(٤) أخرجه البيهقي في الشعب (٦/ ٤٠٠ رقم ٨٦٥٩) والخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (ص ١٢٧) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٦٥).

(٥) أخرجه البيهقي في الشعب (٦/ ٤٠٠ رقم ٨٦٦٠) والخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (ص ٦٢) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٦٦).

علمته؟ وهو مسئول عن برك وطواعيته لك(١).

وذكر البيهقي من حديث مسلم بن إبراهيم حدثنا شداد بن سعيد عن الحريري عن أبي سعيد وابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «من ولد له ولد، فليحسن اسمه وأدبه، فإذا بلغ فليزوجه، فإن بلغ ولم يزوجه فأصاب إثمًا، فإنما إثمه على أبيه»(٢).

وقال سعيد ابن منصور حدثنا حزم قال سمعت الحسن وسأله كثير بن زياد عن قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان: ٧٤] فقال يا أبا سعيد ما هذه القرة الأعين، أفي الدنيا أم في الآخرة؟ قال: لا. بل والله في الدنيا، قال وما هي؟ قال والله أن يري الله العبد من زوجته، من أخيه، من حميمه: طاعة الله، لا والله ما شيء أحب إلى المرء المسلم من أن يرى ولدًا أو والدًا أو حميمًا أو أخًا مطيعًا لله ﷻ(٣).

وقد روى البخاري في صحيحه من حديث نافع عن ابن عمر قال، قال رسول الله - عليه الصلاة والسلام -: «كلكم مسئول عن رعيته، فالأمير راع على الناس، وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته، وامرأة الرجل راعية على بيت بعلها وولده، وهي مسئولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده، وهو مسئول عنه، ألا فلكلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته»(٤).

ومن حقوق الأولاد العدل بينهم في العطاء والمنع ففي السنن ومسند أحمد وصحيح ابن حبان من حديث النعمان بن بشير قال، قال رسول الله ﷺ: «اعدلوا بين

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٣/ ٨٤ رقم ٤٨٧٧) وفي شعب الإيمان (٦/ ٤٠٠ رقم ٨٦٦٢) وابن أبي الدنيا في العيال (رقم ٣٢٩، ٣٣٤).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٦/ ٤٠١ رقم ٨٦٦٦) وابن أبي الدنيا في العيال (رقم ١٧٣).

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (٦/ ٤٠٢ رقم ٨٦٦٨) وانظر: تغليق التعليق (٤/ ٢٧١).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٨٩٣) ومسلم (رقم ١٨٢٩) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٨١) وشرح النووي (١٢/ ٢١٣-٢١٤).

أبنائكم، اعدلوا بين أبنائكم، اعدلوا بين أبنائكم»(١). وفي صحيح مسلم أن امرأة بشير قالت: أنحل ابني غلامًا، وأشهد لي رسول الله ﷺ، فأتى رسول الله - عليه الصلاة والسلام - فقال: إن ابنة فلان سألتني أن أنحل ابنها غلامي. قال: «له إخوة؟» قال: نعم، قال: «كلهم أعطيت ما أعطيته؟» قال: لا، قال: «فليس بصلح هذا، وإني لا أشهد إلا على حق»(٢). ورواه الإمام أحمد، وقال فيه: «لا تشهدني على جور، إن لابنك عليك من الحق أن تعدل بينهم»(٣).

وفي الصحيحين عن النعمان بن بشير أن أباه أتى به النبي - عليه الصلاة والسلام - فقال: إني نحلت ابني هذا غلامًا كان لي، فقال رسول الله ﷺ: «أكل ولدك نحلت مثل هذا؟» قال: لا، فقال: «ارجعه»(٤).

وفي رواية لمسلم - فقال: «فعلت هذا بولدك كلهم؟» قال: لا، قال: «اتقوا الله واعدلوا في أولادكم»(٥)، فرجع أبي في تلك الصدقة.

وفي الصحيح: «أشهد على هذا غيري»(٦) وهذا أمر تهديد، لا إباحة، فإن تلك العطية كانت جورًا بنص الحديث، ورسول الله - عليه الصلاة والسلام - لا يأذن لأحد أن يشهد على صحة الجور، ومن ذا الذي كان يشهد على تلك العطية، وقد أبى رسول الله ﷺ أن يشهد عليها، وأخبر أنها لا تصلح، وأنها جور، وأنها خلاف العدل. ومن العجب أن يحمل قوله: «اعدلوا بين أولادكم» على غير الوجوب، وهو أمر مطلق

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٤/ ١١٩ رقم ٦٥١٤) وفي المجتبى (رقم ٣٦٨٧) وأبو داود (رقم ٣٥٤٤) وأحمد (٤/ ٢٧٨).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٦٢٤) وانظر: شرح النووي (١١/ ٦٦).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٩) وانظر: فتح الباري (٥/ ٢١٤) والتمهيد (٧/ ٢٣٢).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٥٨٦) ومسلم (رقم ١٦٢٣) وانظر: فتح الباري (٥/ ٢١٣) وشرح النووي (١١/ ٦٥-٦٦).

(٥) أخرجه مسلم (رقم ١٦٢٣) وانظر: شرح النووي (١١/ ٦٥).

(٦) أخرجه مسلم (رقم ١٦٢٣) وانظر: فتح الباري (٥/ ٢١٣-٢١٤) وشرح النووي (١١/ ٦٦-٦٧).

مؤكد ثلاث مرات، وقد أخبر الآمر به أن خلافه جور، وأنه لا يصلح، وأنه ليس بحق، وما بعد الحق إلا الباطل، هذا والعدل واجب في كل حال فلو كان الأمر به مطلقًا لوجب حمله على الوجوب، فكيف وقد اقترن به عشرة أشياء تؤكد وجوبه فتأملها في ألفاظ القصة.

وقد ذكر البيهقي من حديث أبي أحمد بن عدي حدثنا القاسم بن مهدي حدثنا يعقوب بن كاسب حدثنا عبدالله بن معاذ عن معمر عن الزهري عن أنس: أن رجلًا كان جالسًا مع النبي ﷺ فجاء بني له فقبله وأجلسه في حجره، ثم جاءت بنته فأخذها فأجلسها إلى جنبه، فقال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «فما عدلت بينهما»(١)، وكان السلف يستحبون أن يعدلوا بين الأولاد في الصلة.

وقال بعض أهل العلم: إن الله سبحانه يسأل الوالد عن ولده يوم القيامة قبل أن يسأل الولد عن والده، فإنه كما أن للأب على ابنه حقًا فللابن على أبيه حق، فكما قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ [العنكبوت: ٨] قال تعالى: ﴿ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦].

قال علي بن أبي طالب: علموهم وأدبوهم، وقال تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [النساء: ٣٦].

وقال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «اعدلوا بين أولادكم»، فوصية الله للآباء بأولادهم سابقة على وصية الأولاد بآبائهم، قال الله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ﴾ [الإسراء: ٣١] فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه وتركه سدى، فقد أساء إليه غاية الإساءة، وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قبل الآباء وإهمالهم لهم وترك تعليمهم فرائض الدين وسننه، فأضاعوهم صغارًا فلم ينتفعوا بأنفسهم، ولم ينفعوا آباءهم كبارًا، كما عاتب بعضهم ولده على العقوق، فقال: يا أبت إنك عققتني صغيرًا فعققتك كبيرًا،

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٦/ ٤١٠ رقم ٨٧٠٠) وابن عدي في الكامل (٤/ ٢٣٩).

وأضعتني وليدًا فأضعتك شيخًا.

[(١)]ومما يحتاج إليه الطفل غاية الاحتياج الاعتناء بأمر خلقه، فإنه ينشأ عما عوده المربي في صغره من: حرد، وغضب، ولجاج، وعجلة، وخفة مع هواه، وطيش، وحدة، وجشع، فيصعب عليه في كبره تلافي ذلك، وتصير هذه الأخلاق صفات وهيئات راسخة له، فلو تحرز منها غاية التحرز فضحته ولابد يومًا ما، ولهذا تجد أكثر الناس منحرفة أخلاقهم، وذلك من قبل التربية التي نشأ عليها.

وكذلك يجب أن يجتنب الصبي إذا عقل: مجالس اللهو والباطل، والغناء وسماع الفحش والبدع ومنطق السوء، فإنه إذا علق بسمعه عسر عليه مفارقته في الكبر، وعز على وليه استنقاذه منه، فتغيير العوائد من أصعب الأمور، يحتاج صاحبه إلى استجداد طبيعة ثانية، والخروج عن حكم الطبيعة عسر جدًا.

وينبغي لوليه أن يجنبه الأخذ من غيره غاية التجنب، فإنه متى اعتاد الأخذ صار له طبيعة، ونشأ بأن يأخذ لا بأن يعطي، ويعوده البذل والإعطاء، وإذا أراد الولي أن يعطي شيئًا أعطاه على يده ليذوق حلاوة الإعطاء، ويجنبه الكذب والخيانة أعظم مما يجنبه السم الناقع، فإنه متى سهل له سبيل الكذب والخيانة أفسد عليه سعادة الدنيا الآخرة وحرمه كل خير.

ويجنبه الكسل والبطالة والدعة والراحة، بل يأخذ بأضدادها ولا يريحه إلا بما يجم نفسه وبدنه للشغل، فإن الكسل والبطالة عواقب سوء ومغبة ندم، وللجد والتعب عواقب حميدة، إما في الدنيا وإما في العقبى وإما فيهما، فأروح الناس أتعب الناس، وأتعب الناس أروح الناس، فالسيادة في الدنيا والسعادة في العقبى لا يوصل إليها إلا على جسر من التعب[(٢)].

---

(١) ١٤٢ تحفة المودود.

(٢) رحم الله القائل: بَصُرتَ بالرَّاحَةِ الكُبْرَىٰ فَلَمْ تَرَهَا   تُنالُ إلَّا علىٰ جسرٍ من التَّعَبِ

هذا بيت من بحر البسيط وينسب إلى أبي تمام: حبيب بن أوس الطائي أحد أمراء البيان المتوفى ٢٣١هـ.

قال يحيى بن أبي كثير: لا ينال العلم براحة الجسم[1]، ويعوده الانتباه آخر الليل، فإنه وقت قسم الغنائم وتفريق الجوائز، فمستقل ومستكثر ومحروم، فمتى اعتاد ذلك صغيرًا سهل عليه كبيرًا.

ويجنبه فضول الطعام والكلام والمنام ومخالطة الأنام، فإن الخسارة في هذه الفضلات، وهي تفوت على العبد خير دنياه وآخرته، ويجنبه مضار الشهوات المتعلقة بالبطن والفرج غاية التجنب، فإن تمكينه من أسبابها والفسح له فيها يفسده فسادًا يعز عليه بعده صلاحه، وكم من أشقى ولده وفلذة كبده في الدنيا والآخرة بإهماله وترك تأديبه وإعانته له على شهوته، ويزعم أنه يكرمه وقد أهانه، وأنه يرحمه وقد ظلمه وحرمه، ففاته انتفاعه بولده وفوت عليه حظه في الدنيا والآخرة، وإذا اعتبرت الفساد في الأولاد رأيت عامته من قبل الآباء.

والحذر كل الحذر من تمكينه من تناول ما يزيل عقله من مسكر وغيره، أو عشرة من يخشى فساده أو كلامه له أو الأخذ من يده، فإن ذلك الهلاك كله، ومتى سهل عليه ذلك فقد سهل الدياثة؛ ولا يدخل الجنة ديوث، فما أفسد الأبناء مثل تفريط الآباء وإهمالهم واستسهالهم شرر النار بين الثياب، فأكثر الآباء يعتمدون مع أولادهم أعظم ما يعتمده العدو الشديد العداوة مع عدوه وهم لا يشعرون، فكم من والد حرم ولده خير الدنيا والآخرة، وعرضه لهلاك الدنيا والآخرة، وكل هذا عواقب تفريط الآباء في حقوق الله وإضاعتهم لها وإعراضهم عما أوجب الله عليهم من العلم النافع والعمل الصالح، حرمهم الانتفاع بأولادهم، وحرم الأولاد خيرهم ونفعهم لهم هو من عقوبة الآباء.

ويجنبه لبس الحرير، فإنه مفسد له ومخنث لطبيعته، كما يجنبه اللواط وشرب

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٦١٢) بلفظ: لا يستطاع العلم براحة الجسم، وانظر: شرح النووي (٥/ ١١٣) والديباج على مسلم (٢/ ٢٦٦).

الخمر والسرقة والكذب، وقد قال النبي ﷺ: «يحرم الحرير والذهب على ذكور متي، وأحل لإناثهم»(١)، والصبي وإن لم يكن مكلفًا فوليه مكلف، لا يحل له تمكينه من المحرم، فإنه يعتاده ويعسر فطامه عنه، وهذا أصح قول العلماء، واحتج من لم يره حرامًا عليه بأنه غير مكلف، فلم يحرم لبسه للحرير كالدابةوهذا من أفسد القياس، فإن الصبي وإن لم يكن مكلفًا فإنه مستعد للتكليف، ولهذا لا يمكن من الصلاة بغير وضوء، ولا من الصلاة عريانًا ونجسًا، ولا من شرب الخمر والقمار واللواط.

ومما ينبغي أن يعتمد حال الصبي وما هو مستعد له من الأعمال ومهيأ له منها، فيعلم أنه مخلوق له فلا يحمله على غيره ما كان مأذونًا فيه شرعًا، فإنه إن حمل على غير ما هو مستعد له لم يفلح فيه وفاته ما هو مهيأ له، فإذا رآه حسن الفهم، صحيح الإدراك، جيد الحفظ واعيًا، فهذه من علامات قبوله وتهيؤه للعلم، لينقشه في لوح قلبه ما دام خاليًا، فإنه يتمكن فيه، ويستقر ويزكو معه، وإن رآه بخلاف ذلك من كل وجه وهو مستعد للفروسية، وأسبابها من الركوب والرمي واللعب بالرمح، وأنه لا نفاذ له في العلم ولم يخلق له، مكنه من أسباب الفروسية والتمرن عليها، فإنه أنفع له وللمسلمين، وإن رآه بخلاف ذلك، وأنه لم يخلق لذلك ورأى عينه مفتوحة إلى صنعة من الصنائع مستعدًا لها قابلًا لها وهي صناعة مباحة نافعة للناس، فليمكنه منها. هذا كله بعد تعليمه له ما يحتاج إليه في دينه، فإن ذلك ميسر على كل أحد لتقوم حجة الله على العبد، فإن له على عباده الحجة البالغة، كما له عليهم النعمة السابغة، والله أعلم.

(٢)فإذا صار ابن عشر ازداد قوة وعقلًا واحتمالًا للعبادات فيضرب على ترك الصلاة، كما أمر به النبي ﷺ، وهذا ضرب تأديب وتمرين، وعند بلوغ العشر يتجدد

---

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٢/ ٢٠٧-٢٠٨ رقم ٥٩١) والنسائي في الكبرى (٥/ ٤٣٧ رقم ٩٤٤٨، ٩٤٤٩) وأبو داود (رقم ٤٠٥٧) وابن ماجه (رقم ٣٥٩٥) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٤٢٥ رقم ٤٠١٩، ٤٠٢٠) والترمذي (رقم ١٧٢٠) وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢٩٦).

(٢) ١٧٩ تحفة المودود.

له حال أخرىٰ يقوىٰ فيها تمييزه ومعرفته، ولذلك ذهب كثير من الفقهاء إلىٰ وجوب الإيمان عليه في هذا الحال، وأنه يعاقب علىٰ تره، وهذا اختيار أبي الخطاب وغيره، وهو قول قوي جدًا، وإن رفع عنه قلم التكليف بالفروع، فإنه قد أعطىٰ آلة معرفة الصانع والإقرار بتوحيده وصدق رسله، وتمكن من نظر مثله واستدلاله كما هو متمكن من فهم العلوم والصنائع، ومصالح دنياه فلا عذر له في الكفر بالله ورسوله مع أن أدلة الإيمان بالله ورسوله أظهر من كل علم وصناعة يتعلمها...

(١)... وسمعت شيخنا ـ رحمه الله ـ يقول: تنازع أبوان صبيًا عند بعض الحكام فخيره بينهما، فاختار أباه، فقالت له أمه: اسأله: لأي شيء يختار أباه؟ فسأله. فقال: أمي تبعثني كل يوم للكتاب، والفقيه يضربني، وأبي يتركني ألعب مع الصبيان، فقضىٰ به للأم، وقال: أنت أحق به.

قال شيخنا: وإذا ترك أحد الأبوين تعليم الصبي وأمره الذي أوجبه الله عليه: فهو عاص، ولا ولاية له عليه. بل كل من لم يقم بالواجب في ولايته فلا ولاية له. بل إما أن يرفع يده عن الولاية، ويقام من يفعل الواجب. وإما أن يضم إليه من يقوم معه بالواجب؟ إذ المقصود طاعة الله ورسوله بحسب الإمكان.

قال شيخنا: وليس هذا الحق من جنس الميراث الذي يحصل بالرحم والنكاح والولاء، سواء كان الوارث فاسقًا أو صالحًا، بل هذا من جنس الولاية التي لا بد فيها من القدرة علىٰ الواجب والعلم به وفعله بحسب الإمكان.

قال: فلو قدر أن الأب تزوج امرأة لا تراعي مصلحة ابنته ولا تقوم بها، وأمها أقوم بمصلحتها من تلك الضرة، فالحضانة هنا للأم قطعًا.

قال: ومما ينبغي أن يعلم: أن الشارع ليس عنه نص عام في تقديم أحد الأبوين مطلقًا، ولا تخيير الولد بين الأبوين مطلقًا. والعلماء متفقون علىٰ أنه لا يتعين أحدهما مطلقًا. بل لا يقدم ذو العدوان والتفريط علىٰ البر العادل المحسن. والله أعلم.

---

(١) ٣٧٠ زاد المعاد جـ٤.

[(١)]قال الله تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦] قال ابن عباس وغيره: أدبوهم وعلموهم[(٢)].

وهذه اللفظة مؤذنة بالاجتماع، فالأدب: اجتماع خصال الخير في العبد، ومنه المأدبة. وهي الطعام الذي يجتمع عليه الناس.

[(٣)]...قوله تعالىٰ: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦]. المراد الأمر في الدنيا، لأن الآخرة ليس فيها أمر ولا نهي علىٰ الملائكة ولا غيرهم؛ لأن التعبد زائل. وفي البخاري عن علي: اليوم عمل لا حساب، وغدًا حساب ولا عمل[(٤)].

قلت: هذا وهم منه ـ رحمه الله تعالىٰ ـ فإن الله تعالىٰ يأمر الملائكة يوم القيامة بأخذ الكفار والمجرمين إلىٰ النار، وسوقهم إليه، وتعذيبهم فيها، ويأمر عباده بالسجود له فيخرون سجدًا إلا من منعه الله من السجود، ويأمر المؤمنين فيعبرون الصراط، ويأمر خزنة الجنة بفتحها لهم، ويأمر خزنة النار بفتحها لأهلها، ويأمر ملائكة السموات بالنزول إلىٰ الأرض، ويأمر بشأن البعث كله وما بعده، فالأمر يومئذ لله، ولا يعصىٰ الله في ذلك اليوم طرفة عين، وأوامره ذلك اليوم: للثواب والعقاب والشفاعة وغيرهم تضبطها قدرة الخالق، فكيف يقال: ليس في الآخرة أمر ولا نهي، حتىٰ يقال: لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون في الدنيا. أفترىٰ الله ﷻ لا يأمرهم يوم القيامة في أمر النار بشيء فلا يعصونه فيه.

نعم ليست الآخرة دار حرث، وإنما هي دار حصاد، وأوامر الرب ونواهيه ثابتة في الدارين، وكذلك أوامر التكليف ثابتة في البرزخ ويوم القيامة، وحكاه الأشعري في

---

(١) ٣٧٥ مدارج جـ٢.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٩٢).

(٣) ١٠٥ بدائع جـ٣.

(٤) أخرجه البخاري تعليقاً في كتاب الرقاق، باب في الأمل وطوله قبل حديث (رقم ٦٤١٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٣٧).

مقالاته عن أهل السنة في تكاليف من لم تبلغه الدعوة في الدنيا: أن يكلفوا يوم القيامة، فقول القائل: الآخرة ليست دار تكليف ولا أمر ولا نهي: قول باطل، ودعوى فاسدة. والله الموفق.

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾.

[١]جعل وقاية شر السيئات ـ وهو تكفيرها ـ بزوال ما يكره العبد. ودخول الجنات ـ وهو حصول ما يحب العبد ـ منوطًا بحصول التوبة النصوح. و«النصوح» على وزن فعول، المعدول به عن فاعل قصدًا للمبالغة. كالشكور والصبور. وأصل مادة (ن ص ح) لخلاص الشيء من الغش والشوائب الغريبة. وهو ملاق في الاشتقاق الأكبر لنصح إذا خلص. فالنصح في التوبة والعبادة والمشورة: تخليصها من كل غش ونقص وفساد، وإيقاعها على أكمل الوجوه. والنصح ضد الغش.

وقد اختلفت عبارات السلف عنها. ومرجعها إلى شيء واحد. فقال عمر بن الخطاب، وأبي بن كعب ـ رضي الله عنهما ـ: «التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه، كما لا يعود اللبن إلى الضرع»[٢]، وقال الحسن البصري: «هي أن يكون العبد نادمًا على ما مضى، مجمعًا على أن لا يعود فيه» وقال الكلبي: «أن يستغفر

---

(١) ٣٠٩ مدارج جـ١.

(٢) أخرجه الصنعاني في تفسيره (٣/ ٣٠٣) والطبري في تفسيره (٢٨/ ١٦٧) وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٣٦٢ رقم ١٨٩٢٥) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٥٤ رقم ٢٠٣٥٢) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٢٩٠) وابن أبي شيبة (٧/ ٩٩ رقم ٣٤٤٩١) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١٩٤٩) وهناد في الزهد (٢/ ٤٥٣-٤٥٤ رقم ٩٠١) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٠٤).

باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن» وقال سعيد بن المسيب: «توبة نصوحًا، تنصحون بها أنفسكم» جعلها بمعنى ناصحة للتائب، كضروب المعدول عن ضارب، وأصحاب القول الأول يجعلونها بمعنى المفعول، أي قد نصح فيها التائب ولم يشبها بغش. فهي إما بمعنى منصوح فيها، كركوبة وحلوبة، بمعنى مركوبة ومحلوبة، أو بمعنى الفاعل. أي ناصحة كخالصة وصادقة.

وقال محمد بن كعب القرظي: يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان،ومهاجرة سيء الإخوان.

قلت: النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء.

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنبًا إلا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها. بحيث لا يبقى عنده تردد، ولا تلوم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادرًا بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده. لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته، ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله، أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس، أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله ﷻ. فالأول: يتعلق بما يتوب منه، والثالث: يتعلق بمن يتوب إليه. والأوسط: يتعلق بذات التائب ونفسه. فنصح التوبة الصدق فيها، والإخلاص، وتعميم الذنوب بها. ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه، وتمحو جميع الذنوب، وهي أكمل ما يكون من التوبة. والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

***

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ

ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾.

[١]...ذكر ابن أبي داود في تفسير عن وهب بن منبه قال: إن الملائكة حين دخلوا على لوط ظن أنهم أضياف ضافوه فاحتفل لهم، وحرص على كرامتهم. وخالفته امرأته إلى فساق قومه، فأخبرتهم أنه ضاف لوطًا أحسن الناس وجهًا وأنضرهم جمالًا وأطيبهم ريحًا[٢]، فكانت هذه خيانتها التي ذكر الله ﷻ في كتابه. [وفيه] عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله: ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ [التحريم: ١٠] قال: والله ما زنتا ولا بغت امرأة نبي قط. فقيل له: فما كانت خيانة امرأة نوح وامرأة لوط؟ فقال: أما امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون، وأما امرأة لوط فإنها كانت تدل على الضيف.

وقال أبو مسلم الليثي في مسنده: حدثنا سليمان بن داود، حدثنا عبدالوارث، حدثنا القاسم بن عبدالرحمن، حدثنا عبدالله بن محمد بن عقيل قال: سمعت جابر بن عبدالله ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف على أمتي من بعدي عمل قوم لوط»[٣].

وقال هشام بن عمار: حدثنا عبدالعزيز الدراوردي عن عمرو بن أبي عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله من وقع على بهيمة، ولعن الله من عمل عمل قوط لوط»[٤] رواه الإمام أحمد.

---

(١) ٣٩٥ روضة المحبين.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ١٠٥).

(٣) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٩٧ رقم ٨٠٥٧) وابن ماجه (رقم ٢٥٦٣) والترمذي (رقم ١٤٥٧) وأبو يعلى (٤/ ٩٧ رقم ٢١٢٨) وأحمد (٣/ ٣٨٢) قال الحاكم: صحيح الإسناد. وقال الترمذي: حسنٌ غريبٌ. وانظر: تحفة الأحوذي (٥/ ١٩).

(٤) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٩٦ رقم ٨٠٥٢) والنسائي في الكبرى مختصراً (٤/ ٣٢٢ رقم ٧٣٣٩) والبيهقي =

وقال القعنبي: حدثنا عبدالعزيز هو الدراوردي، عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب بن عبدالله بن حنطب المخزومي، عن عكرمة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«لعن الله من تولى غير مواليه، ولعن الله من غير تخوم الأرض، ولعن الله من كمه أعمى عن السبيل، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط: ثلاثًا، ولعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من وقع على بهيمة»**(١) هذا الإسناد على شرط البخاري.

وقال أبو داود الطيالسي حدثنا بشر بن المفضل، عن خالد الحذاء، عن محمد بن سيرين، عن أبي موسى الأشعري ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: **«وإذا باشر الرجل الرجل فهما زانيان»** وفي لفظ: **«إذا أتى الرجل الرجل»**(٢).

وفي المسند والسنن من حديث عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«اقتلوا الفاعل والمفعول به»**. وفي لفظ: **«من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»**(٣). وإسناده على شرط البخاري.

= في الكبرى (٨/ ٢٣١ رقم ١٦٧٩٤) وعبدالرزاق (٧/ ٣٦٥ رقم ١٣٤٩٤) والطبراني في الكبير (١١/ ٢١٨ رقم ١١٥٤٦) وأحمد (١/ ٢١٧، ٣١٧) وأبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٣٢).

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٩٦ رقم ٨٠٥٢) وابن حبان (١٠/ ٢٦٥ رقم ٤٤١٧) وفي موارد الظمآن (رقم ٥٣) والبيهقي في الكبرى (٨/ ٢٣١ رقم ١٦٧٩٤) وأبو يعلى (٤/ ٤١٤ رقم ٢٥٣٩) وأحمد (١/ ٣٠٩).

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (٨/ ٢٣٣ رقم ١٦٨١٠) وفي الشعب (٤/ ٣٧٥ رقم ٥٤٥٨) قال البيهقي في السنن: ومحمد بن عبدالرحمن هذا لا أعرفه، وهو منكر بهذا الإسناد. وقال ابن الملقن في خلاصة البدر المنير (٢/ ٣٠٢): رواه البيهقي من رواية أبي موسى، وقال في إسناده من لا أعرفه. قلت: قد عرفه ابن أبي حاتم، ونقل عن والده توهينه. قال: وإسناده منكر. قلت: وله إسناد آخر فيه مجهول.

(٣) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٩٥ رقم ٨٠٤٧) وابن الجارود في المنتقى (رقم ٨٢٠) وأبو داود (رقم ٤٤٦٢) وابن ماجه (رقم ٢٥٦١) والبيهقي في الكبرى (٨/ ٢٣١ رقم ١٦٧٩٦) والترمذي (رقم ١٤٥٦) والدارقطني (٢/ ١٢٤ رقم ١٤٠) والطبري في تهذيب الآثار (١/ ٥٥٤ رقم ٨٧٠) وعبدالرزاق =

وروى سهيل بن أبي صالح [عن أبيه]، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فارجموه» أو قال: «فاقتلوا الفاعل والمفعول به».

وحرق اللوطية بالنار أربعة من الخلفاء: أبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن الزبير، وهشام بن عبد الملك(١).

(٢)فاشتملت هذه الآيات على ثلاثة أمثال: مثل للكفار، ومثلين للمؤمنين، فتضمن مثل الكفار أن الكافر يعاقب على كفره وعداوته لله ورسوله وأوليائه، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لحمة نسب أو وصلة صهر أو سبب من أسباب الاتصال؛ فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة إلا ما كان منها متصلًا بالله وحده على أيدي رسله، فلو نفعت وصلة القرابة والمصاهرة أو النكاح مع عدم الإيمان لنفعت الوصلة التي كانت بين لوط ونوح وامرأتيهما، فلما لم يغنيا عنهما من الله شيئًا: ﴿ وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم: ١٠] قطعت الآية حينئذ طمع من ركب معصية الله وخالف أمره، ورجا أن ينفعه صلاح غيره من قريب أو أجنبي، ولو كان بينهما في الدنيا أشد الاتصال، فلا اتصال فوق اتصال البنوة والأبوة والزوجية، ولم يغن نوح عن ابنه، ولا إبراهيم عن أبيه، ولا نوح ولا لوط عن امرأتيهما من الله شيئًا، قال الله تعالى: ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ [الممتحنة: ٣] وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ [الانفطار: ١٩] وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ [البقرة: ٤٨] وقال: ﴿ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ

=(٧/ ٣٦٤ رقم ١٣٤٩٢) والطبراني في الكبير (١١/ ٢١٢ رقم ١١٥٢٧) وأبو يعلى (٥/ ١٢٨ رقم ٢٧٤٣) وأحمد (١/ ٣٠٠) وعبد بن حميد (رقم ٥٧٥) وضعفه الحافظ ابن حجر في الفتح (١٢/ ١١٦).

(١) قال ذلك الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ١٩٨) وانظر: سبل السلام (٤/ ١٤) ونيل الأوطار (٧/ ٢٨٨).

(٢) ١٨٨ أعلام جـ١.

هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [لقمان: ٣٣] وهذا كله تكذيب لأطماع المشركين الباطلة أن من تعلقوا به من دون الله من قرابة أو صهر أو نكاح أو صحبة ينفعهم يوم القيامة، أو يجيرهم من عذاب الله، أو هو يشفع لهم عند الله، وهذا أصل ضلال بني آدم وشركهم، وهو الشرك الذي لا يغفره الله، وهو الذي بعث الله جميع رسله، وأنزل جميع كتبه بإبطاله، ومحاربة أهله ومعاداتهم.

وأما المثلان اللذان للمؤمنين، فأحدهما امرأة فرعون، ووجه المثل أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئًا إذا فارقه في كفره وعمله، فمعصية الغير لا تضر المؤمن المطيع شيئًا في الآخرة، وإن تضرر بها في الدنيا بسبب العقوبة التي تحل بأهل الأرض إذا أضاعوا أمر الله فتأتي عامة؛ فلم يضر امرأة فرعون اتصالها به وهو من أكفر الكافرين، ولم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما وهما رسولا رب العالمين.

المثل الثاني للمؤمنين مريم التي لا زوج لها، لا مؤمن ولاكافر، فذكر ثلاثة أصناف من النساء: المرأة الكافرة التي لها وصلة بالرجل الصالح، والمرأة الصالحة التي لها وصلة بالرجل الكافر، والمرأة العزب التي لا وصلة بينها وبين أحد: فالأولى لا تنفعها وصلتها وسببها، والثانية لا تضرها وصلتها وسببها، والثالثة لا يضرها عدم الوصلة شيئًا.

ثم في هذه الأمثال من الأسرار البديعة ما يناسب سياق السورة؛ فإنها سيقت في ذكر أزواج النبي ﷺ، والتحذير من تظاهرهن عليه، وأنهن إن لم يطعن الله ورسوله ويردن الدار الآخرة لم ينفعهن اتصالهن برسول الله ﷺ كما لم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما، ولهذا إنما ضرب في هذه السورة مثل اتصال النكاح دون القرابة.

قال يحيى بن سلام: ضرب الله المثل يحذر عائشة وحفصة، ثم ضرب لهما المثل الثاني يحرضهما على التمسك بالطاعة.

وفي ضرب المثل للمؤمنين بمريم أيضًا اعتبار آخر، وهو أنها لم يضرها عند الله شيئًا قذف أعداء الله: اليهود لها، ونسبتهم إياها وابنها إلى ما برأهما الله عنه، مع كونها

الصديقة الكبرىٰ المصطفاة علىٰ نساء العالمين؛ فلا يضر الرجل الصالح قدح الفجار والفساق فيه، وفي هذا تسلية لعائشة أم المؤمنين إن كانت السورة نزلت بعد قصة الإفك، وتوطين نفسها علىٰ ما قال فيها الكاذبون إن كانت قبلها، كما في ذكر التمثيل بامرأة نوح ولوط تحذير لها ولحفصة مما اعتمدناه في حق النبي ﷺ؛ فتضمنت هذه الأمثال التحذير لهن والتخويف، والتحريض لهن علىٰ الطاعة والتوحيد، والتسلية وتوطين النفس لمن أوذي منهن وكذب عليه! وأسرار التنزيل فوق هذا وأجل منه، ولا سيما أسرار الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة التحريم

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

سُورَةُ المُلْكِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾.

(١)أما البركة فكذلك نوعان أيضًا. أحدهما بركة هي فعله ـ تبارك وتعالى ـ والفعل منها بارك، ويتعدى بنفسه تارة، وبأداة [على] تارة وبأداة [في] تارة، والمفعول منها مبارك، وهو ما جعل كذلك، فكان مباركًا بجعله تعالى. والنوع الثاني بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة. والفعل منها تبارك،ولهذا لا يقال لغيره ذلك ولا يصلح إلا له ﷻ فهو سبحانه المبارك، وعبده ورسوله المبارك، كما قال المسيح: ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ [مريم: ٣١] فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك. وأما صفته تبارك فمختصة به تعالى، كما أطلقها على نفسه بقوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤] ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ [الملك: ١]، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤]، ﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٥]، ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ ﴾ [الفرقان: ١٠] ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ [الفرقان: ٦١] أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به لا تطلق على غيره، وجاءت على بناء السعة والمبالغة كتعالى وتعاظم ونحوهما، فجاء بناء تبارك على بناء تعالى، الذي هو دال على كمال العلو ونهايته، فكذلك تبارك دال على كمال بركته وعظمها وسعتها. وهذا معنى قول من قال من السلف: تبارك: تعاظم. وقال آخر: معناه أن تجيء البركات من قبله، فالبركة كلها منه. وقال غيره: كثر خيره وإحسانه إلى خلقه. وقيل: اتسعت رأفته ورحمته بهم. وقيل: تزايد عن كل شيء، وتعالى

---

(١) ١٨٥ بدائع جـ٣.

عنه في صفاته وأفعاله.

ومن هنا قيل معناه: تعالى وتعاظم. وقيل تبارك: تقدس، والقدس: الطهارة. وقيل: تبارك أي باسمه يبارك في كل شيء. وقيل: تبارك ارتفع. والمبارك المرتفع، ذكره البغوي. وقيل: تبارك أي البركة تكتسب وتنال بذكره. وقال ابن عباس: بكل بركة. وقيل: معناه ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال، ذكره البغوي أيضًا.

وحقيقة اللفظة: أن البركة كثرة الخير ودوامه، ولا أحد أحق بذلك وصفًا وفعلًا منه - تبارك وتعالى -.

وتفسير السلف بدور على هذين المعنيين، وهما متلازمان، لكن الأليق باللفظة معنى الوصف لا الفعل، فإنه فعل لازم مثل: تعالى وتقدس وتعاظم. ومثل هذه الألفاظ ليس معناه أنه جعل غيره عاليًا ولا قدوسًا ولا عظيمًا هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه، وإنما معناها في نفس من نسبت إليه فهو المتعالي المتقدس، فكذلك تبارك لا يصح أن يكون معناها بارك في غيره، وأين أحدهما من الآخر لفظًا ومعنى؟ هذا لازم وهذا متعد، فعلمت أن من فسر تبارك بمعنى ألقى البركة وبارك في غيره لم يصب معناها، وإن كان هذا من لوازم كونه متباركًا، فتبارك من باب مجد والمجد كثرة صفات الجلال والسعة والفضل، وبارك من باب أعطى وأنعم.

ولما كان المتعدي في ذلك يستلزم اللازم من غير عكس فسر من فسر من السلف اللفظة بالمتعدي لينتظم المعنيين، فقال مجيء البركة كلها من عنده أو البركة كلها من قبله، وهذا فرع على تبارك في نفسه. وقد أشبعنا القول في هذا في كتاب الفتح المكي، وبينا هناك أن البركة كلها له تعالى ومنه، فهو المبارك ومن ألقى عليه بركته فهو المبارك، ولهذا كان كتابه مباركًا ورسوله وبيته مباركًا والأزمنة والأمكنة التي شرفها واختصها عن غيرها مباركة: فليلة القدر مباركة، وما حول المسجد الأقصى مبارك،، وأرض الشام وصفها بالبركة في أربعة مواضع من كتابه أو خمسة.

وتدبر قول النبي ﷺ في حديث ثوبان الذي رواه مسلم في صحيحه عند انصرافه من

الصلاة: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت ياذا الجلال والإكرام»[(١)].

فتأمل هذه الألفاظ الكريمة كيف جمعت نوعي الثناء، أعني: ثناء التنزيه والتسبيح وثناء الحمد والتمجيد بأبلغ لفظ وأوجزه وأتمه معنى، فأخبر أنه السلام ومنه السلام، فالسلام له وصفًا وملكًا.

وقد تقدم بيان هذا في وصفه ـ تعالى ـ بالسلام، وأن صفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله وأسماءه كلها سلام، وكذا الحمد كله له وصفًا وملكًا فهو المحمود في ذاته، وهو الذي يجعل من يشاء من عباده محمودًا فيهبه حمدًا من عنده، وكذلك العزة كلها له وصفًا وملكًا، وهو العزيز الذي لا شيء أعز منه، ومن عز من عباده فبإعزازه له. وكذلك الرحمة كلها له وصفًا وملكًا. وكذلك البركة فهو المتبارك في ذاته، الذي يبارك فيمن شاء من خلقه وعليه فيصبر بذلك مباركًا ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤]، ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥] وهذا بساط وإنما غاية معارف العلماء الدنو من أول حواشيه وأطرافه، وأما ما وراء ذلك فكما قال أعلم الخلق بالله وأقربهم إلى الله وأعظمهم عنده جاهًا: «لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[(٢)] وقال في حديث الشفاعة الطويل: «فأخر ساجدًا لربي فيفتح عليَّ من محامده بما لا أحسنه الآن»[(٣)] وفي دعاء الهم والغم: «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك»[(٤)] فدل على أن

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٥٩١، ٥٩٢) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٣٦) (١١/ ١٣٣).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٦) وانظر: عمدة القاري (٧/ ١٩).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٤٧١٢) ومسلم (رقم ١٩٤) وانظر: عمدة القاري (١٩/ ٢٧).

(٤) أخرجه ابن حبان (٣/ ٢٥٣ رقم ٩٧٢) وفي موارد الظمآن (رقم ٢٣٧٢) والحاكم (١/ ٦٩٠ رقم ١٨٧٧) وابن أبي شيبة (٦/ ٤٠ رقم ٢٩٣١٨) وأبو يعلى (٩/ ١٩٨-١٩٩ رقم ٥٢٩٧) وأحمد (١/ ٣٩١) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٦٩ رقم ١٠٣٥٢) والبزار (٥/ ٣٦٣ رقم ١٩٩٤) وقال =

الله ﷻ له أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده دون خلقه، لا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل. وحسبنا الإقرار بالعجز والوقوف عند ما أذن لنا فيه من ذلك، فلا نغلوا فيه ولا نجفوا عنه، وبالله التوفيق.

***

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾.

(١) إن العلم إمام العمل وقائد له والعمل تابع له ومؤتم به، فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتديًا به فهو غير نافع لصاحبه بل مضرة عليه.

كما قال بعض السلف: من عبدالله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح. والأعمال إنما تتفاوت في القبول والرد بحسب موافقتها للعلم ومخالفتها له، فالعمل الموافق للعلم هو المقبول، والمخالف له هو المردود، فالعلم هو الميزان وهو المحك. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢].

قال الفضيل بن عياض: هو أخلص العمل وأصوبه. قالوا: يا أبا علي! ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا.فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة(٢)، وقد قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠] فهذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل الله من الأعمال سواه، وهو أن يكون موافقًا لسنة رسول الله ﷺ مرادًا به وجه الله.

الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٣٦): رواه أحمد وأبو يعلى والبزار إلا أنه قال: «وذهاب غمي» مكان «همي» والطبراني ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان. وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٢٠) وشرح النووي (١٧/ ٥-٦).

(١) ٨٢ مفتاح جـ١.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٩٥) وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٣).

ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم، فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسول لم يمكنه قصده، وإن لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده، فلولا العلم لما كان عمله مقبولًا، فالعلم هو الدليل على الإخلاص، وهو الدليل على المتابعة، وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧].

وأحسن ما قيل في تفسير الآية: إنه إنما يتقبل الله عمل من اتقاه في ذلك العمل، وتقواه فيه أن يكون لوجهه على موافقة أمره، وهذا إنما يحصل بالعلم وإذا كان هذا منزلة العلم وموقعه علم أنه أشرف شيء وأجله وأفضله والله أعلم.

***

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝ ﴾.

[1] اعتراف العبد بقيام حجة الله عليه من لوازم الإيمان. أطاع أم عصى. فإن حجة الله قامت على العبد بإرسال الرسول، وإنزال الكتاب، وبلوغ ذلك إليه، وتمكنه من العلم به. سواء علم أو جهل. فكل من تمكن من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه.فقصر عنه ولم يعرفه. فقد قامت عليه الحجة. والله سبحانه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه. فإذا عاقبه على ذنبه عاقبه بحجته على ظلمه. قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال: ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الملك: ٨ ـ ٩].

***

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝ ﴾.

(١) ٢١٠ مدارج جـ١.

[(١)]إن الله تعالى وصف أهل النار بالجهل، وأخبر أنه سد عليهم طرق العلم، فقال تعالى حكاية عنهم: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝ ﴾ [الملك: ١٠، ١١] فأخبروا أنهم كانوا لا يسمعون ولا يعقلون، والسمع والعقل هما أصل العلم وبهما ينال.

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] فأخبر سبحانه أنهم لم يحصل لهم علم من جهة من جهات العلم الثلاث، وهي: العقل والسمع والبصر. كما قال في موضع آخر: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١]. وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

فقد وصف أهل الشقاء كما ترى بعدم العلم وشبههم بالأنعام تارة، وتارة بالحمار الذي يحمل الأسفار، وتارة جعلهم أضل من الأنعام وتارة جعلهم شر الدواب عنده، وتارة جعلهم أمواتًا غير أحياء، وتارة أخبر أنهم في ظلمات الجهل والضلال، وتارة أخبر أن على قلوبهم أكنة وفي آذانهم وقرًا وعلى أبصارهم غشاوة، وهذا كله يدل على قبح الجهل وذم أهله وبغضه لهم، كما أنه يحب أهل العلم ويمدحهم ويثني عليهم كما تقدم،والله المستعان.

[(٢)]واعلم أنه إن لم يكن حسن التوحيد وقبح الشرك معلومًا بالعقل، مستقرًا في

---

(١) ٥٩ مفتاح جـ١.

(٢) ٤٩١ مدارج جـ٣.

الفطر، فلا وثوق بشيء من قضايا العقل. فإن هذه القضية من أجل القضايا البديهيات، وأوضح ما ركب الله في العقول والفطر. ولهذا يقول - سبحانه - عقيب تقرير ذلك: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

وينفي العقل عن أهل الشرك، ويخبر عنهم بأنهم يعترفون في النار: أنهم لم يكونوا يسمعون ولا يعقلون. وأنهم خرجوا عن موجب السمع والعقل.

وأخبر عنهم أنهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وأخبر عنهم أن سمعهم وأبصارهم وأفئدتهم لم تغن عنهم شيئًا. وهذا إنما يكون في حق من خرج عن موجب العقل الصريح والفطرة الصحيحة.

ولو لم يكن في صريح العقل ما يدل على ذلك لم يكن في قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُواْ﴾ و﴿فَٱعْتَبِرُواْ﴾ و﴿سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ﴾ فائدة. فإنهم يقولون: عقولنا لا تدل على ذلك. وإنما هو مجرد إخبارك. فما هذا النظر والتفكر والاعتبار والسير في الأرض؟ وما هذه الأمثال المضروبة، والأقيسة العقلية والشواهد العيانية؟ أفليس في ذلك أظهر دليل على حسن التوحيد والشكر؟

وقبح الشرك والكفر مستقر في العقول والفطر. معلوم لمن كان له قلب حي، وعقل سليم، وفطرة صحيحة؟ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]. وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١]. وقال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ

ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٢٥].

ومن بعض الأدلة العقلية: ما أبقاه الله تعالى من آثار عقوبات أهل الشرك وآثار ديارهم، وما حل بهم، وما أبقاه من نصر أهل التوحيد وإعزازهم. وجعل العاقبة لهم. قال تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٣٨]. وقال في ثمود: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [النمل: ٥٢، ٥٣]. وقال في قوم لوط: ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٣٤، ٣٥]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر: ٧٥- ٧٩]. وقال تعالى في قوم لوط: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

***

﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾.

(1) من ذلك احتجاجه ـ سبحانه ـ على إثبات علمه بالجهات كلها بأحسن دليل وأوضحه وأصحه، حيث يقول: ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الملك: ١٣] ثم قرر علمه بذلك بقوله: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٤] وهذا من أبلغ التقرير. فإن الخالق لابد أن يعلم مخلوقه، وإذا كنتم مقرين بأنه خالقكم وخالق صدوركم وما تضمنته فكيف تخفى عليه وهي

---

(١) ٥٥ شفاء.

خلقه؟ وهذا التقرير مما يصعب علي القدرية فهمه، فإنه لم يخلق عندهم ما في الصدور. فلم يكن في الآية على أصولهم دليل على علمه بها. ولهذا طرد غلاة القوم ذلك ونفوا علمه، فكفرهم السلف قاطبة.وهذا التقرير من الآية صحيح على التقديرين، أعني تقدير أن يكون [من] في محل رفع على الفاعلية أو في محل نصب على المفعولية. فعلى التقدير الأول ألا يعلم الرب مخلوقه ومصنوعه؟ ثم ختم الحجة باسمين مقتضيين لثبوتها، وهما اللطيف الذي لطف صنعه وحكمته ودق حتى عجزت عنه الأفهام. والخبير الذي انتهى علمه إلى الإحاطة ببواطن الأشياء وخفاياها، كما أحاط بظواهرها. فكيف يخفى على اللطيف الخبير ما تخفيه الضمائر وتجنه الصدور.

(١)قوله تعالى: ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٣، ١٤] وذات الصدور كلمة لما يشتمل عليه الصدر من الاعتقادات والإرادات والحب والبغض أي صاحبة الصدور، فإنها لما كانت فيها قائمة بها نسبت إليها نسبة الصحبة والملازمة.

وقد اختلف في إعراب (من خلق) هو النصب أو الرفع.

فإن كان مرفوعًا فهو استدلال على علمه بذلك لخلقه له، والتقدير أنه يعلم ما تضمنته الصدور، كيف لا يعلم الخالق ما خلقه، وهذا الاستدلال في غاية لظهور والصحة، فإن الخلق يستلزم حياة الخالق وقدرته وعلمه ومشيئته.

وإن كان منصوبًا فالمعنى ألا يعلم مخلوقه، وذكر لفظة (من) تغليبًا ليتناول العلم العاقل وصفاته على التقديرين، فالآية دالة على خلق ما في الصدور كما هي دالة على علمه سبحانه به.

وأيضًا فإنه سبحانه خلقه لما في الصدور دليلًا على علمه بها، فقال: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ [الملك: ١٤] أي كيف يخفى عليه ما في الصدور وهو الذي خلقه، فلو كان ذلك

(١) ١٠٩ مختصر الصواعق جـ١.

غير مخلوق له لبطل الاستدلال به على العلم، فخلقه سبحانه للشيء من أعظم الأدلة علي علمه به، فإذا انتفى الخلق انتفى دليل العلم، فلم يبق ما يدل على علمه بما ينطوي عليه الصدر إذا كان غير خالق لذلك، وهذا من أعظم الكفر برب العالمين وجحد لما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى آخرهم، وعلم بالضرورة إنهم ألقوه إلى الأمم كما ألقوا إليهم أنه إله واحد لا شريك له.

(١)نبه سبحانه على إثبات صفاته وأفعاله بطريق المعقول. فاستيقظت لتنبيهه العقول الحية، واستمرت على رقادها العقول الميتة، فقال في صفة العلم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] فتأمل صحة هذا الدليل مع غاية إيجاز لفظه واختصاره، وقال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧] فما أصح هذا الدليل وما أوجزه، وقال تعالى في صفة الكلام: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٨] نبه بهذا الدليل على أن من لا يكلم ولا يهدي لا يصلح أن يكون إلهًا. وكذلك قوله في الآية الأخرى عن العجل: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩] فجعل امتناع صفة الكلام والتكليم وعدم ملك الضر والنفع دليلًا على عدم الإلهية. وهذا دليل عقلي سمعي على أن الإله لا بد أن يكلم ويتكلم ويملك لعباده الضر والنفع، وإلا لم يكن إلهًا، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٨، ١٠] نبه بهذا الدليل العقلي القاطع أن الذي جعلك تتصرف وتتكلم وتعلم أولى أن يكون بصيرًا متكلمًا عالمًا، وأي دليل عقلي قطعي أقوى من هذا وأبين وأقرب إلى العقول؟ وقال تعالى في آلهة المشركين المعطلين: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥] فجعل سبحانه عدم

(١) ١٥٩ مختصر الصواعق جـ١.

البطش والسمع والمشي والبصر لهم دليلًا على عدم إلهية من عدمت منه هذه الصفات، وقد وصف الله سبحانه نفسه بضد صفة أوثانهم وبصد ما وصفه به المعطلة والجهمية. فوصف نفسه بالسمع والبصر والفعل باليدين والمجيء والإتيان. وذكر ضد صفات الأصنام التي جعل امتناع هذه الصفات فيها دليلًا علي عدم إلهيتها. فتأمل آيات التوحيد والصفات في القرآن على كثرتها وتفننها واتساعها وتنوعها تجدها كلها قد أثبتت الكمال للموصوف بها وأنه المتفرد بذلك الكمال، فليس له فيه شبيه ولا مثيل. وأي دليل في العقل أوضح من إثبات الكمال المطلق لخالق هذا العالم ومدبره وملك السموات والأرض وقيومهما؟ فإذا لم يكن في العقل إثبات جميع الكمال له فأي قضية تصح في العقل بعد هذا؟ ومن شك في أن صفة السمع والبصر والكلام والحياة والإرادة والقدرة والغضب والرضى والفرح والرحمة كمال فهو من سلب خاصة الإنسانية وانسلخ من العقل، بل من شك أن إثبات الوجه واليدين وما أثبته لنفسه معهما كمال فهو مصاب في عقله. ومن شك أن كونه يفعل باختياره ما شاء ويتكلم إذا شاء، وينزل إلى حيث يشاء، ويجيء إلى حيث شاء غير كمال فهو جاهل بالكمال والجماد عنده أكمل من الحي الذي تقوم به الأفعال الاختيارية.

***

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾.

[(١)]أخبر سبحانه أنه جعل الأرض ذلولًا منقادة للوطء عليها وحفرها وشقها والبناء عليها، ولم يجعلها مستصعبة ممتنعة على من أراد ذلك منها. وأخبر ـ سبحانه ـ أن جعلها مهادًا وفراشًا، وبساطًا وقرارًا وكفاتًا. وأخبر أنه دحاها وطحاها، وأخرج منها ماءها ومرعاها. وثبتها بالجبال، ونهج فيها الفجاج والطرق، وأجرى فيها الأنهار

(١) ١٧ فوائد.

والعيون، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها. ومن بركتها أن الحيوانات كلها وإرزاقها وأقواتها تخرج منها.

ومن بركتها أنك تودع فيها الحب، فتخرجه لك أضعاف أضعاف ما كان.

ومن بركتها أنها تحمل الأذىٰ علىٰ ظهرها وتخرج لك من بطنها أحسن الأشياء وأنفعها، فتواريٰ منه كل قبيح وتخرج له كل مليح.

ومن بركتها أنها تستر قبائح العبد وفضلات بدنه وتواريها وتضمه وتؤويه،وتخرج له طعامه وشرابه؛ فهي أحمل شيء للأذىٰ وأعوده بالنفع، فلا كان من التراب خير منه وأبعد من الأذىٰ وأقرب إلىٰ الخير.

والمقصود أنه سبحانه جعل لنا الأرض كالجمل الذلول، الذي كيفما يقاد ينقاد، وحسن التعبير بمناكبها عن طرقها وفجاجها لما تقدم من وصفها بكونها ذلولًا؛ فالماشي عليها يطأ علىٰ مناكبها، وهو أعلىٰ شيء فيها، ولهذا فسرت المناكب بالجبال كمناكب الإنسان، هي أعاليه. قالوا وذلك تنبيه علىٰ أن المشي في سهولها أيسر. وقالت طائفة، بل المناكب الجوانب والنواحي، ومنه مناكب الإنسان لجوانبه.

والذي يظهر أن المراد بالمناكب الأعالي. وهذا الوجه الذي يمشي عليه الحيوان هو العالي من الأرض دون الوجه المقابل له، فإن سطح الكرة أعلاها، والمشي إنما يقع في سطحها. وحسن التعبير عنه بالمناكب لما تقدم من وصفها بأنها ذلول. ثم أمرهم أن يأكلوا من رزقه الذي أودعه فيها، فذللها لهم ووطأها وفتق فيها السبل والطرق التي يمشون فيها وأودعها رزقهم، فذكر تهيئة المسكن للانتفاع والتقلب فيه بالذهاب والمجيء والأكل مما أودع فيه للساكن.

ثم نبه بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥] علىٰ أنا في هذا المسكن غير مستوطنين ولا مقيمين، بل دخلناه عابري سبيل. فلا يحسن أن نتخذه وطنًا ومستقرًا، وإنما دخلناه لنتزود منه إلىٰ دار القرار، فهو منزل عبور لا مستقر حبور، ومعبر وممر لا وطن ومستقر.

فتضمنت الآية الدلالة على ربوبيته ووحدانيته، وقدرته وحكمته ولطفه، والتذكير بنعمه وإحسانه، والتحذير من الركون إلى الدنيا واتخاذها وطنًا ومستقرًا، بل نسرع فيها السير إلى داره وجنته. فلله ما في ضمن هذه الآية من معرفته وتوحيده والتذكير بنعمه، والحث على السير إليه والاستعداد للقائه والقدوم عليه، والإعلام بأنه سبحانه يطوي هذه الدار كأن لم تكن، وأنه يحيي أهلها بعد ما أماتهم، وإليه النشور.

***

﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ ﴾.

(١)جمع سبحانه بين النصر والرزق، فإن العبد مضطر إلى من يدفع عنه عدوه بنصره، ويجلب له منافعه برزقه، فلابد له من ناصر ورازق. والله وحده هو الذي ينصر ويرزق، فهو الرزاق ذو القوة المتين. ومن كمال فطنة العبد ومعرفته: أن يعلم أنه إذا مسه الله بسوء لم يرفعه عنه غيره. وإذا ناله بنعمة لم يرزقه إياها سواه.

ويذكر أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه «أدرك لي لطيف الفطنة، وخفي اللطف، فإني أحب ذلك. قال: يا رب وما لطيف الفطنة؟ قال: إن وقعت عليك ذبابة فاعلم أني أنا أوقعتها فاسألني أرفعها. قال: وما خفي اللطف؟ قال: إذا أتتك حبة فاعلم أني أنا ذكرتك بها» وقد قال تعالى عن السحرة: ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢] فهو سبحانه وحده الذي يكفي عبده وينصره ويرزقه ويكلؤه.

***

﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

(٢)كتاب لوجه الضرس: يكتب على الخد الذي يلي الوجع: بسم الله الرحمن

---

(١) ٣٣ إغاثة جـ١.

(٢) ٣٨٣ زاد المعاد جـ٣.

الرحيم: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣] وإن شاء كتب: ﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[١] [الأنعام: ١٣].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الملك

والحمد لله رب العالمين

(١) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ١١).

سُورَةُ القَلَمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾.

(١) الصحيح أن «نٓ» و«قٓ» و«صٓ» من حروف الهجاء التي يفتتح بها الرب سبحانه بعض السور، وهي أحادية، وثنائية، وثلاثية، ورباعية، وخماسية، ولم تجاوز الخمسة، ولم تذكر قط في أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن، إما مقسمًا به، وإما مخبرًا عنه، ما خلا سورتين سورة «كٓهيعٓصٓ» و«نٓ» كقوله: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ [البقرة: ١، ٢]، ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [آل عمران: ١-٣]، ﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١، ٢]، ﴿ الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد: ١] وهكذا إلى آخره.

ففي هذا تنبيه على شرف هذه الحروف، وعظم قدرها، وجلالتها. إذ هي مباني كلامه وكتبه، التي تكلم سبحانه بها، وأنزلها على رسله، وهدى بها عباده، وعرفهم بواسطتها نفسه، وأسماءه، وصفاته، وأفعاله، وأمره، ونهيه، ووعيده، ووعده، وعرفهم بها الخير والشر، والحسن والقبيح، وأقدرهم على التكلم بها، بحيث يبلغون بها أقصى ما في أنفسهم. بأسهل طريق وقلة كلفة ومشقة، وأوصله إلى المقصود، وأدله عليه.

وهذا من أعظم نعمه عليهم، كما هو من أعظم آياته. ولهذا عاب سبحانه على من عبد إلهًا لا يتكلم، وامتن على عباده بأن أقدرهم علي البيان بها بالتكلم. فكان في ذكر هذه الحروف التنبيه على كمال ربوبيته، وكمال إحسانه وإنعامه، فهي أولى أن يقسم بها من الليل والنهار، والشمس والقمر، والسماء والنجوم، وغيرها من المخلوقات. فهي

---

(١) ١٢٦ التبيان.

دالة أظهر دلالة على وحدانيته وقدرته، وحكمته وكماله وكلامه، وصدق رسله.

وقد جمع سبحانه بين الأمرين ـ أعني القرآن ونطق اللسان ـ وجعل تعليمها من تمام نعمته وامتنانه، كما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ - ٤].

فبهذه الحروف علم القرآن، وبها علم البيان. وبها فضل الإنسان على سائر أنواع الحيوان. وبها أنزل كتبه، وبها أرسل رسله، وبها جمعت العلوم وحفظت. وبها انتظمت مصالح العباد في المعاش والمعاد، وبها يتميز الحق من الباطل. والصحيح من الفاسد، وبها جمع أشتات العلوم، وبها أمكن تنقلها في الأذهان؛ وكم جلب بها من نعمة ودفع بها من نقمة؟ وأقيلت بها من عثرة، وأقيمت بها من حرمة، وهدى بها من ضلالة، وأقيم بها من حق، وهدم بها من باطل؟ فآياته ـ سبحانه ـ في تعليم البيان كآياته في خلق الإنسان.

ولولا عجائب صنع الله ما ثبتت تلك الفضائل في لحم ولا عصب.

فسبحان من هذا صنعه في هواء يخرج من قصبة الرئة، فينضم في الحلقوم وينفرش في أقصى الحلق، ووسطه. وآخره، وأعلاه، وأسفله، وعلى وسط اللسان وأطرافه وبين الثنايا، وفي الشفتين،والخيشوم. فيسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له. فإذا هو حرف.

فألهم سبحانه الإنسان بضم بعضها إلى بعض فإذا هي كلمات قائمة بأنفسها. ثم ألهمهم تأليف تلك الكلمات بعضها إلى بعض، وإذا هي كلام دال على أنواع المعاني، أمرًا ونهيًا، وخبرًا واستخبارًا، ونفيًا وإثباتًا. وإقرارًا وإنكارًا، وتصديقًا وتكذيبًا، وإيجابًا واستحبابًا. وسؤالًا وجوابًا. إلى غير ذلك من أنواع الخطاب، نظمه ونثره، ووجيزه، ومطوله، على اختلاف لغات الخلائق، كل ذل صنعته ـ تبارك وتعالى ـ في هواء مجرد خارج من باطن الإنسان إلى ظاهره، في مجار قد هيئت وأعدت لتقطيعه وتفصيله، ثم تأليفه وتوصيله، فتبارك الله رب العالمين، وأحسن الخالقين. فهذا شأن الحرف المخلوق.

وأما الحرف الذي به تكون المخلوقات فشأنه أعلىٰ وأجل.

وإذا كان هذا شأن الحروف فحقيق أن تفتتح بها السور. كما افتتحت بالإقسام لما فيها من آيات الربوبية وأدلة الوحدانية. فهي دالة علىٰ كمال قدرته ـ سبحانه ـ، وكمال علمه، وكمال حكمته، وكمال رحمته وعنايته بخلقه، ولطفه وإحسانه.

وإذا أعطيت الاستدلال بها حقه استدللت بها علىٰ المبدأ والمعاد، والخلق والأمر، والتوحيد والرسالة. فهي من أظهر أدلة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله. وأن القرآن كلام الله. تكلم به حقًا، وأنزله علىٰ رسوله وحيًا. وبلغه كما أوحىٰ إليه صدقًا، ولا تهمل الفكرة في كل سورة افتتحت بهذه الحروف. واشتمالها علىٰ آيات هذه المطالب وتقريرها. وبالله التوفيق.

ثم أقسم ـ سبحانه ـ بـ ﴿ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم: ١]. فأقسم بالكتاب وآلته وهو القلم الذي هو إحدىٰ آياته وأول مخلوقاته الذي جرىٰ به قدره وشرعه، وكتب به الوحي. وقيد به الدين. وأثبتت به الشريعة وحفظت به العلوم. وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد، فوطدت به الممالك. وأمنت به السبل والمسالك. وأقام في الناس أبلغ خطيب وأنصحه. وأنفعه لهم وأنصحه. وواعظًا تشفي مواعظه القلوب من السقم. وطبيبًا يبرئ بإذنه من أنواع الألم: يكسر العساكر العظيمة علىٰ أنه الضعيف الوحيد، ويخاف سطوته وبأسه ذو البأس الشديد، وبالأقلام تدبر الأقاليم وتساس الممالك. والقلم لسان الضمير يناجيه بما استتر عن الأسماع، فينسج حلل المعاني في الطرفين، فتعود أحسن من الوشي المرقوم. ويودعها حكمه فتصير بوادر الفهوم. والأقلام نظام للأفهام. وكما أن اللسان بريد القلب، فالقلم بريد اللسان، ويولد الحروف المسموعة عن اللسان كتولد الحروف المكتوبة عن القلم، والقلم بريد القلب ورسوله وترجمانه ولسانه الصامت.

والأقلام متفاوتة في الرتب. فأعلاها وأجلها قدرًا قلم القدر السابق الذي كتب الله به مقادير الخلائق.

كما في سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، قال: يا رب، وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتىٰ تقوم الساعة**»[(١)].

واختلف العلماء. هل القلم أول المخلوقات أو العرش؟ علىٰ قولين ذكرهما الحافظ أبو يعلىٰ الهمداني. أصحهما أن العرش قبل القلم، لما ثبت في الصحيح من حديث عبدالله بن عمرو. قال: قال رسول الله ﷺ: «**قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام، وعرشه علىٰ الماء**»[(٢)] فهذا صريح أن التقدير وقع قبل خلق العرش. والتقدير وقع عند أول خلق القلم لحديث عبادة هذا.

ولا يخلو قوله: «**إن أول ما خلق الله القلم**» إلىٰ آخره. إما أن يكون جملة أو جملتين. فإن كان جملة ـ وهو الصحيح ـ كان معناه أنه عند أول خلقه قال له: اكتب. كما في لفظ: «**أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب**» بنصب أول، والقلم فإن كان جملتين وهو مروي برفع أول والقلم، فيتعين حمله علىٰ أنه أول المخلوقات من هذا العالم، ليتفق الحديثان. إذ حديث عبدالله بن عمر صريح في أن العرش سابق علىٰ التقدير. والتقدير مقارن لخلق القلم، وفي اللفظ الآخر: «**لما خلق الله القلم قال له: اكتب**».

فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها. وقد قال غير واحد من أهل التفسير: إنه القلم الذي أقسم الله به.

القلم الثاني: قلم الوحي، وهو الذي يكتب به وحي الله إلىٰ أنبيائه ورسله.

---

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٨/ ٢٧٤ رقم ٣٣٦) وأبو داود (رقم ٤٧٠٠) والبيهقي في الكبرىٰ (١٠/ ٢٠٤ رقم ٢٠٦٦٤) والترمذي (رقم ٢١٥٥) والبزار (٧/ ١٣٧ رقم ٢٦٨٧) والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٥٧ رقم ٥٨) وفي الأوائل (رقم ١) والطيالسي (رقم ٥٧٧) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٣٥٧) وانظر: فتح الباري (٦/ ٢٨٩) (١٣/ ٣٩٤-٣٩٦).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٥٣) وانظر: فتح الباري (٦/ ٢٨٩) (١١/ ٤٨٩) وشرح النووي (١٦/ ٢٠٣-٢٠٤).

وأصحاب هذا القلم هم الحكام علىٰ العالم. والعالم خدم لهم. وإليهم الحل والعقد، والأقلام كلها خدم لأقلامهم.

وقد رفع النبي ﷺ ليلة الإسراء إلىٰ مستوىٰ يسمع فيه صريف الأقلام: فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوحيه الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ من الأمور التي يدبر بها أمر العالم العلوي والسفلي.

والقلم الثالث: قلم التوقيع عن الله ورسوله. وهو قلم الفقهاء والمفتين، وهذا القلم أيضًا حاكم غير محكوم عليه. فإليه التحاكم في الدماء والأموال والفروج والحقوق. وأصحابه مخبرون عن الله بحكمه الذي حكم به بين عباده. وأصحابه حكام وملوك علىٰ أرباب الأقلام. وأقلام العالم خدم لهذا القلم.

القلم الرابع: قلم طب الأبدان التي تحفظ بها صحتها الموجودة، وترد إليها صحتها المفقودة، وتدفع به عنها آفاتها وعوارضها المضادة لصحتها، وهذا القلم أنفع الأقلام بعد قلم طب الأديان. وحاجة الناس إلىٰ أهله تلتحق بالضرورة.

القلم الخامس: التوقيع عن الملوك ونوابهم، وسياس الملك، ولهذا كان أصحابه أعز أصحاب الأقلام، والمشاركون للملوك في تدبير الدول. فإن صلحت أقلامهم صلحت المملكة وإن فسدت أقلامهم فسدت المملكة، وهم وسائط بين الملوك ورعاياهم.

القلم السادس: قلم الحساب، وهو القلم الذي تضبط به الأموال، مستخرجها ومصروفها ومقاديرها، وهو قلم الأرزاق، وهو قلم الكم المتصل والمنفصل. الذي تضبط به المقادير وما بينها من التفاوت والتناسب. ومبناه علىٰ الصدق والعدل فإذا كذب هذا القلم وظلم فسد أمر المملكة.

القلم السابع: قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق، وتنفذ به القضايا، وتراق به الدماء، وتؤخذ به الأموال والحقوق من اليد العادية فترد إلىٰ اليد المحقة، ويثبت به الإنسان وتنقطع به الخصومات، وبين هذا القلم وقلم التوقيع عن الله عموم وخصوص، فهذا له النفوذ واللزوم، وذاك له العموم والشمول، وهو قلم قائم

بالصدق فيما يثبته، وبالعدل فيما يمضيه وينفذه.

القلم الثامن: قلم الشهادة، وهو القلم الذي تحفظ به الحقوق، وتصان عن الإضاعة، وتحول بين الفاجر وإنكاره، ويصدق الصادق، ويكذب الكاذب، ويشهد للمحق بحقه، وعلى المبطل بباطله. وهو الأمين على الدماء، والفروج، والأموال، والأنساب، والحقوق، ومتى خان هذا القلم فسد العالم أعظم فساد، وباستقامته يستقيم أمر العالم ومبناه على العلم وعدم الكتمان.

القلم التاسع: قلم التعبير، وهو كاتب وحي المنام، وتفسيره، وتعبيره، وما أريد منه. وهو قلم شريف جليل مترجم للوحي المنامي، كاشف له، وهو من الأقلام التي تصلح للدنيا والدين، وهو يعتمد طهارة صاحبه ونزاهته، وأمانته، وتحريه للصدق، والطرائق الحميدة،والمناهج السديدة، مع علم راسخ، وصفاء باطن، وحسن مؤيد بالنور الإلهي، ومعرفة بأحوال الخلق وهيئاتهم وسيرهم، وهو من ألطف الأقلام، وأعمها جولانًا، وأوسعها تصرفًا، وأشدها تشبثًا بسائر الموجودات: علويها وسفليها، وبالماضي والحال والمستقبل، فتصرف هذا القلم في المنام هو محل ولايته وكرسي مملكته وسلطانه.

القلم العاشر: قلم تواريخ العالم ووقائعه.وهو القلم الذي تضبط بها الحوادث وتنقل من أمة إلى أمة، ومن قرن إلى قرن، فيحصر ما مضى من العالم وحوادثه في الخيال، وينقشه في النفس، حتى كأن السامع يرى ذلك ويشهده، فهو قلم المعاد الروحاني، وهذا القلم قلم العجائب، فإنه يعيد لك العالم في صورة الخيال، فتراه بقلبك،وتشاهده ببصيرتك.

القلم الحادي عشر: قلم اللغة، وتفاصيلها من شرح معاني ألفاظها ونحوها وتصريفها وأسرار تراكيبها، وما يتبع ذلك من أحوالها ووجوهها، وأنواع دلالتها على المعاني، وكيفية الدلالة، وهو قلم التعبير عن المعاني باختيار أحسن الألفاظ وأعذبها وأسهلها وأوضحها. وهذا القلم واسع التصرف جدًا بحسب سعة الألفاظ وكثرة

مجاريها وتنوعها.

القلم الثاني عشر: القلم الجامع، وهو قلم الرد على المبطلين، ورفع سنة المحقين، وكشف أباطيل المبطلين على اختلاف أنواعها وأجناسها، وبيان تناقضهم، وتهافتهم، وخروجهم عن الحق، ودخولهم في الباطل، وهذا القلم في الأقلام نظير الملوك في الأنام، وأصحابه أهل الحجة الناصرون لما جاءت به الرسل، المحاربون لأعدائهم.وهم الداعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، المجادلون لمن خرج عن سبيله بأنواع الجدال. وأصحاب هذا القلم حرب لكل مبطل، وعدو لكل مخالف للرسل. فهم في شأن وغيرهم من أصحاب الأقلام في شأن.

فهذه الأقلام التي فيها انتظام مصالح العالم، ويكفي في جلالة القلم أنه لم تكتب كتب الله إلا به، وأن الله ـ سبحانه ـ أقسم به في كتابه، وتعرف إلى غيره بأن علم بالقلم،إنما وصل إلينا ما بعث به نبينا ﷺ بواسطة القلم. ولقد أبدع أبو تمام، إذ يقول في وصفه:

لك القلم الأعلى الذي بشباته ... يصاب من الأمر الكلى والمفاصل
له ريقة طل، ولكن وقعها ... بآثاره في الغرب والشرق وابل
لعاب الأفاعي القاتلات لعابه ... وأرى الجنا اشتارته أيد عواسل
له الخلوات اللاء لولا نجيها ... لما احتفلت للملك تلك المحافل
فصيح إذا استنطقته وهو راكب ... وأعجم إن خاطبته وهو راجل
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت ... عليه شعاب الفكر وهي حوافل
أطاعته أطراف القنا، وتفوضت ... لنجواه ـ تقويض الخيام ـ الجحافل
إذا استغزز الذهن الذكي وأقبلت ... أعاليه في القرطاس وهي أسافل
وقد رفدته الخنصران وشددت ... ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل
رأيت جليلًا شأنه وهو مرهف ... ضنا وسمينا خطبه وهو ناحل[1]

(١) هذه الأبيات من بحر الطويل، تنسب إلى أبي تمام: حبيب بن أوس الطائي أحد أمراء البيان، في شعره قوة وجزالة. وقد تقدم التعريف به مات سنة ٢٣١هـ. ذكر الأبيات الصولي في أدب الكاتب(٩١-٩٢).

والمقسم عليه بالقلم والكتابة في هذه السورة تنزيه نبيه ورسوله عما يقول فيه أعداؤه،وهو قوله تعالىٰ: ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ [القلم:٢].

وأنت إذا طابقت بين هذا القسم والمقسم به وجدته دالًّا عليه أظهر دلالة وأبينها، فإن ما سطر المكاتب بالقلم من أنواع العلوم التي يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا تصدر من مجنون، ولا تصدر إلا من عقل وافر، فكيف يصدر ما جاء به الرسول من هذا الكتاب الذي هو في أعلىٰ درجات العلوم؟ بل العلوم التي تضمنها ليس في قوىٰ البشر الإتيان بها، ولاسيما من أمي لا يقرأ كتابًا ولا يخط بيمينه، مع كونه في أعلىٰ أنواع الفصاحة، سليمًا من الاختلاف، بريًا من التناقض، يستحيل من العقلاء كلهم لو اجتمعوا في صعيد واحد أن يأتوا بمثله، ولو كانوا في عقل رجل واحد منهم، فكيف يتأتىٰ ذلك من مجنون لا عقل له يميز به ما عسىٰ كثيرًا من الحيوان أن يميزه، وهل هذا إلا من أقبح البهتان وأظهر الإفك.

فتأمل شهادة هذا المقسم به للمقسم عليه ودلالته عليه أتم دلالة.

ولو أن رجلًا أنشأ رسالة واحدة بديعة منتظمة الأول والآخر، متساوية الأجزاء يصدق بعضها بعضًا، أو قال قصيدة كذلك. أو صنف كتابًا كذلك، لشهد له العقلاء بالعقل، ولما استجاز أحد رميه بالجنون مع إمكان ـ بل وقوع ـ معارضتها ومشاكلتها والإتيان بمثلها أو أحسن منها، فكيف يرمىٰ بالجنون من أتىٰ بما عجزت العقلاء كلهم قاطبة عن معارضته ومماثلته، وعرفهم من الحق ما لا تهتدي عقولهم إليه بحيث أذعنت له عقول العقلاء، وخضعت له ألباب الأولياء، وتلاشت في جنب ما جاء به بحيث لم يسمعها إلا التسليم له والانقياد والإذعان، طائعة مختارة، وهي ترىٰ عقولها أشد فقرًا وحاجة إلىٰ ما جاء به، ولا كمال لها إلا بما جاء به؟ فهو الذي كمل عقولها كما يكمل الطفل برضاع الثدي، ولهذا فإن أتباعه أعقل الخلق علىٰ الإطلاق. وهذه مؤلفاتهم وكتبهم في الفنون إذا وازنت بينها وبين مؤلفات مخالفيه ظهر لك التفاوت بينها. ويكفي في عقولهم أنهم عمروا الدنيا بالعلم والعدل، والقلوب

بالإيمان والتقوىٰ. فكيف يكون متبوعهم مجنونًا، وهذا حال كتابه وهديه، وسيرته، وحال أتباعه؟ وهذا إنما حصل له ولأتباعه بنعمة الله عليه وعليهم. فنفىٰ عنه الجنون بنعمته عليه.

وقد اختلف في تقدير الآية، فقالت فرقة: الباء في ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ باء القسم، فهو قسم آخر اعتراض بين المحكوم به والمحكوم عليه، كما يقول. ما أنت بالله بكاذب. وهذا التقدير ضعيف جدًا؛ لأنه قد تقدم القسم الأول، فكيف يقع القسم الثاني في جوابه؟ ولا يحسن أن تقول: والله ما أنت بالله بقائم، وليس هذا من فصيح الكلام ولا عهد في كلامهم.وقالت فرقة: العامل في ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ أداءة معنىٰ النفي، أو معنىٰ أنفي عنك الجنون بنعمة ربك.

ورد أبو عمر بن الحاجب، وغيره هذا القول بأن الحروف لا تعمل معانيها، وإنما تعمل ألفاظها.

وقال الزمخشري يتعلق ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ منفيًا كما يتعلق بعاقل مثبتًا، في قولك: أنت بنعمة الله عاقل، ويستويان في ذلك الإثبات والنفي استواءهما في قولك: ضرب زيد عمرًا، وما ضرب زيد عمرًا، بعمل الفعل مثبتًا ومنفيًا إعمالًا واحدًا، ومحله النصب علىٰ الحال، أي ما أنت بمجنون منعمًا عليك بذلك. ولم تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله؛ لأنها زائدة لتأكيد النفي. واعترض عليه بأن العامل إذا تسلط علىٰ محكوم به وله معمول فإنه يجوز فيه وجهان:

أحدهما: نفي ذلك المعمول فقط، نحو قولك: ما زيد بذاهب مسرعًا، فإنه ينتفي الإسراع دون القيام، ولا يمتنع أن يثبت له ذهاب في غير إسراع. والثاني ينفي المحكوم به، فينتفي معموله بانتفائه، فينتفي الذهاب في هذه الحال، فينتفي الإسراع بانتفائه. فإذا جعل ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ معمولًا لمجنون لزم أحد الأمرين. وكلاهما منتف جزمًا.

وهذا الاعتراض هنا فاسد؛ لأن المعنىٰ إذا حصل ما أنت بمجنون منعمًا عليك لزم من صدق هذا الخبر نفيها قطعًا، ولا يصح نفي المعمول وثبوت العامل في هذا

الكلام، ولا يفهم منه من له آلة الفهم، وإنما يفهم الآدمي من هذا الكلام أن الجنون انتفى عنك بنعمة الله عليك، وانتفى عنا ما فهمه هذا المعترض بنعمة الله علينا.

ثم أخبر سبحانه عن كمال حالتي نبيه ﷺ في دنياه وآخراه، فقال: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ [القلم: ٣] أي غير مقطوع، بل هو دائم مستمر. ونكَّر الأجر تنكير تعظيم. كما قال: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً ﴾ [النازعات: ٢٦]، و﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ [هود: ١٠٣] [الشعراء: ٨] و﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ [ق: ٣٧] و﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ [النبأ: ٣١] و﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [ص: ٢٥] وهو كثير، وإنما كان التنكير للتعظيم لأنه صور للسامع بمنزلة أمر عظيم لا يدركه الوصف، ولا يناله التعبير.

ثم قال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] وهذه من أعظم آيات نبوته ورسالته، لمن منحه الله فهمًا. ولقد سئلت أم المؤمنين عن خلقه ﷺ، فأجابت بما شفى وكفى، فقالت: «كان خلقه القرآن»[(١)]. فهم سائلها أن يقوم لا يسألها شيئًا بعد ذلك. ومن هذا قال ابن عباس وغيره: أي علي دين عظيم.

وسمى الدين خلقًا، لأن الخلق هيئة مركبة من علوم صادقة، وإرادات زاكية، وأعمال ظاهرة وباطنة، موافقة للعدل والحكمة، والمصلحة، وأقوال مطابقة للحق، تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والإرادات، فتكتسب النفس بها أخلاقًا، هي أزكى الأخلاق، وأشرفها، وأفضلها.

فهذه كانت أخلاق رسول الله ﷺ المقتبسة من مشكاة القرآن. فكان كلامه مطابقًا للقرآن تفصيلًا له وتبيينًا وعلومه علوم القرآن، وإرادته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن، وإعراضه وتركه لما منع منه القرآن، ورغبته فيما رغب فيه، وزهده فيما زهد فيه، وكراهته لما كرهه، ومحبته لما أحبه، وسعيه في تنفيذ أوامره، وتبليغه. والجهاد في

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٧٤٦) ولفظه: يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى. قالت: فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن. وانظر: شرح النووي (٦/ ٢٥-٢٧).

إقامته، فترجمت أم المؤمنين لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول ﷺ، وحسن تعبيرها عن هذا كله بقولها: كان خلقه القرآن. وفهم هذا السائل لها عن هذا المعنى، فاكتفى به واشتفى.

فإذا كانت أخلاق العباد، وعلومهم، وإراداتهم، وأعمالهم مستفادة من القلم وما يسطرون، وكان في خلق القلم والكتابة إنعام عليهم وإحسان إليهم، إذ وصلوا به إلى ذلك، فكيف ينكرون إنعامه وإحسانه على عبده ورسوله الذي أعطاه أعلى الأخلاق، وأفضل العلوم، والأعمال، والإرادات، التي لا تهدي العقول إلى تفاصيلها من غير قلم ولا كتابة؟ فهل هذا إلا من أعظم آيات نبوته وشواهد صدق رسالاته؟ وسيعلم أعداؤه المكذبون له أيهم المفتون، هو أم هم؟ وقد علموا هم والعقلاء ذلك في الدنيا. ويزداد علمهم في البرزخ، وينكشف، ويظهر كل الظهور في الآخرة، بحيث تتساوى أقدام الخلائق في العلم به.

[(١)] قال تعالى: ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾[القلم: ١ ـ ٤].

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ وقد سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن. فاكتفى بذلك السائل، وقال: فهممت أن أقوم ولا أسأل عن شيء بعدها. فهذه الأخلاق ونحوها هي ثمرة شجرة العلم.

وأما شجرة الجهل فتثمر كل ثمرة قبيحة من الكفر والفساد والشرك والظلم والبغي والعدوان والجزع والهلع والكنود والعجلة والطيش والحدة والفحش والبذاء والشح والبخل، ولهذا قيل في حد البخل (جهل مقرون بسوء الظن)، ومن ثمرته الغش للخلق والكبر عليهم والفخر والخيلاء والعجب والرياء والسمعة والنفاق والكذب وإخلاف الوعد والغلظة علي الناس، والانتقام ومقابلة الحسنة

(١) ١١٦ مفتاح جـ١.

بالسيئة والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، وترك القبول من الناصحين، وحب غير الله ورجائه والتوكل عليه وإيثار رضاه على رضا الله، وتقديم أمره على أمر الله، والتماوت عند حق الله والوثوق بما عند حق نفسه والغضب لها، والانتصار لها فإذا انتهكت حقوق نفسه لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم بأكثر من حقه، وإذا انتهكت محارم الله لم ينبض له عرق غضبًا لله، فلا قولًا في أمره ولا بصيرة في دينه.

ومن ثمرتها الدعوة إلى سبيل الشيطان وإلى سلوك طرق البغي واتباع الهوى وإيثار الشهوات على الطاعات، وقيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال ووأد البنات وعقوق الأمهات وقطيعة الأرحام وإساءة الجوار وركوب مركب الخزي والعار.

وبالجملة فالخير بمجموعه ثمر يجتنى من شجرة العلم، والشر بمجموعه شوك يجتنى من شجرة الجهل، فلو ظهرت صورة العلم للأبصار لزاد حسنها على صورة الشمس والقمر، ولو ظهرت صورة الجهل لكان منظرها أقبح منظر، بل كل خير في العالم فهو من آثار العلم الذي جاءت به الرسل ومسبب عنه. وكذلك كل خير يكون إلى قيام الساعة وبعدها في القيامة، وكل شر وفساد حصل في العالم ويحصل إلى قيام الساعة وبعدها في القيامة فسببه مخالفة ما جاءت به الرسل في العلم والعمل.

ولو لم يكن للعلم أب ومرب وسائس ووزير إلا العقل الذي به عمارة الدارين وهو الذي أرشد إلى طاعة الرسل وسلم القلب والجوارح ونفسه إليهم وانقاد لحكمه وعزل نفسه وسلم الأمر إلى أهله لكفى به شرفًا وفضلًا.

وقد مدح الله سبحانه العقل وأهله في كتابه في مواضع كثيرة منه وذم من لا عقل له وأخبر أنهم أهل النار الذين لا سمع لهم ولا عقل، فهو آلة كل علم وميزانه الذي به يعرف صحيحه من سقيمه وراجحه من مرجوحه، والمرآة التي يعرف بها الحسن من القبيح. وقد قيل العقل ملك، والبدن روحه وحواسه، وحركاته كلها رعية له، فإذا ضعف عن القيام عليها وتعهدها وصل الخلل إليها كلها. ولهذا قيل: من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه في أغلب خصال الشر عليه. وروي أنه لما أهبط آدم من الجنة أتاه

جبريل. فقال: إن الله أحضرك: العقل والدين والحياء، لتختار واحدًا منها. فقال: أخذت العقل. فقال الدين والحياء: أمرنا أن لا نفارق العقل حيث كان. فانحازا إليه.

والعقل: عقلان: عقل غريزة وهو أب العلم ومربيه ومثمره، وعقل مكتسب مستفاد وهو ولد العلم وثمرته ونتيجته، فإذا اجتمعا في العبد فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، واستقام له أمره، وأقبلت عليه جيوش السعادة من كل جانب، وإذا فقد أحدهما فالحيوان البهيم أحسن حالًا منه، وإذا انفرد انتقص الرجل بنقصان أحدهما. ومن الناس من يرجح صاحب العقل الغريزي. ومنهم من يرجح صاحب العقل المكتسب.

والتحقيق أن صاحب العقل الغريزي الذي لا علم ولا تجربة عنده آفته التي يؤتىٰ منها الإحجام وترك انتهاز الفرصة، لأن عقله يعقله عن انتهاز الفرصة لعدم علمه به.

وصاحب العقل المكتسب يؤتىٰ من الإقدام، فإن علمه بالفرص وطرقها يلقيه علىٰ المبادرة إليها، وعقله الغريزي لا يطيق رده عنها فهو غالبًا يؤتىٰ من إقدامه، والأول من إحجامه، فإذا رزق العقل الغريزي عقلًا إيمانيًا مستفادًا من مشكاة النبوة لا عقلًا معيشيًا نفاقيًا يظن أربابه أنه علىٰ شيء ألا إنهم هم الكاذبون، فإنهم يرون العقل أن يرضوا الناس علىٰ طبقاتهم ويسالموهم ويستجلبوا مودتهم ومحبتهم، وهذا مع أنه لا سبيل إليه فهو إيثار للراحة والدعة، ومؤنة الأذىٰ في الله والموالاة فيه والمعاداة فيه، وهو وإن كان أسلم عاجلة فهو الهلك في الآجلة، فإنه ما ذاق طعم الإيمان من لم يوال في الله ويعاد فيه، فالعقل كل العقل ما أوصل إلىٰ رضا الله ورسوله، والله الموفق المعين.

(١) قال الله تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

قال ابن عباس ومجاهد: لعلي دين عظيم، لا دين أحب إليَّ ولا أرضىٰ عندي منه. وهو دين الإسلام(٢). وقال الحسن ﷺ: هو آداب القرآن. وقال قتادة: هو ما كان يأمر

---

(١) ٣٠٤ مدارج جـ٢.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٠٣).

به من أمر الله. وينهي عنه من نهي الله.

والمعنى: إنك لعلى الخلق الذي آثرك الله به في القرآن.

وفي الصحيحين. أن هشام بن حكيم «سأل عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن خلق رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان خلقه القرآن. فقال: لقد هممت أن أقوم ولا أسأل شيئًا».

(١) قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: ٤] قال الإمام أحمد: عن ابن عيينة قال ابن عباس: «لعلي دين عظيم» وسئلت عائشة عن خلق النبي ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن» والدين فيه معنى الإذلال والقهر، وفيه معنى الذل والخضوع والطاعة، فلذلك يكون من الأعلى إلى الأسفل، كما يقال دنته فأدان، أي قهرته فذل، قال الشاعر:

هو أدنى الزمان أذكر هذا الدين فأصبحوا بعزة وصيان

ويكون من الأدنى إلى الأعلى كما يقال دنت الله ودنت لله، وفلان لا يدين الله دينًا ولا يدين الله بدين. فدان الله أي أطاع الله وأحبه وأخافه، ودان لله أي خشع له وخضوع وذل وانقاد. والدين الباطن لا بد فيه من الخضوع والحب كالعبادة سواء بخلاف الدين الظاهر فإنه لا يستلزم الحب وإن كان فيه انقياد وذل في الظاهر، وسمى الله ـ تعالى ـ يوم القيامة يوم الدين، لأنه اليوم الذي يدين فيه الناس بأعمالهم: إن خيرًا فخير وأن شرًا فشر، وذلك يتضمن جزاءهم وحسابهم، فلذلك فسروه بيوم الجزاء ويوم الحساب.

***

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ۝﴾.

(٢)قد اختلف في تقدير قوله: ﴿بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٦] فقال أبو عثمان المازني: هو كلام مستأنف، والمفتون عنده مصدر، أي: بأيكم الفتنة. والاستفهام عن أمر دائر بين اثنين قد علم انتفاؤه عن أحدهما قطعًا، فتعين حصوله للآخر. والجمهور

---

(١) ٢٧٩ الجواب الكافي.

(٢) ١٣٦ التبيان.

على خلاف هذا التقدير. وهو عندهم متصل بما قبله، ثم لهم فيه أربعة أوجه:

(أحدها) أن الباء زائدة، والمعنى: أيكم المفتون. وزيدت في المبتدأ كما زيدت في قولك: بحسبك أن تفعل. قاله أبو عبيد.

(الثاني) أن المفتون بمعنى الفتنة، أي ستبصر ويبصرون بأيكم الفتنة. والباء على هذا ليست بزائدة. قاله الأخفش.

(الثالث) أن المفتون مفعول على بابه، ولكن هنا مضاف محذوف تقديره بأيكم فتون المفتون، وليست الباء زائدة، قاله الأخفش أيضًا.

(الرابع) أن الباء بمعنى في، والتقدير في أي فريق منكم النوع المفتون، والباء على هذا ظرفية. وهذه الأقوال كلها تكلف ظاهر لا حاجة إلى شيء منه. و(ستبصر) مضمن معنى تشعر وتعلم، فعدى بالباء كما تقول: ستشعر بكذا وتعلم به. قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] وإذا دعاك اللفظ إلى المعنى من مكان قريب فلا تجب من دعاك إليه من مكان بعيد.

[١]وأما قوله [تعالى]: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٥، ٦]. فقيل: الباء زائدة. وقيل: المفتون مصدر كالمعقول والميسور والمحلوف والمعسور.

والصواب أن يبصر مضمن معنى يشعر ويعلم، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ﴾ [الأحقاف: ٣٣] فعدى فعل الرؤية بالباء، وفي الحديث: «**المؤمن أخو المؤمن، يسعهما الماء والشجر، ويتعاونان على الفتان**»[٢]. يروى بفتح الفاء وهو واحد، وبضمها وهو جمع فاتن كتاجر وتجار، والمقصود أن الحب موضع الفتون، فما فتن من فتن إلا بالمحبة.

***

(١) ٤٩ روضة المحبين.

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٣٠٧٠) والبيهقي في الكبرى (٦/ ١٥٠ رقم ١١٦١١) وابن سعد في الطبقات (١/ ٣١٩) وأبو عبيد القاسم بن سلام في الأموال (رقم ٧٣٠).

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝﴾.

(١)المداراة صفة مدح والمداهنة صفة ذم، والفرق بينهما أن المداري يتلطف بصاحبه حتى يستخرج مه الحق أو يرده عن الباطل، والمداهن يتلطف به ليقره على باطله ويتركه على هواه، فالمداراة لأهل الإيمان والمداهنة لأهل النفاق.

وقد ضرب لذلك مثل مطابق وهو حال رجل به قرحة وقد آلمته، فجاءه الطبيب المداري الرفيق فتعرف حالها، ثم أخذ في تليينها حتى إذا نضجت أخذ في بطها برفق وسهولة، حتى أخرج ما فيها، ثم وضع على مكانها من الدواء والمرهم ما يمنع فساده ويقطع مادته، ثم تابع عليها بالمراهم التي تنبت اللحم، ثم يذر عليها بعد نبات اللحم ما ينشف رطوبتها، ثم يشد عليها الرباط، ولم يزل يتابع ذلك حتى صلحت، والمداهن قال لصاحبها: لا بأس عليك منها، وهذه لا شيء فاسترها عن العيون بخرقة، ثم اله عنها فلا تزال مادتها تقوى وتستحكم حتى عظم فسادها. وهذا المثل أيضًا مطابق كل المطابقة لحال النفس الأمارة مع المطمئنة فتأمله...

***

﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝﴾.

(٢)أما تقديم هماز على مشاء بنميم ففيه معنى آخر غير ما ذكره، وهو أن همزه عيب للمهموز وإزراء به وإظهار لفساد حاله في نفسه، فإن قاله يختص بالمهموز لا يتعداه إلى غيره.

والمشي بالنميمة يتعداه إلى من ينم عنده، فهو ضرر متعد.والهمز ضرره لازم للمهموز إذا شعر به ما ينقل من الأذى اللازم إلى الأذى المتعدي المنتشر.

***

(١) ٢٨١ الروح.
(٢) ٦٩ بدائع جـ١.

﴿ إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

[١]قوله تعالى: ﴿ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ [القلم: ١٧، ١٨] أي لم يقولوا إن شاء الله؛ فمن حلف فقال إن شاء الله فقد استثنى؛ فإن الاستثناء استفعال من ثنيت الشيء، كأن المستثني بإلا قد عاد على كلامه فثنى آخره على أوله بإخراج ما أدخله أولاً في لفظه، وهكذا التقيد بالشرط سواء؛ فإن المتكلم به قد ثنى آخر كلامه على أوله، فقيد به ما أطلقه أولاً، وأما تخصيص الاستثناء بإلا وأخواتها فعرف خاص للنجاة...

***

﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

[٢]من ذلك: أن جداد النخل عمل مباح أي وقت شاء صاحبه، لكن لما قصد به أصحابه في الليل حرمان الفقراء عاقبهم الله تعالى بإهلاكه. ثم قال: ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم: ٣٣] ثم جاءت السنة بكراهة الجداد بالليل، لكونه ذريعة إلى هذه المفسدة. ونص عليه غير واحد من الأئمة. كأحمد بن حنبل وغيره.

[٣]إنكاره سبحانه أن يسوي بين المختلفين أو يفرق بين المتماثلين، وأن حكمته وعدله يأبى ذلك.

أما الأول: فكقوله: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]. فأخبر أن هذا حكم باطل جائز يستحيل نسبته إليه كما يستحيل نسبة الفقر

---

(١) ٧٣ أعلام جـ٤.
(٢) ٣٧٨ إغاثة جـ١.
(٣) ١٩٩ شفاء.

والحاجة والظلم إليه.

ومنكرو الحكمة والتعليل يجوزون نسبة ذلك إليه، بل يقولون بوقوعه.

وقال تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨]. وقال: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١]، فجعل سبحانه ذلك حكمًا سيئًا يتعالى ويتقدس عن أن يجوز عليه فضلًا على أن ينسب إليه.

بل أبلغ من هذا أنه أنكر على من حسب أن يدخل الجنة بغير امتحان له وتكليف يبين به صبره وشكره، وإن حكمته تأبى ذلك.

كما قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٢]. وقال: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وقال: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ [التوبة: ١٦].

فأنكر عليهم هذا الظن والحسبان لمخالفته لحكمته.

وأما الثاني: وهو أن لا يفرق بين المتماثلين فقوله: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩]. وقوله: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١]. وقوله: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٦٧]. وقوله: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. وقوله: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[يوسف: ٢٢]. وقوله: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾[القمر: ٤٣]. وقوله: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾[محمد: ١٠]. وقوله: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾[الإسراء: ٧٧]. وقوله: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾[الفتح: ٢٣]. وقوله: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

فسنته سبحانه عادته المعلومة في أوليائه وأعدائه بإكرام هؤلاء وإعزازهم ونصرتهم وإهانة أولئك وإذلاهم وكبتهم.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [المجادلة: ٥]. والقرآن مملوء من هذا، يخبر تعالى أن حكم الشيء في حكمته وعدله حكم نظيره ومماثله، وضد حكم مضاده ومخالفه، وكل نوع من هذه الأنواع لو استوعبناه لجاء كتابًا مفردًا.

(١)قال الله تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [القلم: ٣٥ - ٣٦] فأنكر عليهم الحكم بهذا وأخرجه مخرج الإنكار لا مخرج الأخبار، لينبه العقول على أن هذا مما تحيله الفطر وتأباه العقول السليمة، وقال تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾[الحشر: ١٩] وقال تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨] وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[الزمر: ٩] بل الواحد من الخلق لا تستوي أعاليه وأسافله. فلا يستوي عقبه وعينه، ولا رأسه ورجلاه. ولا يصلح أحدهما لما يصلح له الآخر. فالله ﷻ قد خلق الخبيث والطيب والسهل والحزن والضار والنافع. وهذه

(١) ١٠٤ طريق الهجرتين.

أجزاء الأرض: منها ما يصلح جلاء للعين، ومنها ما يصلح للأتون والنار. وبهذا ونحوه يعرف كمال القدرة وكمال الحكمة. فكمال القدرة بخلق الأضداد وكمال الحكمة تنزيلها منازلها، ووضع كل منها في موضعه. والعالم من لا يلقي الحرب بين قدرة الله وحكمته ـ فإن آمن بالقدرة قدح في الحكمة وعطلها، وإن آمن بالحكمة قدح في القدرة ونقصها ـ بل يربط القدرة بالحكمة، ويعلم شمولهما لجميع ما خلقه الله ويخلقه، فكما أنه لا يكون إلا قدرته ومشيئته، فكذلك لا يكون إلا بحكمته. وإذا كان لا سبيل للعقول البشرية إلى الإحاطة بهذا تفصيلًا، فيكفيها الإيمان بما تعلم وتشاهد منه، ثم تستدل على الغائب بالشاهد، وتعتبر ما علمت بما لم تعلم.

***

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

(١)قال أبو محمد بن حزم: وقد جاء عن عمر وعبدالرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة ﷺ: أن من ترك صلاة فرض واحدة متعمدًا حتى يخرج وقتها فهو كافر مرتد(٢). قالوا: ولا نعلم لهؤلاء مخالفًا من الصحابة، وقد دل على كفر تارك الصلاة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة.

أما الكتاب فقد قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إلى قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٣٥ـ٤٣].

---

(١) ١٥ الصلاة.

(٢) المحلى لابن حزم (٢/ ٢٤٢).

فوجه الدلالة من الآية أنه سبحانه أخبر أنه لا يجعل المسلمين كالمجرمين، وأن هذا الأمر لا يليق بحكمته ولا بحكمه.

ثم ذكر أحوال المجرمين الذين هم ضد المسلمين فقال: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢] وأنهم يدعون إلى السجود لربهم ـ تبارك وتعالى ـ فيحال بينهم وبينه، فلا يستطيعون السجود مع المسلمين عقوبة لهم على ترك السجود له مع المصلين في دار الدنيا. وهذا يدل على أنه مع الكفار والمنافقين الذين تبقى ظهورهم إذا سجد المسلمون كصياصي البقر. ولو كانوا من المسلمين لأذن لهم بالسجود كما أذن للمسلمين.

[1]فإن قيل: فالآخرة دار جزاء، وليست دار تكليف، فكيف يمتحنون في غير دار التكليف.

فالجواب: أن التكليف إنما ينقطع بعد دخول دار القرار، وأما في البرزخ وعرصات القيامة فلا ينقطع، وهذا معلوم بالضرورة من الدين من وقوع التكليف بمسألة الملكين في البرزخ وهي تكليف.

وأما في عرصة القيامة فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢].

فهذا صريح في أن الله يدعو الخلائق إلى السجود يوم القيامة، وأن الكفار يحال بينهم وبين السجود إذ ذاك، ويكون هذا التكليف بما لا يطاق حينئذ حسًا عقوبة لهم، لأنهم كلفوا به في الدنيا وهم يطيقونه فلما امتنعوا منه وهو مقدور لهم كلفوا به وهم لا يقدرون عليه حسرة عليهم وعقوبة لهم.

ولهذا قال تعالى: ﴿ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٤٢] دعوا إليه في وقت حيل بينهم وبينه، كما في الصحيح من حديث زيد بن أسلم عن عطاء عن أبي سعيد ﷺ «أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا» ـ فذكر الحديث بطوله، إلى

---

(١) ٤٠٠ طريق الهجرتين.

أن قال: «فيقول: تتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيقول المؤمنون: فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم، ولم نصاحبهم، فيقول: أنا ربكم. فيقولون: نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئًا ـ مرتين أو ثلاثًا ـ حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب، فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها؟ فيقولون نعم. فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقًا واحدًا، كلما أراد أن يسجد خر على قفاه، ثم يرفعون رءوسهم»(١) وذكر الحديث.

وهذا التكليف نظير تكليف البرزخ بالمسألة، فمن أجاب في الدنيا طوعًا واختيارًا أجاب في البرزخ، ومن امتنع من الإجابة في الدنيا منع منها في البرزخ، ولم يكن تكليفه في الحال وهو غير قادر قبيحًا، بل هو مقتضى الحكمة الإلهية، لأنه مكلف وقت القدرة وأبى، فإذا كلف وقت العجز وقد حيل بينه وبين الفعل كان عقوبة له وحسرة.

والمقصود أن التكليف لا ينقطع إلا بعد دخول الجنة أو النار.

وقد تقدم أن حديث الأسود بن سريع صحيح، وفيه التكليف في عرصة القيامة، فهو مطابق لما ذكرنا من النصوص الصحيحة الصريحة. فعلم أن الذي تدل عليه الأدلة الصحيحة وتأتلف به النصوص ومقتضى الحكمة هذا القول، والله أعلم.

***

﴿ فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

(٢)عن سفيان في قوله: ﴿ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [القلم: ٤٤] قال: يسبغ عليهم النعم ويمنعهم الشكر.

وقال عن سفيان: كلما أحدثوا ذنبًا أحدث لهم نعمة(٣). وسئل ثابت البناني عن

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٥٨١) ومسلم (رقم ١٨٣) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٥٠) وشرح النووي (٣/ ٢٧).

(٢) ١٣٩ عدة الصابرين.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ١١٦) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٣).

الاستدراج فقال: ذلك مكر الله بالعباد المضيعين(١).

وقال يونس في تفسيرها: إن العبد إذا كانت له عند الله منزلة فحفظها وبقي عليها، ثم شكر الله بما أعطاه أعطاه أشرف منها، وإذا هو ضيع الشكر استدرجه الله، وكان تضييعه الشكر استدراجًا.

وقال أبو حازم: نعمة الله فيما زوى عني من الدنيا أعظم من نعمته فيما أعطاني منها، إني رأيته أعطاها أقوامًا فهلكوا. وكل نعمة لا تقرب من الله فهي بلية، وإذا رأيت الله يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره.

***

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾.

(٢)نهاه سبحانه أن يتشبه بصاحب الحوت حيث لم يصبر صبر أولي العزم فقال: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ [القلم: ٤٨] وها هنا سؤال نافع، وهو أن يقال: ما العامل في الظرف وهو قوله: ﴿ إِذْ نَادَىٰ ﴾ ولا يمكن أن يكون الفعل المنهي عنه، إذ يصير المعنى: لا تكن مثله في ندائه.

وقد أثنى الله سبحانه عليه في هذا النداء، فأخبر أنه نجاه به، فقال: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ١١٧).
(٢) ٣٣ عدة الصابرين.

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]. وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ قال: «**دعوة أخي ذي النون إذ دعا بها في بطن الحوت، ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين**»[(١)].

فلا يمكن أن ينهي عن التشبه به في هذه الدعوة وهي النداء الذي نادىٰ به ربه. وإنما نهىٰ عن التشبه به في السبب الذي أفضىٰ به إلىٰ هذه المناداة، وهي مغاضبته التي أفضت به إلىٰ حبسه في بطن الحوت، وشدة ذلك عليه، حتىٰ نادىٰ ربه وهو مكظوم.والكظيم والكاظم: الذي قد امتلأ غيظًا وغضبًا أو همًا وحزنًا عليه فلم يخرجه.

[(٢)]وكثير من العائنين يؤثر في المعين بالوصف من غير رؤية، وقد قال تعالىٰ لنبيه: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ [القلم: ٥١].

وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ١- ٥].

فكل عائن حاسد.وليس كل حاسد عائنًا. فلما كان الحاسد أعم من العائن: كانت الاستعاذة منه استعاذة من العائن، وهي سهام تخرج من نفس الحاسد والعائن نحو المحسود والمعين، تصيبه تارة، وتخطئه تارة. فإن صادفته مكشوفًا لا وقاية عليه أثرت فيه ولابد، وإن صادفته حذرًا شاكي السلاح لا منفذ فيه للسهام: لم تؤثر فيه، وربما ردت السهام علىٰ صاحبها. وهذا بمثابة الرمي الحسي سواء. فهذا من النفوس والأرواح، وذاك من الأجسام والأشباح. وأصله: من إعجاب العائن بالشيء ثم تتبعه

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥٠٥) والنسائي في الكبرىٰ (٦/ ١٦٨ رقم ١٠٤٩٢) والحاكم (٢/ ٦٣٧ رقم ٤١٢١) وأحمد (١/ ١٧٠) والبزار (٤/ ٢٥ رقم ١١٨٦) والديلمي في الفردوس (٢/ ٢١٣ رقم ٣٠٤٢) والبيهقي في الشعب (١/ ٤٣٢ رقم ٦٢٠) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٦٨): روىٰ الترمذي طرفاً من آخره. رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن محمد بن سعد بن أبي وقاص وهو ثقة. وانظر: فتح الباري (١١/ ١٤٧).

(٢) ٢٤٨ زاد المعاد جـ٣.

كيفية نفسه الخبيثة، ثم تستعين على تنفيذ سمها بنظرها إلى المعين.

وقد يعين الرجل نفسه. وقد يعين بغير إرادته، بل بطبعه. وهذا أردأ ما يكون من النوع الإنساني. وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء: إن من عرف بذلك حبسه الإمام، وأجرى له ما ينفق عليه إلى الموت.وهذا هو الصواب قطعًا.

والمقصود العلاج النبوي لهذه العلة. وهو أنواع.

وقد روى أبو داود في سننه عن الرباب ـ جدة عثمان بن حكيم الأنصاري ـ عن سهل بن حنيف قال: مررنا بسيل. فدخلت فاغتسلت فيه فخرجت محمومًا، فنما ذلك إلى رسول الله ﷺ. فقال: «مروا أبا ثابت يتعوذ». قالت: فقلت: يا سيدي، والرقى صالحة؟ فقال: «لا رقية إلا في نفس، أو حمة، أو لدغة»[١]. و«النفس» العين. يقال: أصابت فلانًا نفسه، أي عين. والنافس: العائن. و«اللدغة» بدال مهملة وغين معجمة وهي ضربة العقرب ونحوها.

فمن التعوذات والرقى: الإكثار من قراءة المعوذتين وفاتحة الكتاب، وآية الكرسي. ومنها: التعوذات النبوية:

نحو: **«أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»**[٢].

ونحو: **«أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة»**[٣].

ونحو: **«أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر: من شر ما خلق، وذرأ، وبرأ، ومن شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر طوارق الليل**

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٣٨٨٨) والنسائي في الكبرى (٦/ ٧٢ رقم ١٠٠٨٦) والحاكم (٤/ ٤٥٨ رقم ٨٢٧٠) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٣٢٩) وأحمد (٣/ ٤٨٦) والطبراني في الكبير (٦/ ٩٣ رقم ٥٦١٥) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٣٨٦) وانظر: عون المعبود (١٠/ ٢٧٠).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٠٨) وانظر: فتح الباري (١٠/ ١٩٦) وشرح النووي (١٧/ ٣١-٣٢).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٧١) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤١٠) (١١/ ١٢٥).

والنهار، إلا طارقًا يطرق بخير يا رحمن»[١].

ومنها: «أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه، ومن شر عباده، ومن همزات الشياطين، وأن يحضرون»[٢].

ومنها: «اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم، وكلماتك التامات، ومن شر ما أنت آخذ بناصيته. اللهم أنت تكشف المأثم والمغرم. اللهم إنه لا يهزم جندك، ولا يخلف وعدك. سبحانك وبحمدك»[٣].

ومنها: «أعوذ بوجه الله العظيم، الذي لا شيء أعظم منه، وبكلماته التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر. وأسماء الله الحسنى، ما علمت منها وما لم أعلم. من شر ما خلق، وذرأ وبرأ[٤]، ومن شر كل ذي شر لا أطيق شره، ومن شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته. إن ربي على صراط مستقيم».

ومنها: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، عليك توكلت، وأنت رب العرش العظيم، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، لا حول ولا قوة إلا بالله، أعلم أن الله على كل

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٢٣٧ رقم ١٠٧٩٢) وابن أبي شيبة (٥/ ٥١ رقم ٢٣٦٠١) وعبدالرزاق (١١/ ٣٥ رقم ١٩٨٣١) ومالك (٢/ ٩٥٠ رقم ١٧٠٥) وأحمد (٣/ ٤١٩) والبيهقي في الشعب (٤/ ١٧٥ رقم ٤٧١٠) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٦٤ رقم ٣٧٢) والطبراني في الدعاء (رقم ٢٣٦) وفي الأوسط (٥/ ٣١٥ رقم ٥٤١٥) وفي الكبير (٤/ ١١٤ رقم ٣٨٣٨) وحسنه الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٢٥).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ١٩٠ رقم ١٠٦٠١) والترمذي (رقم ٣٥٢٨) وابن أبي شيبة (٥/ ٥٠ رقم ٢٣٥٩٨) ومالك (٢/ ٩٥٠ رقم ١٧٠٤) وأحمد (٢/ ١٨١) والطبراني في الأوسط (١/ ٢٨٥ رقم ٩٣١) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ٦٠) وابن أبي الدنيا في العيال (رقم ٦٥٦) وابن قانع في معجم الصحابة (٣/ ١٨٨ رقم ١١٦٧) وحسنه الترمذي.

(٣) أخرجه الضياء في المختارة (٢/ ٣٢٢ رقم ٧٠١) والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٢ رقم ٧٧٣٢) وأبو داود (رقم ٥٠٥٢) والطبراني في الأوسط (٧/ ٣٧ رقم ٦٧٧٩) وفي الصغير (رقم ٩٩٨) والديلمي في الفردوس (١/ ٤٦٤ رقم ١٨٨٩) والبيهقي في الاعتقاد (ص ١٠٠) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٧١٣) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٢٧).

(٤) أخرجه مالك (٢/ ٩٥١ رقم ١٧٠٧) وانظر: الاستذكار (٨/ ٤٤٥) وشرح الزرقاني (٤/ ٤٣٥).

شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علمًا: وأحصى كل شيء عددًا»[(١)] [(٢)].

[(٣)]ويندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب.

أحدها: التعوذ بالله من شره والتحصن به واللجأ إليه، وهو المقصود بهذه السورة، والله تعالى سميع لاستعاذته عليم بما يستعيذ منه.

والسمع هنا المراد به سمع الإجابة لا السمع العام، فهو مثل قوله: سمع الله لمن حمده. وقول الخليل ﷺ: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

ومرة يقرنه بالعلم ومرة بالبصر، لاقتضاء حال المستعيذ ذلك، فإنه يستعيذ به من عدو يعلم أن الله يراه، ويعلم كيده وشره، فأخبر الله تعالى هذا المستعيذ أنه سميع لاستعاذته، أي مجيب عليم بكيد عدوه يراه ويبصره، لينبسط أمل المستعيذ، ويقبل بقلبه على الدعاء.

وتأمل حكمة القرآن كيف جاء في الاستعاذة من الشيطان الذي نعلم وجوده ولا نراه بلفظ السميع العليم في الأعراف وحم السجدة، وجاءت الاستعاذة من شر الإنس الذين يؤنسون ويرون بالأبصار بلفظ السميع البصير في سورة حم المؤمن، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦] لأن أفعال هؤلاء أفعال معاينة ترى بالبصر، وأم نزغ الشيطان فوساوس وخطرات يلقيها في القلب يتعلق بها العلم، فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها، وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير في باب ما يرى بالبصر ويدرك بالرؤية، والله أعلم.

---

(١) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٥٧) والطبراني في الدعاء (١/ ١٢٩ رقم ٣٤٣) وابن عساكر في تاريخه (٣٧/ ٤).

(٢) استمر المؤلف في ذكر الرقى وأحكام العائن قرابة كراسة، وسيأتي قريبًا إن شاء الله في تفسير سورة الفلق في بدائع الفوائد بحثًا موسعًا حول الحسد والسحر وغيرهما من ذكر سحر اليهود وغيرهم. (ج).

(٣) ٢٣٨ بدائع جـ٢.

(السبب الثاني): تقوىٰ الله وحفظه عند أمره ونهيه، فمن اتقىٰ الله تولىٰ الله حفظه ولم يكله إلىٰ غيره، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠]. وقال النبي ﷺ لعبدالله بن عباس: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك**»(١) فمن حفظ الله حفظه الله ووجده أمامه أينما توجه، ومن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف ولمن يحذر.

(السبب الثالث): الصبر علىٰ عدوه وأن لا يقاتله ولا يشكوه، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلًا، فما نصر علىٰ حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه والتوكل علىٰ الله، ولا يستطل تأخيره وبغيه، فإنه كلما بغي عليه كان بغيه جندًا وقوة للمبغي عليه المحسود يقاتل به الباغي نفسه وهو لا يشعر، فبغيه سهام يرميها من نفسه إلىٰ نفسه. ولو رأىٰ المبغي عليه ذلك لسره بغيه عليه، ولكن لضعف بصيرته لا يرىٰ إلا صورة البغي دون آخره ومآله، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠].

فإذا كان الله قد ضمن له النصر مع أنه قد استوفىٰ حقه أولًا فكيف بمن لم يستوف شيئًا من حقه، بل بغىٰ عليه وهو صابر، وما من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم، وقد سبقت سنة الله أنه لو بغىٰ جبل علىٰ جبل جعل الباغي منهما دكًا.

(السبب الرابع): التوكل علىٰ الله فمن يتوكل علىٰ الله فهو حسبه، والتوكل من أقوىٰ الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذىٰ الخلق وظلمهم وعدوانهم، وهو من أقوىٰ الأسباب في ذلك، فإن الله حسبه أي كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه، ولا يضره إلا أذىٰ لا بد منه كالحر والبرد والجوع والعطش،

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥١٦) وأبو يعلىٰ (٤/ ٤٣٠ رقم ٢٥٥٦) وأحمد (١/ ٢٩٣) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٤٣٤ رقم ٧٤٥) وعبد بن حميد (رقم ٦٣٦) والحاكم (٣/ ٦٢٣ رقم ٦٣٠٣) والطبراني في الأوسط (٥/ ٣١٦ رقم ٥٤١٧) وفي الكبير (١١/ ١٢٣ رقم ١١٢٤٣) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٨٣-١٨٤) وفتح الباري (١١/ ٤٩٢).

وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبدًا.

وفرق بين الأذىٰ الذي هو في الظاهر إيذاء له، وهو في الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه، وبين الضرر الذي يتشفىٰ به منه، قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده، فقال: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣] ولم يقل نؤته كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد علىٰ الله حق توكله كادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجًا من ذلك وكفاه ونصره.

وقد ذكرنا حقيقة التوكل وفوائده وعظم منفعته وشدة حاجة العبد إليه في (كتاب الفتح القدسي) وذكرنا هناك فساد من جعله من المقامات المعلولة وأنه من مقامات العوام، وأبطلنا قوله من وجوه كثيرة، وبينا أنه من أجل مقامات العارفين، وأنه كلما علا مقام العبد كانت حاجته إلىٰ التوكل أعظم وأشد، وأنه علىٰ قدر إيمان العبد يكون توكله، وإنما المقصود هنا ذكر الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر والباغي.

(**السبب الخامس**): فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له، فلا يلتفت إليه ولا يخافه ولا يملأ قلبه بالفكر فيه، وهذا من أنفع الأدوية وأقوىٰ الأسباب المعينة علىٰ اندفاع شره، فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه بل انعزل عنه لم يقدر عليه، فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر، وهكذا الأرواح سواء، فإذا علق روحه وشبثها به وروح الحاسد الباغي متعلقة يقظة ومنامًا لا يفتر عنه وهو يتمنىٰ أن يتماسك الروحان ويتشبثا.

فإذا تعلقت كل روح منهما بالأخرىٰ عدم القرار ودام الشر حتىٰ يهلك أحدهما، فإذا جبذ روحه عنه وصانها عن الفكر فيه والتعلق به، وأن لا يخطره بباله فإذا خطر بباله بادر إلىٰ محو ذلك الخاطر والاشتغال فيه والتعلق به، وأن لا يخطره بباله، فإذا خطر بباله بادر إلىٰ محو ذلك الخاطر والاشتغال بما هو أنفع له وأولىٰ به بقي الحاسد

الباغي يأكل بعضه بعضًا، فإن الحسد كالنار فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضًا، وهذا باب عظيم النفع لا يلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العلية(١).

(٢)أخبر تعالى عن القرآن بأنه ذكر للعالمين، وفي موضع آخر تذكرة للمتقين. وفي موضع آخر لرسوله ﷺ ولقومه، وفي موضع آخر ذكر مطلق. وفي موضع آخر ذكر مبارك. وفي موضع آخر وصفه بأنه ذو الذكر.

ويجمع هذه المواضع تبين المراد من كونه ذكرًا عامًا وخاصًا، وكونه ذا ذكر، فإنه يذكر العباد بمصالحهم في معاشهم ومعادهم. ويذكرهم بالمبدأ والمعاد، ويذكرهم بالرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وحقوقه علي عباده، ويذكرهم بالخير ليقصدوه، وبالشر ليجتنبوه. ويذكرهم بنفوسهم، وأحوالها وآفاتها، وما تكمل به، ويذكرهم بعدوهم وما يرد منهم، وبماذا يحترزون من كيده، ومن أي الأبواب والطرق يأتي إليهم. ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم إليه، وأنهم مضطرون إليه لا يستغنون عنه نفسًا واحدًا. ويذكرهم بنعمه عليهم، ويدعوهم بها إلى نعم أخرى أكبر منها، ويذكرهم بأسه وشدة بطشه، وانتقامه ممن عصى أمره، وكذب رسله ويذكرهم بثوابه وعقابه.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة القلم

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

---

(١) بقية البحث في سورة الفلق. (ج).

(٢) ٨٠ التبيان.

سُورَةُ الحَاقَّةِ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ ﴾.

(١) وكل بالرياح ملائكة تصرفها بأمره وهم خزنتها. قال الله تعالى: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٦] وقال غير واحد من السلف: عتت على الخزان، فلم يقدروا على ضبطها «ذكره البخاري في صحيحه»(٢).

***

﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

(٣) قال قتادة: أذن سمعت وعقلت عن الله ما سمعت.

وقال الفراء: لتحفظها كل أذن، فتكون عظة لمن يأتي بعد، فالوعي توصف به الأذن كما يوصف به القلب، يقال: قلب واع، وأذن واعية، لما بين الأذن والقلب من الارتباط، فالعلم يدخل من الأذن إلى القلب، فهي بابه والرسول والموصل إليه العلم، كما أن اللسان رسوله المؤدي عنه، ومن عرف ارتباط الجوارح بالقلب علم أن الأذن أحقها أن توصف بالوعي، وأنها إذا وعت وعي القلب.

وفي حديث جابر في المثل الذي ضربته الملائكة للنبي ﷺ ولأمته، وقول الملك له: أسمع سمعت أذنك وعقل قلبك(٤)، فلما كان القلب وعاءً والأذن مدخل ذلك الوعاء

---

(١) ٦٥ روضة المحبين.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير تعليقاً عن ابن عيينة في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ [الأعراف: ٦٥] قبل حديث (رقم ٣٣٤٣) وأخرجه عنه موصولاً أبو الشيخ في العظمة (٤/ ١٣٠٧ رقم ٨٠٤) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٧٧) (٨/ ٤٩٢).

(٣) ١٢٥ مفتاح جـ١.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ١٠٤) والترمذي (رقم ٢٨٦٠) وابن سعد في الطبقات (١/ ١٧٢) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤١٥) وعمدة القاري (٢٥/ ٢٨-٢٩).

وبابه، كان حصول العلم موقوفًا على حسن الاستماع وعقل القلب، والعقل هو ضبط ما وصل إلى القلب وإمساكه حتى لا يتفلت منه.

ومنه عقل البعير والدابة والعقال لما يعقل به.

وعقل الإنسان يسمى عقلًا لأنه يعقله عن اتباع الغي والهلاك، ولهذا يسمى حجرًا لأنه يمنع صاحبه كما يمنع الحجر ما حواه، فعقل الشيء أخص من علمه ومعرفته لأن صاحبه يعقل ما علمه، فلا يدعه يذهب كما تعقل الدابة التي يخاف شرودها.

وللإدراك مراتب بعضها أقوى من بعض، فأولها الشعور، ثم الفهم، ثم المعرفة، ثم العلم، ثم العقل.

ومرادنا بالعقل المصدر لا القوة الغريزية التي ركبها الله في الإنسان.

فخير القلوب ما كان واعيًا للخير ضابطًا له، وليس كالقلب القاسي الذي لا يقبله. فهذا قلب حجري، ولا كالمائع الأخرق الذي يقبل، ولكن لا يحفظ ولا يضبط، فتفهيم الأول كالرسم في الحجر، وتفيهم الثاني كالرسم على الماء، بل خير القلوب ما كان لينًا صلبًا يقبل بلينه ما ينطبع فيه، ويحفظ صورته بصلابته، فهذا تفهيمه كالرسم في الشمع وشبهه.

***

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ ﴾.

(1) قال مقاتل: بما تبصرون من الخلق وما لا تبصرون منه. وقال قتادة: أقسم بالأشياء كلها بما يبصر منها وما لا يبصر. وقال الكلبي: تبصرون من شيء وما لا تبصرون من شيء.

وهذا أعم قسم وقع في القرآن، فإنه يعم العلويات والسفليات والدنيا والآخرة، وما يرى وما لا يرى، ويدخل في ذلك الملائكة كلهم والجن والإنس، والعرش والكرسي،

---

(١) ١٠٩ التبيان.

وكل مخلوق، وكل ذلك من آيات قدرته وربوبيته، وهو ـ سبحانه ـ يصرف الأقسام كما يصرف الآيات.

ففي ضمن هذا القسم أن كل ما يرىٰ وما لا يرىٰ آية، ودليل علىٰ صدق رسوله، وأن ما جاء به هو من عند الله، وهو كلامه، لا كلام شاعر ولا مجنون ولا كاهن، ومن تأمل المخلوقات، ما يراه منها وما لا يراه واعتبر ما جاء به الرسول بها، ونقل فكرته في مجاري الخلق والأمر ظهر له أن هذا القرآن من عند الله وأنه كلامه، وهو أصدق الكلام، وأنه حق ثابت. كما أن سائر الموجودات ما يرىٰ منها وما لا يرىٰ حق.

كما قال تعالىٰ: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٣] أي إن كان نطقكم حقيقة وهو أمر موجود لا تمارون فيه ولا تشكون، فهكذا ما أخبرتكم به من التوحيد والمعاد والنبوة حق، كما في الحديث: «إنه لحق مثل ما أنك ههنا» فكأنه سبحانه يقول: إن القرآن حق كما أن ما شاهدوه من الخلق وما لا يشاهدونه حق موجود، بل لو فكرتم فيما تبصرون وما لا تبصرون لدلكم ذلك علىٰ أن القرآن حق.

ويكفي الإنسان من جميع ما يبصره وما لا يبصره بعينه، ومبدأ خلقه ونشأته، وما يشاهده من أحواله ظاهرًا وباطنًا، ففي ذلك أبين دلالة علىٰ وحدانية الرب، وثبوت صفاته، وصدق ما أخبر به رسوله، وما لم يباشر قلبه ذلك حقيقة لم تخالط بشاشة الإيمان قلبه.

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه، فقال: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحاقة: ٤٠] وهذا رسوله البشري محمد ﷺ، وفي إضافته إليه باسم الرسالة أبين دليل أنه كلام المرسل. فمن أنكر أن يكون الله قد تكلم بالقرآن فقد أنكر حقيقة الرسالة. ولو كانت إضافته إليه إضافة إنشاء وابتداء لم يكن رسولًا، ولناقض ذلك إضافته إلىٰ رسوله الملكي في سورة التكوير.

ثم بين سبحانه كذب أعدائه وبهتهم في نسبة كلامه تعالىٰ إلىٰ غيره، وأنه لم يتكلم به،

بل قاله من تلقاه نفسه، كما بين كذب من قال: ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ [المدثر: ٢٥]. فمن زعم أنه قول البشر فقد كفر. وسيصليه الله سقر.

ثم أخبر ـ سبحانه ـ أنه تنزيل من رب العالمين، وذلك يتضمن أمورًا:

(أحدها) أنه ـ تعالىٰ ـ فوق خلقه كلهم، وأن القرآن نزل من عنده.

(والثاني) أنه تكلم به حقيقة، لقوله: ﴿ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الواقعة: ٨٠] ولو كان غيره هو المتكلم به لكان من ذلك الغير. ونظير هذا قوله: ﴿ وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى ﴾ [السجدة: ١٣].ونظيره قوله: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [النحل: ١٠٢]. وقوله: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [الزمر: ١]. وقوله: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢].وما كان من الله فليس بمخلوق، ولا ينتقض هذا بأن الرزق والمطر وما في السموات والأرض جميعًا منه، وهو مخلوق؛ لأن ذلك كله أعيان قائمة بنفسها وصفات وأفعال لتلك الأعيان، فإضافتها إلىٰ الله سبحانه وأنها منه إضافة خلق، كإضافة بيته، وعبده، وناقته، وروحه، وبابه ـ إليه.

بخلاف كلامه فإنه لابد أن يقوم بمتكلمه؛ إذ كلام من غير متكلم كسمع من غير سامع، وبصر من غير مبصر، وذلك عين المحال، فإذا أضيف إلىٰ الرب كان بمنزلة إضافة سمعه، وبصره، وحياته، وقدرته، وعلمه، ومشيئته إليه.

ومن زعم أن هذه إضافة مخلوق إلىٰ خالق فقد زعم أن الله لا سمع له، ولا بصر، ولا حياة، ولا قدرة، ولا مشيئة تقوم به. وهذا هو التعطيل الذي هو شر من الإشراك. وإن زعم أن إضافة السمع، والبصر، والعلم، والحياة والقدرة إضافة صفة إلىٰ موصوف، وإضافة الكلام إليه إضافة مخلوق إلىٰ خالق فقد تناقض، وخرج عن موجب العقل والفطرة والشرع ولغات الأمم، وفرق بين متماثلين حقيقة، وعقلًا، وشرعًا، وفطرة، ولغة.

وتأمل كيف أضافه سبحانه إلىٰ الرسول بلفظ القول، وأضافه إلىٰ نفسه بلفظ الكلام في قوله: ﴿ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦].

فإن الرسول يقول للمرسل إليه ما أمر بقوله، فيقول: قلت كذا وكذا. وقلت له: ما أمرتني أن أقوله كما قال المسيح: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ ﴾ [المائدة: ١١٧]. والمرسل يقول للرسول: قل لهم كذا وكذا. كما قال تعالىٰ: ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣١]، ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]، ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠] ونظائره.

فإذا بلغ الرسول ذلك صح أن يقال: قال الرسول كذا. وهذا قول الرسول ـ أي قاله مبلغًا ـ وهذا قوله مبلغًا عن مرسله، ولا يجيء في شيء من ذلك تكلم لهم بكذا وكذا، ولا تكلم الرسول بكذا وكذا، ولا أنه بكلام رسول كريم، ولا في موضع واحد، بل قيل للصديق ـ وقل تلا آية ـ هذا كلامك وكلام صاحبك فقال: ليس بكلامي ولا كلام صاحبي. هذا كلام الله.

الأمر الثالث ما تضمنه قوله: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الواقعة: ٨٠] أن ربوبيته الكاملة لخلقه تأبىٰ أن يتركهم سدىٰ: لا يأمرهم، ولا ينهاهم ولا يرشدهم إلىٰ ما ينفعهم، ويحذرهم ما يضرهم. بل يتركهم هملًا بمنزلة الأنعام السائمة.

فمن زعم ذلك لم يقدر رب العالمين قدره ونسبه إلىٰ ما لا يليق به تعالىٰ: ﴿ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦].

ثم أقام ـ سبحانه البرهان القاطع علىٰ صدق رسوله،وأنه لم يتقول عليه فيما قاله، وأنه لو تقول عليه لما أقره، ولعاجله بالإهلاك، فإن كمال علمه وقدرته وحكمته تأبىٰ أن يقر من تقوَّل عليه، وأفترىٰ عليه، وأضل عباده. واستباح دماء من كذبه وحريمهم وأموالهم، وأظهر في الأرض الفساد والجور والكذب، وخالف الخلق. فكيف يليق بأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأقدر القادرين أن يقره علىٰ ذلك؟

بل كيف يليق به أن يؤيده، وينصره، ويعليه، ويظهره، ويظفره، بأهل الحق: يسفك دماءهم، ويستبيح أموالهم وأولادهم ونساءهم، قائلًا: إن الله أمرني بذلك وأباحه لي؟

بل كيف يليق به أن يصدقه بأنواع التصديق كلها، فيصدقه بإقراره،وبالآيات المستلزمة لصدقه التي دلالتها على التصديق كدلالة التصديق بالقول وأظهر. ثم يصدقه بأنواعها كلها على اختلافها. فكل آية على انفرادها مصدقة له، ثم يحصل باجتماع تلك الآيات تصديق فوق تصديق كل آية بمفردها. ثم يعجز الخلق عن معارضته، ثم يصدقه بكلامه وقوله، ثم يقيم الدلالة القاطعة على أن هذا قوله وكلامه، فيشهد له بإقراره وفعله وقوله.

فمن أعظم المحال، وأبطل الباطل، وأبين البهتان أن يجوز على أحكم الحاكمين ورب العالمين أن يفعل ذلك بالكاذب المفتري عليه، الذي هو شر الخلق على الإطلاق. فمن جوَّز على الله أن يفعل هذا بشر خلقه وأكذبهم فما آمن بالله قطعًا، ولا عرف الله، ولا هذا هو رب العالمين، ولا يحسن نسبة ذلك إلى من له مسكة من عقل، وحكمة، وحجى. ومن فعل ذلك فقد أزرى بنفسه، ونادى على جهله.

وأذكر في هذا مناظرة جرت لي مع بعض اليهود.

قلت له ـ بعد أن أقضي في نبوة النبي ﷺ ـ إلى أن قلت له: إنكار نبوته يتضمن القدح في رب العالمين وتنقصه بأقبح التنقص، فكان الكلام معكم في الرسول، والكلام الآن في تنزيه الرب ـ تعالى ـ.

فقال: كيف تقول مثل هذا الكلام؟ فقلت له: بيانه عليَّ.

فاسمع الآن: أنتم تزعمون أنه لم يكن رسولًا، وإنما كان ملكًا قاهرًا قهر الناس بسيفه «حتى دانوا له، ومكث ثلاثًا وعشرين سنة يكذب على الله، ويقول: أوحي إليَّ ولم يوح إليه، وأمرني ولم يأمره، ونهاني ولم ينهه، وقال الله كذا ولم يقل ذلك، وأحل كذا وحرم كذا، وأوجب كذا، وكره كذا، ولم يحل ذلك ولا حرمه ولا أوجبه، بل هو فعل ذلك من تلقاء نفسه كاذبًا مفتريًا على الله وعلى أنبيائه، وعلى رسله وملائكته. ثم مكث من ذلك ثلاث عشرة سنة يستعرض عباده: يسفك دماءهم، ويأخذ أموالهم،ويسترق نساءهم وأبناءهم، ولا ذنب لهم إلا الرد عليه ومخالفته، وهو في ذلك كله يقول: الله

أمرني بذلك، ولم يأمره.

ومع ذلك فهو ساع في تبديل أديان الرسل، ونسخ شرائعهم، وحل نواميسهم فهذه حاله عندكم، فلا يخلو إما أن يكون الرب ـ تعالى ـ عالمًا بذلك مطلعًا عليه من حاله، يراه ويشاهده أم لا.

فإن قلتم: إن ذلك جميعه غائب عن الله لم يعلم به قدحتم في الرب تعالى، ونسبتموه إلى الجهل المفرط، إذ لم يطلع على هذا الحادث العظيم ولا علمه ولا رآه.

وإن قلتم: بل كان ذلك بعلمه واطلاعه ومشاهدته.

قيل لكم: فهل كان قادرًا على أن يغير ذلك ويأخذ على يده، ويحول بينه وبينه أم لا؟

فإن قلتم: ليس قادرًا على ذلك نسبتموه إلى العجز المنافي للربوبية، وكان هذا الإنسان هو وأتباعه منه على تنفيذ إرادتهم.

وإن قلتم: بل كان قادرًا، ولكن مكنه ونصره وسلطه على الخلق، ولم ينصر أولياءه وأتباع رسله نسبتموه إلى أعظم السفه والظلم والإخلال بالحكمة.

هذا لو كان مخلي بينه وبين ما فعله، فكيف وهو في ذلك كله ناصره ومؤيده، ومجيب دعواته ومهلك من خالفه وكذبه، ومصدقه بأنواع التصديق، ومظهر الآيات على يديه التي لو اجتمع أهل الأرض كلهم على أن يأتوا بواحدة منها لما أمكنهم ولعجزوا عن ذلك. وكل وقت من الأوقات يحدث له من أسباب النصر والتمكين والظهور والعلو وكثرة الأتباع أمرًا خارجًا عن العادة. فظهر أن من أنكر كونه رسولًا نبيًا فقد سب الله وقدح فيه، ونسبه إلى الجهل والعجز والسفه.

قلت له: ولا ينتقض هذا بالملوك الظلمة الذين مكنهم الله في الأرض وقتًا ما، ثم قطع دابرهم، وأبطل سنتهم، ومحا آثارهم وجورهم. فإن أولئك لم يعيدوا شيئًا من هذا، ولا أيدوا. ونصروا، وظهرت على أيديهم الآيات، ولا صدقهم الرب تعالى بإقراره ولا بفعله ولا بقوله، بل أمرهم كان بالضد من أمر الرسول، كفرعون ونمرود وأضرابهما.

ولا ينتقض هذا بمن ادعى النبوة من الكذابين؛ فإن حاله كانت ضد حال الرسول

من كل وجه. بل حالهم من أظهر الأدلة على صدق الرسول.

ومن حكمة الله ـ سبحانه ـ أن أخرج مثل هؤلاء إلى الوجود، ليعلم حال الكذابين وحال الصادقين، كان ظهورهم من أبين الأدلة على صدق الرسل.

والفرق بين هؤلاء وبينهم، فبضدها تتبين الأشياء، والضد يظهر حسنة الضد، فمعرفة أدلة الباطل وشبهه من أنواع أدلة الحق وبراهينه.

فلما سمع ذلك قال: معاذ الله لا نقول: إنه ملك ظالم، بل نبي كريم، من اتبعه فهو من السعداء، وكذلك من اتبع موسي فهو كمن اتبع محمدًا.

قلت له: بطل كل ما تموهون به بعد هذا؛ فإنكم إذا أقررتم أنه نبي صادق فلا بد من تصديقه في جميع ما أخبر به، وقد علم أتباعه وأعداؤه بالضرورة أنه دعا الناس كلهم إلى الإيمان، وأخبر أن من لم يؤمن به فهو كافر مخلد في النار، وقاتل من لم يؤمن به من أهل الكتاب وسجل عليهم بالكفر، واستباح أموالهم ودماءهم ونساءهم وأبناءهم. فإن كان ذلك عدوانًا منه وجورًا لم يكن نبيًّا، وعاد الأمر إلى القدح في الرب ـ تعالى ـ وإن كان ذلك بأمر الله ووحيه لم يسع أحدًا مخالفته وترك أتباعه، ويلزم تصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر.

***

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

[1]أي لو أتى بشيء من عند نفسه لأخذنا منه بيمينه. وقطعنا نياط قلبه وأهلكناه. وقد أعاذه الله من الركون إلى أعدائه بذرة من قلبه، ومن التقوّل عليه سبحانه، وكم من راكن إلى أعدائه ومتقول عليه من قبل نفسه قد أمهله ولم يعبأ به. كأرباب البدع كلهم، المتقولين على أسمائه وصفاته ودينه. وما ذكرتم في قصة يونس: هو من هذا الباب.

---

(١) ٣٣٣ مدارج جـ١.

فإنه لم يسامح بغضبه. وسجن لأجلها في بطن الحوت. ويكفي حال أبي البشر حيث لم يسامح بلقمة. وكانت سبب إخراجه من الجنة.

[1]وقد أرشد سبحانه إلى هذا المسلك في غير موضع من كتابه، فقال: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ۝ ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧] يقول سبحانه: لو تقول علينا قولًا واحدًا من تلقاه نفسه لم نقله ولم نوحه إليه لما أقررناه، ولأخذنا بيمينه ثم أهلكناه. هذا أحد القولين. قال ابن قتيبة: في هذا قولان:

أحدهما: أن اليمين القوة والقدرة، وأقام اليمين مقام القوة، لأن قوة كل شيء في ميامنه. قلت: وعلى هذا تكون اليمين من صفة الأخذ، وهذا قول ابن عباس في اليمين.

قال: ولأهل اللغة في هذا مذهب آخر، وهذا أن الكلام ورد على ما اعتاده الناس من الأخذ بيده من يعاقب، وهو قولهم إذا أرادوا عقوبة رجل خذ بيده، وأكثر ما يقوله السلطان والحاكم بعد وجوب الحكم: خذ بيده، واسفع بيده، فكأنه قال: لو كذب علينا في شيء (مما بلغ) إليكم عنا لأخذنا بيمينه، ثم عاقبناه بقطع الوتين. وإلى هذا المعنى ذهب الحسن ا هـ.

فقد أخبر سبحانه أنه لو تقول عليه شيئًا من الأقاويل لما أقره ولعاجله بالعقوبة. فإن كذبا على الله ليس ككذب على غيره، ولا يليق به أن يقر الكاذب عليه فضلًا عن أن ينصره ويؤيده ويصدقه.

ويقول: ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ ﴾ [الحاقة: ٤٦] والوتين: نياط القلب، وهو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب، إذا انقطع بطلت القوى ومات صاحبه، هذا قول جميع أهل اللغة.

قال ابن قتيبة: ولم يرد أنا نقطع ذلك العرق بعينه، ولكنه أراد لو كذب علينا لأمتناه

---

(١) ١١٤ التبيان.

أو قتلناه، فكان كمن قطع وتينه.

قال: ومثله قوله ﷺ: «ما زالت أكلة خيبر تعاودني، وهذا أوان قطع أبهري»(١) والأبهر: عرق يتصل بالقلب فإذا انقطع مات صاحبه، فكأنه قال: فهذا أوان قتلني السم، فكنت كمن انقطع أبهره(٢).

ثم قال تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧] أي لا يحجزه مني أحد، ولا يمنعه مني.

الموضع الثاني قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤] وفي معنى الآية للناس قولان:

أحدهما: قول مجاهد ومقاتل: إن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم، حتى لا يشق عليك.

والثاني: قول قتادة: إن يشأ الله ينسك القرآن، ويقطع عنك الوحي. وهذا القول أقوى من الأول لوجوه:

(أحدها) أن هذا خرج جوابًا لهم وتكذيبًا لقولهم: إن محمدًا كذب على الله وافترى عليه هذا القرآن. فأجابهم بأحسن جواب، وهو أن الله تعالى قادر لا يعجزه شيء، فلو كان كما تقولون لختم على قلبه، فلا يمكنه أن يأتي بشيء منه، بل يصير القلب كالشيء المختوم عليه فلا يوصل إلى ما فيه، فيعود المعنى إلى أنه لو افترى عليَّ لم أمكنه ولم أقره.

ومعلوم أن مثل هذا الكلام لا يصدر من قلب مختوم عليه؛ فإن فيه من علوم الأولين والآخرين، وعلم المبدأ والمعاد والدنيا والآخرة، والعلم الذي لا يعلمه إلا

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٢٨) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢٤٥-٢٤٧).

(٢) تقدم في تفسير آية ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية في سورة آل عمران بحث على هذه الآية قريبًا من هذا. (ج).

الله والبيان التام، والجزالة، والفصاحة والجلالة والأخبار بالغيوب ما لم يمكن من ختم على قلبه أن يأتي به ولا ببعضه، فلولا أني أنزلته على قلبه ويسرته بلسانه ـ لما أمكنه أن يأتيكم بشيء منه. فأين هذا المعنى إلى المعنى الذي ذكره الآخرون؟ وكيف يلتئم مع حكاية قولهم؟ وكيف يتضمن الرد عليهم؟

(الوجه الثاني): أن مجرد الربط على قلبه بالصبر على أذاهم يصدر من المحق والمبطل، فلا يدل ذلك على التمييز بينهما، ولا يكون فيه رد لقولهم، فإن الصبر على أذى المكذب لا يدل بمجرده على صدق المخبر.

(الثالث): أن الربط على قلب العبد لا يقال له ختم على قلبه، ولا يعرف هذا في عرف المخاطب ولا لغة العرب، ولا هو المعهود في القرآن، بل المعهود استعمال الختم على القلب في شأن الكفار في جميع موارد اللفظ في القرآن كقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣] ونظائره، وأما رابطه على قلب العبد بالصبر فكقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ١٤] وقوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠].

والإنسان يسوغ له في الدعاء أن يقول: اللهم اربط على قلبي، ولا يحسن أن يقول: اللهم اختم على قلبي.

(الرابع): أنه سبحانه حيث يحكي أقوالهم «إنه افتراه، لا يجيبهم عليه هذا الجواب، بل يجيبهم بأنه لو افتراه لم يملكوا له من الله شيئًا، بل كان يأخذه ولا يقدرون على تخليصه كقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الأحقاف: ٨] وتارة يجيبهم بالمطالبة بمعارضته بمثله أو شيء منه، وتارة بإقامة الأدلة القاطعة على أنه الحق، وأنهم هم الكاذبون المفترون، وهذا هو الذي

يحسن في جواب هذا السؤال لا مجرد الصبر.

(الخامس): أن هذه الآية نظير ما نحن فيه، وأنه لو شاء لما أقره ولا مكَّنه. وتفسير القرآن بالقرآن من أبلغ التفاسير.

(السادس): أنه لا دلالة في سياق الآية على الصبر بوجه ما: لا بالمطابقة؛ ولا التضمن، ولا اللزوم. فمن أين يعلم أنه أراد ذلك، ولم يستمر هذا المعنى في غير هذا المعنى، فيحمل عليه، بخلاف كونه يحول بينه وبينه، ولا يمكنه من الافتراء عليه، فقد ذكره في مواضع.

(السابع): أنه سبحانه أخبر أنه لو شاء لما تلاه عليهم ولا أدراهم به، وأن ذلك إنما هو بمشيئته وإذنه وعلمه، كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾ [يونس: ١٦]، وهذا من أبلغ الحجج وأظهرها، أي هذا الكلام ليس من قبلي ولا من عندي، ولا أقدر أن أفتريه على الله، ولو كان ذلك مقدورًا لي لكان مقدورًا لمن هو من أهل العلم والكتابة ومخالطة الناس والتعلم منهم، ولكن الله بعثني به، ولو شاء ـ سبحانه ـ لم ينزله ولم ييسره بلساني، فلم يدعني أتلوه عليكم وأن أعلمكم به البتة لا على لساني ولا على لسان غيري، ولكنه أوحاه إليَّ وأذن لي في تلاوته عليكم، وأدراكم به بعد أن لم تكونوا دارين به. فلو كان كذبًا وافتراءً كما تقولون لأمكن غيري أن يتلوه عليكم وتدرون به من جهته، لأن الكذب لا يعجز عنه البشر، وأنتم لم تدروا بهذا ولم تسمعوه إلا مني ولم تسمعوه من بشر غيري.

ثم أجاب عن سؤال مقدر، وهو أنه تعلمه من غيره أو افتراه من تلقاء نفسه، فقال: ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ﴾ [يونس: ١٦] تعلمون حالي ولا يخفى عليكم سيري ومدخلي ومخرجي وصدقي وأمانتي. ومن هذا لم أتمكن من قول شيء منه البتة، ولا كان لي به علم ولا ببعضه ثم أتيتكم به وهلة من غير تعمل ولا تعلم، ولا معاناة للأسباب التي أتمكن بها منه، ولا من بعضه، وهذا من أظهر الأدلة وأبين البراهين أنه من عند الله أوحاه إليَّ وأنزله عليَّ ولو شاء ما فعل. فلم يمكني من تلاوته

ولا أمكنكم من العلم به، بل مكنني من تلاوته ومكنكم من العلم به، فلم تكونوا عالمين به ولا ببعضه، ولم أكن قبل أن يوحى إليَّ تاليًا له ولا لبعضه. فتأمل صحة هذا الدليل وحسن تأليفه وظهور دلالته.

ومن هذا قوله سبحانه: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٦] وهذا هو المناسب لقوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [الشورى: ٢٤] ولقوله: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٥] وبرهان مستقل مذكور في القرآن على وجوه متعددة، والله أعلم.

(الثامن): أن مثل هذا التركيب إنما جاء في القرآن للنفي لا للإثبات، كقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ وقوله: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ﴾ [النساء: ١٣٣] وقوله: ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ﴾ [الشورى: ٣٣] وقوله: ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [سبأ: ٩] ونظائره لم يأت إلا فيما كان ما بعد فعل المشيئة منفيًّا.

(التاسع): أن الختم على القلب لا يستلزم الصبر، بل قد يختم على قلب العبد ويسلبه صبره، بل إذا ختم على القلب زال الصبر وضعف، بخلاف الربط على القلب فإنه يستلزم الصبر، كما قال تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ﴾ [الأنفال: ١١] ومعنى الربط في اللغة الشد. ولهذا يقال لكل من صبر على أمر: ربط قلبه، وكأنه حبس قلبه عن الاضطراب.

ومنه يقال: هو ربط الجأش. وقد ظن الواحدي أن «على» زائدة، والمعنى يربط قلوبكم، وليس كما ظن، بل بين ربط الشيء والربط عليه فرق ظاهر، فإنه يقال: ربط الفرس والدابة ولا يقال ربط عليها. فإذا أحاط الربط بالشيء وعمه قيل: ربط عليه. كأنه أحاط عليه بالربط. فلهذا قيل: ربط على قلبه، وكان أحسن من أن يقال: ربط قلبه.

والمقصود: أن هذا الربط يكون معه الصبر أشد وأثبت بخلاف الختم.

(العاشر): أن الختم هو شد القلب، حتى لا يشعر ولا يفهم، فهو مانع يمنع العلم والقصد. والنبي ﷺ كان يعلم قول أعدائه: إنه افترى القرآن، ويشعر به، فلم يجعل الله على قلبه مانعًا من شعوره بذلك وعلمه به. فإذا قيل الأمر كذلك، ولكن جعل الله على قلبه مانعًا من التأذي بقولهم. قيل: هذا أولى أن يسمى ختمًا، وقد كان يؤذيه قولهم ويحزنهم، كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] وكان وصول هذا الأذى إليه من كرامة الله له، فإنه لم يؤذ نبي ما أوذي. فالقول في الآية هو قول قتادة. والله أعلم.

ثم أخبر سبحانه أن القرآن تذكرة للمتقين يتذكر به المتقي، فيبصر ما ينفعه فيأتيه، وما يضره فيجتنبه، ويتذكر به أسماء الرب تعالى وصفاته وأفعاله فيؤمن، ويتذكر به ثوابه وعقابه ووعيده وأمره ونهيه وآياته في أوليائه وأعدائه ونفسه، وما يزكيها ويطهرها ويعليها، وما يدسيها ويخفيها ويحقرها. ويذكر به علم المبدأ والمعاد والجنة والنار، وعلم الخير والشر. فهو التذكرة على الحقيقة، تذكرة حجة للعالمين، ومنفعة وهداية للمتعلمين.

***

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝﴾.

أي لا يخفون علينا، فسنجازيهم بتكذيبهم.

ثم أخبر سبحانه أن رسوله وكلامه حسرة على الكافرين إذا عاينوا حقيقة ما أخبر به كان تكذيبهم عليهم من أعظم الحسرات، حين لا ينفعهم التحسر. وهكذا كل من كذب بحق وصدق بباطل فإنه إذا انكشف له حقيقة ما كذب به وصدق به كان تكذيبه وتصديقه حسرة عليه، كمن فرط فيما ينفعه وقت تحصيله، حتى إذا اشتدت حاجته إليه وعاين فوز المحصلين صار تفريطه عليه حسرة.

ثم أخبر سبحانه أن القرآن والرسول حق اليقين، فقيل، هو من باب إضافة الموصوف إلى صفته، أي الحق اليقين، نحو مسجد الجامع، وصلاة الأولى. وهذا موضع يحتاج إلى تحقيق فنقول، وبالله التوفيق.

ذكر الله سبحانه في كتابه مراتب اليقين، وهي ثلاثة: حق اليقين، علم اليقين، وعين اليقين، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥ ـ ٧] فهذه ثلاث مراتب لليقين: أولها علمه، وهو التصديق التام به، بحيث لا يعرض له شك ولا شبهة تقدح في تصديقه، كعلم اليقين بالجنة مثلًا، وتيقنهم أنها دار المتقين ومقر المؤمنين، فهذه مرتبة العلم، كيقينهم أن الرسل أخبروا بها عن الله، وتيقنهم صدق المخبر.

(المرتبة الثانية): عين اليقين، وهي مرتبة الرؤية والمشاهدة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧] وبين هذه المرتبة والتي قبلها فرق ما بين العلم والمشاهدة: فاليقين للسمع، وعين اليقين للبصر.

وفي المسند للإمام أحمد مرفوعًا: «ليس الخبر كالمعاين»(١) وهذه المرتبة هي التي سألها إبراهيم الخليل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، ليحصل له مع علم اليقين عين اليقين، فكان سؤاله زيادة لنفسه، وطمأنينة لقلبه. فيسكن القلب عند المعاينة، ويطمئن لقطع المسافة التي بين الخبر والعيان.

وعلى هذه المسافة أطلق النبي ﷺ لفظ الشك، حيث قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»(٢) ومعاذ الله أن يكون هناك شك ولا من إبراهيم، وإنما هو عين بعد علم، وشهود بعد خبر، ومعاينة بعد سماع.

***

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥، ٢٧١) والضياء في المختارة (٥/ ٢٠٢ رقم ١٨٢٨) والحاكم (٢/ ٣٥١ رقم ٢٣٥٠) وابن حبان (١٤/ ٩٦ رقم ٦٢١٣) والهيثمي في موارد الظمآن (رقم ٢٠٨٧) والطبراني في الأوسط (١/ ١٢ رقم ٢٥) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٢٠١ رقم ١١٨٢) وصححه الحاكم وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٥٣): رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٧٢) ومسلم (رقم ١٥١) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤١١-٤١٢) وشرح النووي (٢/ ١٨٣).

﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝ ﴾.

مرتبة حق اليقين، وهي مباشرة الشيء بالإحساس به. كما إذا أدخلوا الجنة وتمتعوا بما فيهم، فهم في الدنيا في مرتبة علم اليقين، وفي الموقف حين تزلف وتقرب منهم حتى يعاينوها في مرتبة عين اليقين، وإذا دخلوها وباشروا نعيمها في مرتبة حق اليقين. ومباشرة المعلوم تارة يكون بالحواس الظاهرة وتارة يكون بالقلب، فلهذا قال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝ ﴾ [الحاقة: ٥١] فإن القلب يباشر الإيمان به ويخالطه كما يباشر بالحواس ما يتعلق بها، فحينئذ يخالط بشاشته القلوب ويبقى لها حق اليقين، هذه أعلى مراتب الإيمان هي الصديقية التي تتفاوت فيها مراتب المؤمنين. وقد ضرب بعض العلماء للمراتب الثلاث مثالًا.

فقال: إذا قال لك من تجزم بصدقه: عندي عسل أريد أن أطعمك منه. فصدقته كان ذلك علم يقين، فإذا أحضره بين يديك صار ذلك عين اليقين، فإذا ذقته صار ذلك حق اليقين. وعلى هذا فليست هذه الإضافة من باب إضافة الموصوف إلى صفته.

بل من إضافة الجنس إلى نوعه، فإن العلم والعين والحق أعم من كونها يقينًا، فأضيف العام إلى الخاص، مثل بعض المتاع وكل الدراهم. ولما كان المضاف والمضاف إليه في هذا الباب يصدقان على ذات واحدة بخلاف قولك: دار عمرو وثوب زيد، ظن من ظن أنها من إضافة الموصوف إلى صفته، وليس كذلك، بل هي من باب إضافة الجنس إلى نوعه، كثوب خز وخاتم فضة، فالمضاف إليه قد يكون مغايرًا للمضاف لا يصدقان على ذات واحدة، وقد يجانسه فيصدقان علي مسمى واحد، والله أعلم.

***

﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝ ﴾.

ثم ختم السورة بقوله: ﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝ ﴾ [الحاقة: ٥٣]. وهي جديرة بهذه الخاتمة، لما تضمنته من الأخبار عن عظمة الرب ـ تعالى وجلاله ـ.

وذكر عظمة ملكه وجريان حكمه بالعدل على عباده في الدنيا والآخرة.

وذكر عظمته ـ تعالىٰ ـ في إرسال رسوله وإنزال كتابه، وأنه ـ تعالىٰ ـ أعظم وأجل وأكبر عند أهل سمواته والمؤمنين من عباده من أن يقر كذابًا متقولًا عليه، مفتري عليه، يبدل دينه، وينسخ شرائعه، ويقتل عباده، ويخبر عنه بما لا حقيقة له، وهو ـ سبحانه ـ مع ذلك يؤيده وينصره، ويجيب دعواه، ويأخذ أعداءه، ويرفع قدره، ويعلي ذكره. فهو ـ سبحانه ـ العظيم ـ الذي تأبىٰ عظمته أن يفعل ذلك بمن أتىٰ بأقبح أنواع الكذب والظلم. فسبحان ربنا العظيم، و ـ تعالىٰ ـ عما ينسبه إليه الجاهلون علوًا كبيرًا.

(١) (فإن قيل): فما الفائدة في دخول الباء في قوله: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝ ﴾ ولم تدخل في قوله: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ [الأعلى: ١] قيل: التسبيح يراد به التنزيه والذكر المجرد دون معنى آخر.

ويراد به ذلك مع الصلاة وهو ذكر وتنزيه مع عمل؛ ولهذا تسمى الصلاة تسبيحًا. فإذا أريد التسبيح المجرد فلا معنى للباء، لأنه لا يتعدى بحرف جر، لا تقول: سبحت بالله.

وإذا أردت المقرون بالفعل وهو الصلاة أدخلت الباء تنبيهًا على ذلك المراد كأنك قلت. سبح مفتتحًا باسم ربك أو ناطقًا باسم ربك، كما تقول: صل مفتتحًا أو ناطقًا باسمه.

ولهذا السر والله أعلم دخلت للام في قوله تعالىٰ: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الحديد: ١] والمراد التسبيح الذي هو السجود والخضوع والطاعة، ولم يقل في موضع: سبح الله ما في السموات والأرض. كما قال: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٥].

وتأمل قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ

---

(١) ٢٠ بدائع جـ١ .

يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ [الأعراف: ٢٠٦] فكيف قال ويسبحونه لما ذكر السجود باسمه الخاص، فصار التسبيح ذكرهم له وتنزيههم إياه.

[١] وعبر لي شيخنا أبو العباس ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ عن هذا المعنى بعبارة لطيفة وجيزة. فقال: المعنى سبح ناطقًا باسم ربك، متكلما به. وكذا ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ المعنى سبح ربك ذاكرًا اسمه.

وهذه الفائدة تساوي رحلة لكن لمن يعرف قدرها. فالحمد لله المنان بفضله ونسأله تمام نعمته.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الحاقة

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

---

(١) ١٩ بدائع جـ١.

سُورَةُ المَعَارِجِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾.

(١) هذا تفسير الهلوع، وهو شد الحرص الذي يترتب عليه الجزع والمنع.

فأخبر ـ سبحانه ـ أنه خلق الإنسان كذلك، وذلك صريح في أن هلعه مخلوق لله، كما أن ذاته مخلوقة. فالإنسان بجملته: ذاته وصفاته وأفعاله وأخلاقه مخلوق لله، ليس في شيء خلق لله وشيء خلق لغيره، بل الله خالق الإنسان بجملته وأحواله كلها. فالهلع فعله حقيقة، والله خالق ذلك فيه حقيقة، فليس لله ـ سبحانه ـ بهلوع ولا العبد هو الخالق لذلك.

(٢) ويضاد الصبر الهلع، وهو الجزع عند ورود المصيبة، والمنع عند ورود النعمة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ . وهذا تفسير الهلوع، قال الجوهري: الهلع أفحش الجزع، وقد ولع بالكسر فهو هلع وهلوع.

وفي الحديث: «شر ما في العبد شح هالع وجبن خالع»(٣)، قلت: هنا أمران: أمر لفظي وأمر معنوي، فأما اللفظي فإنه وصف الشح بكونه هالعًا صاحبه، وأكثر ما يسمى هلوعًا ولا يقال هالع له، فإنه لا يتعدى، ففيه وجهان:

---

(١) ٦٠ شفاء.

(٢) ٣٠٢ عدة الصابرين.

(٣) أخرجه ابن حبان (٨/ ٤٢ رقم ٣٢٥٠) والهيثمي في الموارد (رقم ٨٠٨) وأبو داود (رقم ٢٥١١) والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٧٠ رقم ١٨٣٤٢) وابن أبي شيبة (٥/ ٣٣٢ رقم ٢٦٦٠٩) وأحمد (٢/ ٣٠٢) والقضاعي في الشهاب (٢/ ٢٧٠ رقم ١٣٣٨) وعبد بن حميد (رقم ١٤٢٨) والحكيم الترمذي في النوادر (٣/ ١٢٣) وابن المبارك في الجهاد (رقم ١١١) وجوّد إسناده العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٧).

أحدهما: أنه على النسب: كقولهم: ليل نائم، وسر كاتم، ونهار صائم، ويوم عاصف. كله عند سيبويه على النسب، أي ذو كذا كما قالوا: تامر ولابن.

والثاني: أن اللفظة غيرت عن بابها للازدواج مع خالع وله نظير. وأما المعنوي فإن الشح والجبن أردىٰ صفتين في العبد، ولاسيما إذا كان شحه هالعًا، أي ملق له في الهلع، وجبنه خالع أي قد خلع قلبه من مكانه، فلا سماحة ولا شجاعة، ولا نفع بماله ولا ببدنه. كما يقال: لا طعنة ولا جفنة، ولا يطرد ولا يشرد، بل قد قمعه وصغّره وحقّره ودسَّاه الشح والخوف والطمع والفزع.

وإذا أردت معرفة الهلوع فهو الذي إذا أصابه الجوع مثلًا أظهر الاستجاعة وأسرع بها، وإذا أصابه الألم أسرع الشكاية وأظهرها، وإذا أصابه القهر أظهر الاستطامة والاستكانة وباء بها سريعًا، وإذا أصابه الجوع أسرع الانطراح على جنبه وأظهر الشكاية، وإذا بدا له مأخذ طمع طار إليه سريعًا، وإذا ظفر به أحله من نفسه محل الروح، فلا احتمال ولا إفضال، وهذا كله من صغر النفس ودناءتها وتدسيسها في البدن وإخفائها وتحقيرها، والله المستعان.

***

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

(١) ذم الإنسان وأنه خلق هلوعًا، لا يصبر على شر ولا خير، بل إذا مسه الخير منع وبخل، وإذا مسه الشر جزع، إلا من استثنى بعد ذلك من الناجين من خلقه. فذكر منهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ [المعارج: ٢٩، ٣١]، وأمر الله تعالىٰ نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم، وأن يعلمهم أنه مشاهد

(١) ٢٠٢ الجواب الكافي.

لأعمالهم، مطلع عليها: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩] ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدمًا على حفظ الفرج. فإن الحوادث مبدؤها من النظر، كما أن معظم النار مبدؤها من مستصغر الشرر، ثم تكون نظرة، ثم تكون خطرة، ثم خطوة، ثم خطيئة. ولهذا قيل: من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه. اللحظات، والخطرات، واللفظات، والخطوات. فينبغي للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة، ويلازم الرباط على ثغورها، فمنها يدخل عليه العدو، فيجوس خلال الديار، ويتبر ما علا تتبيرًا.

***

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

[(١)] قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٣٣] فيكون قائمًا بشهادته في باطنه وظاهره وفي قلبه وقالبه، فإن من الناس من تكون شهادته ميتة، ومنهم من تكون نائمة إذا نبهت انتبهت. ومنهم من تكون مضطجعة. ومنهم من تكون إلى القيام أقرب. وهي في القلب بمنزلة الروح في البدن، فروح ميتة وروح مريضة إلى الموت أقرب، وروح إلى الحياة أقرب، وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن.

وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ: «**إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجدت روحه لها روحًا**»[(٢)] فحياة هذه الروح بهذه الكلمة فكما أن حياة البدن بوجود الروح فيه، وكما أن من مات على هذه الكلمة فهو في الجنة يتقلب فيها، فمن عاش على تحقيقها والقيام بها فروحه تتقلب في جنة المأوى، وعيشها أطيب عيش، قال

---

(١) ٢٦٦ الجواب الكافي.

(٢) أخرجه الضياء في المختارة (١/ ٢٢٨ رقم ١٢٥) وابن حبان (١/ ٤٣٤-٤٣٥ رقم ٢٠٥) والهيثمي في الموارد (رقم ٢) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٦٩ رقم ١٠٩٣٧) وابن ماجه (رقم ٣٧٩٥) والشيباني في الآحاد والمثاني (رقم ٢٠٤) وأبو يعلى (٢/ ١٣ رقم ٦٤٠) والطبراني في الكبير (٢٤/ ٣٠٤ رقم ٧٧٢) وأحمد (١/ ٢٨، ٣٧) والبزار (٣/ ١٤٥-١٤٦ رقم ٩٣٠).

تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]. فالجنة مأواه يوم اللقاء، وجنة المعرفة والمحبة والأنس بالله والشوق إلىٰ لقائه والفرح به والرضا عنه وبه مأوىٰ روحه في هذا الدار.

فمن كانت هذه الجنة مأواه ههنا كانت جنة الخلد مأواه يوم المعاد، ومن حرم هذه الجنة فهو لتلك الجنة أشد حرمانًا. والأبرار في نعيم وإن اشتد بهم العيش وضاقت به الدنيا، والفجار في جحيم وإن اتسعت عليهم الدنيا، قال تعالىٰ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧] وطيب الحياة: جنة الدنيا...

***

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ ﴾.

(١)«الأدب» هو الدين كله، فإن ستر العورة من الأدب، والوضوء وغسل الجنابة من الأدب، والتطهر من الخبث من الأدب؛ حتىٰ يقف بين يدي الله طاهرًا. ولهذا كانوا يستحبون أن يتجمل الرجل في صلاته. للوقوف بين يدي ربه.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول: أمر الله بقدر زائد علىٰ ستر العورة في الصلاة، وهو أخذ الزينة. فقال تعالىٰ: ﴿ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف: ٣١] فعلق الأمر بأخذ الزينة، لا بستر العورة، إيذانًا بأن العبد ينبغي له: أن يلبس أزين ثيابه، وأجملها في الصلاة.

وكان لبعض السلف حلة بمبلغ عظيم من المال. وكان يلبسها وقت الصلاة. ويقول: ربي أحق من تجملت له في صلاتي.

ومعلوم: أن الله ﷻ يحب أن يرىٰ أثر نعمته علىٰ عبده. لا سيما إذا وقف بين يديه. فأحسن ما وقف بين يديه بملابسه ونعمته التي ألبسه إياها ظاهرًا وباطنًا.

---

(١) ٣٨٤ مدارج جـ٢.

ومن الأدب: نهي النبي ﷺ المصلي «أن يرفع بصره إلى السماء»[(١)].

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: هذا من كمال أدب الصلاة: أن يقف العبد بين يدي ربه مطرقًا، خافضًا طرفه إلى الأرض. ولا يرفع بصره إلى فوق.

قال: والجهمية ـ لما لم يفقهوا هذا الأدب، ولا عرفوه ـ ظنوا أن هذا دليل أن الله ليس فوق سمواته، على عرشه. كما أخبر به عن نفسه. واتفقت عليه رسله. وجميع أهل السنة.

قال: وهذا من جهلهم. بل هذا دليل لمن عقل عن الرسول ﷺ على نقيض قولهم. إذ من الأدب مع الملوك: أن الواقف بين أيديهم يطرق إلى الأرض. لا يرفع بصره إليهم. فما الظن بملك الملوك سبحانه؟

وسمعته يقول: ـ في نهيه ﷺ عن قراءة القرآن في الركوع والسجود ـ إن القرآن هو أشرف الكلام. وهو كلام الله. وحالتا الركوع والسجود حالتا ذل وانخفاض من العبد. فمن الأدب مع كلام الله: أن لا يقرأ في هاتين الحالتين ويكون حال القيام والانتصاب أولى به.

ومن الأدب مع الله: أن لا يستقبل بيته ولا يستدبره عند قضاء الحاجة. كما ثبت عن النبي ﷺ في حديث أبي أيوب وسلمان وأبي هريرة، وغيرهم، رضي الله عنهم[(٢)] والصحيح: أن هذا الأدب: يعم الفضاء والبنيان. كما ذكرنا في غير هذا الموضع.

ومن الأدب مع الله، في الوقوف بين يديه في الصلاة: وضع اليمنى على اليسرى حال قيام القراءة، ففي الموطأ لمالك عن سهل بن سعد «أنه من السنة» و«كان الناس

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (١/ ٣٥٦ رقم ١١١٧) بلفظ: «إذا كان أحدكم في الصلاة فلا يرفع بصره إلى السماء أن يلتمع بصره» وأخرجه أيضاً في المجتبى (رقم ١١٩٤) وعبدالرزاق (٢/ ٢٥٣ رقم ٣٢٥٧) والطبراني في الأوسط (١/ ١٠٣ رقم ٣١٩) وفي الكبير (٦/ ٣٥ رقم ٥٤٣٦) وأحمد (٣/ ٤٤١) وصححه الحافظ ابن حجر في الفتح (١٠/ ٥٩٦).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٥) بلفظ: «إذا جلس أحدكم على حاجته فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها» وانظر: فتح الباري (١/ ٢٤٦) وشرح النووي (٣/ ١٥٣-١٥٨).

يؤمرون به»[١] ولا ريب أنه من أدب الوقوف بين يدي الملوك والعظماء. فعظيم العظماء أحق به.

ومنها: السكون في الصلاة. وهو الدوام الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣] قال عبدالله بن المبارك عن ابن لهيعة: حدثني يزيد بن أبي حبيب: أن أبا الخير أخبره قال: سألنا عقبة بن عامر عن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ أهم الذين يصلون دائمًا؟ قال: لا. ولكنه إذا صلى لم يلتفت عن يمينه، ولا عن شماله ولا خلفه[٢].

قلت: هما أمران: الدوام عليها. والمداومة عليها. فهذا الدوام. والمداومة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤] وفسر «الدوام» بسكون الأطراف والطمأنينة.

وأدبه في استماع القراءة: أن يلقي السمع وهو شهيد.

وأدبه في الركوع: أن يستوي. ويعظم الله تعالى، حتى لا يكون في قلبه شيء أعظم منه. ويتضاءل ويتصاغر في نفسه. حتى يكون أقل من الهباء.

والمقصود: أن الأدب مع الله ـ تبارك وتعالى ـ: هو القيام بدينه، والتأدب بآدابه ظاهرًا وباطنًا.

ولا يستقيم لأحد قط الأدب مع الله إلا بثلاثة أشياء: معرفته بأسمائه وصفاته، ومعرفته بدينه وشرعه، وما يحب وما يكره. ونفس مستعدة قابلة لينة، متهيئة لقبول الحق علمًا وعملًا وحالًا. الله المستعان.

***

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٠) بلفظ عن سهل بن سعد قال: كان الناس يؤمرون أن يضع الرجل يده اليمنى على ذراعه اليسرى في الصلاة. وانظر: فتح الباري (٢/ ٢٢٤) وشرح النووي (٤/ ١١٤).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٩/ ٨٠) وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٣٧٤ رقم ١٨٩٩١) وابن المبارك في الزهد (رقم ١١٨٩) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (رقم ٦٧).

﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) ﴾.

ينبه[1] ـ سبحانه ـ الإنسان على مبدأ خلقه الضعيف من الماء المهين، ثم نقله في أطباق خلقه وأطواره من حال إلى حال، جعله بشر سويًا، يسمع ويبصر، ويقول وينطق ويبطش ويعلم، فنسي مبدأه وأوله، وكيف كان، ولم يعترف بنعم ربه عليه، كما قال تعالى: ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [المعارج: ٣٨، ٣٩] وأنت إذا تأملت ارتباط إحدى الجملتين بالأخرى وجدت تحتها كنزًا عظيمًا من كنوز المعرفة والعلم، فأشار ـ سبحانه ـ بمبدأ خلقه مما يعلمون من النطفة وما بعدها إلى موضع الحجة والآية الدالة على وجوده ووحدانيته وكماله وتفرده بالربوبية والإلهية، وأنه لا يحسن به من ذلك أن يتركهم سدى، لا يرسل إليهم رسولًا ولا ينزل عليهم كتابًا، وأنه لا يعجز مع ذلك أن يخلقهم بعد ما أماتهم خلقًا جديدًا، أو بعثهم إلى دار يوفيهم فيها أعمالهم من الخير والشر، فكيف يطمعون في دخول الجنة وهم يكفرون ويكذبون رسلي، ويعدلون بي خلقي، وهم يعلمون من أي شيء خلقتهم.

***

قوله ﷻ: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) ﴾.

أقسم سبحانه برب المشارق والمغارب. وهي إما مشارق النجوم ومغاربها، أو مشارق الشمس ومغاربها.

وأن كل موضع من الجهة مشرق ومغرب، فكذلك جمع في موضع، وأفرد في موضع، وثنى في موضع آخر، فقال: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) ﴾ [الرحمن: ١٧]

---

(١) ٣٦ شفاء.

فقيل: هما مشرقا الصيف والشتاء، وجاء في كل موضع ما يناسبه، فجاء: في سورة الرحمن: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾ لأنها سورة ذكرت فيها المزوجات، فذكر فيها الخلق والتعليم، والشمس، والقمر، والنجوم، والشجر، والسماء، والأرض، والحب، والثمر والجن والإنس ومادة أبي البشر وأبي الجن، والبحرين والجنة والنار، وقسم الجنة إلىٰ جنتين عاليتين وجنتين دونهما، وأخبر أن في كل جنة عينين، فناسب كل المناسبة أن يذكر المشرقين، والمغربين.

وأما سورة ﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ ﴾ فإنه أقسم ـ سبحانه ـ علىٰ عموم قدرته وكمالها، وصحة تعلقها بإعادتهم بعد العدم. فذكر المشارق والمغارب بلفظ الجمع؛ إذ هو أدل علىٰ المقسم عليه، سواء أريد مشارق النجوم ومغاربها، أو مشارق الشمس ومغاربها، أو كل جزء من جهتي المشرق والمغرب. فكل ذلك آية ودلالة علىٰ قدرته تعالىٰ علىٰ أن يبدل أمثال هؤلاء المكذبين، وينشئهم فيما لا يعلمون. فيأتي بهم في نشأة أخرىٰ، كما يأتي بالشمس كل يوم من مطلع، ويذهب (بها) في مغرب.

وأما في سورة (المزمل) فذكر المشرق والمغرب بلفظ الإفراد، لما كان المقصود ذكر ربوبيته، ووحدانيته، وكما أنه تفرد بربوبية المشرق والمغرب وحده، فكذلك يجب أن يتفرد بالربوبية والتوكل عليه وحده. فليس للمشرق والمغرب رب سواه. فكذلك ينبغي أن لا يتخذ إله ولا وكيل وسواه.

وكذلك قال موسىٰ لفرعون حين سأله: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣] فقال: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٨].

وفي ربوبيته سبحانه للمشارق والمغارب تنبيه علىٰ ربوبيته السموات وما حوته من الشمس، والقمر، والنجوم، وربوبيته ما بين الجهتين. وربوبيته الليل والنهار وما تضمناه.

ثم قال: ﴿ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [المعارج: ٤٠، ٤١] أي لقادرون علىٰ أن نذهب بهم ونأتي بأطوع لنا منهم وخيرًا منهم،

كما قال تعالىٰ: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٣] وقوله: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أي لا يفوتني ذلك إذا أردته ولا يمتنع مني. وعبر عن هذا المعنىٰ بقوله: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ [الواقعة: ٦٠] لأن المغلوب يسبقه الغالب إلىٰ ما يريده فيفوت عليه، ولهذا عدّىٰ بـ [علىٰ] دون [إلىٰ] كما في قوله: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١] فإنه لما ضمنه معنىٰ مغلوبين ومقهورين عداه بعلىٰ، بخلاف سبقه إليه، فإنه فرق بين سبقته إليه وسبقته عليه. فالأول بمعنىٰ غلبته وقهرته عليه. والثاني: بمعنىٰ وصلت إليه قبله.

وقد وقع الإخبار عن قدرته سبحانه علىٰ تبديلهم بخير منهم، وفي بعضها تبديل أمثالهم، وفي بعضها استبداله قومًا غيرهم ثم لا يكونوا أمثالهم.

فهذه ثلاثة أمور يجب معرفة ما بينها في الجمع والفرق.

فحيث وقع التبديل بخير منهم فهو إخبار عن قدرته علىٰ أن يذهب بهم ويأتي بأطوع وأتقىٰ له منهم في الدنيا. وذلك قوله: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد: ٣٨] يعني بل يكونوا خير منكم. قال مجاهد: يستبدل بهم من شاء من عباده فيجعلهم خيرًا من هؤلاء، فلم يتولوا بحمد الله فلم يستبدل بهم.

وأما ذكره تبديل أمثالهم، ففي سورة الواقعة وسورة الإنسان. فقال في الواقعة: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١] وقال في سورة الإنسان: ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ [الإنسان: ٢٨]. قال كثير من المفسرين: المعنىٰ أنا إذا أردنا أن نخلق خلقًا غيركم لم يسبقنا سابق، ولم يفتنا ذلك.

وفي قوله: ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ إذا شئنا أهلكناهم وأتينا بأشباههم. فجعلناهم بدلًا منهم. قال المهدوي: قومًا موافقين لهم في الخلق، مخالفين لهم في العمل، ولم يذكر الواحدي ولا ابن الجوزي غير هذا القول.

وعلى هذا فتكون هذه الآيات نظير قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣] فيكون استدلالًا بقدرته على إذهابهم والإتيان بأمثالهم على إتيانه بهم أنفسهم إذا ماتوا.

ثم استدل سبحانه بالنشأة الأولى فذكرهم بها، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢] فنبههم بما علموه وعاينوه على صدق ما أخبرتهم به رسله من النشأة الثانية.

والذي عندي في معنى هاتين الآيتين، وهما آية الواقعة والإنسان أن المراد بتبديل أمثالهم الخلق الجديد والنشأة الآخرة التي وعدوا بها.

وقد وفق الزمخشري لفهم هذه من سورة الإنسان، فقال: وبدلنا أمثالهم في شد الأسر، يعني النشأة الأخرى. ثم قال: وقيل وبدلنا غيرهم ممن يطيع، وحقه أن يأتي بـ [إن] لا بـ [إذا]، كقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

قلت: وإتيانه بـ [إذا] التي لا تكون إلا للمحقق الوقوع يدل على تحقق وقوع هذا التبديل، وأنه واقع لا محالة. وذلك هو النشأة الأخرى التي استدل على إمكانها بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ واستدل بالمثل على المثل، وعلى ما أنكروه بما عاينوه وشاهدوه، وكونهم أمثالهم هو إنشاؤهم خلقًا جديدًا بعينه فهم هم بأعيانهم، وهم أمثالهم فهم أنفسهم يعادون.

فإذا قلت: المعاد هذا هو الأول بعينه صدقت، وإن قلت: هو مثله صدقت، فهو هو معاد أو هو مثل الأول. وقد أوضح هذا سبحانه بقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥] فهذا الخلق الجديد هو المتضمن لكونهم أمثالهم. وقد سماه الله ﷻ إعادة، والمعاد مثل المبدأ، وسماه نشأه أخرى وهي مثل الأولى، وسماه خلقًا جديدًا وهو مثل الخلق الأول، كما قال: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥] وسماه أمثالًا وهم هم. فتطابقت ألفاظ القرآن وصدق بعضها بعضًا،

وبين بعضها بعضًا. ولهذا تزول إشكالات أوردها من لم يفهم المعاد الذي أخبرت به الرسل عن الله.

ولا يفهم من هذا القول ما قاله بعض المتأخرين: إنهم غيرهم من كل وجه. فهذا خطأ قطعًا ـ معاذ الله من اعتقاده ـ، بل هم أمثالهم وهم أعيانهم. فإذا فهمت الحقائق فلا يناقش في العبارة إلا ضيق العطن، صغير العقل، ضعيف العلم.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾ [الواقعة: ٥٩،٦٠] كيف ذكر مبدأ النشأة وآخرها مستدلًا بها على النشأة الثانية بقوله: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١] فإنكم إنما علمتم النشأة الأولى في بطون أمهاتكم ومبدأها مما تمنون، ولن نغلب على أن ننشئكم نشأة فيما لا تعلمون. فإذا أنتم أمثال ما كنتم في الدنيا في صوركم وهيئاتكم. وهذا من كمال قدرة الرب تعالى ومشيئته، لو تذكرتم أحوال النشأة الأولى لدلكم ذلك على قدرة منشئها على النشأة التي كذبتم بها.

فأي استدلال وإرشاد أحسن من هذا وأقرب إلى العقل والفهم، وأبعد من كل شبهة وشك؟ وليس بعد هذا البيان والاستدلال إلا الكفر بالله وما جاءت به الرسل والإيمان. وقال في سورة الإنسان: ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾ فهذه النشأة الأولى ثم قال: ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾ [الإنسان: ٢٨] فهذه النشأة الأخرى. ونظير هذا: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ [النجم: ٤٥ ـ ٤٧] وهذا في القرآن كثير جدًا، يقرن بين النشأتين مذكرًا للفطر والعقول بإحداهما على الأخرى. وبالله التوفيق.

***

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

فلما أقام عليهم الحجة وقطع المعذرة قال: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ [المعارج: ٤٢].

وهذا تهديد شديد يتضمن ترك هؤلاء الذين قامت عليهم حجتي فلم يقبلوها، ولم يخافوا بأسي ولا صدقوا رسالاتي في خوضهم بالباطل ولعبهم، فالخوض في الباطل ضد التكلم بالحق، واللعب ضد السعي الذي يعود نفعه على ساعيه. فالأول ضد العلم النافع. والثاني ضد العمل الصالح. فلا تكلم بالحق، ولا عمل بالصواب. وهذا شأن كل من أعرض عما جاء به الرسول لابد له من هذين الأمرين.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ حالهم عند خروجهم من القبور. فقال: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج: ٤٣].

أي يسرعون. والنصب العلم والغاية التي تنصب فيؤمونها. وهذا من ألطف التشبيه وأبينه وأحسنه؛ فإن الناس يقومون من قبورهم مهطعين إلى الداعي، يؤمون الصوت، لا يعرجون عنه يمنة ولا يسرة، كما قال: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾ [طه: ١٠٨] أي يقبلون من كل أوب إلى صوته وناحيته، لا يعرجون عنه. قال الفراء: وهذا كما تقول: دعوتك دعوة لا عوج لك عنها. وقال الزجاج: المعنى لا عوج لهم عن دعائه، أي لا يقدرون إلا على اتباعه وقصده.

فإن قلت: إذا كان المعنى لا عوج لهم عن دعوتي، فكيف قال: (لا عوج له). قيل: قالت طائفة: اللام بمعنى [عن] أي لا عوج عنه.

وقالت طائفة: المعنى لا عوج لهم عن دعائي، كما قال الزجاج وفي القولين تكلف ظاهر، ولما كانت الدعوة تسمع الجميع لا تعوج عنهم، وكلهم يؤم صوت الداعي ويتبعه لا يعوج عنه، كان مجيء اللام منتظمًا للمعنيين ودالًّا عليهما. والمعنى لا عوج لدعائه لا في إسماعهم إياه، ولا في إجابتهم له.

ثم قال: تعالى: ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ﴾ [المعارج: ٤٤] فوصفهم بذل الظاهر،

وهو خشوع الأبصار، وذل الباطن، وهو ما يرهقهم من الذل خشعت عنه إبصارهم.

وقريب من هذا قوله: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٤، ٢٥]. ونظيره قوله: ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾ [يونس: ٢٧].

وضد هذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴾ [طه: ١١٨] فنفى عنه الجوع الذي هو ذل الباطن والعري الذي هو ذل الظاهر.

وضده أيضًا قوله: ﴿ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ [الإنسان: ١١] فالنضرة عزُّ الظاهر وجماله، والسرور عز الباطن وجماله.

ومثله أيضًا قوله: ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [الإنسان: ٢١] فجمع لهم بين زينة الظاهر والباطن.

ومثل قوله: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف: ٢٦] فجمع لهم بين زينة الظاهر والباطن.

ومثله قوله: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴾ [الصافات: ٦، ٧] فزين ظاهرها بالنجوم وباطنها بالحفظ من كل شيطان رجيم.

ومثله قوله أيضًا: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [غافر: ٦٤].

وقريب منه قوله تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

ومنه قوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧]. فجمع لهؤلاء بين جمال الظاهر والباطن، ولأولئك بين تسويد الظاهر والباطن.

ومنه قول امرأة العزيز: ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ

فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ [يوسف: ٣٢] فوصفت ظاهره بالجمال وباطنه بالعفة، فوصفته بجمال الظاهر والباطن، فكأنها قالت: هذا ظاهره، وباطنه أحسن من ظاهره.

وهذا كله يدل على ارتباط الظاهر بالباطن قدرًا وشرعًا. والله أعلم بالصواب.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المعارج

والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ نُوحٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾.

[(١)]من أعظم الظلم والجهل؛ أن تطلب التعظيم والتوقير لك من الناس وقلبك خال من تعظيم الله وتوقيره، فإنك توقر المخلوق وتجله أن يراك في حال لا توقر الله أن يراك عليها، قال تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ [نوح: ١٣] أي: لا تعاملونه معاملة من توقرونه، والتوقير: العظمة. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾.

قال الحسن: ما لكم لا تعرفون لله حقًا ولا تشكرونه[(٢)]. وقال مجاهد: لا تبالون عظمة ربكم. وقال ابن زيد: لا ترون لله طاعة، وقال ابن عباس: لا تعرفون حق عظمته[(٣)].

وهذه الأقوال ترجع إلى معنى واحد؛ وهو أنهم لو عظموا الله وعرفوا حق عظمته، وحدوه وأطاعوه وشكروه، فطاعته سبحانه، واجتناب معاصيه، والحياء منه بحسب وقاره في القلب.

ولهذا قال بعض السلف: ليعظم وقار الله في قلب أحدكم أن يذكره عندما يستحي من ذكره، فيقرن اسمه به؛ كما تقول: قبح الله الكلب والخنزير والنتن، ونحو ذلك؛ فهذا من وقار الله.

ومن وقاره أن لا تعدل به شيئًا من خلقه، لا في اللفظ، بحيث تقول: والله وحياتك، مالي إلا الله وأنت، وما شاء الله وشئت، ولا في الحب والتعظيم والإجلال، ولا في

---

(١) ١٨٧ فوائد.

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٢٩١) إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي.

(٣) أثر ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٣٧٥ رقم ١٨٩٩٣) وانظر: عمدة القاري (١٩/ ٢٦١).

الطاعة، فتطيع المخلوق في أمره ونهيه كما تطيع الله؛ بل أعظم كما عليه أكثر الظلمة والفجرة.

ولا في الخوف والرجاء، ويجعله أهون الناظرين إليه، ولا يستهين بحقه، ويقول: هو مبني على المسامحة، ولا يجعله على الفضلة، ويقدم حق المخلوق عليه.

ولا يكون الله ورسوله في حد وناحية، والناس في ناحية وحد، فيكون الحد والشق الذي فيه الناس، دون الحد والشق الذي فيه الله ورسوله.

ولا يعطي المخلوق في مخاطبته قلبه ولبه، ويعطي الله في خدمته بدنه، ولسانه دون قلبه وروحه. ولا يجعل مراد نفسه مقدمًا على مراد ربه.

فهذا كله من عدم وقار الله في القلب، ومن كان كذلك فإن الله لا يلقي له في قلوب الناس وقارًا ولا هيبة، بل يسقط وقاره وهيبته من قلوبهم، وإن وقروه مخافة شره؛ فذاك وقار بغض، لا وقار حب وتعظيم.

ومن وقار الله أن يستحي من إطلاعه على سره وضميره؛ فيري فيه ما يكره. ومن وقاره أن يستحي منه في الخلوة أعظم مما يستحي من أكابر الناس.

والمقصود أن من لا يوقر الله وكلامه، وما آتاه من العلم والحكمة، كيف يطلب من الناس توقيره وتعظيمه.

القرآن والعلم وكلام الرسول ﷺ صلات من الحق وتنبيهات وروادع وزواجر واردة إليك، والشيب زاجر ورادع وموقظ قائم بك. فلا ما ورد إليك وعظك، ولا ما قام بك نصحك، ومع هذا تطلب التوقير والتعظيم من غيرك، فأنت كمصاب لم تؤثر فيه مصيبته وعظًا وانزجارًا، وهو يطلب من غيره أن يتعظ وينزجر بالنظر إلي مصابه. فالضرب لم يؤثر فيه زجرًا، وهو يريد الانزجار ممن نظر إلى ضربه. من سمع بالمثلات والعقوبات والآيات في حق غيره، ليس كمن رآها عيانًا في غيره: فكيف بمن وجدها في نفسه؟ ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت: ٥٣] فآياته في الآفاق مسموعة معلومة، وآياته في النفس مشهودة مرئية، فعياذًا بالله من الخذلان. قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] وقال: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١].

والعاقل المؤيد بالتوفيق يعتبر بدون هذا، ويتمم نقائص خلقته بفضائل أخلاقه وأعماله، فكلما امتحى من جثمانه أثر، زاد إيمانه أثر، وكلما نقص من قوى بدنه، زاد في قوة إيمانه ويقينه ورغبته في الله والدار الآخرة، وإن لم يكن هكذا فالموت خير له، لأنه يقف به على حد معين من الألم والفساد، بخلاف العيوب والنقائص مع طول العمر، فإنها زيادة في ألمه وهمه وغمه وحسرته، وإنما حسن طول العمر ونفع ليحصل التذكر والاستدراك، واغتنام الفرص والتوبة النصوح؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧].

فمن لم يورثه التعمير وطول البقاء إصلاح معائبه، وتدارك فارطه، واغتنام بقية أنفاسه، فيعمل على حياة قلبه وحصول النعيم المقيم، وإلا فلا خير له في حياته؛ فإن العبد على جناح سفر؛ إما إلى الجنة وإما إلى النار.

فإذا طال عمره وحسن عمله، كان طول سفره زيادة له في حصول النعيم واللذة؛ فإنه كلما طال السفر إليها كانت الصبابة أجل وأفضل.

وإذا طال عمره وساء عمله، كان طول سفره زيادة في ألمه وعذابه ونزولًا له إلى أسفل؛ فالمسافر إما صاعد وإما نازل. وفي الحديث المرفوع: **«خيركم من طال عمره وحسن عمله، وشركم من طال عمره وقبح عمله»**[1].

---

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٩/ ٤٣ رقم ٢٠) والحاكم (١/ ٤٨٩ رقم ١٢٥٦) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٣٧١ رقم ٦٣١٧) والترمذي (رقم ٢٣٢٩) والدارمي (رقم ٢٧٤٢) وابن أبي شيبة (٧/ ٨٩ رقم ٣٤٤٢٠) والشيباني في الآحاد والمثاني (٣/ ٥١ رقم ١٣٥٦) والطبراني في الأوسط (٢/ ٣٧٤ رقم ٢٢٦٨) وفي الصغير (رقم ٨١٨) وأحمد (٤/ ١٨٨) وحسنه الترمذي وصححه المنذري في الترغيب (٤/ ١٢٧).

فالطالب الصادق في طلبه، كلما خرب شيء من ذاته، جعله عمارة لقلبه وروحه، وكلما نقص شيء من دنياه، جعله زيادة في آخرته، وكلما منع شيئًا من لذات دنياه، جعل زيادة في لذات آخرته، وكلما ناله هم أو حزن أو غم، جعله في أفراح آخرته، فنقصان بدنه ودنياه ولذته وجاهه ورئاسته، إن زاد في حصول ذلك وتوفيره عليه في معاده؛ كان رحمة به وخيرًا له؛ إلا كان حرمانًا وعقوبة على ذنوب ظاهرة أو باطنة، أو ترك واجب ظاهر أو باطن، فإن حرمان خير الدنيا والآخرة مرتب على هذه الأربعة، وبالله التوفيق.

[(١)]...ومنها: أن الخوف مستلزم للرجاء، والرجاء مستلزم للخوف. فكل راج خائف، وكل خائف راج، ولأجل هذا حسن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف. قال الله تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح: ١٣]. قال كثير من المفسرين: المعنى ما لكم لا تخافون لله عظمة؟ قالوا: والرجاء بمعنى الخوف.

والتحقيق: أنه ملازم له. فكل راج خائف من فوات مرجوه. والخوف بلا رجاء يأس وقنوط. وقال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾ [الجاثية: ١٤] قالوا في تفسيرها: لا يخافون وقائع الله بهم، كالوقائع بمن قبلهم من الأمم.

ومنها: أن العبد إذا تعلق فيه برجاء ربه، فأعطاه ما رجاه: كان ذلك ألطف موقعًا، وأحلى عند العبد. وأبلغ من حصول ما لم يرجه. وهذا أحد الأسباب والحكم في جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف في هذا الدار. فعلى قدر رجائهم وخوفهم يكون فرحهم في القيامة بحصول مرجوهم واندفاع مخوفهم.

ومنها: أن الله ﷻ يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته: من الذل والانكسار، والتوكل والاستعانة، والخوف والرجاء، والصبر والشكر، والرضا والإنابة وغيرها.

---

(١) ٥١ مدارج جـ٢.

ولهذا قدر عليه الذنب وابتلاه به، لتكمل مراتب عبوديته بالتوبة التي هي من أحب عبوديات عبده إليه. فكذلك تكميلها بالرجاء والخوف.

ومنها أن في الرجاء ـ من الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله ـ ما يوجب تعلق القلب بذكره، ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته. وتنقل القلب في رياضها الأنيقة، وأخذه بنصيبه من كل وصفة كما تقدم بيانه.

[(١)]... قال تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح: ١٣] قال ابن عباس ومجاهد: لا ترجون لله عظمة. وقال سعيد بن جبير: مالكم لا تعظمون لله حق عظمته؟ وقال الكلبي: لا تخافون لله عظمة.

قال البغوي: «والرجاء» بمعنى المخوف. و«الوقار» العظمة. اسم من التوقير. وهو التعظيم: وقال الحسن: لا تعرفون لله حقًا، ولا تشكرون له نعمة.

وقال ابن كيسان: لا ترجون في عبادة الله أن يثيبكم على توقيركم إياه خيرًا.

وروح العبادة: من الإجلال والمحبة. فإذا تخلى أحدهما عن الآخر فسدت. فإذا اقترن بهذين الثناء على المحبوب المعظم. فذلك حقيقة الحمد. والله سبحانه أعلم.

***

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

[(٢)]من أعظم مكايده[(٣)] التي كاد بها أكثر الناس، وما نجا منها إلا من لم يرد الله تعالى فتنته: ما أوحاه قديمًا وحديثًا إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور. حتى آل الأمر فيها إلى أن عبد أربابها من دون الله، وعبدت قبورهم، واتخذت أوثانًا، وبنيت عليها

(١) ٤٩٥ مدارج جـ١.

(٢) ١٧٢ إغاثة جـ١.

(٣) أي الشيطان الرجيم أعاذنا الله بمنه وكرمه من مكائده وشره.

الهياكل، وصورت صور أربابها فيها، ثم جعلت تلك الصور أجسادًا لها ظل، ثم جعلت أصنامًا، وعبدت مع الله ـ تعالىٰ ـ.

وكان أول هذا الداء العظيم في قوم نوح، كما أخبر سبحانه عنهم في كتابه، حيث يقول: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ۝ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ۝ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾[نوح: ٢١، ٢٤].

قال ابن جرير: «وكان من خبر هؤلاء ـ فيما بلغنا ـ: ما حدثنا به ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان عن موسىٰ عن محمد بن قيس: أن يغوث ويعوق ونسرا كانوا قومًا صالحين من بني آدم. وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلىٰ العبادة إذا ذكرناهم. فصورهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر، فعبدوهم»[(١)]، قال سفيان عن أبيه عن عكرمة قال: «وكان بين آدم ونوح ـ عليهما السلام ـ عشرة قرون، كلهم علىٰ الإسلام»[(٢)] حدثنا ابن عبد الأعلىٰ حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في هذه الآية قال: «كانت آلهة يعبدها قوح نوح، ثم عبدتها العرب بعد ذلك. فكان ود لكلب بدومة الجندل، وكان سواع لهذيل. وكان يغوث لبني غطيف من مراد. وكان يعوق لهمدان. وكان نسر لذي الكلاع من حمير»[(٣)]. وقال الوالبي: عن ابن عباس «هذه أصنام كانت تعبد في زمان نوح ﷺ»[(٤)].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٩/ ٩٨) وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٢٧).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٩/ ٩٩) وابن عساكر في تاريخه (٦٢/ ٢٤٢) وابن سعد في الطبقات (١/ ٤٢، ٥٣).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٤٩٢٠) وعبدالرزاق الصنعاني في تفسيره (٣/ ٣٢٠) والطبري في تفسيره (٢٩/ ٩٩)، وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٦٨).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٩/ ٩٩) وانظر: الدر المنثور (٨/ ٢٩٣).

وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا هشام عن ابن جريج قال: قال عطاء عن ابن عباس «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد. أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل. وأما سواع فكانت لهذيل. وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ. وأما يعوق فكانت لهمدان. وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع؛ وكان أول ما كاد به عباد الأصنام من جهة العكوف على القبور، وتصاوير أهلها، ليتذكروهم، كما قص الله ـ سبحانه ـ قصصهم في كتابه، فقال: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

قال البخاري في صحيحه: عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن أنصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون إليها أنصابًا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت»[(١)].

وقال ابن جرير عن محمد بن قيس قال: «كانوا قومًا صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم، الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم، كان أشوق لنا إلى العبادة، إذا ذكرناهم، فصورهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر، فعبدوهم»[(٢)].

وقال هشام بن محمد بن السائب الكلبي: أخبرني أبي قال: «أول ما عبدت الأصنام أن آدم عليه السلام لما مات جعله بنو شيث بن آدم في مغارة في الجبل الذي أهبط عليه آدم بأرض الهند، ويقال للجبل: نوذ وهو أخصب جبل في الأرض».

قال هشام: فأخبرني أبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: «فكان بنو شيث عليه السلام يأتون جسد آدم في المغارة، فيعظمونه، ويترحمون عليه، فقال رجل من بني قابيل بن

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٩٢٠) وانظر: عمدة القاري (١٩/ ٢٦٢).
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٩/ ٩٩) وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٢٧).

آدم: يا بني قابيل، إن لبني شيث دوار يدورون حوله ويعظمونه وليس لكم شيء فنحت لهم صنمًا، فكان أول من عملها»[(١)].

قال هشام: وأخبرني أبي قال: «كان ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر: قومًا صالحين، فماتوا في شهر، فجزع عليهم ذوو أقاربهم، فقال رجل من بني قابيل: يا قوم، هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم؟ غير أني لا أقدر أن أجعل فيها أرواحًا، فقالو: نعم. فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم[(٢)].

[(٣)]وكان من تلك الأصنام ذو الخلصة، وكان مروة بيضاء منقوشة، عليها كهيئة التاج، وكان له بيت بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة، وكان سدنتها بنو أمامة من باهلة بن أعصر، وكانت تعظمها وتهدي لها خثعم وبجيلة، [وأزد السراة ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن] فقال رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - لجرير: «ألا تكفيني ذا الخلصة؟» فسار إليه بأحمس، فقاتلته خثعم وباهلة دون، فظفر بهم. وهدم بيت ذي الخلصة، وأضرم فيه النار فاحترق[(٤)]. وذو الخلصة اليوم عتبة باب مسجد تَبالَة.

وكان لدوس صنم يقال له: «ذو الكفين» فلما أسلموا بعث رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم الطفيل بن عمرو فحرقه. وكان بني الحارث بن يشكر [بن مبشر من الأزد] صنم يقال له: «ذو الشرى». وكان لقضاعة ولخم وجذام. وعاملة وغطفان، صنم في مشارف الشام يقال له: «الأقيصر». وكان لمزينة صنم يقال له: «نهم» وبه كانت تسمى عبد نهم.

---

(١) انظر: تاريخ دمشق (٢٣/ ٢٧٢) والطبقات الكبرى (١/ ٣٨).

(٢) انظر: معجم البلدان (٥/ ٣٦٧).

(٣) ٢١٥ إغاثة جـ٢.

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى (٥/ ١٨٣ رقم ٨٦١٢) (٦/ ١٣٤ رقم ١٠٣٥٨) والطبراني في الكبير (٢/ ٣٠٠ رقم ٢٢٥٣) وانظر: معجم البلدان (٢/ ٣٨٣).

وكان لأزد السراة صنم يقال له: «عائم»]. وكان لعنزة صنم يقال له: «سعير». وكان لطبي صنم يقال له: «الفلس».

وكان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم، كان يعبدونه، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله: أن يتمسح به، وإذا قدم من سفره، كان أول ما يصنع إذا دخل منزله: أن يتمسح به.

قال ابن إسحاق: وكان الخولان صنم يقال له: عم أنس بأرض خولان، يقسمون له من أنعامهم، وحروثهم، قسما بينه وبين الله، بزعمهم، فما دخل في حق الله من حق عم أنس ردوه عليه، وما دخل في حق الصنم من حق الله الذي سمو له تركوه له وفيهم أنزل الله سبحانه: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة نوح

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

سُورَةُ الجِنّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝ ﴾.

[1]المستعاذ به، هو الله وحده رب الفلق ورب الناس ملك الناس، إله الناس، الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به، ولا يستعاذ بأحد من خلقه، بل هو الذي يعيذ المستعيذين ويعصمهم ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره.

وقد أخبر ـ تعالى ـ في كتابه عمن استعاذ بخلقه أن استعاذته زادته طغيانًا ورهقا. فقال حكاية عن مؤمني الجن: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝ ﴾ [الجن: ٦]. جاء في التفسير أنه كان الرجل من العرب في الجاهلية إذا سافر فأمسى في أرض قفر. قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه، فيبيت في أمن وجوار منهم حتى يصبح أي فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بسادتهم رهقًا أي طغيانًا وإثمًا وشرًا يقولون: سدنا الإنس والجن.

والرهق في كلام العرب الإثم وغشيان المحارم، فزادوهم بهذه الاستعاذة غشيانًا لما كان محظورًا من الكبر والتعاظم، فظنوا أنهم سادوا الإنس والجن.

واحتج أهل السنة على المعتزلة في أن كلمات الله غير مخلوقة بأن النبي ﷺ استعاذ بقوله: «أعوذ بكلمات الله التامات»[2] وهو ﷺ لا يستعيذ بمخلوق أبدًا.

ونظير ذلك قوله: «أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك»[3] فدل على أن رضاه وعفوه من صفاته وأنه غير مخلوق[4]...

(١) ٢٠٣ بدائع جـ٢.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٠٨) وانظر: فتح الباري (١٠/ ١٩٦) وشرح النووي (١٧/ ٣١).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٦) وانظر: شرح النووي (٤/ ٢٠٣-٢٠٤).

(٤) تتمة البحث في تفسير سورة الفلق نقلًا عن البدائع. (ج).

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾.

[1]طبقة الجن. قد اتفق المسلمون على أن منهم المؤمن والكافر والبر والفاجر. قال تعالى إخبارًا عنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١].

قال مجاهد: يعنون مسلمين وكافرين: وقال الحسن والسدي: أمثالكم، فمنهم قدرية ومرجئة ورافضة. وقال سعيد بن جبير: ألوانًا شتى. وقال ابن كيسان: شيعًا وفرقًا. ومعنى الكلام: أصنافًا مختلفة ومذاهب متفرقة. ثم قيل في إعراب الآية: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ قوم دون ذلك، فحذف الموصوف وأقام صفته مقامه كقوله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] أي إلا من له مقام معلوم، وكقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١] أي فريق سماعون، وكقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦] أي فريق يحرفون، وكقوله على أظهر القولين: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ [البقرة: ٩٦] أي فريق يود أحدهم، وقال الشاعر:

فظلوا ومنهم دمعه سابق لهم ... وآخر يذري دمعة العين بالمهل[2]

أي ومنهم من دمعه. وقولهم: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١] بيان لقولهم: ﴿مِّنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الجن: ١١] أي كنا ذوي طرائق - وهي المذاهب - واحدها طريقة وهي المذهب، والقدد جمع قدة، كقطعة وقطع وزنا ومعنى. وهي من القد وهو القطع.

---

(١) ٤١٤ طريق الهجرتين.

(٢) هذا البيت ينسب إلى ذي الرمة، وذكره الطبري في تفسيره (٥/ ١١٧).

وقيل: كنا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة في اختلافها، وعلى هذا فالمعنى: كنا طرائق قددًا وليس بشيء.

وأضعف منه قول من قال: إن طرائق منصوب على الظرف، أي كنا في طرق مختلفة كقوله: عسل الطريق الثعلب. وهذا مما لا يحمل عليه أفصح الكلام. وقيل: المعنى كانت طرائقنا طرائق قددًا. فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه.

وقال ـ تعالى ـ إخبارًا عنهم: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ﴾ [الجن: ١٤] فالمسلمون الذين آمنوا بالله ورسوله منهم، والقاسطون الجائرون العادلون عن الحق، قال ابن عباس: هم الذين جعلوا لله أندادًا، يقال: أقسط الرجل إذا عدل، فهو مقسط. ومنه: ﴿ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩]، وقسط إذا جار فهو قاسط: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: ١٥].

قد تضمنت هذه الآيات انقسامهم إلى ثلاث طبقات: صالحين، ودون الصالحين، وكفار. وهذه الطبقات بإزاء طبقات بني آدم فإنه ثلاثة: أبرار، ومقتصدون، وكفار. فالصالحون بإزاء الأبرار، ومن دونهم بإزاء المقتصدين، والقاسطون بإزاء الكفار.

وهذا كما قسم سبحانه بني إسرائيل إلى هذه الأقسام الثلاثة في قوله: ﴿ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ [الأعراف: ١٦٨] فهؤلاء الناجون منهم، ثم ذكر الظالمين، وهم خلف السوء الذين خلفوا بعدهم.

ولما كان الإنس أكمل من الجن وأتم عقولًا ازدادوا عليهم بثلاثة أصناف آخر ليس شيء منها للجن، وهم: الرسل، والأنبياء، والمقربون. فليس في الجن صنف من هؤلاء، بل حليتهم الصلاح.

وذهب شذاذ من الناس إلى أن فيهم الرسل والأنبياء محتجين على ذلك بقوله تعالى: ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٣٠] وبقوله: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ

وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] وقد قال الله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥] وهذا قول شاذ لا يلتفت إليه، ولا يعرف به سلف من الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ لا يدل على أن الرسل من كل واحدة من الطائفتين، بل إذا كان الرسل من الإنس، وقد أمرت الجن باتباعهم صح أن يقال للإنس والجن: ألم يأتكم رسل منكم.

ونظير هذا أن يقال للعرب والعجم: ألم يجئكم رسل منكم يا معشر العرب والعجم، فهذا لا يقتضي أن يكون من هؤلاء رسل ومن هؤلاء. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦] وليس في كل سماء قمر وقوله تعالى: ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] فالإنذار أعم من الرسالة، والأعم لا يستلزم الأخص، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢] فهؤلاء نذر وليسوا برسل. قال غير واحد من السلف: الرسل من الإنس، وأما الجن ففيهم النذر قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩] فهذا يدل على أنه لم يرسل جنيًا ولا امرأة ولا بدويًا.

وأما تسميته تعالى الجن رجالًا في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦] فلم يطلق عليهم الرجال، بل هي تسمية مقيدة بقوله: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ فهم رجال من الجن ولا يستلزم ذلك دخولهم في الرجال عند الإطلاق، كما تقول: رجال من حجارة، ورجال من خشب ونحوه.

وقد اتفق المسلمون على أن كفار الجن في النار، وقد دل على ذلك القرآن في غير موضع كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] وقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] الآية فلمؤها منه به وبكفار ذريته. وقال تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨]. وقال تعالى حكاية عن مؤمنهم: ﴿وَأَنَّا

مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ إلى قوله: ﴿حَطَبًا﴾ [الجن: ١٤، ١٥]. وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وقال الله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء: ٩٤، ٩٥] وجنوده إن لم يختص بالشياطين فهم داخلون في عمومه.

وبالجملة فهذا أمر معلوم بالاضطرار من دين الإسلام، وهو يستلزم تكليف الجن بشرائع الأنبياء ووجوب اتباعهم لهم.

فأما شريعتنا فأجمع المسلمون على أن محمدًا ﷺ بعث إلى الجن والإنس، وأنه يجب على الجن طاعته، كما يجب على الإنس. وأما قبل نبينا ﷺ فقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] يدل على أن الأمم الخالية من كفار الجن في النار، وذلك إنما يكون بعد إقامة الحجة عليهم بالرسالة.

وقد دلت سورة الرحمن على تكليفهم بالشرائع كما كلف الإنس، ولهذا يقول في إثر كل آية (الرحمن): ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فدل ذلك على أن السورة خطاب للثقلين معًا، ولهذا قرأها رسول الله ﷺ على الجن قراءة تبليغ، وأخبر أصحابه أنهم كانوا أحسن ردًا منهم، فإنهم جعلوا يقولون كلما قرأ عليهم ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾: لا نكذب بشيء من آلائك ربنا، فلك الحمد.

ولما كان أبوهم هو أول من دعا إلى معصية الله، وعلى يده حصل كل كفر وفسوق وعصيان، فهو الداعي إلى النار، وكان أول من يكسى حلة من النار يوم القيامة يسحبها وينادي «واثبوراه» فأتباعه من أولاده وغيرهم خلفه ينادون «واثبوراهم»، حتى قيل: إن كل عذاب يقسم على أهل النار يبدأ به فيه، ثم يصير إليهم.

وأما حكم مؤمنيهم في الدار الآخرة: فجمهور السلف والخلف على أنهم في الجنة. وترجم على ذلك البخاري في صحيحه فقال: (باب ثواب الجن وعقابهم) لقوله تعالى:

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٌ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ [الأنعام: ١٣٠] الآية. بخسًا نقصًا.

قال مجاهد: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗا﴾ [الصافات: ١٥٨] قال كفار قريش: الملائكة بنات الله، وأمهاتهم بنات سروات الجن. قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨] ستحضر للحساب[١]. ثم ذكر حديث أبي سعيد: «إذا كنت في غنمك أو باديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدىٰ صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة، سمعته من رسول الله ﷺ»[٢]. هذا ما ذكره في الباب.

وقد ذهب جمهور الناس إلىٰ أن مؤمنيهم في الجنة. وحكي عن أبي حنيفة وغيره أن ثوابهم نجاتهم من النار. احتج لهذا بقوله تعالىٰ حكاية عنهم: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٣١] الآية فجعل غاية ثوابهم إجارتهم من العذاب الأليم.

وأما الجمهور فقالوا: مؤمنهم في الجنة كما أن كافرهم في النار. ثم اختلفوا فأطلق أكثر الناس دخول الجنة ولم يقيدوه. وقال سهل بن عبدالله: يكونون في ربض الجنة. يراهم المؤمنون من حيث لا يرونهم.

فهذه مذاهب الناس في أحكامهم في الآخرة.

وأما أحكامهم في الدنيا فاختلف الناس: هل هم مكلفون بالأمر والنهي، أم هم مضطرون علىٰ أفعالهم؟ علىٰ قولين حكاهما أبو الحسن الأشعري في كتاب (المقالات) له، فقال: واختلف الناس في الجن، هل هم مكلفون، أم مضطرون؟ فقال قائلون من المعتزلة وغيرهم: هم مأمورون منهيون، وقدأمروا ونهوا، وهم مختارون. وزعم زاعمون أنهم مضطرون.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الجن وثوابهم وعقابهم قبل حديث (رقم ٣٢٩٦).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٩٦) وانظر: فتح الباري (٢/ ٨٦-٨٨).

قلت: الصواب الذي عليه جمهور أهل الإسلام أنهم مأمورون منهيون مكلفون بالشريعة الإسلامية. وأدلة القرآن والسنة على ذلك أكثر من أن تحصر. فإضافة هذا القول إلى المعتزلة بمنزلة أن يقال: ذهبت المعتزلة إلى القول بمعاد الأبدان، ونحو ذلك مما هو من أقوال سائر أهل الإسلام.

وقال الله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٨] فأخبر أن منهم من حق عليه القول، أي وجب عليه العذاب وأنه خاسر، ولا يكون ذلك إلا في أهل التكليف المستوجبين العقاب بأعمالهم.

ثم قال بعد ذلك: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ [الأنعام:١٣٢] أي في الخير والشر يوفونها، ولا يظلمون شيئًا من أعمالهم، وهذا ظاهر جدًا في ثوابهم وعقابهم، وأن مسيئهم كما يستحق العذاب بإساءته، فمحسنهم يستحق الدرجات بإحسانه، ولكل درجات مما عملوا، فدل ذلك لا محالة أنهم كانوا مأمورين بالشرائع، متعبدين بها في الدنيا، ولذلك استحقوا الدرجات بأعمالهم في الآخرة في الخير والشر. وقال الله تعالى: ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾ [فصلت: ٢٥] الآية. ومعنى الآية: أن الله قيض للمشركين - أي سبَّب لهم - قرناء من الشياطين يزينون لهم ما بين أيديهم وما خلفهم من التكذيب بالآخرة وما فيها من الثواب والعقاب.

وقيل عكس هذا وأن ما بين أيديهم هو ترغيبهم في الدنيا وحرصهم عليها، وما خلفهم هو التكذيب بالآخرة.

وقال الحسن: ما بين أيديهم هو حب ما كان عليه آباؤهم من الشرك وتكذيب الرسل، وما خلفهم تكذيبهم بالبعث وما بعده.

وفي الآية قول رابع وهو أن التزيين كله راجع إلى أعمالهم، فزينوا لهم ما بين

أيديهم: أعمالهم التي عملوها، وما خلفهم: الأعمال التي هم عازمون عليها ولما يعملوها بعد. وكأن لفظ التزيين بهذا القول أليق.

ومن جعل ما خلفهم هو الآخرة لم يستقم قوله إلا بإضمار، أي زينوا لهم التكذيب بالآخرة، ومع هذا فهو قول مستقيم ظاهر، فإنهم زينوا لهم ترك العمل لها والاستعداد للقائها، ولهذا كان عليه جمهور أهل التفسير حتى لم يذكر البغوي غيره وحكاه عن الزجاج فقال الزجاج: سببنا لهم قرناء: نظراء من الشياطين حتى أضلوهم، فزينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا حتى آثروه على الآخرة، وما خلفهم من أمر الآخرة، فدعوهم إلى التكذيب به وإنكار البعث.

والمقصود أن قوله تعالى: ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٥] أي وجب عليهم العذاب مع أمم قد مضت من قبلهم من الجن والإنس، ففي هذا أبين دليل على تكليف الثقلين وتعلق الأمر والنهي بهم، وكذلك تعلق الثواب والعقاب بهم، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٨] وهذا صريح في تكليفهم، فإن هذا القول يقال للجن في القيامة، فيذكر الإنس استمتاع بعضهم ببعض في الدنيا، وذلك الاستمتاع هو ما بين الجن والإنس من طاعتهم إياهم في معصية الله، وعبادتهم لهم دون الله، ليستعينوا بهم على شهواتهم وأغراضهم. فإنهم كانوا يستوحونهم، ويعوذون بهم، ويذبحون لهم وبأسمائهم، ويوالونهم من دون الله، كما هو شأن أكثر المشركين من أولياء الشيطان. فهذا هو استمتاع بعضهم ببعض، ولهذا يقول ـ تعالى ـ للملائكة يوم القيامة ـ وقد جمع العابدين والمعبودين ـ: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١] فهؤلاء عباد الجن وأولياء

الشياطين. وأكثرهم يعلم ذلك ويرضى به لما ينال به من المتعة بمعبوده. وكثير منهم ملبوس عليه، فهو يعبد الشيطان ولا يشعر. وقد أشار زيد بن عمرو بن نفيل في شعره إلى هذا الشرك بالجن، فقال:

حنانيك أن الجن كانت رجاءهم وأنت إلهي ربنا ورجاؤنا[1]

ولهذا يقول: في القيامة: ﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ [الأنعام: ١٢٨] قال الله تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٨] فهذا خطاب للصنفين، وهو صريح في اشتراكهم في التكليف، كما هو صريح في اشتراكهم في العذاب. وهو كثير في القرآن. ومما يدل على تكليفهم أيضًا قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠] فلما اعترفوا بأنهم كانوا كافرين، وشهدوا على أنفسهم بالكفر، دل ذلك على تكليفهم وتوجه الخطاب إليهم. وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ﴾ إلى قوله: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأحقاف: ٢٩- ٣٢] فهذا يدل على تكليفهم من وجوه متعددة:

(أحدها) أن الله ﷻ صرفهم إلى رسوله يستمعون القرآن ليؤمنوا به، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه.

(الثاني) أنهم ولوا إلى قومهم منذرين. والإنذار هو الإعلام بالخوف بعد انعقاد أسبابه، فعلم أنهم منذرون لهم بالنار إن عصوا الرسول.

(الثالث) أنهم أخبروا أنهم سمعوا القرآن وعقلوه وفهموه، وأنه يهدي إلى الحق، وهذا القول منهم يدل على أنهم عالمون بموسي وبالكتاب المنزل عليه، وأن القرآن مصدق له وأنه هاد إلى صراط مستقيم. وهذا يدل علي تمكنهم من العلم الذي تقوم به

---

(١) هذا البيت ذكره إسماعيل التيمي الأصبهاني في دلائل النبوة (ص ٨١) ونسبه إلى ورقة بن نوفل ضمن قصيدة قالها لزيد بن عمرو بن نفيل. وذكره أيضًا ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٩/ ٥١٥).

الحجة، وهم قادرون على امتثال ما فيه، والتكليف إنما يستلزم العلم والقدرة.

(الرابع) أنهم قالوا لقومهم: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ ﴾ وهذا صريح في أنهم مكلفون مأمورون بإجابة الرسول، وهي تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر.

(الخامس) أنهم قالوا: ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ والمغفرة لا تكون إلا عن ذنب وهو مخالفة الأمر.

(السادس) أنهم قالوا: ﴿ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ والذنب مخالفة الأمر.

(السابع) أنهم قالوا: ﴿ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ هذا يدل على أن من لم يستجب منهم لداعي الله لم يجره من العذاب الأليم. وهذا صريح في تعلق الشريعة الإسلامية بهم.

(الثامن) أنهم قالوا: ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ﴾ وهذا تهديد شديد لمن تخلف عن إجابه داعي الله منهم. وقد استدل بها على أنهم كانوا متعبدين بشريعة موسى كما هم متعبدون بشريعة محمد وهذا ممكن. والآية لا تستلزمه، ولكن قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٣٠] الآية يدل على أن الجن كانوا متعبدين بشرائع الرسل قبل محمد ﷺ، والآيات المتقدمة تدل على ذلك أيضًا.

وعلى هذا فيكون اختصاص النبي ﷺ بالبعثة إلى الثقلين هو اختصاصه بالبعثة إلى جميعهم لا إلى بعضهم، ومن قبله كان يبعث إلى طائفة مخصوصة. وأيضًا قال تعالى عن نبيه سليمان: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [سبأ: ١٢] وهذا محض التكليف. وقد تقدم قوله حكاية عنهم: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [الجن: ١٤، ١٥].

وقد صح أن رسول الله ﷺ قرأ عليهم القرآن وأنهم سألهم الزاد لهم ولدوابهم، فجعل

لهم كل عظم ذكر اسم الله عليه، وكل بعرة علف لدوابهم. ونهانا عن الاستنجاء بهما. ولو لم يكن في هذا إلا قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: ١٥] وقد أخبر أنه يعذب كفرة الجن لكفى به حجة على أنهم مكلفون باتباع الرسل.

ومما يدل على أنهم مأمورون منهيون بشريعة الإسلام ما تضمنته سورة الرحمن، فإنه ﷻ ذكر خلق النوعين في قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٤، ١٥].

ثم خاطب النوعين بالخطاب المتضمن لاستدعاء الإيمان منهم، وإنكار تكذيبهم بالآية، وترغيبهم في وعده، وتخويفهم من وعيده، وتهديدهم بقوله تعالى: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] وتخويفهم من عواقب ذنوبهم، وأنه لعلمه بها لا يحتاج أن يسألهم عنها سؤال استعلام، بل يعرف المجرمون منهم بسيماهم فيؤخذ بنواصيهم والأقدام.

ثم ذكر عقاب الصنفين وثوابهم. وهذا كله صريح في أنهم هم المكلفون المأمورون المنهيون المثابون المعاقبون.

وفي الترمذي من حديث محمد بن المنكدر عن جابر بن عبدالله قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: **«لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، وكانوا أحسن مردودًا منكم: كنت كلما أتيت على آية: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قالوا: لا شيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد»**(١) وهذا يدل على ذكائهم وفطنتهم ومعرفتهم بمؤنة الخطاب، وعلمهم أنهم مقصودون به. وقوله في هذه السورة: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝ ﴾ [الرحمن: ٣١] وعيد للصنفين المكلفين بالشرائع.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٢٩١) وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٠) وصححه الحاكم انظر: تفسير السيوطي (٧/ ٦٩٠) وتخريج الأحاديث والآثار للزيلعي (٣/ ٢٨٨-٢٨٩).

قال قتادة: معناه فراغ الدنيا وانقضاؤها، ومجيء الآخرة والجزاء فيها، والله سبحانه لا يشغله شيء عن شيء. والفراغ في اللغة على وجهين: فراغ من الشغل، وفراغ بمعنى القصد. وهو في هذا الموضع بالمعنى الثاني، وهو قصد لمجازاتهم بأعمالهم يوم الجزاء. وقوله: ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ﴾ [الرحمن: ٣٣] فيها قولان:

أحدهما: إن استطعتم أن تنفذوا ما في السموات والأرض علمًا ـ أي أن تعلموا ما فيهما ـ فاعلموه، ولن تعلموه إلا بسلطان، أي إلا ببينة من الله. وعلى هذا فالنفوذ ههنا نفوذ علم الثقلين في السموات والأرض.

الثاني: إن استطعتم أن تخرجوا عن قهر الله ومحل سلطانه ومملكته بنفوذكم من أقطار السموات والأرض وخروجكم عن محل حكم الله وسلطانه فافعلوا، ومعلوم أن هذا من الممتنع عليكم، فإنكم تحت سلطاني وفي محل ملكي وقدرتي أين كنتم. وقال الضحاك: معنى الآية: إن استطعتم أن تهربوا عند الموت فاهربوا فإنه مدرككم. وهذه الأقوال على أن يكون الخطاب لهم بهذا القول في الدنيا.

وفي الآية تقرير آخر، وهو أن يكون هذا الخطاب في الآخرة إذا أحاطت الملائكة بأقطار الأرض وأحاط سرادق النار بالآفاق، فهرب الخلائق، فلا يجدون مهربًا ولا منفذًا. كما قال تعالى: ﴿ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣] قال مجاهد: فارين غير معجزين، وقال الضحاك: إذا سمعوا زفير النار ندوا هربًا، فلا يأتون قطرًا من الأقطار إلا وجدوا الملائكة صفوفًا، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ﴾ [الحاقة: ١٧] وقوله تعالى: ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ﴾ [الرحمن: ٣٣] وهذا القول أظهر. والله أعلم.

فإذا بده الخلائق ولوا مدبرين يقال لهم: ﴿ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ ﴾ [الرحمن: ٣٣] أي إن قدرتم أن تتجاوزوا أقطار السموات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر على عذابكم فافعلوا. وكأن ما قبل هذه الآية وما بعدها يدل على هذا القول، فإن قبلها ﴿ سَنَفْرُغُ ﴾ [الرحمن: ٣١] الآية وهذا في الآخرة، وبعدها: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ [الرحمن: ٣٧] وهذا في الآخرة. وأيضًا فإن هذا خطاب لجميع الإنس والجن، فإنه أتى فيه بصيغة العموم وهي قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ [الأنعام: ١٣٠] فلا بد أن يشترك الكل في سماع هذا الخطاب ومضمونه. وهذا إنما يكون إذا جمعهم الله في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر. وقال تعالى: ﴿ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ ولم يقل إن استطعتما. لإرادة الجماعة كما في آية أخرى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا ﴾ [الرحمن: ٣٥] ولم يقل يرسل عليكم لإرادة الصنفين أي لا يختص به صنف عن صنف، بل يرسل ذلك على الصنفين معًا. وهذا وإن كان مرادًا بقوله تعالى: ﴿ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ فخطاب الجماعة في ذلك بلفظ الجمع أحسن، أي من استطاع منكم.

وحسن الخطاب بالتثنية في قوله تعالى: ﴿ عَلَيْكُمَا ﴾ أمر آخر. وهو موافقة رءوس الآي، فاتصلت التثنية بالتثنية. وفيه التسوية بين الصنفين في العذاب بالتنصيص عليهما، فلا يحتمل اللفظ إرادة أحدهما. والله أعلم. قال ابن عباس: الشواظ: اللهب الذي لا دخان فيه، والنحاس: الدخان الذي لا لهب فيه.

وقوله تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: ٣٩] فأضاف الذنوب إلى الثقلين، وهذا دليل على أنهما سويًا في التكليف. واختلف في هذا السؤال المنفي، فقيل: هو وقعت البعث والمصير إلى الموقف، لا يسألون حينئذ ويسألون بعد إطالة الوقوف واستشفاعهم إلى الله أن يحاسبهم ويريحهم من مقامهم ذلك. وقيل: المنفي سؤال الاستعلام والاستخبار، لا سؤال المحاسبة والمجازاة، أي قد

علم الله ذنوبهم فلا يسألهم عنها سؤال من يريد علمها، وإنما يحاسبهم عليها.

فإذا علم تكليفهم بشرائع الأنبياء ومطالبتهم بها، وحشرهم يوم القيامة للثواب والعقاب، علم أن محسنهم في الجنة كما أن مسيئهم في النار.

وقد دل على ذلك قوله ـ تعالى ـ حكاية عن مؤمنهم: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ﴾ [الجن: ١٣] الآية. وبهذه الحجة احتج البخاري. ووجه الاحتجاج بها أن البخس المنفي هو نقصان الثواب، والرهق الزيادة في العقوبة على ما عمل، فلا ينقص من ثواب حسناته ولا يزداد في سيئاته.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢] أي لا يخاف زيادة سيئاته ولا نقصان حسناته.

وأيضًا فقد قال تعالى في سورة الرحمن: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦، ٤٧] وذكر ما في الجنتين إلى قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٧٤]، وهذا يدل على أن ثواب محسنهم الجنة من وجوه:

أحدها: أن «من» من صيغ العموم، فتناول كل خائف.

الثاني: أنه رتب الجزاء المذكور على خوف مقامه، فدل على استحقاقه به.

وقد اختلف في إضافة المقام إلى الرب هل هي من إضافة المصدر إلى فاعله، أو إلى مفعوله؟ على قولين:

أحدهما: أن المعنى ولمن خاف مقامه بين يدي ربه، فعلى هذا هو من إضافة المصدر إلى المفعول.

والثاني: أن المعنى ولمن خاف مقام ربه عليه واطلاعه عليه، فهو من باب إضافة المصدر إلى فاعله.

وكذلك القولان في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾

[النازعات: ٤٠]. ونظيره قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤] فهذه ثلاثة مواضع. وقد يقال: الراجح هو الأول، وأن المعنى خاف مقامه بين يدي ربه لوجوه:

أحدها: أن طريقة القرآن في التخويف أن يخوفهم بالله وباليوم الآخر، فإذا خوفهم به علق الخوف به لا بقيامه عليهم. كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران: ١٧٥] وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨] وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

ففي هذا كله لم يذكر خشية مقامه عليهم، وإنما مدحهم بخوفه وخشيته. وقد يذكر الخوف متعلقًا بعذابه كقوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]. وأما خوف مقامه عليهم فهو وإن كان كذلك فليس طريقة القرآن.

الثاني: أن هذا نظير قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٥١] فخوفهم أن يحشروا إليه هو خوفهم من مقامهم بين يديه. والقرآن يفسر بعضه بعضًا.

الثالث: أن خوف مقام العبد بين يدي ربه في الآخرة لا يكون إلا ممن يؤمن بلقائه وباليوم الآخر والبعث بعد الموت. وهذا هو الذي يستحق الجنتين المذكورتين، فإنه لا يؤمن بذلك حق الإيمان إلا من آمن بالرسل، وهو من الإيمان بالغيب الذي جاءت به الرسل.

وأما مقام الله على عبده في الدنيا واطلاعه عليه وقدرته عليه، فهذا يقر به المؤمن والكافر والبر والفاجر، وأكثر الكفار يخافون جزاء الله لهم في الدنيا لما عاينوه من مجازاة الظالم بظلمه والمحسن بإحسانه.

وأما مقام العبد بين يدي ربه في الآخرة فلا يؤمن به إلا المؤمن بالرسل.

فإن قيل: إذا كان المعنى أنه خاف مقام ربه عليه في الآخرة بالجزاء فقد استوى التقديران، فمن أين رجحتم أحدهما؟

قيل: التخويف بمقام العبد بين يدي ربه أبلغ من التخويف بمقام الرب على العبد، ولهذا خوفنا تعالى في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، ولأنه مقام مخصوص مضاف إلى الله وذلك في يوم القيامة، بخلاف مقام الله على العبد فإنه كل وقت.

وأيضًا: فإنه لا يقال لقدرة الله على العبد واطلاعه عليه وعلمه به: مقام الله، ولا هذا من المألوف إطلاقه على الرب.

وأيضًا: فإن المقام في القرآن والسنة إنما يطلق على المكان كقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] وقوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان: ٢٥، ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] والمقصود أن قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦] يتناول الصنفين من وجوه تقدم منها وجهان.

(الثالث): قوله عقيب هذا الوعد: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(الرابع) أنه ذكر في وصف نسائهم أنهن: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٧٤] وهذا والله أعلم معناه أنه لم يطمث نساء الإنس إنس قبلهم، ولا نساء الجن جن قبلهم. ومما يدل على أن ثوابهم الجنة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الكهف: ٣٠، ٣١] وأمثال هذه من العمومات.

وقد ثبت أن منهم المؤمنين فيدخلون في العموم، كما أن كافرهم يدخل في الكافرين المستحقين للوعيد. ودخول مؤمنهم في آيات الوعد أولى من دخول كافرهم في آيات الوعيد، فإن الوعد فضله والوعيد عدله، وفضله من رحمته وهي تغلب غضبه.

وأيضًا: فإنه لا دار للمكلفين سوى الجنة والنار، وكل من لم يدخل النار من المكلفين فالجنة مثواه، وأيضًا فقد ثبت أنهم إذا أجابوا داعي الله غفر لهم وأجارهم من عذابه، وكل من غفر له دخل الجنة ولابد، وليس فائدة المغفرة إلا الفوز بالجنة والنجاة من النار.

وأيضًا: فإنه قد ثبت أن الرسول مبعوث إليهم، وأنهم مكلفون باتباعه، وأن مطيعهم لله ورسوله مع الذين أنعم الله عليهم، لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء: ٦٩].

وقد أخبر سبحانه عن ملائكته حملة العرش ومن حولهم أنهم يستغفرون للذين آمنوا، وأنهم يقولون: ﴿ فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ ﴾ [غافر: ٧، ٨].

فدل على أن كل مؤمن غفر الله له ووقاه عذاب الجحيم فقد وعده الجنة. وقد ثبت في حق مؤمنهم الإيمان ومغفرة الذنب ووقاية النار كما تقدم فتعين دخولهم الجنة، والله أعلم.

وإذا ثبت تكليفهم بانقسامهم إلى المسلمين والكفار والصالحين ودون ذلك، فهم في الموازنة على نحو طبقات الإنس المتقدمة، إلا أنهم ليس فيهم رسول. وأفضل درجاتهم درجة الصالحين ولو كان لهم درجة أفضل منها لذكروها، فقد دل القرآن على انقسامهم إلى ثلاثة أقسام: صالحين، ودونهم، وكفار. وزاد عليهم الإنس بدرجة الرسالة والنبوة ودرجة المقربين. والله أعلم.

فهذا ما وصل إليه الإحصاء من طبقات المكلفين في الدار الآخرة، وهي ثمان عشرة طبقة، وكل طبقة منها لها أعلى وأدنى ووسط. وهم درجات عند الله.

والله تعالى يحشر الشكل مع شكله والنظير مع نظيره، ويقرن بينهما في الدرجة.

قال تعالى: ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣]. قال الإمام أحمد وقبله عمر بن الخطاب: ﴿ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ أشباههم ونظراءهم، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [التكوير: ٧].

روى النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن هذه الآية فقال: يقرن الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، ويقرن الرجل السوء مع الرجل السوء في النار[١].

وقال الحسن وقتادة: يلحق كل امرئ بشيعته، اليهودي باليهودي، والنصراني بالنصراني[٢].

وقال الربيع بن خيثم: يحشر الرجل مع صاحب عمله[٣].

وفي الآية ثلاثة أقوال آخر:

أحدها: أن تزويج النفوس اقترانها بأجسادها وردها إليها.

والثاني: تزويجها اقترانها بأعمالها.

والثالث: أن تزويج المؤمنين الحور العين، وتزويج الكفار بالشياطين. والقول الأولى أظهر الأقوال. والله أعلم.

***

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ۝ ﴾.

[٤]قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ [البقرة: ٣٨] هو خطاب لمن أهبطه من

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٣٠/ ٦٩) وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤٠٤ رقم ١٩١٤٦) وابن أبي شيبة (٧/ ٩٩ رقم ٣٤٤٩٢).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٣٠/ ٧٠) وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤٠٣ رقم ١٩١٤٤) وانظر: عمدة القاري (١٩/ ٢٨١).

(٣) أخرجه الطبري (٣٠/ ٧٠) وانظر: عمدة القاري (١٩/ ٢٨١).

(٤) ٣٧ مفتاح جـ١.

الجنة بقوله: ﴿ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [طه: ١٢٣].

ثم قال: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ وكلا الخطابين لأبوي الثقلين، وهو دليل على أن الجن مأمورون منهيون داخلون تحت شرائع الأنبياء، وهذا مما لا خلاف فيه بين الأمة، وأن نبينا بعث إليهم كما بعث إلى الإنس، كما لا خلاف بينهم أن مسيئهم مستحق للعقاب.

وإنما اختلف علماء الإسلام في المسلم منهم هل يدخل الجنة؟ فالجمهور على أن محسنهم في الجنة، كما أن مسيئهم في النار.

وقيل: بل ثوابهم سلامتهم من الجحيم، وأما الجنة فلا يدخلها أحد من أولاد إبليس، وإنما هي لبني آدم وصالحي ذريته خاصة. وحكي هذا القول عن أبي حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ.

واحتج الأولون بوجوه: أحدها: هذه الآية فإنه ـ سبحانه ـ أخبر أن من اتبع هداه فلا يخاف ولا يحزن ولا يضل ولا يشقى. وهذا مستلزم لكمال النعيم.

ولا يقال: إن الآية إنما تدل على نفي العذاب فقط.

ولا خلاف أن مؤمنيهم لا يعاقبون لأنا نقول لو لم تدل الآية إلا على أمر عدمي فقط لم يكن مدحًا لمؤمني الإنس، ولما كان فيها إلا مجرد أمر عدمي وهو عدم الخوف والحزن.

ومعلوم أن سياق الآية ومقصودها إنما أريد به أن من اتبع هدي الله الذي أنزله حصل له غاية النعيم، واندفع عنه غاية الشقاء، وعبر عن هذا المعنى المطلوب بنفي الأمور المذكورة لاقتضاء الحال لذلك، فإنه لما أهبط آدم من الجنة حصل له من الخوف والحزن والشقاء ما حصل، فأخبره ـ سبحانه ـ أنه معطيه وذريته عهدًا من اتبعه منهم انتفى عنه الخوف والحزن والضلال والشقاء. ومعلوم أنه لا ينتفي ذلك كله إلا بدخول دار النعيم ولكن المقام بذكر التصريح بنفي غاية المكروهات أولى.

الثاني: قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا

حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأحقاف: ٢٩- ٣١] فأخبرنا سبحانه عن نذيرهم إخبارًا مقررًا أن من أجاب داعيه غفر له وأجاره من العذاب، ولو كانت المغفرة لهم إنما ينالون بها مجرد النجاة من العذاب كان ذلك حاصلًا بقوله: ﴿ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأحقاف: ٣١] بل تمام المغفرة دخول الجنة والنجاة من النار، فكل من غفر الله له فلابد من دخوله الجنة.

الثالث: قوله تعالىٰ في الحور العين: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: ٧٤] فهذا يدل علىٰ أن مؤمني الجن والإنس يدخلون الجنة، وأنه لم يسبق من أحد منهم طمث لأحد من الحور فدل علىٰ أن مؤمنيهم يتأتىٰ منهم طمث الحور العين بعد الدخول، كما يتأتىٰ من الإنس، ولو كانوا ممن لا يدخل الجنة لما حسن الإخبار عنهم بذلك.

الرابع: قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤، ٢٥] والجن منهم مؤمن ومنهم كافر، كما قال صالحوهم: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ﴾ [الجن: ١٤] فكما دخل كافرهم في الآية الثانية وجب أن يدخل مؤمنهم في الأولىٰ.

الخامس: قوله عن صالحيهم: ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴾ [الجن: ١٤] والرشد هو الهدىٰ والفلاح، وهو الذي يهدي إليه القرآن ومن لم يدخل الجنة لم ينل غاية الرشد، بل لم يحصل له من الرشد إلا مجرد العلم.

السادس: قوله تعالىٰ: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو

ﵟٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِﵞ [الحديد: ٢١] ومؤمنهم ممن آمن بالله ورسله فيدخل في المبشرين ويستحق البشارة.

السابع: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يونس: ٢٥] عم سبحانه بالدعوة وخص بالهداية المفضية إليها، فمن هداه إليها فهو ممن دعاء إليها فمن اهتدى من الجن فهو من المدعوين إليها.

الثامن: قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٢٨ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٢٩ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأنعام: ١٢٨ - ١٣٢]. وهذا عام في الجن والإنس، فأخبرهم تعالى أن لكلهم درجات من عمله، فاقتضى أن يكون لمحسنهم درجات من عمله كما لمحسن الإنس.

التاسع: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٣ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤].

ووجه التمسك بالآية من وجوه ثلاثة. أحدها: عموم الاسم الموصول فيها.

الثاني: ترتيبه الجزاء المذكور على المسألة ليدل على أنه مستحق بها، وهو قول: ربنا الله، مع الاستقامة، والحكم يعم بعموم علته فإذا كان دخول الجنة مرتبًا على الإقرار بالله وربوبيته مع الاستقامة على أمره فمن أتى ذلك استحق الجزاء.

الثالث: أنه قال: ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤] فدل على أن كل من لا خوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة، وقد تقدم في أول الآيات قوله تعالى: ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨] وأنه متناول للفريقين، ودلت هذه الآية على أن من لا خوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة.

العاشر: أنه إذا دخل مسيئهم النار بعدل الله، فدخول محسنهم الجنة بفضله ورحمته أولى، فإن رحمته سبقت غضبه، والفضل أغلب من العدل، ولهذا لا يدخل النار إلا من عمل أعمال أهل النار. وأما الجنة فيدخلها من لم يعمل خيرًا قط. بل ينشيء لها أقوامًا يسكنهم إياها من غير عمل عملوه، ويرفع بها درجات العبد من غير سعي منه، بل بما يصل إليه من دعاء المؤمنين وصلاتهم وصدقتهم وأعمال البر التي يهدونها إليه بخلاف أهل النار، فإنه لا يعذب فيها بغير عمل أصلًا. وقد ثبت بنص القرآن وإجماع الأمة أن مسيء الجن في النار بعدل الله وبما كانوا يكسبون، فمحسنهم في الجنة بفضل الله وبما كانوا يعملون.

لكن قيل: إنهم يكونون في ربض الجنة يراهم أهل الجنة ولا يرونهم كما كانوا في الدنيا يرون بني آدم من حيث لا يرونهم، ومثل هذا لا يعلم إلا بتوقيف تنقطع الحجة عنده، فإن ثبتت حجة يجب اتباعها، وإلا فهو مما يحكى ليعلم، وصحته موقوفة على الدليل، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الجن

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

سُورَةُ المُزَّمِّلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝﴾.

[1]سئل[2] عن مسألة فقال: لا أدري، فقيل له: إنها مسألة خفيفة سهلة، فغضب وقال: ليس في العلم شيء خفيف، أما سمعت قول الله ﷻ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝﴾ [المزمل: ٥]. فالعلم كله ثقيل، وخاصة ما يسأل عنه يوم القيامة، وقال: ما أفتيت حتى شهد لي سبعون أني أهل لذلك[3]. وقال: لا ينبغي لرجل أن يرى نفسه أهلًا لشيء حتى يسأل من هو أعلم منه[4]، وما أفتيت حتى سألت ربيعة ويحيى بن سعيد، فأمراني بذلك، ولو نهياني انتهيت. قال: وإذا كان أصحاب رسول الله ﷺ تصعب عليهم المسائل، ولا يجيب أحد منهم عن مسألة حتى يأخذ رأى صاحبه مع ما رزقوا من السداد والتوفيق والطهارة، فكيف بنا الذين غطت الذنوب والخطايا قلوبنا؟

وكان ـ رحمه الله ـ إذا سئل عن مسألة فكأنه واقف بين الجنة والنار. وقال عطاء بن أبي رباح: أدركت أقوامًا إن كان أحدهم ليسأل عن شيء فيتكلم وإنه ليرعد. وسئل النبي ﷺ أي البلاد شر؟ فقال: «لا أدري حتى أسأل جبريل». فسأله فقال: أسواقها[5]. وقال الإمام أحمد: من عرض نفسه للفتيا فقد عرضها لأمر عظيم، إلا أنه

---

(١) ٢١٨ أعلام جـ٤.

(٢) أي الإمام مالك رحمه الله تعالى.

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٨/ ٩٦) وتذكرة الحفاظ (١/ ٢٠٨) والعبر في خبر من غبر (١/ ٢٧٣) والبداية والنهاية (١٠/ ١٧٤) والمنتظم (٩/ ٤٣) وشذرات الذهب (١/ ٢٨٩).

(٤) انظر: كشاف القناع (٦/ ٢٩٩).

(٥) أخرجه الحاكم (١/ ١٦٦ رقم ٣٠٣) والطبراني في الكبير (٢/ ١٢٨ رقم ١٥٤٥).

قد تلجئ الضرورة. وسئل الشعبي عن مسألة، قال: لا أدري، فقيل: ألا تستحي من قولك لا أدري وأنت فقيه أهل العراق؟ فقال: لكن الملائكة لم تستح حين قالوا: ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢].

وقال بعض أهل العلم: تَعلّم: لا أدري، فإنك إن قلت: لا أدري علَّموك حتى تدري، وإن قلت أدري سألوك حتى لا تدري. وقال عتبة بن مسلم: صحبت ابن عمر أربعة وثلاثين شهرًا، فكان كثيرًا ما يسأل فيقول: لا أدري. وكان سعيد بن المسيب لا يكاد يفتي فتيا ولا يقول شيئًا إلا قال: اللهم سلمني وسلم مني[١].

***

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ ﴾.

[٢]ناشئة الليل أول ساعاته. قلت: هذا قد قاله غير واحد من السلف: إن ناشئة الليل أوله التي منها ينشأ الليل. والصحيح أنها لا تختص بالساعة الأولى، بل هي ساعاته ناشئة، بعد ناشئة كلما انقضت ساعة نشأت بعدها أخرى. وقال أبوعبيدة ناشئة الليل ساعاته وآناؤه ناشئة بعد ناشئة. قال الزجاج: ناشئة الليل كلما نشأ منه أي حدث منه فهو ناشئة. قال ابن قتيبة: هي آناء الليل وساعاته مأخوذة من نشأت تنشأ نشأ، أي ابتدأت وأقبلت شيئًا بعد شيء، أنشأها الله فنشأت. والمعنى أن ساعات الليل الناشئة. وقول صاحب الصحاح منقول عن كثير من السلف قال علي بن الحسين: ناشئة الليل ما بين المغرب إلى العشاء. وهذا قول أنس وثابت وسعيد بن جبير والضحاك والحكم واختيار الكسائي قالوا: ناشئة الليل: أوله. وهؤلاء راعوا معنى الأولية في الناشئة.

---

(١) ذكره البخاري في تاريخه الكبير (٣/ ٥١١) والمزي في تهذيب الكمال (١١/ ٧٢) والنووي في تهذيب الأسماء (١/ ٢١٣) والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (رقم ٨٢٤).

(٢) ١٣٣ شفاء.

وفيها قول ثالث: إن الليل كله ناشئة، وهذا قول عكرمة وأبي مجلز ومجاهد والسدي وابن الزبير وابن عباس في رواية قال ابن أبي مليكة سألت ابن الزبير وابن عباس عن ناشئة الليل فقالا: الليل كله ناشئة[1]. فهذه أقوال من جعل ناشئة الليل زمانًا. وأما من جعلها فعلًا ينشأ بالليل فالناشئة عندهم اسم لما يفعل بالليل من القيام. وهذا قول ابن مسعود ومعاوية بن قرة وجماعة، قالوا: ناشئة الليل: قيام الليل. وقال آخرون: منهم عائشة: إنما يكون القيام ناشئة إذا تقدمه نوم، قالت عائشة: ناشئة الليل القيام بعد النوم، وهذا قول ابن الأعرابي قال: إذا نمت من أول الليل نومة ثم قمت فتلك النشأة، ومنه ناشئة الليل فعلى قول الأولين ناشئة الليل بمعنى (من) إضافة نوع إلى جنسه أي ناشئة منه وعلى قول هؤلاء إضافة بمعنى (في) أي طاعة ناشئة فيه. والمقصود أن الإنشاء ابتداء سواء تقدمه مثله كالنشأة الثانية أو لم يتقدمه كالنشأة الأولى.

***

﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴿٨﴾ ﴾.

[2]«التبتل» الانقطاع. وهو تفعل من البتل وهو القطع. وسميت مريم «البتول» لانقطاعها عن الأزواج، وعن أن يكون لها نظراء من نساء زمانها. ففاقت نساء الزمان شرفًا وفضلًا. وقطعت منهن. ومصدر «بتل» «تبتلًا» كالتعلم والتفهم، ولكن جاء على التفعيل ـ مصدر تفعل ـ لسر لطيف. فإن في هذا الفعل إيذانًا بالتدريج والتكلف والتعمل والتكثر والمبالغة. فأتى بالفعل الدال على أحدهما، وبالمصدر الدال على الآخر. فكأنه قيل: بتل نفسك إلى الله تبتيلًا، وتبتل إليه تبتلًا، ففهم المعنيان من الفعل ومصدره. وهذا كثير في القرآن. وهو من أحسن الاختصار والإيجاز.

***

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٩/ ١٢٨).
(٢) ٢٩ مدارج جـ٢.

﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾.

(١) في سورة (المزمل) ذكر المشرق والمغرب بلفظ الإفراد، لما كان المقصود ذكر ربوبيته، وحدانيته، وكما أنه تفرد بربوبية المشرق والمغرب وحده، فكذلك يجب أن يتفرد بالربوبية والتوكل عليه وحده. فليس للمشرق والمغرب رب سواه. فكذلك ينبغي أن لا يتخذ إله ولا وكيل سواه، وكذلك قال موسي لفرعون حين سأله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] فقال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨].

وفي ربوبيته ـ سبحانه ـ للمشارق والمغارب تنبيه على ربوبيته السموات وما حوته من الشمس، والقمر، والنجوم، وربوبيته ما بين الجهتين. وربوبيته الليل والنهار وما تضمناه. ثم قال: ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج: ٤٠، ٤١]. أي لقادرون على أن نذهب بهم، ونأتي بأطوع لنا منهم وخيرًا منهم، كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]. وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي لا يفوتني ذلك إذا أردته ولا يمتنع مني.

وعبر عن هذا المعنى بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ لأن المغلوب يسبقه الغالب إلى ما يريده فيفوت عليه. ولهذا عدى بـ [على] دون [إلى]، كما في قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ [الواقعة: ٦٠] فإنه لما ضمنه معنى مغلوبين ومقهورين عداه بـ [على] بخلاف سبقه إليه، فإنه فرق بين سبقته إليه وسبقته عليه. فالأول بمعنى غلبته وقهرته عليه. والثاني: بمعنى وصلت إليه قبله.

***

(١) ١٢٢ التبيان.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦﴾.

[1]أخبر سبحانه أنه أرسل محمدًا ﷺ إلينا كما أرسل موسى إلى فرعون، وأن فرعون عصى رسوله فأخذه أخذًا وبيلًا، فهكذا من عصى منكم محمدًا ﷺ وهذا في القرآن كثير جدًا فقد فتح لك بابه.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المزمل

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

---

(١) ١٣٨ أعلام جـ١.

سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ ﴾.

(١)ترتيب الدعوة ولها مراتب: المرتبة الأولى: النبوة. الثانية: إنذار عشيرته الأقربين.والثالثة: إنذار قومه. الرابعة: إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله. وهم العرب قاطبة. الخامسة: إنذار جميع من بلغته دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر.

وأقام ﷺ بعد ذلك ثلاث سنين يدعو إلى الله سبحانه مستخفيًا، ثم نزل عليه: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤] فأعلن ﷺ بالدعوة، وجاهر قومه بالعداوة، واشتد الأذى عليه وعلى المسلمين. حتى أذن الله لهم بالهجرتين.

(٢)ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين، من حين بعث إلى حين لقي الله ﷻ أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى: أن يقرأ باسم ربه الذي خلق. وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأه في نفسه، ولم يأمره إذا ذاك بتبليغ. ثم أنزل عليه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ ﴾ [المدثر: ١، ٢] فنبأه بقوله: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ وأرسله بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أنذر قومه، ثم أنذر من حولهم من العرب، ثم أنذر العرب طابة، ثم أنذر العالمين، فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح، ثم أذن له في الهجرة، وأذن له في القتال، ثم أمره أن يقاتل من قاتله، ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله.

(٣)مبعثه ﷺ، وأول ما نزل عليه: بعثه الله على رأس أربعين، وهي سن الكمال.

---

(١) ٣٨ زاد المعاد جـ١.

(٢) ٢٠٧ زاد المعاد جـ٢.

(٣) ٣٧ زاد المعاد جـ١.

وقيل: ولها تبعث الرسل. وأما ما يذكر عن المسيح: أنه رفع إلي السماء وله ثلاث وثلاثون سنة، فهذا لا يعرف له أثر متصل يجب المصير إليه.

وأول ما بدئ به رسول الله ﷺ من أمر النبوة: الرؤيا، فكان لا يرىٰ رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح[(١)]. قيل: وكان ذلك ستة أشهر، ومدة النبوة: ثلاث وعشرون سنة. فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة[(٢)]، والله أعلم.

ثم أكرمه الله تعالىٰ بالنبوة، فجاءه الملك وهو بغار حراء، وكان يحب الخلوة فيه. فأول ما أنزل عليه: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق: ١] هذا قول عائشة والجمهور. وقال جابر: «أول ما أنزل عليه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴾» والصحيح قول عائشة، لوجوه[(٣)]:

أحدها: أن قوله: «ما أنا بقارئ» صريح في أنه لم يقرأ قبل ذلك شيئًا.

الثاني: الأمر بالقراءة في الترتيب قبل الأمر بالإنذار، فإنه إذا قرأ في نفسه أنذر بما قرأة، فأمره بالقراءة أولًا ثم بالإنذار بما قرأة ثانيًا.

الثالث: أن حديث جابر، وقوله: «أول ما أنزل من القرآن ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴾» قول جابر، وعائشة أخبرت عن خبره ﷺ عن نفسه بذلك.

الرابع: أن حديث جابر ـ الذي احتج به ـ صريح في أنه قد تقدم نزول الملك عليه أولًا، قبل نزول ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴾ فإنه قال: «**فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء، فرجعت إلىٰ أهلي، فقلت: زملوني، دثروني، فأنزل الله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴾**[(٤)]».

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣) ومسلم (رقم ١٦٠) وانظر: فتح الباري (١/ ٢٣) وشرح النووي (٢/ ١٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٨٣) ومسلم (رقم ٢٢٦٤) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٣٥٨-٣٧٤) وشرح النووي (١٥/ ٢٠-٢١).

(٣) انظر: تخريج الأحاديث والآثار للزيلعي (٤/ ١١٩).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٤) ومسلم (رقم ١٦١) وانظر: فتح الباري (١/ ٢٨).

وقد أخبر: أن الملك الذي جاء بحراء أنزل عليه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] فدل حديث جابر على تأخر نزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ والحجة في روايته، لا في رأيه والله أعلم.

[(١)] أكمل الخلق عند الله ﷻ: من كمل مراتب الجهاد كلها. والخلق متفاوتون في منازلهم عند الله تفاوتهم في مراتب الجهاد. ولهذا كان أكمل الخلق وأكرمهم على الله خاتم أنبيائه ورسله. فإنه كمل مراتب الجهاد، وجاهد في الله حق جهاده. وشرع في الجهاد من حين بعث إلى أن توفاه الله ﷻ. فإنه لما نزل الله عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤﴾ [المدثر: ١ - ٤] شمر عن ساق الدعوة، وقام في ذات الله أتم قيام، ودعا إلى الله ليلًا ونهارًا وسرًا وجهارًا. ولما نزل عليه: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ [الحجر: ٩٧] فصدع بأمر الله، لا تأخذه فيه لومة لائم، فدعا إلى الله الصغير والكبير والحر والعبد والذكر والأنثى والأحمر والأسود والجن والإنس.

[(٢)] وسئل ﷺ: متى وجبت النبوة؟ فقال: «وآدم بين الروح والجسد»[(٣)] صححه الترمذي. وسئل ﷺ كيف كان بَدْء أمرك؟ فقال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورؤيا أمي، رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام»[(٤)] ذكره أحمد.

وسأله ﷺ أبو هريرة: يا رسول الله، ما أول ما رأيت من النبوة؟ قال: «إني لفي الصحراء ابن عشرين سنة وأشهر، وإذا بكلام فوق رأسي، وإذا برجل يقول لرجل:

---

(١) ١٠٨ زاد المعاد جـ١.

(٢) ٤١١ أعلام جـ٤.

(٣) أخرجه الضياء في المختارة (٩/ ١٤٢ رقم ١٢٣) والحاكم (٢/ ٦٦٥ رقم ٤٢٠٩) وصححه. والترمذي (رقم ٣٦٠٩) وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ.

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٢) والحاكم (٢/ ٦٥٦ رقم ٤١٧٤) والطبراني في الكبير (٨/ ١٧٥ رقم ٧٧٢٩) وابن الجعد (رقم ٣٤٢٨) والطيالسي (رقم ١١٤٠) وصححه الحاكم وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٢٢): رواه أحمد وأسناده حسنٌ وله شواهد تقويه.

أهو هو؟ فاستقبلاني بوجوه لم أرها لأحد قط، وأرواح لم أجدها لخلق قط وثياب لم أرها على خلق قط، فأقبلا يمشيان حتى أخذ كل منهما بعضدي لا أجد لأخذهما مسًا، فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه، فاضجعاني بلا قصر ولا هصر، فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره، فحوى أحدهما صدري ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغل والحسد، فأخرج شيئًا كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها، ثم قال له: أدخل الرافة والرحمة، فإذا مثل الذي أخرج شبه الفضة، ثم هز إبهام رجلي اليمنى فقال: اغدُ سليمًا، فرجعت بها رقة على الصغير ورحمة على الكبير»[1] ذكره أحمد.

[2] فلما كمل له أربعون أشرق عليه نور النبوة، وأكرمه الله ـ تعالى ـ برسالته، وبعثه إلى خلقه، واختصه بكرامته، وجعله أمينه بينه وبين عباده. ولا خلاف أن مبعثه ﷺ كان يوم الاثنين.

واختلف في شهر المبعث، فقيل: لثمان مضين من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من عام الفيل. هذا قول الأكثرين. وقيل: بل كان ذلك في رمضان واحتج هؤلاء بقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

قالوا: أول ما أكرمه الله تعالى بنبوته أنزل عليه القرآن. وإلى هذا ذهب جماعة، منهم يحيى الصرَّصري، حيث يقول في نونيته:

وأتت عليه أربعون، فأشرقت ... شمس النبوة منه في رمضان[3]

والأولون قالوا: إنما كان إنزال القرآن في رمضان جملة واحدة، في ليلة القدر، إلى

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٣٩) والضياء في المختارة (٤/ ٣٩ رقم ١٢٦٤) وابن عساكر في تاريخه (٣/ ٤٦٤) وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٢٣): رواه عبد الله ورجاله ثقات وثقه ابن حبان.

(٢) ٣٣ زاد المعاد جـ١.

(٣) هذا البيت من بحر الكامل، وينسب إلى يحيى بن يوسف بن يحيى الأنصاري جمال الدين الصرصري شاعر من أهل صرصر على مقربة من بغداد، كان ضريرًا، له منظومات في الفقه وغيره، له قصيدة في الفقه الحنبلي تسمى الدالية من ٢٧٧٤ بيتًا. قيل: إن التتار لما دخلوا بغداد قتلوه، وقد قتل أحدهم بعكازه، ثم استشهد رحمه الله سنة ٦٥٦هـ.

بيت العزة، ثم أنزل منجمًا ـ بحسب الوقائع ـ في ثلاثة وعشرين سنة. وقالت طائفة: «أنزل فيه القرآن» أي: في شأنه وتعظيمه وفرض صومه. وقيل: كان ابتداء المبعث في شهر رجب. وكمل الله له من مراتب الوحي مراتب عديدة.

إحداها: الرؤيا الصادقة، وكانت مبدأ وحيه ﷺ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

المرتبة الثانية: ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه، ومن غير أن يراه، كما قال النبي ﷺ: **«إن روح القدس نفث في روعي: أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله. فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته»**[1].

المرتبة الثالثة: أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلًا، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له. وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانًا.

الرابعة: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه، فيتلبس به الملك، حتى إن جبينه ليتفصد عرقًا في اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها، ولقد جاءه الوحي مرة كذلك، وفخذه على فخذ زيد بن ثابت، فثقلت عليه حتى كادت ترضها.

الخامسة: أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين، كما ذكر الله ذلك في سورة النجم.

السادسة: ما أوحاه الله إليه، وهو فوق السموات ليلة المعراج: من فرض الصلاة وغيرها.

---

(١) أخرجه عبدالرزاق (١١/ ١٢٥ رقم ٢٠١٠٠) والطبراني في الكبير (٨/ ١٦٦ رقم ٧٦٩٤) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٨٥ رقم ١١٥١) وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٧٢): رواه الطبراني في الكبير وفيه عفير بن معدان وهو ضعيف. بينما قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/ ٢٠): أخرجه ابن أبي الدنيا في القناعة وصححه الحاكم من طريق ابن مسعود.

السابعة: كلام الله له منه إليه، بلا واسطة ملك، كما كلم الله موسى بن عمران. وهذا المرتبة هي ثابتة لموسى قطعًا بنص القرآن. وثوبتها لنبينا ﷺ هو في حديث الإسراء.

وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة، وهي تكليم الله له كفاحًا من غير حجاب . وهذا على مذهب من يقول: إنه ﷺ رأى ربه ـ تبارك وتعالى ـ وهي مسألة خلاف بين السلف والخلف، وإن كان جمهور الصحابة ـ بل كلهم ـ مع عائشة، كما حكاه عثمان بن سعيد الدارمي إجماعًا للصحابة.

(١)وقال تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤]. قال قتادة ومجاهد: نفسك فطهر من الذنب، فكنى عن النفس بالثوب. وهذا قول إبراهيم النخعي والضحاك، والشعبي، والزهري، والمحققين من أهل التفسير. قال ابن عباس: لا تلبسها على معصية ولا غدر. ثم قال:أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

وإني ـ بحمد الله ـ لا ثوبَ غادرٍ لبستُ. ولا من غدرة أتقنَّعُ(٢)

والعرب تقول في وصف الرجل بالصدق والوفاء: طاهر الثياب. وتقول للغادر والفاجر: دنس الثياب.وقال أبي بن كعب: لا تلبسها على الغدر، والظلم والإثم. ولكن البسها وأنت برٌّ طاهر.

وقال الضحاك: عملك فأصلح. قال السدي: يقال للرجل، إذا كان صالحًا: إنه لطاهر الثياب. وإذا كان فاجرًا: إنه لخبيث الثياب. وقال سعيد بن جبير: وقلبك

---

(١) ٢٠ مدارج جـ٢.

(٢) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى غيلان بن سلمة الثقفي شاعر جاهلي حكيم، أدرك الإسلام وأسلم يوم الطائف وكان عنده عشر نسوة فأمره النبي ﷺ أن يختار منهن أربعًا، فصارت سنة. وكان أحد وجوه ثقيف، انفرد في الجاهلية بأن قسم أعماله على الأيام فيوم للحكم ويوم لإنشاء الشعر، ووفد على كسرى فأعجب كسرى بكلامه، مات سنة ٢٣هـ والبيت ذكره الطبري في تفسيره (١٥/ ١٠١) وابن كثير (٤/ ٤٤٢) وابن عبدالبر في التمهيد (٢٢/ ٢٣٦) والخطابي في غريب الحديث (١/ ٦١٣) وابن قتيبة في غريب الحديث (٢/ ٦٤٧) وابن منظور في لسان العرب (١٥/ ٢٠٩).

وبيتك فطهر. وقال الحسن والقرطبي: وخلقك فحسن. وقال ابن سيرين وابن زيد: أمر بتطهير الثياب من النجاسات التي لا تجوز الصلاة معها. لأن المشركين كانوا لا يتطهرون، ولا يطهرون ثيابهم. وقال طاوس: وثيابك فقصر. لأن تقصير الثياب طهرة لها. والقول الأول: أصح الأقوال.

ولا ريب أن تطهيرها من النجاسات وتقصيرها من جملة التطهير المأمور به، إذ به تمام إصلاح الأعمال والأخلاق. لأن نجاسة الظاهر تورث نجاسة الباطن. ولذلك أمر القائم بين يدي الله ﷻ بإزالتها والبعد عنها.

والمقصود: أن «الورع» يطهر دنس القلب ونجاسته. كما يطهر الماء دنس الثوب ونجاسته. وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة. ولذلك تدل ثياب المرء في المنام على قلبه وحاله. ويؤثر كل منهما في الآخر. ولهذا نهى عن لباس الحرير والذهب، وجلوع السباع، لما تؤثر في القلب من الهيئة المنافية للعبودية والخشوع. وتأثير القلب والنفس في الثياب أمر خفي. يعرفه أهل البصائر من نظافتها ودنسها ورائحتها، وبهجتها وكسفتها، حتى إن ثوب البر ليعرف من ثوب الفاجر. وليسا عليهما.

وقد جمع النبي ﷺ الورع كله في كلمة واحدة. فقال: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»(١). فهذا يعم الترك لما لا يعني: من الكلام، والنظر، والاستماع، والبطش،

---

(١) أخرجه ابن حبان (١/ ٤٦٦ رقم ٢٢٩) والترمذي (رقم ٢٣١٧) وابن ماجه (رقم ٣٩٧٦) ومالك (٢/ ٩٠٣ رقم ١٦٠٤) وأحمد (١/ ٢٠١) والبيهقي في الشعب (٧/ ٤١٥ رقم ١٠٨٠٥) وهناد في الزهد (٢/ ٥٣٩ رقم ١١١٧) والطبراني في الصغير (رقم ٨٨٤) وفي الأوسط (٨/ ٢٠٢ رقم ٨٤٠٢) وفي الكبير (٣/ ١٢٨ رقم ٢٨٨٦) قال المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٣٤٥ رقم ٤٣٧٠): رواته ثقات إلا قرة بن حيويل، ففيه خلاف. وقال ابن عبد البر النمري: هو محفوظ عن الزهري بهذا الإسناد من رواية الثقات، انتهى. فعلى هذا يكون إسناده حسناً، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ١٨): رواه أحمد والطبراني في الثلاثة ورجال أحمد والكبير ثقات. ونقل الحافظ ابن حجر تحسين الترمذي في فتح الباري (١١/ ٣٠٩) وانظر: شرح النووي (١١/ ٢٧).

والمشي، والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة. فهذه الكلمة كافية شافية في الورع.

قال إبراهيم بن أدهم: الورع ترك كل شبهة، وترك ما لا يعنيك هو ترك الفضلات. وفي الترمذي مرفوعًا إلى النبي ﷺ: «يا أبا هريرة! كن ورعًا تكن أعبد الناس»[(١)].

[(٢)]طهارة القلب من أدرانه وأنجاسه، وإن كان داخلًا فيما قبله، كما بينا أن الزكاة لا تحصل إلا بالطهارة، ولكنا أفردناه بالذكر لبيان معنى طهارته، وشدة الحاجة إليها، ودلالة القرآن والسنة عليها. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝﴾ [المدثر: ١-٤]. وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [المائدة: ٤١]. وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب ههنا القلب، والمراد بالطهارة إصلاح الأعمال والأخلاق.

قال الواحدي: اختلف المفسرون في معناه، فروى عطاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «يعني من الإثم، ومما كانت الجاهلية تجيزه». وهذا قول قتادة ومجاهد، قالا: «نفسك فطهرها من الذنب» ونحوه قول الشعبي وإبراهيم والضحاك والزهري. وعلى هذا القول: «الثياب» عبارة عن النفس، والعرب تكني بالثياب عن النفس. ومنه قول الشماخ:

رموها بأثواب خفاف، فلا ترى ... لها شبها إلا النعام المنفرا[(٣)]

(١) أخرجه ابن ماجه (رقم ٤٢١٧) والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٢١٥ رقم ٣٨٥) والديلمي في الفردوس (٥/ ٣٤٢ رقم ٨٣٧٩) والبيهقي في الشعب (٥/ ٥٣ رقم ٥٧٥٠) وفي الزهد الكبير (٢/ ٣٠٩ رقم ٨٢٢) وهناد في الزهد (٢/ ٥٠١ رقم ١٠٣١) وابن أبي الدنيا في الورع (رقم ٣) وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٣٦٥) وحسنه في مصباح الزجاجة (٤/ ٢٤٠).

(٢) ٥٣ إغاثة جـ١.

(٣) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى ليلى الأخيلية، شاعرة فصيحة ذكية، تلي الخنساء في الطبقة، وكان بينها وبين النابغة الجعدي مهاجاة ماتت سنة ٨٠هـ، ذكر البيت الطبري في تفسيره (٢/ ١٦٢) =

رموها: يعني الركاب بأبدانهم. وقال عنترة:

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنى بمحرم[(١)]

يعني: نفسه.

وقال في رواية الكلبي: يعني لا تغدر، فتكون غادرًا دنس الثياب، وقال سعيد بن جبير: «كان الرجل إذا كان غادرًا قيل: دنس الثياب، وخبيث الثياب». وقال عكرمة: «لا تلبس ثوبك على معصية، ولا على فجرة» وروي ذلك عن ابن عباس، واحتج بقول الشاعر:

وإني بحمد الله لا ثوب غادر لبست، ولا من خزية أتقنع

وهذا المعنى أراد من قال في هذه الآية: «وعملك فأصلح» وهو قول أبي رزين ورواية منصور عن مجاهد وأبي روق، وقال السدي: «يقال للرجل إذا كان صالحًا: إنه لطاهر الثياب، وإذا كان فاجرًا: إنه لخبيث الثياب» قال الشاعر:

لا هم إن عامر بن جهم أو ذم حجا في ثياب دسم[(٢)]

يعني: أنه متدنس بالخطايا، وكما وصفوا الغادر الفاجر بدنس الثوب وصفوا الصالح بطهارة الثوب، قال امرؤ القيس:

ثياب بني عوف طهارى نقية[(٣)]

ونسبه إلى ليلى، بينما ذكره الخطابي في غريب الحديث (١/ ٦٢٥) (٢/ ١٠١) ونسبه في الموضعين إلى ابن الأنباري.

(١) هذا البيت من بحر الكامل ينسب إلى عنترة بن شداد العبسي، من أشهر فرسان العرب في الجاهلية ومن شعراء الطبقة الأولى وكان من أحسن العرب شيمة ومن أعزهم نفساً، يوصف بالحلم على شدة بطشه وفي شعره رقة وعذوبة مات سنة ٢٢ قبل الهجرة. ذكر البيت ابن منظور في لسان العرب (٤/ ٥٠٦) (١٠/ ٤٥٢).

(٢) هذا البيت من بحر الرجز، وذكره الخطابي في غريب الحديث (١/ ٦١٣) وابن سلام في غريب الحديث (٢/ ٢٥٤) وابن منظور في اللسان (١٢/ ١٩٩، ٦٣٢).

(٣) هذا صدر بيت من بحر الطويل، وعجزه: * وأوجههم عند المشاهد غِران *، وذكره ابن سلام في غريب الحديث (٢/ ٢٥٤) وابن منظور في لسان العرب (٤/ ٥٠٤).

يريد أنهم لا يغدرون: بل يفون، وقال الحسن: «خلقك فحسنه»، وهذا قول القرطبي، وعلىٰ هذا: الثياب عبارة عن الخلق، لأن خلق الإنسان يشتمل علىٰ أحواله واشتمال ثيابه علىٰ نفسه.

وروىٰ العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: «لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طيب» والمعنىٰ طهرها من أن تكون مغصوبة، أو من وجه لا يحل اتخاذها منه، وروي عن سعيد بن جبير: «وقلبك. ونبيتك فطهر» وقال أبو العباس: الثياب اللباس، ويقال: القلب، وعلىٰ هذا ينشد:

فسُلِّي ثيابي من ثيابك تنسلِّ[1]

وذهب بعضهم في تفسير هذه الآية إلىٰ ظاهرها، وقال: إنه أمر بتطهير ثيابه من النجاسات التي لا تجوز معها الصلاة، وهو قول ابن سيرين، وابن زيد. وذكر أبو إسحاق: «وثيابك فقصر»، قال: لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسة، فإنه إذا انجر علىٰ الأرض لم يؤمن أن يصيبه ما ينجسه، وهذا قول طاوس. وقال ابن عرفة: «معناه: نساءك طهرهن» وقد يكنىٰ عن النساء بالثياب واللباس. قال تعالىٰ: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٨٧]. ويكنىٰ عنهن بالإزار، ومنه قول الشاعر:

ألا أبلــغ أبــا حفــص رســولًا ... فِدًىٰ لك مــن أخــي ثقــة: إزاري[2]

---

(١) هذا عجز بيت من بحر الطويل، وصدره: * وإن تك قد ساءتك مني خليقةٌ * وينسب إلىٰ امرئ القيس. وذكر البيت ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٤٢) وابن منظور في اللسان (١/ ٢٤٦) (٩/ ٣٣٧).

(٢) هذا البيت من بحر الوافر ذكر البيت ابن عساكر في تاريخه (١٤/ ١٠٦) وابن حجر في الإصابة (١/ ٣٢٠) ونسبه إلىٰ بقيلة الأكبر الأشجعي. وابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٨٦) وابن شبة في أخبار المدينة (١/ ٤٠٣) وابن الأثير في النهاية (١/ ٤٥) وابن قتيبة في غريب الحديث (٢/ ٢٢) وابن منظور في اللسان (٤/ ١٨) (٧/ ٨١).

أي: أهلي، ومنه قول البراء بن معرور للنبي ﷺ ليلة العقبة «لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرنا»(١) أي نساءنا.

قلت: الآية تعم هذا كله، وتدل عليه بطريق التنبيه واللزوم، وإن لم تتناول ذلك لفظًا فإن المأمور به إن كان طهارة القلب، فطهارة الثوب وطيب مكسبه تكميل لذلك، فإن خبث الملبس يكسب القلب هيئة خبيثة، كما أن خبث المطعم يكسبه ذلك، ولذلك حرم ملبس جلود النمور والسباع بنهي النبي ﷺ عن ذلك في عدة أحاديث صحاح لا معارض لها، لما تكسب القلب من الهيئة المشابهة لتلك الحيوانات، فإن الملابسة الظاهرة تسري إلى الباطن، ولذلك حرم لبس الحرير والذهب على الذكور لما يكتسب القلب من الهيئة التي تكون لمن ذلك لبسه من النساء وأهل الفخر والخيلاء.

والمقصود: أن طهارة الثوب وكونه من مكسب طيب هو من تمام طهارة القلب وكمالها، فإن كان المأمور به ذلك فهو وسيلة مقصودة لغيرها، فالمقصود لنفسه أولى أن يكون مأمورًا به، وإن كان المأمور به طهارة القلب وتزكية النفس، فلا يتم إلا بذلك، فتبين دلالة القرآن على هذا وهذا.

***

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٦١) والفاكهي في أخبار مكة (٤/ ٢٣٦) وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٤٤-٤٥): رواه أحمد والطبراني بنحوه ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع.

[(١)] إخباره سبحانه بأن عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر، كان فتنة للكفار، حيث قال عدو الله أبو جهل: أيخوفكم محمد بتسعة عشر، وأنتم الدهم، أفيعجز كل مائة منكم أن يبطشوا بواحد منهم، ثم تخرجون من النار؟ فقال أبو الأسد: يا معشر قريش، إذا كان يوم القيامة فأنا أمشي بين أيديكم على الصراط، فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن، وتسعة بمنكبي الأيسر في النار،ونمضي فندخل الجنة. فكان ذكر هذا العدد فتنة لهم في الدنيا، وفتنة لهم يوم القيامة[(٢)].

[(٣)] أخبر الله سبحانه عن الحكمة التي جعل لأجلها عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر، فذكر سبحانه خمس حكم فتنة الكافرين. فيكون ذلك زيادة في كفرهم وضلالهم. وقوة يقين أهل الكتاب، فيقوى يقينهم بموافقة الخبر بذلك لما عندهم عن أنبيائهم من غير تلق من رسول الله ﷺ، فتقوم الحجة على معاندهم، وينقاد للإيمان من يرد الله أن يهديه. وزيادة إيمان الذين آمنوا بكمال تصديقهم بذلك والإقرار به. وانتفاء الريب عن أهل الكتاب لجزمهم بذلك، وعن المؤمنين لكمال تصديقهم به.

فهذه أربعة حكم: فتنة الكفار، ويقين أهل الكتاب، وزيادة إيمان المؤمنين، وانتفاء الريب عن المؤمنين وأهل الكتاب. والخامسة: حيرة الكافر ومن في قلبه مرض، وعمي قلبه عن المراد بذلك، فيقول: ﴿ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾.

وهذا حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها: قلب يفتتن به كفرًا وجحودًا، وقلب يزداد به إيمانًا وتصديقًا، وقلب يتيقنه، فتقوم عليه به الحجة، وقلب يوجب له حيرة وعمى، فلا يدري ما يراد به.

واليقين وعدم الريب في هذا الموضع، إن رجعا إلى شيء واحد، كان ذكر عدم

---

(١) ١٦٣ إغاثة جـ٢.

(٢) انظر: التخويف من النار (ص ١٦٠).

(٣) ١٤ إغاثة جـ١.

الريب مقررًا لليقين ومؤكدًا له، ونافيًا عنه ما يضاده بوجه من الوجوه، وإن رجعا إلىٰ شيئين، بأن يكون اليقين راجعًا إلىٰ الخبر المذكور عن عدة الملائكة، وعدم الريب عائدًا إلىٰ عموم ما أخبر الرسول به،لدلالة هذا الخبر الذي لا يعلم إلا من جهة الرسل علىٰ صدقه، فلا يرتاب من قد عرف صحة هذا الخبر بعد صدق الرسول ﷺ، ظهرت فائدة ذكره. والمقصود: ذكر مرض القلب وحقيقته.

***

﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ۝ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝ ﴾.

[1]أقسم سبحانه بالقمر الذي هو آية الليل، وفيه من الآيات الباهرة الدالة علىٰ ربوبية خالقه وبارئه. وحكمته وعلمه. وعنايته بخلقه، ما هو معلوم بالمشاهدة.

وهو سبحانه أقسم بالسماء وما فيها، مما لا نراه من الملائكة، وما فيها مما نراه من الشمس والقمر والنجوم، وما يحدث بسبب حركات الشمس والقمر: من الليل والنهار، وكل ذلك آية من آياته، ودلالة من دلائل ربوبيته.

ومن تدبر أمر هذين النيرين العظيمين وجدهما من أعظم الآيات في خلقهما، وجرمهما، ونورهما، وحركتهما علىٰ نهج واحد، لا ينيان ولا يفتران دائبين، ولا يقع في حركتهما اختلاف بالبطء، والسرعة، والرجوع والاستقامة، والانخفاض، والارتفاع، ولا يجري أحدهما في فلك صاحبه، ولا يدخل عليه في سلطانه، ولا تدرك الشمس القمر، ولا يجيء الليل قبل انقضاء النهار، بل لكلٍّ حركة مقدرة، ونهج معين لا يشركه فيه الآخر. كما أن له تأثيرًا ومنفعة لا يشركه فيها الآخر.

وذلك مما يدل من له أدنىٰ عقل علىٰ أنه بتسخير مسخر، وأمر آمر، وتدبير مدبر، بهرت حكمته العقول، وأحاط علمه بكل دقيق وجليل، وفوق ما علمه الناس من

---

(١) ١٠٢ التبيان.

الحكم التي في خلقهما ما لا تصل إليه عقولهم، ولا تنتهي إلى مباديها أوهامهم. فغايتنا الاعتراف بجلال خالقهما، وكمال حكمته، ولطف تدبيره، وأن نقول ما قاله أولو الألباب قبلنا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

ولو أن العبد وصف له جرم أسود مستدير عظيم الخلق، يبدو فيه النور كخيط متسخن، ثم يتزايد كل ليلة حتى يتكامل نوره، فيصير أضوأ شيء وأحسنه وأجمله، ثم يأخذ في النقصان حتى يعود إلى حاله الأول فيحصل بسبب ذلك معرفة الأشهر والسنين. وحساب آجال العالم: من مواقيت حجهم،وصلاتهم، ومواقيت أجائرهم، ومداينابهم، ومعاملتهم التي لا تقوم مصالحهم إلا بها، فمصالح الدنيا والدين متعلقة بالأهلة.

وقد ذكر سبحانه ذلك في ثلاث آيات من كتابه. أحدها قوله: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]. والثانية قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥]. والثالثة قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢]. فولا ما يحدثه الله سبحانه في آيات الليل من زيادة ضوئها ونقصانه لم يعلم ميقات الحج، والصوم والعدد، ومدة الرضاع، مدة الحمل، ومدة الإجارة، ومدة آجال الحاملات.

فإن قيل: كان يمكن هذا بحركة الشمس والأيام التي تحفظ بطلوع الشمس وغروبها، كما يعرف أهل الكتابين مواقيت صيامهم وأعيادهم بحساب الشمس، قيل: هذا وإن كان ممكنًا إلا أنه يعسر ضبطه، ولا يقف عليه إلا الآحاد من الناس، ولا ريب أن معرفة أوائل الشهور وأوساطها وأواخرها بالقمر أمر يشترك فيه الناس، وهو

أسهل من معرفة ذلك بحساب الشمس، وأقل اضطرابًا واختلافًا، ولا يحتاج إلىٰ تكلف حساب، وتقليد من لا يعرفه من الناس لمن يعرفه.

فالحكمة البالغة التي في تقدير السنين والشهور بسير القمر أظهر، وأنفع، وأصلح، وأقل اختلافًا من تقديرها بسير الشمس. فالرب ـ جل جلاله ـ دبر الأهلة بهذا التدبير العجيب لمنافع خلقه، في مصالح دينهم ودنياهم، مع ما يتصل به من الاستدلال به علىٰ وحدانية الرب، وكمال حكمته، وعلمه وتدبيره. فشهادة الحق بتغير الأجرام الفلكية، وقيام أدلة الحدوث والخلق عليها. فهي آيات ناطقة بلسان الحال علىٰ تكذيب الدهرية، وزنادقة الفلاسفة والملاحدة القائلين: بأنها أزلية أبدية لا يتطرق إليها التغيير، ولا يمكن عدمها.

فإذا تأمل البصير القمر مثلًا، وافتقاره إلىٰ محل يقوم به، وسيره دائبًا لا يفتر، مسير، مسخر، مدبر، وهبوطه تارة، وارتفاعه تارة، وأفوله تارة، وظهوره تارة، وذهاب نوره شيئًا فشيئًا، ثم عوده إليه كذلك. وسبب ضوئه جملة واحدة حتىٰ يعود قطعة مظلمة بالكسوف. علم قطعًا أنه مخلوق مربوب مسخر، تحت أمر خالق قاهر مسخر له. كما يشاء، وعلم أن الرب ـ سبحانه ـ لم يخلق هذا باطلًا، وأن هذه الحركة فيه لابد أن تنتهي إلىٰ الانقطاع والسكون. وإن هذا الضوء والنور لابد أن ينتهي إلىٰ ضده. وأن هذا السلطان لابد أن ينتهي إلىٰ العزل.

وسيجمع بينهما جامع المتفرقات بعد أن لم يكونا مجتمعين، ويذهب بهما حيث شاء، ويُري المشركين من عبدتهما حال آلهتهم التي عبدوها من دونه. كما يُري عباد الكواكب انتثارها، وعباد السماء انفطارها، وعباد الشمس تكويرها، وعباد الأصنام إهانتها وإلقاءها في النار أحقر شيء وأذله وأصغره. كما أرىٰ عباد العجل في الدنيا حاله ومبارد عباده تسحقه وتمحقه. والريح تمزقه وتذروه وتنسفه في اليم. وكما أرىٰ الأصنام في الدنيا صورها مكسرة مخردلة ملقاة بالأمكنة القذرة، ومعاول الموحدين قد هشمت منها تلك الوجوه، وكسرت تلك الرءوس، وقطعت تلك الأيدي

والأرجل، التي كانت لا يوصل إليها بغير التقبيل والاستلام. وهذه سنة الله التي لا تبدل، وعادته التي لا تحول: أنه يُري عابد غيره حال معبوده في الدنيا والآخرة، وإن كان المعبود غير راض بعبادة غيره، ويريه تبريه منه، ومعاداته له أحوج ما يكون إليه: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]. ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين:

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملك الأعلى إليك رسائل

وقد خط فيها ـ لو تأملت خطها ـ ... ألا كل شيء ما خلا الله باطل[1]

ولو شاء تعالى لأبقى القمر على حالة واحدة لا يتغير، وجعل التغيير في الشمس. ولو شاء لغيرهما معًا. ولو شاء لأبقاهما على حالة واحدة. ولكن يري عباده آياته في أنواع تصاريفها ليدلهم على أنه الله الذي لا إله إلا هو الملك الحق المبين، الفعال لما يريد: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وأما تأثير القمر في ترطيب أبدان الحيوان والنبات، وفي المياه، وجزر البحر ومده، وبحرانات الأمراض، وتنقلها من حال إلى حال، وغير ذلك من المنافع، فأمر ظاهر.

وأما إقسامه سبحانه بـ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣] فلما في إدباره وإقبال النهار من أبين الدلالات الظاهرة على المبدأ والماد، فإنه مبدأ ومعاد يومي مشهود بالعيان، بينما الحيوان في سكون الليل هد هدأت حركاتهم، وسكنت أصواتهم، ونامت عيونهم، وصاروا إخوان الأموات، إذ أقبل من النهار داعيه، وأسمع الخلائق مناديه، فانتشرت منهم الحركات، وارتفعت منهم الأصوات، حتى كأنهم قاموا أحياء من القبور، يقول قائلهم «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور». فهو معاد جديد بدأه وأعاده الذي يبدئ ويعيد. فمن ذهب بالليل وجاء بالنهار سوى الواحد القهار.

---

(١) هذان البيتان من بحر الطويل، وعجز البيت الثاني صدر بيت لبيد بن ربيعة العامري وعجزه: كل نعيم لا محالة زائل. وقد قال فيه رسول الله ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل». أخرجه البخاري (رقم ٣٨٤١) ومسلم (رقم ٢٢٥٦).

فمن تأمل حال الليل إذا عسعس وأدبر، والصبح إذا تنفس وأسفر، فهزم جيوش الظلام بنفسه، وأضاء أفق العالم بقبسه، وفل كتائب الكواكب بعساكره، وأضحك نواحي الأرض بتباشيره وبشائره. فيا لهما آيتان شاهدتان بوحدانية منشئهما، وكمال ربوبيته، وعظم قدرته وحكمته. فتبارك الذي جعل طلوع الشمس وغروبها مقيمًا لسلطان الليل والنهار. فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كله، فكيف كان الناس يسعون في معاشهم؟ ويتصرفون في أمورهم؟ والدنيا مظلمة عليهم؟ وكيف كانت تهنيهم الحياة مع فقد لذة النور وروحه؟ وأي ثمار ونبات وحيوان كان يوجد؟ وكيف كانت تتم مصالح أبدان الحيوان والنبات؟ ولولا غروبها لم يكن للناس هدو ولا قرار، مع علم حاجتهم إلى الهدو لراحة أبدانهم وجموم حواسهم. فلولا جثوم هذا الليل عليهم بظلمته ما هدأوا ولا قروا ولا سكنوا، بل جعله أحكم الحاكمين سكنًا ولباسًا، كما جعل النهار ضياءً ومعاشًا.

ولولا الليل وبرده لاحترقت أبدان النبات والحيوان من دوام شروق الشمس عليها، وكان يحرق ما عليها من نبات وحيوان، فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن جعلها سراجًا يطلع على العالم في وقت حاجتهم إليه، ويغيب في وقت استغنائهم عنه. فطلوعه لمصلحتهم، وغيبته لمصلحتهم، وصار النور والظلمة على تضادهما متعاونين متضافرين على مصلحة هذا العالم وقوامه. فلو جعل الله ـ سبحانه ـ النهار سرمدًا إلى يوم القيامة، والليل سرمدًا إلى يوم القيامة لفاتت مصالح العالم، واشتدت الضرورة إلى تغيير ذلك وإزالته بضده.

وتأمل حكمته ـ سبحانه ـ في ارتفاع الشمس، وانخفاضها لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة، وما في ذلك من مصالح الخلق. ففي الشتاء تغور الحرارة في الشجر والنبات، فيتولد منها مواد الثمار، ويكثف الهواء، فينشأ منه السحاب، وينعقد فيحدث المطر الذي به حياة الأرض ونماء أبدان الحيوان والنبات، وحصول الأفعال والقوى وحركات الطبائع. وفي الصيف يخرم الهواء، فينضج الثمار، وتشتد الحبوب، ويجفف

وجه الأرض، فيتهيأ العمل. وفي الخريف يصفو الهواء، وتبرد الحرارة، ويمتد الليل، وتستريح الأرض والشجر للحمل والنبات مرة ثانية، بمنزلة راحة الحامل بين الحملين؛ ففي هذه الأزمنة مبدأ ومعاد مشهود، وشاهد بالمبدأ والمعاد الغيبي.

والمقصود أن بحركة هذين النيرين تتم مصالح العالم، وبذلك يظهر الزمان، فإن الزمان مقدار الحركة. فالسنة الشمسية مقدار سير الشمس من نقطة الحمل إلىٰ مثلها. والسنة القمرية مقدرة بسير القمر، وهو أقرب إلىٰ الضبط. واشترك الناس في العلم به، وقدر أحكم الحاكمين تنقلهما في منازلهما، لما في ذلك من تمام الحكمة ولطف التدبير. فإن الشمس لو كانت تطلع وتغرب في موضع واحد لا تتعداه لما وصل ضوؤها وشعاعها إلىٰ كثير من الجهات، فكان نفعها يفقد هناك، فجعل الله ـ سبحانه ـ طلوعها دولًا بين الأرض، لينال نفعها وتأثيرها البقاع، فلا يبقىٰ موضع من المواضع التي يمكن أن تطلع عليها إلا أخذ بقسطه من نفعها. واقتضىٰ هذا التدبير المحكم أن وقع مقدار الليل والنهار علىٰ أربعة وعشرين ساعة، ويأخذ كل منهما من صاحبه، ومنتهىٰ كل منهما إذا امتد خمسة عشر ساعة.

فلو زاد مقدار النهار علي ذلك إلىٰ خمسين ساعة مثلًا أو أكثر لاختل نظام العالم وفسد أكثر الحيوان والنبات ولو نقص مقداره عن ذلك لاختل النظام أيضًا وتعطلت المصالح، ولو استويا دائمًا لما اختلفت فصول السنة التي باختلافها مصالح العباد والحيوان. فكان في هذا التقدير والتدبير المحكم من الآيات والمصالح والمنافع ما يشهد بأن ذلك تقدير العزيز العليم.

ولهذا يذكر سبحانه هذا التقدير ويضيفه إلىٰ عزته وعلمه، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [يس: ٣٧، ٣٨]. وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ

دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [فصلت: ٩- ١٢]. وقال تعالى: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام: ٩٦].

فهذه ثلاثة مواضع يذكر فيها أن تقدير حركات الشمس والقمر والأجرام العلوية وما ينشأ عنها كان من مقتضى عزته وعلمه، وأنه قدره بهاتين الصفتين. وفي هذا تكذيب لأعداء الله الملاحدة الذين ينفون قدرته واختياره، وعلمه بالمغيبات.

وأقسم سبحانه بهذه الأشياء الثلاثة وهي: القمر، والليل إذا أدبر، والصبح إذا أسفر، على المعاد لما في القسم من الدلالة على ثبوت المقسم عليه، فإنه يتضمن كمال قدرته وحكمته، وعنايته بخلقه، وإبداء الخلق وإعادته، كما هو مشهود في إبداء النهار والليل وإعادتهما، وفي إبداء النور وإعادته في القمر، وفي إبداء الزمان وإعادته الذي هو حاصل بسير الشمس والقمر، وإبداء الحيوان والنبات وإعادتهما، وإبداء فصول السنة وإعادتها، وإبداء ما يحدث في تلك الفصول وإعادته، فكل ذلك دليل ظاهر على المبدأ والمعاد الذي أخبرت به الرسل كلهم عنه.

فصرف سبحانه الآيات الدالة على صدق رسله ونوعها، جعلها للفطر تارة، وللسمع تارة، وللمشاهدة تارة، فجعلها آفاقية، ونفسية، منقولة، ومعقولة، ومشهودة بالعيان، ومذكورة بالجنان، فأبى الظالمون إلا كفورًا ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣].

ولما أقام الحجة وبيّن المحجة ارتهن كل نفس بكسبها، وآخذها بذنبها، واستثنى من أولئك من قبل هداه واتبع رضاه، وهم أصحاب اليمين الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين. وسلكوا غير سبيل المجرمين، الذين ليسوا من المصلين، ولا من مطعمي المسكين، وهم من أهل الخوض مع الخائضين، المكذبين بيوم الدين. فهذه أربع

صفات أخرجتهم من زمرة المفلحين وأدخلتهم في جملة الهالكين:

(الأول): ترك الصلاة، وهي عمود الإخلاص للمعبود. (الثانية): ترك إطعام المسكين الذي هو من مراتب الإحسان للعبيد، فلا إخلاص للخالق ولا إحسان للمخلوق، كما قال تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ [الماعون: ٦، ٧]. وقال: ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ [التوبة: ٥٤]. وهذا ضد ما وصف به أصحاب اليمين بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ ﴾ [الأنفال: ٣]. وقال: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦]. وقرن سبحانه بين هذين الأصلين في غير موضع في كتابه: فأمر بهما تارة، وأثنى على فاعليهما تارة، وتوعد بالويل والعقاب تاركهما تارة، فإن مدار النجاة عليهما، ولا فلاح لمن أخل بهما.

الصفة الثالثة والرابعة: الخوض بالباطل والتكذيب بالحق، فاجتمع لهم عدم الإخلاص والإحسان، والخوض بالباطل والتكذيب بالحق، واجتمع لأصحاب (اليمين) الإخلاص، والإحسان والتصديق بالحق، والتكلم به، فاستقام إخلاصهم وإحسانهم ويقينهم وكلامهم. واستبدل أصحاب الشمال بالإخلاص شركًا، وبالإحسان إساءة، وباليقين شكًا وتكذيبًا، وبالكلام النافع خوضًا في الباطل. فلذلك لم تنفعهم شفاعة الشافعين، أي: لم يكن لهم من شفيع فيهم، لأن الشفاعة تقع فيهم ولا تنفع، وهذا لما أعرضوا عن التذكرة ولم يرفعوا بها رأسًا، وجفلوا عن سماعها كما تجفل حمر الوحش من الأسد أو من الرماة.

ثم ختم السورة بأنه جمع فيها بين شرعه وقدره، وإقامة الحجة عليهم بإثبات المشيئة لهم، وبيان مقتضى التوحيد والربوبية، وأن ذلك إليه لا إليهم، فالأول عدله، والثاني فضله، فالأول يوجب السعي والطلب والحرص على ما ينجيهم، كما يفعلون ذلك في مصالح دنياهم، بل أشد. والثاني يوجب الاستعانة والتوكل والتفويض والرغبة إلى من ذلك بيده ليسهل لهم ويوفقهم. والله المستعان وعليه التكلان.

[(١)] لله على العبد في كل عضو من أعضائه أمر، وله عليه فيه نهي، وله فيه نعمة وله به منفعة ولذة؛ فإن قام لله في ذلك العضو بأمره واجتنب فيه نهيه، فقد أدى شكر نعمته عليه فيه، وسعى في تكميل انتفاعه ولذته به، وإن عطل أمر الله ونهيه فيه، عطله الله من انتفاعه بذلك العضو، وجعله من أكبر أسباب ألمه ومضرته، وله عليه في كل وقت من أوقاته عبودية تقدمه إليه وتقربه منه، فإن شغل وقته بعبودية الوقت، تقدم إلى ربه، وإن شغله بهوى أو راحة وبطالة، تأخر، فالعبد لا يزال في تقدم أو تأخر، ولا وقوف في الطريق البتة. قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧].

[(٢)] والقصد: إن إضاعة الوقت الصحيح يدعو إلى درك النقيصة، إذ صاحب حفظه مترق على درجات الكمال. فإذا أضاعه لم يقف موضعه، بل ينزل إلى درجات من النقص، فإن لم يكن في تقدم فهو متأخر ولابد. فالعبد سائر لا واقف. فإما إلى فوق. وإما إلى أسفل. إما إلي أمام وإما إلى وراء. وليس في الطبيعة، ولا في الشريعة وقوف البتة. ما هو إلا مراحل تطوى أسرع طي إلى الجنة أو إلى النار، فمسرع ومبطئ. ومتقدم ومتأخر. وليس في الطريق واقف البتة.وإنما يتخالفون في جهة المسير. وفي السرعة والبطء: ﴿إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ۝ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ ۝ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٥- ٣٧] ولم يذكر واقفًا. إذ لا منزل بين الجنة والنار. ولا طريق لسالك إلى غير الدارين البتة. فمن لم يتقدم إلى هذه بالأعمال الصالحة، فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة.

فإن قلت: كل مجد في طلب شيء لابد أن يعرض له وقفة وفتور. ثم ينهض إلى طلبه، قلت: لابد من ذلك. ولكن صاحب الوقفة له حالان: إما أن يقف ليجم نفسه، ويعدها للسير. فهذا وقفة سير، ولا تضره الوقفة. فإن «لكل عمل شرة، ولكل شرة فترة»[(٣)].

(١) ١٩٢ فوائد.

(٢) ٢٦٧ مدارج جـ١.

(٣) أخرجه ابن حبان (١/ ١٨٧ رقم ١١) وابن خزيمة (٣/ ٢٩٣ رقم ٢١٠٥) وأحمد (٢/ ١٨٨، ٢١٠) والطبراني في الكبير (٢/ ٢٨٤ رقم ٢١٨٦) والبزار (٦/ ٣٣٩ رقم ٢٣٤٦) وقال الهيثمي في المجمع =

وإما أن يقف لداع دعاه من ورائه. وجاذب جذبه من خلفه. فإن أجابه أخره ولا بد. فإن تداركه الله برحمته، وأطلعه على سبق الركب له وعلى تأخره. نهض نهضة الغضبان الآسف على الانقطاع. ووثب وجمز واشتد سعيًا ليلحق الركب. وإن استمر مع داعي التأخر. وأصغى إليه لم يرض برده إلى حالته الأولى من الغفلة، وإجابة داعي الهوى، حتى يرده إلى أسوأ منها وأنزل دركًا. وهو بمنزلة النكسة الشديدة عقيب الإبلال من المرض. فإنها أخطر منه وأصعب.

والجملة: فإن تدارك الله ﷻ هذا العبد بجذبة منه من يد عدوه، وتخليصه. وإلا فهو في تأخر إلى الممات. راجع القهقرى، ناكص على عقبيه، أو مول ظهره. ولا قوة إلا بالله. والمعصوم من عصمه الله.

***

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾
عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ
نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ
أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾.

[(١)]لا يخلو إما أن يكون كل واحد من هذه الخصال هو الذي سلكهم في سقر، وجعلهم من المجرمين أو مجموعها. فإن كان كل واحد منها مستقلًا بذلك فالدلالة ظاهرة، وإن كان مجموع الأمور الأربعة فهذا إنما هو لتغليظ كفرهم وعقوبتهم، وإلا فكل واحد منها مقتض للعقوبة، إذ لا يجوز أن يضم ما لا تأثير له في العقوبة إلى ما هو مستقل بها.

=
(٢/ ٢٥٩): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح. وقال في موضع آخر (٣/ ١٩٣): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(١) ١٦ الصلاة.

ومن المعلوم أن ترك الصلاة وما ذكر معه ليس شرطًا في العقوبة على التكذيب بيوم الدين، بل هو وحده كاف في العقوبة، فدل على أن كل وصف ذكر معه كذلك، إذ لا يمكن قائلًا أن يقول: لا يعذب إلا من جمع هذه الأوصاف الأربعة، فإذا كان كل واحد منها موجبًا للإجرام - وقد جعل الله سبحانه المجرمين ضد المسلمين - كان تارك الصلاة من المجرمين السالكين في سقر.

وقد قال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر: ٤٧، ٤٨]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴾ [المطففين: ٢٩]. فجعل المجرمين ضد المؤمنين المسلمين.

(١) ونظير هذا قول أهل النار لأهل الجنة وقد سألوهم كيف دخلوها؟ ﴿ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ ﴾ فذكروا الأصلين الخوض بالباطل وما يتبعه من التكذيب بيوم الدين. وإيثار الشهوات وما يستلزمه من ترك الصلوات وإطعام ذوي الحاجات، فهذان الأصلان هما ما هما، والله ولي التوفيق.

***

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝ ﴾.

(٢) قوله تعالى في تشبيه من أعرض عن كلامه وتدبره: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝ ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١] شبههم في إعراضهم ونفورهم عن القرآن بحمر رأت الأسد أو الرماة ففرت منه، وهذا من بديع القياس والتمثيل، فإن القوم في جهلهم بما بعث الله به ورسوله كالحمر، وهي لا تعقل شيئًا، فإذا سمعت صوت الأسد أو الرامي نفرت منه أشد النفور، وهذا غاية

(١) ٤١ مفتاح جـ١.
(٢) ١٦٤ أعلام جـ١.

الذم لهؤلاء، فإنهم نفروا عن الهدىٰ الذي فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عمَّا يهلكها ويعقرها، وتحت المستنفرة معنىٰ أبلغ من النافرة؛ فإنها لشدة نفورها قد استنفر بعضها بعضًا وحضه علىٰ النفور، فإن في الاستفعال من الطلب قدرًا زائدًا علىٰ الفعل المجرد، فكأنها تواصت بالنفور، وتواطأت عليه، ومن قرأها بفتح الفاء فالمعنىٰ أن القسورة استنفرها وحملها علىٰ النفور ببأسه وشدته.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المدثر

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

سُورَةُ القِيَامَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝﴾.

[(١)]قد تضمن الإقسام ثبوت الجزاء، ومستحق الجزاء، وذلك يتضمن إثبات الرسالة، والقرآن، والمعاد. وهو سبحانه يقسم على هذه الأمور الثلاثة، ويقررها أبلغ التقرير، لحاجة النفوس إلى معرفتها، والإيمان بها. وأمر رسوله أن يقسم عليها، كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾ [يونس: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ [سبأ: ٣]. وقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن: ٧]. فهذه ثلاثة مواضع لا رابع لها، يأمر نبيه ﷺ أن يقسم على ما أقسم عليه هو سبحانه من النبوة والقرآن والمعاد.

فأقسم سبحانه لعباده، وأمر أصدق خلقه أن يقسم لهم، وأقام البراهين القطعية على ثبوت ما أقسم عليه، فأبى الظالمون إلا جحودًا وتكذيبًا.

واختلف في النفس المقسم بها ههنا، هل هي خاصة أو عامة؟ على قولين، بناء على الأقوال الثلاثة في اللوامة: فقال ابن عباس: كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة، يلوم المحسن نفسه أن لا يكون ازداد إحسانًا. ويلوم المسي نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته، واختاره الفراء. قال: ليس من نفس، برة ولا فاجرة، إلا وهي تلوم نفسها. إن كانت عملت خيرًا قالت: هلا ازددت خيرًا؟ وإن كان عملت سوءًا قالت: يا ليتني لم أفعل.

والقول الثاني: إنها خاصة، قال الحسن: هي النفس المؤمنة، وأن المؤمن ـ والله ـ

(١) ١٠ التبيان.

لا تراه إلا يلوم نفسه على كل حالة، لأنه يستقصرها في كل ما تفعل، فيندم ويلوم نفسه، وإن الفاجر يمضي قدمًا، لا يعاتب نفسه.

والقول الثالث: إنها النفس الكافرة وحدها، قاله قتادة ومقاتل. وهي النفس الكافرة تلوم نفسها في الآخرة على ما فرطت في أمر الله.

قال شيخنا: والأظهر أن المراد نفس الإنسان مطلقًا. فإن نفس كل إنسان لوامة، كما أقسم بجنس النفس في قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨] فإنه لابد لكل إنسان أن يلوم نفسه أو غيره على أمره. ثم هذا اللوم قد يكون محمودًا وقد يكون مذمومًا، كما قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ۝ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ [القلم: ٣٠، ٣١]. وقال تعالى: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]. فهذا اللوم غير محمود. وفي الصحيحين في قصة احتجاج آدم وموسى: «أتلومني على أمر قدره الله عليَّ قبل أن أخلق؟» فحج آدم موسى، فهو سبحانه يقسم على صفة النفس اللوامة كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦] وعلى جزائها كقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]. وعلى تباين عملها كقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤] وكل نفس لوامة، فالنفس السعيدة تلوم على فعل الشر وترك الخير، فتبادر إلى التوبة، والنفس الشقية بالضد من ذلك.

وجمع سبحانه في القسم بين محل الجزاء وهو يوم القيامة ومحل الكسب، وهو النفس اللوامة، ونبه سبحانه بكونها لوامة على شدة حاجتها وفاقتها وضرورتها إلى من يعرفها الخير والشر، ويدلها عليه، ويرشدها إليه، ويلهمها إياه فيجعلها مريدة للخير، مرشدة له، كارهة للشر مجانبة له، لتخلص من اللوم ومن شر ما تلوم عليه. ولأنها متلومة مترددة، لا تثبت على حال واحدة، فهي محتاجة إلى من يعرفها ما هو أنفع لها في معاشها ومعادها فتؤثره، وتلوم نفسها عليها إذا فاتها فتتوب منه إن كانت سعيدة، ولتقوم عليها حجة عدله فيكون لومها في القيامة لنفسها عليه لومًا بحق، قد أعذر الله

خالقها وفاطرها إليها فيه، ففي صفة اللوم تنبيه على ضرورتها إلى التصديق بالرسالة والقرآن، وإنها لا غنى لها عن ذلك، ولا صلاح، ولا فلاح بدونه البتة، ولما كان يوم معادها هو محل ظهور هذا اللوم وترتب أثره عليه قرن بينهما في الذكر.

قال ابن عبدالبر: هذا الحديث أصل عظيم لأهل الحق في إثبات القدر، وأن الله قضى أعمال العباد، فكل أحد يصير لما قدر له مما سبق في علم الله، وليس فيه حجة للجبرية وإن كان في بادئ الرأي يساعدهم، وقال القرطبي: إنما غلبه بالحجة، لأنه علم من التوراة أن الله تاب عليه. فكان لومه على ذلك نوع جفاء، قال الحافظ: وقد أنكر القدرية الحديث، لأن صريح في إثبات القدر السابق، وتقرير النبي ﷺ لآدم على الاحتجاج به وشهادته بأن غلب موسى، وقد أطال الحافظ في الجواب على ذلك من وجوه عدة: منها ما قال ابن عبدالبر: هذا مخصوص بآدم، لأن المناظرة وقعت بينهما بعد أن تاب الله عليه، قال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِ ﴾ [البقرة: ٣٧] فحسن منه أن ينكر على موسى لومه، وإلا فلا يجوز لأحد أن يقول لمن لامه على ارتكاب المعصية: هذا سبق في علم الله وقدره قبل أن يخلقني، فإن الأمة اجتمعت على لوم من وقعت منه المعصية[(١)].

[(٢)]قوله تعالى: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝ ﴾ [القيامة: ١-٢]. وقد تقدم ذكر هذين القسمين ومناسبة الجمع بينهما في الذكر، وكون الجواب غير مذكور، وأنه يجوز أن يكون مما حذف لدلالة السياق عليه والعلم به، ويجوز أن يكون من القسم المقصود به التنبيه على دلالة المقسم به، وكونه آية، ولم يقصد به مقسمًا عليه معينًا. فكأنه يقول: اذكر يوم القيامة والنفس اللوامة مقسمًا بها لكونها من آياتنا وأدلة ربوبيتنا.

---

(١) انظر: فتح الباري (١١/ ٥٠٩-٥١٠)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٥٦)، وتحفة الأحوذي (٦/ ٢٨٢).

(٢) ٩٢ التبيان.

[١]وقع في كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاث أنفس: نفس مطمئنة، ونفس لوامة، ونفس أمارة، وأن منهم من تغلب عليه هذه، ومنهم من تغلب عليه الأخرى، ويحتجون على ذلك بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ [الفجر: ٢٧] وبقوله تعالى: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ وبقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف: ٥٣]. والتحقيق أنها نفس واحدة، ولكن لها صفات، فتسمى باعتبار كل صفة باسم، فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه والرضا به والسكون إليه...

[٢]أما اللوامة فاختلف في اشتقاق هذه اللفظة، هل هي من التلوم، وهو التلون والتردد، أو هي من اللوم؟ وعبارات السلف تدور على هذين المعنيين. قال سعيد بن جبير: «قلت لابن عباس: ما اللوامة؟ قال: هي النفس اللؤوم». وقال مجاهد: «هي التي تندم على ما فات وتلوم عليه». وقال قتادة: «هي الفاجرة» وقال عكرمة: «تلوم على الخير والشر. وقال عطاء عن ابن عباس: «كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة، تلوم المحسن نفسه أن لا يكون ازداد إحسانًا، وتلوم المسيء نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته»[٣]. وقال الحسن: «إن المؤمن ـ والله ـ ما تراه إلا يلوم نفسه على كل حالاته، يستقصرها في كل ما يفعل فيندم ويلوم نفسه، وإن الفاجر ليمضي قدمًا لا يعاتب نفسه»[٤]... فهذا عبارات من ذهب إلى أنها من اللوم.

وأما من جعلها من التلوم فلكثرة ترددها وتلومها، وأنها لا تستقر على حال واحدة. والأول أظهر؛ فإن هذا المعنى لو أريد لقيل: المتلومة. كما يقال: المتلونة والمترددة.

---

(١) ٢٦٧ الروح.

(٢) ٧٧ إغاثة جـ١.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٩/ ١٧٢-١٧٦) وتفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٨٦) وتفسير السيوطي (٨/ ٣٤٢-٣٤٣) وتفسير ابن كثير (٤/ ٤٤٨-٤٤٩).

(٤) أخرجه أحمد في الزهد (ص ٢٨١).

ولكن هو من لوازم القول الأول، فإنها لتلومها وعدم ثباتها تفعل الشيء ثم تلوم عليه. فالتلوم من لوازم اللوم.

والنفس قد تكون تارة أمارة، وتارة لوامة، وتارة مطمئنة، بل في اليوم الواحد والساعة الواحدة يحصل منها هذا وهذا. والحكم للغالب عليها من أحوالها، فكونها مطمئنة وصف مدح لها. وكونها أمارة بالسوء وصف ذم لها. وكونها لوامة ينقسم إلى المدح والذم، بحسب ما تلوم عليه.

والمقصود: ذكر علاج مرض القلب باستيلاء النفس الأمارة عليه. وله علاجان: محاسبتها، ومخالفتها، وهلاك القلب من إهمال محاسبتها، ومن موافقتها واتباع هواها، وفي الحديث الذي رواه أحمد وغيره من حديث شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت. والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمني على الله**»[(١)] دان نفسه: أي حاسبها.

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية»[(٢)].

وذكر أيضًا عن الحسن قال: لا تلقى المؤمن إلا يحاسب نفسه: ماذا أردت تعملين؟ وماذا أردت تأكلين؟ وماذا أردت تشربين، والفاجر يمضي قدمًا لا يحاسب نفسه».

[(٣)]وأما النفس اللوامة وهي التي أقسم بها سبحانه في قوله: ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٤) والحاكم (١/ ١٢٥ رقم ١٩١) وابن ماجه (رقم ٤٢٦٠) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٣٦٩ رقم ٦٣٠٦) والترمذي (رقم ٢٤٥٩) والطبراني في الصغير (رقم ٨٦٣) وفي الكبير (٧/ ٢٨١ رقم ٧١٤١) وفي مسند الشاميين (١/ ٢٦٦ رقم ٤٦٣) والبزار (٨/ ٤١٧ رقم ٣٤٨٩) والطيالسي (رقم ١١٢٢) وحسنه الترمذي وصححه الحاكم وانظر: فتح الباري (٩/ ٣٤٢).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٤٥٩) وابن أبي شيبة (٧/ ٩٦ رقم ٣٤٤٥٩) وابن المبارك في الزهد (رقم ٣٠٦) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤٤/ ٣١٤).

(٣) ٢٧٤ الروح.

ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]. فاختلف فيها فقالت طائفة: هي التي لا تثبت على حال واحدة، أخذوا اللفظة من التلوم، وهو التردد، فهي كثيرة التقلب والتلون، وهي من أعظم آيات الله، فإنها مخلوق من مخلوقاته تتقلب، وتتلون في الساعة الواحدة فضلًا عن اليوم والشهر والعام، والعمر ألوانًا متلونة، فتذكر، وتغفل، وتقبل، وتعرض، وتلطف، وتكشف،وتنيب، وتجفو، وتحب، وتبغض، وتفرح، وتحزن، وترضى، وتغضب، وتطيع، وتعصي، وتتقي، وتفجر، إلى أضعاف أضعاف ذلك من حالاتها وتلونها فهي تتلون كل وقت ألوانًا كثيرة، فهذا قول.

وقالت طائفة: اللفظة مأخوذة من اللوم ثم اختلفوا، فقالت فرقة: هي نفس المؤمن، وهذا من صفاتها المجردة، قال الحسن البصري: إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه دائمًا يقول: ما أردت بهذا؟ لم فعلت هذا؟ كان غير هذا أولى أو نحوه هذا من الكلام.

وقال غيره: هي نفس المؤمن توقعه في الذنب ثم تلومه عليه، فهذا اللوم من الإيمان، بخلاف الشقي فإنه لا يلوم نفسه على ذنب، بل يلومها وتلومه على فواته. وقالت طائفة: بل هذا اللوم للنوعين فإن كل أحد يلو م نفسه برًا كان أو فاجرًا، فالسعيد يلومها على ارتكاب معصية الله وترك طاعته، والشقي لا يلومها إلا على فوات حظها وهواها.

وقالت فرقة أخرى هذا اللوم يوم القيامة، فإن كل أحد يلوم نفسه إن كان مسيئًا على إساءته وإن كان محسنًا على تقصيره.

وهذه الأقوال كلها حق، ولا تنافي بينها، فإن النفس موصوفة بهذا كله، وباعتباره سميت لوامة. لكن اللوامة نوعان: لوامة ملومة وهي النفس الجاهلة الظالمة التي يلومها الله وملائكته، ولوامة غير ملومة وهي التي لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره في طاعة الله مع بذله جهده فهذه غير ملومة، وأشرف النفوس من لامت نفسها في طاعة الله واحتملت ملام اللائمين في مرضاته، فلا تأخذها فيه لومة لائم. فهذه قد

تخلصت من لوم الله، وأما من رضيت بأعمالها ولم تلم نفسها ولم تحتمل في الله ملام اللوام، فهي التي يلومها الله ﷻ[١].

***

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾.

[٢]ثم أنكر على الإنسان بعد هذه الآية حسبانه وظنه: أن الله لا يجمع عظامه بعد ما فرقها البلى. ثم أخبر سبحانه عن قدرته على جمع غيرها من عظامه. وعلى هذا فيكون سبحانه قد احتج على فعله لما أنكره أعداؤه بقدرته عليه. وأخبر عن فعله بأنه لا يلزمهم من القدرة وقوع المقدور. والمعنى: بل نجمعها قادرين على تسوية بنانه. ودل على هذا المعنى المحذوف قوله (بلى) فإنها حرف إيجاب لما تقدم من النفي. فلهذا يستغنى عن ذكر الفعل بذكر الحرف الدال عليه. فدلت الآية على الفعل، وذكرت القدرة لإبطال قول المكذبين.

وفي ذكر البنان لطيفة أخرى، وهي أنها أطرافه، وآخر ما يتم به خلقه. فمن قدر على جمع أطرافه وآخر ما يتم به خلقه، مع دقتها وصغرها ولطافتها، فهو على ما دون ذلك أقدر، فالقوم لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والإرمام، قيل: إنا نجمع ونسوي أكثرها تفرقًا، وأدقها أجزاء، وآخر أطراف البدن، وهي عظام الأنامل ومفاصلها.

وقالت طائفة: المعنى قادرون على أن نسوي أصابع يديه ورجليه، ونجعلها مستوية شيئًا واحدًا كخف البعير، وحافر الحمار لا نفرق بينهما، ولا يمكنه أن يعمل بها شيئًا مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال والبسط والقبض والتأتي لما يريد من الحوائج. وهذا قول ابن عباس وكثير من المفسرين. والمعنى على هذا القول: إنا في الدنيا قادرون على أن نجعل عظام بنانه

---

(١) تقدم البحث في سورة يوسف في الكلام على النفس الأمارة. (ج).

(٢) ٩٣ التبيان.

مجموعة دون تفرق، فكيف لا نقدر على جمعها بعد تفريقها.

فهذا وجه من الاستدلال غير الأول. وهو الاستدلال بقدرته سبحانه على جمع العظام التي فرقها. ولم يجمعها، والأول استدلال بقدرته سبحانه على جمع عظامه بعد تفريقها، وهما وجهان حسنان، وكل منهما له ترجيح من وجه، فيرجع الأول أنه هو المقصود، وهو الذي أنكره الكفار، وهو إجراء على نسق الكلام واطراده، ولأن الكلام لم يسق لجمع العظام وتفريقها في الدنيا، وإنما سيق لجمعها في الآخرة بعد تفرقها بالموت. ويرجع القول الثاني ـ ولعله قول جمهور المفسرين، حتى إن فيهم من لم يذكر غيره ـ وأنه استدلال بآية ظاهرة مشهورة، وهي تفريق البنان مع انتظامها في كف واحد. وارتباط بعضها ببعض، فهي متفرقة في عضو واحد، يقبض منها واحدة ويبسط أخرى، ويحرك واحدة والأخرى ساكنة، ويعمل بواحدة والأخرى معطلة، وكلها في كف واحد، قد جمعها ساعد واحد، فلو شاء ـ سبحانه ـ لسواها فجعلها صفة واحدة كباطن الكف، ففاته هذه المنافع والمصالح التي حصلت بتفريقها. ففي هذا أعظم الأدلة على قدرته سبحانه على جمع عظامه بعد الموت.

ثم أخبر سبحانه عن سوء حال الإنسان وإصراره على المعصية والفجور، وأنه لا يرعوي ولا يخاف يومًا يجمع الله فيه عظامه ويبعثه حيًا، بل هو مريد للفجور ما عاش، فيفجر في الحال، ويريد الفجور في غد وما بعده. وهذا ضد الذي يخاف الله والدار الآخرة، فهذا لا يندم على ما مضى منه ولا يقلع في الحال، ولا يعزم في المستقبل على الترك، بل هو عازم على الاستمرار، وهذا ضد التائب المنيب.

ثم نبه سبحانه على الحامل له على ذلك، وهو استبعاده ليوم القيامة وليس هذا استبعادًا لزمته مع إقراره بوقوعه. بل هو استبعاد لوقوعه كما حكى عنه في موضع آخر قوله: ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾ [ق: ٣] أي بعيد وقوعه، وليس المراد أنه واقع بعيد زمنه. هذا قول جماعة من المفسرين، منهم ابن عباس وأصحابه. قال ابن عباس: يقدم الذنب ويؤخر التوبة. وقال قتادة، وعكرمة: قدمًا قدمًا في معاصي الله، لا ينزع عن فجوره.

وفي الآية قول آخر، وهو أن المعنى بل يريد الإنسان ليكذب بما أمامه من البعث ويوم القيامة. وهذا قول ابن زيد، واختيار ابن قتيبة وأبي إسحاق قال هؤلاء: ودليل ذلك قوله: ﴿ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [القيامة: ٦] ويرجح هذا القول لفظة (بل)، فإنها تعطي أن الإنسان لم يؤمن بيوم القيامة مع هذا البيان والحجة، بل هو مريد التكذيب به، ويرجحه أيضًا أن السياق كله في ذم الكذب بيوم القيامة لا في ذم العاصي والفاجر، وأيضًا فإن ما قبل الآية وما بعدها يدل على المراد. فإنه قال: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝ ﴾ [القيامة: ٣-٤]. فأنكر سبحانه عليه حسبانه أن الله لا يجمع عظامه. ثم قرر قدرته على ذلك. ثم أنكر عليه إرادة التكذيب بيوم القيامة. فالأول حسبان منه لا يحييه بعد موته، والثاني: تكذيب منه بيوم البعث، وأنه يريد أن يكذب بما وضح وبان دليل وقوعه وثبوته، فهو مريد للتكذيب به.

ثم أخبر عن تصريحه بالتكذيب، فقال: ﴿ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [القيامة: ٦]. فالأول إرادة التكذيب، والثاني: نطق بالتكذيب وتكلم به. وهذا قول قوي كما ترى. لكن ينبغي إفراغ هذه الألفاظ في قوالب هذا المعنى. فإن لفظه (يفجر) إنما تدل على عمل الفجور لا على التكذيب وحذف الموصول مع ما جره وإبقاء الصلة خلاف الأصل. فإن أصحاب هذا القول قالوا: تقديره ليكفر بما أمامه. وهذا المعنى صحيح لكن دلالة هذا الفظ عليه ليست بالبينة.

فالجواب: أن الأمر كذلك لكن الفعل إذا ضمن معنى فعل آخر لم يلزم إعطاؤه حكمه من جميع الوجوه، بل من جلالة هذه اللغة العظيمة الشأن وجزالتها أن يذكر المتكلم فعلًا، وما يضمنه معنى فعل آخر، ويجري على المضمن أحكامه لفظًا وأحكام الفعل الآخر معنى، فيكون في قوة ذكر الفعلين مع غاية الاختصار. ومن تدبر هذا وجده كثيرًا في كلام الله تعالى.

فلفظ (يفجر) اقتضت (أمامه) بلا واسطة حرف ولا اسم موصول، فأعطيت ما

اقتضته لفظًا، واقتضى ما تضمنه الفعل من ذكر الحرف والموصول، فأعطيته معنى. فهذا وجه هذا القول لفظًا ومعنى. والله علم.

***

﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝ ﴾.

أخبر سبحانه عن حال هذا الإنسان إذا شاهد اليوم الذي كذب بـه، فقال: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝ ﴾ [القيامة: ٧- ١٠] فبرق بصره أي: يشخص بما يشاهده من العجائب التي كان يكذب بها، وخسف القمر ذهب ضوؤه وانمحى، وجمع الشمس والقمر، ولم يجتمعا قبل ذلك، بل يجمعهما الذي يجمع عظام الإنسان بعد ما فرقها البلى ومزقها، ويجمع للإنسان يومئذ جميع عمله الذي قدمه وأخره من خير أو شر. ويجمع ذلك من جمع القرآن في صدر رسوله. ويجمع المؤمنين في دار الكرامة فيكرم وجوههم بالنظر إليه، ويجمع المكذبين في دار الهوان، وهو قادر على ذلك كله، كما جمع خلق الإنسان من نطفة من منيٍّ يمنى، ثم جعله علقة مجتمعة الأجزاء بعد ما كانت نطفة متفرقة في جميع بدن الإنسان. وكما يجمع بين الإنسان وملك الموت، ويجمع بين الساق والساق: إما ساق الميت أو ساق من يجهز بدنه من البشر، ومن يجهز روحه من الملائكة، أو يجمع عليه شدائد الدنيا والآخرة. فكيف (أنكر) هذا الإنسان أن يجمع بينه وبين عمله وجزائه، وإن يجمع مع بني جنسه ليوم الجمع، وأن يجمع عليه بين أمر الله ونهيه، وعبوديته فلا يترك سدى مهملًا معطلًا لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب، فلا يجمع عليه ذلك.

فما أجمع هذه السورة لمعان الجمع، والضم. وقد افتتحت بالقسم بيوم القيامة الذي يجمع الله فيه بين الأولين والآخرين. وبالنفس اللوامة التي اجتمع فيها همومها وغمومها، وإرادتها، واعتقاداتها، وتضمنت ذكر المبدأ والمعاد، والقيامة الصغرى

والكبرى، وأحوال الناس في المعاد،وانقسام وجوههم إلى ناظرة منعمة، وباسرة معذبة، وتضمنت وصف الروح بأنها جسم ينتقل من مكان إلى مكان. فتجمع من تفاريق البدن حتى تبلغ التراق، ويقول الحاضرون: ﴿ مَنْ رَاقٍ﴾ [القيامة: ٢٧]. أي من يرقى من هذه العلة التي أعيت على الحاضرين، أي التمسوا له من يرقيه. والرقية آخر الطب.

وقيل: من يرقى بها ويصعد، أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ فعلى الأول تكون من رقى يرقي: كرمى يرمي. وعلى الثاني من رقي يرقى: كشقي يشقى. ومصدره الرقاء ومصدر الأول الرقية. والقول الأول أظهر لوجوه: (أحدها): أنه ليس كل ميت يقول حاضروه. من يرقى بروحه. وهذا إنما يقوله من يؤمن برقي الملائكة بروح الميت، وأنهم ملائكة رحمة، وملائكة عذاب، بخلاف التماس الرقية وهي الدعاء، فإنه قل ما يخلو منه المحتضر. (الثاني): أن الروح إنما يرقى بها الملك بعد مفارقتها، وحينئذ يقال من يرقى بها. وأما قبل المفارقة فطلب الرقية للمريض من الحاضرين أنسب من طلب علم من يرقى بها إلى الله. (الثالث): أن فاعل الرقية يمكن العلم به فيحسن السؤال عنه ويفيد السامع، وأما الراقي إلى الله فلا يمكن العلم بتعيينه حتى يسأل عنه، و(من) إنما يسأل بها عن تعيين ما يمكن السائل أن يصل إلى العلم بتعيينه. (الرابع): أن مثل هذا السؤال إنما يراد به تحضيض وإثارة اهتمام إلى فعل يقع بعد (من) نحو قوله: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا ﴾ [البقرة: ٢٤٥]. أو يراد به إنكار فعل ما يذكر بعدها كقوله: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وفعل الراقي إلى الله لا يحسن فيه واحد من الأمرين هنا بخلاف فاعل الرقية، وفإنه يحسن فيه الأول. (الخامس): أن هذا خرج على عادة العرب وغيرهم في طلب الرقية لمن وصل إلى مثل تلك الحال، فحكى الله سبحانه ما جرت عادتهم بقوله وحذف فاعل القول، لأنه ليس الغرض متعلقًا بالقائل بل بالقول، ولم تجر عادة المخاطبين بأن يقولوا من يرقى بروحه، فكان حمل الكلام على ما ألف وجرت العادة بقوله أولى، إذ هو تذكير لهم بما يشاهدونه ويسمعونه. (السادس): أنه لو أريد هذا المعنى لكان وجه الكلام

أن يقال: من هو الراقي، ومن الراقي؟ ولا وجه للكلام غير ذلك، كما يقال: من هو القائل منكما كذا وكذا؟ وفي الحديث: «من القائل كلمة كذا». (السابع): أن كلمة من إنما يسأل بها عن التعيين كما يقول: من الذي فعل كذا، ومن ذا الذي قاله. فيعلم أن فاعلًا وقائلًا فعل وقال، ولا يعلم تعيينه، فيسأل عن تعيينه بمن تارة وبأي تارة، وهم لم يسألوا عن تعيين الملك الراقي بالروح إلى الله.

فإن قيل: بل علموا أن ملك الرحمة والعذاب صاعد بروحه، ولم يعلموا تعيينه فيسأل عن تعيين أحدهما. قيل: هم يعلمون أن تعيينه غير ممكن، فكيف يسألون عن تعيين ما لا سبيل للسامع إلى تعيينه . ولا إلى العلم به. (الثامن): أن الآية إنما سيقت لبيان يأسه من نفسه ويأس الحاضرين معه وتحقق أسباب الموت، وأنه قد حضر ولم يبق شيء ينجع فيه ولا ملخص منه، بل هو قد ظن أنه مفارق لا محالة. فالحاضرون قد علموا أنه لم يبق لأسباب الحياة المعتادة تأثير في بقائه، فطلبوا أسبابًا خارجة عن المقدور تستجلب بالرقى والدعوات، فقالوا: من راق؟ أي من يرقى هذا العليل من أسباب الهلاك. والرقية عندهم كانت مستعملة حيث لا يجدي الدواء. (التاسع): أن مثل هذه إنما يراد به النفي والاستبعاد، وهو أحد التقديرين في الآية، أي لا أحد يرقى من هذه العلة بعد ما وصل صاحبها إلى هذه الحال. فهو استبعاد لنفي الرقية لا طلب لوجود الراقي، كقوله: ﴿ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴾ [يس: ٧٨] أي لا أحد يحييها، وقد صارت إلى هذه الحال. فإن أريد بها هذا المعنى استحال أن يكون من الرقى، وإن أريد بها الطلب استحال أيضًا أن يكون منه. وقد بينا أنها في مثل هذا إنما تستعمل للطلب أو للإنكار. وحينئذ فتقول في (الوجه العاشر): إنها إما أن يراد بها الطلب أو الاستبعاد، والطلب إما أن يراد به طلب الفعل أو طلب التعيين، ولا سبيل إلى حمل واحد من هذه المعاني على الرقي لما بيناه. والله أعلم.

***

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝﴾.

[١]في الصحيحين من حديث أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب آنيتها وحليتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[٢]. وذكر عثمان بن سعيد الدارمي: حدثنا أبو الربيع، حدثنا جرير بن عبد الحميد، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبدالله بن الحارث، عن كعب قال: ما نظر الله إلى الجنة إلا قال: طيبي لأهلك فزات طيبًا على ما كانت، وما من يوم كان عيدًا في الدنيا إلا يخرجون في مقداره إلى رياض الجنة، ويبرز لهم الرب ـ تبارك وتعالى ـ وينظرون إليه، وتسفي عليهم الريح بالطيب والمسك فلا يسألون ربهم ـ تبارك وتعالى ـ شيئًا إلا أعطاهم، فيرجعوا إلى أهلهم وقد ازدادوا على ما كانوا عليه من الحسن والجمال سبعين ضعفًا[٣]. وقال عبد بن حميد: أخبرني شبابة عن إسرائيل، حدثنا ثوير بن أبي فاختة سمعت ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر [إلى] خدمه ونعيمه وسرره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية» ثم تلا هذه الآية: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[٤] [القيامة: ٢٢، ٢٣] رواه الترمذي في جامعه عنه.

وذكر عثمان بن سعيد الدارمي، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ رفعه [إلى] النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة إذا بلغ منهم النعيم كل مبلغ، وظنوا أن لا نعيم أفضل منه تجلى لهم

(١) ٤٥٢ روضة المحبين.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٨٧٨) ومسلم (رقم ١٨٠) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٢٤) وشرح النووي (٧/ ١٠٧-١٠٨).

(٣) أخرجه محمد بن إسحاق في التصديق بالنظر (رقم ٣) وأبو علي الأشيب في جزئه (رقم ٤٥) وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٣٧٩).

(٤) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥٥٣) وأحمد (٢/ ٦٤) وعبد بن حميد (رقم ٨١٩) وضعفه ابن حجر في فتح الباري (٢/ ٣٤).

الرب ـ تبارك وتعالى ـ فنظروا إلى وجه الرحمن، فنسوا كل نعيم عاينوه حين نظروا إلى وجه الرحمن»[١]. وقال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. قال: حسَّنها الله تعالى بالنظر إليه سبحانه، وحق لها أن تنضر وهي تنظر إلى ربها ﷻ[٢]: قال أبو سليمان الداراني: لو لم يكن لأهل المحبة أو قال المعرفة إلا هذه الآية: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ ﴾ لا كتفوا بها[٣] [٤].

[٥]ومن أسرار هذه السورة أنه ـ سبحانه ـ جمع فيها لأوليائه بين جمال الظاهر والباطن: فزين وجوههم بالنضرة وبواطنهم بالنظر إليه. فلا أجمل لبواطنهم. ولا أنعم، ولا أحلى من النظر إليه، ولا أجمل لظواهرهم من نضرة الوجه، وهي إشراقه، وتحسينه، وبهجته، وهذا كما قال في موضع آخر: ﴿ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ [الإنسان: ١١].

ونظيره قوله: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ﴾ [الأعراف: ٢٦] هذا جمال الظاهر وزينته، ثم قال: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف: ٢٦] فهذا جمال الباطن. ونظيره قوله: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ فهذا جمال ظاهرها، ثم قال: ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴾ [الصافات: ٦، ٧] فهذا جمال باطنها.

ونظيره قوله عن امرأة العزيز بعد أن قالت ليوسف: ﴿ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ [يوسف: ٣١، ٣٢]. فذكرها لهذا هو من تمام وصفها لمحاسنه، وأنه في غاية المحاسن ظاهرًا وباطنًا، وينظر إلى هذا المعنى ويناسبه قوله: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا

---

(١) أخرجه عبد بن حميد (رقم ٨٥١).
(٢) أخرجه البيهقي في الاعتقاد (ص ١٢٦).
(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٦٤).
(٤) ذكر المؤلف رحمه الله آثارًا كثيرة في هذا الكتاب وغيره اكتفينا بما ذكرناه اختصارًا. (ج).
(٥) ٩٨ البيان.

تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩] فقابل بين الجوع والعري، لأن الجوع ذل الباطن، والعري ذل الظاهر. وقابل بين الظمأ، وهو حر الباطن، والضحى، وهو حر الظاهر بالبروز للشمس، وقريب من هذا قوله: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: ١٩٧] في ذكر الزاد الظاهر الحسي والزاد الباطن المعنوي. فهذا زاد سفر الدنيا. وهذا زاد سفر الآخرة. ويلم به قول هود: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ [هود: ٥٢]. فالأول القوة الظاهرة المنفصلة عنهم، والثاني الباطنة المتصلة بهم. ويشبهه قوله: ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق: ١٠] فنفى عنهم الدافعين: الدافع من أنفسهم والدافع من خارج، وهو الناصر.

ومن أسرارها أنها تضمنت إثبات قدرة الرب على ما علم أنه لا يكون ولا يفعله، وهذا على أحد القولين في قوله: ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ٤]، فأخبر أنه قادر عليه، ولم يفعله ولم يرده، وأصرح من هذا قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٨] وهذا أيضًا على أحد القولين، أي تغور العيون في الأرض، فلا يقدر على الماء. قال ابن عباس: يريد أن سيغيض فيذهب، فلا يكون من هذا الباب، بل يكون من باب القدرة على ما سيفعله.

وأصرح من هذين الموضعين قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ [الأنعام: ٦٥]، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال عند نزول هذه الآية: «أعوذ بوجهك»(١). ولكن قد ثبت عنه ﷺ أنه لابد أن يقع في أمته خسف، ولكن لا يكون عامًا، وهذا عذاب من تحت الأرجل. وروي أنه كان في الأمة قذف أيضًا. وهذا عذاب من فوق، فيكون هذا من باب الأخبار بقدرته على ما سيفعله، وإن أريد به القدرة على عذاب الاستئصال، فهو من القدرة على ما لا يريده، وقد صرح سبحانه بأنه لو شاء لفعل ما لم يفعله في غير موضع من كتابه كقوله: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٦٢٨) وانظر: فتح الباري (٨/ ٢٩٢) و(١٣/ ٣٨٨).

لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩] وقوله: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ [السجدة: ١٣] ونظائره. وهذا مما لا خفاء فيه بين أهل السنة، وبه تبين فساد قول من قال: إن القدرة لا تكون إلا مع الفعل لا قبله، وأن الصواب التفصيل بين القدرة الموجبة والمصححة، فنفي القدرة عن الفاعل قبل الملابسة مطلقًا خطأ. والله أعلم.

ومن أسرارها: أنها تضمنت التأني والتثبت في تلقي العلم، وأن لا يحمل السامع شدة محبته وحرصه وطلبه على مبادرة المعلم بالأخذ قبل فراغه من كلامه، بل من آداب الرب التي أدب بها نبيه ﷺ أمره بترك الاستعجال عن تلقي الوحي، بل يصبر إلى أن يفرغ جبريل من قراءته، ثم يقرأه بعد فراغه عليه. فهكذا ينبغي لطالب العلم ولسامعه أن يصبر على معلمه حتى يقضي كلامه، ثم يعيده عليه. أو يسأل عما أشكل عليه منه، ولا يبادره قبل فراغه.

وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى في ثلاثة مواضع من كتابه: هذا أحدها، والثاني قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٣، ١١٤]. والثالث قوله: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأعلى: ٦، ٧] فضمن لرسوله أن لا ينسى ما أقرأه إياه. وهذا يتناول القراءة وما بعدها.

وقد ذم الله سبحانه في هذه السورة من يؤثر العاجلة على الآجلة، وهذا لاستعجاله بالتمتع بما يفنى وإيثاره ما يبقى، ورتب كل ذم ووعيد في هذه السورة على هذا الاستعجال ومحبة العاجلة، فإرادته أن يفجر أمامه هو من استعجاله وحب العاجلة، وتكذيبه بيوم القيامة من فرط حب العاجلة، وإثاره لها، واستعجاله بنصيبه، وتمتعه به قبل أوانه، ولولا حب العاجلة وطلب الاستعجال لتمتع به في الآجلة أكمل ما يكون. وكذلك تكذيبه وتوليه وترك الصلاة هو من استعجاله ومحبته العاجلة، والرب سبحانه وصف نفسه بضد ذلك، فلم يعجل على عبده، بل أمهله إلى أن بلغت الروح التراقي، وأيقن بالموت، وهو إلى هذه الحال مستمر على التكذيب والتولي، والرب

تعالىٰ لا يعالجه بل يمهله، ويحدث له الذكر شيئًا بعد شيء، ويصرف له الآيات ويضرب له الأمثال، وينبهه علىٰ مبدئه: من كونه نطفة من منيٍّ يمنىٰ. ثم علقة، ثم خلقًا سويًا، فلم يعجل عليه بالخلق وهلة واحدة، ولا بالعقوبة إذ كذب خبره، وعصىٰ أمره. بل كان خلقه وأمره وجزاؤه بعد تمهيل وتدريج وأناة، ولهذا ذم الإنسان بالعجلة بقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١] وقال: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

ومن أسرارها: أن إثبات النبوة والمعاد يعلم بالعقل. وهذا أحد القولين، لأصحابنا وغيرهم، وهو الصواب، فإن الله سبحانه أنكر علىٰ من حسب أنه يترك سدىٰ: فلا يؤمر، ولا ينهىٰ، ولا يثاب، ولا يعاقب. ولم ينف سبحانه ذلك بطريق الخبر المجرد، بل نفاه نفي ما لا يليق نسبته إليه، ونفي منكر علىٰ من حكم به وظنه. ثم استدل سبحانه علىٰ فساد ذلك، وبين أن خلقه الإنسان في هذه الأطوار، وتنقله فيها طورًا بعد طور حتىٰ بلغ نهايته، يأبىٰ أن يتركه سدىٰ، فإنه ينزه عن ذلك كما ينزه عن العبث والعيب والنقص.

وهذه طريقة القرآن في غير موضع، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦] فجعل كمال ملكه، وكونه سبحانه الحق، وكونه لا إله إلا هو، وكونه رب العرش المستلزم لربوبيته لكل ما دونه، مبطلًا لذلك الظن الباطل، والحكم الكاذب، وإنكار هذا الحسبان عليهم مثل إنكاره عليهم حسبانهم أنه لا يسمع سرهم ونجواهم، وحسبان أنه لا يراهم ولا يقدر عليهم، وحسبان أنه يسوي بين أوليائه وبين أعدائه في محياهم ومماتهم، غير ذلك مما هو منزه عنه تنزيهه عن سائر العيوب والنقائص، وأن نسبة ذلك كنسبة ما يتعالىٰ عنه مما لا يليق: من اتخاذ الولد، والشريك، ونحو ذلك، مما ينكره سبحانه علىٰ من حسبه أشد الإنكار. فدل علىٰ أن ذلك قبيح ممتنع نسبته إليه، كما يمتنع أن ينسب إليه سائر ما ينافي كماله المقدس.

***

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۝ ﴾.

ولو كان نفي تركه سدىً إنما يعلم بالسمع المجرد لم يقل بعد ذلك: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً ﴾ [القيامة: ٣٧] إلى آخره، مما يدل أن تعطيل أسمائه وصفاته ممتنع، وكذلك تعطيل موجبها ومقتضاها، فإن ملكه الحق يستلزم أمره ونهيه وثوابه وعقابه، وكذلك يستلزم إرسال رسله وإنزال كتبه، وبعث العباد ليوم يجزىٰ فيه المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، فمن أنكر ذلك فقد أنكر حقيقة ملكه ولم يثبت له الملك الحق، ولذلك كان منكر ذلك كافرًا بربه، وإن زعم أنه يقر بصانع العالم، فلم يؤمن بالملك الحق الموصوف بصفات الجلال، والمستحق لنعوت الكمال. كما أن المعطل لكلامه وعلوه على خلقه لم يؤمن به ـ سبحانه ـ فإن آمن برب لا يتكلم، ولا يأمر، ولا ينهى، ولا يصعد إليه قول، ولا عمل، ولا ينزل من عنده ملك، ولا أمر، ولا نهي، ولا ترفع إليه الأيدي. ومعلوم أن هذا الذي آمن به رب مقدر في ذهنه، ليس هو رب العالمين وإله المرسلين.

وكذلك إذا اعتبرت اسمه الحي وجدته مقتضيًا لصفات كماله من علمه، وسمعه وبصره، وقدرته، وإرادته، ورحمته، وفعله ما يشاء. واسمه القيوم مقتض لتدبير أمر العالم العلوي والسفلي، وقيامه بمصالحه، وحفظه له، فمن أنكر صفات كماله لم يؤمن بأنه الحي القيوم، وإن أقر بذلك ألحد في أسمائه، وعطل حقائقها، حيث لم يمكنه تعطيل ألفاظها، وبالله التوفيق.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة القيامة

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

سُورَةُ الإِنسَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾.

(١) إن من نصر هواه فسد عليه عقله ورأيه، لأنه قد خان الله في عقله فأفسده عليه، وهذا شأنه ﷻ في كل من خانه في أمر من الأمور، فإنه يفسده عليه. وقال المعتصم يومًا لبعض أصحابه: يا فلان إذا نُصِرَ الهوىٰ ذهب الرأي. وسمعت رجلًا يقول لشيخنا: إذا خان الرجل في نقد الدراهم سلبه الله معرفة النقد أو قال نَسِيه، فقال الشيخ: هكذا من خان الله [تعالىٰ] ورسوله في مسائل العلم.

إن من فسح لنفسه في اتباع الهوىٰ ضيق عليها في قبره ويوم معاده، ومن ضيق عليها بمخالفة الهوىٰ وسع عليها في قبره ومعاده، وقد أشار الله تعالىٰ إلىٰ هذا في قوله تعالىٰ: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الإنسان: ١٢] فلما كان في الصبر الذي هو حبس النفس عن الهوىٰ خشونة وتضييق جازاهم علىٰ ذلك نعومة الحرير وسعة الجنة. وقال أبو سليمان الداراني ـ رحمه الله ـ في هذه الآية: جزاهم بما صبروا عن الشهوات.

***

﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾.

(٢) قد تقدم الكلام علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ [الإنسان: ٥، ٦] وعلىٰ قوله: ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الإنسان: ١٧، ١٨] فقالت فرقة: سلسبيلا جملة مركبة من فعل وفاعل، وسبيلًا منصوب علىٰ المفعول، أي سل سبيلًا إليها، وليس هذا بشيء، وإنما السلسبيل كلمة مفردة، وهي اسم للعين

(١) ٥١٢ روضة المحبين.
(٢) ١٣٦ حادي الأرواح.

نفسها باعتبار صفتها.

ولقد شفى قتادة ومجاهد في اشتقاق اللفظة، فقال قتادة: سلسة فهم يصرفونها حيث شاءوا، وهذا من الاشتقاق الأكبر. وقال مجاهد: سلسة السيل حديدة الجرية، وقال أبو العالية والمقابلان: تسيل عليهم في الطرق وفي منازلهم، وهذا من سلاستها وحدة جريتها. وقال آخرون: معناها طيبة الطعم والمذاق، وقال أبو إسحاق: سلسبيل صفة لما كان في غاية السلاسة، فسميت العين بذلك. وقال ابن الأنباري: الصواب في سلسبيل أنه صفة للماء، وليس باسم للعين. واحتج على ذلك بحجتين:

إحداهما: أن سلسبيلًا مصروف، ولو كان اسمًا للعين لم يصرف للتأنيث والعلمية.

الثانية: أن ابن عباس قال: معناه أنها تنسل في حلوقهم انسلالًا.

قلت: ولا حجة له في واحدة منهما، أما الصرف فلاقتضاء رءوس الآي له كنظائره؛ وأما قول ابن عباس فإنما يدل على أن العين سميت بذلك باعتبار صفة السلالة والسهولة. فقد تضمنت هذه النصوص أن لهم فيها الخير واللحم والفاكهة والحلوى وأنواع الأشربة من الماء واللبن والخمر، وليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء. وأما المسميات فبينها من التفاوت ما لا يعلمه البشر.

فإن قيل: فأين يشوي اللحم وليس في الجنة نار؟

فقد أجاب عن هذه بعضهم بأنه يشوى بـ «كن». وأجاب آخرون بأنه يشوى خارج الجنة ثم يؤتى به إليهم.

والصواب: أنه يشوى في الجنة بأسباب قدرها العزيز الحكيم لإنضاجه وإصلاحه، كما قدر هناك أسبابًا لإنضاج الثمر والطعام على أنه لا يمتنع أن يكون فيها نار تصلح لا تفسد شيئًا، وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «**مجامرهم الألوة**»[1] (والمجامر) جمع مجمر وهو البخور الذي يتبخر بإحراقه (والألوة) العود المطري، فأخبر أنهم يتجمرون به، أي يتبخرون بإحراقه، لتسطع لهم رائحته.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٤٦) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٢٤).

وقد أخبر سبحانه أن في الجنة ظلالًا، والظلال لابد أن تفيء مما يقابلها، فقال: ﴿ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴾ [يس: ٥٦]. وقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴾ [المرسلات: ٤١] وقال: ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾ [النساء: ٥٧] فالأطعمة والحلوى والتجمر تستدعي أسبابًا تتم بها، والله سبحانه خالق السبب والمسبب، وهو رب كل شيء ومليكه، لا إله إلا هو.

وكذلك جعل لهم سبحانه أسبابًا تصرف الطعام من الجشاء والعرق الذي يفيض من جلودهم، فهذا سبب إخراجه، وذاك سبب إنضاجه.

وكذلك جعل في أجوافهم من الحرارة ما يطبخ ذلك الطعام، ويلطفه ويهيئه لخروجه رشحًا وجشاءً.

وكذلك ما هناك من الفواكه والثمار يخلق لها من الحرارة ما ينضجها، ويجعل ـ سبحانه ـ أوراق الشجر ظلالها، فرب الدنيا والآخرة واحد، وهو الخالق للأسباب والحكم ما يخلقه في الدنيا والآخرة، والأسباب مظهر أفعاله وحكمته، ولكنها تختلف، ولهذا يقع التعجب من العبد لورود أفعاله ـ سبحانه ـ على أسباب غير الأسباب المعهودة المألوفة، وربما حمله ذلك على الإنكار والكفر، وذلك محض الجهل والظلم، وإلا فليست قدرته ﷻ مقصورة عن أسباب أخر ومسببات ينشئها منها كما لا تقصر قدرته في هذا العالم المشهود عن أسبابه ومسبباته، وليس هذا بأهون عليه من ذلك.

ولعل النشأة الأولى التي أنشأها الرب ﷻ فيها بالعيان، والمشاهدة أعجب من النشأة الثانية التي وعدنا بها إذا تأملها اللبيب.

ولعل إخراج هذه الفواكه والثمار من بين هذه التربة الغليظة والماء والخشب والهواء المناسب لها أعجب عند العقل من إخراجها من بين تربة الجنة ومائها وهوائها.

ولعل إخراج هذه الأشربة التي هي غذاء ودواء وشراب ولذة من بين فرث ودم ومن قيء ذباب أعجب من إجرائها أنهارًا في الجنة بأسباب أخر.

ولعل إخراج جوهري الذهب والفضة من عروق الحجارة من الجبال وغيرها

أعجب من إنشائها هناك من أسباب أخر.

ولعل إخراج الحرير من لعاب دود القز وبنائها على أنفسها القباب البيض والحمر والصفر أحكم بناء أعجب من إخراجه من أكمام تنشق عنه شجر هناك قد أودع فيها وأنشئ منها.

ولعل جريان بحار الماء بين السماء والأرض على ظهور السحاب أعجب من جريانها في الجنة في غير أخدود.

وبالجملة فتأمل آيات الله التي دعا عباده إلى التفكر فيها، وجعلها آيات دالة على كمال قدرته وعلمه ومشيئته وحكمته وملكه وعلى توحده بالربوبية والإلهية.

ثم وازن بينها وبين ما أخبر به من أمر الآخرة والجنة والنار تجد هذه أدل شيء على تلك، شاهدة لها وتجدهما من مشكاة واحدة ورب واحد وخالق واحد ومالك واحد، فبعدًا لقوم لا يؤمنون.

(١) قال تعالى: ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴾ [الإنسان: ١٧] وذكر أبو نعيم في كتاب الطب النبوي، من حديث أبي سعيد الخدري قال: «أهدى ملك الروم إلى رسول الله ﷺ جرَّة زنجبيل، فأطعم كل إنسان قطعة، وأطعمني قطعة»(٢).

الزنجبيل: حار في الثانية، ورطب في الأولى، مسخن معين على هضم الطعام، ملين للبطن تليينًا معتدلًا. نافع من سدد الكبد العارض عن البرد والرطوبة، ومن ظلمة البصر الحادثة عن الرطوبة: أكلا، واكتحالا. معين على الجماع، وهو محلل للرياح الغليظة الحادثة في الأمعاء والمعدة.

وبالجملة: فهو صالح للكبد والمعدة الباردتي المزاج، وإذا أخذ منه مع السكر وزن درهمين بالماء الحار أسهل فضولًا لزجة لعابية، ويقع في المعجونات التي تحلل

---

(١) ٣٥٤ زاد المعاد جـ٣.

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل (٥/ ١٣٧) والعقيلي في الضعفاء (٣/ ٢٦٧) قال ابن حجر في لسان الميزان (٤/ ٣٦٠): هذا منكر. وانظر: ميزان الاعتدال (٥/ ٣٠٨).

البلغم وتذيبه، والمزي منه: حار يابس يهيج الجماع، ويزيد في المني، ويسخن المعدة والكبد، ويعين على الاستمراء وينشف البلغم الغالب على البدن، ويزيد في الحفظ ويوافق برد الكبد والمعدة ويزيل بلتها الحادثة عن أكل الفاكهة، ويطيب النكهة ويدفع به ضرر الأطعمة الغليظة الباردة.

***

﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ ﴾.

[(1)] قال تعالى: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨] وقال تعالى: ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ [الإنسان: ١٩] قال أبو عبيدة والفراء: مخلدون لا يهرمون ولا يتغيرون. قال: والعرب تقول للرجل إذا كبر ولم يمشط: إنه لمخلد، وإذا لم تذهب أسنانه، من الكبر قيل: هو مخلد. وقال آخرون: مخلدون: مقرطون مسورون أي في آذانهم القرطة وفي أيديهم الأساور. وهذا اختيار ابن الأعرابي، قال: مخلدون: مقرطون بالخلدة. وجمعها خلد وهي القرطة.

وروى عمرو عن أبيه: خلد جاريته إذا حلاها بالخلد وهي القرطة، وخلد إذا أسن ولم يشب، وكذلك قال سعيد بن جبير: مقرطون.

واحتج هؤلاء بحجتين: إحداهما أن الخلود عام لكل من دخل الجنة، فلابد أن تكون الولدان موصوفين بتخليد مختص بهم، وذلك هو القرطة.

الحجة الثانية: قول الشاعر:

ومخلدات باللجين كأنما أعجازهن رواكد الكثبان[(2)]

وقال الأولون: الخلد هو البقاء. قال ابن عباس: غلمان لا يموتون، وقول ترجمان

---

(١) ١٥٣ حادي الأرواح.

(٢) ذكر هذا البيت الطبري في تفسيره (٢٩/ ٢٢٠) وابن الجوزي في غريب الحديث (٢/ ٢٧٠) وابن منظور في اللسان (٣/ ١٦٤) وفيها كلها: «أقاوز» بدل «رواكد».

القرآن في هذا كاف، وهو قول مجاهد والكلبي ومقاتل. قالوا: لا يكبرون، ولا يهرمون ولا يتغيرون.

وجمعت طائفة بين القولين، وقالوا: هم ولدان لا يعرض لهم الكبر والهرم، وفي آذانهم القراطة، فمن قال مقرطون أراد هذا المعنى: أن كونهم ولدان أمر لازم لهم وشبههم - سبحانه - باللؤلؤ المنثور، لما فيه من البياض وحسن الخلقة.

وفي كونه منثورًا فائدتان: (إحداهما): الدلالة على أنهم غير معطلين بل مبثوثون في خدمتهم وحوائجهم.

و(الثاني): أن اللؤلؤ إذا كان منثورًا، ولا سيما على بساط من ذهب أو حرير كان أحسن لمنظره، وأبهى من كونه مجموعًا في مكان واحد.

وقد اختلف في هؤلاء الولدان: هل هم من ولدان الدنيا أم أنشأهم الله في الجنة إنشاء، على قولين. فقال علي بن أبي طالب والحسن البصري: هم أولاد المسلمين الذين يموتون ولا حسنة لهم ولا سيئة لهم، يكونون خدم أهل الجنة، وولدانهم إذ الجنة لا أولاد فيها.

قال الحاكم أنا عبد الرحمن بن الحسن ثنا إبراهيم بن الحسين ثنا آدم ثنا المبارك بن فضالة عن الحسن في قوله: ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ قال: لم يكن لهم حسنات ولا سيئات فيعاقبون عليها، فوضعوا بهذا الموضع[1]. ومن أصحاب هذا القول من قال: هم أطفال المشركين، فجعلهم الله خدمًا لأهل الجنة.

واحتج هؤلاء بما رواه يعقوب بن عبدالرحمن الفاري عن أبي حازم قال المديني عن يزيد الرقاشي عن أنس عن النبي ﷺ قال: **«سألت ربي اللاهين من ذرية البشر: أن لا يعذبهم. فأعطانيهم، فهم خدم أهل الجنة»**[2] يعني الأطفال. قال الدارقطني: ورواه

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٩) وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٢) أخرجه الضياء في المختارة (٧/ ٢٠١-٢٠٢ رقم ٢٦٣٩) والطبراني في الأوسط (٦/ ١١١ رقم ٥٩٥٧) وأبو يعلى (٦/ ٢٦٧ رقم ٣٥٧٠) وابن الجعد (رقم ٢٩٠٦) وقال الهيثمي في المجمع =

عبدالعزيز الماجشون عن ابن المنكدر عن يزيد الرقاشي عن النبي ﷺ انتهى. ورواه فضيل بن سليمان عن عبدالرحمن بن إسحاق عن الزهري عن أنس، وهذا الطرق ضعيفة. فيزيد: واهٍ. وفضيل بن سليمان: متكلم فيه، وعبدالرحن بن إسحاق: ضعيف.

قال ابن قتيبة واللاهون من لهيت عن الشيء إذا غفلت عنه، وليس هو من لهوت. وأصحاب القول الأول لا يقولون إن هؤلاء أولاد ولدوا لأهل الجنة فيها، وإنما يقولون: هم غلمان أنشأهم الله في الجنة، كما أنشأ الحور العين.

قالوا: وأما ولدان أهل الدنيا فيكونون يوم القيامة أبناء ثلاث وثلاثين لما رواه ابن وهب أنبأنا عمرو بن الحارث: أن دراجًا أبا السمح حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: **«من مات من أهل الجنة من صغير أو كبير يردون بني ثلاثين سنة في الجنة لا يزيدون عليها أبدًا، وكذلك أهل النار»**(١) رواه الترمذي.

والأشبه أن هؤلاء الولدان مخلوقون من الجنة: كالحور العين خدمًا لهم وغلمانًا، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ﴾ [الطور: ٢٤] وهؤلاء غير أولادهم، فإن من تمام كرامة الله تعالى لهم أن يجعل أولادهم مخدومين معهم، ولا يجعلهم غلمانًا لهم.

وقد تقدم في حديث أنس عن النبي ﷺ: **«أنا أول الناس خروجًا إذا بعثوا»**، وفيه: **«يطوف على ألف خادم كأنهم لؤلؤ مكنون»**(٢) والمكنون المستور المصون الذي لم تبتذله الأيادي. وإذا تأملت لفظة الولدان ولفظة ويطوف عليهم، واعتبرتها بقوله: ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ ﴾ [الطور: ٢٤] وضممت ذلك إلى حديث أبي سعيد المذكور آنفًا، علمت أن الولدان غلمان أنشأهم الله تعالى في الجنة خدمًا لأهلها والله أعلم.

(٧/ ٢١٩): رواه أبو يعلى من طرق ورجال أحدها رجال الصحيح غير عبدالرحمن بن المتوكل وهو ثقة. وحسنه بدر الدين العيني في عمدة القاري (٨/ ٢١١) وانظر: تحفة الأحوذي (٦/ ٢٨٨).

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥٦٢) وابن المبارك (رقم ١١٨) وضعفه الترمذي.

(٢) أخرجه الديلمي في الفردوس (١/ ٤٧ رقم ١١٧) والدارمي (رقم ٤٨).

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾.

[(١)] قال ابن أبي نجيح عن مجاهد «ملكًا كبيرًا قال: عظيمًا، وقال: استئذان الملائكة عليهم لا تدخل الملائكة عليهم إلا بإذن.

وقال كعب في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ يرسل إليهم ربهم الملائكة، فتأتي الملائكة فتستأذن عليهم الملائكة.

وقال بعضهم: الخدم، ولا يدخل عليهم الملائكة إلا بإذن.

وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس: أنه ذكر مراكب أهل الجنة، ثم تلا: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ .

وقال ابن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان يقول في قوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾. قال الملك الكبير أن رسول الله يأتيه بالتحفة واللطف، فلا يصل إليه حتى يستأذن له عليه، فيقول للحاجب استأذن عليَّ ولي الله. فإني لست أصل إليه، فيعلم ذلك الحاجب حاجبًا آخر وحاجبًا بعد حاجب، ومن داره إلىٰ دار السلام باب يدخل منه علىٰ ربه إذا شاء بلا إذن، فالملك الكبير أن رسول رب العزة لا يدخل عليه إلا بإذن، وهو يدخل علىٰ ربه بلا إذن.

وقال ابن أبي الدنيا حدثنا صالح بن مالك حدثنا صالح المري حدثنا يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك يرفعه: «إن أسفل أهل الجنة أجمعين درجة من يقوم علىٰ رأسه عشرة آلاف خادم»[(٢)]...

***

---

(١) ١٩٤ حادي الأرواح.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة (رقم ٢١٠) والطبراني في الأوسط (٧/ ٣٤٢ رقم ٧٦٧٤) وابن المبارك في الزهد (رقم ١٥٣٠) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١٧٥) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٣٩٠) وعزاه إلىٰ ابن أبي الدنيا في صفة الجنة والطبراني في الأوسط بسند رجاله ثقات. وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٢٧٩ رقم ٥٦٤٠): رواه ابن أبي الدنيا والطبراني واللفظ له ورواته ثقات. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٤٠١): رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات.

﴿عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾.

(١)تأمل ما دلت عليه لفظة ﴿عَـٰلِيَهُمْ﴾ من كون ذلك اللباس ظاهرًا بارزًا، يجمل ظواهرهم ليس بمنزلة الشعار الباطن، بل الذي يلبس فوق الثياب للزينة والجمال.

وقد اختلف القراء السبعة في نصب «عاليهم» ورفعه على قراءتين.

واختلف النحاة في وجه نصبه هل هو على الظرف أو على الحال على قولين.

واختلف المفسرون هل ذلك للولدان الذين يطوفون عليهم فيطوفون وعليهم ثياب السندس والإستبرق أو للسادات الذين يطوفون عليهم الولدان فيطوفون على ساداتهم وعلى السادات هذه الثياب، وليس الحال ههنا بالبين ولا تحته ذلك المعنى البديع الرائع. فالصواب أنه منصوب على الظرف، فإن عاليا لما كان بمعنى فوق أجرى مجراه، قال أبو علي: وهذا الوجه أبين، وهو أن عاليًا صفة فجعل ظرفًا، كما كان قوله: ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٢] كذلك.

وكما قالوا هو ناحية من الدار، وأما من رفع عاليهم فعلى الابتداء وثياب سندس خبره، ولا يمنع من هذا إفراد عال وجمع الثياب، لأن فاعلًا قد يراد به الكثرة، كما قال:

ألا إن جيـــراني العــــشية رائــــح ... دعتهم دواع مــن هــوى ومنــادح(٢)

وقال تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٧].

ومن رفع خضرًا أجراه صفة للثياب، وهو الأقيس من وجوه: أحدها المطابقة بينهما في الجمع. الثاني: موافقته لقوله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ [الكهف: ٣١]. الثالث: تخلصه من وصف المفرد بالجمع، ومن جر أجراه صفة للسندس على إرادة الجنس، كما يقال: أهلك الناس الدينار الصفر والدرهم البيض.

وتترجح القراءة الأولى بوجه رابع أيضًا، وهو أن العرب تجيء بالجمع الذي هو في

(١) ١٤٢ حادي الأرواح.

(٢) ذكر هذا البيت الطبري في تفسيره (١/ ٤٨٢) ونسبه إلى جميل بن معمر. وكذا ذكره في تهذيب الآثار (٢/ ٦٨٨).

لفظ الواحد، فيجرونه مجرى الواحد. كقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا ﴾ [يس: ٨٠]، وكقوله: ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [الحاقة: ٧]، فإذا كانوا قد أفردوا صفات هذا النوع من الجمع فإفراد صفة الواحد وإن كان في معنى الجمع أولى. وفي إستبرق قراءتان الرفع عطفًا على ثياب والجر عطفًا على سندس.

وتأمل كيف جمع لهم بين نوعي الزينة الظاهرة من اللباس والحلي، كما جمع لهم بين الظاهرة والباطنة كما تقدم قريبًا، فجمل البواطن بالشراب الطهور، والسواعد بالأساور، والأبدان بثياب الحرير.

***

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

(١)قاعدة: للعبد بين يدي الله موقفان: موقف بين يديه في الصلاة، وموقف بين يديه يوم لقائه، فمن قام بحق الموقف الأول هون عليه الموقف الآخر، ومن استهان بهذا الموقف ولم يوفه حقه شدد عليه ذلك الموقف، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾[الإنسان: ٢٦، ٢٧].

(٢)قوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾ [الإنسان: ٢٨] قال ابن عباس: أي خلقهم، وقال أبو عبيدة: الأسر. شدة الخلق، يقال: فرس شديد الأسر. قال: وكل شيء شددته: من قتب أو غيره، فهو مأسور. وقال المبرد: الأسر القوى كلها. وقال الليث: الأسر قوة المفاصل والأوصال. وشد الله أسر فلان، أي قوى خلقه، وكل

---

(١) ٢٠٠ فوائد.

(٢) ٢٣ التبيان.

شيء جمع طرفاه فشد أحدهما بالآخر فقد أسر. وقال الحسن: شددنا أوصالهم بعضها إلى بعض، بالعروق والعصب...

(١)وقال في سورة الإنسان: ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَـٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾ [الإنسان: ٢٨] فهذه النشأة الأولى، ثم قال: ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَـٰلَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾ [الإنسان: ٢٨] فهذه النشأة الأخرى، ونظير هذا: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ [النجم: ٤٥، ٤٦] وهذا في القرآن كثير جدًا، يقرن بين النشأتين مذكرًا للفطر والعقول بإحداهما على الأخرى. وبالله التوفيق.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الإنسان

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ١٢٤ التبيان.

سُورَةُ المُرسَلاتِ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ۝١ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ۝٣ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٥ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ ﴾ [المرسلات: ١، ٧] ف

[١] فسرت المرسلات بالملائكة، وهو قول أبي هريرة، وابن عباس في رواية مقاتل وجماعة، وفسرت بالرياح، وهو قول ابن مسعود وإحدى الروايتين عن ابن عباس وقول قتادة. وفسرت بالسحاب، وهو قول الحسن، وفسرت بالأنبياء، وهو رواية عطاء عن ابن عباس: قلت: الله سبحانه يرسل الملائكة، ويرسل الأنبياء، ويرسل الرياح، ويرسل السحاب. فيسوقه حيث يشاء، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء، فإرساله واقع على ذلك كله، وهو نوعان: إرسال دين يحبه ويرضاه، كإرسال رسله وأنبيائه، وإرسال كون هو نوعان: نوع يحبه ويرضه، كإرسال ملائكته في تدبير أمر خلقه، ونوع لا يحبه، بل يسخطه ويبغضه كإرسال الشياطين على الكفار.

فالإرسال المقسم به ههنا مقيد بالعرف.

فإما أن يكون ضد المنكر، فهو إرسال رسله من الملائكة، ولا يدخل في ذلك إرسال الرياح، ولا الصواعق، ولا الشياطين، وإما إرسال الأنبياء فلو أريد لقال: والمرسلين، وليس بالفصيح تسمية الأنبياء مرسلات. وتكلف الجماعات المرسلات خلاف المعهود من استعمال اللفظ، فلم يطلق في القرآن جمع ذلك إلا جمع تذكير لا جمع تأنيت، وأيضًا فاقتران اللفظة بما بعدها من الأقسام لا يناسب تفسيرها بالأنبياء، وأيضًا فإن الرسل مقسم عليهم في القرآن لا مقسم بهم كقوله: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ ﴾ [النحل: ٦٣] وقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٢] وقوله:

---

(١) ٨٩ التبيان.

﴿ يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ ﴾ [يس: ١-٣] وإن كان العرف من التابع، كعرف الفرس وعرف الديك، والناس إلى فلان عرف واحد، أي سابقون في قصده والتوجه إليه.

جاز أن تكون المرسلات الرياح. ويؤيده عطف العاصفات عليه والناشرات. وجاز أن تكون الملائكة. وجاز أن يعم النوعين لوقوع الإرسال عرفًا عليهما. ويؤيده أن الرياح موكل بها ملائكة تسوقها وتصرفها.

ويؤيد كونها الرياح عطف العصافات عليها بفاء التعقيب والتسبب، فكأنها أرسلت، فعصفت. ومن جعل المرسلات الملائكة قال: هي تعصف في مضيها مسرعة كما تعصف الرياح، والأكثرون على أنها الرياح. وفيها قول ثالث أنها تعصف بروح الكافر. يقال عصف بالشي إذا أباده وأهلكه. قال الأعشى:

تعصف بالـــدارع والحـــاسر(١)

حكاه أبو إسحاق: هو قول متكلف.

فإن المقسم به لابد أن يكون آية ظاهرة تدل على الربوبية، وأما الأمور الغائبة التي يؤمن بها فإنما يقسم عليه، وإنما يقسم ـ سبحانه ـ بملائكته وكتابه، لظهور شأنهما، ولقيام الادلة والأعلام الظاهرة الدالة على ثبوتهما.

وأما (الناشرات نشرًا) فهو استئناف قسم آخر، ولهذا أتى به بالواو وما قبله معطوف على القسم الأول بالفاء. قال ابن مسعود، والحسن، ومجاهد،وقتادة: هي الرياح تأتي بالمطر.

ويدل على صحة قولهم قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ [الأعراف: ٥٧] يعني أنها تنشر السحاب نشرًا، وهو ضد الطي. وقال مقاتل:

---

(١) هذا عجز بيت من بحر السريع، وصدره: يجمع خضراء لها سورة، وينسب إلى الأعشى، وقد سبق التعريف به، وقد ذكر البيت ابن منظور في اللسان (٩/ ٢٤٩) إلا أن صدر البيت عنده هكذا: في فيلق جأواء ملمومة.

هي الملائكة تنشر كتب بني آدم وصحائف أعمالهم. وقاله مسروق، وعطاء عن ابن عباس. وقالت طائفة: هي الملائكة تنشر أجنحتها في الجو عند صعودها ونزولها ـ وقيل: تنشر أوامر الله في الأرض والسماء. وقيل: تنشر النفوس، فتحييها بالإيمان.

وقال أبو صالح: هي الأمطار تنشر الأرض، أي تحييها.

قلت: ويجوز أن تكون الناشرات لازمًا لا مفعول له، ولا يكون المراد أنهن نشرن كذا، فإنه يقال: نشر الميت: حي، وأنشره الله: إذا أحياه، فيكون المراد بها الأنفس التي حييت بالعرف الذي أرسلت به المرسلات، أو الأشباح والأرواح والبقاع التي حييت بالرياح المرسلات. فإن الرياح سبب لنشور الأبدان والنبات والوحي سبب لنشور الأرواح وحياتها.

لكنَّ هنا أمرًا ينبغي التفطن له، وهو أنه سبحانه جعل الأقسام في هذه السورة نوعين وفصل أحدهما من الآخر، وجعل العاصفات معطوفًا على المرسلات بفاء التعقيب، فصارا كأنهما نوع واحد، ثم جعل الناشرات كأنه قسم مبتدأ فأتى فيه بالواو، ثم عطف عليه الفارقات والملقيات بالفاء، فأوهم هذا أن الفارقات الملقيات مرتبط بالناشرات، وأن العاصفات مرتبط بالمرسلات.

وقد اختلف في الفارقات والأكثرون على أنها الملائكة. ويدل عليه عطف الملقيات ذكرًا عليها بالفاء، وهي الملائكة بالاتفاق.

وعلى هذا فيكون القسم بالملائكة التي تنشر أجنحتها عند النزول ففرقت بين الحق والباطل، فألقت الذكر على الرسل إعذارًا وإنذارًا.

ومن جعل الناشرات الرياح جعل الفارقات صفة لها. وقال: هي تفرق السحاب ههنا وههنا، ولكن يأبى ذلك عطف الملقيات بالفاء عليها.

ومن قال: الفارقات أي القرآن يفرق بين الحق والباطل، فقوله يلتئم مع كون الناشرات الملائكة أكثر من التئامه إذا قيل: إنها الرياح.

ومن قال: هي جماعات الرسل فإن أراد الرسل من الملائكة فظاهر. وإن أراد

الرسل من البشر فقد تقدم بيان ضعف هذا القول.

ويظهر ـ والله أعلم بما أراد من كلامه ـ أن القسم في هذه الآية وقع على النوعين: الرياح، والملائكة. ووجه المناسبة أن حياة الأرض والنبات وأبدان الحيوان بالرياح، فإنها من روح الله، وقد جعله الله تعالى نشورًا.

وحياة القلوب والأرواح بالملائكة. فبهذين النوعين يحصل نوعا الحياة. ولهذا ـ والله أعلم ـ فصل أحد النوعين من الآخر بالواو، وجعل ما هو تابع لكل نوع بعده بالفاء.

***

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝﴾.

تأمل كيف موقع القسم في هذه السورة على المعاد والحياة الدائمة الباقية، وحال السعداء والأشقياء فيها، وقررها بالحياة الأولى في قوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠] فذكر فيها المبدأ والمعاد، وأخلص السورة لذلك، فحسن الإقسام بما يحصل به نوعا الحياة المشاهدة. وهو الرياح، والملائكة. فكان في القسم بذلك أبين دليل وأظهر آية على صحة ما أقسم عليه وتضمنته السورة.

ولهذا كان المكذب بعد ذلك في غاية الجحود والعناد والكفر، فاستحق الويل. بعد الويل، فتضاعف عليه الويل، كما تضاعف منه الكفر والتكذيب.

فلا أحسن من هذا التكرار في هذا الموضع، ولا أعظم منه موقعًا فإنه تكرر عشر مرات، ولم يذكر إلا في أثر دليل أو مدلول عليه عقيب ما يوجب التصديق وما يوجب التصديق به فتأمله.

***

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝﴾.

[(١)] وقال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦] فالأمر منحصر في

(١) ٨٠ مفتاح جـ١.

الحق والباطل، والهدىٰ والضلال، فإذا عدلتم عن الهدىٰ والحق، فأين العدول، وأين المذهب؟!

ونظير هذا قوله: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٢٢] أي: إن أعرضتم عن الإيمان بالقرآن والرسول وطاعته فليس إلا الفساد في الأرض، والشرك والمعاصي وقطيعة الرحم. ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ [ق: ٥] لما تركوا الحق وعدلوا عنه مرج عليهم أمرهم والتبس، فلا يدرون ما يقولون وما يفعلون، بل لا يقولون شيئًا، إلا كان باطلًا، ولا يفعلون شيئًا إلا كان ضائعًا غير نافع لهم، وهذا شأن كل من خرج عن الطريق الموصل إلىٰ المقصود، ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [القصص: ٥٠] وقد كشف هذا المعنىٰ كل الكشف بقوله ﷻ: ﴿ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣٢].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المرسلات

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

سُورَةُ النَّبَإِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

(١) في النوم فائدتان: إحداهما: انعكاس الحرارة إلى الباطن فينهضم الطعام. والثانية: استراحة الأعضاء التي قد كلت بالأعمال.

(٢) وضابط الانقطاع أن يكون له دخول في جنس المستثنى منه، وإن لم يدخل في نفسه. ولم يتناوله لفظه. كقوله تعالى: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ﴾ [مريم: ٦٢]. فإن «السلام» داخل في الكلام الذي هو جنس اللغو والسلام. وكذلك قوله: ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ [النبأ: ٢٤، ٢٥]. فإن الحميم والغساق داخل في جنس الذوق المنقسم. فكأنه قيل في الأول: لا يسمعون فيها شيئًا إلا سلامًا. وفي الثاني: لا يذوقون فيها شيئًا إلا حميمًا وغساقًا. ونص على فرد من أفراد الجنس تصريحًا، ليكون نفيه بطريق التصريح والتنصيص، لا بطريق العموم الذي يتطرق إليه تخصيص هذا الفرد. وكذلك قوله تعالى: ﴿ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴾ [النساء: ١٥٧]. فإن الظن داخل في الشعور الذي هو جنس العلم والظن.

وأدق من هذا: دخول الانقطاع فيما يفهمه الكلام بلازمه، كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء: ٢٢]. إذ مفهوم هذا: أن نكاح منكوحات الآباء سبب للعقوبة إلا ما قد سلف منه قبل التحريم، فإنه عفو. وكذلك: ﴿ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء: ٢٣]. وإن كان المراد به: ما كان في شرع من تقدم فهو استثناء من القبح المفهوم من ذلك التحريم والذم

---

(١) ٢٠٩ بدائع جـ٤.

(٢) ٣١٨ مدارج جـ١.

لمن فعله، فحسن أن يقال: «إلا ما قد سلف». فتأمل هذا فإنه من فقه العربية.

[(١)] حمل ابن عباس قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ [ص: ٥٧]. وقوله: ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [النبأ: ٢٤، ٢٥]. قال: هو الزمهرير يحرقهم ببرده، كما تحرقهم النار بحرها. وكذلك قال مقاتل ومجاهد: هو الذي انتهى برده...

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ ﴾.

[(٢)] الكواعب جمع كاعب وهي الناهد: قال قتادة ومجاهد والمفسرون. قال الكلبي: هن الفلكات اللواتي تكعب ثديهن وتفلكت، وأصل اللفظة من الاستدارة، والمراد أن ثديهن نواهد كالرمان ليست متدلية إلى أسفل، ويسمين نواهد وكواعب.

[(٣)] وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم أنبأنا حصين عن عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ [النبأ: ٣٤] قال: هي المتتابعة الممتلئة. قال: وربما سمعت العباس يقول: أسقنا وأدهق لنا[(٤)].

***

﴿ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

[(٥)] الدليل على حشر الوحوش وجوه:

(أحدها): قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ [التكوير: ٥].

---

(١) ٢١٦ بدائع جـ٣.

(٢) ١٦٣ حادي الأرواح.

(٣) ١٣٦ حادي الأرواح.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/٣٣٩٦ رقم ١٩١٠٥) والحاكم (٢/٥٥٦ رقم ٣٨٩١) والمحاملي في أماليه (رقم ٢١) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٥) ١٨٣ بدائع جـ٣.

(الثاني): قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

(الثالث): حديث مانع صدقة الإبل والبقر والغنم، وأنها تجيء يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها[(١)]. وهو متفق على صحته.

(الرابع): حديث أبي ذر أن النبي ﷺ رأى شاتين ينتطحان فقال: «يا أبا ذر أتدري فيما ينتطحان؟» قال: قلت: لا. قال: «لكن الله يدري وسيقضي بينهما»[(٢)] رواه أحمد في مسنده.

(الخامس): الآثار الواردة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠]. وأن الله تعالى يجمع الوحوش ثم يقتص من بعضها لبعض، ثم يقول لها: كوني ترابًا. فتكون ترابًا، فعندها يقول الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النبأ

والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٤٠٢) ومسلم (رقم ٩٨٧) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٦٩) وشرح النووي (٧/ ٦٥).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٦٢) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٥٢): رواه كله أحمد والبزار بالرواية الأولى وكذلك الطبراني في المعجم الأوسط وفيها ليث بن أبي سليم وهو مدلس وبقية رجال أحمد رجال الصحيح غير شيخه ابن عائشة وهو ثقة ورجال الرواية الثانية رجال الصحيح وفيها راوٍ لم يسمّ.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥ ﴾.

[(١)]هذه خمسة أمور. وهي صفات الملائكة.

فأقسم سبحانه بالملائكة الفاعلة لهذه الأفعال، إذ ذلك من أعظم آياته، وحذف مفعول النزع والنشط؛ لأنه لو ذكر ما تنزع وتنشط لأوهم التقييد به، وأن القسم على نفس الأفعال الصادرة من هؤلاء الفاعلين، فلم يتعلق الغرض بذكر المفعول. كقوله: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴾ [الليل: ٦] ونظائره، فكان نفس النزع هو المقصود لا عين المنزوع.

وأكثر المفسرين على أنها الملائكة، التي تنزع أرواح بني آدم من أجسامهم، وهم جماعة كقوله: ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ [الأنعام: ٦١]. وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [النساء: ٩٧]. وأما قوله: ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ [السجدة: ١١]. فإما أن يكون واحدًا، وله أعوان، وإما أن يكون المراد الجنس لا الوحدة كقوله: ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ ﴾ [التحريم: ١٢]. وقوله: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل: ١٨].

والنزع هو اجتذاب الشيء بقوة، والإغراق في النزع هو أن يجتذبه إلى آخره، ومنه إغراق النزع في جذب القوة، بأن يبلغ بها غاية المد، فيقال: أغرق في النزع، ثم صار مثلًا لكل من بالغ في فعل حتى وصل إلى آخره.

والغرق اسم مصدر أقيم مقامه كالعطاء والكلام، أقيم مقامه الإعطاء والتكلم.

واختلف الناس: هل النازعات متعد أو لازم؟ فعلى القول الذي حكيناه يكون

---

(١) ٨٣ التبيان.

متعديًا، وهذا قول علي، ومسروق، ومقاتل، وأبي صالح، وعطية عن ابن عباس. وقال ابن مسعود: هي أنفس الكفار، وهو قول قتادة، والسدي، وعطاء عن ابن عباس. وعلى هذا فهو فعل لازم، وغرقًا على هذا معناه: نزعًا شديدًا أبلغ ما يكون وأشده.

وفي هذا القول ضعف من وجوه:

أحدها: أن عطف ما بعده عليه يدل على أنها الملائكة، فهي السابحات والمدبرات، والنازعات.

الثاني: أن الإقسام بنفوس الكفار خاصة ليس بالبين، ولا في اللفظ ما يدل عليه.

الثالث: أن النزع مشترك بين نفوس بين آدم، والإغراق لا يختص بالكافر. وقال الحسن : النازعات هي النجوم، تنزع من المشرق إلى المغرب. وغرقًا هو غروبها قال: تنزع من ههنا وتغرق ههنا. واختاره الأخفش وأبوعبيد.

وقال مجاهد: هي شدائد الموت وأهواله، التي تنزع الأرواح نزعًا شديدًا، وقال عطاء، وعكرمة: هي القسي، والنازعات على هذا القول بمعنى النسب أو ذوات النزع التي نزع بها الرامي، فهو النازع.

قلت: النازعات اسم فاعل من نزع، ويقال: نزع كذا، إذا اجتذبه بقوة، ونزع عنه إذا خلاه وتركه، بعد ملابسته له، ونزع إليه إذا ذهب إليه ومال إليه. وهذا إنما توصف به النفوس التي لها حركة إرادية للميل إلى الشيء أو الميل عنه، وأحق ما صدق عليه هذا الوصف الملائكة، لأن هذه القوة فيها أكمل، وموضع الآية فيها أعظم. فهي التي تغرق في النزع إذا طلبت ما تنزعه أو تنزع إليه، والنفس الإنسانية أيضًا لها هذه القوة، والنجوم أيضًا تنزع من أفق إلى أفق. فالنزع حركة شديدة، سواء كانت من ملك، أو نفس إنسانية، أو نجم، والنفوس تنزع إلى أوطانها، وإلى مألفها، وعند الموت تنزع إلى بها، والمنايا تنزع النفوس، والقسي تنزع بالسهام، والملائكة تنزع من مكان إلى مكان، وتنزع ما وكلت بنزعه، والخيل تنزع في أعنتها نزعًا تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها.

فالصفة واقعة على كل من له هذه الحركة التي هي آية من آيات الرب ـ تعالى ـ، فإنه

هو الذي خلقها وخلق محلها، وخلق القوة والنفس التي بها تتحرك. ومن ذكر صورة من هذه الصور فإنما أراد التمثيل. وإن كانت الملائكة أحق من تناوله هذا الوصف.

فأقسم بطوائف الملائكة وأصنافهم: فهم النازعات التي تنزع الأرواح من الأجساد، والناشطات التي تنشطها أي: تخرجها بسرعة وخفة، من قولهم: نشط الدلو من البئر إذا أخرجها، وأنا أنشط بكذا أي أخف له وأسرع. والسابحات التي تسبح في الهواء في طريق ممرها إلى ما أمرت به، كما تسبح الطير في الهواء. فالسابقات التي تسبق وتسرع إلى ما أمرت به، لا تبطئ عنه ولا تتأخر. فالمدبِّرات أمور العباد التي أمرها ربها بتدبيرها. وهذا أولى الأقوال.

وقد روي عن ابن عباس: أن (النازعات) الملائكة تنزع نفوس الكفار بشدة وعنف. (والناشطات) الملائكة التي تنشط أرواح المؤمنين بيسر وسهولة، واختار الفراء هذا القول، فقال: هي الملائكة تنشط نفس المؤمن فتقبضها، وتنزع نفس الكافر. قال الواحدي: إنما اختار ذلك، لما بين النشط والنزع من الفرق في الشدة واللين، فالنزع الجذب بشدة، والنشط الجذب برفق ولين. (والناشطات) هي النفوس التي تنشط لما أمرت به، والملائكة أحق الخلق بذلك، ونفوس المؤمنين ناشطة لما أمرت به.

وقيل: (السابحات) هي النجوم تسبح في الفلك، كما قال تعالى: ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس ٤٠] وقيل: هي السفن تسبح في الماء، وقيل: هي نفوس المؤمنين تسبح بعد المفارقة صاعدة إلى ربها.

قلت: والصحيح أنها الملائكة، والسياق يدل عليه. وأما السفن والنجوم فإنما تسمى جارية وجواري، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾ [الشورى: ٣٢]. وقال: ﴿ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة: ١١]. وقال: ﴿ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴾ [التكوير: ١٦] ولم يسمها سابحات وإن أطلق عليها فعل السباحة، كقوله: ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠]. ويدل عليه ذكره السابقات بعدها المدبرات بالفاء، وذكره

الثلاثة الأول بالواو، لأن السبق والتدبير مسبب عن المذكور قبله، فإنها نزعت ونشطت وسبحت، فسبقت إلى ما أمرت به فدبرته. ولو كانت السابحات هي السفن أو النجوم أو النفوس الآدمية لما عطف عليها فعل السبق والتدبير بالفاء فتأمله.

قال مسروق، ومقاتل، والكلبي: ﴿ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤ ﴾ [النازعات: ٤] هي الملائكة قال مجاهد وأبو روق: سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح والإيمان والتصديق. قال مقاتل: تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة. وقال الفراء والزجاج: هي الملائكة تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء إذا كانت الشياطين تسترق السمع. وهذا القول خطأ لا يخفى فساده، إذ يقتضي الاشتراك بين الملائكة والشياطين في إلقائهم الوحي، وأن الملائكة تسبقهم به إلى الأنبياء. وهذا ليس بصحيح. فإن الوحي الذي تأتي به الملائكة إلى الأنبياء لا تسترقه الشياطين، وهم معزولون عن سماعه وإن استرقوا بعض ما يسمعونه من ملائكة السماء الدنيا من أمور الحوادث، فالله ـ سبحانه ـ صان وحيه إلى الأنبياء أن تسترق الشياطين شيئًا منه، وعزلهم عن سمعه..

ولو أن قائل هذا القول فسر السابقات بالملائكة التي تسبق الشياطين بالرجم بالشهب قبل إلقاء الكلمة التي استرقها لكان له وجه. فإن الشيطان يبدر مسرعًا بإلقائه إلى وليه، فتسبقه الملائكة في نزوله بالشهب الثواقب فتهلكه، وربما ألقى الكلمة قبل إدراك الشهاب له.

وفسرت: ﴿ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ﴾ بالأنفس السابقات إلى طاعة الله ومرضاته. وأما ﴿ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ﴾ فأجمعوا على أنها الملائكة، فقال مقاتل: هم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت: يدبرون أمر الله تعالى في الأرض، وهم: ﴿ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ﴾ . قال عبدالرحمن بن سابط: جبريل موكل بالرياح وبالجنود، وميكائيل موكل بالقطر والنبات، وملك الموت موكل بقبض الأنفس، وإسرافيل ينزل بأمر الله عليهم. وقال ابن عباس: هم الملائكة، وكلهم الله بأمور عرفهم العمل بها والوقوف عليها، بعضهم لبني آدم يحفظون ويكتبون، وبعضهم وكلوا بالأمطار والنبات والخسف والمسخ،

والرياح والسحاب، انتهى.

وقد أخبر أن الله وكل بالرجم ملكًا، وللرؤيا ملك موكل بها، وللجنة ملائكة موكلون بعمارتها، وعمل آلاتها، وأوانيها، وغراسها وفرشها، ونمارقها وأرائكها، وللنار ملائكة موكلة بعمل ما فيها وإيقادها، وغير ذلك.

فالدنيا وما فيها، والجنة والنار، والموت وأحكام البرزخ ـ قد وكل الله بذلك كله ملائكة يدبرون ما شاء الله من ذلك. ولهذا كان الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الذي لا يتم الإيمان إلا به.

وأما من قال: إنها النجوم فليس هذا من قول أهل الإسلام، ولم يجعل الله النجوم تدبر شيئًا من الخلق، بل هي مدبرة ومسخرة. كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤] فالله سبحانه هو المدبر بملائكته لأمر العالم العلوي والسفلي.

قال الجرجاني: وذكر السابقات والمدبرات بالفاء وما قبلها بالواو، لأن ما قبلها أقسام مستأنفة، وهذان القسمان منشآن عن الذي قبلهما، كأنه قال: فاللاتي سبحن فسبقن. كما نقول قام فذهب، أوجب الفاء أن القيام كان سببًا للذهاب ولو قلت: قام وذهب لم تجعل القيام سببًا للذهاب.

واعترض عليه الواحدي، فقال: هذا غير مطرد في هذه الآية، لأنه يبعد أن يجعل السبق سببًا للتدبير، مع أن السابقات ليست الملائكة في قول المفسرين.

قلت: الملائكة داخلون في السابقات قطعًا. وأما اختصاص السابقات بالملائكة فهذا محتمل. وأما قوله: يبعد أن يكون السبق سببًا للتدبير فليس كما زعم، بل السبق المبادرة إلى تنفيذ ما يؤمر به الملك، فهو سبب للفعل الذي أمر به، وهو التدبير، مع أن الفاء دالة على التعقيب، وأن التدبير بتعقب السبق بلا تراخ. بخلاف الأقسام الثلاثة. والله أعلم.

وجواب القسم محذوف يدل عليه السياق، وهو البعث المستلزم لصدق الرسول وثبوت القرآن. أو أنه من القسم الذي أريد به التنبيه على الدلالة، والعبرة بالمقسم به

دون أن يراد به مقسمًا عليه بعينه. وهذا القسم يتضمن الجواب المقسم عليه وإن لم يذكر لفظًا، ولعل هذا مراد من قال: إنه محذوف للعلم به، لكن هذا الوجه ألطف مسلكًا. فإن المقسم به إذا كان دالًا على المقسم عليه مستلزمًا استغنى عن ذكره بذكره. وهذا غير كونه محذوفًا لدلالة ما بعده عليه فتأمله.

ولعل هذا قول من قال: إنه إنما أقسم برب هذه الأشياء، وحذف المضاف. فإن معناه صحيح، لكن على غير الوجه الذي قدروه. فإن إقسامه ـ سبحانه ـ بهذه الأشياء لظهور دلالتها على ربوبيته، ووحدانيته، وعلمه، وقدرته، وحكمته، فالإقسام بها في الحقيقة إقسام بربوبيته وصفات كماله فتأمله.

[(١)] إن الملائكة مؤكلة بالعالم العلوي والسلفي، تدبره بأمر الله ﷻ كما قال الله تعالى: ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾ [النازعات: ٥]. وقال: ﴿ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴾ [الذاريات: ٤]. وقال تعالى: ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝ ﴾ [المرسلات: ١-٥]. وقال: ﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝ ﴾.

وقد وكل الله سبحانه بالأفلاك والشمس والقمر ملائكة تحركها، ووكل بالرياح ملائكة تصرفها بأمره وهم خزنتها. قال الله تعالى: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٦]. وقال غير واحد من السلف: عتت على الخزان فلم يقدروا على ضبطها (ذكره البخاري في صحيحه). ووكل بالقطر [ملائكة وبالسحاب] ملائكة تسوقه إلى حيث أمرت [به].

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «بينا رجل بفلاة من الأرض إذ سمع صوتًا في سحابه يقول: اسق حديقة فلان. فتتبع السحابة حتى انتهت إلى حديقة فأفرغت ماءها فيها، فنظر فإذا رجل في الحديقة يحول الماء بمسحاة، فقال له: ما اسمك يا

(١) ٦٤ روضة المحبين.

عبدالله؟ فقال فلان. الاسم الذي سمعه في السحابة: فقال: إني سمعت قائلًا يقول في هذه السحابة: اسق حديقة فلان، فما تصنع في هذه الحديقة؟ فقال: إني انظر ما يخرج منها فأجعله ثلاثة أثلاث: ثلث أتصدق به، وثلث أنفقه على عيالي، وثلث أرده فيها»(١).

ووكل الله سبحانه بالجبال ملائكة، وثبت عن النبي ﷺ أنه جاءه ملك الجبال يسلم عليه ويستأذنه في هلاك قومه إن أحب، فقال: بل أستأني لهم، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئًا(٢). ووكل بالرحم ملكًا يقول: يا رب نطفة؟ يا رب علقة؟. يا رب مضغة؟ يا رب ذكر أم أنثى؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ وشقي أم سعيد؟ ووكل بكل عبد أربعة من الملائكة في هذه الدنيا: حافظان عن يمينه وعن شماله يكتبان أعماله، ومعقبات من بين يديه ومن خلفه أقلهم اثنان يحفظونه من أمر الله، ووكل بالموت ملائكة، ووكل بمساءلة الموتى ملائكة في القبور. ووكل بالرحمة ملائكة، وبالعذاب ملائكة، وبالمؤمن ملائكة يثبتونه ويؤزونه إلى الطاعات أزًا، ووكل بالنار ملائكة يبنونها ويوقدونها، ويصنعون أغلالها وسلاسلها، ويقومون بأمرها، ووكل بالجنة ملائكة يبنونها ويفرشوها، ويصنعون أرائكها وسررها وصحافها ونمارقها وزرابيها. فأمر العالم العلوي والسفلي والجنة والنار بتدبير الملائكة بإذن ربهم - تبارك وتعالى - وأمره: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]. و﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. فأخبر أنهم لا يعصونه في أمره، وأنهم قادرون على تنفيذ أوامره، ليس بهم عجز عنها، بخلاف من يترك ما أمر به عجزًا، فلا يعصي الله ما أمره، وإن لم يفعل ما أمره به.

وكذلك البحار قد وكلت بها ملائكة تسجرها وتمنعها أن تفيض على الأرض فتغرق أهلها، وكذلك أعمال بني آدم خيرها وشرها قد وكلت بها ملائكة تحصيها

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٩٨) وانظر: شرح النووي (١٨/ ١١٤-١١٥).

(٢) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٤/ ٢٨١ رقم ٢٦٢٤).

وتحفظها وتكتبها، ولهذا كان الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الذي لا يتم إلا به. وهي خمس: الإيمان بالله، وملائكته،وكتبه،ورسله، واليوم الآخر.

وإذا عرف [ذلك عرف] أن كل حركة في العالم فسببها الملائكة، وحركتهم طاعة الله بأمره وإرادته، فيرجع الأمر كله إلى تنفيذ مراد الرب ـ تعالى ـ شرعًا وقدرًا، والملائكة هم المنفذون ذلك بأمره، ولذلك سموا ملائكة من الألوكة وهي الرسالة، فهم رسل الله في تنفيذ أوامره.

***

﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾.

(١)عذاب القبر حق، وقد قيل: ولابد من انقطاعه،لأنه من عذاب الدنيا، والدنيا وما فيها فانٍ منقطع، فلابد أن يلحقهم الفناء والبلاء،ولا يعرف مقدار مدة ذلك. يجوز أن يحشر الله العباد يوم القيامة عراة في وقت خروجهم من قبورهم يوم البعث، ثم يكسوا الله المؤمن حلل الجنان، ويجعل على الكافر والعصاة سرابيل القطران. والتعبد في الآخرة بترك التكشف زائل.

المحشر: هل هو في أرض من أراضي الجنة، أو في أرض من أراضي الدنيا، أو في موضع لا من الجنة ولا من النار، فقد قيل أول حشر الناس عند قيامهم من قبورهم في هذه الأرض التي ماتوا ودفنوا فيها، ثم يحولون إلى الأرض التي تسمى الساهرة، فهذا معنى قوله: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾ [النازعات: ١٤]. والساهرة هي التي يحاسبون عليها، فإذا فرغوا من الحساب، وجازوا على الصراط، وميز بين المجرمين والمؤمنين، ضرب بينهم بسور، فكان ما وراء السور مما يلي الجنة من أرض الجنة، وصار ما دون السور مما يلي النار من أرض جهنم وموضع الحساب يصير من جهنم.

***

(١) ١٠٥ بدائع جـ٣.

﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

(١) كثير من الناس يطلب من صاحبه بعد نيله درجة الرياسة الأخلاق التي كان يعامله بها قبل الرياسة فلا يصادفها، فينتقض ما بينهما من المودة، وهذا من جهل الصاحب الطالب للعادة، وهو بمنزلة من يطلب من صاحبه إذا سكر أخلاق الصاحي، وذلك غلط، فإن للرياسة سكرة: كسكرة الخمر أو أشد. ولو لم يكن للرياسة سكرة لما اختارها صاحبها على الآخرة الدائمة الباقية، فسكرتها فوق سكرة القهوة بكثير.

ومحال أن يرى من السكران أخلاق الصاحي وطبعه، ولهذا أمر الله تعالى أكرم خلقه عليه بمخاطبة رئيس القبط بالخطاب اللين، فمخاطبة الرؤساء بالقول اللين أمر مطلوب شرعًا وعقلًا وعرفًا. ولذلك تجد الناس كالمفطورين عليه، وهكذا كان النبي ﷺ يخاطب رءوساء العشائر والقبائل.

وتأمل امتثال موسى لما أمر به كيف قال لفرعون: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨، ١٩]. فأخرج الكلام معه مخرج السؤال والعرض لا مخرج الأمر. وقال تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ ولم يقل: إلى أن أزكيك. فنسب الفعل إليه هو، وذكر لفظ التزكي دون غيره، لما فيه من البركة والخير والتمام. ثم قال: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾. أكون كالدليل بين يديك الذي يسير أمامك. وقال: إلى ربك، استدعاء لإيمانه بربه الذي خلقه ورزقه، ورباه بنعمه صغيرًا ويافعًا وكبيرًا.

(٢) ثم قرر سبحانه بعد هذا القسم أمر المعاد، ونبوة موسى المستلزمة لنبوة محمد ﷺ، إذ من المحال أن يكون موسى نبيًا ومحمد ليس نبيًا، مع أن ما يثبت نبوة موسى فلمحمد نظيره أو أعظم منه. وقرر سبحانه تكليمه لموسى بندائه له بنفسه. فقال: ﴿إِذْ

---

(١) ١٣٢ بدائع جـ٣.
(٢) ٨٨ التبيان.

نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [النازعات: ١٦]. فأثبت المستلزم للكلام والتكليم. وفي موضع آخر أثبت النجاء والنداء. والنجاء نوع من التكليم، ومحال ثبوت النوع بدون الجنس.

ثم أمره أن يخاطبه بألين خطاب، فيقول له: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨، ١٩] ففي هذا من لطف الخطاب ولينه وجوه:

(أحدها): إخراج الكلام مخرج العرض، ولم يخرجه مخرج الأمر والإلزام، وهو ألطف. ونظيره قول إبراهيم لضيفه المكرمين: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧] ولم يقل: كلوا.

(الثاني): قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ والتزكي: النماء، والطهارة، والبركة، والزيادة. فعرض عليه أمرًا يقبله كل عاقل، ولا يرده إلا كل أحمق جاهل.

(الثالث): قوله: ﴿تَزَكَّىٰ﴾ ولم يقل: أزكيك، فأضاف التزكية إلى نفسه. وعلى هذا يخاطب الملوك.

(الرابع): قوله: ﴿وَأَهْدِيَكَ﴾ أي: أكون دليلًا لك. وهاديًا بين يديك، فنسب الهداية إليه، والتزكي إلى المخاطب. أي: أكون دليلًا لك وهاديًا، فتزكى أنت كما تقول للرجل: هل لك أن أدلك على كنز تأخذ منه ما شئت؟ وهذا أحسن من قوله أعطيك.

(الخامس): قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ فإن في هذا ما يوجب قبول ما دل عليه، وهو أنه يدعوه ويوصله إلى ربه فاطره وخالقه الذي أوجده، ورباه بنعمه: جنينًا، وصغيرًا وكبيرًا، وآتاه الملك، وهو نوع من خطاب الاستعطاف والإلزام. كما تقول لمن خرج عن طاعة سيده: ألا تطيع سيدك ومولاك ومالكك؟ وتقول للولد: ألا تطيع أباك الذي رباك.

(السادس): قوله: ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ أي: إذا اهتديت إليه وعرفته خشيته. لأن من عرف الله خافه. ومن لم يعرفه لم يخفه. فخشيته تعالى مقرونة بمعرفته. وعلى قدر المعرفة تكون الخشية.

(السابع): أن في قوله: ﴿ هَل لَّكَ ﴾ فائدة لطيفة. وهي أن المعنى: هل لك في ذلك حاجة أو أرب؟ ومعلوم أن كل عاقل يبادر إلى قبول ذلك، لأن الداعي إنما يدعو إلى حاجته ومصلحته لا إلى حاجة الداعي. فكأنه يقول: الحاجة لك وأنت المتزكي، وأنا الدليل لك والمرشد لك إلى أعظم مصالحك، فقابل هذا غاية الكفر والعناد. وادعى أنه رب العالمين: هذا. وهو يعلم أنه ليس بالذي خلق فسوى، ولا قدر فهدى، فكذب الخبر، وعصى الأمر، ثم أدبر يسعى بالخديعة والمكر، فحشر جنوده فأجابوه، ثم نادى فيهم بأنه ربهم الأعلى، واستخفهم فأطاعوه، وفبطش به جبار السموات والأرض بطشة عزيز مقتدر، وأخذه نكال الآخرة والأولى، ليعتبر بذلك من يعتبر، فاعتبر بذلك من خشي ربه من المؤمنين، وحق القول على الكافرين.

ثم أقام سبحانه حجته على العالمين بخلق ما هو أشد منهم وأكبر، وأعظم وأعلى وأرفع، وهو خلق السماء وبناؤها، ورفع سمكها وتسويتها، وإظلام ليلها، وإخراج ضحاها، وخلق الأرض ومدها وبسطها وتهيئتها لما يراد منها، وأخرج منها شراب الحيوان وأقواتهم، وأرسى الجبال فجعلها رواسي للأرض، لئلا تميد بأهلها، وأودعها من المنافع مايتم به مصالح الحيوان الناطق والبهيم، فمن قدر على ذلك كله كيف يعجز عن إعادتكم خلقًا جديدًا؟

فتأمل دلالة المقسم به المذكور في أول السورة على المعاد والتوحيد وصدق الرسل كدلالة هذا الدليل المذكور، وإذا كان هذا هو المقصود لم يكن محتاجًا إلى جواب. والله أعلم.

***

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ ﴾.

(١) ارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولًا وما صارت إليه ثانيًا، وأنه لو اجتمع الإنس

---

(١) ١٩٦ مفتاح جـ١.

والجن على أن يخلقوا لها سمعًا أو بصرًا أو عقلًا أو قدرة أو علمًا أو روحًا، بل عظمًا واحدًا من أصغر عظامها، بل عرقًا من أدق عروقها، بل شعرة واحدة لعجزوا عن ذلك.

بل ذلك كله آثار صنع الله الذي أتقن كل شيء في قطرة من ماء مهين، فمن هذا صنعه في قطرة ماء! فكيف صنعه في ملكوت السموات، علوها، وسعتها، واستدارتها، وعظم خلقها، وحسن بنائها، وعجائب شمسها، وقمرها، وكواكبها، ومقاديرها وأشكالها، وتفاوت مشارقها ومغاربها، فلا ذرة فيها تنفك عن حكمة، بل هي أحكم خلقًا، وأتقن صنعًا، وأجمع العجائب من بدن الإنسان، بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات. قال الله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ إلى قوله: ﴿لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

فبدأ بذكر خلق السموات. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وهذا كثير في القرآن: فالأرض والبحار والهواء وكل ما تحت السموات بالإضافة إلى السموات كقطرة في بحر، ولهذا قل أن تجيء سورة في القرآن إلا وفيها ذكرها، إما إخبارًا عن عظمها وسعتها، وإما إقسامًا بها، وإما دعاءً إلى النظر فيها، وإما إرشادًا للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها، وإما استدلالًا منه ـ سبحانه ـ بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيامة، وإما استدلالًا منه بربوبيته لها على وحدانيته، وأنه الله الذي لا إله إلاهو، وإما استدلالًا منه بحسنها واستوائها والتئام أجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته.

(١)قد اتفق السالكون إلى الله على اختلاف طرقهم وتباين سلوكهم على أن النفس

---

(١) ٧٥ إغاثة جـ١.

قاطعة بين القلب وبين الوصول إلىٰ الرب، وأنه لا يدخل عليه سبحانه، ولا يوصل إليه إلا بعد إماتتها وتركها بمخالفتها والظفر بها.

فإن الناس علىٰ قسمين: قسم ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته، وصار طوعًا لها تحت أوامرها، وقسم ظفروا بنفوسهم فقهروها، فصارت طوعًا لهم منقادة لأوامرهم، قال بعض العارفين: انتهىٰ سفر الطالبين إلىٰ الظفر بأنفسهم، فمن ظفر بنفسه أفلح وأنجح، ومن ظفرت به نفسه خسر وهلك، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٤١].

فالنفس تدعو إلىٰ الطغيان وإيثار الحياة الدنيا، والرب يدعو عبده إلىٰ خوفه ونهي النفس عن الهوىٰ، والقلب بين الداعيين، يميل إلىٰ هذا الداعي مرة وإلىٰ هذا مرة، وهذا موضع المحنة والابتلاء، وقد وصف سبحانه النفس في القرآن بثلاث صفات: المطمئنة، والأمارة بالسوء، واللوامة.

فاختلف الناس: هل النفس واحدة، وهذه أوصاف لها. أم للعبد ثلاث أنفس؟ نفس مطمئنة، ونفس لوامة، ونفس أمارة.

فالأول: قول الفقهاء والمتكلمين. وجمهور المفسرين، وقول محققي الصوفية.

والثاني: قول كثير من أهل التصوف.

والتحقيق: أنه لا نزاع بين الفريقين؛ فإنها واحدة باعتبار ذاتها، وثلاث باعتبار صفاتها، فإذا اعتبرت بنفسها فهي واحدة، وإن اعتبرت مع كل صفة دون الأخرىٰ فهي متعددة، وما أظنهم يقولون: إن لكل أحد ثلاث أنفس: كل نفس قائمة بذاتها، مساوية للأخرىٰ في الحد والحقيقة، وأنه إذا قبض العبد قبضت له ثلاث أنفس، كل واحدة مستقلة بنفسها.

وحيث ذكر سبحانه النفس، وأضافها إلىٰ صاحبها؛ فإنما ذكرها بلفظ الإفراد، وهكذا في سائر الأحاديث، ولم يجئ في موضع واحد «نفوسك» و«نفوسه» ولا

«أنفسك» و«أنفسه»، وإنما جاءت مجموعة عند إرادة العموم، كقوله: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]. أو عند إضافتها إلى الجمع؛ كقوله ﷺ: «إنما أنفسنا بيد الله»[(١)]. ولو كانت في الإنسان ثلاث أنفس لجاءت مجموعة إذا أضيفت إليه ولو في موضع واحد.

***

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ ﴾.

[(٢)]من تأمل القران والسنة وجد اعتناءهما بذكر الشيطان وكيده ومحاربته أكثر من ذكر النفس، فإن النفس المذمومة ذكرت في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف: ٥٣]. واللوامة في قوله: ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة: ٢]. وذكرت النفس المذمومة في قوله: ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠]. وأما الشيطان فذكر في عدة مواضع، وأفردت له سورة تامة. فتحذير الرب تعالى لعباده منه جاء أكثر من تحذيره من النفس، وهذا هو الذي لا ينبغي غيره؛ فإن شر النفس وفسادها ينشأ من وسوسته، فهي مركبه وموضع شره، ومحل طاعته، وقد أمر الله سبحانه بالاستعاذة منه عند قراءة القرآن وغير ذلك،وهذا لشدة الحاجة إلى التعوذ منه، ولم يأمر بالاستعاذة من النفس في موضع واحد، وإنما جاءت الاستعاذة من شرها في خطبة الحاجة في قوله ﷺ: «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا»[(٣)] كما تقدم ذلك في الباب الذي قبله.

---

(١) فعن علي بن أبي طالب ﷺ أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت النبي ﷺ ليلة فقال: «ألا تصليان؟» فقلت: يا رسول الله، أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلنا ذلك ولم يرجع إليَّ شيئاً، ثم سمعته وهوموليٍ يضرب فخذه وهو يقول: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٤] أخرجه البخاري (رقم ١١٢٧) ومسلم (رقم ٧٧٥) وانظر: فتح الباري (٣/ ١١) (١٣/ ٣١٤).

(٢) ٩٠ إغاثة.

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ١١٠٥) والنسائي في المجتبى (رقم ١٤٠٤) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١١٤ رقم ٢٥٨) وهناد في الزهد (١/ ٢٧٩ رقم ٤٩٢) وحسنه الترمذي. وانظر: شرح النووي (٦/ ١٦٠).

وقد جمع النبي ﷺ بين الاستعاذة من الأمرين في الحديث الذي رواه الترمذي وصححه عن أبي هريرة ﷺ أن أبا بكر الصديق ﷺ قال: يا رسول الله، علمني شيئًا أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت، قال: «**قل: اللهم عالم الغيب والشهادة، فاطر السماوات والأرض، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه، وأن أقترف على نفسي سوءًا أو أجره إلى مسلم، قله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك**»(١).

(٢)وأما الهوىٰ فهو ميل النفس إلى الشيء، وفعله هَوِيَ يَهْوِي هوًى، مثل عَمِيَ يَعْمَى عمىً. وأما هَوَىٰ يَهْوَىٰ بالفتح فهو السقوط، ومصدره الهُوِيُّ، ويقال الهَوَىٰ أيضًا على نفس المحبوب، قال الشاعر:

إن التي زعمت فؤادك ملها ... خلقت هواك كما خلقت هوًى لها(٣)

ويقال: هذا هوىٰ فلان وفلانة هواه، أي مهويته ومحبوبته، وأكثر ما يستعمل في الحب المذموم، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

ويقال: إنما سمي هوىٰ لأنه يهوىٰ بصاحبه. وقد يستعمل في الحب الممدوح استعمالًا مقيدًا. ومنه قول النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به**»(٤). وفي الصحيحين عن عروة قال: كانت خولة بنت حكيم من اللائي وهبن

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥٢٩) وأحمد (١/ ١٤) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ١٢٠٤) والطبراني في الدعاء (رقم ٢٦٣) وفي مسند الشاميين (٢/ ٢٢ رقم ٨٤٩) وحسنه المنذري في الترغيب (١/ ٢٣٦).

(٢) ٢٦ روضة المحبين.

(٣) هذا البيت من بحر الكامل، وينسب إلى كل من مجنون ليلى: قيس بن الملوح المتوفى سنة ٦٨هـ وينسب أيضاً إلى عروة بن أذينة المتوفى سنة ١٣٠هـ وينسب أيضاً إلى بشار بن برد المتوفى سنة ١٦٧هـ. وذكر البيت ابن عساكر في تاريخه (٤٠/ ٢٠١، ٢٠٢)، ونسبه إلى عروة بن أذينة.

(٤) أخرجه الديلمي في الفردوس (٥/ ١٥٣ رقم ٧٧٩١) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٤/ ١٦٤) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٢ رقم ١٥) وأبو الحسن الطوسي في الأربعين (رقم ٩) والخطيب في =

أنفسهن للنبي ﷺ فقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أما تستحي المرأة أن تهب نفسها للرجل؟ فلما نزلت: ﴿ ۞ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ﴾ [الأحزاب: ٥١]. قلت: يا رسول الله ما أرى ربك إلا يسارع هواك[١].

[٢]إن أعدى عدو للمرء شيطانه وهواه، وأصدق صديق له عقله والملك الناصح له، فإذا اتبع هواه أعطى بيده للعدو، واستأسر له، وأشمته به وساء صديقه ووليه، وهذا هو بعينه هو جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماته الأعداء.

إن لكل عبد بداية ونهاية، فمن كانت بدايته اتباع الهوى، كانت نهايته الذل والصغار والحرمان والبلاء المتبوع بحسب ما اتبع من هواه، بل يصير له ذلك في نهايته عذابًا يعذب به في قلبه، كما قال القائل:

مآرب كانت في الشباب لأهلها عَذابًا فصار في المشيب عَذابا

فلو تأملت [حال] كل ذي حال سيئة زرية لرأيت بدايته الذهاب مع هواه وإيثاره على عقله، ومن كانت بدايته مخالفة هواه وطاعة داعي رشده كانت نهايته العز والشرف والغنى والجاه عند الله وعند الناس. قال أبو علي الدقاق: من ملك شهوته في حال شبيبته أعزه الله تعالى في حال كهولته، وقيل للمهلب بن أبي صفرة. بم نلت ما نلت؟ قال: بطاعة الحزم وعصيان الهوى، فهذا في بداية الدنيا ونهايتها، وأما الآخرة فقد جعل الله ﷻ الجنة نهاية من خالف هواه، والنار نهاية من اتبع هواه.

تاريخه (٤/ ٣٦٨) وأبو طاهر السلفي في معجم السفر (رقم ١٢٦٥) قال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٣٨٦): حديث حسن صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح. وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٢٨٩): أخرجه الحسن بن سفيان وغيره ورجاله ثقات، وقد صححه النووي في آخر الأربعين.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥١١٣) ومسلم (رقم ١٤٦٤) وانظر: فتح الباري (٩/ ١٦٤) وشرح النووي (١٠/ ٤٩-٥٠).

(٢) ٥١٦ روضة المحبين.

[(١)]فأما مخالفة الهوىٰ فلم يجعل الله للجنة طريقًا غير مخالفته، ولم يجعل للنار طريقًا غير متابعته، قال الله تعالىٰ: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٤١]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦]. قيل: هو العبد يهوىٰ المعصية فيذكر مقام ربه عليه في الدنيا ومقامه بين يديه في الآخرة فيتركها لله.

[(٢)]كتاب لعسر الولادة: قال الخلال : حدثني عبدالله بن أحمد قال: رأيت أبي يكتب للمرأة إذا عسر عليها ولادتها في جام أبيض، أو شيء نظيف، يكتب حديث ابن عباس ﷺ: «**لا إله إلا الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، كأنهم يوم يرون ما يوعدن، لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها**»[(٣)].

قال الخلال: أبنأنا أبو بكر المروزي: أن أبا عبدالله جاءه رجل، فقال: يا أبا عبدالله، تكتب لامرأة قد عسرت عليها ولادتها منذ يومين، فقال: قل له يجيئ بجام واسع وزعفران، ورأيته يكتب لغير واحد[(٤)].

ويذكر عن عكرمة عن ابن عباس قال: مر عيسىٰ ـ صلىٰ الله علىٰ نبينا وعليه وسلم ـ علىٰ بقرة قد اعترض ولدها في بطنها، فقالت: يا كلمة الله! ادع الله أن يخلصني مما أنا فيه، فقال: يا خالق النفس من النفس، ويا مخلص النفس من النفس، ويا مخرج النفس من النفس، خلصها، قال: فرمت بولدها، فإذا هي قائمة تشمه. قال: فإذا عسر علىٰ المرأة ولدها. فاكتبه لها. وكما تقدم من الرقىٰ، فإن كتابته نافعة، ورخص جماعة

---

(١) ٤٢٨ روضة.
(٢) ٣٨١ زاد المعاد جـ٣.
(٣) أخرجه أبو القاسم الجرجاني في تاريخ جرجان (ص ٢٢٨) وانظر: عون المعبود (١٠/ ٩٤).
(٤) انظر: عون المعبود (١٠/ ٩٤).

من السلف في كتابة بعض القرآن وشربه، وجعل ذلك من الشفاء الذي جعله الله فيه.

كتاب آخر لذلك: يكتب في إناء نظيف: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ١ - ٤] وتشرب منه الحامل، ويرش على بطنها.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النازعات

والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ عَبَسَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝﴾.

[١]يقال: لهى عن الشيء يلهى: كغشى يغشى إذا غفل، ولها به يلهو، إذا لعب؛ وفي الحديث: «فلها رسول الله ﷺ بشيء كان في يديه»[٢] أي: اشتغل به، ومنه الحديث الآخر: «إذا استأثر الله بشيء فالْهَ عنه»[٣]. وسئل الحسن: عما يجده الرجل من البلة بعد الوضوء والاستنجاء؟ فقال: اله عنه. وكان ابن الزبير إذا سمع صوت الرعد لها عن حديثه، وقال عمر ﷺ لرجل بعثه بمال إلى أبي عبيدة، ثم قال للرسول: «تله عنه ثم انظر ماذا يصنع به» ومنه قول كعب بن زهير:

وقال كل صديق كنت آمله ... لا ألهينك؛ إني عنك مشغول[٤]

أي: لا أشغلك عن شأنك وأمرك، وفي المسند «سألت ربي أن لا يعذب اللاهين من أمتي» وهم البله الغافلون الذين لم يتعمدوا الذنوب، وقيل: هما الأطفال الذين لم يقترفوا ذنبًا.

---

(١) ٨٢ أعلام جـ٤. طبعة دار الجيل.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦١٩١) ومسلم (رقم ٢١٤٩) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥٧٦) وشرح النووي (١٤/ ١٢٧).

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٣١/ ١٥٤).

(٤) هذا البيت من بحر البسيط، وينسب إلى كعب بن زهير في قصيدته المشهورة بانت سعاد، وكان كعب في بداية الدعوة الإسلامية، يهجو النبي ويشبب بنساء المسلمين، فأهدر النبي ﷺ دمه، ولما جاءه كعب مستأمناً وقد أسلم، وأنشد رسول الله ﷺ لاميته المشهورة التي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول * متيم إثرها لم يجز مكبول

فعفا عنه النبي ﷺ وخلع عليه بردته.

أخبر خبره هذا الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٧٤-٦٧٥ رقم ٦٤٨٠) والطبراني في الكبير (١٩/ ١٧٧-١٧٨ رقم ٤٠٣) وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٢٨٣) ولسان العرب (١٥/ ٢٦٠).

﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ ﴾.

(١) إذا تأملت ما دعا الله سبحانه في كتابه عباده إلى الفكر فيه أوقعك على العلم به ﷻ وبوحدانيته، وصفات كماله، ونعوت جلاله، من عموم قدرته، وعلمه، وكمال حكمته، ورحمته، وإحسانه، وبره، ولطفه، وعدله، ورضاه، وغضبه، وثوابه، وعقابه، فبهذا تعرف إلى عباده وندبهم إلى التفكر في آياته، ونذكر لذلك أمثله مما ذكرها الله سبحانه في كتابه ليستدل بها على غيرها، فمن ذلك خلق الإنسان وقد ندب سبحانه إلى التفكر فيه والنظر في غير موضع من كتابه: كقوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ [الطارق: ٥] وقوله تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات: ٢١]. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ [الحج: ٥].وقال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة: ٣٦- ٤٠]. وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴾ [المرسلات: ٢٠- ٢٣]. وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٧٧]. وقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ

(١) ١٨٧ مفتاح جـ١.

فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤]. وهذا كثير في القرآن يدعو العبد إلى النظر والفكر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره. إذ نفسه وخلقه من أعظم الدلائل على خالقه وفاطره وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه، وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ما تنقضي الأعمار في الوقوف على بعضه، هو غافل عنه معرض عن التفكر فيه، ولو فكر في نفسه لزجره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره. قال الله تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ [عبس: ١٧-٢٢]. فلم يكرر سبحانه على أسماعنا وعقولنا ذكر هذا لنسمع لفظ: النطفة والعلقة والمضغة والتراب، ولا لنتكلم بها فقط ولا لمجرد تعريفنا بذلك، بل لأمر وراء ذلك كله، هو المقصود بالخطاب، وإليه جرى ذلك الحديث: «فانظر الآن إلى النطفة» بعين البصيرة، وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر، لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وأنتنت. كيف استخرجها رب الأرباب العليم القدير من بين الصلب والترائب منقادة لقدرته مطيعة لمشيئته مذللة الانقياد على ضيق طرقها واختلاف مجاريها إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها.

وكيف جمع ـ سبحانه ـ بين الذكر والأنثى، وألقى المحبة بينهما، وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع الذي هو سبب تخليق الولد وتكوينه. وكيف قدر اجتماع ذينك الماءين مع بعد كل منهما عن صاحبه، وساقهما من أعماق العروق والأعضاء وجمعهما في موضع واحد، جعل لهما قرارًا مكينًا، لا يناله هواء يفسده، ولا برد يجمده، ولا عارض يصل إليه، ولا آفة تتسلط عليه.

ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشربة علقة حمراء، تضرب إلى سواد، ثم جعلها مضغة لحم، مخالفة للعلقة في لونها وحقيقتها وشكلها، ثم جعلها عظامًا مجردة لا كسرة عليه، مباينة للمضغة في شكلها وهيأتها وقدرها وملمسها ولونها.

(وانظر) كيف قسم تلك الأجزاء المتشابهة المتساوية إلى الأعصاب والعظام

والعروق والأوتار واليابس واللين وبين ذلك. ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوى رباط وأشده وأبعده عن الانحلال، وكيف كساها لحمًا ركبه عليها، وجعله وعاء لها، وغشاء وحافظًا، وجعلها حاملة له مقيمة له، فاللحم قائم بها. وهي محفوظة به، وكيف صورها فأحسن صورها، وشق لها السمع والبصر والفم والأنف وسائر المنافذ.

***

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾.

[1]جعل سبحانه نظره في إخراج طعامه من الأرض دليلًا على إخراجه هو منها بعد موته، استدلالًا بالنظير على النظير.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة عبس

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ١٤٧ أعلام جـ١.

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝ ﴾.

[1] في الحاضرين أبو الوفاء بن عقيل. فقال قائل: يا سيدي هب أنه أنشر الموتى للبعث والحساب، وزوج النفوس بقرنائها بالثواب والعقاب، فلم هدم الأبنية، وسير الجبال، ودك الأرض، وفطر السماء، ونثر النجوم، وكور الشمس؟! فقال[2]: إنما بنى لهم الدار للسكني والتمتع، وجعلها، وجعل ما فيها للاعتبار والتفكر والاستدلال عليه بحسن التأمل والتذكر، فلما انقضت مدة السكنى، وأجلاهم من الدار خربها لانتقال الساكن منها. فأراد أن يعلمهم بأن السكونين كانت معمورة بهم، وفي إحالة الأحوال، وإظهار تلك الأهوال،وبيان المقدرة بعد بيان العزة وتكذيب لأهل الإلحاد وزنادقة المنجمين وعباد الكواكب والشمس والقمر والأوثان، فيعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، فإذا رأوا آلهتهم قد انهدمت، وأن معبوداتهم قد انتثرت وانفطرت، ومحالها قد تشققت. ظهرت فضائحهم، وتبين كذبهم، وظهر أن العالم مربوب محدث مدبر، له رب يصرفه، كيف يشاء تكذيبًا لملاحدة الفلاسفة القائلين بالقدم. فكم لله من حكمة في هدم هذه الدار، ودلالة على عظم عزته وقدرته وسلطانه وانفراده بالربوبية وانقياد المخلوقات بأسرها لقهره وإذعانها لمشيئته، فتبارك الله رب العالمين.

***

﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝ ﴾.

[3] الدليل على حشر الوحوش وجوه: (أحدها): قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ

(١) ١٨٢ بدائع جـ٣.

(٢) المقصود به أبو الوفاء بن عقيل الإمام الحنبلي صاحب التصانيف الممتعة، منها كتاب الفنون، رحمه الله وأجزل مثوبته.

(٣) ١٨٣ بدائع جـ٣.

حُشِرَتْ ﴿٥﴾ ﴾ [التكوير: ٥]. (الثاني): قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٨]. (الثالث): حديث مانع صدقة الإبل والبقر والغنم، وإنها تجيء يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها[1]، وهو متفق علىٰ صحته. (الرابع): حديث أبي ذر أن النبي ﷺ رأىٰ شاتين ينتطحان فقال: «**يا أبا ذر! أتدري فيما ينتطحان؟!**» قال:قلت: لا. قال: «**لكن الله يدري وسيقضي بينهما**»[2] رواه أحمد في مسنده. (الخامس): الآثار الواردة في قوله تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ [النبأ: ٤٠]. وأن الله تعالىٰ يجمع الوحوش، ثم يقتص من بعضها لبعض، ثم يقول لها: كوني ترابًا. فتكون ترابًا؛ فعندها يقول الكافر: ﴿ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾[3].

***

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ ﴾.

[4]أقسم سبحانه بالنجوم في أحوالها الثلاثة. من طلوعها، وجريانها، وغروبها، هذا قول علي، وابن عباس، وعامة المفسرين، وهو الصواب.

والخنس جمع خانس.والخنس: الانقباض والاختفاء، ومنه سمي الشيطان خناسًا،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٤٠٢) ومسلم (رقم ٩٨٧) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٦٩) وشرح النووي (٧/ ٦٥).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٦٢) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٥٢): رواه كله أحمد والبزار بالرواية الأولى وكذلك الطبراني في المعجم الأوسط وفيها ليث بن أبي سليم وهو مدلس، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح غير شيخه ابن عائشة وهو ثقة ورجال الرواية الثانية رجال الصحيح وفيها راوٍ لم يسمّ.

(٣) سبق هذا النقل في تفسير سورة النبأ (ص ٢٣٣).

(٤) ٧٢ التبيان.

لانقباضه وانكماشه حين ذكر العبد ربه. ومنه قول أبي هريرة فانخنست[١]. والكنس: جمع كانس، وهو الداخل في كناسه، أي في بيته. ومنه تكنست المرأة إذا دخلت في هودجها، ومنه كنست الظباء، إذا أوت إلى أكناسها.

والجواري جمع جارية، كغاشية وغواش. قال علي بن أبي طالب ﷺ: النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل[٢]. وهذا قول مقاتل وعطاء وقتادة وغيرهم، قالوا: الكواكب تخنس بالنهار، فتختفي ولا ترى، وتكنس في وقت غروبها. ومعنى تخنس ـ على هذا القول ـ تتأخر عن البصر، وتتوارى عنه بإخفاء النهار لها، وفيه قول آخر، وهو أن خنوسها رجوعها، وهي حركتها الشرقية، فإن لها حركتين: حركة بفعلها وحركة بنفسها، فخنوسها بنفسها راجعة، وعلى هذا فهم قسم بنوع من الكواكب، وهي السيارة، وهذا قول الفراء. وفيه قول ثالث، وهو أن خنوسها وكنوسها واختفاءها وقت مغيبها، فتغيب في مواضعها التي تغيب فيها، وهذا قول الزجاج.

ولما كان للنجوم حال ظهور، وحال اختفاء، وحال جريان وحال غروب، أقسم سبحانه بها في أحوالها كلها. ونبه بخنوسها على حال ظهورها؛ لأن الخنوس هو الاختفاء بعد الظهور، ولا يقال لما لا يزال مختفيًا: إنه قد خنس، فذكر سبحانه جريانها وغروبها صريحًا، وخنوسها وظهورها، واكتفى من ذكر طلوعها بجريانها الذي مبدؤه الطلوع،فالطلوع أول جريانها. فتضمن القسم طلوعها وغروبها وجريانها،واختفاؤها، وذلك من آياته ودلائل ربوبيته.

---

(١) فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ لقيه في بعض طرق المدينة وهو جنب فانخنس منه، فذهب فاغتسل ثم جاء، فقال: «أين كنت يا أبا هريرة؟» قال: كنت جنباً، فكرهت أن أجالسك وأنا على غير طهارة، فقال: «سبحان الله إن المسلم لا ينجس» أخرجه البخاري(رقم ٢٨٣) ومسلم (رقم ٣٧١) وانظر: فتح الباري (١/ ٣٩٠) وشرح النووي (٤/ ٦٧).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٣٠/ ٧٤) وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤٠٧ رقم ١٩١٧٠) وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ٦٩٤).

وليس قول من فسرها بالظباء وبقر الوحش بالظاهر لوجوه:

(أحدها): أن هذه الأحوال في الكواكب السيارة أعظم آية وعبرة.

(الثاني): اشتراك أهل الأرض في معرفته بالمشاهدة والعيان.

(الثالث): أن البقر والظباء ليست لها حالة تختفي فيها عن العيان مطلقًا، بل لا تزال ظاهرة في الفلوات.

(الرابع): إن الذين فسروا الآية بذلك قالوا: ليس خنوسها من الاختفاء. قال الواحدي: هو من الخنس في الأنف، وهو تأخر الأرنبة وقصر القصبة، والبقر والظباء أنوفهن خنس، والبقرة خنساء، والظبي أخنس. ومنه سميت الخنساء لخنس أنفها، ومعلوم أن هذا أمر خفي يحتاج إلى تأمل، وأكثر الناس لا يعرفونه، وآيات الرب التي يقسم بها لا تكون إلا ظاهرة جلية يشترك في معرفتها الخلائق، وليس الخنس في أنف البقرة والظباء بأعظم من الاستواء والاعتدال في أنف ابن آدم، فالآية فيه أظهر.

(الخامس): أن كنوسها في أكنتها ليس بأعظم من دخول الطير وسائر الحيوانات في بيته الذي يأوي فيه ولا أظهر منه، حتى يتعين للقسم.

(السادس): أنه لو كان جمعًا للظبي لقال الخُنْس ـ بالتسكين ـ لأنه جمع أخنس، فهو كأحمر وحمر، ولو أريد به جمع بقرة خنساء لكن على وزن فعلاء أيضًا، كحمراء وحمر، فلما جاء جمعه على فعَّل ـ بالتشديد ـ استحال أن يكون جمعًا لواحد من الظباء والبقر؛ وتعين أن يكون جمعًا لخانس، كشاهد وشهد، وصائم وصوم، وقائم وقوم، ونظائرها.

(السابع): أنه ليس بالبين إقسام الرب تعالى بالبقر والغزلان، وليس هذا عرف القرآن ولا عادته، وإنما يقسم سبحانه من كل جنس بأعلاه.

كما أنه لما أقسم بالنفوس أقسم بأعلاها، وهي النفس الإنسانية. ولما أقسم بكلامه أقسم بأشرفه وأجله، وهو القرآن. ولما أقسم بالعلويات أقسم بأشرفها وهي السماء، وشمسها وقمر، ونجومها. ولما أقسم بالزمان أقسم بأشرفه، وهو الليالي العشر.

وإذا أراد سبحانه أن يقسم بغير ذلك أدرجه في العموم، كقوله: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩]. وقوله: ﴿ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴾ في قراءة رسول الله ﷺ، ونحو ذلك.

(الثامن): أن اقتران القسم بالليل والصبح يدل على أنها النجوم، وإلا فليس باللائق اقتران البقر والغزلان والليل والصبح في قسم واحد. وبهذا احتج أبو إسحاق على أنها النجوم. فقال: هذا أليق بذكر النجوم منه بذكر الوحش.

(التاسع): أنه لو أراد ذلك سبحانه لبينه وذكر ما يدل عليه، كما أنه لما أراد بالجواري السفن قال: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴾ [الشورى: ٣٢]. وهنا ليس في اللفظ ولا في السياق ما يدل على أنها البقر والظباء. وفيه ما يدل على أنها النجوم من الوجوه التي ذكرناها وغيرها.

(العاشر): أن الارتباط الذي بين النجوم التي هي هداية للسالكين ورجوم للشياطين وبين المقسم عليه ـ وهو القرآن، الذي هو هدى للعالمين، وزينة للقلوب، وداحض لشبهات الشيطان ـ أعظم من الارتباط الذي بين البقر والظباء والقرآن. والله أعلم.

واختلف في عسعسة الليل، هل هي إقباله أم إدباره؟ فالأكثرون على أن عسعس بمعنى: ولى وذهب وأدبر. هذا قول علي وابن عباس وأصحابه. قال الحسن: أقبل بظلامه، وهو إحدى الروايتين عن مجاهد.

فمن رجح الإقبال قال: أقسم الله ﷻ بإقبال الليل وإقبال النهار. فقوله: ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝ ﴾ [التكوير: ١٨] مقابل لليل إذا عسعس. قالوا: ولهذا أقسم الله بـ ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ [الليل: ١، ٢] وبالضحى. قالوا: فغشيان الليل نظير عسعسته، وتجلي النهار نظير تنفس الصبح، إذ هو مبدؤه وأوله.

ومن رجح أنه إدباره احتج بقوله تعالى: ﴿ كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝ وَٱلصُّبۡحِ

إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ [المدثر: ٣٢- ٣٤] فأقسم بإدبار الليل وإسفار الصبح، وذلك نظير عسعسة الليل، وتنفس الصبح.

قالوا: والأحسن أن يكون القسم بانصرام الليل، وإقبال النهار. فإن عقيبه من غير فصل. فهذا أعظم في الدلالة والعبرة، بخلاف إقبال الليل وإقبال النهار، فإنه لم يعرف القسم في القرآن بهما، ولأن بينهما زمنًا طويلًا. فالآية في انصرام هذا ومجيء الآخر عقيبه بغير فصل أبلغ. فذكر سبحانه حالة ضعف هذا، وإدباره وحالة قوة هذا وتنفسه. وإقباله يطرد ظلمة الليل بتنفسه، فكلما تنفس هرب الليل وأدبر بين يديه. وهذا هو القول. والله أعلم.

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه، وهو القرآن، وأخبر أنه قول رسول كريم، وهو ههنا جبريل قطعًا. لأن ذكر صفته بعد ذلك بما يعينه به. وأما الرسول الكريم في الحاقة فهو محمد ﷺ، لأنه نفى بعده أن يكون قول من زعم من أعدائه أنه قوله. فقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤١، ٤٢] فأضافه إلى الرسول الملكي تارة، وإلى البشري تارة، وإضافته إلى كل واحد من الرسولين إضافة تبليغ لا إضافة إنشاء من عنده، وإلا تناقضت النسبتان. ولفظ الرسول يدل على ذلك. فإن الرسول هو الذي يبلغ كلام من أرسله.

وهذا صريح في أنه كلام من أرسل جبريل ومحمدًا ﷺ، وأن كلا منهما بلغه عن الله، فهو قوله مبلغًا، وقول الله الذي تكلم به حقًا. فلا راحة لمن أنكر أن يكون الله متكلمًا بالقرآن وهو كلامه حقًا في هاتين الآيتين، بل هما من أظهر الأدلة على كونه كلام الرب تعالى، وأنه ليس للرسولين الكريمين منه إلا التبليغ، فجبريل سمعه من الله، ومحمد ﷺ، سمعه من جبريل(١).

ووصف رسوله الملكي في هذه السورة بأنه: كريم، قوي، مكين عند الرب تعالى

(١) تقدم في سورة الحاقة بحث قريب من هذا. (ج).

مطاع في السموات، أمين، فهذه خمس صفات تتضمن تذكية سند القرآن، وأنه سماع محمد من جبريل، وسماع جبريل من رب العالمين. فناهيك بهذا السند علوًا وجلالة: قول الله ـ سبحانه ـ بنفسه تزكيته.

الصفة الأولى: كون الرسول الذي جاء به إلى محمد ﷺ كريمًا ليس كما يقول أعداؤه: إن الذي جاء به شيطان، فإن الشيطان خبيث مخبث، لئيم، قبيح المنظر، عديم الخير، باطنه أقبح من ظاهره، وظاهره أشنع من باطنه، وليس فيه ولا عنده خير فهو أبعد شيء عن الكرم.

والرسول الذي ألقى القرآن إلى محمد ﷺ كريم، جميل المنظر، بهي الصورة، كثير الخير، طيب مطيب، معلم الطيبين. وكل خير في الأرض من هدى وعلم ومعرفة وإيمان وبر، فهو مما أجراه ربه على يده، وهذا غاية الكرم الصوري والمعنوي.

الوصف الثاني: أنه ذو قوة، كما قال في موضع آخر: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم: ٥] وفي ذلك تنبيه على أمور:

أحدها: أنه بقوته يمنع الشياطين أن تدنو منه، وأن ينالوا منه شيئًا، وأن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه، بل إذا رآه الشيطان هرب منه ولم يقربه.

الثاني: أنه موال لهذا الرسول الذي كذبتموه، ومعاضد له، ومواد له وناصر، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم: ٤]. ومن كان هذا القوي وليه، ومن أنصاره، وأعوانه، ومعلمه، فهو المهدي المنصور، والله هاديه، وناصره.

الثالث: أن من عادى هذا الرسول، فقد عادى صاحبه ووليه جبريل، ومن عادى ذا القوة والشدة فهو عرضة للهلاك.

الرابع: أنه قادر على تنفيذ ما أمر به لقوته، فلا يعجز عن ذلك، مؤد له كما أمر به لأمانته، فهو القوي الأمين، وأحدكم إذا انتدب غيره في أمر من الأمور لرسالة، أو ولاية، أو وكالة أو غيرها فإنما ينتدب لها القوي عليه، الأمين على فعله، وإن كان ذلك

الأمر من أهم الأمور عنده انتدب له قويًا أمينًا معظمًا ذا مكانة عنده، مطاعًا في الناس، كما وصف الله عبده جبريل بهذه الصفات. وهذا يدل على عظمة شأن المرسل، والرسول، والرسالة، والمرسل إليه، حيث انتدب له الكريم القوي المكين عنده، المطاع في الملأ الأعلى الأمين حق الأمين، فإن الملوك لا ترسل في مهماتها إلا الأشراف، ذوي الأقدار والرتب العالية.

***

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

[(١)]قد أثنى الله سبحانه على عبده جبريل في القرآن أحسن الثناء، ووصفه بأجل الصفات، فقال: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [التكوير: ١٥- ٢١] فهذا جبريل، فوصف بأنه رسوله، وأنه كريم عنده، وأنه ذو قوة ومكانة عند ربه ـ سبحانه ـ، وأنه مطاع في السموات. وأنه أمين على الوحي.

فمن كرمه على ربه: أنه أقرب الملائكة إليه. قال بعض السلف: منزلته من ربه منزلة الحاجب من الملك.

ومن قوته: أنه رفع مدائن قوم لوط على جناحه، ثم قلبها عليهم، فهو قوي على تنفيذ ما يؤمر به، غير عاجز عنه، إذا تطيعه أملاك السموات فيما يأمرهم به عن الله تعالى. قال ابن جرير في تفسيره، عن إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح: أمين على

(١) ١٢٨ إغاثة جـ٢.

أن يدخل سبعين سرادقًا من نور بغير إذن[١].

ووصفه بالأمانة يقتضي صدقه ونصحه، إلقاؤه إلى الرسل ما أمر به من غير زيادة ولا نقصان ولا كتمان، وقد جمع له بين المكانة والأمانة والقوة والقرب من الله.

ونظير الجمع له بين المكانة والأمانة: قول العزيز ليوسف عليه السلام: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤] والجمع بين القوة والأمانة: نظير قول ابنة شعيب في موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]...

[٢]وقوله: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠] أي له مكانة ووجاهة عنده، وهو أرب الملائكة إليه، وفي قوله: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ إشارة إلى علو منزلة جبريل، إذ كان قريبًا من ذي العرش سبحانه.

وفي قوله: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ [التكوير: ٢١] إشارة إلى أن جنوده وأعوانه يطيعونه إذا ندبهم لنصر صاحبه وخليله محمد ﷺ. وفيه إشارة أيضًا إلى أن هذا الذي تكذبونه وتعادونه سيصير مطاعًا في الأرض، كما أن جبريل مطاع في السماء، وأن كلا من الرسولين مطاع في محله وقومه. وفيه تعظيم له بأنه بمنزلة الملوك المطاعين في قومهم، فلم ينتدب لهذا الأمر العظيم إلا مثل هذا الملك المطاع.

وفي وصفة بالأمانة إشارة إلى حفظه ما حمله، وأدائه له على وجهه.

ثم نزه رسوله البشري وزكاه عما يقول فيه أعداؤه. فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢]. وهذا أمر يعلمونه ولا يشكون فيه، وإن قالوا بألسنتهم خلافه، فهم يعلمون أنهم كانوا كاذبين.

ثم أخبر عن رؤيته ـ صلى الله عليه وآله وسلم لجبريل ـ. وهذا يتضمن أنه ملك موجود في الخارج، يرى بالعيان، ويدركه بالبصر، لا كما يقول المتفلسفة، ومن

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٣٠/ ٨٠).

(٢) ٧٧ التبيان.

قلدهم: إنه العقل الفعال، وأنه ليس مما يدرك بالبصر، وحقيقته عندهم أنه خيال موجود في الأذهان لا في الأعيان، وهذا مما خالفوا به جميع الرسل وأتباعهم، وخرجوا به عن جميع الملل.

ولهذا كان تقرير روية النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم لجبريل ـ أهم من تقرير رؤيته لربه تعالى. فإن رؤيته لجبريل هي أصل الإيمان الذي لا يتم إلا باعتقادها. ومن أنكرها كفر قطعًا. وأما رؤيته لربه تعالى فغايتها أن تكون مسألة نزاع لا يكفر جاحدها بالاتفاق.

وقد صرح جماعة من الصحابة بأنه لم يره. وحكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على ذلك، فنحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى. وإن كانت رؤية الرب أعظم من رؤية جبريل ومن دونه. فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليه البتة.

ثم نزه رسوليه كليهما ـ أحدهما بطريق النطق، والثاني بطريق اللزوم ـ عما يضاد مقصود الرسالة من الكتمان الذي هو الضنة والبخل، والتبديل، والتغيير الذي يوجب التهمة، فقال: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤]. فإن الرسالة لا يتم مقصودها إلا بأمرين: أدائها من غير كتمان، وأدائها على وجهها من غير زيادة ولا نقصان. والقراءتان كالآيتين، فتضمنت إحداهما ـ وهي قراءة الضاد ـ تنزيهه عن البخل. فإن الضنين هو البخيل، يقال ضننت به أضن، بوزن بخلت به أبخل ومعناه، ومنه قول جميل بن معمر:

أجود بمضنون التلاد وإنني ... بسرك عمن سألني لضنين[1]

---

(١) هذا البيت من بحر الطويل، ينسب أيضاً إلى قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي الشاعر الجاهلي، أدرك الإسلام ولم يسلم مات سنة ٢ قبل الهجرة. ذكر البيت القرطبي في تفسيره (١٩/ ٢٤٢) وعبدالكريم القزويني في التدوين في أخبار قزوين (١/ ٢١٤) ونسبه إلى قيس بن الخطيم وتصحف الاسم إلى الخطمر. بينما ذكره أسامة بن منقذ في لباب الألباب في موضعين الأول (ص ٤٠) ونسبه إلى قيس والموضع الثاني (ص٣٦٠) ونسبه إلى جميل بن معمر، كما فعل المصنف هنا.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ليس بخيلًا بما أنزل الله، وقال مجاهد: لا يضن عليهم بما يعلم.

وأجمع المفسرون على أن الغيب ههنا القرآن والوحي. وقال الفراء، يقول تعالى: يأتيه غيب السماء وهو منفوس فيه، فلا يضن به عليكم، وهذا معنى حسن جدًا، فإن عادة النفوس الشح بالشيء النفيس، ولاسيما عمن لا يعرف قدره، ويذمه ويذم من هو عنده، ومع هذا فهذا الرسول لا يبخل عليكم بالوحي الذي هو أنفس شيء وأجله.

وقال أبو علي الفارسي: المعنى يأتيه الغيب فيبينه ويخبر به ويظهره، ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده، ويخفيه حتى يأخذ عليه حلوانًا، وفيه معنى آخر، وهو أنه على ثقة من الغيب الذي يخبر به فلا يخاف أن ينتقض، ويظهر الأمر بخلاف ما أخبر به، كما يقع للكهان وغيرهم ممن يخبر بالغيب، فإن كذبهم أضعاف صدقهم، وإذا أخبر أحدهم بخبر لم يكن على ثقة منه، بل هو خائف من ظهور كذبه، فإقدام هذا الرسول على الإخبار بهذا الغيب العظيم الذي هو أعظم الغيب واثقًا به، مقيمًا عليه، مبديًا له في كل مجمع، ومعيدًا مناديًا به على صدقه، مجلبًا به على أعدائه من أعظم الأدلة على صدقه.

وأما قراءة من قرأ (بظنين) بالظاء، فمعناه المتهم، يقال: ظننت زيدًا بمعنى اتهمته، وليس من الظن الذي هو الشعور والإدراك، فإن ذاك يتعدى إلى مفعولين، ومنه ما أنشده أبو عبيدة:

أمـا وكتـاب الله لا عـن شـناءة هجـرت، ولكـن المحـب ظنـين

والمعنى: وما هذا الرسول على القرآن بمتهم، بل هو أمين لا يزيد فيه ولا ينقص؛ وهذا يدل على أن الضمير يرجع إلى محمد ﷺ، لأنه قد تقدم وصف الرسول الملكي بالأمانة. ثم قال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٤]. ثم قال: (وما هو) أي: وما صاحبكم بمتهم ولا بخيل.

واختار أبو عبيدة قراءة الظاء لمعنيين: أحدهما: أن الكفار لم يبخلوه. وإنما اتهموه، فنفي التهمة أولى من نفي البخل. الثاني: أنه قال: ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ ولو كان المراد البخل

لقال بالغيب، لأنه يقال فلان ضنين بكذا، وقلما يقال علىٰ كذا.

قلت: ويرجحه أنه وصفه بما وصف به رسوله الملكي، من الأمانة، فنفىٰ عنه التهمة كما وصف جبريل بأنه أمين. ويرجحه أيضًا أنه سبحانه نفىٰ أقسام الكذب كلها عما جاء به من الغيب. فإن ذلك لو كان كذبًا، فإما أن يكون منه، أو ممن علمه، وإن كان منه، فإما أن يكون تعمده أو لم يتعمده، فإن كان من معلمه فليس هو بشيطان رجيم، وإن كان منه مع التعمد فهو المتهم، ضد الأمين.

وإن كان من غير تعمد فهو المجنون. فنفىٰ سبحانه عن رسوله ذلك كله، وزكىٰ سند القرآن أعظم تزكية، فلهذا قال سبحانه: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير: ٢٥]. ليس تعليم الشيطان ولا يقدر عليه، ولا يحسن منه كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]. فنفىٰ فعله وابتغاءه منهم، وقدرتهم عليه. وكل من له أدنىٰ خبرة بأحوال الشياطين والمجانين والمتهمين، وأحوال الرسل يعلم علمًا لا يماري فيه ولا يشك، بل علمًا ضروريًا، كسائر الضروريات - منافاة أحدهما للآخر. ومضادته له. كمناقاة أحد الضدين لصاحبه، بل ظهور المنافاة بين الأمرين للعقل أبين من ظهور المنافاة بين النور والظلمة للبصر.

ولهذا وبخ سبحانه من كفر بعد ظهور هذا الفرق المبين بين دعوة الرسل ودعوة الشياطين. فقال: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٦]. قال أبو إسحاق: فأي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بينت لكم؟

قلت: هذا من أحسن اللازم وأبينه، أن تبين للسامع الحق ثم تقول له: إيش تقول خلاف هذا؟ وأين تذهب خلاف هذا؟ قال تعالىٰ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٥٠]. وقال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]. فالأمر منحصر في الحق والباطل،والهدىٰ والضلال، فإذا عدلتم عن الهدىٰ والحق، فأين العدول؟ وأين المذهب؟

ونظير هذا قوله: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٢٢] أي: إن أعرضتم عن الإيمان بالقرآن والرسول وطاعته فليس إلا الفساد في الأرض، والشرك والمعاصي وقطيعة الرحم.

ونظيره قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِيٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ [ق: ٥] لما تركوا الحق وعدلوا عنه مرج عليهم أمرهم والتبس، فلا يدرون ما يقولون وما يفعلون، بل لا يقولون شيئًا إلا كان باطلًا ولا يفعلون شيئًا إلا كان ضائعًا غير نافع لهم، وهذا شأن كل من خرج عن الطريق الموصل إلى المقصود.

ونظيره قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [القصص: ٥٠]. وقد كشف هذا المعنى كل الكشف بقوله ﷻ: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس: ٣٢].

ثم أخبر تعالى عن القرآن بأنه ذكر للعالمين. وفي موضع آخر تذكرة للمتقين. وفي موضع آخر لرسوله ﷺ ولقومه، وفي موضع آخر ذكر مطلق. وفي موضع آخر ذكر مبارك. وفي موضع آخر وصفه بأن ذو الذكر.

وبجمع هذه المواضع تبين المراد من كونه ذكرًا عامًا وخاصًا، وكونه ذا ذكر. فإنه يذكر العباد بمصالحهم في معاشهم ومعادهم. ويذكرهم بالمبدأ والمعاد. ويذكرهم بالرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وحقوقه على عباده. ويذكرهم بالخير ليقصدوه، وبالشر ليجتنبوه. ويذكرهم بنفوسهم، وأحوالهم وآفاتها، وما تكمل به، ويذكرهم بعدوهم وما يريد منهم، وبماذا يحترزون من كيده، ومن أي الأبواب والطرق يأتي إليهم. ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم إليه، وأنهم مضطرون إليه لا يستغنون عنه نفسًا واحدًا. ويذكرهم بنعمه عليهم، ويدعوهم بها إلى نعم أخرى أكبر منها. ويذكرهم بأسه وشدة بطشه، وانتقامه ممن عصى أمره، وكذب رسله. ويذكرهم بثوابه وعقابه.

ولهذا يأمر سبحانه عباده أن يذكروا ما في كتابه، كما قال: ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧١]. وإذا كان كذلك فأحق وأولى وأول من كان ذاكرًا له من أنزل عليه، ثم لقومه، ثم لجميع العالمين. وحيث خص به المتقين فلأنهم الذين انتفعوا بذكره.

وأما وصفه بأن ذو الذكر فلأنه مشتمل على الذكر، فهو صاحب الذكر، ومنه الذكر. فهو ذكر وفيه الذكر، كما أنه هدى وفيه الهدى، وشفاء وفيه الشفاء، ورحمة وفيه الرحمة.

وقوله سبحانه: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ [التكوير: ٢٨] بدل من العالمين. وهو بدل بعض من كل. وهذا من أحسن ما يستدل به على أن البدل في قوة ذكر عاملين مقصودين، فإن جهة كونه ذكرًا للعالمين كلهم غير جهة كونه ذكرًا لأهل الاستقامة، فإنه ذكر للعموم بالصلاحية والقوة، وذكر لأهل الاستقامة بالحصول والنفع، فكما أن البدل أخص من المبدل منه، فالعامل المقدر فيه أخص من العامل الملفوظ في المبدل منه. ولابد من هذا فتأمله.

وقوله: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ ﴾ رد على الجبرية القائلين بأن العبد لا مشيئة له، أو أن مشيئته مجرد علامة على حصول الفعل لا ارتباط بينها وبينه إلا مجرد اقتران عادي من غير أن يكون سببًا فيه.

وقوله: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [التكوير: ٢٩] ردّ على القدرية القائلين بأن مشيئة العبد مستقلة بإيجاد الفعل من غير توقف على مشيئة الله، بل متى شاء العبد الفعل وجد، ويستحيل عندهم تعلق مشيئة الله بفعل العبد، بل هو يفعله بدون مشيئة الله.

فالآيتان مبطلتان لقول الطائفتين. فإن قال الجبري: هو ـ سبحانه ـ لم يقل: إن الفعل واقع بمشيئة العبد، بل أخبر أن الاستقامة تحصل عند المشيئة، ونحن قائلون بذلك، وقال القدري قوله: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ مختلفة، فمشيئة العبد هي

الموجبة للفعل التي بها يقع، ومشيئة الله لفعله هو أمره بذلك، ونحن لا ننكر ذلك.

فالجواب: أن هذا من تحريف الطائفتين. أما الجبري فيقال له: اقتران الفعل عندك بمشيئة العبد بمنزلة اقترانه بكونه وشكله وسائر أغراضه التي لا تأثير لها في الفعل. فإن نسبة جميع أغراضه إلى الفعل في عدم التأثير نسبة إرادية عندك، والاقتران حاصل بجميع أغراضه، فما الذي أوجب تخصيص المشيئة؟ سوى الله ـ سبحانه ـ في فطر الناس أو عقولهم، أو شرائعهم، بين نسبة المشيئة والإرادة إلى الفعل، ونسبة سائر أغراض الحي إذا كان عندك ليس إلامجرد الاقتران عادة؟ والاقتران العادي حاصل مع الجميع.

وأما القدري فتحريفه أشد، لأنه حمل المشيئة على الأمر، وقال: المعنى وما تشاءون إلا بأمر الله، وهذا باطل قطعًا، فإن المشيئة في القرآن لم تستعمل في ذلك، وإنما استعملت في مشيئة التكوين كقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]. وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ السجدة: ١٣]. وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]. ونظائر ذلك، مما لا يصح فيه حمل المشيئة على الأمر ألبتة.

والذي دلت عليه الآية مع سائر أدلة التوحيد، وأدلة العقل الصريح، أن مشيئة العباد من جملة الكائنات التي لا توجد إلا بمشيئة الله ﷻ، فما لم يشأ لم يكن البتة، كما أن ما شاء كان ولابد.

ولكنْ ههنا أمر يجب التنبيه عليه، وهو أن مشيئة الله سبحانه تارة تتعلق بفعله، وتارة تتعلق بفعل العبد، فتعلقها بفعله وهو أن يشاء من نفسه إعانة عبده وتوفيقه وتهيئته للفعل، فهذه المشيئة تستلزم فعل العبد ومشيئته، ولا يكفي في وقوع الفعل مشيئة الله لمشيئة عبده، دون أن يشاء فعله. فإنه ـ سبحانه ـ قد يشاء من عبده المشيئة وحدها، فيشاء العبد الفعل ويريده ولا يفعله، لأنه لم يشأ من نفسه إعانته عليه وتوفيقه له.

وقد دل على هذا قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٩]. وقوله: ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [المدثر: ٥٦].

وهاتان الآيتان متضمنتان إثبات الشرع والقدر، والأسباب والمسببات، وفعل العبد واستناده إلى فعل الرب، ولكل منهما عبودية مختص بها: فعبودية الآية الأولى: والاجتهاد، واستفراغ الوسع، والاختيار، والسعي. وعبودية الثانية: الاستعانة بالله، والتوكل عليه، واللجأ إليه، واستنزال التوفيق، والعون منه، والعلم بأن العبد لا يمكنه أن يشاء، ولا يفعل حتى يجعله الله كذلك.

وقوله: ﴿ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. ينتظم ذلك كله، ويتضمنه، فمن عطل أحد الأمرين فقد جحد كمال الربوبية وعطلها. وبالله التوفيق.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة التكوير

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

سُورَةُ الانفِطَارِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾.

(١) إذا أذنب العبد الموحد المتبع سبيل الله وسنة رسوله ﷺ استغفر له حملة العرش ومن حوله. إذا نام العبد المؤمن بات في شعاره ملك(٢)، فملك المؤمن من يرد عليه، ويحارب، ويدافع عنه ويعلمه، ويثبته، ويشجعه، فلا يليق به أن ينسى جواره، ويبالغ في أذاه وطرده عنه وإبعاده. فإنه ضيفه وجاره. وإذا كان إكرام الضيف من الآدميين والإحسان إلى الجار من لزوم الإيمان وموجباته. فما الظن بإكرام أكرم الأضياف، وخير الجيران وأبرهم؟

وإذا آذى العبد الملك بأنواع المعاصي والظلم والفواحش دعا عليه ربه، وقال: «لا جزاك الله خيرًا» كما يدعو له إذا أكرمه بالطاعة والإحسان. قال بعض الصحابة ﷺ: «إن معكم من لا يفارقكم فاستحيوا منهم وأكرموهم»(٣). ومن ألأم ممن لا يستحي من الكريم العظيم القادر ولا يكرمه ولا يوقره.

وقد نبه ـ سبحانه ـ على هذا المعنى بقوله: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ

---

(١) ١٤٦ الجواب الكافي.

(٢) فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا بات طاهراً بات في شعاره ملك، فلم يستيقظ إلا قال الملك: اللهم اغفر لعبدك فلان، فإنه بات طاهراً» أخرجه ابن حبان (٣/ ٣٢٨ رقم ١٠٥١) وفي الموارد (رقم ١٦٧) والطبراني في الأوسط (٥/ ٢٠٤ رقم ٥٠٨٧) وفي الكبير (١٢/ ٤٤٦ رقم ١٣٦٢٠) وفي مسند الشاميين (٣/ ٤٠٢ رقم ٢٥٥٢) وابن المبارك في مسنده (رقم ٦٤) وقال المنذري في الترغيب (١/ ٢٣١ رقم ٨٧٩): رواه الطبراني في الأوسط بإسناد جيد. وحسنه الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٢٨) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٠٩).

(٣) فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والتعري، فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط وحين يفضي الرجل إلى أهله، فاستحيوهم وأكرموهم» أخرجه الترمذي (رقم ٢٨٠٠) والبيهقي في الشعب (٦/ ١٤٦ رقم ٧٧٣٩) وقال الترمذي: غريب.

﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢] أي: استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام، وأكرموهم وأجلوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم. وإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصي بين يديه، وإن كان قد يعمل مثل عمله، فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين؟ والله المستعان.

***

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾.

(١) من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه. كذلك يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة لا يشبه نعيم أهلها نعيم البتة. بل التفاوت الذي بين النعيمين: كالتفاوت الذي بين نعيم الدنيا والآخرة، وهذا أمر لا يصدق به إلا من باشر قلبه هذا وهذا، لا تحسب أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة كذلك: أعني دار الدنيا ودار البرزخ، ودار القرار، فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم. وهل النعيم إلا نعيم القلب؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب؟

وأي عذاب أشد من الخوف والهم الحزن وضيق الصدر وإعراضه عن الله والدار الآخرة وتعلقه بغير الله وانقطاعه عن الله؟ بكل واد منه شعبة، وكل شيء تعلق به وأحبه من دون الله، فإنه يسومه سوء العذاب، فكل من أحب شيئًا غير الله عذب به ثلاث مرات في هذه الدار، فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل، فإذا حصل عذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته والتنغيص والتنكيد عليه وأنواع المعارضات، فإذا سلبه اشتد عذابه عليه، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار.

وأما في البرزخ فعذاب يقارنه ألم الفراق الذي لا يرجى عوده، وألم فوات ما فاته من

(١) ١٠١ الجواب الكافي.

النعيم العظيم باشتغاله بضده. وألم الحجاب عن الله، وألم الحسرة التي تقطع الأكباد. فالهم والغم والحسرة والحزن تعمل في نفوسهم نظير ما تعمل الهوام والديدان في أبدانهم. بل عملها في النفوس دائم مستمر حتى يردها الله إلى أجسادها. فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمر...

[1]... فقلوب أهل البدع، والمعرضين عن القرآن، وأهل الغفلة عن الله، وأهل المعاصي: في حجيم قبل الجحيم الأكبر. وقلوب الأبرار في نعيم قبل النعيم الأكبر: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] هذا في دورهم الثلاث. ليس مختصًا بالدار الآخرة. وإن كان تمامه وكماله وظهوره: إنما هو في الدار الآخرة، وفي البرزخ دون ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور: ٤٧]. وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: ٧١ ـ ٧٢].

وفي هذه الدار دون ما في البرزخ، ولكن يمنع من الإحساس به: الاستغراق في سكرة الشهوات، وطرح ذلك عن القلب، وعدم التفكر فيه.

والعبد قد يصيبه ألم حسي فيطرحه عن قلبه، ويقطع التفاته عنه. ويجعل إقباله على غيره. لئلا يشعر به جملة. فلو زال عنه ذلك الالتفات، لصاح من شدة الألم فما الظن بعذاب القلوب وآلامها؟!

وقد جعل الله سبحانه للحسنات والطاعات آثارًا محبوبة لذيذة طيبة. لذتها فوق لذة المعصية بأضعاف مضاعفة. لا نسبة لها إليها. وجعل للسيئات والمعاصي آلامًا وآثارًا مكروهة، وحزازات تُرْبَى على لذة تناولها بأضعاف مضاعفة.

قال ابن عباس: إن للحسنة نورًا في القلب، وضياءً في الوجه. وقوة في البدن، وزيادة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق. وأن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القلب،

---

(١) ٢٤٤ شفاء.

ووهنا في البدن، ونقصًا في الرزق وبغضة في قلوب الخلق[١]. وهذا يعرفه صاحب البصيرة ويشهده من نفسه من غيره. فما حصل للعبد مكروه قط إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر. قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورىٰ: ٣٠].

***

﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾.

[٢]إن يوم المعاد الأكبر يوم مظهر الأسماء والصفات وأحكامها، ولهذا يقول سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. وقال: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]. وقال: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]. حتىٰ إن الله ـ سبحانه ـ ليتعرف إلىٰ عباده ذلك اليوم بأسماء وصفات لم يعرفوها في هذه الدار، فهو يوم ظهور المملكة العظمىٰ والأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ. فتأمل ما أخبر به الله ورسوله من شأن ذلك اليوم وأحكامه وظهور عزته تعالىٰ وعظمته وعدله وفضله ورحمته وآثار صفاته المقدسة التي لو خلقوا في دار البقاء لتعطلت، وكماله سبحانه ينفي ذلك.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الانفطار

والحمد لله رب العالمين

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٥) والوابل الصيب (٤٨).

(٢) ٢٤٤ شفاء.

سُورَةُ المُطَفِّفِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ ﴾.

[(1)] أي: بايعوهم كيلًا أو وزنًا. وأما قوله: ﴿ ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [المطففين: ٢] فإنما دخلت (على) لتؤذن أن الكيل على البائع للمشتري، ودخلت التاء في اكتالوا، لأن افتعل في هذا الباب كله للأخذ، لأنها زيادة على الحروف الأصلية تؤذن بمعنى زائد على معنى الكلمة، لأن الآخذ للشيء: كالمبتاع والمكتال والمشتري ونحو ذلك يدخل فعله من التناول والاجترار إلى نفسه، والاحتمال إلى رحله ما لا يدخل فعلى المعطي والمبايع.

ولهذا قال سبحانه: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦] يعني من السيئات، لأن الذنوب يوصل إليها بواسطة الشهوة والشيطان والهوى، والحسنة تنال بهبة الله من غير واسطة ولا إغراء عدو. فهذا الفرق بينهما على ما قاله السهيلي. وفيه فرق أحسن من هذا، وهو أن الاكتساب يستدعي التعمل والمحاولة والمعاناة، فلم يجعل على العبد إلا ما كان من هذا القبيل الحاصل بسعيه ومعاناته وتعمله.

وأما الكسب فيحصل بأدنى ملابسة حتى بالهم بالحسنة ونحو ذلك؛ فخص الشر بالاكتساب والخير بأعم منه، ففي هذا مطابقة للحديث الصحيح: «إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها، وإن هم بسيئة فلا تكتبوها»[(2)]. وأما حديث الواسطة وعدمها فضعيف، لأن الخير أيضًا بواسطة الرسول والملك والإلهام والتوفيق، فهذا في مقابلة وسائط الشر. فالفرق ما ذكرناه، والله أعلم.

---

(١) ٧٤ بدائع جـ٢.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٢٨) بلفظ قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة فإن عملها فاكتبوها عشراً». وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٢٤).

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾.

(١)قال أبو عبيدة: غلب عليها، والخمر ترين على عقل السكران، والموت يرون على الميت، فيذهب به. ومن هذا حديث أسيفع جهينة، وقول عمر: فأصبح قد رين به أي غلب عليه وأحاط به الرين. وقال أبو معاذ النحوي: الرين أن يسود القلب من الذنوب. والطبع: أن يطبع على القلب وهو أشد من الرين والأقفال أشد من الطبع وهو أن يقفل على القلب.

وقال الفراء: كثرت الذنوب والمعاصي منهم فأحاطت بقلوبهم، فذلك الرين عليها. وقال أبو إسحاق: ران غطى يقال: ران على قلبه الذنب يرين رينًا أي غشيه، قال: والرين كالغشاء يغشى القلب ومثله الغين. قلت أخطأ أبو إسحاق فالغين ألطف شيء وأرقه. قال: رسول الله ﷺ: «**وإنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة**»(٢).

وأما الرين والران فهو من أغلظ لا حجب على القلب وأكثفها. وقال مجاهد: هو الذنب على الذنب حتى تحيط الذنوب بالقلب وتغشاه فيموت القلب. وقال مقاتل: غمرت القلوب أعمالهم الخبيثة. وفي سنن النسائي والترمذي من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ، قال: «**إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله**: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»(٣). قال الترمذي: هذا حديث صحيح. وقال عبدالله بن مسعود: كلما أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود القلب كله. فأخبر سبحانه أن ذنوبهم التي اكتسبوها أوجبت لهم رينًا على قلوبهم،

---

(١) ٩٤ شفاء.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٠٢) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٠١) وشرح النووي (١٧/ ٢٣).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٣٤) والنسائي في الكبرى (٦/ ١١٠ رقم ١٠٢٥١) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٩٦) وتحفة الأحوذي (٣/ ٥٢٥).

فكان سبب الران منهم وهو خلق الله فيهم، فهو خالق السبب ومسببه، لكن السبب باختيار العبد، والمسبب خارج عن قدرته واختياره.

[(١)] ...المكاشفة الصحيحة علوم يحدثها الرب ﷻ في قلب العبد، ويطلعه بها على أمور تخفى على غيره. وقد يواليها وقد يمسكها عنه بالغفلة عنها، ويواريها عنه بالغين الذي يغشى قلبه. وهو أرق الحجب، أو بالغيم. وهو أغلظ منه، أو بالران، وهو أشدها.

فالأول: يقع للأنبياء ـ عليهم السلام ـ. كما قال النبي ﷺ: «**إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله أكثر من سبعين مرة**».

والثاني: يكون للمؤمنين.والثالث: لمن غلبت عليه الشقوة. قال الله تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]. قال ابن عباس وغيره: هو الذنب بعد الذنب يغطي القلب، حتى يصير كالران عليه.

والحجب عشرة: حجاب التعطيل، ونفي حقائق الأسماء والصفات. وهو أغلظها. فلا يتهيأ لصاحب هذا الحجاب أن يعرف الله، ولا يصل إليه البتة إلا كما يتهيأ للحجر أن يصعد إلى فوق.

الثاني: حجاب الشرك، وهو أن يتعبد قلبه لغير الله.

الثالث: حجاب البدعة القولية: كحجاب أهل الأهواء، والمقالات الفاسدة على اختلافها.

الرابع: حجاب البدعة العلمية. كحجاب أهل السلوك المبتدعين في طريقهم وسلوكهم.

الخامس: حجاب أهل الكبائر الباطنة، كحجاب أهل الكبر والعجب والرياء والحسد، والفخر والخيلاء ونحوها.

---

(١) ٢٢٢ مدارج جـ٣.

السادس: حجاب أهل الكبائر الظاهرة، وحجابهم أرق من حجاب إخوانهم من أهل الكبائر الباطنة، مع كثرة عباداتهم، وزهاداتهم واجتهاداتهم. فكبائر هؤلاء أقرب إلى التوبة من كبائر أولئك. فإنها قد صارت مقامات لهم لا يتحاشون من إظهارها وإخراجها في قوالب عبادة ومعرفة. فأهل الكبائر الظاهرة: أدنى إلى السلامة منهم. وقلوبهم خير من قلوبهم.

السابع: حجاب أهل الصغائر.

الثامن: حجاب أهل الفضلات، والتوسع في المباحات.

التاسع: حجاب أهل الغفلة عن استحضار ما خلقوا له وأريد منهم، وما لله عليهم من دوام ذكره وشكره وعبوديته.

العاشر: حجاب المجتهدين السالكين، المشمرين في السير عن المقصود.

فهذه عشر حجب بين القلب وبين الله ﷻ تحول بينه وبين هذا الشأن. وهذه الحجب تنشأ من أربعة عناصر: عنصر النفس، وعنصر الشيطان، وعنصر الدنيا، وعنصر الهوى. فلا يمكن كشف هذه الحجب مع بقاء أصولها وعناصرها في القلب البتة.

وهذه الأربعة العناصر: تفسد القول، والعمل، والقصد، والطريق، بحسب غلبتها وقلتها. فتقطع طريق القول والعمل والقصد: أن يصل إلى القلب. وما وصل منه إلى القلب قطعت عليه الطريق: أن يصل إلى الرب. فبين القول والعمل وبين القلب مسافة يسافر فيها العبد إلى قلبه ليرى عجائب ما هنالك. وفي هذه المسافة قطاع الطريق المذكورون. فإن حاربهم وخلص العمل إلى قلبه دار فيه. وطلب النفوذ من هناك إلى الله. فإنه لا يستقر دون الوصول إليه: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٤٢]. فإذا وصل إلى الله سبحانه أثابه عليه مزيدًا في إيمانه ويقينه، ومعرفته وعقله. وجمل به ظاهره وباطنه. فهداه به لأحسن الأخلاق والأعمال. وصرف عنه به سيء الأخلاق والأعمال. وأقام الله سبحانه من ذلك العمل للقلب جندًا يحارب به قطاع الطريق للوصول إليه. فيحارب الدنيا بالزهد فيها، إخراجها من قلبه، ولا يضره أن تكون في يده وبيته، ولا يمنع ذلك من قوة

يقينه بالآخرة. يحارب الشيطان بترك الاستجابة لداعي الهوى. فإن الشيطان مع الهوى لا يفارقه. ويحارب الهوى بتحكيم الأمر المطلق. والوقوف معه، بحيث لا يبقى له هوى فيما يفعله ويتركه. ويحارب النفس بقوة الإخلاص.

***

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝﴾.

[١]وجه الاستدلال بها أنه ﷻ جعل من أعظم عقوبة الكفار كونهم محجوبين عن رؤيته واستماع كلامه، فلو لم يره المؤمنون ولم يسمعوا كلامه كانوا أيضًا محجوبين عنه. وقد احتج بهذه الحجة الشافعي نفسه وغيره من الأئمة فذكر الطبراني وغيره عن المزني قال: سمعت الشافعي يقول في قوله ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ فيها دليل على أن أولياء الله يرون ربهم يوم القيامة[٢]. وقال الحاكم: حدثنا الأصم أنبأنا الربيع بن سليمان قال: حضرت محمد بن إدريس الشافعي وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: ما تقول في قول الله ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ . فقال الشافعي: لما أن حجب هؤلاء في السخط كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضى. قال الربيع فقلت: يا أبا عبدالله وبه تقول؟ قال: نعم وبه أدين الله، ولو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى الله لما عبد الله ﷻ[٣]. ورواه الطبراني في شرح السنة من طريق الأصم أيضًا.

وقال أبو زرعة الرازي: سمعت أحمد بن محمد بن الحسين يقول: سئل محمد بن عبدالله بن الحكم: هل يرى الخلق كلهم ربهم يوم القيامة المؤمنون والكفار؟ فقال محمد بن عبدالله: ليس يراه إلا المؤمنون. قال محمد وسئل الشافعي عن الرؤية فقال: يقول الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ ففي هذا دليل على أن

---

(١) ٢٠٧ حادي الأرواح.

(٢) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٨٠٩).

(٣) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٨٨٤) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٤/ ٤٥٨).

المؤمنين لا يحجبون عن الله ﷻ[١].

[٢]... كمال النعيم في الدار الآخرة أيضًا به سبحانه: برؤيته وسماع كلامه وقربه ورضوانه. لا كما يزعم من يزعم أنه لا لذة في الآخرة إلا بالمخلوق من المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح، بل اللذة والنعيم التام في حظهم من الخالق تعالى أعظم مما يخطر بالبال أو يدور في الخيال، وفي دعاء النبي ﷺ، الذي رواه الإمام أحمد في مسنده وابن حبان والحاكم في صحيحيهما: «**أسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلي لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة**» ولهذا قال تعالى في حق الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾[٣] [المطففين: ١٥، ١٦]. فعذاب الحجاب من أعظم أنواع العذاب الذي يعذب به أعداءه، ولذة النظر إلى وجه الله الكريم أعظم أنواع اللذات التي ينعم بها أولياءه، ولا تقوم حظوظهم من سائر المخلوقات مقام حظهم من رؤيته وسماع كلامه والدنو منه وقربه...

[٤]إن أفضل نعيم الآخرة وأجله وأعلاه على الإطلاق هو النظر إلى وجه الرب ﷻ، وسماع خطابه، كما في صحيح مسلم عن صهيب، ﷺ عن النبي ﷺ: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة، ويجرنا من النار؟**

---

(١) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٨١٠).

(٢) ٥٩ طريق الهجرتين.

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٦٩٧رقم ١٩٠٠) وابن حبان (٥/ ٣٠٤ رقم ١٩٧١) والنسائي في الكبرى (١/ ٣٨٧ رقم ١٢٢٨) وفي الصغرى (رقم ١٣٠٥) وابن أبي شيبة (٦/ ٤٤ رقم ٢٩٣٤٦) وعبد الرزاق (١٠/ ٤٤٢ رقم ١٩٦٤٧) وأبو بكر الشيباني في الآحاد والمثاني (١/ ٢١٠ رقم ٢٧٦) والطبراني في الأوسط (٦/ ١٦٥ رقم ٦٠٩١) وفي الكبير (٥/ ١١٩ رقم ٤٨٠٣) وأبو يعلى (٣/ ١٩٥ رقم ١٦٢٤) وأحمد (٤/ ٢٦٤) والبزار (٤/ ٢٣٠ رقم ١٣٩٣) والحديث صححه الحاكم وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٧٧): رواه الطبراني في الأوسط والكبير ورجالهما ثقات. وقال الشوكاني في نيل الأوطار (٢/ ٣٣٣): رجال إسناده ثقات.

(٤) ١٣٢ إغاثة جـ١.

قال: فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه»[(١)].

وفي حديث آخر: «فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه»[(٢)] فبين ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنهم مع كمال تنعمهم بما أعطاهم ربهم في الجنة، لم يعطهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه، وإنما كان ذلك أحب إليهم لأن ما يحصل لهم به من اللذة والنعيم والفرح والسرور وقرة العين، فوق ما يحصل لهم من التمتع بالأكل والشرب والحور العين، ولا نسبة بين اللذتين والنعيمين البتة. ولهذا قال ﷻ في حق الكفار: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [المطففين: ١٥، ١٦]. فجمع عليهم نوعي العذاب: عذاب النار، وعذاب الحجاب عنه ـ سبحانه ـ كما جمع لأوليائه نوعي النعيم: نعيم التمتع بما في الجنة، ونعيم التمتع برؤيته.

وذكر سبحانه هذه الأنواع الأربعة في هذه السورة، فقال في حق الأبرار: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ [المطففين: ٢٢، ٢٣]. ولقد هضم معنى الآية من قال: ينظرون إلى أعدائهم يعذبون، أو ينظرون إلى قصورهم وبساتينهم، أو ينظر بعضهم إلى بعض، وكل هذا عدول عن المقصود إلى غيره، وإنما المعنى ينظرون إلى وجه ربهم، ضد حال الكفار الذين هم عن ربهم لمحجوبون: ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [المطففين: ١٦]. وتأمل كيف قابل سبحانه ما قاله الكفار في أعدائهم في الدنيا وسخروا به منهم، بضده في القيامة، فإن الكفار كانوا إذا مر بهم المؤمنون يتغامزون ويضحكون منهم: ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾ [المطففين: ٣٢]. فقال تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ [المطففين: ٣٤]. مقابلة لتغامزهم وضحكهم منهم، ثم قال: ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ [المطففين: ٣٥]. فأطلق النظر، ولم يقيده بمنظور دون منظور، وأعلى ما نظروا إليه وأجله وأعظمه هو الله سبحانه، والنظر

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٨١) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٢٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٨٤) وابن أبي الدنيا في صفة الجنة (رقم ٩٨) ومحمد بن إسحاق في التصديق بالنظر (رقم ٤٨) وأبو نعيم في صفة الجنة (رقم ٩١) وفي حلية الأولياء (٦/ ٢٠٨-٢٠٩).

إليه أجل أنواع النظر وأفضلها، وهو أعلى مراتب الهداية، فقابل بذلك قولهم: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾ فالنظر إلى الرب سبحانه مراد من هذين الموضعين ولابد، إما بخصوصه وإما بالعموم والإطلاق، ومن تأمل السياق لم يجد الآيتين تحتملان غير إرادة ذلك، خصوصًا أو عمومًا.

[(١)] ومن أعظم الضر: حجاب القلب عن الرب. وهو أعظم عذابًا من الجحيم، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥، ١٦].

[(٢)] ...وإضعاف المعاصي للإيمان أمر معلوم بالذوق والوجود. فإن العبد ـ كما جاء في الحديث ـ: «إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب واستغفر صقل قلبه، وإن عاد فأذنب نكت فيه نكتة أخرى، حتى تعلو قلبه، وذلك الران الذي قال الله تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾». فالقبائح تسود القلب. وتطفئ نوره. والإيمان هو نور في القلب. والقبائح تذهب به أو تقلله قطعًا.

فالحسنات تزيد نور القلب والسيئات تطفئ نور القلب. وقد أخبر الله ﷻ أن كسب القلوب سبب للران الذي يعلوها. وأخبر أنه أركس المنافقين بما كسبوا فقال: ﴿ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ﴾ [النساء: ٨٨]. وأخبر أن نقض الميثاق الذي أخذه على عباده سبب لتقسية القلب، فقال: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [المائدة: ١٣]. فجعل ذنب النقض موجبًا لهذه الآثار: من تقسية القلب، واللعنة، وتحريف الكلم، ونسيان العلم.

فالمعاصي للإيمان: كالمرض والحمى للقوة، سواء بسواء. ولذلك قال السلف: المعاصي بريد الكفر، كما أن الحمى بريد الموت[(٣)].

---

(١) ٢٢٠ مدارج جـ٣.

(٢) ٢٤ مدارج جـ٢.

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (٥/ ٤٤٧ رقم ٧٢٢٣) وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٢٩) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٦٦) وشرح النووي (٢/ ٥٠) (١١/ ٢٩) وسير أعلام النبلاء (١٢/ ٥١٠).

فإيمان صاحب القبائح كقوة المريض على حسب قوة المرض وضعفه.

وهذه الأمور الثلاثة ـ وهي صون النفس، وتوفير الحسنات، وصيانة الإيمان ـ هي أرفع من باعث العامة على الورع. لأن صاحبها أرفع همة، لأنه عامل على تزكية نفسه وصونها، وتأهيلها للوصول إلى ربها. فهو بصونها عما يشينها عنده. ويحجبها عنه. يصون حسناته عما يسقطها ويضعها. لأنه يسير بها إلى ربه. ويطلب بها رضاه. ويصون إيمانه بربه: من حبه له، وتوحيده، ومعرفته به، ومراقبته إياه عما يطفئ نوره، ويذهب بهجته، ويوهن قوته.

ثلاث فوائد من فوائد تجنب القبائح:[1]

إحداها: صون النفس. وهو حفظها وحمايتها عما يشينها. ويعيبها ويزري بها عند الله ﷻ وملائكته، وعباده المؤمنين وسائر خلقه. فإن من كرمت عليه نفسه وكبرت عنده صانها وحماها، وزكاها وعلاها، ووضعها في أعلى المحال. وزاحم بها أهل العزائم والكمالات. ومن هانت عليه نفسه وصغرت عنده ألقاها في الرذائل. وأطلق شناقها، وحل زمامها وأرخاه. ودساها ولم يصنها عن قبيح. فأقل ما في تجنب القبائح: صون النفس.

وأما «توفير الحسنات» فمن وجهين:

أحدهما: توفير زمانه على اكتساب الحسنات. فإذا اشتغل بالقبائح نقصت عليه الحسنات التي كان مستعدًا لتحصيلها.

والثاني: توفي الحسنات المفعولة عن نقصانها، بموازنة السيئات وحبوطها، كما تقدم في منزلة التوبة: أن السيئات قد تحبط الحسنات، وقد تستغرقها بالكلية أو تنقصها. فلابد أن تضعفها قطعًا، فتجنبها يوفر ديوان الحسنات. وذلك بمنزلة من له مال حاصل. فإذا استدان عليه، فإما أن يستغرقه الدين أو يكثره أو ينقصه، فهكذا

(١) ٢٤ مدارج جـ٢.

الحسنات والسيئات سواء.

(١) فبمحاسبتها يطلع على عيوبها ونقائصها. فيمكنه السعي في إصلاحها.

الثاني: ملاطفة الخلق. وهي معاملتهم بما يجب أن يعاملوه به من اللطف. ولا يعاملهم بالعنف والشدة والغلظة، فإن ذلك ينفرهم عنه، ويغريهم به، ويفسد عليه قلبه وحاله مع الله ووقته. فليس للقلب أنفع من معاملة الناس باللطف. فإن معاملة الناس بذلك: فإما أجنبي، فتكسب مودته ومحبته. وإما صاحب وحبيب فتستديم صحبته ومودته. وإما عدو ومبغض، فتطفئ بلطفك جمرته. وتستكفي شره. ويكون احتمالك لمضض لطفك به، دون احتمالك لضرر ما ينالك من الغلظة عليه والعنف به.

الثالث: مراقبة الحق سبحانه. وهي الموجبة لكل صلاح وخير عاجل وآجل. ولا تصح الدرجتان الأولتان إلا بهذه. وهي المقصود لذاته وما قبله وسيلة إليه، وعون عليه. فمراقبة الحق ﷻ: توجب إصلاح النفس، واللطف بالخلق.

***

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

(٢) ذكر ابن جرير عن الأعمش عن شمر بن عطية عن هلال بن يساف قال: كنا جلوسًا إلى كعب والربيع بن خثيم وخالد بن عرعرة في أناس فجاء ابن عباس فقال: هذا ابن عم نبيكم قال: فأوسع له فجلس. فقال: يا كعب كل ما في القرآن قد عرفت غير أربعة أشياء، فأخبرني عنهن: ما سجين؟ وما عليون؟ وما سدرة المنتهى؟ وما قول الله لإدريس: ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥٧]؟ قال: أما عليون فالسماء السابعة فيها أرواح المؤمنين، وأما سجين فالأرض السابعة السفلى وأرواح الكفار تحت جند إبليس، وأما قول الله سبحانه لإدريس: ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ فأوحى الله: إليه إني رافع لك كل يوم

(١) ٥١١ مدارج جـ٢.

(٢) ١٣٠ الروح.

مثل أعمال بني آدم، وكلم صديقًا له من الملائكة أن يكلم له ملك الموت فيؤخره حتى يزاد عملًا فحمله بين جناحيه، فعرج به حتى إذا كان في السماء الرابعة لقيه ملك الموت فكلمه في حاجته فقال: وأين هو؟ قال: هو ذا بين جناحي قال: فالعجب إني أمرت أن أقبض روحه في السماء الرابعة. فقبض روحه. وأما سدرة المنتهى، فإنها سدرة على رءوس حملة العرش، ينتهي إليها علم الخلائق، ثم ليس لأحد وراءها علم فلذلك سميت سدرة المنتهى[(١)].

[(٢)] قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ١٨- ٢١]. فأخبر تعالى أن كتابهم كتاب مرقوم تحقيقًا لكونه مكتوبًا كتابة حقيقة. وخص تعالى كتاب الأبرار بأنه يكتب ويوقع لهم به بمشهد المقربين من الملائكة والنبيين وسادات المؤمنين. ولم يذكر شهادة هؤلاء لكتاب الفجار تنويها بكتاب الأبرار وما وقع لهم به، وإشهارًا له وإظهارًا بين خواص خلقه، كما يكتب الملوك تواقيع من تعظمه بين الأمراء وخواص أهل المملكة تنويهًا باسم المكتوب له وإشادة بذكره، وهذا نوع من صلاة الله ﷻ وملائكته على عبده.

وروى الإمام أحمد في مسنده وابن حبان وأبو عوانة الإسفراييني في صحيحيهما من حديث المنهال عن زاذان عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، إلى جنازة، فجلس رسول الله ﷺ على القبر، وجلسنا حوله، كأن على رءوسنا الطير، وهو يلحد له، فقال: «أعوذ بالله من عذاب القبر» ـ ثلاث مرات ـ ثم قال: «**إن المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا، تنزلت إليه الملائكة: كأن على وجوههم الشمس مع كل واحد منهم حنوط وكفن: فجلسوا منه مد بصره، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة! أخرجي إلى مغفرة من الله**

(١) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٩٦) (٣٠/ ٩٤) وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٦/ ٣٧٥) وهذا من الإسرائيليات والله أعلم بصحة ذلك.
(٢) ١٣ الروح.

ورضوان. قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيِّ السقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين...»[(١)] الحديث.

[(٢)]ذكر يعلى بن عبيد عن الأجلح عن الضحاك قال: إذا قبض روح العبد المؤمن عرج به إلى السماء الدنيا، فينطلق معه المقربون إلى السماء الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة حتى ينتهي به إلى سدرة المنتهى، قلت للضحاك: لم سميت سدرة المنتهى؟ قال: لأنه ينتهي إليها كل شيء من أمر الله ﷻ لا يعدوها فيقول: ربي! عبدك فلان، وهو أعلم به منهم فيبعث الله إليه بصك مختوم يؤمنه من العذاب، قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾[(٣)] [المطففين: ١٨-٢١]. وهذا القول لا ينافي قول من قال: هم في الجنة، فإن الجنة عند سدرة المنتهى، والجنة عند الله، وكأن قائله رأى أن هذه العبارة أسلم وأوفق. وقد أخبر الله سبحانه أن أرواح الشهداء عنده، وأخبر النبي، ﷺ، أنها تسرح في الجنة حيث شاءت.

***

﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ۝ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ۝ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ۝﴾.

[(٤)]يقول: الخمر ختم بالمسك. وقال علقمة عن ابن مسعود: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾ [المطففين: ٢٦] قال: خلطه وليس بخاتم ثم يختم. قلت: يريد والله أعلم أن آخره مسك

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٩٥) والحاكم (١/ ٩٣-٩٤ رقم ١٠٧) والطبري في تهذيب الآثار (٢/ ٤٩١-٤٩٢) وعبدالرزاق (٣/ ٥٨٠ رقم ٦٧٣٧) والروياني (رقم ٣٩٢) والطيالسي (رقم ٧٥٣) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٢١٤٠) وابن المبارك في الزهد (رقم ١٢١٩).

(٢) ١٣ الروح.

(٣) أخرج الطبري في تفسيره (١٥/ ١٠) (٢٧/ ٥٢-٥٤) و(٣٠/ ١٠٢).

(٤) ١٣٥ حادي الأرواح.

يخالطه فهو من الخاتمة ليس من الخاتم. وقال زيد بن معاوية: سألت علقمة عن قوله تعالى: ﴿خِتَـٰمُهُۥ مِسۡكٌ﴾ فقرأتها «خاتمه مسك» فقال لي: ليست خاتمه ولكن اقرأه: ﴿خِتَـٰمُهُۥ مِسۡكٌ﴾ قال: علقمة: ختامه خلطة، ألم تر أن المرأة من نسائكم تقول للطيب أن خلطه من مسك لكذا وكذا. وذكر سعيد بن منصور حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عبدالله بن مرة عن مسروق: الرحيق الخمر المختوم، يجدون عاقبتها طعم المسك.

وبهذا الإسناد عن مسروق عن عبدالله في قوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ﴾ قال: تمزج لأصحاب اليمين ويشربها المقربون صرفا. وكذلك قال ابن عباس: يشرب منها المقربون صرفًا، وتمزج لمن دونهم(١). وقال مجاهد: ختامه مسك يقول طينة. وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير. ولفظ الآية أوضح منه، وكأنه والله أعلم يريد ما يبقى في أسفل الإناء من الدردي.

وذكر الحاكم من حديث آدم حدثنا شيبان عن جابر عن ابن سابط عن أبي الدرداء في قوله: ﴿خِتَـٰمُهُۥ مِسۡكٌ﴾ قال: هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم لو أن رجلًا من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها(٢). قال آدم وحدثنا أبو شيبة عن عطاء قال: التسنيم اسم العين التي يمزج بها الخمر(٣).

(٤)قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]. وبين «المنافسة» و«الغبطة» جمع وفرق، وبينهما وبين «الحسد» أيضًا جمع وفرق.

فالمنافسة تتضمن مسابقة واجتهادًا وحرصًا. والحسد: يدل على مهانة الحاسد

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤١٠ رقم ١٩١٨٧، ١٩١٨٨) والضياء في المختارة (١٠/ ٣٠٠ رقم ٣٢٠) وابن أبي شيبة (٧/ ٤٤ رقم ٣٤٠٩١) وهناد في الزهد (١/ ٧٥ رقم ٦٦) وابن المبارك في الزهد (رقم ١٥٢٢).

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (رقم ٢٧٦) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٢٢).

(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٤٥٢) إلى البيهقي .

(٤) ٤٨ مدارج جـ٣.

وعجزه، وإلا فنافس من حسدته. فذلك أنفه لك من حسده، كما قيل:

إذا أعجبتك خلال امرئ فكنه يكن منك ما يعجبك
فليس على الجود والمكرمات إذا جئتها حاجب يحجبك(١)

و«الغبطة» تتضمن نوع تعجب وفرح للمغبوط، واستحسان لحاله.

(٢)والفرق بين المنافسة والحسد أن المنافسة المبادرة إلى الكمال الذي تشاهده من غيرك فتنافسه فيه حتى تلحقه أو تجاوزه، فهي من شرف النفس وعلو الهمة وكبر القدر. قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾. وأصلها من الشيء النفيس الذي تتعلق به النفوس طلبًا ورغبة فينافس فيه كل من النفسين الأخرى. وربما فرحت إذا شاركتها فيه كما كان أصحاب رسول الله ﷺ، يتنافسون في الخير ويفرح بعضهم ببعض باشتراكهم فيه، بل يحض بعضهم بعضًا عليه مع تنافسهم فيه. وهي نوع من المسابقة. وقد قال تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١]. وكان عمر بن الخطاب يسابق أبا بكر ـ رضي الله عنهما ـ فلم يظفر بسبقه أبدًا. فلما علم أنه قد استولى على الإمامة قال: والله لا أسابقك إلى شيء أبدًا(٣). وقال: والله ما سابقته إلى خير إلا وجدته قد سبقني إليه. والمتنافسان كعبدين بين يدي سيدهما يتباريان ويتنافسان في مرضاته ويتسابقان إلى محابه، فسيدهما يعجبه ذلك منهما

(١) هذان البيتان من بحر المتقارب، وينسبان إلى أبي العيناء محمد بن القاسم بن خلاد الهاشمي، أصله من اليمامة وولد بالأهواز نشأ ومات في البصرة، كف بصره، مات سنة ٢٨٣هـ. وينسبان أيضاً إلى منصور بن إسماعيل الفقيه شاعر وفقيه شافعي، مات سنة ٣٠٦هـ. ذكر البيتين المناوي في فيض القدير (١/ ٦٥).

(٢) ٣٠٦ الروح.

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ١٦٧٨) والترمذي (رقم ٣٦٧٥) والدارمي (رقم ١٦٦٠) والبيهقي في الكبرى (٤/ ١٨٠ رقم ٧٥٦٣) والحاكم (١/ ٥٧٤ رقم ١٥١٠) وصححه، وكذا قال الترمذي: حسن صحيح. والبزار (١/ ٣٩٤ رقم ٢٧٠) وعبد بن حميد (رقم ١٤) وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥٧٩ رقم ١٢٤٠) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٩٥).

ويحثهما عليه. وكل منهما يحب الآخر ويحرضه على مرضاة سيده.

والحسد خلق نفس ذميمة ساقطة ليس فيها حرص على الخير، فلعجزها ومهانتها تحسد من يكسب الخير والمحامد ويفوز بها دونها، وتتمنى أن لوفاته كسبها حتى يساويها في العدم. كما قال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩]. وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

فالحسود عدو النعمة متمن زوالها عن المحسود كما زالت عنه هو والمنافس مسابق النعمة متمن تمامها عليه وعلى من ينافسه فهو ينافس غيره أن يعلو عليه ويحب لحاقه به أو مجاوزته له في الفضل. والحسود يحب انحطاط غيره حتى يساويه في النقصان، وأكثر النفوس الفاضلة الخيرة تنتفع بالمنافسة. فمن جعل نصب عينيه شخصًا من أهل الفضل والسبق فنافسه انتفع به كثيرًا. فإنه يتشبه به ويطلب اللحاق به والتقدم عليه. وهذا لا نذمه.

وقد يطلق اسم الحسد على المنافسة المحمودة كما في الصحيح عن النبي ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار، ورجل آتاه الله مالًا فسلطه على هلكته في الحق**»(١). فهذا حسد منافسة وغبطة يدل على علو همة صاحبه وكبر نفسه وطلبها للتشبه بأهل الفضل.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المطففين

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٤٠٩، ٥٠٢٥) ومسلم (رقم ٨١٥) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٣١) وشرح النووي (٦/ ٩٧).

سُورَةُ الانْشِقَاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ ﴾.

(١)أقسم بثلاثة أشياء متعلقة بالليل.

(أحدها) الشفق، وهو في اللغة الحمرة بعد غروب الشمس إلىٰ وقت صلاة العشاء الآخرة، وكذلك هو في الشرع. قال الفراء، والليث، والزجاج، وغيرهم: الشفق: الحمرة في السماء. وأصل موضوع الحرف لرقة الشيء، ومنه شيء شفق لا تماسك له لرقته، ومنه الشفقة وهو الرقة. وأشفق عليه إذا رق له. وأهل اللغة يقولون: الشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها. ولهذا كان الصحيح أن الشفق الذي يدخل وقت العشاء الآخرة بغيبوبته هو الحمرة، فإن الحمرة لما كانت بقية ضوء الشمس جعل بقاؤها حدًّا لوقت المغرب. فإذا ذهبت الحمرة بعدت الشمس عن الأفق فدخل وقت العشاء. وأما البياض فإنه يمتد وقته بطول لبثه، ويكون حاصلًا مع بعد الشمس عن الأفق(٢). ولهذا صح عن ابن عمر، ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: الشفق: الحمرة(٣).

---

(١) ٦٨ التبيان.

(٢) انظر: لسان العرب (١٠/ ١٨٠) ومختار الصحاح (ص ١٤٤) والتعاريف (ص٤٣٣) ونيل الأوطار (١/ ٤١١) وعون المعبود (٢/ ٤٣).

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرىٰ (١/ ٣٧٣ رقم ١٦١٩) وصححه موقوفاً وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة (١/ ٢٩٣ رقم ٣٣٦٢) وعبدالرزاق (١/ ٥٥٩ رقم ٢١٢٢) وقال النووي في تهذيب الأسماء والصفات (٣/ ١٥٦): وروىٰ البيهقي بإسناده الصحيح عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما. و ذكره، وانظر: تنقيح تحقيق أحاديث التعليق (١/ ٢٤٧) والدراية في تخريج أحاديث الهداية (١/ ١٠٣) وتلخيص الحبير (١/ ١٧٦) وخلاصة البدر المنير (١/ ٨٨ رقم ٢٧٤) ونصب الراية (١/ ٢٣٢-٢٣٣).

والعرب تقول: ثوب مصبوغ كأنه الشفق، إذا كان أحمر، حكاه الفراء. وكذلك قال الكلبي: الشفق: الحمرة التي تكون في المغرب. وكذلك قال مقاتل: هو الذي يكون بعد غروب الشمس في الأفق قبل الظلمة. وقال عكرمة: هو بقية النهار. وهذا يحتمل أن يريد به تلك الحمرة بقية ضوء الشمس التي هي آية النهار. وقال مجاهد: هو النهار كله[1].. وهذا ضعيف جدًا. وكأنه لما رآه قابله بالليل وما وسق. وظن أنه النهار وهذا ليس بلازم.

(الثاني) قسمه بالليل وما وسق، أي وما ضم وحوى وجمع. والليل وما ضمه وحواه آية أخرى، والقمر آية، واتساقه آية أخرى. والشفق يتضمن إدبار النهار، وهو آية، وإقبال الليل، وهو آية أخرى. فإن هذا إذا أدبر خلفه الآخر، يتعاقبان لمصالح الخلق. فإدبار النهار آية. وإقبال الليل آية وتعقب أحدهما الآخر آية، والشفق الذي هو متضمن الأمرين آية. والليل آية، وما حواه آية، والهلال آية، وتزايده كل ليلة آية، واتساقه ـ وهو امتلاؤه نورًا ـ آية، ثم أخذه في النقص آية.

وهذه وأمثالها آيات دالة على ربوبيته، مستلزمة للعلم بصفات كماله. ولهذا شرع ـ عند إقبال الليل وإدبار النهار ـ ذكر الرب تعالى بصلاة المغرب. وفي الحديث: «**اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك، وأصوات دعاتك وحضور صلواتك اغفر لي**»[2].

كما شرع ذكر الله بصلاة الفجر عند إدبار الليل وإقبال النهار. ولهذا يقسم سبحانه بهذين الوقتين كقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ [المدثر: ٣٣-٣٤]. وهو

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤١١ رقم ١٩١٩٤) وذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٩٠) وصححه.

(٢) أخرجه أبوداود (رقم ٥٣٠) والبيهقي في الكبرى (١/ ٤١٠ رقم ١٧٩٢) وابن أبي شيبة (٦/ ٣١ رقم ٢٩٢٥٠) وأبو يعلى (١٢/ ٣٢٣ رقم ٦٨٩٦) وعبد بن حميد (رقم ١٥٤٣) والطبراني في الكبير (٢٣/ ٣٠٣ رقم ٦٨٠) وفي الدعاء (رقم ٤٣٤) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٦٤٩) والحاكم (١/ ٣١٤ رقم ٧١٤) وصححه.

يقابل إقسامه بالشفق، ونظيره إقسامه: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير: ١٧، ١٨].

ولما كان الرب - تبارك وتعالى - يحدث عن كل واحد من طرفي إقبال الليل والنهار وإدبارهما ما يحدثه، ويبث من خلقه ما شاء. فينشر الأرواح الشيطانية عند إقبال الليل، وينشر الأرواح الإنسانية عند إقبال النهار، فيحدث هذا الانتشار في العالم أثره - شرع سبحانه في هذين الوقتين هاتين الصلاتين العظيمتين، مع ما في ذلك من ذكره عند هاتين الآيتين المتعاقبتين، وعند انصرام إحداهما واتصال الأخرى بها، مع ما بينهما من التضاد والاختلاف، وانتقال الحيوان عند ذلك من حال إلى حال، ومن حكم إلى حكم، وذلك مبدأ ومعاد يومي، مشهود للخليقة كل يوم وليلة، فالحيوان والنبات في مبدأ ومعاد، وزمان العالم في مبدأ ومعاد: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [العنكبوت: ١٩].

وقوله: ﴿ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ [الانشقاق: ١٩]. الظاهر أنه جواب القسم، ويجوز أن يكون من القسم المحذوف جوابه، ولتركبن وما بعده مستأنف.

وقرئ (ولتركبن) بضم الباء للجمع، وبفتحها، فمن فتحها فالخطاب عنده للإنسان، أي لتركبن أيها الإنسان. وقيل: هو النبي ﷺ، خاصة. وقيل: ليست التاء للخطاب، ولكنها للغيبة، أي لتركبن السماء طبقًا عن طبق. ومن ضمها فالخطاب للجماعة ليس إلا. فمن جعل الكناية للسماء قال: المعنى لتركبن السماء حالًا بعد حال من حالاتها التي وصفها الله تعالى، من الانشقاق، والانفطار والطي، وكونها كالمهل مرة، وكالدهان مرة، ومورانها وتفتحها، وغير ذلك من حالاتها، وهذا قول عبدالله بن مسعود ﷺ. ودل على السماء ذكر الشفق والقمر. وعلى هذا فيكون قسمًا على المعاد وتغيير العالم.

ومن قال الخطاب للنبي ﷺ، فله ثلاثة معان: لتركبن سماء بعد سماء[١]، حتى تنتهي إلى حيث يصعدك الله. هذا قول ابن عباس في رواية مجاهد، وقول مسروق والشعبي، قالوا: والسماء طبق، ولهذا يقال للسموات السبع: الطباق.

والمعنى الثاني: لتصعدن درجة بعد درجة، ومنزلة بعد منزلة، ورتبة بعد رتبة حتى تنتهي إلى محل القرب والزلفى من الله.

والمعنى الثالث: لتركبن حالًا بعد حال من الأحوال المختلفة التي نقل الله فيها رسوله ﷺ[٢]، من الهجرة، والجهاد، ونصره على عدوه، وإدالة العدو عليه تارة، وغناه وفقره، وغير ذلك من حالاته التي تنقل فيها إلى أن بلغ ما بلغه إياه.

[٣]قوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أي: حالًا بعد حال، فأول أطباقه كونه نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم جنينًا ثم مولودًا ثم رضيعًا ثم فطيمًا، ثم صحيحًا أو مريضًا، غنيًا أو فقيرًا، معافًا أو مبتلى، إلى جميع أحوال الإنسان المختلفة عليه إلى أن يموت، ثم يبعث، ثم يوقف بين يدي الله تعالى، ثم يصير إلى الجنة أو النار، فالمعنى ـ لتركبن: حالًا بعد حال، ومنزلًا بعد منزل، وأمرًا بعد أمر.

قال سعيد بن جبير وابن زيد: لتكونن في الآخرة بعد الأولى، ولتصيرن أغنياء بعد الفقر، وفقراء بعد الغنى، وقال عطاء: شدة بعد شدة، والطبق والطبقة: الحال، ولهذا يقال: كان فلان على طبقات شتى، قال عمرو بن العاص: لقد كنت على طبقات ثلاث: أي أحوال ثلاث.

قال ابن الأعرابي: ـ الطبق: الحال على اختلافها[٤]، وقد ذكرنا بعض أطباق الجنين

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/ ٩٥ رقم ١٠٠٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٩٤٠) انظر: لسان العرب (١٠/ ٢١١-٢١٢).

(٣) ١٧٥ تحفة المودود.

(٤) انظر: لسان العرب (١٠/ ٢١١).

في البطن من حين كونه نطفة إلى وقت ولادته. ثم نذكر أطباقه بعد ولادته إلى آخرها. فنقول: الجنين في الرحم بمنزلة الثمرة على الشجرة في اتصالها بمحلها اتصالًا قويًا، فإذا بلغت الغاية لم يبق إلا انفصالها لثقلها وكمالها وانقطاع العروق الممسكة لها. فهكذا الجنين تنهتك عنه تلك الأغشية وتنفصل العروق التي تمسكه بين المشيمة والرحم، وتنصب تلك الرطوبات المزلقة، فتعينه بإزلاقها وثقله، وانهتاك الحجب، وانفصال العروق على الخروج، فينفتح الرحم انفتاحًا عظيمًا جدًا، ولابد من انفصال بعض المفاصل العظيمة، ثم تلتئم في أسرع زمان، وقد اعترف بذلك حذاق الأطباء والمشرحين، وقالوا: لا يتم ذلك إلا بعناية إلهية وتدبير تعجز عقول الناس عن إدراك كيفيته، فتبارك الله أحسن الخالقين...

***

﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.

[1]من قال: الخطاب للإنسان أو لجملة الناس فالمعنى واحد، وهو تنقل الإنسان حالًا بعد حال، من حين كونه نطفة إلى مستقره من الجنة أو النار، فكم بين هذين من الأطباق والأحوال للإنسان.

وأقوال المفسرين كلها تدور على هذا. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لتصيرن الأمور حالًا بعد حال. وقيل لتركبن أيها الإنسان حالًا بعد حال، من النطفة، إلى العلقة، إلى المضغة، إلى كونه حيًا، إلى خروجه إلى هذه الدار، ثم ركوبه طبق التمييز بين ما ينفعه ويضره، ثم ركوبه بعد ذلك طبقًا آخر، وهو طبق البلوغ، ثم ركوبه طبق الأشد،

(١) ٧١ التبيان.

ثم طبق الشيخوخة، ثم طبق الهرم، ثم ركوبه طبق ما بعد الموت في البرزخ، وركوبه في أثناء هذه الأحوال أطباقًا عديدة، لا يزال ينتقل فيها حالًا بعد حال إلى دار القرار. فذلك آخر أطباقه التي يعلمها العباد، ثم يفعل الله ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما يشاء.

واختار أبو عبيدة قراءة الضم، وقال: المعنى بالناس أشبه منه بالنبي ﷺ، فإنه ذكر قبل الآية: من يوتى كتابه بيمينه، ومن يؤتى كتابه بشماله، ثم ذكر بعدها قوله: ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الانشقاق: ٢٠]. فذكر كونهم طبقًا بعد طبق. قال الواحدي: وهذا قول أكثر المفسرين. قالوا: لتركبن حالًا بعد حال، ومنزلًا بعد منزل، وأمرًا بعد أمر. قال سعيد بن جبير، وابن زيد: لتكونن في الآخرة بعد الأولى، ولتصيرن أغنياء بعد الفقر، وفقراء بعد الغنى. وقال عطاء: شدة بعد شدة. وقال أبو عبيدة: لتركبن سنة من كان قبلكم في التكذيب والاختلاف على الرسل.

وأنت إذا تأملت هذا المقسم به والمقسم عليه وجدته من أعظم الآيات الدالة على الربوبية وتغيير الله ـ سبحانه ـ للعالم، وتصريفه لها كيف أراد، ونقله إياه من حال إلى حال، وهذا محال أن يكون بنفسه من غير فاعل مدبر له. ومحال أن يكون فاعله غير قادر، ولا حي، ولا مريد، ولا حكيم، ولا عليم. وكلاهما في الامتناع سواء.

فالمقسم به وعليه من أعظم الأدلة على ربوبيته، وتوحيده، وصفات كماله، وصدقه، وصدق رسله، وعلى المعاد. ولهذا عقب ذلك بقوله: ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الانشقاق: ٢٠] إنكارًا على من لم يؤمن بعد ظهور هذه الآيات المستلزمة لمدلولها أتم استلزام.

وأنكر عليهم عدم خضوعهم وسجودهم للقرآن المشتمل على ذلك، بأفصح عبارة وأبينها وأجزلها وأوجزها. فالمعنى أشرف معنى، والعبارة أشرف عبارة: غاية الحق بغاية البيان والفصاحة. ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴾ [الانشقاق: ٢٢] ولا يصدقون بالحق جحودًا وعنادًا: ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ [الانشقاق: ٢٣] بما يضمرون في

صدورهم ويكتمونه، وما يسرونه من أعمالهم وما يجمعونه، فيجازيهم عليه بعلمه وعدله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ﴾[1] [الانشقاق: ٢٥].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الانشقاق

والحمد لله رب العالمين

(١) يأتي تفسير قول الله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ مبسوطًا في سورة التين. (ج).

سُورَةُ البُرُوجِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ ﴾.

(١)إقسامه سبحانه: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾ [البروج: ١] التي تنزلها الشمس والقمر. وفسرت بالنجوم، أو نوع منها. وفسرت بالقصور العظام، وكل ذلك من آيات قدرته وشواهد وحدانيته، فإن السماء كرة متشابهة الأجزاء، والشكل الكري، لا يتميز منه جانب عن جانب بطول، ولا قصر ولا وضع، بل هو متساوي الجوانب، فجعل هذه البروج في هذه الكرة على اختلاف صورها وأشكالها ومقاديرها يستحيل أن توجد بغير فاعل، ويستحيل أن يكون فاعلها غير قادر، ولا عالم، ولا مريد، ولا حي، ولا حكيم، ولا مباين للمفعول، وهذا ونحوه مما هدم قواعد الطبائعية والملاحدة والفلاسفة الذين لا يثبتون للعالم ربًا بائنًا قادرًا، فاعلًا بالاختيار، عالمًا بتفاصيله حكيمًا مدبرًا له.

فبروج السماء هي منازلها، أو منازل السيارة التي فيها، من أعظم آياته ـ سبحانه ـ فلهذا أقسم بها مع السماء.

ثم أقسم باليوم الموعود وهو يوم القيامة وهو المقسم به وعليه. كما أن القرآن يقسم به وعليه. ودال على وقوع اليوم الموعود باتفاق جميع الرسل عليه، وبما عرفه عباده من حكمته وعزته التي تأبى أن يتركهم سدى، ويخلقهم عبثًا. وبغير ذلك من

---

(١) ٥٦ التبيان.

الآيات والبراهين التي يستدل بها سبحانه على إمكانه تارة، وعلى وقوعه تارة، وعلى تنزيهه عما يقول أعداؤه من أنه لا يأتي به تارة. فالإقسام به عند من آمن بالله كالإقسام بالسماء وغيرها من الموجودات المشاهدة بالعيان.

ثم أقسم سبحانه بالشاهد والمشهود، مطلقين غير معينين، وأعم المعاني فيه أنه المدرِك والمدرَك، والعالم والمعلوم، والرائي والمرئي، وهذا أليق المعاني به، وما عداه من الأقوال ذكرت على وجه التمثيل، لا على وجه التخصيص.

فإن قيل: فما وجه الارتباط بين هذه الأمور الثلاثة المقسم بها؟

قيل: هي بحمد الله في غاية الارتباط، والإقسام بها متناول لكل موجود في الدنيا والآخرة، وكل منها آية مستقلة دالة على ربوبيته وإلهيته.

فأقسم بالعالم العلوي، وهي السماء وما فيها من البروج، التي هي أعظم الأمكنة وأوسعها. ثم أقسم بأعظم الأيام وأجلها قدرًا، الذي هو مظهر ملكه، وأمره، ونهيه، وثوابه، وعقابه، ومجمع أوليائه وأعدائه، والحكم بينهم بعلمه وعدله، ثم أقسم بما هو أعم من ذلك كله، وهو الشاهد والمشهود.

وناسب هذا القسم ذكر أصحاب الأخدود الذين عذبوا أولياءه، وهم شهود على ما يفعلون بهم، والملائكة شهود عليهم بذلك، والأنبياء وجوارحهم تشهد به عليهم. وأيضًا فالشاهد هو المطلع والرقيب، والمخبر والمشهود، وهو المطلع عليه المخبر به المشاهد.

فمن نوَّع الخليقة إلى شاهد ومشهود وهو أقدر القادرين، كما نوعها إلى مرئي لنا وغير مرئي، كما قال: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩] كما نوَّعها إلى أرض وسماء، وليل ونهار، وذكر وأنثى، وهذا التنويع والاختلاف من آياته سبحانه كذلك نوَّعها إلى شاهد ومشهود.

وفيه سر آخر، وهو أن من المخلوقات ما هو مشهود عليه، ولا يتم نظام العالم إلا بذلك، فكيف يكون المخلوق شاهدًا رقيبًا حفيظًا على غيره، ولا يكون الخالق ـ

تبارك وتعالى ـ شاهدًا على عباده، مطلعًا عليهم رقيبًا؟!

وأيضًا فإن ذلك يتضمن القسم بملائكته وأنبيائه ورسله، فإنهم شاهدون على العباد، فيكون من باب اتحاد المقسم به والمقسم عليه، كما أقسم باليوم الموعود وهو المقسم به وعليه، وأيضًا فيوم القيامة مشهود، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣] يشهده الله وملائكته والإنس والجن، والوحوش من آياته، والمشهود من آياته.

وأيضًا فكلامه مشهود، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار. فالمشهود من أعظم آياته وكذلك الشاهد، فكل ما وقع عليه اسم شاهد ومشهود فهو داخل في هذا القسم، فلا وجه لتخصيصه ببعض الأنواع أو الأعيان إلا على سبيل التمثيل. وأيضًا فكتاب الأبرار في عليين يشهده المقربون. فالكتاب مشهود، والمقربون شاهدون.

والأحسن أن يكون هذا القسم مستغنيًا عن الجواب، لأن القصد التنبيه على المقسم به، وأنه من آيات الرب العظيمة. ويبعد أن يكون الجواب: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ [البروج: ٤] الذين فتنوا أولياءه وعذبوهم بالنار ذات الوقود.

ثم وصف حالهم القبيحة بأنهم قعود على جانب الأخدود، شاهدين ما يجري على عباد الله تعالى وأوليائه عيانًا، ولا تأخذهم بهم رأفة ولا رحمة، ولا يعيبون عليهم دينًا سوى إيمانهم بالله العزيز الحميد، الذي له ملك السموات والأرض.

وهذا الوصف يقتضي إكرامهم وتعظيمهم ومحبتهم، فعاملوهم بضد ما يقتضى أن يعاملوا به. وهذا شأن أعداء الله دائمًا، ينقمون على أوليائه ما ينبغي أن يحبوا ويكرموا لأجله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩].

وكذلك اللوطية نقموا من عباد الله تنزيههم عن مثل فعلهم، فقالوا: ﴿أَخْرِجُوهُم

مِن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٢].

وكذلك أهل الإشراك ينقمون من الموحدين تجريدهم التوحيد، وإخلاص الدعوة والعبودية لله وحده.

وكذلك أهل البدع ينقمون من أهل السنة تجريد متابعتها وترك ما خالفها.

وكذلك المعطلة ينقمون من أهل الإثبات إثباتهم لله صفات كماله ونعوت جلاله.

وكذلك الرافضة ينقمون على أهل السنة محبتهم للصحابة جميعهم، وترضيهم عنهم وولايتهم إياهم، وتقديم من قدمه رسول الله ﷺ منهم، وتنزيلهم منازلهم التي أنزلهم الله ورسوله بها.

وكذلك أهل الرأي المحدث ينقمون على أهل الحديث وحزب الرسول أخذهم بحديثه وتركهم وما خالفه. وكل هؤلاء لهم نصيب، وفيهم شبه من أصحاب الأخدود. وبينهم وبينهم نسب قريب أو بعيد.

ثم أخبر سبحانه أنه أعد لهم عذاب جهنم وعذاب الحريق، حيث لم يتوبوا، وأنهم لو تابوا بعد أن فتنوا أولياءه وعذبوهم بالنار لغفر لهم ولم يعذبهم. وهذا غاية الكرم والجود. قال الحسن: انظروا إلى الكرم والجود، يقتلون أولياءه، يفتنونهم، وهو يدعوهم إلي التوبة والمغفرة.

انظروا إلى كرم الرب تعالى يدعوهم إلى التوبة، وقد فتنوا أولياءه، فحرقوهم بالنار، فلا ييأس العبد من مغفرته وعفوه، ولو كان منه ما كان، فلا عداوة أعظم من هذه العداوة، ولا أكفر ممن حرق بالنار من آمن بالله وحده، وعبده وحده، ومع هذا فلو تابوا لم يعذبهم، وألحقهم بأوليائه.

***

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) ﴾.

(١) يفرح ﷻ بتوبة أحدهم إذا تاب إليه أعظم فرح وأكمله، ويكفر عنه ذنوبه، ويوجب له محبته بالتوبة، وهو الذي ألهمه إياها ووفقه لها وأعانه عليها، وملأ ﷻ سماواته من ملائكته، واستعملهم في الاستغفار لأهل الأرض، واستعمل حملة العرش منهم في الدعاء لعباده المؤمنين والاستغفار لذنوبهم ووقايتهم عذاب الجحيم، والشفاعة إليه بإذنه أن يدخلهم جناته، فانظر إلي هذه العناية وهذا الإحسان وهذا التحنن والعطف والتحبب إلي العباد واللطف التام بهم. ومع هذا كله بعد أن أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وتعرف إليهم بأسمائه وصفاته وآلائه، ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، يسأل عنهم، ويستعرض حوائجهم بنفسه، ويدعوهم إلى سؤاله، فيدعو مسيئهم إلى التوبة، ومريضهم إلى أن يسأله أن يشفيه، وفقيرهم إلى أن يسأله غناه، وذا حاجتهم يسأله قضاءها كل ليلة، ويدعوهم إلى التوبة، وقد حاربوه، وعذبوا أولياءه، وأحرقوهم بالنار، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البروج: ١٠] وقال بعض السلف: انظروا إلى كرمه كيف عذبوا أولياءه وحرقوهم بالنار، ثم هو يدعوهم إلى التوبة. فهذا الباب يدخل منه كل أحد إلى محبته ﷻ فإن نعمته على عباده مشهودة لهم، يتقلبون فيها على عدد الأنفاس واللحظات.

وقد روي في بعض الأحاديث مرفوعًا: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني بحب الله»(٢) فهذه محبة تنشأ من مطالعة المنن والإحسان ورؤية النعم والآلاء، وكلما سافر القلب فيها ازدادت محبته وتأكدت، ولا نهاية لها فيقف سفر القلب

---

(١) ٣١٧ طريق الهجرتين.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٧٨٩) والبيهقي في الشعب (١/ ٣٦٦ رقم ٤٠٨) وفي الاعتقاد (ص ٣٢٨) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢١١) والخطيب البغدادي في تاريخه (٤/ ١٥٩) والفسوي في المعرفة والتاريخ (١/ ٢٦٩) وأحمد في فضائل الصحابة (٢/ ٩٨٦ رقم ١٩٥٢) والحاكم (٣/ ١٦٢ رقم ٤٧١٦) وصححه. وحسنه الترمذي.

عندها، بل كلما ازداد فيها نظرًا، ازداد فيها اعتبارًا وعجزًا عن ضبط القليل منها، فيستدل بما عرفه حتى ما لم يعرفه، والله ﷻ دعا عباده إليه من هذا الباب، حتى إذا دخلوا منه دعوا من الباب الآخر، وهو باب الأسماء والصفات، الذي إنما يدخل منه إليه خواص عباده وأوليائه، وهو باب المحبين حقًا الذي لا يدخل منه غيرهم، ولا يشبع من معرفته أحد منهم، بل كلما بدا له منه علم ازداد شوقًا ومحبة وظمأ. فإذا انضم داعي الإحسان والإنعام إلى داعي الكمال والجمال لم يتخلف عن محبة من هذا شأنه إلا أردأ القلوب وأخبثها وأشدها نقصًا وأبعدها من كل خير، فإن الله فطر القلوب على محبة المحسن الكامل في أوصافه وأخلاقه، وإذا كانت هذه فطرة الله التي فطر عليها قلوب عباده، فمن المعلوم أنه لا أحد أعظم إحسانًا منه ﷻ، ولا شيء أكمل منه ولا أجمل، فكل كمال وجمال في المخلوق من آثار صنعه ﷻ، وهو الذي لا يجد كماله، ولا يوصف جلاله وجماله، ولا يحصي أحد من خلقه ثناءً عليه بجميل صفاته وعظيم إحسانه وبديع أفعاله، بل هو كما أثنى على نفسه.

***

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝﴾.

[(١)] ذكر سبحانه جزاء أوليائه المؤمنين، ثم ذكر شدة بطشه، وأنه لا يعجزه شيء، فإنه هو المبدئ المعيد. ومن كان كذلك فلا أشد من بطشه، وهو مع ذلك الغفور الودود، يغفر لمن تاب إليه ويوده ويحبه، فهو سبحانه الموصوف بشدة البطش، أو مع ذلك هو الغفور الودود، المتودد إلى عباده بنعمه، الذي يود من تاب إليه وأقبل عليه. وهو الودود أيضًا أي المحبوب، قال البخاري في صحيحه: الودود: الحبيب.

والتحقيق أن اللفظ يدل على الأمرين، على كونه وادًا لأوليائه ومودودًا لهم. فأحدهما بالوضع. والآخر باللزوم. فهو الحبيب المحب لأوليائه يحبهم ويحبونه.

---

(١) ٥٨ التبيان.

وقال شعيب ﷺ: ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود: ٩٠].

وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور، فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه. وكذلك قد يرحم من لا يحب والرب تعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه، ويرحمه ويحبه مع ذلك، فإنه يحب التوابين، وإذا تاب إليه عبده أحب لو كان منه ما كان.

[(١)]«الودود» من أسماء الرب تعالى. وفيه قولان:

أحدهما: أنه المودود. قال البخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه «الودود الحبيب»[(٢)].

والثاني: أنه الوادُّ لعباده، أي المحب لهم. قرنه باسمه «الغفور» إعلامًا بأنه يغفر الذنب، ويحب التائب منه، ويوده. فحظ التائب: نيل المغفرة منه.

وعلى القول الأول: «الودود» في معنى يكون سر الاقتران. أي: اقتران «الودود بالغفور» استدعاء مودة العباد له، ومحبتهم إياه باسم «الغفور».

***

﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾ ﴾.

[(٣)]قال: ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾ [البروج: ١٥] فأضاف العرش إلى نفسه، كما تضاف إليه الأشياء العظيمة الشريفة. وهذا يدل على عظمة العرش، وقربه منه ـ سبحانه ـ واختصاصه به، بل يدل على غاية القرب والاختصاص، كما يضيف إلى نفسه «بذو» صفاته القائمة به. كقوله: ﴿ ذُو ٱلْقُوَّةِ ﴾ [الذاريات: ٥٨]، ﴿ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٧] ويقال: ذو العزة، وذو الملك وذو الرحمة ونظائر ذلك. فلو كان حظ العرش منه حظ

(١) ٢٨ مدارج جـ٣.

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً في كتاب التفسير، باب سورة البروج بعد حديث (رقم ٤٩٤٠) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٩٩) (١٣/ ٤٠٨) وعمدة القاري (١٩/ ٢٨٦-٢٨٧).

(٣) ٥٩ التبيان.

الأرض السابعة لكان لا فرق أن يقال: ذو العرش، وذو الأرض.

ثم وصف نفسه بالمجيد، وهو المتضمن لكثرة صفات كماله وسعتها، وعدم إحصاء الخلق لها. وسعة أفعاله، وكثرة خيره دوامه، وأما من ليس له صفات كمال ولا أفعال حميدة، فليس له من المجد شيء.

والمخلوق إنما يصير مجيدًا بأوصافه وأفعاله. فكيف يكون الرب ـ تبارك وتعالىٰ ـ مجيدًا. وهو معطل عن الأوصاف والأفعال؟ تعالىٰ الله عما يقول المعطلون علوًا كبيرًا، بل هو المجيد الفعال لما يريد.

والمجد في لغة العرب: كثرة أوصاف الكمال، وكثرة أفعال الخير، وأحسن ما قرن اسم المجيد إلي الحميد، كما قالت الملائكة لبيت الخليل ﷺ: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣].

وكما شرع لنا في آخر الصلاة أن نثني على الرب تعالىٰ بأنه حميد مجيد. وشرع في آخر الركعة عند الاعتدال أن نقول: «**ربنا ولك الحمد، أهل الثناء والمجد**»[(١)].

فالحمد والمجد على الإطلاق لله الحميد المجيد، فالحميد الحبيب المستحق لجميع صفات الكمال. والمجيد العظيم الواسع القادر الغني؛ ذو الجلال والإكرام.

ومن قرأ (المجيد) بالكسر هو صفة لعرشه سبحانه وإذا كان عرشه مجيدًا فهو ـ سبحانه ـ أحق بالمجد. وقد استشكل هذه القراءة بعض الناس، وقال: لم يسمع في صفات الخلق مجيد، ثم خرجها على أحد الوجهين، إما على الجوار، وإما أن يكون صفة لربك. وهذا من قلة بضاعة هذا القائل. فإن الله سبحانه وصف عرشه بالكرم، وهو نظير المجد. ووصفه بالعظمة. فوصفه سبحانه بالمجد مطابق لوصفه بالعظمة والكرم، بل هو أحق المخلوقات أن يوصف بذلك، ولسعته وحسنه وبهاء منظره، فإنه أوسع كل شيء في المخلوقات وأجمله، وأجمعه لصفات الحسن، وبهاء المنظر، وعلو

(١) أخرجه مسلم (رقم ٤٧١) وانظر: فتح الباري (٢/ ٢٨٩) وشرح النووي (٤/ ١٩٤).

القدر والرتبة والذات، ولا يقدر قدر عظمته وحسنه، وبهاء منظره إلا الله، ومجده مستفاد من مجد خالقه ومبدعه، والسموات السبع والأرضون السبع في الكرسي - الذي بين يديه - كحلقة ملقاة في أرض فلاة، والكرسي فيه كتلك الحلقة فيه كتلك الحلقة في الفلاة. قال ابن عباس: السموات السبع في العرش كسبعة دراهم جعلن في ترس[1]، فكيف لا يكون مجيدًا وهذا شأنه؟ فهو عظيم كريم مجيد. وأما تكلف هذا المتكلف جره إلى الجوار، أو أنه صفة لربك فتكلف شديد، وخروج عن المألوف في اللغة من غير حاجة إلى ذلك.

وقوله: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج: ١٦] دليل على أمور:

(أحدها) أنه سبحانه يفعل بإرادته ومشيئته.

(الثاني) أنه لم يزل كذلك، لأنه لم يزل كذلك، لأنه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه، وأن ذلك من كماله سبحانه، فلا يجوز أن يكون عادمًا لهذا الكمال في وقت من الأوقات. وقد قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧] وما كان من أوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثًا بعد أن لم يكن.

(الثالث) أنه إذا أراد شيئًا فعله، فإن «ما» موصولة عامة، أي يفعل كل ما يريد أن يفعله، وهذا في إرادته المتعلقة بفعله. وأما إرادته المتعلقة بفعل العبد فتلك لها شأن آخر. فإن أراد فعل العبد ولم يرد من نفسه أن يعينه ويجعله فاعلًا لم يوجد الفعل وإن أراده، حتى يريده من نفسه أن يجعله فاعلًا، وهذه هي النكتة التي خفيت على القدرية والجبرية، وخبطوا في مسألة القدر لغفلتهم عنها، فإن هنا إرادتين: إرادة أن يفعل العبد، وإرادة أن يجعله الرب فاعلًا، وليستا متلازمتين، وإن لزم من الثانية الأولى من غير عكس، فمتى أراد من نفسه أن يعين عبده، وأن يخلق له أسباب الفعل فقد أراد

---

(١) يروى عن ابن زيد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس» أخرجه الطبري في تفسيره (٣/ ١٠) وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٨٧ رقم ٣١) وانظر: الدر المنثور (٤/ ٣٣٦) وتفسير ابن كثير (١/ ٣١٠) والتدوي في أخبار قزوين (١/ ١١٧).

فعله، وقد يريد فعله، ولا يريد من نفسه أن يخلق له أسباب الفعل، فلا يوجد الفعل.

فإن اعتاص عليك فهم هذا الموضع وأشكل عليك فانظر إلى قول النبي ﷺ، حاكيًا عن ربه قوله للعبد يوم القيامة: «قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب أبيك: أن لا تشرك بي شيئًا»(١) ولم يقع هذا المراد، لأنه لم يرد من نفسه إعانته عليه وتوفيقه له.

(الرابع) أن فعله سبحانه وإرادته متلازمان. فيما أراد أن يفعله فعله، وما فعله فقد أراده. بخلاف المخلوق، فإنه يريد ما لا يفعل، وقد يفعل ما لا يريد. فما ثم فعال لما يريد إلا الله وحده.

(الخامس) إثبات إرادة متعددة بحسب الأفعال، وأن كل فعل له إرادة تخصه، وهذا هو المعقول في الفطر، وهو الذي يعقله الناس من الإرادة، فشأنه ـ تعالى ـ أن يريد على الدوام، ويفعل ما يريد.

(السادس) أن كل ما صلح أن تتعلق به إرادته جاز فعله. فإذا أراد أن ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا. وأن يجيء يوم القيامة لفصل القضاء، وأن يري نفسه لعباده، وأن يتجلى لهم كيف شاء، وأن يخاطبهم ويضحك إليهم، وغير ذلك مما يريد سبحانه لم يمتنع عليه فعله، فإنه فعال لما يريد. وإنما تتوقف صحة ذلك على إخبار الصادق به. فإذا أخبر به وجب التصديق به، وكان رده ردًا لكماله الذي أخبر به عن نفسه. وهذا عين الباطل. وكذلك إذا أمكن إرادته سبحانه محو ما شاء، وإثبات ما شاء أمكن فعله، وكانت الإرادة والفعل من مقتضيات كماله المقدس.

وقد اشتملت هذه السورة على اختصارها من التوحيد على وصفه ـ سبحانه ـ بالعزة المتضمنة للقدرة والقوة، وعدم النظير. والحمد المتضمن لصفات الكمال، والتنزيه عن أضدادها، مع محبته وإلهيته. وملكه السموات والأرض، المتضمن لكمال غناه وسعة ملكه وشهادته على كل شيء المتضمن لعموم اطلاعه على ظواهر الأمور

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٥٧) ومسلم (رقم ٢٨٠٥) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٦٩) (١١/ ٤٠٣).

وبواطنها. وإحاطة بصره بمرئياتها وسمعه بمسموعاتها وعلمه بمعلوماتها. ووصفه بشدة البطش المتضمن لكمال القوة والعزة والقدرة وتفرده بالإبداء والإعادة المتضمن لتوحيد ربوبيته. وتصرفه في المخلوقات بالإبداء والإعادة وانقيادها لقدرته، فلا يستعصى عليه منها شيء. ووصفه بالمغفرة المتضمن لكمال جوده وإحسانه وغناه ورحمته. ووصفه بالودود المتضمن لكونه حبيبًا إلى عباده محبًا لهم.

ووصفه بأنه ذو العرش الذي لا يقدر قدره سواه، وأن عرشه المختص به لا يليق بغيره أن يستوي عليه، ووصفه بالمجد المتضمن لسعة العلم والقدرة والملك والغنى والجود والإحسان والكرم. وكونه فعالًا لما يريد المتضمن لحياته وعلمه وقدرته ومشيئته وحكمته، وغير ذلك من أوصاف كماله.

فهذه السورة كتاب مستقل في أصول الدين، تكفي من فهمها. فالحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب وتبارك الذي نزل الفرقان على عبده.

ثم ختمها بذكر فعله وعقوبته بمن أشرك به وكذب رسله، تحذيرًا لعباده من سلوك سبيلهم، وأن من فعل فعلهم فعل به كما فعل بهم.

ثم أخبر عن أعدائه بأنهم مكذبون بتوحيده ورسالاته مع كونهم في قبضته، وهو محيط بهم. ولا أسوأ حالًا ممن عادى من هو في قبضته، ومن هو قادر عليه من كل وجه، وبكل اعتبار. فقال: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ۝ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴾ [البروج: ١٩، ٢٠] فهذا أعجب عجب ممن كفر بمن محيط به وآخذ بناصيته قادر عليه.

ثم وصف كلامه بأنه مجيد، وهو أحق بالمجد من كل كلام، كما أن المتكلم به له المجد كله. فهو المجيد، وكلامه مجيد، وعرشه مجيد.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قرآن مجيد، كريم. لأن كلام الرب ليس كما يقول الكافرون: شعر، وكهانة، وسحر.

وقد تقدم أن المجد السعة، وكثرة الخير، وكثرة خير القرآن لا يعلمها إلا من تكلم به، وقوله: ﴿ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴾ [البروج: ٢٢] أكثر القراء على الجر، صفة للوح.

وفيه إشارة إلى أن الشياطين لا يمكنهم التنزل به، لأن محله محفوظ أن يصلوا إليه، وهو في نفسه محفوظ أن يقدر الشيطان على الزيادة فيه والنقصان.

فوصفه سبحانه بأنه محفوظ في قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]. ووصف محله بالحفظ في هذه السورة، فالله سبحانه حفظ محله، وحفظه من الزيادة والنقصان والتبديل، وحفظ معانيه من التحريف. كما حفظ ألفاظه من التبديل، وأقام له من يحفظ حروفه من الزيادة والنقصان، ومعانيه من التحريف والتغيير.

هذا ما يسر جمعه من تفسير سورة البروج

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

سُورَةُ الطَّارِقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ۝١٠ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ۝١٤ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ۝١٧ ﴾.

(١)إقسامه سبحانه: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴾ [الطارق: ١] وقد فسره بأنه: ﴿ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴾ [الطارق: ٣] الذي يثقب ضوؤه، والمراد به الجنس لا نجم معين. ومن عينه بأنه الثريا، أو زحل، فإن أراد التمثيل فصحيح، وإن أراد التخصيص فلا دليل عليه.

والمقصود أنه سبحانه أقسم بالسماء ونجومها المضيئة. وكل منها آية من آياته الدال على وحدانيته، وسمى النجم طارقًا، لأنه يظهر بالليل بعد اختفائه بضوء الشمس، فشبه بالطارق الذي يطرق الناس، أو أهله ليلًا.

قال الفراء: ما أتاك ليلًا فهو طارق. وقال الزجاج، والمبرد: لا يكون الطارق نهارًا، ولهذا تستعمل العرب الطروق في صفة الخيال كثيرًا، كما قال ذو الرمة:

ألا طرقت ميٌّ هيومًا بذكرها ... وأيدي الثريا جنحٌ في المغارب(٢)

---

(١) ٦٣ التبيان.

(٢) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى ذي الرمة: غيلان بن عقبة العدوي من فحول الطبقة الثانية في عصره، قال أبو عمرو بن العلاء: فتح الشعر بامرئ القيس وختم بذي الرمة، أكثر شعره تشبيب وبكاء أطلال، عشق مية المنقرية واشتهر بها، توفي بأصبهان سنة ١١٧هـ. والبيت ذكره ابن منظور في اللسان (١٥/ ٤٢٣).

وقال جرير:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة، فارجعي بسلام[(١)]

ولهذا قيل: أول من رد الطيف جرير، فلم يزل الناس على قبوله وإكرامه كالضيف. فالطيف والضيف كلاهما لا يرد. وقال الآخر:

ألا طرقتنا من آخر الليل زينب عليك سلام هل لما فات مطلب؟[(٢)]

والمقسم عليه ههنا حال النفس الإنسانية، والاعتناء بها، وإقامة الحفظة عليها. وأنها لم تترك سدى، بل قد أرصد عليها من يحفظ عليها أعمالها ويحصيها، فأقسم سبحانه أنه ما من نفس إلا عليها حافظ من الملائكة، يحفظ عملها وقولها، ويحصي ما تكتسب من خير أو شر.

واختلف القراء في «لما» فشددها بعضهم، وخففها بعضهم. فمن قرأها بالتشديد جعلها بمعنى إلا، وهي تكون بمعنى إلا في موضعين.

(أحدهما) بعد إن المخففة مثل هذا الموضع، أو المثقلة مثل قوله: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [هود: ١١١].

(والثاني) في باب القسم، نحو سألتك بالله لما فعلت. قال أبو علي الفارسي: من خفف كانت عنده هي المخففة من الثقيلة، واللام في خبرها هي الفارقة بين إن النافية والخفيفة [وما] زائدة، وإن هي التي يتلقى بها القسم، كما يتلقى بالمثقلة. ومن قرأها مشددة كانت [إن] عنده نافية بمعنى [ما ولما] في معنى: [إلا]. قال سيبويه، عن

(١) هذا البيت من بحر الكامل وذكره ابن عساكر في تاريخه (١١/ ٢٦١).

(٢) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى يزيد بن مفرغ الحميري، ولد بالبصرة وهو من أصل يمني وكانت أسرته في حلف مع قريش، كان نديماً لسعيد بن عثمان بن عفان، واشتهر بشعره الساخر من عباد وعبيد الله بن زياد بن أبيه، توفي سنة ٦٩هـ. ذكر البيت أبو بكر محمد بن داود الأصبهاني في الزهرة (١/ ١٦٧).

الخليل ـ في قولهم: نشدتك بالله لما فعلت ـ قال المعنى: إلا فعلت.

ثم نبه سبحانه الإنسان على دليل المعاد بما يشاهده من حال مبدئه على طريقة القرآن في الاستدلال على المعاد بالمبدأ، فقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥] أي: فلينظر نظر الفكر والاستدلال، ليعلم أن الذي ابتدأ أول خلقه من نطفة قادر على إعادته.

ثم أخبر سبحانه أنه خلقه من ماد دافق. والدفق صب الماء، يقال دفقت الماء فهو مدفوق ودافق ومندفق. فالمدفوق الذي وقع عليه فعلك، كالمكسور، والمضروب.

والمتدفق: المطاوع لفعل الفاعل. تقول: دفقته فاندفق، كما تقول: كسرته فانكسر. والدافق قيل: إنه فاعل بمعنى مفعول؛ كقولهم: سر كاتم، وعيشة راضية.

وقيل: هو على النسب؛ على الفعل، أي ذي دفق، أو ذات. ولم يرد الجريان على الفعل. وقيل ـ وهو الصواب ـ: إنه اسم فاعل على بابه؛ ولا يلزم من ذلك أن يكون هو فاعل الدفق. فإن اسم الفاعل هو من قام به الفعل، سواء فعله هو أو غيره كما يقال: ماء جار ورجل ميت، وإن لم يفعل الموت، بل لما قام به من الموت نسب إليه على جهة الفعل. وهذا غير منكر في لغة أمة من الأمم، فضلًا عن أوسع اللغات وأفصحها.

وأما العيشة الراضية فالوصف بها أحسن من الوصف بالمرضية، فإنها اللائقة بهم، فشبه ذلك برضاها بهم كما رضوا بها. كأنها رضيت بهم ورضوا بها. وهذا أبلغ من مجرد كونها مرضية فقط فتأمله. وإذا كانوا يقولون: الوقت الحاضر والساعة الراهنة ـ وإن لم يفعلا ذلك، فكيف يمتنع أن يقولوا: ماء دافق، وعيشة راضية؟

ونبه سبحانه بكونه دافقًا على أنه ضعيف غير متماسك. ثم ذكر محله الذي يخرج منه، وهو بين الصلب والترائب. قال ابن عباس: صلب الرجل، وترائب المرأة، وهو موضع القلادة من صدرها، والولد يخلق من المائين جميعًا.

وقيل: صلب الرجل وترائبه وهي صدره، فيخرج من صلبه وصدره. وهذه الآية الدالة على قدرة الخالق سبحانه نظير إخراجه اللبن الخالص من بين الفرث والدم.

(١)وقد دعا سبحانه الإنسان إلى أن ينظر في مبدأ خلقه ورزقه، ويستدل بذلك على معاده وصدق ما أخبرت به الرسل؛ فقال في الأول: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ [الطارق: ٥- ٩] فالدافق على بابه، ليس فاعلًا بمعنى مفعول كما يظنه بعضهم، بل هو بمنزلة: ماء جار وواقف وساكن، ولا خلاف أن المراد بالصلب: صلب الرجل.

واختلف في الترائب فقيل: المراد بها ترائبه أيضًا، وهي عظام الصدر ما بين الترقوة إلى الثندوة. وقيل: المراد ترائب المرأة، والأول أظهر؛ لأنه سبحانه قال: ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ ولم يقل يخرج من الصلب والترائب، فلابد أن يكون ماء الرجل خارجًا من بين هذين المختلفين كما قال في اللبن: يخرج: ﴿ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ ﴾ [النحل: ٦٦]. وأيضًا فإنه سبحانه أخبر أنه خلقه من نطفة في غير موضع، والنطفة هي ماء الرجل، كذلك قال أهل اللغة.

قال الجوهري: والنطفة: الماء الصافي قل أو كثر، والنطفة: ماء الرجل، والجمع نطف. وأيضًا فإن الذي يوصف بالدفق والنضح إنما هو ماء الرجل، ولا يقال نضحت المرأة الماء ولا دفقته(٢).

والذي أوجب لأصحاب القول الآخر ذلك أنهم رأوا أهل اللغة قالوا: الترائب موضع القلادة من الصدر، قال الزجاج: أهل اللغة مجمعون على ذلك، وأنشدوا لامرئ القيس:

---

(١) ١٤٥ أعلام جـ١.

(٢) انظر: فتح الباري (٦/ ٤٨٨) (١١/ ٤٧٩) وعمدة القاري (٣/ ٢٩٣) والقاموس المحيط (ص ١١٠٧) ولسان العرب (٩/ ٣٣٥) ومختار الصحاح (٢٧٧).

مهفهفــة بيــضاء غيــر مفاضــةٍ ترائبهــا مــصقولةٌ كالــسجنجل[(١)]

وهذا لا يدل على اختصاص الترائب بالمرأة، بل يطلق على الرجل والمرأة، قال الجوهري: الترائب عظام الصدر ما بين الترقوة إلى الثندوة.

وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴾ [الطارق: ٨] الصحيح أن الضمير يرجع على الإنسان، أي: إن الله على رده إليه لقادر يوم القيامة، وهو اليوم الذي تبلى فيه السرائر، ومن قال: «إن الضمير يرجع على الماء أي: إن الله على رجعه في الإحليل أو في الصدر أو حبسه عن الخروج لقادر» فقد أبعد، وإن كان الله سبحانه قادرًا على ذلك، ولكن السياق يأباه، وطريقة القرآن ـ وهي الاستدلال بالمبدأ والنشأة الأولى على المعاد والرجوع إليه ـ وأيضًا فإنه قيده بالظرف، وهو: ﴿ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ [الطارق: ٩]. والمقصود أنه سبحانه دعا الإنسان أن ينظر في مبدأ خلقه ورزقه، فإن ذلك يدله دلالة ظاهرة على معاده ورجوعه إلى ربه.

[(٢)]وإذا تأملت ما دعا الله سبحانه في كتابه عباده إلى الفكر فيه أوقعك على العلم به ﷻ وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله من عموم قدرته وعلمه وكمال حكمته ورحمته وإحسانه وبره ولطفه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه، فبهذا تعرَّف إلى عباده وندبهم إلى التفكر في آياته.

ونذكر لك أمثلة مما ذكرها الله سبحانه في كتابه ليستدل بها على غيرها. فمن ذلك خلق الإنسان وقد ندب سبحانه إلى التفكر فيه والنظر في غير موضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ [الطارق: ٥]. وقوله تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات: ٢١]. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وذكره الخطابي في غريب الحديث (١/ ٢١٣) وابن منظور في اللسان (١/ ٢٣٠).

(٢) ١٨٧ مفتاح جـ١.

فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾[1] [الحج: ٥].

[2]قال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ [الطارق: ٥ ـ ٧].

قال الزجاج: قال أهل اللغة: التريبة موضع القلادة من الصدر، والجمع ترائب. وقال أبو عبيدة: الترائب: معلق الحلي من الصدر، وهو قول جمع أهل اللغة[3]. قال عطاء وابن عباس: يريد صلب الرجل، وترائب المرأة: وهو موضع قلادتها، وهذا قول الكلبي ومقاتل وسفيان وجمهور أهل التفسير، وهو المطابق لهذه الأحاديث، وبذلك أجرى الله العادة في إيجاد ما يوجده من بين أصلين: كالحيوان والنبات وغيرهما من المخلوقات، فالحيوان ينعقد من ماء الذكر وماء الأنثى، كما ينعقد النبات من الماء والتراب والهواء. ولهذا قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ۖ ﴾ [الأنعام: ١٠١].

فإن الولد لا يتكون إلا من بين الذكر وصاحبته، ولا ينتقض هذا بآدم وحواء أبوينا ولا بالمسيح، فإن الله سبحانه مزج تراب آدم بالماء حتى صار طينًا، ثم أرسل عليه الهواء والشمس حتى صار كالفخار، ثم نفخ فيه الروح، وكانت حواء مستلة منه وجزءًا من أجزائه، والمسيح خلق من ماء مريم ونفخة الملك، وكانت النفخة له كالأب لغيره.

---

(١) بحث المؤلف في عموم الحكم الكثيرة في مخلوقات الله والتفكر فيها بحثًا موسعًا يطلعك على أبواب من العلم فاظفر بها إن شئت. (ج).

(٢) ١٦٦ تحفة المودود.

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ١٨٦) ولسان العرب (١/ ٢٣٠) ومختار الصحاح (ص ٣٢).

[(١)]ثم ذكر الأمر المستدل عليه والمعاد بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٨] أي: على رجعه إليه يوم القيامة، كما هو قادر على خلقه من ماء هذا شأنه. هذا هو الصحيح في معنى الآية. وفيها قولان ضعيفان: أحدهما قول مجاهد: على رد الماء في الإحليل لقادر. والثاني قول عكرمة والضحاك. على رد الماء في الصلب. وفيه قول ثالث قال مقاتل: إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الصبا، إلى النطفة.

والقول الصواب هو الأول لوجوه:

(أحدها): أنه هو المعهود من طريقة القرآن من الاستدلال بالمبدأ على المعاد.

(الثاني): أن ذلك أدل على المطلوب من القدرة على رد الماء في الإحليل.

(الثالث): أنه لم يأت لهذا المعنى في القرآن نظير في موضع واحد. ولا أنكره أحد حتى يقيم سبحانه الدليل عليه.

(الرابع): أنه قيد الفعل بالظرف وهو قوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝﴾ [الطارق: ٩] وهو يوم القيامة، أي: أن الله قادر على رجعه إليه حيًّا في ذلك اليوم.

(الخامس): أن الضمير في (رجعه) هو الضمير في قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝﴾ [الطارق: ١٠] وهذا للإنسان قطعًا لا للماء.

(السادس): أنه لا ذكر للإحليل، حتى يتعين كون المرجع إليه. فلو قال قائل: على رجعه إلى الفرج الذي صب فيه لم يكن فرق بينه وبين هذا القول، ولم يكن أولى منه.

(السابع): أن رد الماء إلى الإحليل أو الصلب بعد خروجه منه غير معروف، ولا هو أمر معتاد جرت به القدرة، وإن كان مقدورًا للرب تعالى، ولكن هو لم يجره ولم تجر به العادة. ولا هو مما تكلم الناس فيه، نفيًا أو إثباتًا، ومثل هذا لا يقرره الرب ولا يستدل عليه وينبه على منكريه، وهو ـ سبحانه ـ إنما يستدل على أمر واقع ولابد، فإما قد وقع ووجد أو سيقع.

---

(١) ٦٥ التبيان.

فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ٣، ٤] أي: نجعله كخف البعير قيل: هذه أيضًا فيها قولان: أحدهما هذا. والثاني ـ وهو الأرجح ـ أن تسوية بنانه إعادتها كما كانت، بعد ما فرقها البلى في التراب[1].

(الثامن): أنه سبحانه دعا الإنسان إلى النظر فيما خلق منه ليرده نظره عن تكذيبه بما أخبر به، وهو لم يخبره بقدرة خالقه على رد الماء في إحليله بعد مفارقته له، حتى يدعوه إلى النظر فيما خلق منه، وليستقبح منه صحة إمكان رد الماء.

(التاسع): أنه لا ارتباط بين النظر في مبدأ خلقه ورد الماء في الإحليل بعد خروجه، ولا تلازم بينهما، حتى يجعل أحدهما دليلًا على إمكان الآخر، بخلاف الارتباط الذي بين المبدأ والمعاد، والخلق الأول والخلق الثاني، والنشأة الأولى والنشأة الثانية. فإنه ارتباط من وجوه عديدة، ويلزم من إمكان أحدهما إمكان الآخر، ومن وقوعه صحة وقوع الآخر. فحسن الاستدلال بأحدهما على الآخر.

(العاشر): أنه سبحانه نبه بقوله: ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ [الطارق: ٤] على أنه قد وكل عليه من يحفظ عليه عمله ويحصيه، فلا يضيع منه شيء.

ثم نبه بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴾ [الطارق: ٨] على بعثه لجزائه على العمل الذي حفظ وأحصى عليه. فذكر شأن مبدأ عمله ونهايته، فمبدؤه محفوظ عليه ونهايته الجزاء عليه، ونبه على هذا بقوله: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ [الطارق: ٩] أي: تختبر. وقال مقاتل: تظهر وتبدو، وبلوت الشيء إذا اختبرته ليظهر لك باطنه، وما خفي منه. والسرائر جمع سريرة، وهي سرائر الله التي بينه وبين عبده في ظاهره وباطنه لله. فالإيمان من السرائر، وشرائعه من السرائر. فتختبر ذلك اليوم، حتى يظهر خيرها من شرها، ومؤديها من مضيعها. وما كان لله مما لم يكن له.

(١) تقدم في سورة القيامة مبسوطًا. (ج).

قال عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: يبدي الله يوم القيامة كل سر فيكون زينًا في الوجوه، وشينًا فيها. والمعنى تختبر السرائر بإظهارها. وإظهار مقتضياتها من الثواب والعقاب، والحمد والذم.

وفي التعبير عن الأعمال بالسر لطيفة، وهو أن الأعمال نتائج السرائر الباطنة فمن كانت سريرته صالحة كان عمله صالحًا، فتبدو سريرته على وجهه نورًا وإشراقًا وحياءً، ومن كانت سريرته فاسدة كان عمله تابعًا لسريرته، لا اعتبار بصورته، فتبدو سريرته على وجهه سوادًا وظلمة وشينًا. وإن كان الذي يبدو عليه في الدنيا إنما هو عمله لا سريرته، فيوم القيامة تبدو عليه سريرته، ويكون الحكم والظهور لها. قال الشاعر:

فإن لها في مضمر القلب والحشا ... سريرة حب يوم تبلى السرائر(١)

ثم أخبر ـ سبحانه ـ عن حال الإنسان في يوم القيامة أنه غير ممتنع من عذاب الله. لا بقوة منه ولا بقوة من خارج، وهو الناصر. فإن العبد إذا وقع في شدة، فإما أن يدفعها بقوته أو قوة من ينصره. وكلاهما معدوم في حقه. ونظيره قوله سبحانه: ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٣].

ثم أقسم سبحانه: بـ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴾ [الطارق: ١١، ١٢]. فأقسم بالسماء ورجعها بالمطر، والأرض وصدعها بالنبات. قال الفراء: تبدي بالمطر ثم ترجع به، في كل عام. وقال أبو إسحاق: الرجع المطر، لأنه يجيء ويرجع ويتكرر. وكذلك قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ تبدي بالمطر ثم ترجع به. في كل عام.

والتحقيق أن هذا على وجه التمثيل. ورجع السماء هو إعطاء الخير الذي يكون من

---

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى الأحوص الأنصاري الشاعر الأموي الهجَّاء وكان صافي الديباجة من طبقة جميل بن معمر، وفد على الوليد بن عبدالملك في الشام فأكرمه ثم بلغه ما ساءه عنه من سيرته فرده إلى المدينة وأمر بجلده ونفاه إلى جزيرة بين اليمن والحبشة، مات سنة ١٠٥هـ. ذكر البيت ابن منظور في اللسان (٤/ ٤٩٢) وابن عساكر في تاريخه (٣٢/ ٢١٨).

جهتها حالًا بعد حال، على مرور الأزمان. ترجعه رجعًا، أي: تعطيه مرة بعد مرة. والخير كله من قبل السماء يجيء. ولما كان أظهر الخير المشهود بالعيان المطر فسر الرجع به، وحسن تفسيره ومقابلته بصدع الأرض عن النبات، وفسر الصدع بالنبات، لأنه يصدع الأرض أي يشقها. فأقسم سبحانه بالسماء ذات المطر، والأرض ذات النبات، وكل من ذلك آية من آيات الله تعالى الدالة على ربوبيته.

وأقسم على كون القرآن حقًا وصدقًا، فقال: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴾ [الطارق: ١٣، ١٤] كما أقسم في أول السورة على حال الإنسان في مبدئه ومعاده.

والقول الفصل هو الذي يفصل بين الحق والباطل، فيميز هذا من هذا، ويفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه، ومصيب الفصل الذي ينفصل عنده المراد ويتميز من غيره، كما قال: أصاب الفصل وأصاب المرء. إذا أصاب بكلامه نفس المعنى المراد، ومنه فصل الخطاب.

وأيضًا فالقول الفصل ببيان المعنى ضد الإجمال. فكون القرآن فصلًا يتضمن هذه المعاني كلها، ويتضمن كونه حقًا ليس بالباطل، وجدًا ليس بالهزل.

ولما كان الهزل هو الذي لا حقيقة له ـ وهو الباطل واللعب ـ قابل بين الفصل والهزل. وإنما يكيد المكذبون ويحيلون، ويخادعون لرده، ولا يردونه بحجة، والله يكيدهم كما يكيدون دينه ورسوله وعباده.

وكيده سبحانه استدراجهم من حيث لا يعلمون، والإملاء لهم حتى يأخذهم على غرة، كما قال تعالى: ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٣] فالإنسان إذا أراد أن يكيد غيره يظهر له إكرامه وإحسانه إليه حتى يطمئن إليه فيأخذه كما يفعل الملوك، فإذا فعل ذلك أعداء الله بأوليائه ودينه كان كيد الله لهم حسنًا لا قبح فيه، فيعطيهم ويعافيهم وهو يستدرجهم، حتى إذا فرحوا بما أتوا أخذناهم بغتة، ثم قال: ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ [الطارق: ١٧] أي أنظرهم قليلًا، ولا تستعجل لهم، والرب تعالى هو الذي يمهلهم.

وإنما خرج الخطاب للرسول على جهة التهديد والوعيد لهم. أو على معنى انتظر بهم قليلًا. ورويدا في كلامهم يكون اسم فعل، فينصب بها الاسم نحو رويدًا زيدًا، أي: خله وأمهله، وارفق به.

الثاني: أن يكون مصدرًا مضافًا إلى المفعول، نحو رويد زيد، أي: إمهال زيد، نحو: ضرب الرقاب.

الثالث: أن يكون نعتًا منصوبًا، نحو قولك: ساروا رويدًا. تقول العرب: ضعه رويدًا، أي: وضعًا رويدًا. وفي حديث عائشة في خروج النبي ﷺ بالليل من عندها إلى البقيع «فخرج رويدًا، وأجاف الباب رويدًا»[1].

ويجوز في هذا الوجه وجهان:

أحدهما: أن يكون حالًا.

والثاني: أن يكون نعتًا لمصدر محذوف، فإن أظهر المنعوت تعين الوجه الثاني. ورويدًا في هذه الآية هو من هذا النوع الثالث. والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الطارق.

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٩٧٤) وانظر: شرح النووي (٧/ ٤٣).

سُورَةُ الأَعْلَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾.

(١) الهداية لها أربع مراتب، وهي مذكورة في القرآن.

المرتبة الأولى: الهداية العامة، وهي هداية كل مخلوق من الحيوان والآدمي لمصالحه التي بها قام أمره، قال الله تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾ [الأعلى: ١ - ٣].

فذكر أمورًا أربعة: الخلق والتسوية والتقدير والهداية، فسوى خلقه، وأتقنه، وأحكمه، ثم قدر له أسباب مصالحه في معاشه وتقلباته وتصرفاته وهداه إليها والهداية تعليم، فذكر أنه الذي خلق وعلم كما ذكر نظير ذلك في أول سورة أنزلها على رسوله، وقد تقدم ذلك. وقال تعالى حكاية عن عدوه فرعون أنه قال لموسى: ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠] وهذه المرتبة أسبق مراتب الهداية وأعمها.

المرتبة الثانية: هداية البيان والدلالة التي أقام بها حجته على عباده، وهذه لا تستلزم الاهتداء التام. قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧] يعني بينا لهم ودللناهم وعرفناهم فآثروا الضلالة والعمي.

وقال تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٨] وهذه المرتبة أخص من الأولى وأعم من الثانية. وهي هداية التوفيق والإلهام. قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٥ ﴾ [يونس: ٢٥] فعم

(١) ٨٣ مفتاح جـ١.

بالدعوة خلقه وخص بالهداية من شاء منهم. قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦] مع قوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢] فأثبت هداية الدعوة والبيان، ونفي هداية التوفيق والإلهام. وقال النبي ﷺ في تشهد الحاجة: «**من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له**»[1]. وقال تعالى: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل: ٣٧] أي من يضله الله لا يهتدي أبدًا.

وهذه الهداية الثالثة هي الهداية الموجبة المستلزمة للاهتداء. وأما الثانية فشرط لا موجب، فلا يستحيل تخلف الهدي عنها بخلاف الثالثة، فإن تخلف الهدى عنها مستحيل.

المرتبة الرابعة: الهداية في الآخرة إلي طريق الجنة والنار. قال تعالى: ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣]. وأما قول أهل الجنة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣] فيحتمل أن يكونوا أرادوا الهداية إلى طريق الجنة وأن يكونوا أرادوا الهداية في الدنيا التي أوصلتهم إلى دار النعيم.

ولو قيل: إن كلا الأمرين مراد لهم، وإنهم حمدوا الله على هدايته لهم في الدنيا وهدايتهم إلى طريق الجنة كان أحسن وأبلغ، وقد ضرب الله تعالى لمن لم يحصل له العلم بالحق واتباعه مثلًا مطابقًا لحاله: فقال تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى

(١) أخرجه أبو نعيم في المسند المستخرج على صحيح مسلم (٢/ ٤٥٥ رقم ١٩٥٣) وابن خزيمة في صحيحه (٣/ ١٤٣ رقم ١٧٨٥) والنسائي في الكبرى (١/ ٥٢٩ رقم ١٧٠٩) وأبو داود (رقم ٢١١٨) والبيهقي في الكبرى (٧/ ١٤٦ رقم ١٣٦٠٨) وهناد في الزهد (١/ ٢٧٩ رقم ٤٩٢) وصححه النووي في شرح مسلم (٦/ ١٦٠).

ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٧١].

(١) والهداية هي العلم بالحق مع قصده وإيثاره على غيره. فالمهتدي هو العامل بالحق المريد له، وهي أعظم نعمة لله على العبد. ولهذا أمرنا سبحانه أن نسأله هداية الصراط المستقيم كل يوم وليلة في صلواتنا الخمس، فإن العبد محتاج إلى معرفة الحق الذي يرضي الله في كل حركة ظاهرة وباطنة، فإذا عرفها فهو محتاج إلى من يلهمه قصد الحق، فيجعل إرادته في قلبه ثم إلى من يقدره على فعله.

ومعلوم أن ما يجهله العبد أضعاف أضعاف ما يعلمه، وأن كل ما يعلم أنه حق لا تطاوعه نفسه على إرادته، ولو أراده لعجز عن كثير منه، فهو مضطر كل وقت إلى هداية تتعلق بالماضي وبالحال والمستقبل.

أما الماضي فهو محتاج إلى محاسبة نفسه عليه، وهل وقع على السداد فيشكر الله عليه ويستديمه أم خرج فيه عن الحق، فيتوب إلى الله تعالى منه، ويستغفره ويعزم على أن لا يعود؟

وأما الهداية في الحال فهي مطلوبة منه، فإنه ابن وقته، فيحتاج أن يعلم حكم ما هو متلبس به من الأفعال، هل هو صواب أم خطأ؟

وأما المستقبل فحاجته في الهداية أظهر ليكون سيره على الطريق.

وإذا كان هذا شأن الهداية علم أن العبد أشد شيء اضطرارًا لها، وأن ما يورده بعض الناس من السؤال الفاسد، وهي إنا إذا كنا مهتدين فأي حاجة بنا أن نسأل الله أن يهدينا، وهل هذا إلا تحصيل الحاصل أفسد سؤال وأبعده عن الصواب، وهو دليل على أن صاحبه لم يحصل معنى الهداية ولا أحاط علمًا بحقيقتها ومسماها، فلذلك تكلف من تكلف الجواب عنه بأن المعنى: ثبتنا على الهداية، وأدمها لنا. ومن أحاط

---

(١) ٨٣ مفتاح جـ١.

علمًا بحقيقة الهداية وحاجة العبد لها علم أن الذي لم يحصل له منها أضعاف ما حصل له، وأنه كل وقت محتاج إلى هداية متجددة، لاسيما والله ـ تعالى ـ خالق أفعال القلوب والجوارح، فهو كل وقت محتاج أن يخلق الله له هداية خاصة، ثم إن لم يصرف عنه الموانع والصوارف التي تمنع موجب الهداية وتصرفها لم ينتفع بالهداية ولم يتم مقصودها له، فإن الحكم لا يكفي فيه وجود مقتضيه، بل لابد مع ذلك من عدم مانعه ومنافيه. ومعلوم أن وساوس العبد وخواطره وشهوات الغي في قلبه كل منها مانع. وصول أثر الهداية إليه، فإن لم يصرفها الله عنه لم يهتد هدى تامًا، فحاجته إلى هداية الله له مقرونة بأنفاسه، وهي أعظم حاجة للعبد.

وذكر النبي ﷺ في الدعاء العظيم القدر من أوصاف الله وربوبيته ما يناسب المطلوب، فإن فطر السموات والأرض توسل إلى الله بهذا الوصف في الهداية للفطرة التي ابتدأ الخلق عليها.

فذكر كونه فاطر السموات والأرض، والمطلوب تعليم الحق والتوفيق، له فذكر علمه سبحانه بالغيب والشهادة، وأن من هو بكل شيء عليم جدير أن يطلب منه عبده أن يعلمه ويرشده ويهديه. وهو بمنزلة التوسل إلى الغني بغناه وسعة كرمه أن يعطي عبده شيئًا من ماله.

والتوسل إلى الغفور بسعة مغفرته أن يغفر لعبده وبعفوه أن يعفو عنه، وبرحمته أن يرحمه، ونظائر ذلك، وذكر ربوبيته تعالى لجبريل وميكائيل وإسرافيل.

وهذا والله أعلم لأن المطلوب هدى يحيا به القلب، وهؤلاء الثلاثة الأملاك قد جعل الله تعالى على أيديهم أسباب حياة العباد.

أما جبريل فهو صاحب الوحي الذي يوحيه الله إلى الأنبياء، وهو سبب حياة الدنيا والآخرة.

وأما ميكائيل فهو موكل بالقطر الذي به سبب حياة كل شيء.

وأما إسرافيل فهو الذي ينفخ في الصور، فيحيي الله الموتى بنفخته، فإذا هم قيام

لرب العالمين.

[(1)] الهدى والضلال ومراتبهما والمقدور منهما للخلق وغير المقدور لهم. هذا المذهب هو قلب أبواب القدر ومسائله، فإن أفضل ما يقدر الله لعبده وأجل ما يقسمه له الهدى، وأعظم ما يبتليه به، ويقدره عليه الضلال.

وكل نعمة دون نعمة الهدى، وكل مصيبة دون مصيبة الضلال.

وقد اتفقت رسل الله من أولهم إلى آخرهم وكتبه المنزلة عليهم على أنه سبحانه يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، وأنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأن الهدى والإضلال بيده لا بيد العبد، وأن العبد هو الضال أو المهتدي، فالهداية والإضلال فعله سبحانه وقدره، والاهتداء والضلال فعل العبد وكسبه. ولابد قبل الخوض في تقرير ذلك من ذكر مراتب الهدى والضلال في القرآن، فأما مراتب الهدى فأربعة:

إحداها: الهدى العام، وهو هداية كل نفس إلى مصالح معاشها وما يقيمها، وهذا أعم مراتبه.

المرتبة الثانية: الهدى بمعنى البيان والدلالة والتعليم والدعوة إلى مصالح العبد في معاده، وهذا خاص بالمكلفين، وهذه المرتبة أخص من المرتبة الأولى، وأعم من الثالثة.

المرتبة الثالثة: الهداية المستلزمة للاهتداء، وهي هداية التوفيق ومشيئة الله لعبده الهداية وخلقه دواعي الهدى وإرادته والقدرة عليه للعبد، وهذه الهداية التي لا يقدر عليها إلا الله ﷻ.

المرتبة الرابعة: الهداية يوم المعاد إلى طريق الجنة والنار.

فأما المرتبة الأولى فقد قال سبحانه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ

---

(١) ٦٥ شفاء.

﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ١ - ٣] فذكر سبحانه أربعة أمور عامة: الخلق، والتسوية،والتقدير، والهداية. وجعل التسوية من تمام الخلق، والهداية من تمام التقدير، قال عطاء: خلق فسوى، أحسن ما خلقه.

وشاهده قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧] فإحسان خلقه يتضمن تسويته وتناسب خلقه وأجزائه بحيث لم يحصل بينها تفاوت يخل بالتناسب والاعتدال، فالخلق: الإيجاد. والتسوية: إتقانه وإحسان خلقه.

قال الكلبي: خلق كل ذي روح فجمع خلقه وسواه باليدين والعينين والرجلين. وقال مقاتل: خلق لكل دابة ما يصلح لها من الخلق، وقال أبو إسحاق: خلق الإنسان مستويًا، وهذا تمثيل، وإلا فالخلق والتسوية شامل للإنسان وغيره، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧] وقال: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩] فالتسوية شاملة لجميع مخلوقاته: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣] وما يوجد من التفاوت وعدم التسوية فهو راجع إلى عدم إعطاء التسوية للمخلوق؛ فإن التسوية أمر وجودي تتعلق بالتأثير والإبداع، فما عدم منها فلعدم إرادة الخالق للتسوية، وذلك أمر عدمي يكفي فيه عدم الإبداع والتأثير.

فتأمل ذلك؛ فإنه يزيل عنك الإشكال في قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ﴾ فالتفاوت حاصل بسبب عدم مشيئة التسوية، كما أن الجهل والصمم والعمى والخرس والبكم يكفي فيها عدم مشيئة خلقها وإيجادها.

وتمام هذا يأتي إن شاء الله في باب دخول الشر في القضاء عند قول النبي ﷺ: «والشر ليس إليك»[١]. والمقصود أن كل مخلوق فقد سواه خالقه ـ سبحانه ـ في مرتبة خلقه وإن فاتته التسوية من وجه آخر لم يخلق له.

***

(١) أخرجه مسلم (رقم ٧٧١)وانظر: فتح الباري (٨/ ٤٢٢-٤٢٣) (١٣/ ٥٣٢) وشرح النووي (٦/ ٥٩).

﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾.

(١)لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين: نظر في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها، واضمحلالها ونقصها خستها، وألم المزاحمة عليها والحرص عليها، وما في ذلك من الغصص والنغص والأنكاد، وآخر ذلك الزوال والانقطاع، مع ما يعقب من الحسرة والأسف. فطالبها لا ينفك من هم قبل حصولها، وهم في حال الظفر بها، وغم وحزن بعد فواتها، فهذا أحد النظرين.

النظر الثاني: النظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولابد، ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات، والتفاوت الذي بينه وبين ما ههنا، فهي كما قال الله سبحانه: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧]؛ فهي خيرات كاملة دائمة. وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة.

فإذا تم له هذان النظران آثر ما يقتضي العقل وإيثاره، وزهد فيما يقتضي الزهد فيه، فكل أحد مطبوع على أن لا يترك النفع العاجل واللذة الحاضرة إلى النفع الأجل، واللذة الغائبة المنتظرة، إلا إذا تبين له فضل الآجل على العاجل، وقويت رغبته في الأعلى الأفضل، فإذا آثر الفاني الناقص كان ذلك إما لعدم تبين الفضل له، وإما لعدم رغبته في الأفضل.

وكل واحد من الأمرين يدل على ضعف الإيمان وضعف العقل والبصيرة، فإن الراغب في الدنيا الحريص عليها المؤثر لها، إما أن يصدق بأن ما هناك أشرف وأفضل وأبقى، وإما أن لا يصدق، فإن لم يصدق بذلك كان عادمًا للإيمان رأسًا. وأن صدق بذلك ولم يؤثره، كان فاسد العقل سيء الاختيار لنفسه.

وهذا تقسيم حاضر ضروري لا ينفك العبد من أحد القسمين منه، فإيثار الدنيا على

---

(١) ٩٣ فوائد.

الآخرة إما من فساد في الإيمان، وإما من فساد في العقل. وما أكثر ما يكون منهما! ولهذا نبذها رسول الله ﷺ وراء ظهره هو وأصحابه، وصرفوا عنها قلوبهم واطرحوها ولم يألفوها وهجروها ولم يميلوا إليها وعدوها سجنًا لا جنة، فزهدوا فيها حقيقة الزهد...

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الأعلى

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

سُورَةُ الغَاشِيَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾.

(١)تأمل الحكمة العجيبة في الجبال، الذي يحسبها الجاهل الغافل فضلة في الأرض لا حاجة إليها، وفيها من المنافع ما لا يحصيه إلا خالقها وناصبها.

وفي حديث إسلام ضمام بن ثعلبة قوله للنبي ﷺ: بالذي نصب الجبال، وأودع فيها المنافع، آللهُ أمرك بكذ وكذا؟ قال: «اللهم نعم»(٢).

فمن منافعها: أن الثلج يسقط عليها فيبقى في قللها حاصلًا لشراب الناس إلى حين نفاده، وجعل فيها ليذوب أولًا فأولًا، فتجيء منه السيول الغزيرة وتسيل منه الأنهار والأودية، فينبت في المروج والوهاد والربا، ضروب النبات والفواكه والأدوية التي لا يكون مثلها في السهل والرمل، فلولا الجبال لسقط الثلج على وجه الأرض فانحل جملة، وساح دفعه: فعدم وقت الحاجة إليه، وكان في انحلاله جملة السيول التي تهلك ما مرت عليه، فيضر بالناس ضررًا لا يمكن تلافيه، ولا دفعه لأذيته.

ومن منافعها ما يكون في حصونها وقللها من المغارات والكهوف والمعاقل التي بمنزلة الحصون والقلاع، هي أيضًا أكنان للناس والحيوان.

ومن منافعها ما ينحت من أحجارها للأبنية على اختلاف أصنافها والأرجية وغيرها.

ومن منافعها ما يوجد فيها من المعادن على اختلاف أصنافها من الذهب والفضة

---

(١) ٢١٨ مفتاح جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٣) ومسلم (رقم ١٢) وانظر: فتح الباري (١/ ١٥٢) وشرح النووي (١/ ١٧١).

والنحاس والحديد والرصاص والزبرجد والزمرد وأضعاف ذلك من أنواع المعادن الذي يعجز البشر عن معرفتها على التفصيل، حتى إن فيها ما يكون الشيء اليسير منه تزيد قيمته ومنفعته على قيمة الذهب بأضعاف مضاعفة.

وفيها من المنافع ما لا يعلمه إلا فاطرها ومبدعها سبحانه.

ومن منافعها أيضًا أنها ترد الرياح العاصفة، وتكسر حدتها، فلا تدعها تصدم ما تحتها، ولهذا فالساكنون تحتها في أمان من الرياح العظام المؤذية.

ومن منافعها أيضًا أنها ترد عنهم السيول إذا كانت في مجاريها فتصرفها عنهم ذات اليمين وذات الشمال، ولولاها خربت السيول في مجاريها ما مرت به، فتكون لهم بمنزلة السد والسكن.

ومن منافعها أنها أعلام يستدل بها في الطرقات، فهي بمنزلة الأدلة المنصوبة المرشدة إلى الطرق، ولهذا سماها الله أعلامًا فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الشورى: ٣٢] فالجواري هي السفن، والأعلام: الجبال. واحدها علم، قالت الخنساء:

وأن صخرًا لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار(١)

فسمى الجبل علمًا من العلامة والظهور.

ومن منافعها أيضًا: ما ينبت فيها من العقاقير والأدوية التي لا تكون في السهول والرمال، كما أن ما ينبت في السهول والرمال لا ينبت مثله في الجبال، وفي كل من هذا وهذا منافع وحكم، لا يحيط به إلا الخلاق العليم.

ومن منافعها: أنها تكون حصونًا من الأعداء، يتحرز فيها عباد الله من أعدائهم، كما يتحصنون بالقلاع، بل تكون أبلغ وأحصن من كثير من القلاع والمدن.

---

(١) هذا البيت من بحر البسيط، وذكره ابن عساكر في تاريخه (٥٣/ ٤٤١) وعمر بن شبة في أخبار المدينة (١/ ١٧٦) بينما ذكره باختلاف كل من الحافظ ابن حجر في الإصابة (٧/ ٦١٤) وابن عبد البر في الاستيعاب (٤/ ١٨٢٧) وعندهما: أشم أبلج يأتم الهداة به.

ومن منافعها: ما ذكره الله تعالى في كتابه أن جعلها للأرض أوتادًا، تثبتها، ورواسي بمنزلة مراسي السفن، وأعظم بها من منفعة وحكمة.

هذا وإذا تأملت خلقتها العجيبة البديعة على هذا الوضع، وجدتها في غاية المطابقة للحكمة، فإنها لو طالت واستدقت كالحائط لتعذر الصعود عليها، والانتفاع بها وسترت عن الناس الشمس والهواء، فلم يتمكنوا من الانتفاع بها، ولو بسطت على وجه الأرض لضيقت عليهم المزارع والمساكن ولملأت السهل، ولما حصل لهم بها الانتفاع من التحصن والمغارات والأكنان، ولما سترت عنهم الرياح، ولما حجبت السيول. ولو جعلت مستديرة شكل الكرة لم يتمكنوا من صعودها، ولما حصل لهم بها الانتفاع التام، فكان أولى الأشكال والأوضاع بها وأليقها وأوقعها على وفق المصلحة هذا الشكل الذي نصبت عليه.

ولقد دعانا الله ـ سبحانه ـ في كتابه إلى النظر فيها وفي كيفية خلقها، فقال: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧- ١٩] فخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدرة باريها وفاطرها وعلمه وحكمته ووحدانيته.

هذا مع أنها تسبح بحمده وتخشع له وتسجد وتشقق وتهبط من خشيته، وهي التي خافت من ربها وفاطرها وخالقها على شدتها وعظم خلقها من الأمانة، إذا عرضها عليها وأشفقت من حملها.

ومنها الجبل الذي كلم الله عليه موسى كليمه ونجيه.

ومنها الجبل الذي حبب الله رسوله وأصحابه إليه، وأحبه رسول الله ﷺ وأصحابه.

ومنها الجبلان اللذان جعلهما الله سورًا على بيته، وجعل الصفا في ذيل أحدهما والمروة في ذيل الآخر وشرع لعباده السعي بينهما، وجعله من مناسكهم وتعبداتهم.

ومنها جبل الرحمة المنصوب عليه ميدان عرفات.

فلله كم به من ذنب مغفور، وعثرة مقالة، وزلة معفو عنها، وحاجة مقضية، وكربة

مفروجة، وبلية مرفوعة، ونعمة متجددة، وسعادة مكتسبة، وشقاوة ممحوة.

كيف وهو الجبل المخصوص بذلك الجمع الأعظم، والوفد الأكرم، الذين جاءوا من كل فج عميق، وقوفًا لربهم مستكينين لعظمته خاشعين لعزته، شعثًا غبرًا حاسرين عن رءوسهم، يستقيلونه عثراتهم، ويسألونه حاجاتهم، فيدنو منهم ثم يباهي بهم الملائكة، فلله ذاك الجبل وما ينزل عليه من الرحمة والتجاوز عن الذنوب العظام.

ومنها جبل حراء الذي كان رسول الله ﷺ يخلو فيه بربه حتى أكرمه الله برسالته، وهو في غاره فهو الجبل الذي فاض منه النور على أقطار العالم، فإنه ليفخر على الجبال وحق له ذلك.

فسبحان من اختص برحمته وتكريمه من شاء من الجبال والرجال، فجعل منها جبالًا هي مغناطيس القلوب، كأنها مركبة منه، فهي تهوى إليها كلما ذكرتها، وتهفو نحوها.

كما اختص من الرجال من خصه بكرامته، وأتم عليه نعمته ووضع عليه محبته منه، فأحبه وحببه إلى ملائكته وعباده المؤمنين، ووضع له القبول في الأرض بينهم.

وإذا تأملت البقاع وجدتها ... تشقى كما تشقى الرجال وتسعد[(١)]

فدع عنك الجبل الفلاني، وجبل بني فلان، وجبل كذا.

خذ ما تراه ودع شيئًا سمعت به ... في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل[(٢)]

هذا وإنها لتعلم أن لها موعدًا، ويومًا تنسف فيها نسفًا، وتصير كالعهن من هوله وعظمه، فهي مشفقة من هول ذلك الموعد منتظرة له.

---

(١) هذا البيت من بحر الكامل، وينسب إلى ابن نباتة المصري: محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي الفارقي شاعر عصره وأحد الكتاب المترسلين العلماء بالأدب ولد ومات في القاهرة سنة ٧٦٨هـ. وذكر البيت العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٥٢) ومنصور البهوتي في كشاف القناع (٣/ ١٣١) وفيه: «إني اطلعت على البقاع».

(٢) هذا البيت من بحر البسيط، وينسب إلى المتنبي، وذكر البيت ابن كثير في البداية والنهاية (١١/ ٢٥٨) وأبو بكر ابن العربي في العواصم من القواصم (ص ٢٠٧).

وكانت أم الدرداء ـ رضي الله عنها ـ إذا سافرت فصعدت على جبل تقول لمن معها: أسمعت الجبال ما وعدها ربها؟ فيقال: ما أسمعها؟ فتقول: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧].

فهذا حال الجبال، وهي الحجارة الصلبة، وهذه رقتها وخشيتها وتدكدكها من جلال ربها وعظمته، وقد أخبر عنها فاطرها وباريها: أنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت، ولتصدعت من خشية الله.

فيا عجبًا من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال، تسمع آيات الله تتلى عليها، ويذكر الرب ـ تبارك وتعالى ـ فلا تلين ولا تخشع ولا تنيب، فليس بمستنكر على الله ﷻ ولا يخالف حكمته أن يخلق لها نارًا تذيبها إذ لم تلن بكلامه وذكره وزواجره ومواعظه، فمن لم يلن لله في هذه الدار قلبه، ولم ينب إليه، ولم يذبه بحبه والبكاء من خشيته، فليتمتع قليلًا، فإن أمامه الملين الأعظم، وسيرد إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم.

ولما اقتضت حكمته ـ تبارك وتعالى ـ أن جعل من الأرض السهل والوعر والجبال والرمل، لينتفع بكل ذلك في وجهه، ويحصل منه ما خلق له، وكانت الأرض بهذه المثابة لزم من ذلك أن صارت كالأم التي تحمل في بطنها أنواع الأولاد من كل صنف، ثم تخرج إلى الناس والحيوان من ذلك ما أذن لها فيها ربها أن تخرجه، إما بعلمهم وإما بدونه، ثم يرد إليها ما خرج منها.

وجعلها سبحانه كفاتًا للأحياء ما داموا على ظهرها، فإذا ماتوا استودعتهم في بطنها، فكانت كفاتًا لهم، تضمهم على ظهرها أحياءً وفي بطنها أمواتًا، فإذا كان يوم الوقت المعلوم وقد أثقلها الحمل وحان وقت الولادة ودنو المخاض، أوحى إليها ربها وفاطرها أن تضع حملها، وتخرج أثقالها، فتخرج الناس من بطنها إلى ظهرها، وتقول: رب هذا ما استودعتني، وتخرج كنوزها بإذنه ـ تعالى ـ ثم تحدث أخبارها، وتشهد على بنيها بما عملوا على ظهرها من خير وشر.

ولما كانت الرياح تجول فيها، وتدخل في تجاويفها، وتحدث فيها الأبخرة، وتخفق الرياح، ويتعذر عليها المنفذ أذن الله سبحانه لها في الأحيان بالتنفس فتحدث فيها الزلازل العظام، فيحدث من ذلك لعباده الخوف والخشية والإنابة والإقلاع عن معاصيه والتضرع إليه والندم. كما قال بعض السلف وقد زلزلت الأرض: إن ربكم يستعتبكم[1]، وقال عمر بن الخطاب وقد زلزلت المدينة فخطبهم ووعظهم، وقال: لئن عادت لا أساكنكم فيها[2].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الغاشية

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

(١) أخرجه الطبري في تفسيره من قول ابن مسعود (١٥/ ١٠٩) وأخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٢٢١ رقم ٨٣٣٤) عن شهر قال: زلزلت المدينة في عهد النبي ﷺ فقال: «إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه» وقال الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (٢/ ٩٤): هذا مرسل ضعيف.

(٢) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ١٠٤) ونعيم بن حماد المروزي في الفتن (٢/ ٦٢٠ رقم ١٧٣١) وانظر: عمدة القاري (٧/ ٥٧).

سُورَةُ الفَجْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝ ﴾.

[(١)] قيل جوابه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ١٤] وهذا ضعيف لوجهين:

أحدهما: طول الكلام والفصل بين القسم وجوابه بجمل كثيرة.

والثاني قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝ ﴾ ذكر لتقرير عقوبة الله الأمم المذكورة، وهي عاد، وثمود، وفرعون، فذكر عقوبتهم، ثم قال مقررًا ومحذرًا: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝ ﴾ فلا نرى تعلقه بذلك دون القسم.

وأحسن من هذا أن يقال: إن الفجر في الليالي العشر زمن يتضمن أفعالًا معظمة، من المناسك، وأمكنة معظمة، وهي محلها، وذلك من شعائر الله، المتضمنة خضوع العبد لربه، فإن الحج والنسك عبودية محضة لله، وخضوع لعظمته.

وذلك ضد ما وصف به عادًا وثمود، وفرعون من العتو، والتكبر، والتجبر، فإن النسك يتضمن غاية الخضوع لله، وهؤلاء الأمم عتوًا وتكبروا عن أمر ربهم.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر» قيل: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله لم يرجع من ذلك شيء»[(٢)].

فالزمان المتضمن لمثل هذه الأعمال أهل أن يقسم الرب ﷻ به.

---

(١) ١٨ التبيان.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٩٦٩) وانظر: فتح الباري (٢/ ٤٦٠).

﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴾ إن أريد به جنس الفجر، كما هو ظاهر اللفظ، فإنه يتضمن وقت صلاة الصبح، التي هي أول الصلوات. فافتتح القسم بما يتضمن أول الصلوات، وختمه بقوله: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ المتضمن لآخر الصلوات.

وإن أريد بالفجر فجر مخصوص، فهو فجر يوم النحر وليلته، التي هي ليلة عرفة، فتلك الليلة من أفضل ليالي العام، وما رؤي الشيطان في ليلة أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه فيها. وذلك الفجر: فجر يوم النحر الذي هو أفضل الأيام عند الله، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الأيام عند الله يوم النحر»[(١)] رواه أبو داود بإسناد صحيح. وهو آخر أيام العشر. وهو يوم الحج الأكبر، كما ثبت في صحيح البخاري وغيره.

وهو اليوم الذي أذن فيه مؤذن رسول الله ﷺ: «إن الله بريء من المشركين ورسوله، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»[(٢)].

ولا خلاف أن المؤذن أذن بذلك في يوم النحر، لا يوم عرفة، وذلك بأمر رسول الله ﷺ، امتثالًا وتأويلًا للقرآن.

وعلى هذا فقد تضمن القسم: المناسك والصلوات، وهما المختصان بعبادة الله، والخضوع له والتواضع لعظمته، ولهذا قال الخليل ﷺ: ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢] وقيل لخاتم الرسل ﷺ: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ [الكوثر: ٢] بخلاف حال المشركين المتكبرين الذين لا يعبدون الله وحده، بل يشركون به، ويستكبرون عن عبادته، كحال من ذكر في هذه السورة من قوم عاد، وثمود، وفرعون.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٧/ ٥١ رقم ٢٨١١) والهيثمي في الموارد (رقم ١٠٤٤) والبيهقي في الكبرى (٥/ ٢٣٧ رقم ٩٩٩٤) والشيباني في الآحاد والمثاني (٤/ ٣٦٧ رقم ٢٤٠٧) والطبراني في الأوسط (٣/ ٤٤ رقم ٢٤٢١) وفي مسند الشاميين (١/ ٢٧٢ رقم ٤٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٦٩) ومسلم (رقم ١٣٤٧) وانظر: فتح الباري (١/ ٤٦٦) (٨/ ٣١٩-٣٢٠) وشرح النووي (٩/ ١١٥-١١٦).

وذكر سبحانه من جملة هذه الأقسام ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾، إذ هذه الشعائر المعظمة منها شفع ومنها وتر، في الأمكنة والأزمنة والأعمال: فالصفا والمروة شفع، والبيت وتر، والجمرات وتر، ومنى ومزدلفة شفع، وعرفة وتر، وأما الأعمال: فالطواف وتر، وركعتاه شفع، والطواف بين الصفا والمروة وتر، ورمي الجمار وتر، كل ذلك سبع سبع. وهو الأصل، فإن الله وتر، يحب الوتر، والصلاة منها شفع ومنها وتر، والوتر يوتر الشفع، فتكون كلها وترًا. كما قال النبي ﷺ: «**صلاة الليل مثني مثنى، فإذا خشيت الصبح فأوتر بواحدة توتر لك ما قد صليت**»[1]. وأما الزمان: فإن يوم عرفة وتر، ويوم النحر شفع، وهذا قول أكثر المفسرين.

وروى مجاهد عن ابن عباس: الوتر آدم، وشفع بزوجته حواء[2]. وقال في رواية أخرى: الشفع آدم وحواء، والوتر الله وحده. وعنه رواية ثالثة: الشفع يوم النحر، والوتر اليوم الثالث. وقال عمران بن حصين،وقتادة: الشفع والوتر هي الصلاة، وروى فيه حديثًا مرفوعًا. وقال عطية العوفي، الشفع الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النبأ: ٨] والوتر هو الله، وهذا قول الحكم، قال: كل شيء شفع والله وتر. وقال أبو صالح: خلق الله من كل شيء زوجين اثنين، والله وتر واحد. وهذا قول مجاهد، ومسروق. وقال الحسن: الشفع والوتر العدد كله من شفع ووتر، وقال ابن زيد: الشفع والوتر الخلق كله من شفع ووتر، وقال مقاتل: الشفع الأيام والليالي، والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده، وهو يوم القيامة.

وذكرت أقوال أخر، هذه أصولها، ومدارها كلها على قولين:

أحدهما: أن الشفع والوتر نوعان للمخلوقات والمأمورات.

والثاني: أن الوتر الخالق، والشفع المخلوق، وعلى هذا القول فيكون قد جمع في

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٣) ومسلم (رقم ٧٤٩) وانظر: شرح النووي (٦/ ٢١).

(٢) انظر: مقدمة فتح الباري (١٣٩) ومشارق الأنوار (٢/ ٢٥٦) واللسان (٥/ ٢٧٣).

القسم بين الخالق والمخلوق، فهو نظير ما تقدم في قوله: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ [الشمس: ١]. نظير ما ذكر في قوله: ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ [البروج: ٣]. وما ذكر في قوله: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝ ﴾ [الليل: ١-٣].

وقال ههنا: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝ ﴾ وفي سورة المدثر: أقسم بالليل إذا أدبر. وفي سورة التكوير: أقسم بالليل إذا عسعس، وقد فسر بأقبل، وفسر بأدبر. فإن كان المراد إقباله فقد أقسم بأحوال الليل الثلاثة، وهي حالة إقباله، وحالة امتداده وسريانه، وحالة إدباره، وهي من آياته الدالة عليه سبحانه.

وعرف الفجر باللام إذ كل أحد يعرفه، ونكر الليالي العشر، لأنها إنما تعرف بالعلم. وأيضًا فإن التنكير تعظيم لها. فإن التنكير يكون للتعظيم.

وفي تعريف الفجر ما يدل على شهرته، وأنه الفجر الذي يعرفه كل أحد ولا يجهله. فلما تضمن هذا القسم ما جاء به إبراهيم ومحمد ـ صلى الله عليهما وسلم ـ كان في ذلك ما دل على المقسم عليه، ولهذا اعتبر القسم بقوله تعالى: ﴿ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝ ﴾ [الفجر: ٥]. فإن عظمة هذا المقسم به يعرف بالنبوة. وذلك يحتاج إلى حجر يحجر صاحبه عن الغفلة واتباع الهوى، ويحمله على اتباع الرسل. لئلا يصيبه ما أصاب من كذب الرسل كعاد، وفرعون، وثمود.

ولما تضمن ذلك مدح الخاضعين والمتواضعين ذكر حال المستكبرين المتجبرين الطاغين. ثم أخبر أنه صب عليهم سوط عذاب. ونكره إما للتعظيم، وإما لأن يسيرًا من عذابه استأصلهم وأهلكهم، ولم يكن معه بقاء ولا ثبات. ثم ذكر حال الموسع عليهم في الدنيا والمقتر عليهم.

وأخبر أن توسعته على من وسع عليه ـ وإن كان إكرامًا له في الدنيا ـ فليس ذلك إكرامًا على الحقيقة، ولا يدل على أنه كريم عنده، ومن أهل كرامته ومحبته.

وأن تقتيره على من قتر عليه لا يدل على إهانته له، وسقوط منزلته عنده، بل يوسع

ابتلاءً وامتحانًا، ويقتر ابتلاءً وامتحانًا، فيبتلي بالنعم كما يبتلي بالمصائب.

وهو ـ سبحانه ـ يبتلي عبده بنعمة تجلب له نقمة، وبنعمة تجلب له نعمة أخرىٰ، وبنقمة تجلب له نقمة أخرىٰ، وبنقمة تجلب له نعمة، فهذا شأن نعمه ونقمه سبحانه.

وتضمنت هذه السورة ذم من اغتر بقوته وسلطانه وماله. وهم هؤلاء الأمم الثلاث: قوم عاد، اغتروا بقوتهم. وثمود، اغتروا بجنانهم وعيونهم وزروعهم وبساتينهم. وقوم فرعون، اغتروا بالمال والرياسة، فصارت عاقبتهم إلىٰ ما قص الله علينا. وهذا شأنه دائمًا مع كل من اغتر بشيء من ذلك، لابد أن يفسده عليه، ويسلبه إياه. ثم ذكر سبحانه حال الإنسان في معاملته لمن هو أضعف منه، كاليتيم والمسكين. فلا يكرم هذا، ولا يحض علىٰ طعام هذا. ثم ذكر حرصه علىٰ جمع المال وأكله، وحبه له. وذلك هو الذي أوجب له عدم رحمته لليتيم والمسكين.

***

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾.

[1]من علامات السعادة والفلاح، أن العبد كلما زيد في علمه؛ زيد في تواضعه ورحمته، وكلما زيد في عمله؛ زيد في خوفه وحذره، وكلما زيد في عمره؛ نقص من حرصه، وكلما زيد في ماله، زيد في سخائه وبذله، كلما زيد في قدره وجاهه؛ زيد في قربه من الناس وقضاء حوائجهم والتواضع لهم.

وعلامات الشقاوة: أنه كلما زيد في علمه؛ زيد في كبره وتيهه، وكلما زيد في عمله؛ زيد في فخره واحتقاره للناس وحسن ظنه بنفسه. وكلما زيد في عمره، زيد في حرصه، وكلما زيد في ماله؛ زيد في بخله وإمساكه، وكلما زيد في قدره وجاهه؛ زيد في كبره وتيهه. وهذا الأمور ابتلاء من الله وامتحان يبتلي بها عباده؛ فيسعد بها أقوام ويشقىٰ بها

---

(١) ١٥٢ الفوائد.

أقوام. وكذلك الكرامات امتحان وابتلاء: كالملك، والسلطان، والمال. قال تعالىٰ عن نبيه سليمان لما رأىٰ عرش بلقيس عنده: ﴿ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾ [النمل: ٤٠] فالنعم ابتلاء من الله وامتحان، يظهر بها شكر الشكور وكفر الكفور، كما أن المحن بلوىٰ منه سبحانه، فهو يبتلي بالنعم كما يبتلي بالمصائب. قال تعالىٰ: ﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝ كَلَّا ...﴾ [الفجر: ١٥- ١٧] أي: ليس كل من وسعت عليه وأكرمته ونعمته، يكون ذلك إكرامًا مني له، ولا كل من ضيقت عليه رزقه وابتليته، يكون ذلك إهانة له مني.

(١)...إذا أعطاك(٢) ما أعطاك بلا سؤال: تسأله أن يجعله عونًا لك علىٰ طاعته وبلاغًا إلىٰ مرضاته، ولا يجعله قاطعًا لك عنه، ولا مبعدًا عن مرضاته، ولا تظن أن عطاءه كل ما أعطىٰ لكرامة عبده عليه؛ ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه، ولكن عطاءه ومنعه ابتلاء وامتحان، يمتحن بهما عباده. قال الله تعالىٰ: ﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝ كَلَّا ﴾ أي: ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته: فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته عليَّ. ولكنه ابتلاء مني: وامتحان له: أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه إياه، وأخول فيه غيره؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه، وجعلته بقدر لا يفضل عنه، فذلك من هوانه عليَّ، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له: أيصبر؟ فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق، أم يتسخط؟ فيكون حظه السخط.

---

(١) ٨٠ مدارج جـ١.

(٢) الضمير يعود إلىٰ الله ﷻ، والبحث تجده في تفسير سورة الفاتحة بكامله، وكذلك يوجد في سورة المائدة بحث نفيس حول هذا. (ج).

فرد الله سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام، وأن الفقر إهانة، فقال: لم أبتل عبدي بالغني لكرامته عليَّ. ولم أبتله بالفقر لهوانه عليَّ، فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره، فإنه ـ سبحانه ـ يوسع على الكافر لا لكرامته، ويقتر على المؤمن لا لإهانته، إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته، ويهين من يهيبنه بالإعراض عنه ومعصيته، فله الحمد على هذا وعلى هذا، وهو الغني الحميد. فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥].

(١)قوله: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ [الفجر: ٢٢] ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] ونظائره.

قيل: هو من مجاز الحذف، تقديره، وجاء أمر ربك. وهذا باطل من وجوه.

أحدها: أنه إضمار ما لا يدل اللفظ عليه بمطابقة ولا تضمن ولا لزوم. وادعاء حذف ما لا دليل عليه يرفع الوثوق من الخطاب، ويطرق كل مبطل على ادعاء إضمار ما يصحح باطله.

الثاني: أن صحة التركيب واستقامة اللفظ لا تتوقف على هذا المحذوف، بل الكلام مستقيم تام قائم المعنى بدون إضمار، فإضماره مجرد خلاف الأصل، فلا يجوز.

الثالث: أنه إذا لم يكن في اللفظ دليل على تعيين المحذوف كان تعيينه قولًا على المتكلم بلا علم، وإخبارًا عنه بإرادة ما لم يقم به دليل على إرادته، وذلك كذب عليه.

الرابع: أن في السياق ما يبطل هذا التقدير، وهو قوله: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ ﴾، فعطف مجيء الملك على مجيئه ـ سبحانه ـ يدل على تغاير المجيئين، وأن مجيئه ـ سبحانه ـ حقيقة. كما أن مجيء الملك حقيقة بل مجيء الرب ـ سبحانه ـ أولى أن يكون حقيقة من مجيء الملك.

---

(١) ١٠٦ مختصر الصواعق جـ٢.

وكذلك قوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨] ففرق بين إتيان الملائكة، وإتيان الرب، وإتيان بعض آيات ربك، فقسَّم ونوَّع، ومع هذا التقسيم يمتنع أن يكون القسمان واحدًا فتأمله. ولهذا منع عقلاء الفلاسفة حمل هذا اللفظ على مجازه، وقالوا: هذا يأباه التقسيم والترديد والاطراد.

الخامس: أنه لو صرح بهذا المحذوف المقدر لم يحسن، وكان كلامًا ركيكًا، فادعى صدق ما يكون النطق به مشتركًا باطلًا، فإنه لو قال: هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ملك ربك أو أمر ربك أو يأتي بعض آيات ربك. كان مستهجنًا.

السادس: إن اطراد نسبة المجيء والإتيان إليه ـ سبحانه ـ دليل الحقيقة، وقد صرحتم بأن من علامات الحقيقة الاطراد، فكيف كان هذا المطرد مجازًا.

السابع: أنه لو كان المجيء والإتيان مستحيلًا عليه، لكان كالأكل والشرب والنوم والغفلة وهكذا هو عندكم سواء، فمتى عهدتم إطلاق الأكل والشرب والنوم والغفلة عليه، ونسبتها إليه نسبة مجازية وهي متعلقة بغيره، وهل في ذلك شيء من الكمال البتة. فإن قوله: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ و﴿ أَتَىٰ ﴾ و﴿ يَأْتِى ﴾ عندكم في الاستحالة مثل نام وأكل وشرب، والله سبحانه لا يطلق على نفسه هذه الأفعال ولا رسوله ﷺ لا بقرينة ولا مطلقة، فضلًا عن تطرد نسبتها إليه، وقد اطرد نسبه المجيء والإتيان والنزول والاستواء إليه مطلقًا من غير قرينة، تدل على أن الذي نسب إليه ذلك غيره من مخلوقاته، فكيف تسوغ دعوى المجاز فيه.

الثامن: أن المجاز لو كان ثابتًا فإنما يصار إليه عند تعذر الحمل على الحقيقة إذ هي الأصل، فما الذي أحال حمل ذلك على حقيقته من عقل أو نقل أو اتفاق من اتفاقهم حجة، فأما النقل والاتفاق: فهو من جانب الحقيقة فلا ريب. وأما العقل: فإنكم تزعمون أنكم أولى به منهم، وهو قد أبطلوا جميع عقلياتكم التي لأجلها ادعيتم أن نسبة المجيء والإتيان والنزول والاستواء إلى الله مجاز من أكثر من ثلاثمائة وجه.

وقد ذكرناها فيما تقدم فسلم لهم النقل، واتفق السلف، فكيف والعقل الصريح من جانبهم كما تقدم تقريره، فإن من لا يفعل شيئًا، ولا يتمكن من فعل يقوم به بمنزلة الجماد.

التاسع: أن هذا الذي ادعوا حذفه وإضماره يلزمهم فيه كما لزمهم فيما أنكروه، فإنهم إذ قدروا «وجاء أمر ربك» «ويأتي أمره» «ويجيء أمره» «وينزل أمره» فأمره هو كلامه، وهو حقيقة، فكيف تجيء الصفة، وتأتي، وتنزل دون موصوفها، وكيف ينزل الأمر ممن ليس هو فوق سمواته علىٰ عرشه؟!

ولما تفطن بعضهم لذلك قال: أمره بمعنىٰ مأموره، فالخلق والرزق بمعنىٰ المرزوق، فركب مجازًا علىٰ مجاز بزعمه ولم يصنع شيئًا، فإن مأموره هو الذي يكون ويخلق بأمره، وليس له عندهم أمر يقوم به، فلا كلام يقوم به، وإنما ذلك مجاز من مجاز الكناية عن سرعة الانفعال بمشيئته تشبيهًا بمن يقول: كن فيكون الشيء عقيب تكوينه، فركبوا مجازًا علىٰ مجاز ولم يصنعوا شيئًا، فإن هذا المأمور الذي يأتي إن كان ملكًا فهو داخل في قوله: ﴿أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ [النحل: ٣٣] وإن كان شيئًا غير الملك فهو آية من آياته، فيكون داخلا في قوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

العاشر: أن ما ادعوه من الحذف والإضمار: إما أن يكون في اللفظ ما يقتضيه ويدل عليه أو لا، فإن كان الثاني لم يجز ادعاؤه، وإن كان الأول كان كالملفوظ به، وعلىٰ التقديرين فلا يكون مجازًا، فإن المدلول عليه يمتنع تقديره.

***

﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠ ﴾.

[1]هل النفس والروح شيء واحد أو شيئان متغايران؟ اختلف الناس في ذلك (فمن

(١) ٢٦٤ الروح.

قائل): إن مسماهما واحد، وهم الجمهور ومن قائل: إنهما متغايران.

ونحن نكشف سر المسألة بحول الله وقوته، فنقول: النفس تطلق على أمور: أحدها: الروح. قال الجوهري: النفس: الروح. يقال: خرجت نفسه، قال أبو خراش:

نجا سالمٌ والنفس منه بشدقه ... ولم ينج إلا جفن سيف ومئزرا[١]

أي: بجفن سيف ومئزر.

والنفس: الدم يقال: سالت نفسه، وفي الحديث: «ما لا نفس له سائلة لا ينجس الماء إذا مات فيه»[٢].

والنفس: الجسد قال الشاعر:

نبئت أن بني تميم ادخلوا ... أبناءهم تامور نفس المنذر[٣]

والتامور: الدم. والنفس: العين، يقال: أصابت فلانًا نفس أي عين.

قلت: ليس كما قال، بل النفس هاهنا الروح، ونسبة الإضافة إلى العين توسع، لأنها تكون بواسطة النظر المصيب، والذي أصابه إنما هو نفس العائن كما تقدم.

قلت: والنفس في القرآن تطلق على الذات بجملتها، كقوله تعالى: ﴿ فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ [النور: ٦١] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ [النحل: ١١١]، وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨].

---

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وذكر البيت ابن عساكر في تاريخه (٤٠/ ٤٥١) ونسبه إلى الهذلي. وذكره أيضًا ابن قتيبة في غريب الحديث (٢/ ٥٥٤) وابن منظور في اللسان (٦/ ٢٣٤) ونسبه إلى أبي خراش. بينما ذكره في (١٣/ ٨٩) ونسبه إلى حذيفة بن أنس الهذلي.

(٢) انظر: فتح الباري (١٠/ ٢٥١) وفيض القدير (١/ ٤٥٤) (٤/ ٤٥٠) والمغني (١/ ٤١٠) والقاموس المحيط (ص ٧٤٥).

(٣) هذا البيت من بحر الكامل، وينسب إلى أوس بن حجر شاعر تميم في الجاهلية ومن كبار شعرائها عمر طويلاًولم يدرك الإسلام، في شعره رقة وحكمة، ذكر البيت ابن قتيبة في غريب الحديث (٢/ ١٦٩) وفيه: بني سليم. وأبياتهم وابن منظور في اللسان (٤/ ٩٣) وفيه: بني سحيم.

وتطلق على الروح وحدها كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ [الفجر: ٢٧] وقوله تعالى: ﴿ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ﴾ [الأنعام: ٩٣] وقوله تعالى: ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف: ٥٣].

وأما الروح فلا تطلق على البدن لا بانفراده ولا مع النفس، وتطلق الروح على القرآن الذي أوحاه الله تعالى إلى رسوله، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢].

وعلى الوحي الذي يوحيه إلى أنبيائه ورسله، قال تعالى: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾ [غافر: ١٥] وقال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل: ٢].

وسمى ذلك روحًا لما يحصل به من الحياة النافعة، فإن الحياة بدونه لا تنفع صاحبها البتة، بل حياة الحيوان البهيم خير منها وأسلم عاقبة.

وسميت الروح روحًا لأن بها حياة البدن، وكذلك سميت الريح لما يحصل بها من الحياة، وهي من ذوات الواو، ولهذا تجمع على أرواح، قال الشاعر:

إذا هبت الأرواح من نحو أرضكم ... وجدت لمسراها على كبدي بردًا(١)

ومنها الروح والريحان والاستراحة. فسميت النفس روحًا لحصول الحياة بها وسميت نفسًا إما من الشيء النفيس لنفاستها وشرفها، وإما من تفنس الشيء إذا

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى بديع الزمان الهمذاني: أحمد بن الحسين بن يحيى، أحد أئمة الكتاب، له مقامات، كان قوي الحافظة، ويذكر أن أكثر مقاماته ارتجال، مات سنة ٣٩٨هـ، صدر البيت عنده: طربت وهاجتني شمالٌ بليلةٌ. وذكر البيت القزويني في التدوين في أخبار قزوين (٣/ ٢٠١) وجاء البيت فيه:

إذا الريح من أرض الحبيب تنسمت ... وجدت لرياها على كبدي برداً

وذكره ياقوت الحموي في معجم البلدان (٢/ ١٣١)، ولفظه فيه منسوباً إلى المهدي بن الملوح:

إذا الريح من نحو الجريب تنسمت ... وجدت لرياها على كبدي برداً

خرج، فلكثرة خروجها ودخولها في البدن سميت نفسًا، ومنه النفس بالتحريك، فإن العبد كلما نام خرجت منه، فإذا استيقظ رجعت إليه، فإذا مات خرجت خروجًا كليًا، فإذا دفن عادت إليه، فإذا سئل خرجت، فإذا بعث رجعت إليه.

فالفرق بين النفس والروح فرق بالصفات لا فرق بالذات، وإنما سمي الدم نفسًا لأن خروجه الذي يكون معه الموت يلازم خروج النفس، وأن الحياة لا تتم إلا به، كما لا تتم إلا بالنفس، فلهذا قال:

تسيل على حد الظباة نفوسنا ... وليست على غير الظباة تسيل[(١)]

ويقال: فاضت نفسه، وخرجت نفسه، وفارقت نفسه: كما يقال: خرجت روحه، وفارقت، ولكن الفيض: الاندفاع وهلة واحدة، ومنه الإفاضة وهي الاندفاع بكثرة وسرعة، لكن أفاض إذا دفع باختياره وإرادته، وفاض إذا اندفع قسرًا وقهرًا، فالله سبحانه هو الذي يفيضها عند الموت فتفيض هي.

ثم ختم السورة بمدح النفس المطمئنة، وهي الخاشعة المتواضعة لربها، وما تؤول إليه من كرامته ورحمته، كما ذكر قبلها حال النفس الأمارة، وما تؤول إليه من شدة عذابه ووثاقه.

[(٢)]...جعل الله سبحانه الطمأنينة في قلوب المؤمنين ونفوسهم، وجعل الغبطة والمدحة والبشارة بدخول الجنة لأهل الطمأنينة، فطوبى لهم وحسن مآب.

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨] دليل على أنها لا ترجع إليه إذا كانت مطمئنة، فهناك ترجع إليه، وتدخل في عباده، وتدخل جنته، وكان من دعاء بعض السلف: «اللهم هب لي نفسًا مطمئنة إليك».

---

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى السموأل بن غريض الأزدي شاعر جاهلي حكيم، أشهر شعره لاميته، وهي من أجود الشعر، مات سنة ٦٤هـ قبل الهجرة. ذكر البيت ابن منظور في اللسان (٦/ ٢٣٤).

(٢) ٥١٣ مدارج جـ٢.

[(١)]فالنفس إذا سكنت إلىٰ الله، واطمأنت بذكره، وأنابت إليه، واشتاقت إلىٰ لقائه، وأنست بقربه، فهي مطمئنة، وهي التي يقال لها عند الوفاة: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨].

قال ابن عباس: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ يقول: المصدقة. وقال قتادة: «هو المؤمن، اطمأنت نفسه إلىٰ ما وعد الله». وقال الحسن: «المطمئنة بما قال الله. والمصدقة بما قال». وقال مجاهد: «هي المنيبة المخبتة، التي أيقنت أن الله ربها، وضربت جأشا لأمره وطاعته، وأيقنت بلقائه»[(٢)].

وحقيقة الطمأنينة:السكون والاستقرار، فهي التي قد سكنت إلىٰ ربها وطاعته وأمره وذكره، ولم تسكن إلىٰ سواه. فقد اطمأنت إلىٰ محبته وعبوديته وذكره، واطمأنت إلىٰ أمره ونهيه وخبره. واطمأنت إلىٰ لقائه ووعده، واطمأنت إلىٰ التصديق بحقائق أسمائه وصفاته. واطمأنت إلىٰ الرضا به ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا. واطمأنت إلىٰ قضائه وقدره، واطمأنت إلىٰ كفايته وحسبه وضمانه. فاطمأنت بأنه وحده ربها وإلهها ومعبودها ومليكها ومالك أمرها كله، وأن مرجعها إليه، وأنها لا غنىٰ لها عنه طرفة عين.

وإذا كانت بضد ذلك فهي أمارة بالسوء، تأمر صاحبها بما تهواه: من شهوات الغي، واتباع الباطل، فهي مأوىٰ كل سوء، وإن أطاعها قادته إلىٰ كل قبيح وكل مكروه. وقد أخبر سبحانه أنها أمارة بالسوء، ولم يقل «آمرة» لكثرة ذلك منها، وأنه عادتها ودأبها إلا إذا رحمها الله وجعلها زاكية تأمر صاحبها بالخير، فذلك من رحمة الله، لا منها، فإنها بذاتها أمارة بالسوء، لأنها خلقت في الأصل جاهلة ظالمة، إلا من رحمه الله. والعدل والعلم طارئ عليها بإلهام ربها وفاطرها لها ذلك، فإذا لم يلهمها رشدها

---

(١) ٧٦ إغاثة جـ١.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٣٠/ ١٩٠).

بقيت على ظلمها وجهلها. فلم تكن أمارة لا بموجب الجهل والظلم، فلولا فضل الله ورحمته على المؤمنين ما زكت منهم نفس واحدة.

فإذا أراد الله سبحانه بها خيرًا جعل فيها ما تزكو به وتصلح: من الإرادات والتصورات، وإذا لم يرد بها ذلك تركها على حالها التي خلقت عليها من الجهل والظلم. وسبب الظلم: إما جهل، وإما حاجة. وهي في الأصل جاهلة. والحاجة لازمة لها، فلذلك كان أمرها بالسوء لازمًا لها إن لم تدركها رحمة الله وفضله.

وبهذا يعلم أن ضرورة العبد إلى ربه فوق كل ضرورة، ولا تشبهها ضرورة تقاس بها، فإنه إن أمسك عنه رحمته وتوفيقه وهدايته طرفة عين خسر وهلك..

(١) قال عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ: «إذا توفي العبد المؤمن أرسل الله إليه ملكين. وأرسل إليه بتحفة من الجنة. فيقال: اخرجي أيتها النفس المطمئنة، اخرجي إلى روح وريحان. ورب عنك راض».

وفي وقت هذه المقالة ثلاثة أقوال للسلف:

أحدها: أنه عند الموت. وهو الأشهر. قال الحسن: إذا أراد قبضها اطمأنت إلى ربها. ورضيت عن الله، فيرضى الله عنها.

وقال آخرون: إنما يقال لها ذلك عند البعث. هذا قول عكرمة وعطاء والضحاك وجماعة.

وقال آخرون: الكلمة الأولى ـ وهي: ﴿ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر: ٢٧] ـ تقال لها عند الموت. والكلمة الثانية ـ وهي: «فادخلي في عبادي وادخلي جنتي» ـ تقال لها يوم القيامة.

قال أبو صالح: «ارجعي إلى ربك راضية مرضية» هذا عند خروجها من الدنيا. فإذا كان يوم القيامة قيل لها: «فادخلي في عبادي، وادخلي جنتي».

---

(١) ١٧٨ مدارج جـ٢.

والصواب: أن هذا القول يقال لها عند الخروج من الدنيا، ويوم القيامة. فإن أول بعثها عند مفارقتها الدنيا. وحينئذ فهي في الرفيق الأعلى، إن كانت مطمئنة إلى الله، وفي جنته، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة. فإذا كان يوم القيامة قيل لها ذلك. وحينئذ فيكون تمام الرجوع إلى الله ودخول الجنة. فأول ذلك عند الموت. وتمامه ونهايته: يوم القيامة، فلا اختلاف في الحقيقة.

(١)...وأما الرضا عنه: فهو رضا العبد بما يفعله به ويعطيه إياه. ولهذا لم يجئ إلا في الثواب والجزاء. كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨] فهذا برضاها عنه لما حصل لها من كرامته. كقوله تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾ [البينة: ٨].

والرضا به: أصل الرضا عنه، والرضي عنه: ثمرة الرضا به.

وسر المسألة: أن الرضا به متعلق بأسمائه وصفاته. والرضا عنه: متعلق بثوابه وجزائه. وأيضًا: فإن النبي ﷺ علق ذوق طعم الإيمان بمن رضي بالله ربًا. ولم يعلقه بمن رضي عنه. كما قال ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا**»(٢) فجعل الرضا به قرين الرضا بدينه ونبيه. هذه الثلاثة هي أصول الإسلام، التي لا يقوم إلا بها وعليها.

وأيضًا: فالرضا به ربًا يتضمن توحيده وعبادته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، وخوفه ورجاءه ومحبته، والصبر له وبه. والشكر على نعمه: يتضمن رؤية كل ما منه نعمة وإحسانًا، وإن ساء عبده.

فالرضا به يتضمن «شهادة أن لا إله إلا الله». والرضا بمحمد رسولًا. يتضمن «شهادة أن محمدًا رسول الله». والرضا بالإسلام دينًا: يتضمن التزام عبوديته، وطاعته

---

(١) ١٨٤ مدارج جـ٢.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٣٤) وانظر: شرح النووي (١/ ٢١٧) (٢/ ٢).

وطاعة رسوله. فجمعت هذه الثلاثة الدين كله.

وأيضًا: فالرضا به ربًا يتضمن اتخاذه معبودًا دون ما سواه. واتخاذه وليًا ومعبودًا، وإبطال عبادة كل ما سواه.

وقد قال تعالى لرسوله: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا ﴾ [الأنعام: ١١٤] وقال: ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ [الأنعام: ١٤] وقال: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٦٤] فهذا هو عين الرضا به ربًا.

وأيضًا: فإنه جعل حقيقة الرضا به ربًا: أن يسخط عبادة ما دونه. فمتى سخط العبد عباده ما سوى الله من الآلهة الباطلة، حبًا وخوفًا، ورجاء وتعظيمًا، وإجلالًا ـ فقد تحقق بالرضا به ربًا، الذي هو قطب رحى الإسلام.

وإنما كان قطب رحى الدين: لأن جمع العقائد والأعمال، والأحوال: إنما تبنى على توحيد الله ﷻ في العبادة، وسخط عبادة ما سواه. فمن لم يكن له هذا القطب لم يكن له رحى تدور عليه...

[(١)]الناس في هذه الدار على جناح سفر كلهم، وكل مسافر فهو ظاعن إلى مقصده، ونازل على من يسر بالنزول عليه. وطالب الله والدار الآخرة، إنما هو ظاعن إلى الله في حال سفره، ونازل عليه عند القدوم عليه، فهذه همته في سفره وفي انقضائه: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر: ٢٧- ٣٠]، وقالت امرأة فرعون: ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾، فطلبت كون البيت عنده قبل طلبها أن يكون في الجنة، فإن الجار قبل الدار[(٢)].

[(٣)]والمقصود التنبيه على بعض أحوال النفس المطمئنة واللوامة والأمارة، وما

---

(١) لم أجد موضعه.

(٢) يروى مرفوعًا عن سعيد بن رافع بن خديج عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «التمسوا الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق» أخرجه الطبراني في الكبير (٤/ ٢٦٨ رقم ٤٣٧٩).

(٣) ٣٢٦ الروح.

تشترك فيه النفوس الثلاثة، وما يتميز به بعضها من بعض، وأفعال كل واحدة منها واختلافها ومقاصدها ونياتها، وفي ذلك تنبيه على ما وراءه، وهي نفس واحدة تكون أمارة تارة ولوامة أخرى ومطمئنة أخرى، وأكثر الناس الغالب عليهم الأمارة، وأما المطمئنة فهي أقل النفوس البشرية عددًا وأعظمها عند الله قدرًا، وهي التي يقال لها: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠﴾.

والله ﷻ المسئول المرجو الإجابة أن يجعل نفوسنا مطمئنة إليه عاكفة بهمتها عليه، راهبة منه، راغبة فيما لديه، وأن يعيذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، وأن لا يجعلنا ممن أغفل قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطًا ولا يجعلنا من: ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤] إنه سميع الدعاء، وأهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الفجر

والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ البَلَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤ ﴾.

[(١)]أما سورة ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ ﴾ [البلد: ١] فذكر فيها جواب القسم. وهو قوله: ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤ ﴾ [البلد: ٤] وفسر الكبد بالاستواء وانتصاب القامة. قال ابن عباس، في رواية مقسم: منتصبًا على قدميه. وهذا قول أبي صالح، والضحاك، وإبراهيم، وعكرمة، وعبدالله بن شداد.

قال المنذر: سمعت أبا طالب يقول: الكبد الاستواء والاستقامة. وفسر بالنصب. هذا قول مجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن،ورواية عن علي، وعن ابن عباس. قال الحسن: لم يخلق الله خلقًا يكابد ما يكابد ابن آدم. وقال سعيد بن أبي الحسن: يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة[(٢)]. وقال قتادة: يكابد أمر الدنيا والآخرة، فلا تلقاه إلا في مشقة[(٣)].

وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: يعني حمله وولادته، ورضاعه، وفصاله، ونبت أسنانه وحياته، ومعاشه، ومماته[(٤)]. كل ذلك شدة. قال مجاهد: حملته أمه كرها، ووضعته كرهًا، معيشته في شدة. فهو يكابد ذلك[(٥)].

---

(١) ٢٢ التبيان.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣١١) وابن المبارك في الزهد (رقم ٢٣٠، ٢٣١) وابن الجعد (رقم ٣٢٨٠، ٣٢٨١) وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤٣٣) وانظر: فتح الباري (٨/ ٧٠٤) وتفسير ابن كثير (٤/ ٥١٣).

(٣) أخرجه عبدالرزاق الصنعاني في تفسيره (٣/ ٣٧٣).

(٤) أخرجه بلفظ قريب الحاكم (٢/ ٥٧٠ رقم ٣٩٣٣) وصححه. وانظر: فتح الباري (٨/ ٧٠٤).

(٥) انظر: فتح الباري (٨/ ٧٠٤) وتفسير ابن كثير (٤/ ٥١٣).

وعلىٰ هذا فالكبد من مكابدة الأمر، وهي معاناة شدته ومشقته، والرجل يكابد الليل إذا قاسىٰ هوله وصعوبته. والكبد شدة الأمر.

ومنه تكبد اللبن، إذا غلظ واشتد. ومنه الكبد لأنها دم يغلظ ويشتد، وانتصاب القامة والاستواء من ذلك، لأنه إنما يكون عن قوة وشدة، فإن الإنسان مخلوق في شدة. بكونه في الرحم، ثم في القماط والرباط، ثم هو علىٰ خطر عظيم عند بلوغه حال التكليف، ومكابدة المعيشة، والأمر والنهي، ثم مكابدة الموت وما بعده في البرزخ، وموقف القيامة، ثم مكابدة العذاب في النار ولا راحة له إلا في الجنة.

وفسر الكبد بشدة الخلق وإحكامه وقوته، ومنه قول لبيد:

يا عين هلا بكيت أربد، إذ قمنا وقام الخصوم في كبد؟[1]

أي: في شدة وعناء. وهذا يشبه قوله تعالىٰ: ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾ [الإنسان: ٢٨].

قال ابن عباس: أي: خلقهم، وقال أبو عبيدة: الأسر شدة الخلق، يقال: فرس شديد الأسر. قال: وكل شيء شددته: من قتب أو غيره، فهو مأسور. وقال المبرد: الأسر القوىٰ كلها. وقال الليث: الأسر قوة المفاصل والأوصال. وشد الله أسر فلان، أي قوىٰ خلقه. وكل شيء جمع طرفاه فشد أحدهما بالآخر فقد أسر. وقال الحسن: شددنا أوصالهم بعضها إلىٰ بعض، بالعروق والعصب. وقال مجاهد: هو الشرج، يعني موضع البول والغائط. إذا خرج الأذىٰ تقبضًا.

والمقصود أنه سبحانه أقسم في سورة البلد علىٰ حال الإنسان، وأقسم سبحانه بالبلد الأمين وهو مكة أم القرىٰ.

ثم أقسم بالوالد وما ولد. وهو آدم وذريته في قول جمهور المفسرين. وعلىٰ هذا فقد

---

(١) هذا البيت من بحر المنسرح. ذكر البيت ابن منظور في اللسان (٣/ ٣٧٦) وابن حجر في الفتح (٦/ ٣٦٥) والسيوطي في الدر (٨/ ٥٢٠).

تضمن القسم أصل المكان، وأصل السكان. فمرجع البلاد إلى مكة، ومرجع العباد إلى آدم. وقوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾ [البلد: ٢] فيه قولان:

أحدهما: أنه من الإحلال، وهو ضد الإحرام.

والثاني: أنه من الحلول وهو ضد الظعن. فإن أريد به المعنى الأول فهو حلال ساكن البلد. بخلاف المحرم الذي يحج ويعتمر، ويرجع، ولأن أمنه إنما تظهر به النعمة عند الحل من الإحرام، وإلا ففي حال الإحرام هو في أمان. والحرمة هناك للفعل لا للمكان. والمقصود هو ذكر حرمة المكان، وهي إنما تظهر بحال الحلال الذي لم يتلبس بما ينقض أمنه، ولكن على هذا ففيه تنبيه، فإنه إذا أقسم به، وفيه الحلال، فإذا كان فيه الحرام، فهو أولى بالتعظيم والأمن.

وكذلك إذا أريد المعنى الثاني وهو الحلول، فهو متضمن لهذا التعظيم، مع تضمنه أمرًا آخر. وهو الإقسام ببلده المشتمل على رسوله وعبده، فهو خير البقاع، وقد اشتمل على خير العباد، فجعل بيته هدى للناس، ونبيه إمامًا وهاديًا لهم، وذلك من أعظم نعمه وإحسانه إلى خلقه. كما هو من أعظم آياته ودلائل وحدانيته وربوبيته، فمن اعتبر حال بيته وحال نبيه وجد ذلك من أظهر أدلة التوحيد والربوبية.

وفي الآية قول ثالث، وهو أن المعنى: وأنت مستحل قتلك وإخراجك من هذا البلد الأمين، الذي يأمن فيه الطير والوحش والجاني. وقد استحل قومك فيه حرمتك، وهم لا يعضدون به شجرة، ولا ينفرون به صيدًا. وهذا مروي عن شرحبيل بن سعد. وعلى كل حال فهي جملة اعتراض في أثناء القسم، موقعها من أحسن موقع وألطفه. فهذا القسم متضمن لتعظيم بيته ورسوله.

***

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾.

ثم أنكر سبحانه على الإنسان ظنه وحسبانه أن لن يقدر عليه من خلقه في هذا الكبد

والشدة والقوة التي يكابد بها الأمور. فإن الذي خلقه كذلك أولى بالقدرة منه وأحق، فكيف يقدر على غيره من لم يكن قادرًا في نفسه، فهذا برهان مستقل بنفسه، مع أنه متضمن للجزاء الذي مناطه القدرة والعلم، فنبه على ذلك بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝﴾ [البلد: ٥]. وبقوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝﴾ [البلد: ٧] فيحصي عليه ما عمل من خير وشر، ولا يقدر عليه فيجازيه بما يستحقه.

ثم أنكر سبحانه على الإنسان قوله: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ [البلد: ٦] وهو الكثير الذي يلبد بعضه فوق بعض، فافتخر هذا الإنسان بإهلاكه وإنفاقه في غير وجهه. إذا لو أنفقه في وجوهه التي أمر بإنفاقه فيها، ووضعه مواضعه، لم يكن ذلك إهلاكًا له، بل تقربًا به إلى الله، وتوصلًا به إلى رضاه وثوابه. وذلك ليس بإهلاك له. فأنكر سبحانه افتخاره، وتبجحه بإنفاق المال في شهواته وأغراضه التي إنفاقه فيها إهلاك له.

ثم وبخه بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝﴾ [البلد: ٧] وأتى ههنا بلم، الدالة على المضي، في مقابلة قوله: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ فإن ذلك في الماضي، أفيحسب أن لم يره أحد فيما أنفقه وفيما أهلكه؟

***

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝﴾.

(١) ذكر هنا العينين التي يبصر بهما فيعلم المشاهدات. وذكر هداية النجدين وهما طريقًا الخير والشر، وفي ذلك حديث مرفوع ومرسل، وهو قول أكثر المفسرين.

وتدل عليه الآية الأخرى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] والهداية تكون بالقلب والسمع، فقد دخل السمع في ذلك لزومًا، وذكر اللسان والشفتين اللتين هما آلة التعليم، فذكر آلات العلم والتعليم، وجعلها من آياته الدالة عليه وعلى قدرته ووحدانيته ونعمه التي تعرف بها إلى عباده.

---

(١) ١٠٧ مفتاح جـ١.

ولما كانت هذه الأعضاء الثلاثة التي هي أشرف الأعضاء وملوكها والمتصرفة فيها والحاكمة عليها، وخصها ﷻ بالذكر في السؤال عنها. فقال: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً ﴾ [الإسراء: ٣٦].

فسعادة الإنسان بصحة هذه الأعضاء الثلاثة، وشقاوته بفسادها.

قال ابن عباس: يسأل الله العباد فيما استعملوا هذه الثلاثة: السمع والبصر والفؤاد[(١)]، والله تعالى أعطى العبد السمع ليسمع به أوامر ربه ونواهيه وعهوده، والقلب ليعقلها ويفقهها، والبصر ليرى آياته، فيستدل بها على وحدانيته وربوبيته، فالمقصود بإعطائه هذه الآلات العلم وثمرته ومقتضاه.

[(٢)]ثم ذكر برهانًا مقدرًا أنه سبحانه أحق بالرؤية وأولى من هذا العبد الذي له عينان يبصر بهما. فكيف يعطيه البصر من لم يره؟ وكيف يعطيه آلة البيان، من الشفتين واللسان، فينطق، ويبين عما في نفسه، ويأمر وينهى من لا يتكلم ولا يكلم، ولا يخاطب، ولا يأمر، ولا ينهى؟ وهل كمال المخلوق مستفاد إلا من كمال خالقه؟ ومن جعل غيره عالمًا بنجدي الخير والشر ـ وهما طريقاهما ـ أليس هو أولى وأحق بالعلم منه. ومن هداه إلى هذين الطريقين، كيف يليق به أن يتركه سدى، لا يعرفه ما يضره وما ينفعه في معاشه ومعاده؟ وهل النبوة والرسالة إلا لتكميل هداية النجدين؟ فدل هذا كله على إثبات الخالق وصفات كماله، وصدق رسله، ووعده.

وهذه أصول الإيمان التي اتفقت عليها جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم، إذا تأمل الإنسان حاله وخلقه وجده من أعظم الأدلة على صحتها وثبوتها، فتكفي الإنسان فكرته في نفسه وخلقه. والرسل بعثوا مذكرين بما في الفطر والعقول مكملين له، لتقوم على العبد حجة الله بفطرته ورسالته. ومع هذا فقامت عليه حجته. ولم يقتحم العقبة

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٤/ ١٤٨ رقم ٤٦١٣) وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٢٤٣) وتفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٨).

(٢) ٢٥ التبيان.

التي بينه وبين ربه، التي لا يصل إليها حتى يقتحمها بالإحسان إلى خلقه بفك الرقبة، وهو تخليصها من الرق، ليخلصه الله من رق نفسه ورق عدوه. وإطعام اليتيم والمسكين في يوم المجاعة، وبالإخلاص له سبحانه بالإيمان الذي هو خالص حقه عليه. وهو تصديق خبره وطاعة أمره، وابتغاء وجهه، وبنصيحة غيره أن يوصيه بالبر والرحمة، ويقبل وصية من أوصاه بها، فيكون صابرًا رحيمًا في نفسه، معينًا لغيره على الصبر والرحمة. فمن لم يقتحم هذه العقبة، وهلك دونها هلك منقطعًا عن ربه، غير واصل إليه، بل محجوبًا عنه.

***

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ ﴾.

الناس قسمان: ناج، وهو من قطع العقبة، وصار وراءها. وهالك وهو من دون العقبة، وهم أكثر الخلق، ولا يقتحم هذه العقبة إلا المضمرون، فإنها عقبة كؤود شاقة، لا يقطعها إلا خفيف الظهر. وهم أصحاب الميمنة. والهالكون دون العقبة الذين لم يصدقوا الخبر، ولم يطيعوا الأمر. فهم: (أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة). قد أطبقت عليهم؛ فلا يستطيعون الخروج منها؛ كما أطبقت عليهم أعمال الغي والاعتقادات الباطلة، المنافية لما أخبرت به رسله، فلم تخرج قلوبهم منها. كذلك أطبقت عليهم هذه النار، فلم تستطع أجسامهم الخروج منها.

فتأمل هذه السورة على اختصارها، وما اشتملت عليه من مطالب العلم والإيمان. وبالله التوفيق.

وأيضًا فإن طريقة القرآن بذكر العلم والقدرة، تهديدًا وتخويفًا لترتب الجزاء عليهما، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ [الأنعام: ٦٥].

وقوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق: ٩-١٤]. وقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥]. وقال: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠] وهذا كثير جدًا في القرآن.

وليس المراد به مجرد الإخبار بالقدرة والعلم، لكن الإخبار مع ذلك بما يترتب عليها من الجزاء بالعدل، فإنه إذا كان قادرًا أمكن مجازاته وإذا كان عالمًا أمكن ذلك بالقسط والعدل، ومن لم يكن قادرًا لم يمكن مجازاته. وإذا كان قادرًا لكنه غير عالم بتفاصيل الأعمال ومقادير جزائها لم يجاز بالعدل؛ والرب تعالى موصوف بكمال القدرة، وكمال العلم، فالجزاء منه موقوف على مجرد مشيئته وإرادته، فحينئذ يجب على العاقل أن يطلب النجاة منه بالإخلاص والإحسان، فهو اقتحام العقبة المتضمن للتوبة إلى الله تعالى والإحسان إلى خلقه.

وقال: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ [البلد: ١١] وهو فعل ماض، ولم يكرر معه «لا» إما استعمالًا لأداة «لا» كاستعمال «ما» . وإما إجراء لهذا الفعل مجرى الدعاء. نحو فلا سلم ولا عاش. ونحو ذلك. وإما لأن العقبة قد فسرت بمجموع أمور: فاقتحامها فعل كل واحد منها. فأغنى ذلك عن تكريرها. فكأنه قال: فلا فك رقبة، ولا أطعم، ولا كان من الذين آمنوا.

وقراءة من قرأ: (فَكَّ رقبةً) بالفعل، كأنها أرجح من قراءة من قرأها بالمصدر. لأن قوله: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴾ [البلد: ١٢] على حد قوله: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ [الحاقة: ٣]، ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ [الانفطار: ١٧] ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ [القارعة: ١٠- ١١] ونظائره، تعظيمًا لشأن العقبة وتفخيمًا لأمرها. وهي جملة اعتراض بين المفسِّر والمفسَّر. فإن قوله: ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا

ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البلد: ١٣- ١٧] تفسير لاقتحام العقبة مكان شاق كؤود يقتحمه الناس حتى يصلوا إلى الجنة، واقتحامه بفعل هذه الأمور. فمن فعلها فقد اقتحم العقبة. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البلد: ١٧] وهذا عطف على قوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ والأحسن تناسب هذه الجمل المعطوفة التي هي تفسير لما ذكر أولًا. وأيضًا فإن من قرأها بالمصدر المضاف فلابد له من تقدير، وهو: ما أدراك ما اقتحام العقبة؟ واقتحامها فك رقبة. وأيضًا فمن قرأها بالفعل فقد طابق بين المفسر وما فسره.

ومن قرأها بالمصدر فقد طابق بين المفسر وبعض ما فسره، فإن التفسير إن كان لقوله: ﴿ٱقْتَحَمَ﴾ طابقه بقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وما بعده دون ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ وما يليه، وإن كان لقوله: ﴿ٱلْعَقَبَةَ﴾ طابقه ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَٰمٌ﴾ دون قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وما بعده، وإن كانت المطابقة حاصلة معنى، فحصولها لفظًا ومعنى أتم وأحسن.

واختلف في هذه العقبة، هل هي في الدنيا أو في الآخرة؟ فقالت طائفة: العقبة ههنا مثل ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس والشيطان في أعمال البر. وحكوا ذلك عن الحسن ومقاتل. قال الحسن: عقبة والله شديدة[1]: مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه والشيطان.

وقال مقاتل: هذا مثل ضربه الله، يريد أن المعتق رقبة، والمطعم اليتيم والمسكين، يقاحم نفسه وشيطانه، مثل أن يتكلف صعود العقبة، فشبه المعتق رقبة في شدته عليه بالمكلف صعود العقبة، وهذا قول أبي عبيدة.

وقالت طائفة: بل هي عقبة حقيقة، يصعدها الناس، قال عطاء: هي عقبة جهنم. وقال الكلبي: هي عقبة بين الجنة والنار. وهذا قول مقاتل: إنها عقبة جهنم.

---

(١) انظر: عمدة القاري (١٣/ ٧٦).

وقال مجاهد والضحاك: هي الصراط، يضرب على جهنم. وهذا لعله قول الكلبي. وقول هؤلاء أصح نظرًا وأثرًا ولغة. قال قتادة: فإنها عقبة شديدة، فاقتحموها بطاعة الله.

وفي أثر معروف «إن بين أيديكم عقبة كؤودًا لا يقتحمها إلا المخفون»[1] أو نحو هذا. وأن الله سمى الإيمان به، وفعل ما أمر، وترك ما نهى: عقبة. فكثيرًا ما يقع في كلام السلف الوصية بالتضمر لاقتحام العقبة.

وقال بعض الصحابة، وقد حضره الموت، فجعل يبكي، ويقول: ما لي لا أبكي وبين يدي عقبة كؤود، أهبط منها إما إلى جنة، وإما إلى نار. فهذا القول أقرب إلى الحقيقة، والآثار السلفية، والمألوف من عادة القرآن في استعماله (وما أدراك) في الأمور الغائبة العظيمة كما تقدم. والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة البلد

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

---

(١) عن أنس ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ يوماً وهو آخذ بيد أبي ذرٍّ فقال: «يا أبا ذر أعلمت أن بين أيدينا عقبة كؤوداً، لا يصعدها إلا المخفون» فقال رجل: يا رسول الله أمن المخفين أنا أم من المثقلين؟ قال: «عندك طعام يوم؟» قال: نعم. «وطعام غد؟» قال: نعم. «وطعام بعد غد؟» قال: لا. قال: «لو كان عندك طعام ثلاث لكنت من المثقلين» أخرجه الطبراني في الأوسط (٥/ ١٠٧ رقم ٤٨٠٩) والبيهقي في الشعب بلفظ قريب (٧/ ٣٠٩ر قم ١٠٤٠٧) والسائل فيه أبو ذر قال: أنا منهم يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «لك قوت يوم وليلة؟» قال: لا قال: «فأنت من المخفين». قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٦٣): رواه الطبراني في الأوسط وفيه جنادة بن مروان قال أبو حاتم: ليس بالقوي وبقية رجاله ثقات.

سُورَةُ الشَّمْسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ ﴾.

(1)قال الزجاج وغيره: جواب القسم ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ ﴾ [الشمس: ٩] ولما طال الكلام حسن حذف اللام من الجواب.

وقد تضمن هذا القسم الإقسام بالخالق، والمخلوق، فأقسم بالسماء وبانيها، والأرض وطاحيها، والنفس ومسويها.

وقد قيل: إن: مصدرية، فيكون الإقسام بنفس فعله تعالى، فيكون قد أقسم بالمصنوع الدال عليه، وبصنعته الدالة على كمال علمه وقدرته وحكمته وتوحيده.

ولما كانت حركة الشمس والقمر، والليل والنهار أمرًا يشهد الناس حدوثه شيئًا فشيئًا، ويعلمون أن الحادث لا بد له من محدث، وكان العلم بذلك منزَّلًا منزلة ذكر المحدِث له لفظًا، فلم يذكر الفاعل في الأقسام الأربعة.

ولهذا سلك طائفة من النظار طريق الاستدلال بالزمان على الصانع، وهو استدلال صحيح، قد نبه عليه القرآن في غير موضع، كقوله: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠]. ولما كانت السماء والأرض ثابتتين حتى ظن من ظن أنهما قديمتان ذكر مع الإقسام بهما بانيهما ومبدعهما.

وكذلك النفس، فإن حدوثها غير مشهود، حتى ظن بعضهم قدمها، فذكر مع

---

(١) ١٣ التبيان.

الإقسام بها مسويها وفاطرها، مع ما في ذكر بناء السماء وطحو الأرض وتسوية النفس من الدلالة على الرحمة والحكمة والعناية بالخلق، فإن بناء السماء يدل على أنها كالقبة العالية على الأرض، وجعلها سقفًا لهذا العالم، والطحو هو مد الأرض وبسطها، وتوسيعها ليستقر عليها الأنام والحيوان، ويمكن فيها البناء والغراس والزرع، وهو متضمن لنضوب الماء عنها، وهو مما حيَّر عقول الطبائعيين، حيث كان مقتضى الطبيعة أن يغمرها كثرة الماء، فبروز جانب منها على الماء على خلاف مقتضى الطبيعة، وكونه هذا الجانب المعين دون غيره مع استواء الجوانب في الشكل الكري، يقتضي تخصيصًا. فلم يجدوا بدًا أن يقولوا: عناية الصانع اقتضت ذلك.

قلنا: فنعم إذًا، ولكن عناية من لا مشيئة له، ولا إرادة ولا اختيار، ولا علم بمعين أصلًا، كما تقولونه فيه محال، فعنايته تقتضي ثبوت صفات كماله ونعوت جلاله، وأنه الفاعل يفعل باختياره ما يريد.

وكذلك النفس أقسم بها وبمن سواها وألهمها فجورها وتقواها. فإن من الناس من يقول: قديمة لا مبدع لها. ومنهم من يقول: بل هي التي تبدع فجورها وتقواها، فذكر سبحانه أنه هو الذي سواها وأبدعها، وأنه هو الذي ألهمها الفجور والتقوى. فأعلمنا أنه خالق نفوسنا وأعمالها.

وذكر لفظ التسوية، كما ذكره في قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦، ٧] وفي قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [ص: ٧٢] إيذانًا بدخول البدن في لفظ النفس. ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٩] وقوله: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦٤] ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢] ونظائره. وباجتماع الروح مع البدن تصير النفس فاجرة أو تقية. وإلا فالروح بدون البدن لا فجور لها.

[(١)]قوله: ﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ [النازعات: ١٨] أي: تعمل بطاعة الله ـ تعالىٰ ـ فتصير زاكيًا، ومثله قوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤].

وقد اختلف في الضمير المرفوع في قوله: ﴿ زَكَّىٰهَا ﴾. فقيل: هو الله. أي: أفلحت نفس زكاها الله ﷻ، وخابت نفس دساها. وقيل: إن الضمير يعود على فاعل ﴿ أَفْلَحَ ﴾، وهو «من» سواء كانت موصولة أو موصوفة، فإن الضمير لو عاد على الله سبحانه لقال: قد أفلح من زكاه، وقد خاب من دساه.

والأولون يقولون: «من» وإن كان لفظها مذكرًا فإذا وقعت على مونث جاز إعادة الضمير عليها بلفظ المؤنث، مراعاة للمعنى، وبلفظ المذكر مراعاة للفظ، وكلاهما من الكلام الفصيح. وقد وقع في القرآن اعتبار لفظها ومعناها، فالأول كقوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ [الأنعام: ٢٥] فأفرد الضمير؛ والثاني كقوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ [يونس: ٤٢].

قال المرجحون للقول الأول: يدل على صحة قولنا: ما رواه أهل السنن من حديث ابن أبي مليكة عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: أتيت ليلة، فوجدت رسول الله ﷺ يقول: «ربِّ أعط نفسي تقواها، وزكها، أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»[(٢)] فهذا الدعاء كالتفسير لهذه الآية، وأن الله تعالى هو الذي يزكي النفوس، فتصير زاكية، فالله هو المزكِّي، والعبد هو المزكَّى.

والفرق بينهما فرق ما بين الفاعل والمطاوع. قالوا: والذي جاء في القرآن من إضافة الزكاة إلى العبد إنما هو بالمعنى الثاني، دون الأول. كقوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤] وقوله: ﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ [النازعات: ١٨] أي: تقبل تزكية الله تعالى لك، فتزكَّى.

---

(١) ٥٠ إغاثة جـ١.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٢٢) وانظر: شرح النووي (١٧/ ٤١).

قالوا: وهذا هو الحق فإنه لا يفلح إلا من زكاه الله تعالى، وقالوا: وهذا اختيار ترجمان القرآن ابن عباس، فإنه قال في رواية علي بن أبي طلحة وعطاء والكلبي: «قد أفلح من زكى الله تعالى نفسه» وقال ابن زيد: «وقد أفلح من زكى الله نفسه» واختاره ابن جرير.

قالوا: ويشهد لهذا القول أيضًا قوله في أول السورة: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ [الشمس: ٨].

قالوا: وأيضًا فإنه ﷻ أخبر أنه خالق النفس وصفاتها، وذلك هو معنى التسوية.

قال أصحاب القول الآخر: ظاهر الكلام ونظمه الصحيح: يقتضي أن يعود الضمير على ﴿ مَن ﴾ أي: أفلح من زكى نفسه. هذا هو المفهوم المتبادر إلى الفهم، بل لا يكاد يفهم غيره، كما إذ قلت: هذه جارية قد ربح من اشتراها. وصلاة قد سعد من صلاها، وضالة قد خاب من آواها. ونظائر ذلك.

قالوا: والنفس مؤنثة، فلو عاد الضمير على الله سبحانه لكان وجه الكلام: قد أفلحت نفس زكاها، أو أفلحت من زكاها، لوقوع «من» على النفس.

قالوا: وإن جاز تفريغ الفعل من التاء لأجل لفظ «من» كما تقول: قد أفلح من قامت منكن، فذاك حيث لا يقع اشتباه والتباس، فإذا وقع الاشتباه لم يكن بد من ذكر ما يزيله.

قالوا: و«من» موصولة بمعنى الذي. ولو قيل: قد أفلح الذي زكاها الله لم يكن جائزًا، لعود الضمير المؤنث على الذي. وهو مذكر.

قالوا: وهو سبحانه قصد نسبة الفلاح إلى صاحب النفس إذا زكى نفسه. ولهذا فرغ الفعل من التاء، وأتى: بـ ﴿ مَن ﴾ التي هي بمعنى الذي. وهذا الذي عليه جمهور المفسرين، حتى أصحاب ابن عباس - رضي الله عنهما -.

***

﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝ ﴾.

(١) الضمير مرفوع في ﴿ زَكَّىٰهَا ﴾ عائد على ﴿ مَن ﴾، وكذلك هو في ﴿ دَسَّىٰهَا ﴾: المعنى قد أفلح من زكى نفسه. وقد خاب من دساها؛ هذا القول هو الصحيح. وهو نظير قوله: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤] وهو سبحانه إذا ذكر الفلاح علقه بفعل المفلح كقوله: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١-٢] إلى آخر الآيات.

وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٣ - ٥].

وقوله: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١] ونظائره.

قال الحسن: قد أفلح من زكى نفسه وحملها على طاعة الله، وقد خاب من أهلكها وحملها على معصية الله، وقاله قتادة: وقال ابن قتيبة: يريد أفلح من زكى نفسه، أي: نماها وأعلاها بالطاعة والبر والصدقة واصطناع المعروف. وقد خاب من دساها أي: نقصها وأخفاها بترك عمل البر وركوب المعاصي.

والفاجر أبدًا خفي المكان، زمن المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس. فكأن المتصف بارتكاب الفواحش دس نفسه، وقمعها. ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها.

وكانت أجواد العرب تنزل الربى ويفاع الأرض لتشهر أنفسها للمعتفين، وتوقد النيران في الليل للطارقين.

وكانت اللئام تنزل الأولاج والأطراف والأهضام لتخفي أماكنها على الطالبين. فأولئك أعلوا أنفسهم وزكوها، وأولئك أخفوا أنفسهم ودسوها، وأنشد:

(١) ١٤ التبيان.

وبـــوأت بيتـــك في معلـــم رحيـــب المباحـــات والمـــسرح
كفيــت العفــاة طــلاب القــرى ونـــبح الكـــلاب لمـــستنبح

وقال أبو العباس: سألت ابن الأعرابي عن قوله: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّنٰهَا ﴾ [الشمس: ١٠]: فقال دسي معناه دس نفسه مع الصالحين وليس منهم، وعلى هذا فالمعنى أخفى نفسه في الصالحين، يُرِي الناس أنه منهم وهو منطو على غير ما ينطوي عليه الصالحون.

وقالت طائفة أخرى: الضمير يرجع إلى الله سبحانه، قال ابن عباس في رواية عطاء: قد أفلحت نفس زكاها الله وأصلحها. وهذا قول مجاهد، وعكرمة، والكلبي، وسعيد ابن جبير، ومقاتل.

قالوا: سعدت نفس، وأفلحت نفس أصلحها الله وطهرها ووفقها للطاعة، حتى عملت بها، وخابت وخسرت نفس أضلها الله وأغواها وأبطلها وأهلكها.

قال أرباب هذا القول: قد أقسم الله بهذه الأشياء التي ذكرها، لأنها تدل على وحدانيته، وعلى فلاح من طهره، وخسارة من خذله، حتى لا يظن أحد أنه هو الذي يتولى تطهير نفسه وإهلاكها بالمعصية من غير قدر سابق، وقضاء متقدم.

قالوا: وهذا أبلغ في التوحيد الذي سيقت له هذه السورة. قالوا: ويدل عليه قوله: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَنٰهَا ﴾. قالوا: ويشهد له حديث نافع عن ابن عمر عن ابن أبي مليكة عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: انتبهت نفسي ليلة فوجدت رسول الله ﷺ، وهو يقول: «**رب أعط نفسي تقواها، وزكها، أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها**».

قالوا: فهذا الدعاء هو تأويل الآية، بدليل الحديث الآخر: أن النبي ﷺ، كان إذا قرأ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّنٰهَا ﴾ [الشمس: ٩] وقف ثم قال: «**اللهم آت نفسي تقواها،أنت وليها ومولاها، وزكها أنت خير من زكاها**».

قالوا: وفي هذا ما يبين أن الأمر كله له سبحانه، فإنه هو خالق النفس وملهمها

الفجور والتقوىٰ. وهو مزكيها ومدسيها، فليس للعبد في الأمر شيء ولا هو مالك من أمر نفسه شيئًا.

قال أرباب القول الأول: هذا القول، وإن كان جائزًا في العربية، حاملًا للضمير المنصوب علىٰ معنىٰ من، وإن كان لفظها مذكرًا، كما في قوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ [يونس: ٤٢] جمع الضمير، وإن كان لفظ (من) مفردًا، حملًا علىٰ نظمها، فهذا إنما يحسن حيث لا يقع لبس في مفسر الضمائر، وههنا قد تقدم لفظ (من)، والضمير المرفوع في ﴿ زَكَّىٰهَا ﴾ يستحقه لفظًا ومعنىٰ. فهو أولىٰ به، ثم يعود الضمير المنصوب علىٰ النفس التي هي أولىٰ به لفظًا ومعنىٰ، فهذا هو النظم الطبيعي الذي يقتضيه سياق الكلام ووضعه. وأما عود الضمير الذي يلي (من) علىٰ الموصول السابق وهو قوله: ﴿ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾ وإخلاء جاره الملاصق له وهو (من)، ثم عود الضمير المنصوب وهو مؤنث علىٰ (من)، ولفظه مذكر دون النفس المؤنثة. فهذا يجوز، لو لم يكن للكلام محمل غيره أحسن منه، فأما إذا كان سياق الكلام ونظمه يقتضي خلافه ولم تدع الضرورة إليه؛ فالحمل عليه ممتنع.

قالوا: والقول الذي ذكرناه أرجح من جهة المعنىٰ لوجوه:

أحدها: أن فيه إشارة إلىٰ ما تقدم من تعليق الفلاح علىٰ فعل العبد واختياره، كما هي طريقة القرآن.

الثاني: أن فيه زيادة فائدة، وهي إثبات فعل العبد وكسبه، وما يثاب وما يعاقب عليه، وفي قوله: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ ﴾ [الشمس: ٨] إثبات القضاء والقدر السابق. فتضمنت الآيتان هذين الأصلين العظيمين، وهما كثيرًا ما يقترنان في القرآن. كقوله: ﴿ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [المدثر: ٥٤-٥٦]. وقوله: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩]. فتضمنت الآيتان الرد علىٰ القدرية والجبرية.

الثالث: أن قولنا يستلزم قولكم، دون العكس. فإن العبد إذا زكى نفسه ودساها، فإنما يزكيها بعد تزكية الله لها بتوفيقه وإعانته، وإنما يدسيها بعد تدسية الله لها بخذلانه، والتخلية بينه وبين نفسه. بخلاف ما إذا كان المعنى على القدر السابق المحض، لم يبق للكسب وفعل العبد ههنا ذكر البتة.

[(١)] فإن الله سبحانه هيأ الإنسان لقبول الكمال بما أعطاه من الأهلية والاستعداد، التي جعلها فيه كامنة: كالنار في الزناد، فألهمه ومكّنه، وعرَّفه وأرشده. وأرسل إليه رسله. وأنزل إليه كتبه، لاستخراج تلك القوة التي أهله بها لكماله إلى الفعل. قال الله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝ ﴾ [الشمس: ٧-١٠] فعبَّر عن خلق النفس بالتسوية والدلالة على الاعتدال والتمام: ثم أخبر عن قبولها للفجور والتقوى. وأن ذلك نالها منه امتحانًا واختيارًا. ثم خص بالفلاح من زكاها فنمَّاها وعلَّاها. ورفعها بآدابه التي أدب بها رسله وأنبياءه وأولياءه. وهي التقوى. ثم حكم بالشقاء على من دساها، فأخفاها وحقرها، وصغرها وقمعها بالفجور. والله ﷻ أعلم.

[(٢)] ومن عقوباتها: أنها تصغر النفس وتقمعها وتدسها وتحقرها، حتى تصير أصغر كل شيء وأحقره، كما أن الطاعة تنميها وتزكيها وتكبرها، قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝ ﴾ [الشمس: ٩، ١٠] والمعنى: قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها، وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله.

وأصل التدسية الإخفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِ ﴾ [النحل: ٥٩] فالعاصي يدس نفسه في المعصية، ويخفي مكانها، ويتوارى من الخلق من سوء ما يأتي به. قد انقمع عند نفسه، وانقمع عند الله، وانقمع عند الخلق.

---

(١) ٣٨١ مدارج جـ٢.

(٢) ١٠٣ الجواب الكافي.

فالطاعة والبر يكبر النفس ويعزها ويعليها، حتى تصير أشرف شيء وأكبره وأزكاه وأعلاه، ومع ذلك فهي أذل شيء وأحقره وأصغره لله تعالى. وبهذا الذل حصل لها هذا العز والشرف والنمو. فما صغَّر النفس مثل معصية الله، وما كبَّرها وشرَّفها ورفعها مثل طاعة الله.

[(١)]ومن ذلك إخباره سبحانه بأنه هو الذي يلهم العبد فجوره وتقواه. والإلهام: الإلقاء في القلب لا مجرد البيان والتعليم، كما قاله طائفة من المفسرين، إذ لا يقال لمن بين لغيره شيئًا وعلمه إياه: إنه قد ألهمه ذلك، هذا لا يعرف في اللغة البتة، بل الصواب ما قاله ابن زيد، وقال: جعل فيها فجورها وتقواها. وعليه حديث عمران بن حصين: أن رجلًا من مزينة أو جهينة أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله أريت ما يعمل الناس فيه ويكدحون، أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر سابق، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم؟ قال: «بل شيء قضي عليهم ومضى»، قال: ففيم العمل؟ قال: «من خلقه الله لإحدى المنزلتين استعمله بعمل أهلها»[(٢)].

وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧، ٨] فقراءته هذه الآية عقيب إخباره بتقديم القضاء والقدر السابق يدل على أن المراد بالإلهام استعمالها فيما سبق لها لا مجرد تعريفها، فإن التعريف والبيان لا يستلزم وقوع ما سبق به القضاء والقدر، ومن فسر الآية من السلف بالتعليم والتعريف، فمراده تعريف مستلزم لحصول ذلك لا تعريف مجرد عن الحصول، فإنه لا يسمى إلهامًا، وبالله التوفيق.

---

(١) ٥٥ شفاء.

(٢) أخرجه ابن حبان (١٤/ ٦٠-٦١ رقم ٦١٨٢) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٧٦ رقم ١٧٤) والبيهقي في الاعتقاد (ص ١٤٨) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٩٥٣) والطبراني في ا لكبير (١٨/ ٢٢٣ رقم ٥٥٧).

[(١)] وذكر في هذه السورة ثمود، دون غيرهم من الأمم المكذبة.

فقال شيخنا: هذا ـ والله أعلم ـ من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، فإنه لم يكن في الأمم المكذبة أخف ذنبًا وعذابًا منهم، إذ لم يذكر عنهم من الذنوب ما ذكر عن عاد ومدين وقوم لوط وغيرهم. ولهذا لما ذكرهم وعادا قال: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت: ١٥] ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ [فصلت: ١٧].

وكذلك إذا ذكرهم مع الأمم المكذبة لم يذكر عنهم ما ذكر عن أولئك من التجبر والتكبر، والأعمال السيئة، كاللواط، وبخس المكيال والميزان، والفساد في الأرض، كما في سورة هود والشعراء وغيرهما. فكان في قوم لوط ـ مع الشرك ـ إتيان الفاحشة التي لم يسبقوا إليها. وفي قوم عاد ـ مع الشرك ـ التجبر والتكبر والتوسع في الدنيا، وشدة البطش، وقولهم: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥]. وفي أصحاب مدين ـ مع الشرك ـ الظلم في الأموال. وفي قوم فرعون ـ مع الشرك ـ الفساد في الأرض والعلو. وكان عذاب كل أمه بحسب ذنوبهم وجرائمهم.

فعذب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية، التي لا يقوم لها شيء. وعذب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم. فجمع لهم بين الهلاك والرجم بالحجارة من السماء، وطمس الإبصار، وقلب ديارهم عليهم. بأن جعل عاليها سافلها، والخسف بهم إلى أسفل سافلين. وعذب قوم شعيب بالنار التي أحرقتهم، وأحرقت تلك الأموال التي اكتسبوها بالظلم والعدوان، وأما ثمود فأهلكوا بالصيحة فماتوا في الحال. فإذا كان عذاب هؤلاء وذنبهم مع الشرك عقر الناقة التي جعلها الله آية لهم ـ فمن انتهك محارم الله واستخف بأوامره ونواهيه، وعقر عباده، وسفك دماءهم، كان أشد عذابًا.

---

(١) ١٧ التبيان.

ومن اعتبر أحوال العالم قديمًا وحديثًا، وما يعاقب به من سعى في الأرض بالفساد، وسفك الدماء بغير حق، وأقام الفتن واستهان بحرمات الله، علم أن النجاة في الدنيا والآخرة للذين آمنوا وكانوا يتقون.

قلت: وقد يظهر في تخصيص ثمود هاهنا بالذكر، دون غيرهم، معنى آخر، وهو أنهم ردوا الهدى بعد ما تيقنوه وكانوا مستبصرين به، قد ثلجت له صدورهم، واستيقظت له أنفسهم، فاختاروا عليه العمى والضلالة، كما قال تعالى في وصفهم: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧] وقال: ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء: ٥٩] أي موجبة لهم التبصرة واليقين، وإن كان جميع الأمم المهلكة هذا شأنهم. فإن الله لم يهلك أمة إلا بعد قيام الحجة عليها، لكن خصت ثمود في ذلك الهدى والبصيرة بمزيد. ولهذا لما قرنهم بقوم عاد قال: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥] ثم قال: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧] ولهذا أمكن عادًا المكابرة، وأن يقولوا لنبيهم: ﴿ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ [هود: ٥٣] ولم يمكن ذلك ثمود، وقد رأوا البينة عيانًا. وصارت لهم بمنزلة رؤية الشمس والقمر، فردوا الهدى بعد تيقنه والبصيرة التامة، فكان في تخصيصهم بالذكر تحذير لكل من عرف الحق ولم يتبعه. وهذا داء أكثر الهالكين، وهو أعم الأدواء وأغلبها على أهل الأرض. والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الشمس

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

سُورَةُ اللَّيْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ ﴾.

(١) قسمه ﷻ: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ ﴾ [الليل: ١-٣] وقد تقدم ذكر القسم عليه، وأنه سعي الإنسان في الدنيا، وجزاؤه في العقبى. فهو سبحانه يقسم بالليل في جميع أحواله، إذ هو من آياته الدالة عليه، فأقسم به وقت غشيانه، وأتى بصيغة المضارع لأنه يغشى شيئًا بعد شيء.

وأما النهار فإنه إذا طلعت الشمس ظهر وتجلى وهلة واحدة. ولهذا قال في سورة الشمس وضحاها: ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ﴾ [الشمس: ٣، ٤]. وأقسم به وقت سريانه كما تقدم. وأقسم به وقت إدباره. وأقسم به إذا عسعس. فقيل معناه أدبر، فيكون مطابقًا لقوله: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴾ [المدثر: ٣٣، ٣٤] وقيل: معناه أقبل، فيكون كقوله: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ ﴾ فيكون قد أقسم بإقبال الليل والنهار. وعلى الأول يكون القسم واقعًا على انصرام الليل ومجيء النهار عقيبه، وكلاهما من آيات ربوبيته.

ثم أقسم بخلق الذكر والأنثى، وذلك يتضمن الإقسام بالحيوان كله على اختلاف أصنافه، ذكره وأنثاه، وقابل بين الذكر والأنثى، كما قابل بين الليل والنهار. وكل ذلك من آيات ربوبيته. فإن إخراج الليل والنهار بواسطة الأجرام العلوية، كإخراج الذكر والأنثى بواسطة الأجرام السفلية، فأخرج من الأرض ذكور الحيوان وإناثه على

(١) ٣٥ التبيان.

اختلاف أنواعها، كما أخرج من السماء الليل والنهار، بواسطة الشمس فيها.

وأقسم سبحانه بزمان السعي، وهو الليل والنهار، وبالساعي، وهو الذكر والأنثى، على اختلاف السعي، كما اختلف الليل والنهار، والذكر والأنثى، وسعيه وزمانه مختلف، وذلك دليل على اختلاف جزائه وثوابه، وأنه سبحانه لا يسوي بين من اختلف سعيه في الجزاء، كما لم يسو بين الليل والنهار والذكر والأنثى.

ثم أخبر عن تفريقه بين عاقبة سعي المحسن وعاقبة سعي المسيء.

فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥، ١٠].

فتضمنت الآيتان ذكر شرعه، وذكر الأعمال وجزائها، وحكمة القدر في تيسير هذا لليسرى، وهذا للعسرى، وأن العبد ميسر بأعماله لغاياتها، ولا يظلم ربك أحدًا. وذكر للتيسير لليسرى ثلاثة أسباب:

أحدها: إعطاء العبد، وحذف مفعول الفعل إرادة للإطلاق والتعميم، أي أعطى ما أمر به وسمحت به طبيعته وطاوعته نفسه، وذلك يتناول إعطاءه من نفسه الإيمان والطاعة، والإخلاص، والتوبة، والشكر، وإعطاءه الإحسان، والنفع بماله، ولسانه وبدنه، ونيته، وقصده، فتكون نفسه نفسًا مطيعة باذلة، لا لئيمة مانعة.

فالنفس المطيعة هي النافعة المحسنة، التي طبعها الإحسان وإعطاء الخير اللازم والمتعدي، فتعطي خيرها لنفسها ولغيرها، فهي بمنزلة العين التي ينتفع الناس بشربهم منها، وسقي دوابهم وأنعامهم وزرعهم، فهم ينتفعون بها كيف شاءوا، فهي ميسرة لذلك، وهكذا الرجل المبارك ميسر للنفع حيث حل. فجزاء هذا أن ييسره الله لليسرى، كما كانت نفسه ميسرة للعطاء.

السبب الثاني: التقوى، وهي اجتناب ما نهى الله عنه، وهذا من أعظم أسباب التيسير، وضده من أسباب التعسير، فالمتقي ميسرة عليه أمور دنياه وآخرته، وتارك التقوى وإن يسرت عليه بعض أمور دنياه تعسر عليه من أمور آخرته بحسب ما تركه من التقوى.

وأما تيسير ما تيسر عليه من أمور الدنيا، فلو اتقى الله لكان تيسيرها عليه أتم، ولو قدر أنها لم تتيسر له فقد يسر الله له من الدنيا ما هو أنفع له مما ناله بغير التقى، فإن طيب العيش، ونعيم القلب، ولذة الروح، وفرحها وابتهاجها من أعظم نعيم الدنيا، وهو أجل من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذات.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤] فأخبر أنه ييسر على المتقي ما لا ييسر على غيره. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. وهذا أيضًا ييسر عليه بتقواه، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ [الطلاق: ٥]. وهذا يتيسر عليه بإزالة ما يخشاه، وإعطائه ما يحبه ويرضاه. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ [الأنفال: ٢٩]. وهذا يتيسر بالفرقان المتضمن النجاة، والنصر، والعلم، والنور، والفارق بين الحق والباطل، وتكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وذلك غاية التيسير. وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠]. والفلاح غاية اليسر، كما أن الشقاء غاية العسر. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ [الحديد: ٢٨] فضمن لهم سبحانه بالتقوى ثلاثة أمور:

أحدها: أعطاهم نصيبين من رحمته: نصيبًا في الدنيا، ونصيبًا في الآخرة. وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة فيصير نصيبين.

الثاني: أعطاهم نورًا يمشون به في الظلمات.

الثالث: مغفرة ذنوبهم، وهذا غاية التيسير، فقد جعل سبحانه التقوى سببًا لكل يسر، وترك التقوى سببًا لكل عسر.

السبب الثالث: التصديق بالحسنى، وفسرت بلا إله إلا الله. وفسرت بالجنة، وفسرت بالخلف، وهي أقوال السلف. واليسرى صفة لموصوف محذوف أي:

الحالة والخلة اليسرى، وهي فعلى من اليسرى.

والأقوال الثلاثة ترجع إلى أفضل الأعمال، وأفضل الجزاء، فمن فسرها بلا إله إلا الله فقد فسرها بمفرد يأتي بكل جمع. فإن التصديق الحقيقي بلا إله إلا الله يستلزم التصديق بشعبها وفروعها كلها، وجميع أصول الدين وفروعه من شعب هذه الكلمة. فلا يكون العبد مصدقًا بها حقيقة التصديق حتى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه.

ولا يكون مؤمنًا بالله إله العالمين حتى يؤمن بصفات جلاله ونعوت كماله.

ولا يكون مؤمنًا بأن الله لا إله إلا هو حتى يسلب خصائص الإلهية عن كل موجود سواه، ويسلها عن اعتقاده وإرادته، كما هي منفية في الحقيقة والخارج.

ولا يكون مصدقًا بها من نفى الصفات العليا، ولا من نفى كلامه وتكليمه، ولا من نفى استواءه على عرشه، وأنه يرفع إليه الكلم الطيب والعمل الصالح، وأنه رفع المسيح إليه، وأسرى برسوله ﷺ، إليه، وأنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه، إلى سائر ما وصف به نفسه، وما وصفه به رسوله ﷺ.

ولا يكون مؤمنًا بهذه الكلمة مصدقًا بها على الحقيقة من نفى عموم خلقه لكل شيء، وقدرته على كل شيء، وعلمه بكل شيء، وبعثه الأجساد من القبور ليوم النشور.

ولا يكون مصدقًا بها من زعم أنه يترك خلقه سدى، لم يأمرهم ولم ينههم على ألسنة رسله. وكذلك التصديق بها يقتضي الإذعان والإقرار بحقوقها، وهي شرائع الإسلام التي هي تفصيل هذه الكلمة بالتصديق بجميع أخباره، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وهو تفصيل لا إله إلا الله.

فالمصدق بها على الحقيقة الذي يأتي بذلك كله. وكذلك لم تحصل عصمة المال والدم على الإطلاق إلا بها وبالقيام بحقها، وكذلك لا تحصل النجاة من العذاب على الإطلاق إلا بها وبحقها، فالعقوبة في الدنيا والآخرة على تركها، أو ترك حقها.

ومن فسر الحسنىٰ بالجنة فسرها بأعلىٰ أنواع الجزاء وكماله. ومن فسرها بالخلف ذكر نوعًا من الجزاء. فهذا جزاء دنيوي، والجنة الجزاء في الآخرة، فرجع التصديق بالحسنىٰ إلىٰ التصديق بالإيمان وجزائه. والتحقيق أنها تتناول الأمرين.

وتأمل ما اشتملت عليه هذه الكلمات الثلاث - وهي الإعطاء، والتقوىٰ، والتصديق بالحسنىٰ، من العلم والعمل، وتضمنته من الهدىٰ ودين الحق. فإن النفس لها ثلاث قوىٰ: قوة البذل والإعطاء، وقوة الكف والامتناع، وقوة الإدراك والفهم. ففيها قوة العلم والشعور ويتبعها قوة الحب والإرادة، وقوة البغض والنفرة.

فهذه القوىٰ الثلاثة عليها مدار صلاحها وسعادتها، وبفسادها يكون فسادها وشقاوتها. ففساد قوة العلم والشعور يوجب له التكذيب بالحسنىٰ. وفساد قوة الحب والإرادة يوجب له ترك الإعطاء. وفساد قوة البغض والنفرة يوجب له ترك الاتقاء.

فإذا كملت قوة حبه وإرادته بإعطائه ما أمر به، وقوة بغضه ونفرته باتقائه ما نهي عنه، وقوة علمه وشعوره بتصديقه بكلمة الإسلام وحقوقها وجزائها، فقد زكىٰ نفسه، وأعدها لكل حالة يسرىٰ، فصارت النفس بذلك ميسرة لليسرىٰ.

ولما كان الدين يدور علىٰ ثلاث قواعد: فعل المأمور، وترك المحظور، وتصديق الخبر. وإن شئت قلت: الدين طلب وخبر، والطلب نوعان: طلب فعل، وطلب ترك. فقد تضمنت هذه الكلمات الثلاث مراتب الدين أجمعها: فالإعطاء فعل المأمور، والتقوىٰ ترك المحظور، والتصديق بالحسنىٰ تصديق الخبر. فانتظم ذلك الدين كله.

وأكمل الناس من كملت له هذا القوىٰ الثلاث، ودخول النقص بحسب نقصانها أو بعضها. فمن الناس من يكون قوة إعطائه وبذله أتم من قوة انكفافه وترك، فقوة الترك فيه أضعف من قوة الإعطاء. ومن الناس من يكون قوة الترك والانكفاف فيه أتم من قوة الإعطاء والمنع. ومن الناس من يكون فيه قوة التصديق أتم من قوة الإعطاء والمنع، فقوته العلمية والشعورية أتم من قوته الإرداية وبالعكس، فيدخل النقص بحسب ما نقص من قوة هذه القوىٰ الثلاث، ويفوته من التيسير لليسرىٰ

بحسب ما فاته منها، ومن كملت له هذه القوىٰ يسر لكل يسرىٰ.

قال ابن عباس: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٧] أي نهيئه لعمل الخير، تيسر عليه أعمال الخير. وقال مقاتل، والكلبي، والفراء: نيسره للعود إلىٰ العمل الصالح.

وحقيقة اليسرىٰ: أنها الخلة والحالة السهلة النافعة الواقعة له، وهي ضد العسرىٰ، وذلك يتضمن تيسيره للخير وأسبابه، فيجري الخير وييسر علىٰ قلبه ويديه ولسانه وجوارحه، فتصير خصال الخير ميسرة عليه، مذللة له منقادة، لا تستعصى عليه، ولا تستصعب، لأنه مهيأ لها، ميسر لفعلها. يسلك سبلها ذللًا، وتقاد له علمًا وعملًا. فإذا خاللته قلت هو الذي قيل فيه:

مبارك الطلعة ميمونها يصلح للدنيا وللدين

﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ ﴾ فعطل قوة الإرادة والإعطاء عن فعل ما أمر به ﴿ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴾ بترك التقوىٰ عن ربه، فعطل قوة الانكفاف والترك عن فعل ما نهي عنه ﴿ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ فعطل قوة العلم والشعور عن التصديق بالإيمان وجزائه ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٨ـ ١٠] قال عطاء: سوف أحول بين قلبه وبين الإيمان بي وبرسولي.

وقال مقاتل: يعسر عليه أن يعطي خيرًا. وقال عكرمة، عن ابن عباس: نيسره للشر. قال الواحدي: وهذا هو القول، لأن الشر يؤدي إلىٰ العذاب، فهو الخلة العسرىٰ. والخير يؤدي إلي اليسر. والراحة في الجنة، فهو الخلة اليسرىٰ، يقول: سنهيؤه للشر، بأن يجريه علىٰ يديه. قال الفراء: العرب تقول: قد يسرت غنم فلان، إذا تهيأت للولادة، وكذلك إذا ولدت وغزرت ألبانها، أي: يسرت ذلك علىٰ أصحابها. انتهى.

والتيسير للعسرىٰ يكون بأمرين:

أحدهما: أن يحول بينه وبين أسباب الخير، فيجري الشر علىٰ قلبه ونيته ولسانه وجوارحه.

والثاني: أن يحول بينه وبين الجزاء الأيسر، كما حال بينه وبين أسبابه.

فإن قيل: كيف قابل اتقى باستغنى؟ وهل يمكن العبد أن يستغني عن ربه طرفة عين؟

قيل: هذا من أحسن المقابلة، فإن المتقي لما استشعر فقره وفاقته وشدة حاجته إلى ربه اتقاه، ولم يتعرض لسخطه وغضبه ومقته بارتكاب ما نهاه عنه. فإن من كان شديد الحاجة والضرورة إلى شخص، فإنه يتقي غضبه وسخطه عليه غاية الاتقاء، ويجانب ما يكرهه غاية المجانبة، ويعتمد فعل ما يحبه ويؤثره. فقابل التقوى بالاستغناء تبشيعًا لحال تارك التقوى، ومبالغة في ذمه، بأن فَعَلَ فِعْلَ المستغني عن ربه، لا فعل الفقير المضطر إليه الذي لا ملجأ له إلا إليه، ولا غنى له عن فضله وجوده وبره طرفة عين. فلله ما أحلى هذه المقابلة! وما أجمع هاتين الآيتين للخيرات كلها وأسبابها، والشرور كلها وأسبابها!!

فسبحان من تعرف إلى خصائص عباده بكلامه، وتجلى لهم فيه، فهم لا يطلبون أثرًا بعد عين، ولا يستبدلون الحق بالباطل، والصدق بالمين.

وقد تضمنت هاتان الآيتان فصل الخطاب في مسألة القدر، وإزالة كل لبس وإشكال فيها. وذلك بين بحمد الله لمن وفق لفهمه. ولهذا أجاب بها النبي ﷺ، من أورد عليه السؤال الذي لا يزال الناس يلهجون به في القدر. فأجاب بفصل الخطاب وأزال الإشكال.

ففي الصحيحين من حديث علي بن أبي طالب ﷺ عن النبي ﷺ، أنه قال: «**ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة والنار**» قيل: يا رسول الله! أفلا ندع العمل، ونتكل على الكتاب؟ قال: «**اعملوا، فكل ميسر لما خلق له**» ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾[1].

فقد تضمن هذا الحديث الرد على القدرية والجبرية، وإثبات القدر والشرع،

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٩٤٥، ٤٩٤٧) ومسلم (رقم ٢٦٤٧) وانظر: فتح الباري (٨/ ٧٠٨).

وإثبات الكتاب الأول المتضمن لعلم الله سبحانه الأشياء قبل كونها، وإثبات خلق الفعل الجزائي. وهو يبطل أصول القدرية الذين يمنعون خلق الفعل مطلقًا، ومن أقر منهم بخلق فعل الجزاء دون الابتداء هدم أصله، ونقض قاعدته.

والنبي ﷺ، أخبر بمثل ما أخبر به الرب تعالى: «أن العبد ميسر لما خلق له» لا مجبور، فالجبر لفظ بدعي، والتيسير لفظ القرآن والسنة.

وفي الحديث دلالة على أن الصحابة كانوا أعلم الناس بأصول الدين. فإنهم تلقوها عن أعلم الخلق بالله على الإطلاق. وكانوا إذا استشكلوا شيئًا سألوه عنه، وكان يجيبهم بما يزيل الإشكال، ويبين الصواب، فهم العارفون بأصول الدين حقًا، لا أهل البدع والأهواء من المتكلمين ومن سلك سبيلهم.

وفي الحديث استدلال النبي ﷺ على مسائل أصول الدين بالقرآن، وإرشاده الصحابة لاستنباطها منه، خلافًا لمن زعم أن كلام الله ورسوله لا يفيد العلم بشيء من أصول الدين، ولا يجوز أن تستفاد معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله منه. وعبر عن ذلك بقوله: الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين.

وفي الحديث بيان أن من الناس من خلق للسعادة، ومنهم من خلق للشقاوة، خلافًا لمن زعم أنهم كلهم خلقوا للسعادة، ولكن اختاروا الشقاوة، ولم يخلقوا لها.

وفيه إثبات الأسباب، وأن العبد ميسر للأسباب الموصلة له إلى ما خلق له. وفيه دليل على اشتقاق السنة من الكتاب، ومطابقتها له.

فتأمل قوله ﷺ: «اعملوا، فكل ميسر لما خلق له» ومطابقته لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ إلى آخر الآيتين، كيف انتظم الشرع والقدر، والسبب والمسبب؟ وهذا الذي أرشد إليه النبي ﷺ، هو الذي فطر الله عليه عباده، بل الحيوان البهيم، بل مصالح الدنيا وعمارتها بذلك.

فلو قال كل أحد: إن قدر لي كذا وكذا فلابد أن أناله. وإن لم يقدر فلا سبيل إلى نيله، فلا أسعى ولا أتحرك، لعد من السفهاء الجهال، ولم يمكنه طرد ذلك أبدًا، وإن أتى به

في أمر معين. فهل يمكنه أن يطرد ذلك من مصالحه جميعها، من طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه. وهروبه مما يضاد بقاءه وينافي مصالحه، أم يجد نفسه غير منفكة البتة عن قول النبي ﷺ: «اعلموا، فكل ميسر لما خلق له له». فإذا كان هذا في مصالح الدنيا، وأسباب منافعها، فما الموجب لتعطيله في مصالح الآخرة، وأسباب السعادة والفلاح فيها، ورب الدنيا والآخرة واحد، فكيف يعطل ذلك في شرع الرب وأمره ونهيه، ويستعمل في إرادة العبد وأغراضه وشهواته.

وهل هذا إلا محض الظلم والجهل، والإنسان ظلوم جهول، ظلوم لنفسه، جهول بربه. فهذا الذي أرشد إليه النبي ﷺ وتلا عنده هاتين الآيتين، موافقًا لما جعله الله في عقول العقلاء، وركب عليه فطر الخلائق، حتى الحيوان البهيم، وأرسل به جميع رسله، وأنزل به جميع كتبه.

ولو اتكل العبد على القدر ولم يعمل لتعطلت الشرائع، وتعطلت مصالح العالم، وفسد أمر الدنيا والدين. وإنما يستروح إلي ذلك معطلو الشرائع، ومن خلع ربقة الأوامر والنواهي من عنقه. وذلك ميراث من إخوانهم المشركين الذين دفعوا أمر الله ونهيه، وعارضوا شرعه بقضائه وقدره، كما حكى الله سبحانه ذلك عنهم في غير موضع من كتابه.

كقوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨-١٤٩]. وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النحل: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾

[الزخرف: ٢٠] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٤٧].

فإن قيل: فالإعطاء، والتقوى، والتصديق بالحسنى، هي من اليسرى، بل هي أصل اليسرى، من يسرها للعبد أولًا؟ وكذلك أضدادها؟

قيل: الله ـ سبحانه ـ هو الذي يسر للعبد أسباب الخير والشر وخلق خلقه قسمين: أهل السعادة، فيسرهم لليسرى، وأهل شقاوة، فيسرهم للعسرى. واستعمل هؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها، لا يصلحون لسواها، وهؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها لا يصلحون لسواها، وحكمته الباهرة تأبى أن يضع عقوبته في موضع لا تصلح له. كما يأبى أن يضع كرامته وثوابه في محل لا يصلح لهما، ولا يليق بهما. بل حكمة آحاد خلقه تأبى ذلك. ومن جعل محل المسك والرجيع واحدًا فهو من أسفه السفهاء.

(١)إن سبق المقادير بالشقاوة والسعادة لا يقتضي ترك الأعمال، بل يقتضي الاجتهاد والحرص. يسبق إلى أفهام كثير من الناس أن القضاء والقدر إذا كان قد سبق فلا فائدة في الأعمال، وأن ما قضاه الرب سبحانه وقدره لا بد من وقوعه؛ فتوسط العمل لا فائدة فيه، قد سبق إيراد هذا السؤال من الصحابة على النبي ﷺ، فأجابهم بما فيه الشفاء والهدى.

ففي الصحيحين عن علي بن أبي طالب قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رسول الله ﷺ ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: «**ما منكم من أحد ما من نفس منفوسة، إلا كتب مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتب شقية أو سعيدة**» فقال رجل: يا رسول الله! أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل، فمن كان منا من أهل السعادة فيصير إلى عمل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل

(١) ٢٤ شفاء.

أهل الشقاوة؟ فقال: «اعملوا فكل ميسر، وأما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة» ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٥- ١٠] وفي بعض طرق البخاري: أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل، فمن كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة؟[١]

وعن أبي الزبير عن جابر بن عبدالله قال: جاء سراقة بن مالك بن جعشم فقال: يا رسول الله بين لنا ديننا كأننا خلقنا الآن. فيم العمل اليوم، أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما يستقبل؟ قال: «لا، بل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير»، قال: ففيم العمل؟ فقال: «اعملوا، فكل ميسر»[٢] رواه مسلم.

وعن عمران بن حصين قال: قيل: يا رسول الله! أعلم أهل الجنة من أهل النار؟ فقال: «نعم»، قيل: ففيم يعمل العاملون؟ فقال: «كل ميسر لما خلق له» متفق عليه. وفي بعض طرق البخاري: «كل يعمل لما خلق له، أو لما يسر له»[٣].

ورواه الإمام أحمد أطول من هذا، فقال: ثنا صفوان بن عيسى ثنا عزرة بن ثابت عن يحيى بن عقيل عن أبي نعيم عن أبي الأسود الدؤلي قال: غدوت على عمران بن حصين يومًا من الأيام فقال: إن رجلًا من جهينة أم مزينة أتى إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، شيء قضي عليهم أو مضى عليهم في قدر قد سبق أو فيما يستقبلونه مما أتاهم به نبيهم واتخذت عليهم الحجة؟ قال: «بل شيء قضي عليهم» قال: فلم يعملون إذًا يا رسول الله؟ قال: «من كان الله

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٣٦٢) ومسلم (رقم ٢٦٤٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٩٦).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٤٨) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٩٢، ٤٩٧).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٩٦) ومسلم (رقم ٢٦٤٩) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٩٣).

ﷻ خلقه لواحدة من المنزلتين فهيأه لعملها وتصديق ذلك في كتاب الله» ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[1] [الشمس: ٧، ٨].

وقال المحاملي: ثنا أحمد بن المقدام ثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعت أبا سفيان يحدث عن عبدالله بن دينار عن عبدالله بن عمر أنه قال: نزل: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥] فقال عمر: يا نبي الله علام نعمل: على أمر قد فرغ منه، أو لم يفرغ منه؟ قال: «لا، على أمر قد فرغ منه، قد جرت به الأقلام، ولكن كل ميسر» ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾[2] [الليل: ٥-١٠] فاتفقت هذه الأحاديث ونظائرها على أن القدر السابق لا يمنع العمل ولا يوجب الاتكال عليه، بل يوجب الجد والاجتهاد، ولهذا لما سمع بعض الصحابة ذلك قال: ما كنت أشد اجتهادًا مني الآن؛ وهذا مما يدل على جلالة فقه الصحابة ودقة أفهامهم وصحة علومهم، فإن النبي ﷺ، أخبرهم بالقدر السابق وجريانه على الخليقة بالأسباب، فإن العبد ينال ما قدر له بالسبب الذي أقدر عليه، ومكن منه وهيء له، فإذا أتى بالسبب أوصله إلى القدر الذي سبق له في أم الكتاب، وكلما زاد اجتهادًا في تحصيل السبب كان حصول المقدور أدنى إليه.

وهذا كما إذا قدر له أن يكون من أعلم أهل زمانه فإنه لا ينال ذلك إلا بالاجتهاد والحرص على التعلم وأسبابه. وإذا قدر له أن يرزق الولد لم ينل ذلك إلا بالنكاح أو التسري والوطيء. وإذا قدر له أن يستغل من أرضه من المغل كذا وكذا لم ينله إلا بالبذر وفعل أسباب الزرع. وإذا قدر الشبع والري فذلك موقوف على الأسباب

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٣٨).

(٢) أخرجه الروياني (٢/ ٤١٨ رقم ١٤٢٦) والطبراني في مسند الشاميين (٣/ ١٦-١٧ رقم ١٧١٠) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١٠٦٧) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٧٤ رقم ١٧٠).

المحصلة لذلك من الأكل والشرب واللبس.

وهذا شأن أمور المعاش والمعاد، فمن عطل العمل اتكالًا على القدر السابق فهو بمنزلة من عطل الأكل والشرب والحركة في المعاش وسائر أسبابه اتكالًا على ما قدر له.

وقد فطر الله سبحانه عباده على الحرص على الأسباب التي بها مرام معاشهم ومصالحهم الدنيوية، بل فطر الله على ذلك سائر الحيوانات، فهكذا الأسباب التي بها مصالحهم الأخروية في معادهم، فإنه سبحانه رب الدنيا والآخرة، وهو الحكيم بما نصبه من الأسباب في المعاش والمعاد، وقد يسر كلا من خلقه لما خلقه له في الدنيا والآخرة فهو مهيأ له ميسر له.

فإذا علم العبد أن مصالح آخرته مرتبطة بالأسباب الموصلة إليها كان أشد اجتهادًا في فعلها من القيام بها منه أسباب معاشه ومصالح دنياه، وقد فقه هذا كل الفقه من قال: ما كنت أشد اجتهادًا مني الآن.

فإن العبد إذا علم أن سلوك هذا الطريق يقضي به إلى رياض مونقة وبساتين معجبة ومساكن طيبة ولذة ونعيم لا يشوبه نكد ولا تعب كان حرصه على سلوكها واجتهاده في السير فيها بحسب علمه بما يفضي إليه.

لهذا قال أبو عثمان النهدي لسلمان: لأنا بأول هذا الأمر أشد فرحًا مني بآخره، وذلك لأنه إذا كان قد سبق له من الله سابقة، وهيَّأه ويسَّره للوصول إليها كان فرحه بالسابقة التي سبقت له من الله أعم من فرحه بالأسباب التي تأتي بها، فإنها سبقت له من الله قبل الوسيلة منه، وعلمها الله وشاءها وكتبها وقدرها وهيأ له أسبابها لتوصله إليها، فالأمر كله من فضله وجوده السابق، فسبق له من الله سابقة السعادة ووسيلتها وغايتها، فالمؤمن من أشد فرحًا بذلك ن كون أمره مجعولًا إليه، كما قال بعض السلف: والله ما أحب أن يجعل أمري إليَّ، إنه إذا كان بيد الله خيرًا من أن يكون بيدي، فالقدر السابق معين على الأعمال وما يحث عليها ومقتض لها، لا أنه مناف لها وصاد عنها، وهذا موضع مزلة قدم من ثبتت قدمه فاز بالنعيم المقيم، ومن زلت قدمه

عنه هوى إلى قرار الجحيم؛ فالنبي ﷺ، أرشد الأمة في القدر إلى أمرين هما سببا السعادة، الإيمان بالأقدار، فإنه نظام التوحيد، والإتيان بالأسباب التي توصل إلى خيره، وتحجز عن شره، وذلك نظام الشرع، فأرشدهم إلى نظام التوحيد والأمر، فأبى المنحرفون إلا القدح بإنكاره في أصل التوحيد أو القدح بأثباته في أصل الشرع، ولم تتسع عقولهم التي لم يلق الله عليها من نوره للجمع بين ما جمعت الرسل جميعهم بينه، وهو القدر والشرع والخلق والأمر، وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. والنبي ﷺ، شديد الحرص على جمع هذين الأمرين للأمة، وقد تقدم قوله: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز**»(١) وإن العاجز من لم يتسع للأمرين، وبالله التوفيق.

(٢)فإن قيل: فَلِمَ جعل هذا لا يليق به إلا الكرامة، وهذا لا يليق به إلا الإهانة؟ قيل: هذا سؤال جاهل، لا يستحق الجواب، كأنه يقول: لم خلق الله كذا وكذا؟ فإن قيل: وعلى هذا، فهل لهذا الجاهل من جواب، لعله يُشفَى من جهله؟

قيل: نعم، شأن الربوبية خلق الأشياء وأضدادها، وخلق الملزومات ولوازمها، وذلك هو محض الكمال، فالعلو لازم وملزوم للسفل، والليل لازم وملزوم للنهار، وكمال هذا الوجود بالحر والبر، والصحو والغيم.

ومن لوازم الطبيعة الحيوانية: الصحة والمرض، واختلاف الإرادات والمرادات، ووجود اللازم بدون ملزومه ممتنع.

ولولا خلق المتضادات لما عرف كمال القدرة والمشيئة والحكمة، ولما ظهرت أحكام الأسماء والصفات. وظهور أحكامها وآثارها لا بد منه، إذ هو مقتضى الكمال المقدس، والملك التام.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٦٤) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٢٢٧-٢٣٠) وشرح النووي (١٦/ ٢١٥).
(٢) ٤٣ التبيان.

وإذا أعطيت اسم الملك حقه ـ ولن تستطيع ـ علمت أن الخلق والأمر، والثواب والعقاب والعطاء والحرمان، أمر لازم لصفة الملك،وأن صفة الملك تقتضي ذلك ولابد، وأن تعطيل هذه الصفة أمر ممتنع.

فالملك الحق يقتضي إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وأمر العباد، ونهيهم، وثوابهم، وعقابهم، وإكرام من يستحق الإكرام، وإهانة من يستحق الإهانة.

كما تستلزم حياة الملك، وعلمه، وإرادته، وقدرته، وسمعه، وبصره، وكلامه، ورحمته، ورضاه، وغضبه، واستواءه على سرير ملكه، يدبر أمر عباده. وهذه الإشارة تكفي اللبيب في مثل هذا الموضع، ويطلع منها على أرض مونقة، وكنوز من المعرفة، وبالله التوفيق.

***

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾.

قيل: معناه، إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال، قال قتادة: على الله البيان، بيان حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته. اختاره أبو إسحاق، وهو قول مقاتل، وجماعة، وهذا المعنى حق. ولكن مراد الآية شيء آخر.

وقيل: المعنى: إن علينا للهدى والإضلال، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في رواية عطاء: يريد، أرشد أوليائي إلى العمل بطاعتي، وأحول بين أعدائي وبين أن يعملوا بطاعتي. قال الفراء: فترك ذكر الإضلال، كما قال: ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ [النحل: ٨١] أي والبرد: وهذا أضعف من القول الأول. وإن كان معناه صحيحًا. فليس هو معنى الآية.

وقيل، المعنى: من سلك الهدى فعلى الله سبيله، كقوله: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ [الحجر: ٩] وهذا قول مجاهد، وهو أصح الأقوال في الآية. قال الواحدي: علينا للهدى، أي: إن الهدى يوصل صاحبه إلى الله، وإلى ثوابه وجنته.

وهذا المعنى في القرآن في ثلاثة مواضع: ههنا، وفي النحل في قوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وفي الحجر في قوله: ﴿ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [الحجر: ٤١]، وهو معنى شريف جليل، يدل على أن سالك طريق الهدى يوصله طريقه إلى الله ولا بد. والهدى هو: الصراط المستقيم، فمن سلكه أوصله طريقه إلى الله فذكر الطريق والغاية. فالطريق الهدى، والغاية الوصول إلى الله.

فهذه أشرف الوسائل، وغايتها أعلى الغايات. ولما كان مطلوب السالك إلى الله تحصيل مصالح دنياه وآخرته لم يتم له هذا المطلوب إلا بتوحيد طلبه والمطلوب منه. فأعلمه سبحانه أن سواه لا يملك من الدنيا والآخرة شيئًا. وأن الدنيا والآخرة جميعًا له وحده. فإذا تيقن العبد ذلك اجتمع طلبه ومطلوبه على من يملك الدنيا والآخرة وحده.

فتضمنت الآيتان أربعة أمور، هي المطالب العالية: ذكر أعلى الغايات. وهو الوصول إلى الله سبحانه وأقرب الطريق والوسائل إليه، وهي طريقة الهدى. وتوحيد الطريق فلا يعدل عنها إلى غيرها. وتوحيد المطلوب، وهو الحق. فلا يعدل عنه إلى غيره. فاقتبس هذه الأمور من مشكاة هذه الكلمات، فإن هذه غاية العلم والفهم. وبالله التوفيق.

***

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ ﴾.

الهدى التام يتضمن توحيد المطلوب، وتوحيد الطلب، وتوحيد الطريق الموصلة. والانقطاع. وتخلف الوصول يقع من الشركة في هذه الأمور، أو في بعضها. فالشركة في المطلوب تنافي التوحيد والإخلاص، والشركة في الطلب تنافي الصدق والعزيمة، والشركة في الطريق تنافي اتباع الأمر.

فالأول: يوقع في الشرك والرياء.

والثاني: يوقع في المعصية والبطالة.

والثالث: يوقع في البدعة ومفارقة السنة. فتأمله.

فتوحيد المطلوب يعصم من الشرك، وتوحيد الطلب يعصم من المعصية، وتوحيد الطريق يعصم من البدعة. والشيطان إنما ينصب فخه بهذه الطرق الثلاثة. ولما أقام سبحانه الدليل، وأنار السبيل، وأوضح الحجة، وبين المحجة، أنذر عباده عذابه الذي أعده لمن كذب خبره، وتولى عن طاعته. وجعل هذا الصنف من الناس هم أشقاهم، كما جعل أسعدهم أهل التقوى والإحسان والإخلاص. فهذا الصنف هو الذي يجنب عذابه. كما قال: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٧-١٨] فهذا المتقي المحسن لا يفعل ذلك إلا ابتغاء وجه ربه، فهو مخلص في تقواه وإحسانه.

وفي الآية الإرشاد إلى أن صاحب التقوى لا ينبغي له أن يتحمل من الخلق ونعمهم، وإن حمل منهم شيئًا بادر إلى جزائهم عليه، لئلا يتبقى لأحد من الخلق عليه نعمة تجزى، فيكون بعد ذلك عمله كله لله وحده، ليس للمخلوق جزاء على نعمته. ونبه بقوله: ﴿تُجْزَىٰ﴾ على أن نعمة الإسلام التي لرسول الله ﷺ، على هذا الأتقى لا تجزى، فإن كل ذي نعمة يمكن جزاء نعمته إلا نعمة الإسلام، فإنها لا يمكن المنعم بها عليه أن يجزى بها.

وهذا يدل على أن الصديق ﷺ أول وأولى من ذكر في هذه الآية، وأنه أحق الأمة بها. فإن عليًا ﷺ تربى في بيت النبي ﷺ، فلرسول الله ﷺ، عنده نعمة غير نعمة الإسلام، يمكن أن تجزى.

ونبه سبحانه بقوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ٢٠] على أن من ليس لمخلوق عليه نعمة تجزى لا يفعل ما يفعله إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. بخلاف من

تطوق نعم المخلوقين ومننهم، فإنه مضطر إلى أن يفعل لأجلهم، ويترك لأجلهم.

ولهذا كان من كمال الإخلاص أن لا يجعل العبد عليه منة لأحد من الناس، لتكون معاملته كلها لله ابتغاء وجهه، وطلب مرضاته، فكما أن هذه الغاية أعلى الغايات وهذا المطلوب أشرف المطالب، فهذا الطريق أقصر الطرق إليه، وأقربها وأقومها. وبالله التوفيق

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الليل

والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الضُّحَىٰ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾.

[(1)] إقسامه سبحانه: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١، ٢] على إنعامه على رسوله ﷺ، وإكرامه له، وإعطائه ما يرضيه، وذلك متضمن لتصديقه له، فهو قسم على صحة نبوته، وعلى جزائه في الآخرة، فهو قسم على النبوة والمعاد، وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته دالتين على ربوبيته، وحكمته، ورحمته، وهما الليل والنهار.

فتأمل مطابقة هذا القسم، وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل للمقسم عليه، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه: ودع محمدًا ربُّه. فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه.

وأيضًا فإن فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار، وهو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة، فهذان للحسن، وهذان للعقل.

وأيضًا فإن الذي اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمدًا، بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم، لا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغي، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم.

فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه. وتأمل هذه الجزالة والرونق الذي على هذه الألفاظ، والجلالة التي على معانيها.

ونفى سبحانه أن يكون ودع نبيه أو قلاه، فالتوديع الترك، والقلى البغض، فما تركه منذ اعتنى به وأكرمه، ولا أبغضه منذ أحبه. وأطلق سبحانه أن الآخرة خير له من

---

(١) ٤٦ التبيان.

الأولى، وهذا يعم كل حالة يرقيه إليها هي خير له مما قبلها، كما أن الدار الآخرة خير له مما قبلها، ثم وعده بما تقر به عينه، وتفرح به نفسه، وينشرح به صدره، وهو أن يعطيه فيرضى، وهذا يعم ما يعطيه من القرآن، والهدى، والنصر، وكثرة الاتباع، ورفع ذكره، وإعلاء كلمته، وما يطعيه بعد مماته، وما يعطيه في موقف القيامة، وما يعطيه في الجنة.

وأما ما يغتر به الجهال، من أنه لا يرضى وواحد من أمته في النار، أو لا يرضى أن يدخل أحد من أمته النار!! فهذا من غرور الشيطان لهم، ولعبه بهم، فإنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يرضى بما يرضى به ربه ـ تبارك وتعالى ـ.

وهو سبحانه يدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة، ثم يحد لرسوله حدًا يشفع فيهم، ورسوله أعرف به وبحقه من أن يقول: لا أرضى أن يدخل أحدًا من أمتي النار على أن يدعه فيها، بل ربه ـ تبارك وتعالى ـ يأذن له، وفيشفع فيمن شاء الله أن يشفع فيه، ولا يشفع في غير من أذن له فيه ورضيه.

***

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝ ﴾.

[(١)]...منهم من يغتر بفهم فاسد فهمه هو وأضرابه من نصوص القرآن والسنة فاتكلوا عليه: كاتكال بعضهم على قوله تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى:٥] قال: وهو لا يرضى أن يكون في النار أحد من أمته. وهذا من أقبح الجهل وأبين الكذب عليه. فإنه ﷺ، يرضى بما يرضى به ربه ﷻ والله تعالى يرضيه تعذيب الظلمة والفسقة والخونة والمصرين على الكبائر. فحاشا رسوله أن يرضى بما لا يرضى به ربه ـ تبارك وتعالى ـ. وكاتكال بعضهم على قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٥٣] وهذا أيضًا من أقبح الجهل، فإن الشرك داخل في هذه الآية وهو رأس الذنوب وأساسها. ولا خلاف أن هذه الآية في حق التائبين. فإنه يغفر ذنب كل

(١) ٢٣ الجواب الكافي.

تائب أي ذنب كان. ولو كان الآية في حق غير التائبين لبطلت نصوص الوعيد كلها. وأحاديث إخراج قوم من الموحدين من النار بالشفاعة. وهذا إنما أتى صاحبه من قلة علمه وفهمه. فإنه سبحانه ههنا عمم وأطلق، فعلم أنه أراد التائبين، وفي سورة النساء خصَّص وقيَّد، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦] فأخبر الله سبحانه أنه لا يغفر الشرك وأخبر أنه يغفر ما دونه. ولو كان هذا في حق التائب لم يفرق بين الشرك وغيره. وكاغترار بعض الجهال بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [الانفطار: ٦] فيقول: كرمه.

وقد يقول بعضهم: إنه لقن المغتر حجته. وهذا جهل قبيح، وإنما غره به الغرور؛ وهو الشيطان ونفسه الأمارة بالسوء وجهله وهواه.

وأتى سبحانه بلفظ الكريم، وهو السيد العظيم المطاع الذي لا ينبغي الاغترار به، ولا إهمال حقه. فوضع هذا المغتر الغرور في غير موضعه. واغتر بمن لا ينبغي الاغترار به. وكاغترار بعضهم بقوله تعالى في النار: ﴿ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [الليل: ١٥، ١٦]. وقوله: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤] ولم يدر هذا المغتر أن قوله: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ [الليل: ١٤] هي نار مخصوصة من جملة دركات جهنم، ولو كانت جميع جهنم فهو سبحانه لم يقل لا يدخلها، بل قال: ﴿ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴾ ولا يلزم من عدم صليها عدم دخولها، فإن الصلي أخص من الدخول، ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم. ثم هذا المغتر لو تأمل الآية التي بعدها لعلم أنه غير داخل فيها، فلا يكون مضمونًا له أن يجنبها. وأما قوله في النار: أعدت للكافرين فقد قال في الجنة: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ولا ينافي إعداد النار للكافرين أن تدخلها الفساق والظلمة. ولا ينافي إعداد الجنة للمتقين أن يدخلها من في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان ولم يعمل خيرًا قط.

وكاغترار بعضهم بالاعتماد على صوم يوم عاشوراء أو يوم عرفة حتى يقول

بعضهم: يوم عاشوراء يكفر ذنوب العام كلها، ويبقى صوم عرفة زيادة في الأجر. ولم يدر هذا المغتر أن صوم رمضان والصلوات الخمس أعظم وأجل من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء. وهي إنما تكفر ما بينهما إذا اجتنبت الكبائر. فرمضان والجمعة إلى الجمعة لا يقويان على تكفير الصغائر إلا مع انضمام ترك الكبائر إليها. فيقوى مجموع الأمرين على تكفير الصغائر. فكيف يكفر صوم تطوع كل كبيرة عملها العبد وهو مصر عليها غير تائب منها. هذا محال. على أنه لا يمتنع أن يكون صوم يوم عرفة ويوم عاشوراء مكفر لجميع ذنوب العام على عمومه، ويكون من نصوص الوعد التي لها شروط وموانع. ويكون إصراره على الكبائر مانعًا من التكفير، فإذا لم يصر على الكبائر تساعد الصوم وعدم الإصرار. وتعاونا على عموم التكفير. كما كان رمضان والصلوات والخمس مع اجتناب الكبائر متساعدين متعاونين على تكفير الصغائر. مع أنه سبحانه قد قال: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [النساء: ٣١] فعلم أن جعل الشيء سببًا للتكفير لا يمنع أن يتساعد هو وسبب آخر على التكفير، ويكون التكفير مع اجتماع السببين أقوى وأتم منه مع انفراد أحدهما، وكلما قويت أسباب التكفير كان أقوى وأتم وأشمل.

وكاتكال بعضهم على قوله ﷺ، حاكيًا عن ربه: «**أنا عند حسن ظني عبدي ربي، فليظن بي ما شاء**»(١) يعني: ما كان في ظنه فأنا فاعله به، ولا ريب أن حسن الظن إنما يكون مع الإحسان، فإن المحسن حسَّن الظن بربه أن يجازيه على إحسانه، ولا يخلف

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٠٥) ومسلم (رقم ٢٦٧٥) وليس فيهما: «فليظن بي ما شاء» وأخرج هذه اللفظة ابن حبان (٢/ ٤٠١ رقم ٦٣٣) والدارمي (رقم ٢٧٣١) وأحمد (٣/ ٤٩١) وابن المبارك في المسند (رقم ٣٩) والطبراني في الكبير (٢٢/ ٨٨ رقم ٢١١) وفي مسند الشامين (٢/ ٣٨٤ رقم ١٥٤٦) والبيهقي في الشعب (٢/ ٦ رقم ١٠٠٦) وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٣١٨): رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجال أحمد ثقات.

وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٨٥-٣٨٦) وشرح النووي (١٧/ ٢).

وعده، ويقبل توبته، وأما المسيء المصر على الكبائر والظلم والمخالفات، فإن وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنع من حسن الظن بربه، وهذا موجود في المشاهدة، فإن العبد الآبق المسيء الخارج عن طاعة سيده لا يحسن الظن به، ولا يجامع وحشة الإساءه إحسان الظن أبدًا. فإن المسيء مستوحش بقدر إساءته. وأحسن الناس ظنًا بربه أطوعهم له. كما قال الحسن البصري: إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل. وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل(١).

فكيف يكون حسن الظن بربه من هو شارد عنه، حال مرتحل في مساخطه وما يغضبه، متعرض للعنته، قد هان حقه وأمر عليه فأضاعه، وهان نهيه عليه فارتكبه وأصر عليه.

وكيف يحسن الظن به من بارزه بالمحاربة. وعادى أولياءه ووالى أعداءه. وجحد صفات كماله، وأساء الظن بما وصف به نفسه ووصفته به رسله، وظن بجهله أن ظاهر ذلك ضلال وكفر. وكيف يحسن الظن به من يظن أنه لا يتكلم ولايأمر ولا ينهى ولا يرضي ولا يغضب...

(٢)ثم ذكر سبحانه نعمه عليه من إيوائه بعد يتمه، وهدايته بعد الضلالة، وإغنائه بعد الفقر.فكان محتاجًا إلى من يؤويه ويهديه ويغنيه، فآواه ربه وهداه وأغناه. فأمره سبحانه أن يقابل هذا النعم الثلاث بما يليق بها من الشكر. فنهاه أن يقهر اليتيم، وأن ينهر السائل، وأن يكتم النعمة، بل يحدث بها، فأوصاه سبحانه باليتامى والفقراء والمتعلمين. قال مجاهد، ومقاتل: لا تحقر اليتيم، فقد كنت يتيمًا. وقال الفراء: لا

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ١٨٧ رقم ٣٥١٩١) والفريابي في صفة المنافق (رقم ٩٦) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٤٤) وانظر: فيض القدير (٥/ ٦٨).

(٢) تقدم في سورة الحشر ما يتعلق بهذه السورة نقلًا عن عدة الصابرين عند قوله تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ ﴾. (ج).

تقهره على ماله، فتذهب بحقه لضعفه. وكذلك كانت العرب تفعل في أمر اليتامى، تأخذ أموالهم وتظلمهم فغلظ الخطاب في أمر اليتيم. وكذلك من لا ناصر له يغلظ في أمره، وهو نهي لجميع المكلفين[١].

***

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝ ﴾.

[٢]إن عقل رسول الله ﷺ أكمل عقول أهل الأرض على الإطلاق، فلو وزن عقله بعقولهم لرجحها.

وقد أخبر الله أنه قبل الوحي: لم يكن يدري ما الإيمان، كما لم يكن يدري ما الكتاب. فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢] وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ [الضحى: ٦ - ٨] وتفسير هذه الآية بالآية التي في آخر سورة الشورى.

فإذا كان أعقل الخلق على الإطلاق إنما حصل له الهدى بالوحي، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ [سبأ: ٥٠] فكيف يحصل لسفهاء العقول وأخفاء الأحلام الاهتداء إلى حقائق الإيمان بمجرد عقولهم دون نصوص الوحي، حتى اهتدوا بتلك الهداية إلى المعارضة بين العقل ونصوص الأنبياء ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾ [مريم: ٨٩، ٩٠].

[٣]قال الله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ [الضحى: ٨] وفي الآية ثلاثة أقوال:

---

(١) ٤٧ التبيان .

(٢) ١١٦ مختصر الصواعق جـ١ .

(٣) ٤٤٩ مدارج جـ٢.

أحدها: أنه أغناه من المال بعد فقره: وهذا قول أكثر المفسرين. لأنه قابله بقوله: «عائلًا» والعائل: هو المحتاج. ليس ذا العيلة، فأغناه من المال.

والثاني: أنه أرضاه بما أعطاه. وأغناه به عن سواه. فهو غنى قلب ونفس، لا غنى مال. وهو حقيقة الغنى.

والثالث: ـ وهو الصحيح ـ أنه يعم النوعين: نوعي الغنى، فأغنى قلبه. وأغناه من المال.

[(١)]وأجمع المفسرون: أن العائل هو الفقير. يقال: عال الرجل يعيل إذا افتقر.

***

﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ ﴾.

[(٢)]قال أكثر المفسرين: هو سائل المعروف والصدقة لا تنهره. إذا سألك. فقد كنت فقيرًا، فإما أن تطعمه. وإما أن ترده ردًا لينًا. قال الحسن: إما إنه ليس بالسائل الذي يأتيك، ولكن طالب العلم. وهذا قول يحيى بن آدم قال: إذا جاءك طالب العلم فلا تنهره. والتحقيق أن الآية تتناول النوعين.

وقوله: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١١] قال مجاهد: بالقرآن. وقال الكلبي: بمعنى أظهرها، والقرآن أعظم ما أنعم الله به عليه، فأمره أن يقرئه ويعلمه. وروى أبو بشر، عن مجاهد: حدث بالنبوة التي أعطاك الله.

وقال الزجاج: بلغ ما أرسلت به. وحدث بالنبوة التي آتاك، وهي أجل النعم.

وقال مقاتل: أشكر هذه النعمة التي ذكرت في هذه السورة.

والتحقيق أن النعم تعم هذا كله فأمر أن لا ينهر سائل المعروف، والعلم وأن يحدث بنعم الله عليه في الدين والدنيا.

---

(١) ١١٤ عدة الصابرين.

(٢) ٤٧ التبيان.

[(١)]والفرق بين التحدث بنعم الله والفخر بها: أن المتحدث بالنعمة مخبر عن صفات وليها ومحض جوده وإحسانه، فهو مثن عليه بإظهارها، والتحدث بها شاكر له، ناشر لجميع ما أولاه، مقصوده بذلك إظهار صفات الله ومدحه والثناء، وبعث النفس على الطلب من دون غيره، وعلى محبته ورجائه، فيكون راغبًا إلى الله بإظهار نعمه ونشرها والتحدث بها.

وأما الفخر بالنعم فهو أن يستطيل بها على الناس ويريهم أنه أعز منهم وأكبر، فيركب أعناقهم ويستعبد قلوبهم ويستميلها إليه بالتعظيم والخدمة.

قال النعمان بن بشير: إن للشيطان مصالي وفخوخًا، وإن من مصاله وفخوخه البطش بنعم الله، والكبر على عباد الله، والفخر بعطية الله، والهون في غير ذات الله[(٢)].

***

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾.

[(٣)]... الثناء على المنعم، المتعلق بالنعمة نوعان: عام، وخاص.

فالعام: وصفه بالجود والكرم، والبر والإحسان، وسعه العطاء، ونحو ذلك.

والخاص: التحدث بنعمته، والإخبار بوصولها إليه من جهته. كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] وفي هذا التحديث المأمور به قولان:

أحدهما: أنه ذكر النعمة، والإخبار بها. وقوله: أنعم الله عليَّ بكذا وكذا.

قال مقاتل: يعني أشكر ما ذكر من النعم عليك في هذه السورة: من جبر اليتم، والهدى بعد الضلال، والإغناء بعد العيلة.

والتحدث بنعمة الله شكر. كما في حديث جابر مرفوعًا: «من صنع إليه معروف

---

(١) ٣٠٢ الروح.

(٢) أخرجه الديلمي في الفردوس (١/ ٢٠٨ رقم ٧٩٣) ومحمد بن جعفر السامري (رقم ٦٩) وابن عساكر في تاريخه (٦٢/ ١٢٤) والفسوي في المعرفة والتاريخ (٢/ ٢٦٠) وانظر: فيض القدير (٢/ ٤٩٩).

(٣) ٢٤٨ مدارج جـ٢.

فليجز به. فإن لم يجد ما يجزي به فليثن. فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره. وإن كتمه فقد كفره، ومن تحلى بما لم يعط كان كلابس ثوبي زور»[١].

فذكر أقسام الخلق الثلاثة: شاكر النعمة المثني بها، والجاحد لها والكاتم لها. والمظهر أنه من أهلها، وليس من أهلها. فهو متحلٍّ بما لم يعطه.

وفي أثر آخر مرفوع: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير. ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله. والتحدث بنعمة الله شكر. وتركه كفر. والجماعة رحمة. والفرقة عذاب»[٢].

والقول الثاني: أن التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية: هو الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته، وتعليم الأمة. قال مجاهد: هي النبوة.

قال الزجاج: أي بلغ ما أرسلت به، وحدث بالنبوة التي آتاك الله.

وقال الكلبي: هو القرآن. أمره أن يقرأه.

والصواب: أن يعم النوعين، إذ كل منهما نعمة مأمور بشكرها والتحدث بها، وإظهارها من شكرها.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الضحى

والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (رقم ٢١٥).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٨) والبيهقي في الشعب (٦/ ٥١٦ رقم ٩١١٩) والديلمي في الفردوس (٣/ ٦٢٨ رقم ٥٩٦٢) وقال المنذري في الترغيب (٢/ ٤٦ رقم ١٤٣٩): رواه عبدالله بن أحمد في زوائده بإسناد لا بأس به، وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٢١٧-٢١٨) رواه عبدالله بن أحمد والبزار والطبراني ورجالهم ثقات.

سُورَةُ الشَّرْحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝ ﴾.

قال الشافعي وأحمد ـ رحمهما الله ـ في المشهور من مذهبهما: لا تصح الخطبة إلا بالصلاة عليه - صلى الله عليه وسلم -. وقال أبو حنيفة ومالك: تصح بدونها. وهو وجه في مذهب أحمد.

واحتج لوجوبها في الخطبة بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح: ١-٤] قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «رفع الله ذكره، فلا يذكر إلا ذكر معه»(١) وفي هذا الدليل نظر. لأن ذكره ﷺ مع ذكر ربه هو الشهادة له بالرسالة إذا شهد لمرسله بالوحدانية. وهذا هو الواجب في الخطبة قطعًا، بل هو ركنها الأعظم، وقد روى أبو داود، وأحمد، وغيرهما من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ، أنه قال: «**كل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الحذماء**»(٢) واليد الجذماء: المقطوعة. فمن أوجب الصلاة على النبي ﷺ، في الخطبة دون التشهد فقوله في غاية الضعف.

وقد روى يونس عن شيبان عن قتادة ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ فقال: «رفع الله ذكره في

---

(١) انظر: تفسير السيوطي (٨/ ٥٤٩) وتفسير ابن كثير (٤/ ٥٢٦).

(٢) أخرجه ابن حبان (٧/ ٣٦ رقم ٣٧٩٦) والهيثمي في موارد الظمآن (رقم ٥٧٩) وأبو داود (رقم ٤٨٤١) والترمذي (رقم ١١٠٦) والبيهقي في ا لكبرى (٣/ ٢٠٩ رقم ٥٥٦٠) وابن أبي شيبة (٥/ ٣٣٩ رقم ٢٦٦٨١) وإسحاق بن راهويه (رقم ٢٦٥) وأحمد (٢/ ٣٠٢) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب. وانظر: فتح الباري (١/ ٨) (٨/ ٢٢٠) وشرح النووي (٦/ ٤٢).

الدنيا والآخرة فليس خطيب، ولا متشهد، ولا صاحب صلاة إلا ابتدأها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله»[١].

وقال عبد بن حميد: أخبرني عمرو بن عون عن هشيم عن جويبر عن الضحاك: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ قال: إذا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ معي، ولا يجوز خطبة ولا نكاح إلا بذكرك[٢].

وقال عبدالرزاق عن ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ قال: «لا أذكر إلا ذكرت معي: الأذان أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله»[٣] فهذا هو المراد من الآية، وكيف لا يجب التشهد الذي هو عقد الإسلام في الخطبة، وهو أفضل كلماتها، وتجب الصلاة على النبي ﷺ، فيها.

والدليل على مشروعية الصلاة على النبي ﷺ، في الخطبة ما رواه عبدالله بن أحمد حدثنا أبي حدثنا منصور بن أبي مزاحم حدثنا خالد حدثني عون بن أبي جحيفة: كان أبي من شُرُطِ عليٍّ وكان تحت المنبر فحدثني: «أنه صعد المنبر ـ يعني عليًا رضي الله عنه فحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، وقال: خير هذه الأمة بعد نبيها أبوبكر، والثاني عمر» وقال: ويجعل الله الخير حيث شاء[٤].

وقال محمد بن الحسن بن جعفر الأسدي حدثنا أبو الحسن علي بن محمد

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤٤٥ رقم ١٩٣٩٢) وانظر: الدر المنثور (٨/ ٥٤٨) وتفسير ابن كثير (٤/ ٥٢٥-٥٢٦).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٥٤٩) وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٣) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره (٣/ ٣٨٠) والشافعي في أحكام القرآن (١/ ٥٨) وفي مسنده (ص ٢٣٣) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٢٠٩ رقم ٥٥٦٢) وابن أبي شيبة (٦/ ٣١١ رقم ٣١٦٨٩) والجهضمي في فضل الصلاة على النبي ﷺ (رقم ١٠٣) وانظر: عمدة القاري (١/ ١١).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٣٥١ رقم ٣١٩٥٠) وعبد الرزاق (٣/ ٤٤٨ رقم ٦٢٦٧) والطبراني في الأوسط (١/ ٢٩٧-٢٩٨ رقم ٩٩٢) وفي الكبير (١/ ١٠٧ رقم ١٧٨) وابن الجعد (١/ ٣١١ رقم ٢١٠٩) وأحمد (١/ ١١٠).

الحميري حدثنا عبدالله بن سعيد الكندي حدثنا حميد بن عبدالرحمن الرواسي قال: سمعت أبي يذكر عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبدالله أنه كان يقول بعد ما يفرغ من خطبة الصلاة، ويصلي على النبي ﷺ: «اللهم حبب إلينا الإيمان، وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون، اللهم بارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وأزواجنا وقلوبنا وذرياتنا»(١).

وروى الدارقطني من طريق ابن لهيعة عن الأسود بن مالك الحضرمي عن يحيى ابن ذاخر المعافري قال: «ركبت أنا ووالدي إلى صلاة الجمعة. فذكر حديثًا، وفيه: فقام عمرو بن العاص على المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه حمدًا موجزًا، وصلى على النبي ﷺ، ووعظ الناس فأمرهم ونهاهم»(٢).

وفي الباب حديث ضبة بن محصن: «أن أبا موسى كان إذا خطب: فحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، ودعا لعمر. فأنكر عليه ضبة الدعاء لعمر قبل الدعاء لأبي بكر - رضي الله عنهما - فرفع ذلك إلى عمر ﷺ فقال لضبة: أنت أوفق وأرشد»(٣). فهذا دليل على أن الصلاة على النبي ﷺ، في الخطب كان أمر مشهورًا معروفًا عند الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين -.

وأما وجوبها فيعتمد دليلًا يجب المصير إلى مثله.

***

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٦٨٦ رقم ١٨٦٨) والنسائي في الكبرى (٦/ ١٥٦ رقم ١٠٤٤٥) وأحمد (٣/ ٤٢٤) والبزار (٩/ ١٧٥ رقم ٣٧٢٤) والبخاري في الأدب (رقم ٦٩٩) والبيهقي في الاعتقاد (ص ١٥٣) كلهم أخرجوه إلى قوله: «أولئك هم الراشدون» وأما لفظ: «اللهم بارك لنا في أسماعنا» إلى آخره أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/ ١٩١ رقم ١٠٤٢٦) وفي الدعاء (رقم ١٤٢٩) والبزار (٥/ ١٥٣ رقم ١٧٤٥) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٧٩): رواه الطبراني في الكبير والأوسط وإسناد الكبير جيد.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٤٦/ ١٦٢).

(٣) ذكره ابن قدامة في المغني (٢/ ٧٩) وأبو جعفر الطبري في الرياض النضرة (١/ ٤٥٢).

﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ ﴾.

[(١)]... إذا عرفت هذه الفوائد الأربع فقول الراد: وعليك السلام. بالتعريف متضمن للدلالة على أن مقصوده من الرد مثل ما ابتدئ به، وهو هو بعينه، فكأنه قال ذلك السلام الذي طلبته لي مردود عليك، وواقع عليك، فلو أتى بالرد منكرًا لم يكن فيه إشعار بذلك، لأن المعرف وإن تعدد ذكره واتحد لفظه فهو شيء واحد بخلاف المنكر، ومن فهم هذا فهم معنى قول النبي ﷺ: «لن يغلب عسر يسرين» فإنه أشار إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٥، ٦] فالعسر وإن تكرر مرتين فتكرر بلفظ المعرفة فهو واحد، واليسر تكرر بلفظ النكرة فهو يسران، فالعسر محفوف بيسرين: يسر قبله ويسر بعده، فلن يغلب عسر يسرين[(٢)].

وفائدة ثانية وهي أن مقامات رد السلام ثلاثة: مقام فضل. ومقام عدل. ومقام ظلم. فالفضل أن يرد عليه أحسن من تحيته، والعدل أن ترد عليه نظيرها، والظلم أن تبخسه حقه وتنقصه منها، فاختير للراد أكمل اللفظتين وهو المعرف بالأداة التي تكون للاستغراق والعموم كثيرًا ليتمكن من الإتيان بمقام الفضل.

وفائدة ثالثة: وهي أنه قد تقدم أن المناسب في حقه تقديم المسلم عليه على السلام فلو نكره، وقال: عليك سلام. لصار بمنزلة قولك: عليك دين، وفي الدار رجل. فخرجه مخرج الخبر المحض، وإذا صار خبرًا بطل معنى التحية، لأن معناها الدعاء

(١) ١٥٥ بدائع جـ٢.

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً في كتاب التفسير، باب تفسير سورة ألم نشرح (ص٩٨٢) بعد حديث رقم (٤٩٥٢) والحاكم (٢/ ٥٧٥ رقم ٣٩٤٩) فقال: قد صحت الرواية عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب: لن يغلب عسر يسرين. وقد روي بإسناد مرسل عن النبي ﷺ ومالك في الموطأ (٢/ ٤٤٦ رقم ٩٦١) وابن أبي شيبة (٤/ ٢٢٢ رقم ١٩٤٨٦) والبيهقي في الشعب (٧/ ٢٠٥ رقم ١٠٠١٠) والحكيم الترمذي في النوادر (٣/ ٧٨) وابن المبارك في الجهاد (رقم ٢١٧) وجوّد إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح من طريق عبد بن حميد عن ابن مسعود ﷺ وانظر: عمدة القاري (١٩/ ٣٠١).

والطلب، فليس بمسلم من قال: عليك سلام، إنما المسلم من قال: سلام عليك فعرف سلام الراد باللام إشعارًا بالدعاء للمخاطب، وأنه راد عليه التحية طالب له السلامة من اسم السلام. والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الشرح

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

سُورَةُ التِّين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ ﴾.

(١) أقسم سبحانه بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة، التي هي مظاهر أنبيائه ورسله، أصحاب الشرائع العظام، والأمم الكثيرة.

فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين، ومنبتهما. وهو أرض بيته المقدس. فإنها أكثر البقاع زيتونًا وتينًا.

وقد قال جماعة من المفسرين: إنه سبحانه أقسم بهذين النوعين من الثمار لمكان العزة فيهما، فإن التين فاكهة مخلصة من شواء التنغيص، لا عجم له وهو على مقدار اللقمة، وهو فاكهة وقوت وغذاء وأدم. ويدخل في الأدوية، ومزاجه من أعدل الأمزجة، وطبعه طبع الحياة: الحرارة، والرطوبة، وشكله من أحسن الأشكال، ويدخل أكله والنظر إليه في باب المفرحات. وله لذة يمتاز بها عن سائر الفواكه، ويزيد في القوة، ويوافق الباءة، وينفع من البواسير والنقرس، ويؤكل رطبًا ويابسًا.

وأما الزيتون ففيه من الآيات ما هو ظاهر لمن اعتبر. فإن عوده يخرج ثمرًا، يعصر منه هذا الدهن الذي هو مادة النور وصبغ للآكلين، وطيب ودواء، وفيه من مصالح الخلق ما لا يخفى، وشجره باق على مر السنين المتطاولة، وورقه لا يسقط، وهذا الذي قالوه حق.

ولا ينافي أن يكون منبته مرادًا. فإن منبت هاتين الشجرتين حقيق بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة. فيكون الإقسام قد تناول الشجرتين ومنبتهما، وهو مظهر عبدالله ورسوله وكلمته وروحه عيسى ابن مريم.

---

(١) ٢٨ التبيان.

كما أن طور سينين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى، فإنه الجبل الذي كلمه عليه وناجاه، وأرسله إلى فرعون وقومه.

ثم أقسم بالبلد الأمين، وهو مكة مظهر خاتم أنبيائه ورسله، سيد ولد آدم. وترقى في هذا القسم من الفاضل إلى الأفضل. فبدأ بموضع مظهر المسيح، ثم ثنى بموضع مظهر الكليم، ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله، وأكرم الخلق عليه.

ونظير هذا بعينه في التوراة التي أنزلها الله على كليمه موسى (جاء الله من طور سيناء؛ وأشرق من ساعير، واستعلن من فاران)[(١)] فمجيئه من طور سيناء بعثته لموسى بن عمران، وبدأ به على حكم الترتيب الواقع. ثم ثنى بنبوة المسيح، ثم ختمه بنبوة محمد ﷺ. وجعل نبوة موسى بمنزلة مجيء الصبح، ونبوة المسيح بعده بمنزلة طلوع الشمس وإشراقها، ونبوة محمد ﷺ، وعليهما بعدهما بمنزلة استعلائها وظهورها للعالم. ولما كان الغالب على بني إسرائيل حكم الحس ذكر ذلك مطابقًا للواقع، ولما كان الغالب على الأمة الكاملة حكم العقل ذكرها على الترتيب العقلي.

[(٢)]...قال في التوراة في السفر الخامس:«أقبل الله من سيناء، وتجلى من ساعير، وظهر من جبال فاران، ومعه ربوات الإظهار عن يمينه» وهذه متضمنة للنبوات الثلاثة: نبوة موسى، ونبوة عيسى، ونبوة محمد ﷺ.

فمجيئه من «سينا» وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى، ونبأه عليه إخبار عن نبوته، وتجليه من ساعير هو مظهر المسيح من بيت المقدس، «وساعير» قرية معروفة هناك إلى اليوم، وهذا بشارة بنبوة المسيح. «وفاران» هي مكة[(٣)]، وشبه ـ سبحانه ـ نبوة موسى بمجيء الصبح، ونبوة المسيح بعدها بإشراقه وضيائه، ونبوة خاتم الأنبياء

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢٧-٥٢٨) ومعجم البلدان (٣/ ١٧١).

(٢) ٥٣ هداية الحيارى.

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث (٣/ ٤٠٥) ولسان لاعرب (٥/ ٤٣) ومعجم البلدان (٣/ ١٧١) (٤/ ٢٢٥).

بعدهما باستعلاء الشمس وظهور ضوئها في الآفاق، ووقع الأمر كما أخبر به سواء.

فإن الله سبحانه صدع بنبوة موسى ليل الكفر فأضاء فجره بنبوته، وزاد الضياء، والإشراق بنبوة المسيح، وكمل الضياء واستعلن وطبق الأرض بنبوة محمد ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ.

وذكر هذه النبوات الثلثة التي اشتملت عليها هذه البشارة نظير ذكرها في أول سورة ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ [التين: ١ - ٣].

فذكر أمكنة هؤلاء الأنبياء وأرضهم التي خرجوا منها. ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ والمراد بهما منبتهما وأرضهما، وهي الأرض المقدسة التي هي مظهر المسيح. ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ الجبل الذي كلم الله عليه موسى، فهو مظهر نبوته. ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ مكة حرم الله وأمنه، التي هي مظهر نبوة محمد ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ، فهذه الثلاثة نظير تلك الثلاثة سواء.

قال اليهود: «فاران» هي أرض الشام، وليست أرض الحجاز، وليس هذا ببدع من بهتهم وتحريفهم. وعندهم في التوراة: إن إسماعيل لما فارق أباه سكن في برية فاران. هكذا نطقت التوراة. ولفظها «وأقام إسماعيل في برية فاران، وأنكحته أمه امرأة من [جرهم]. ولا يشك علماء أهل الكتاب أن فاران مسكن لآل إسماعيل، فقد تضمنت التوراة نبوة تنزل بأرض فاران، وتضمنت نبوة تنزل على عظيم من ولد إسماعيل، وتضمنت انتشار أمته واتباعه حتى يملئوا السهل والجبل، كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ولم يبق بعد هذا شبهة أصلًا أن هذه هي نبوة محمد ﷺ، التي نزلت بفاران على أشرف ولد إسماعيل حتى ملأت الأرض ضياءً ونورًا، وملأ أتباعه السهل والجبل. ولا يكثر على الشعب الذي نطقت التوراة بأنهم عادمو الرأي والفطانة أن ينقسموا إلى جاهل بذلك وجاحد مكابر معاند: ولفظ التوراة فيهم: إنهم لشعب عادم الرأي، وليس فيهم فطانة.

ويقال لهؤلاء المكابرين: أي نبوة خرجت من الشام فاستعلت استعلاء ضياء

الشمس، وظهرت فوق ظهور النبوتين قبلها، وهل هذا إلا بمنزلة مكابرة من يرى الشمس قد طلعت من المشرق، فيغالط ويكابر ويقول: بل طلعت من المغرب.

***

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾.

[(١)] أقسم بها على بداية الإنسان ونهايته. فقال: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ٤] أي: في أحسن صورة وشكل واعتدال: معتدل القامة، مستوى الخلقة، كامل الصورة، أحسن من كل حيوان سواه.

والتقويم تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون في التأليف والتعديل. وذلك صنعته - تبارك وتعالى - في قبضة من تراب وخلقه بالمشاهدة من نطفة من ماء.

وذلك من أعظم الآيات الدالة على وجوده، وقدرته، وحكمته، وعلمه، وصفات كماله. ولهذا يكررها كثيرًا في القرآن لمكان العبرة بها. والاستدلال بأقرب الطرق على وحدانيته، على المبدأ والمعاد.

وتضمن إقسامه بتلك الأمكنة الثلاثة الدالة عليه وعلى علمه وحكمته عنايته بخلقه بأن أرسل منها رسلًا أنزل عليهم كتبه، يعرفون العباد بربهم، وحقوقه عليهم، وينذرونهم بالله ونقمته، ويدعونهم إلى كرامته وثوابه.

ثم لما كان الناس في إجابة هذه الدعوة فريقين، منهم من أجاب، ومنهم من أبى، ذكر حال الفريقين. فذكر حال الأكثرين، وهم المردودون إلى أسفل سافلين. والصحيح أنه النار. قاله مجاهد، والحسن، وأبو العالية. قال علي بن أبي طالب ﷺ: هي النار بعضها أسفل من بعض. وقالت طائفة، منهم قتادة، وعكرمة، وعطاء، والكلبي، وإبراهيم: إنه إرذل العمر، وهو مروي عن ابن عباس. والصواب القول الأول لوجوه:

---

(١) ٣٩ التبيان.

أحدها: أن أرذل العمر لا يسمى أسفل سافلين، لا في لغة ولا عرف، وإنما أسفل سافلين، هو سجين الذي هو مكان الفجار، كما أن عليين مكان الأبرار.

الثاني: أن المردودين إلى أسفل العمر بالنسبة إلى نوع الإنسان قليل جدًا، فأكثرهم يموت ولا يرد إلى أرذل العمر.

الثالث: أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يستوون وغيرهم في رد من طال عمره منهم إلى أرذل العمر، فليس ذلك مختصًا بالكفار، حتى يستثنى منهم المؤمنين.

الرابع: أن الله سبحانه لما أراد ذلك لم يخصه بالكفار، بل جعله لجنس بني آدم، فقال: ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ [الحج: ٥] فجعلهم قسمين: قسما متوفى قبل الكبر، وقسما مردودا إلى أرذل العمر، ولم يسمه أسفل سافلين.

الخامس: أنه لا تحسن المقابلة بين أرذل العمر وبين جزاء المؤمنين، وهو - سبحانه - قابل بين جزاء هؤلاء وجزاء أهل الإيمان، فجعل جزاء الكفار أسفل سافلين، وجزاء المؤمنين أجرًا غير ممنون.

السادس: أن قول من فسره بأرذل العمر يستلزم خلو الآية عن جزاء الكفار وعاقبة أمرهم. ويستلزم تفسيرها بأمر محسوس. فيكون قد ترك الإخبار عن المقصود الأهم. وأخبر عن أمر يعرف بالحس والمشاهدة. وفي ذلك هضم لمعنى الآية وتقصير بها عن المعنى اللائق بها.

السابع: أنه - سبحانه - ذكر حال الإنسان في مبدئه ومعاده. فمبدؤه خلقه في أحسن تقويم، ومعاده رده إلى أسفل سافلين أو إلى أجر غير ممنون. وهذا موافق لطريقة القرآن وعادته في ذكر مبدأ العبد ومعاده. فما لأرذل العمر، وهذا المعنى المطلوب المقصود إثباته والاستدلال عليه؟

الثامن: أن أرباب القول الأول مضطرون إلى مخالفة الحس، وإخراج الكلام عن ظاهره والتكليف البعيد له. فإنهم إن قالوا: إن الذي يرد إلى أرذل العمر هم الكفار

دون المؤمنين كابروا الحس. وإن قالوا: إن من النوعين من يرد إلى أرذل العمر احتاجوا إلى التكلف لصحة الاستثناء.

فمنهم من قدر ذلك بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا تبطل أعمالهم، إذا ردوا إلى أرذل العمر، بل تجري عليهم أعمالهم التي كانوا يعملونها في الصحة. فهذا ـ وإن كان حقًا ـ فإن الاستثناء إنما وقع من الرد لا من الأجر والعمل.

ولما علم أرباب هذا القول ما فيه من التكلف خصص بعضهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات بقراءة القرآن خاصة. فقالوا: من قرأ القرآن لا يرد إلى أرذل العمر. وهذا ضعيف من وجهين: أحدهما: أن الاستثناء عام في المؤمنين، قارئهم وأميهم، وأنه لا دليل على ما ادعوه. وهذا لا يعلم بالحس، ولا خبر يجب التسليم له بقضيته، والله أعلم.

التاسع: أنه سبحانه ذكر نعمته على الإنسان بخلقه في أحسن تقويم، وهذه النعمة توجب عليه أن يشكرها بالإيمان وعبادته وحده لا شريك له، فينقله حينئذ من هذه الدار إلى أعلى عليين، فإذا لم يؤمن به، وأشرك به، وعصى رسله، نقله منها إلى أسفل سافلين، وبدله بعد هذه الصورة التي هي في أحسن تقويم صورة من أقبح الصور في أسفل سافلين. فتلك نعمته عليه، وهذا عدله فيه وعقوبته على كفران نعمته.

العاشر: أن نظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [الانشقاق: ٢٤، ٢٥] فالعذاب الأليم هو أسفل سافلين، والمستثنون هنا هم المستثنون هناك، والأجر غير الممنون هناك هو المذكور هنا، والله أعلم.

وقوله: ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي: غير مقطوع ولا منقوص، ولا مكدر عليهم، وهذا هو الصواب. وقالت طائفة: غير ممنون به عليهم، بل هو جزاء أعمالهم؛ ويذكر هذا عن عكرمة ومقاتل، وهو قول كثير من القدرية. قال هؤلاء: إن المنة تكدر النعمة. فتمام النعمة أن يكون غير ممنون بها على المنعم عليه.

وهذا القول خطأ قطعًا، أتى أربابه من تشبيه نعمة الله على عبده بإنعام المخلوق

على المخلوق، هذا من أبطل الباطل، فإن المنة التي تكدر النعمة هي منه المخلوق على المخلوق، وأما منة الخالق على المخلوق فبها تمام النعمة ولذتها وطيبها، فإنها منة حقيقة.

قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۝ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الصافات: ١١٤، ١١٥] فتكون منة عليهما بنعمة الدنيا دون نعمة الآخرة. وقال لموسى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٣٧]. وقال أهل الجنة: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] الآية. وقال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥] الآية.

وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال للأنصار: «**ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بي؟ ألم أجدكم عالة فأغناكم الله بي؟**» فجعلوا يقولون له: الله ورسوله أمن[1]. فهذا جواب العارفين بالله ورسوله. وهل المنة كل المنة إلا لله المان بفضله الذي جميع الخلق في منه؟ وإنما قبحت منة المخلوق لأنها منة بما ليس منه، وهي منة يتأذى بها الممنون عليه.

وأما منة المنان بفضله التي ما طاب العيش إلا بمنته، وكل نعمة منه في الدنيا والآخرة فهي منة يمن بها على من أنعم عليه، فتلك لا يجوز نفيها. وكيف يجوز أن يقال إنه لا منة لله على الذين آمنوا وعملوا الصالحات في دخول الجنة؟ وهل هذا إلا من أبطل الباطل؟

فإن قيل: هذا القدر لا يخفى على من قال هذا القول من العلماء، وليس مرادهم ما ذكر، وإنما مرادهم أنه لا يمن عليهم به، وإن كانت لله فيه المنة عليهم، فإنه لا يمن

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٣٣٠) ومسلم (رقم ١٠٦١) وانظر: الفتح (٨/ ٥٦٤).

عليهم به، بل يقال: هذا جزاء أعمالكم التي عملتموها في الدنيا، وهذا أجركم، فأنتم تستوفون أجور أعمالكم لا نمن عليكم بما أعطيناكم.

قيل: وهذا أيضًا هو الباطل بعينه، فإن ذلك الأجر ليست الأعمال ثمنًا له، ولا معاوضة عنه. وقد قال أعلم الخلق بالله ﷺ: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[(١)]. فأخبر أن دخول الجنة برحمة الله وفضله، وذلك محض منته عليه وعلى سائر عباده، وكما أنه سبحانه المان بإرسال رسله، وبالتوفيق لطاعته وبالإعانة عليها، فهو المان بإعطاء الجزاء، وذلك كله محض منته وفضله وجوده، لا حق لأحد عليه، بحيث إذا وفاه إياه لم يكن له عليه منة. فإن كان في الدنيا باطل فهذا ليس منه في شيء.

فإن قيل: كيف تقولون هذا وقد أخبر رسوله عنه بأن حق العباد عليه إذا وحدوه أن لا يعذبهم[(٢)] وقد أخبر عن نفسه أن حقًا عليه نصر المؤمنين.

قيل: لعمر الله هذا من أعظم منته على عباده. أن جعل على نفسه حقًا بحكم وعده الصادق: أن يثيبهم، ولا يعذبهم إذا عبدوه ووحدوه. فهذا من تمام منته، فإنه لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولكن منته اقتضت أن أحق على نفسه ثواب عابديه وإجابة سائليه.

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا، ولا سعي لديه ضائع
إن عذبوا فبعدله، أو نعموا ... فبفضله، فهو الكريم الواسع[(٣)]

***

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٦٧٣) ومسلم (رقم ٢٨١٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٨٥٦) ومسلم (رقم ٣٠) وانظر: الفتح (١١/ ٣٣٨) وشرح النووي (١/ ٢٣١).

(٣) هذان البيتان من بحر الكامل، ذكرهما المصنف في الوابل الصيب (ص ٩٠) وينسبان إليه في النونية ولكن بتصرف، فجاء البيت الأول: صدره صدر البيت رقم ٣٣٠١ من القصيدة وجاء عجز البيت الأول صدر البيت رقم ٣٣٠٢. أما البيت الثاني فجاء إلى قوله: فبفضله ثم أكمله بقوله: والحمد للمنان.

﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝ ﴾.

قوله سبحانه: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴾ [التين: ٧] أصح القولين: أن هذا خطاب للإنسان، أي: فما يكذبك بالجزاء والمعاد بعد هذا البيان، وهذا البرهان؟ فنقول: إنك لا تبعث ولا تحاسب، ولو تفكرت في مبدأ خلقك، وصورتك، لعلمت أن الذي خلقك أقدر على أن يعيدك بعد موتك وينشئك خلقًا جديدًا، وأن ذلك لو أعجزه لأعجزه وأعياه خلقك الأول.

وأيضًا فإن الذي كمل خلقك في أحسن تقويم بعد أن كنت نطفة من ماء مهين، كيف يليق به أن يتركك سدى، لا يكمل ذلك بالأمر والنهي، وبيان ما ينفعك ويضرك، ولا تنقل لدار هي أكمل من هذه، ويجعل هذه الدار طريقًا لك إليها، فحكمة أحكم الحاكمين تأبى ذلك، وتقضي خلافه. قال منصور: قلت لمجاهد: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴾ عنى به محمدًا؟ فقال: معاذ الله، إنما عنى به الإنسان. وقال قتادة: الضمير للنبي ﷺ، واختاره الفراء. وهذا موضع يحتاج إلى شرح وبيان.

يقال: كذب الرجل، إذا قال الكذب، وكذبته أنا إذا نسبته إلى الكذب ولو اعتقدت صدقه. وكذبته إذا اعتقدت كذبه وإن كان صادقًا. قال تعالى: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٨٤] وقال: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ [الأنعام: ٣٣] فالأول: بمعنى وأن ينسبوك إلى الكذب، والثاني: بمعنى لا يعتقدون أنك كاذب، ولكنهم يعاندون ويدفعون الحق بعد معرفته، جحودًا وعنادًا، هذا أصل هذه اللفظة، ويتعدى الفعل إلى الخبر بنفسه، وإلى خبره بالباء، وبقي. فيقال: كذبته بكذا، وكذبته فيه، والأول أكثر استعمالًا، ومنه قوله: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ [ق: ٥] وقوله: ﴿ وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ [البقرة: ٣٩].

إذا عرف هذا، فقوله: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ ﴾ اختلف في «ما» هل هي بمعنى أي شيء يكذبك، أو بمعنى من الذي يكذبك؟ فمن جعلها بمعنى أي شيء، تعين على قوله أن

يكون الخطاب للإنسان، أي: فأي شيء يجعلك بعد هذا البيان مكذبًا بالدين، وقد وضحت لك دلائل الصدق والتصديق؟ ومن جعلها بمعنى: فمن الذي يكذبك، جعل الخطاب للنبي ﷺ، قال الفراء: كأنه يقول، من يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب، بعدما تبين له من خلق الإنسان ما وصفناه؟

وقال قتادة: فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا بالدين؟

وعلى قول قتادة والفراء إشكال من وجهين:

أحدهما: إقامة [ما] مقام [من] وأمر سهل.

والثاني: أن الجار والمجرور يستدعي متعلقًا، وهو يكذبك أي فمن يكذبك بالدين؟ فلا يخلو إما أن يكون المعنى [فمن] يجعلك كاذبًا بالدين، أو مكذِّبًا به، ولا يصح واحد منهما. أما الثاني والثالث فظاهر. فإن كذبته ليس معناه جعلته مكذِّبًا أو مكذَّبًا. وإنما معناه نسبته إلى الكذب. فالمعنى على هذا فمن يجعلك بعد كاذبًا بالدين، وهذا إنما يتعدى إليه بالباء الفعل المضاعف لا الثلاثي، فلا يقال: كذب كذا، وإنما يقال كذب به.

وجواب هذا الإشكال أن قوله: كذب بكذا معناه كذب المخبر به، ثم حذف المفعول به لظهور العلم به، حتى كأنه نسي وعدوا الفعل إلى المخبر به، فإذا قيل: من يكذبك بكذا؟ فهو بمعنى كذبوك بكذ سواء، أن نسبوك إلى الكذب في الإخبار به، بل الإشكال في قول مجاهد والجمهور، فإن الخطاب إذا كان للإنسان، وهو المكذب، أي: فاعل التكذيب، فكيف يقال له: ما يكذبك؟ أي يجعلك مكذبا. والمعروف كذبه إذا جعله كاذبًا لا مكذبًا. ومثل فسقه إذا جعله فاسقًا ولا مفسقًا لغيره.

وجواب هذا الأشكال: أن صدق وكذب ـ بالتشديد ـ يراد به معنيان: (أحدهما): النسبة. وهي إنما تكون للمفعول كما ذكرتم (والثاني): الداعي والحامل على ذلك، وهو يكون للفاعل، قال الكسائي: يقال، ما صدقك بكذا، أو ما كذبك بكذا، أي: ما حملك على التصديق والتكذيب.

قلت: وهو نظير ما أجرأك على هذا، أي: ماحملك على الاجتراء عليه، وما قدمك وما أخرك، أي ما دعاك، وحملك على التقديم والتأخير، وهذا استعمال سائع موافق للعربية. وبالله التوفيق.

[(١)]... ثم ختم السورة بقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨] وهذا تقرير لمضمون السورة، من إثبات النبوة، والتوحيد، والمعاد، وحكمه بتضمن نصره لرسوله على من كذبه، وجحد ما جاء به، بالحجة والقدرة والظهور عليه، وحكمه بين عباده في الدنيا بشرعه وأمره، وحكمه بينهم في الآخرة بثوابه وعقابه، وإن أحكم الحاكمين لا يليق به تعطيل هذه الأحكام بعد ما ظهرت حكمته في خلق الإنسان في أحسن تقويم، ونقله في أطوار التخليق، حالًا بعد حال، إلى أكمل الأحوال. فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن لا يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته؟ وهل ذلك إلا قدح في حكمه وحكمته؟ فالله ما أخصر لفظ هذه السورة، وأعظم شأنها، وأتم معناها. والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة التين

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

---

(١) ٣٥ التبيان.

سُورَةُ العَلَق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾.

[(١)] أول سورة أنزلها الله في كتابه سورة القلم، فذكر فيها ما منَّ به على الإنسان من تعليمه ما لم يعلم. فذكر فيها فضله بتعليمه، وتفضيله الإنسان بما علمه إياه، وذلك يدل على شرف التعليم والعلم.

فقال تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [الفلق: ١ - ٥].

فافتتح السورة بالأمر بالقراءة الناشئة عن العلم وذكر خلقه خصوصًا وعمومًا. فقال: ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ ﴾.

وخص الإنسان من بين المخلوقات لما أودعه من عجائبه وآياته الدالة على ربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وكمال رحمته، وإنه لا إله غيره ولا رب سواه.

وذكر هنا مبدأ خلقه من علق لكون العلقة مبدأ الأطوار التي انتقلت إليها النطفة، فهي مبدأ تعلق التخليق، ثم أعاد الأمر بالقراءة مخبرًا عن نفسه بأنه الأكرم، وهو الأفعل من الكرم وهو كثرة الخير، ولا أحد أولى بذلك منه سبحانه فإنه الخير كله بيديه والخير كله منه، والنعم كلها هو موليها، والكمال كله والمجد كله له، فهو الأكرم حقًا.

ثم ذكر تعليمه عمومًا وخصوصًا، فقال: ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ ﴾، فهذا يدخل فيه تعليم الملائكة والناس، ثم ذكر تعليم الإنسان خصوصًا. فقال: ﴿ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ

---

(١) ٥٨ مفتاح جـ١.

يَعۡلَمۡ ﴾ فاشتملت هذه الكلمات على أنه معطي الموجودات كلها بجميع أقسامها. فإن الوجود له مراتب أربع:

إحداها: مرتبتها الخارجية المدلول عليها بقوله: ﴿ خَلَقَ﴾.

المرتبة الثانية: الذهنية المدلول عليها بقوله: ﴿ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾.

المرتبة الثالثة والرابعة: اللفظية والخطية، فالخطية مصرح بها في قوله: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ ﴾، واللفظية من لوازم التعليم بالقلم، فإن الكتابة فرع النطق، والنطق فرع التصور.

فاشتملت هذه الكلمات على مراتب الوجود كلها، وأنه سبحانه هو معطيها بخلقه وتعليمه فهو الخالق المعلم. وكل شيء في الخارج فبخلقه وجد. وكل علم في الذهن فبتعليمه حصل. وكل لفظ في اللسان أو خط في البنان فبإقداره وخلقه وتعليمه. وهذا من آيات قدرته وبراهين حكمته لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

والمقصود أنه سبحانه تعرف إلى عباده بما علمهم إياه بحكمته من الخط واللفظ والمعنى، فكان العلم أحد الأدلة الدالة عليه، بل من أعظمها وأظهرها، وكفى بهذا شرفًا وفضلًا له.

(١)تنبيه ثم تأمل نعمة الله على الإنسان بالبيانين: البيان النطقي، والبيان الخطي، وقد اعتد بهما سبحانه في جملة من اعتد به من نعمه على العبد، فقال في أول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾ [العلق: ١ - ٥] إعطاء الوجود الخارجي.

ثم ذكر ثانيًا خصوص خلق الإنسان، لأنه موضع العبرة، والآية فيه عظيمة، ومن شهوده عما فيه محض تعدد النعم، وذكر مادة خلقه هاهنا من العلقة، وفي سائر

---

(١) ٢٧٨ مفتاح جـ١.

المواضع يذكر ما هو سابق عليها، إما مادة الأصل وهو التراب والطين. أو الصلصال الذي كالفخار، أو مادة الفرع وهو الماء المهين. وذكر في هذا الموضع أول مبادئ تعلق التخليق وهو العلقة، فإنه كان قبلها نطفة فأول انتقالها إنما هو إلى العلقة.

ثم ذكر ثالثًا: التعليم بالقلم الذي هو من أعظم نعمه على عباده، إذ به تخلد العلوم وتثبت الحقوق، وتعلم الوصايا وتحفظ الشهادات، ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس، وبه تقيد أخبار الماضين، للباقين اللاحقين، ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض، ودرست السنن وتخبطت الأحكام، ولم يعرف الخلف مذاهب السلف.

وكان معظم الخلل الداخل على الناس في دينهم ودنياهم إنما يعتريهم من النسيان الذي يمحور صور العلم من قلوبهم، فجعل لهم الكتاب وعاءً حافظًا للعلم من الضياع: كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان.

فنعمة الله ﷻ بتعليم القلم بعد القرآن من أجل النعم.

والتعليم به وإن كان مما يخلص إليه الإنسان بالفطنة والحيلة، فإنه الذي بلغ به ذلك، وأوصله إليه عطية وهبها الله منه، وفضل أعطاه الله وإياه، وزيادة في خلقه وفضله، فهو الذي علمه الكتابة، وإن كان هو المتعلم، ففعله فعل مطاوع لتعليم الذي علم بالقلم، فإنه علمه فتعلم، كما أن علمه الكلام فتكلم.

هذا ومن أعطاه الذهن الذي يعي به، واللسان الذي يترجم به، والبنان الذي يخط به. ومن هيأ ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات. ومن الذي أنطق لسانه وحرك بنانه. ومن الذي دعم البنان بالكف، ودعم الكف بالساعد؟.

فكم لله من آية نحن غافلون عنها في التعليم بالقلم، فقف وقفة في حال الكتابة، وتأمل حالك وقد أمسكت القلم وهو جماد، وضعته على القرطاس وهو جماد، فتولد من بينهما أنواع الحكم وأصناف العلوم، وفنون المراسلات والخطب والنظم والنثر وجوابات المسائل، فمن الذي أجرى فلك المعاني على قلبك ورسمها في ذهنك، ثم

أجرىٰ العبارات الدالة عليها علىٰ لسانك، ثم حرك بها بنانك حتىٰ صارت نقشًا عجيبًا، معناه أعجب من صورته، فتقضي به مآربك، وتبلغ به حاجة في صدرك، وترسله إلىٰ الأقطار النائية والجهات المتباعدة، فيقوم مقامك ويترجم عنك، ويتكلم علىٰ لسانك، ويقوم مقام رسولك، ويجدي عليك ما لا يجدي من ترسله، سوىٰ من علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم.

والتعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاث: مرتبة الوجود الذهني، والوجود اللفظي، والوجود الرسمي، فقد دل التعليم بالقلم علىٰ أنه سبحانه هو المعطي لهذا المراتب. ودل قوله: ﴿خَلَقَ﴾ علىٰ أنه يعطي الوجود اللفظي.

فدلت هذه الآيات مع اختصارها ووجازتها وفصاحتها، علىٰ أن مراتب الوجود بأسرها مسندة إليه ـ تعالىٰ ـ خلقًا وتعليمًا.

وذكر خلقين وتعليمين خلقًا عامًا، وخلقًا خاصًا، وتعليمًا خاصًا، وتعليمًا عامًا، وذكر من صفاته هاهنا اسم الأكرم الذي فيه كل خير، وكل كمال.

فله كل كمال وصفًا، ومن كل خير فعلًا، فهو الأكرم في ذاته وأوصافه وأفعاله، وهذا الخلق والتعليم إنما نشأ من كرمه وبره وإحسانه، لا من حاجة دعته إلىٰ ذلك، وهو الغني الحميد.

***

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾.

(١) لم يقل: إن استغنىٰ، بل جعل الطغيان ناشئًا عن رؤية غنىٰ نفسه، ولم يذكر هذه الرؤية في سورة الليل، بل قال: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٨ ـ ١٠] وهذا ـ والله أعلم ـ لأنه ذكر موجب طغيانه، وهو رؤية غنىٰ نفسه، وذكر في سورة الليل موجب هلاكه وعدم تيسيره لليسرىٰ، وهو

(١) ١٤ طريق الهجرتين.

استغناؤه عن ربه بترك طاعته وعبوديته، فإنه لو افتقر إليه لتقرب إليه بما أمره من طاعته، فعل المملوك الذي لا غنى له عن مولاه طرفة عين، ولا يجد بدًا من امتثال أوامره، ولذلك ذكر معه بخله وهو تركه إعطاء ما وجب عليه من الأقوال والأعمال وأداء المال. وجمع إلى ذلك تكذيبه بالحسنى، وهي التي وعد بها أهل الإحسان بقوله: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦].

ومن فسرها بشهادة أن لا إله إلا الله، فلأنها أصل الإحسان، وبها تنال الحسنى، ومن فسرها بالخلف في الإنفاق، فقد هضم المعنى حقه، وهو أكبر من ذلك، وإن كان الخلف جزءًا من أجزاء الحسنى.

والمقصود أن الاستغناء عن الله سبب هلاك العبد وتيسيره لكل عسرى، ورؤيته غنى نفسه سبب طغيانه، وكلاهما مناف للفقر والعبودية.

(١)...قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦، ٧] فإذا كان هذا غنى بالحطام الفاني، فكيف بالغنى بما هو أعلى من ذلك وأكثر؟ فصاحب هذا إن لم يصحبه حذر المكر: خيف عليه أن يسلبه وينحط عنه.

و«المكر» الذي يخاف عليه منه: أن يغيب الله سبحانه عنه شهود أوليته في ذلك ومنته وفضله، وأنه محض منته عليه، وأنه به وحده، ومنه وحده. فيغيب عن شهود حقيقة قوله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣]. وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. وقوله: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ ﴾ [يونس: ١٠٧]. وقوله: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص: ٨٦]. وقوله: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾ [النور: ٢١]. وأمثال ذلك.

---

(١) ١٠٧ مدارج جـ٣.

فيغيبه عن شهود ذلك، ويحيله على معرفته في كسبه وطلبه، فيحيله على نفسه التي لها الفقر بالذات، ويحجبه عن الحوالة على المليء الوفي الذي له الغنى التام كله بالذات، فهذا من أعظم أسباب المكر. والله المستعان.

[(١)]ولو بلغ العبد من الطاعة ما بلغ، فلا ينبغي له أن يفارقه هذا الحذر. وقد خافه خيار خلقه، وصفوته من عباده. قال شعيب ﷺ، وقد قال له قومه: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۝ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ﴾ إلى قوله: ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩] فرد الأمر إلى مشيئة الله تعالى وعلمه، أدبًا مع الله، ومعرفة بحق الربوبية، ووقوفًا مع حد العبودية.

وكذلك قال إبراهيم ﷺ، لقومه ـ وقد خوفوه بآلهتهم ـ فقال: ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [الأنعام: ٨٠] فرد الأمر إلى مشيئة الله وعلمه. وقد قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩].

***

﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝ ﴾.

[(٢)]ما الفائدة في إبدال النكرة من المعرفة وتبيينها بها، فإن كانت الفائدة في النكرة فلم ذكرت المعرفة؟ وإن كانت في المعرفة فما بال ذكر النكرة؟!

قيل: هذا فيه نكتة بديعة، وهي أن الحكم قد يعلق بالنكرة السابقة فتذكر، ويكون الكلام في معرض أمر معين في الجنس مدحًا أو ذمًا، فلو اقتصر على ذكر المعرفة لاختص الحكم به، ولو ذكرت النكرة وحدها لخرج الكلام عن التعرض لذلك

---

(١) ١٠٧ مدارج جـ٣.

(٢) ٨ بدائع جـ٢.

المعين، فلما أريد الجنس أتى بالنكرة ووصفت إشعارًا بتعليق الحكم بالوصف، ولما أتى بالمعرفة كان تنبيهًا على دخول ذلك المعين قطعًا.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق: ١٥، ١٦] فإن الآية كما قيل نزلت في أبي جهل، ثم تعلق حكمها بكل من اتصف به، فقال: ﴿لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ تعيينًا ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ﴾ تعدية وتعميمًا[1]، ولذلك اشترط في النكرة في هذا الباب أن تكون منعوتة لتحصل الفائدة المذكورة، وليتبين المراد.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة العلق

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

(١) ما أثبتناه في المخطوطة. وفي المطبوعة: «لعدمه وتنبيهًا». (ج).

سُورَةُ القَدْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾.

[(١)]سئل ﷺ عن ليلة القدر، أفي رمضان أو في غيره؟ قال: «بل في رمضان» فقيل: تكون مع الأنبياء ما كانوا فإذا قبضوا رفعت أم هي إلىٰ يوم القيامة؟ قال: «بل هي إلىٰ يوم القيامة» فقيل: في أي رمضان هي؟ قال: «التمسوها في العشر الأول، أو في العشر الآخر» فقيل: في أي العشرين؟ قال: «ابتغوها في العشر الأواخر، لا تسألني عن شيء بعدها» فقال: أقسمت عليك بحقي عليك لما أخبرتني في أي العشر هي، فغضب غضبًا شديدًا، وقال: «التمسوها في السبع الأواخر، لا تسألن عن شيء بعدها»[(٢)] ذكره أحمد، والسائل أبو ذر.

وعند أبي داود أنه ﷺ سئل عن ليلة القدر فقال: «في كل رمضان»[(٣)].

وسئل عنها أيضًا فقال: «كم الليلة؟» فقال السائل: ثنتان وعشرون، فقال: «هي الليلة» ثم رجع فقال: «أو القابلة» يريد ثلاثًا وعشرين[(٤)]، ذكره أبو داود.

---

(١) ٢٨٩ أعلام جـ٤.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٧١) والنسائي في الكبرىٰ (٢/ ٢٧٨ رقم ٣٤٢٧) وابن خزيمة (٣/ ٣٢١ رقم ٢١٧٠) والحاكم (٢/ ٥٧٨ رقم ٣٩٦٠) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٨٥) والبيهقي في الشعب (٣/ ٣٢٥ رقم ٣٦٧١) وانظر: التمهيد (٢/ ٢١٣-٢١٤).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ١٣٨٧) والبيهقي في الكبرىٰ (٤/ ٣٠٧ رقم ٨٣٠٩) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٨٤) وعبد الرزاق (٤/ ٢٥٥ رقم ٧٧٠٩) وانظر: التمهيد (٢/ ٢٠٠).

(٤) أخرجه أبو داود (رقم ١٣٧٩) والنسائي في الكبرىٰ (٢/ ٢٧٢ رقم ٣٤٠١) والبيهقي في الشعب (٣/ ٣٢٦ رقم ٣٦٧٥) وانظر: فتح الباري (٤/ ٢٦٤) وعون المعبود (٤/ ١٧٨).

وسأله ﷺ عبدالله بن أنيس: متى نلتمس هذه الليلة المباركة؟ فقال: «التمسوها هذه الليلة» وذلك مساء ليلة ثلاث وعشرين[(١)].

وسألته ﷺ عائشة ـ رضي الله عنها ـ: إن وافقتها فبم أدعو؟ قال: «قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني»[(٢)] حديث صحيح.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة القدر

والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه ابن خزيمة (٣/ ٣٢٨ رقم ٢١٨٥) وأحمد (٣/ ٤٩٥) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٨٦) وانظر: التمهيد (٢١/ ٢١٣).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١٧١) والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٠٧ رقم ٧٧١٢) وابن ماجه (رقم ٣٨٥٠) وإسحاق بن راهويه في مسنده (٣/ ٧٤٨ رقم ١٣٦١) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٣٣٥ رقم ١٤٧٤) والحاكم (١/ ٧١٢ رقم ١٩٤٢). وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين. والبيهقي في الشعب (٣/ ٣٣٨ رقم ٣٧٠٠).

سورة البينة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾.

[(١)] من منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ منزلة «الإخلاص».

قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: ٥]. وقال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾ [الزمر: ٢، ٣].

وقال لنبيه ﷺ: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ ﴾ [الزمر: ١٤، ١٥] وقال له: ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وقال: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ ﴾ قال الفضيل بن عياض: هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصًا، ولم يكن صوابًا، لم يقبل. وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا: لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة[(٢)]. ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ [الكهف: ١١٠]. وقال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ ﴾ [النساء: ١٢٥] فإسلام الوجه: إخلاص القصد والعمل لله. والإحسان فيه: متابعة رسوله

---

(١) ٨٩ بدائع جـ٢.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٩٥) وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٠٩) وجامع العلوم والحكم (١/ ١٣-١٤).

ﷺ وسنته. وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وهي الأعمال التي كانت على غير السنة. أو أريد بها غير وجه الله.

قال النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص ﷺ: «**إنك لن تخلف، فتعمل عملًا تبتغي به وجه الله تعالى: إلا ازددت به خيرًا، ودرجة ورفعة**»(١).

وفي الصحيح من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر. ولزوم جماعة المسلمين. فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**»(٢) أي: لا يبقى فيه غل، ولا يحمل الغل مع هذه الثلاثة، بل تنفي عنه غله.وتنقيه منه. وتخرجه عنه. فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل. وكذلك يغل على الغش. وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة. فهذه الثلاثة تملؤه غلًا ودغلًا. ودواء هذا الغل. واستخراج أخلاطه: بتجريد الإخلاص والنصح، ومتابعة السنة.

وسئل رسول الله ﷺ عن الرجل: يقاتل رياء، ويقاتل شجاعة. ويقاتل حمية: أي: ذلك في سبيل الله؟فقال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(٣).

وأخبر عن أول ثلاثة تسعر بهم النار: قارئ القرآن، والمجاهد، والمتصدق بماله، الذين فعلوا ذلك ليقال: فلان قارئ، فلان شجاع، فلان متصدق(٤)، ولم تكن أعمالهم

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٢٩٥) ومسلم (رقم ١٦٢٨) وانظر: شرح النووي (١١/ ٧٨) وعمدة القاري (٨/ ٨٨-٩٠).

(٢) أخرجه أبو نعيم في المسند المستخرج على صحيح مسلم (رقم ١١) وابن حبان (٢/ ٤٥٤-٤٥٥ رقم ٦٨٠) والترمذي (رقم ٢٦٥٨) وابن ماجه (رقم ٣٠٥٦) والدرامي (رقم ٢٢٨) والحميدي في مسنده (١/ ٤٧ رقم ٨٨) والطبراني في الأوسط (٩/ ١٧٠-١٧١ رقم ٩٤٤٤) وأحمد (٣/ ٢٢٥) والبيهقي في الشعب (٦/ ٦٦ رقم ٧٥١٤).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٢٣) ومسلم (رقم ١٩٠٤) وانظر: فتح الباري (١/ ١١) (٦/ ٢٨). وشرح النووي (١٣/ ٤٩-٥٠).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ١٩٠٥) وانظر: شرح النووي (١٣/ ٥٠-٥١).

خالصة لله.

وفي الحديث الصحيح الإلهي يقول الله تعالى: «**أنا أغني الشركاء عن الشرك. من عمل عملًا أشرك فيه غيري فهو للذي أشرك به. وأنا منه بريء**»[(١)].

[(٢)]﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: ٥]. فنفى سبحانه أن يكون أمر عباده بغير العبادة التي قد أخلص عاملها له فيها النية.

ومعلوم أن إخلاص النية للمعبود أصل لنية أصل العبادة، فإذا لم يأمرهم إلا بعمل هو عبادة قد أخلص عاملها النية فيها لربه ﷻ.

ومعلوم أن النية جزء من العبادة، بل هي روح العبادة كما تبين علم أن العمل الذي لم ينو ليس بعبادة ولا مأمور به، فلا يكون فاعله متقربًا به إلى الله تعالى، وهذا مما لا يقبل نزاعًا.

ومن نكت المسألة أن يفرق بين الأفعال التي لا تقع إلا منوية عادة وبين الأفعال التي تقع منوية وغير منوية.

فالأولى كالوضوء المرتب عضوًا بعد عضو، فإنه لا يكاد يتصور وقوعه من غير نية، فإن علم الفاعل بما يفعله وقصده له هو النية، والعاقل المختار لا يفعل فعلًا إلا مسبوقًا بتصوره وإرادته، وذلك حقيقة النية، فليست النية أمرًا خارجًا عن تصور الفاعل وقصده لما يريد أن يفعله.

وبهذا يعلم غلط من ظن أن للتلفظ مدخلًا في تحصيل النية. فإن القائل إذا قال: نويت صلاة الظهر أو نويت رفع الحدث. إما أن يكون مخبرًا أو منشئًا. فإن كان مخبرًا فإما أن يكون إخباره لنفسه أو لغيره، وكلاهما عبث لا فائدة فيه، لأن الإخبار إنما يفيد إذا تضمن تعريف المخبر ما لم يكن عارفًا به، وهذا محال في إخباره لنفسه.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٩٨٥) وانظر: شرح النووي (١٨/ ١١٥-١١٦).
(٢) ١٨٩ بدائع جـ١.

وإن كان إخبارًا لغيره بالنية فهو عبث محض، وهو غير مشروع ولا مفيد، وهو بمثابة إخباره له بسائر أفعاله من صومه وصلاته وحجه وزكاته، بل بمنزلة إخباره له عن إيمانه وحبه وبغضه، بل قد تكون في هذه الأخبار فائدة، وأما إخبار المأمومين أو الإمام أو غيرهما بالنية فعبث محض ولا يصح أن يكون ذلك إنشاء، فإن اللفظ لا ينشئ وجود النية، وإنما إنشاؤها إحضار حقيقتها في القلب، لا إنشاء اللفظ الدال عليها. فعلم بهذا أن التلفظ بها عبث محض، فتأمل هذه النكتة البديعة...

(١)قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

أي كما أنه إله واحد لا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده، فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية. فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء المقيد بالسنة. وكان من دعاء عمر بن الخطاب ﷺ: «اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا. ولا تجعل لأحد فيه شيئًا» وهذا الشرك في العبادة يبطل ثواب العمل، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجبًا، فإنه ينزله منزلة من لم يعمله فيعاقب على ترك الأمر، فإن الله سبحانه إنما أمر بعبادته خالصة، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة: ٥] فمن لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أمر به، بل الذي أتى به شيء غير المأمور به، فلا يصح ولا يقبل منه، ويقول الله تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملًا أشرك معي فيه غيري فهو للذي أشرك به، وأنا منه بريء»(٢) وهذا الشرك ينقسم إلى أكبر وأصغر ومغفور وغير مغفور. والنوع الأول ينقسم إلى كبير وأكبر، وليس شيء منه مغفور، فمنه الشرك بالله في المحبة والتعظيم بأن يحب مخلوقًا كما يحب الله، فهذا من الشرك الذي لا يغفره الله،

---

(١) ١٧٦ الجواب الكافي.
(٢) تقدم تخريجه آنفاً.

وهو الشرك الذي قال سبحانه فيه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾ [البقرة: ١٦٥] وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعتهم الجحيم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨] ومعلوم أنهم ما سووهم به سبحانه في الخلق والرزق والإماتة والإحياء والملك والقدرة، وإنما سووهم به في الحب والتأله والخضوع والتذلل، وهذا غاية الجهل والظلم...

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة البينة

والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾.

(١) إذا غصب مالًا وبنى به رباطًا أو مسجدًا أو قنطرة فهل ينفعه ذلك أو يكون الثواب للمغصوب منه؟ قال ابن عقيل: لا ثواب على ذلك لواحد منهما: أما الغاصب فعليه العقوبة وجميع تصرفاته في مال الغير آثام متكررة. وأما صاحب المال فلا وجه لثوابه، لأن ذلك البناء لما يكن له فيه نية ولا حسبة وما لم يكن للمكلف فيه عمل ولا نية فلا يثاب عليه، وإنما يطالب غاصبه يوم القيامة فيأخذ من حسناته بقدر ماله.

قلت: في هذا نظر، لأن النفع الحاصل للناس متولد من: مال هذا، وعمل هذا. والغاصب وإن عوقب على ظلمه وتعديه، واقتص المظلوم من حسناته فما تولد من نفع الناس بعمله له، وغصب المال عليه وهو لو غصبه وفسق به لعوقب عقوبتين، فإذا غصبه وتصدق به أو بنى به رباطًا أو مسجدًا أو فك به أسيرًا، فإنه قد عمل خيرًا وشرًا ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[الزلزلة: ٧، ٨].

وأما ثواب صاحب المال فإنه وإن لم يقصد ذلك فهو متولد من مال اكتسبه، فقد تولد من كسبه خير لم يقصده، فيشبه ما يحصل له من الخير بولده البار، وإن لم يقصد ذلك الخير.

وأيضًا فإن أخذ ماله مصيبة، فإذا أنفق في خير فقد تولد له من المصيبة خير، والمصائب إذا ولدت خيرًا لم يعدم صاحبها منه ثوابًا، وكما أن الأعمال إذا ولدت خيرًا أثيب عليه وإن لم يقصده، فالمصائب إذا ولدت خيرًا لم يمنع أن يثاب عليه وإن لم

---

(١) ١٧١ بدائع جـ٣.

يقصده، والله أعلم.

[(١)]وسئل ﷺ عن الخمر؛ فقال: «ما أنزل عليَّ فيها إلا هذه الآية الجامعة الفاذة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾»[(٢)] ذكره مسلم.

وسألته ﷺ أم سلمة فقالت: إني ألبس أوضاحًا من ذهب، أكنز هو؟ قال: «ما بلغ أن تؤدي زكاته فزكي فليس بكنز» ذكره مالك[(٣)].

وسئل ﷺ: في المال حق سوى الزكاة؟ قال: «نعم»، ثم قرأ: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾[(٤)] [البقرة: ١٧٧] ذكره الدارقطني.

وسألته ﷺ امرأة فقالت: إن لي حليًا، وإن زوجي خفيف ذات اليد، وإن لي ابن أخ، أفيجزئ عني أن أجعل زكاة الحلي فيهم؟ قال: «نعم»[(٥)].

وذكر ابن ماجه أن أبا سيارة سأله فقال: إن لي نخلًا، فقال: «أد العشر» فقلت: يا رسول الله أحمها لي، فحماها لي[(٦)].

---

(١) ٢٨٩ أعلام جـ٤.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٣٧١) ومسلم (رقم ٩٨٧) وانظر: فتح الباري (٦/ ٦٥) وشرح النووي (٧/ ٦٥-٦٨).

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٥٤٧ رقم ١٤٣٨) وأبو داود (رقم ١٥٦٤) والبيهقي في الكبرى (٤/ ٨٣ رقم ٧٠٢٦) والدارقطني (٢/ ١٠٥ رقم ١) والطبراني في الكبير (٢٣/ ٢٨١ رقم ٦١٣) وفي مسند الشاميين (٣/ ٢٩٠ رقم ٢٢٨٧) وصححه الحاكم وقال بدر الدين العيني في عمدة القاري (٨/ ٢٥٤): وإسناده جيد ورجاله رجال البخاري.

(٤) أخرجه الدارقطني (٢/ ١٠٧ رقم ٣).

(٥) أخرجه الدارقطني (٢/ ١٠٨ رقم ٦).

(٦) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٨٢٣) والبيهقي في الكبرى (٤/ ١٢٦ رقم ٧٢٤٩) وابن أبي شيبة (٢/ ٣٧٣ رقم ١٠٠٥٠) والطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٥١ رقم ٨٨٠) والطيالسي (رقم ١٢١٤) وقال البيهقي: وهذا أصح ما روي في وجوب العشر فيه وهو منقطع. قال أبو عيسى الترمذي: سألت محمد بن إسماعيل البخاري عن هذا؟ فقال: هذا حديث مرسل، وسليمان بن موسى لم يدرك أحداً من أصحاب النبي ﷺ، و ليس في زكاة العسل شيء يصح.

وسأله ﷺ العباس عن تعجيل زكاته قبل أن يحول الحول، فأذن له في ذلك[(١)]، ذكره أحمد.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الزلزلة

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٠٤) والضياء في المختارة (٢/ ٣٥ رقم ٤١١) والحاكم (٣/ ٣٧٥ رقم ٥٤٣١) وابن الجارود في المنتقى (رقم ٣٦٠) وابن خزيمة (٤/ ٤٨ رقم ٢٣٣٠) وأبو داود (رقم ١٦٢٤) وابن ماجه (رقم ١٧٩٥) والبيهقي في الكبرى (٤/ ١١١ رقم ٧١٥٧) والترمذي (رقم ٦٧٨) والدارمي (رقم ١٦٣٦) وانظر: فتح الباري (٣/ ٣٣٤).

سُورَةُ العَادِيَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۝ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝ ﴾.

(١) الله ﷻ أقسم بالخيل في كتابه، وذلك يدل على شرفها وفضلها عنده، قال تعالى: ﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۝ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝ ﴾ [العاديات: ١ ـ ٣] أقسم سبحانه بالخيل تعدو في سبيله. والضبح صوت في أجوافها عند جريها. فالموريات قدحًا. توري النار بحوافرها عندما تصك الحجارة. ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴾ [العاديات: ٤] النقع الغبار تثيره الخيل عند عدوها، والضمير في [به] قيل: يعود على القدح، وهو ضعيف، فإن الغبار لا يثار بالقدح.

وقيل: عائد على المغار المدلول عليه بقوله: فالمغيرات أي: أثرن بالمغار غبارًا لكثرة جولانها فيه. ويجوز أن يعود على المغار، الذي هو مصدر، أي الغبار بسبب الإغارة. ويجوز أن يعود على العدو المفهوم من لفظ العاديات. والضمير في [به] الثانية مثل الأولى.

وقيل: عائد على النفع. أي وسطن جمعًا ملتبسات بالنقع، وعلى هذا فجمع هنا بجمع العدو، وهذا قول ابن مسعود.

وقال علي: المراد بها إبل الحاج، أقسم الله سبحانه بها لعدوها في الحج، الذي هو في سبيله، وجمع الذي وسطن به هو مزدلفة، أخرت وقت الصبح. والقول الأول أرجح لوجوه:

أحدها: أن المستعمل بالضبح إنما هو الخيل، ولهذا قال أهل اللغة: الضبح صوت أنفاس الخيل إذا عدت، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ﴾ ويقال أيضًا:

---

(١) ١٢ الفروسية.

ضبح الثعلب.

الثاني: وصفها بأنها توري النار من الحجارة عند عدوها، وهذا مشهود في الخيل لقرع سنابكها من الحديد الصفا، فيتولد قدح النار من بينهما، كما يتولد من الحديد والصوان عند القدح.

الثالث: أنه وصفها بالإغارة، وهي وإن استعملت للإبل كما كانت قريش تقول: «أشرق ثبير كيما نغير» لكن استعمالها في إغارة الغزو أكثر.

الرابع: أنه سبحانه وقت الإغارة بالضبح، والحاج عند الصبح لا يغيرون، وإنما يكونون بموقف مزدلفة، وقريش إذ ذاك لم تكن تغير حتى تطلع الشمس، فلم تكن تغير بالصبح قريش ولا غيرها من العرب. في الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان في الغزو لا يغير حتى يصبح، فإذا أصبح فإن سمع أذانًا أمسك ولا أغار[1].

الخامس: أنه سبحانه عطف توسط الجمع بالفاء، التي هي للترتيب بعد الإغارة، وهذا يقتضي أنها أغارت وقت الصبح، فتوسط الجمع بعد الإغارة. ومن المعلوم أن إبل الحاج لها إغارتان: إغارة في أول الليل إلى جمع، وإغارة قبل طلوع الشمس منها إلى منى. والإغارة الأولى قبل الصبح، ولا يمكن الجمع بينهما وبين وقت الصبح وبين توسط جمع، وهذا ظاهر.

السادس: أن النقع هو الغبار وجمع مزدلفة وما حوله كله صفا، وهو واد بين جبلين لا غبار به تثيره الإبل، والله أعلم بمراده من كلامه.

[2]ومن ذلك إقسامه سبحانه: ﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۝ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝ ﴾ [العاديات: ١، ٣].

وقد اختلف الصحابة ومن بعدهم في ذلك، فقال علي بن أبي طالب، وعبد الله بن

(١) أخرجه مسلم (رقم ٣٨٢) وانظر: فتح الباري (٢/ ٩٠).
(٢) ٤٨ التبيان.

مسعود ـ رضي الله عنهما ـ: هي إبل الحاج، تعدو من عرفة إلىٰ مزدلفة، ومن مزدلفة إلىٰ منىٰ(١)، وهذا اختيار محمد بن كعب، وأبي صالح، وجماعة من المفسرين.

وقال عبدالله بن عباس: هي خيل الغزاة، وهذا قول أصحاب ابن عباس، والحسن، وجماعة، واختاره الفراء، والزجاج.

قال أصحاب الإبل. السورة مكية، ولم يكن ثم جهاد ولا خيل تجاهد. وإنما أقسم بما يعرفونه ويألفونه، وهي إبل الحاج إذا عدت من عرفة إلىٰ مزدلفة، فهي عاديات، والضبح والضبع مد الناقة ضبعها في السير، يقال ضبحت وضبعت بمعنىٰ واحد، وأنشد أبو عبيدة، وقد اختار هذا القول:

فكان لكم أجرىٰ جميعًا وأضبحت بي البازل الوجناء في الآل تضبح

قالوا: فهي تعدو ضبحًا، فتوري بأخفافها النار من حك الأحجار بعضها ببعض، فتثير النقع ـ وهو الغبار ـ بعدوها، فيتوسط جمعًا، وهي المزدلفة.

قال أصحاب الخيل: المعروف في اللغة أن الضبح أصوات أنفاس الخيل إذا عدون، والمعنىٰ والعاديات ضابحة، فيكون ضبحًا مصدرًا علىٰ الأول، وحالًا علىٰ الثاني.

قالوا: والخيل هي التي تضبح في عدوها ضبحًا، وهو صوت يسمع من أجوافها، ليس بالصهيل ولا الحمحمة، ولكن صوت أنفاسها في أجوافها من شدة العدو. وقال الجرجاني: كلا القولين قد جاء في التفسير، إلا أن السياق يدل علىٰ أنها الخيل، وهو قوله تعالىٰ: ﴿ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴾ والإيراء لا يكون إلا للحافر، لصلابته. وأما الخف فيه لين واسترخاء. انتهىٰ.

قالوا: والضبح في الخيل أظهر منه في الإبل، والإيراء لسنابك الخيل أبين منه

---

(١) مال إلىٰ تحسين إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ٧٢٧) وانظر: تخريج الأحاديث والآثار للزيلعي (٤/ ٢٦٦).

لأخفاف الإبل. قالوا: والنقع هو الغبار، وإثارة الخيل بعدوها له أظهر من إثارة أخفاف الإبل، والضمير في [به] عائد على المكان الذي تعدو فيه.

قالوا: وأعظم ما يثير الغبار عند الإغارة إذا توسطت الخيل جمع العدو، لكثرة حركتها واضطرابها في ذلك المكان.

وأما حمل الآية في إثارة الغبار في وادي محسر عند الإغارة، فليس بالبين، ولا يثور هناك غبار في الغالب، لصلابة المكان.

قالوا: وأما قولكم: إنه لم يكن بمكة حين نزول الآية جهاد ولا خيل تجاهد، فهذا لا يلزم، لأنه سبحانه أقسم بما يعرفونه من شأن الخيل إذا كانت في غزو، فأغارت فأثارت النقع، وتوسطت جمع العدو. وهذا أمر معروف. وذكر خيل المجاهدين أحق ما دخل في هذا الوصف، فذكره على وجه التمثيل لا الاختصاص، فإن هذا شأن خيل المقاتلة. وأشرف أنواع الخيل خيل المجاهدين. والقسم إنما وقع بما تضمنه شأن هذه العاديات من الآيات البينات من خلق هذا الحيوان الذي هو من أكرم البهيم وأشرفه، وهو الذي يحصل به الغزو والظفر، والنصر على الأعداء، فيعدو طالبة للعدو وهاربة منه، فيثير عدوها الغبار لشدته، وتوري حوافرها وسنابكها النار من الأحجار، لشدة عدوها، فتدرك الغارة التي طلبتها حتى تتوسط جمع الأعداء.

فهذا من أعظم آيات الرب تعالى، وأدلة قدرته وحكمته. فذكرهم بنعمه عليهم في خلق هذا الحيوان الذي ينتصرون به على أعدائهم، ويدركون به ثأرهم.

كما ذكرهم سبحانه بنعمه عليهم في خلق الإبل التي تحمل أثقالهم من بلد إلى بلد، فالإبل أخص بحمل الأثقال، والخيل أخص بنصرة الرجال، فذكرهم بنعمه بهذا وهذا، وخص الإغارة بالصبح لأن العدو لم ينتشروا إذ ذاك ولم يفارقوا محلهم، وأصحاب الإغارة حامون مستريحون، ويبصرون مواقع الغارة والعدو لم يأخذوا أهبتهم، بل هم في غرتهم وغفلتهم، ولهذا كان النبي ﷺ إذا أراد الغارة صبر حتى يطلع الفجر، فإن سمع مؤذنًا أمسك، وإلا أغار.

ولما علم أصحاب الإبل أن أخفافها أبعد شيء من وري النار تأولوا الآية على وجوه بعيده. فقال محمد بن كعب: هم الحاج إذا أوقدوا نيرانهم ليلة المزدلفة، وعلى هذا فيكون التقدير: فالجماعات الموريات، وهذا خلاف الظاهر. وإنما الموريات هي العاديات، وهي المغيرات.

روي سعيد بن جبير عن ابن عباس: هم الذين يغيرون، فيورون بالليل نيرانهم لطعامهم وحاجتهم، كأنهم أخذوه من قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴾ [الواقعة: ٧١] وهذا إن أريد به التمثيل، وأن الآية تدل عليه فصحيح، وأن أريد به اختصاص الموريات فليس كذلك، لأن الموريات هي العاديات بعينها. ولهذا عطفها عليه بالفاء التي للتسبب، فإنها عدت فأورت.

وقال قتادة: الموريات هي الخيل توري نار العداوة بين المقتتلين، وهذا ليس بشيء، وهو بعيد من معنى الآية وسياقها.

وأضعف منه قول عكرمة: هي الألسنة توري نار العداوة بعظيم ما نتكلم به. وأضعف منه ما ذكر عنه مجاهد: هي أفكار الرجال، توري نار المكر والخديعة في الحرب.

وهذه الأقوال إن أريد أن اللفظ دل عليها وأنها هي المراد فغلط، وأن أريد أنها أخذت من طريق الإشارة والقياس فأمرها قريب.

وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول: تفسير على اللفظ. وهو الذي ينحو إليه المتأخرون. وتفسير على المعنى. وهو الذي يذكره السلف. وتفسير على الإشارة والقياس وهو الذي ينحو إليه كثير من الصوفية وغيرهم. وهذا لا بأس به بأربعة شرائط: أن لا يناقض معنى الآية، وأن يكون معنى صحيحًا في نفسه، وأن يكون في اللفظ إشعار به، وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم. فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطا حسنًا.

وأضعف من ذلك كله قول ابن جريج: قدحًا، يعني: فالمنجحات أمرًا، يريد

البالغين بنجحهم فيما طلبوه، وعطف قوله: ﴿ فَأَثَرْنَ ﴾، ﴿ فَوَسَطْنَ ﴾، وهما فعلان على العاديات، والموريات لما فيه من معنى الفعل.

وكان ذكر الفعل في (أثرن ووسطن) أحسن من ذكر الاسم، لأنه سبحانه قسم أفعالها إلى قسمين: وسيلة، وغاية، فالوسيلة هي العدو وما يتبعه من الإيراء والإغارة، والغاية هي توسط الجمع وما يتبعه من إثارة النقع. فهن عاديات موريات مغيرات. حتى يتوسطن الجمع ويثرن النقع، فالأول شأنهن الذي أعددن له، والثاني فعلهن الذي انتهين إليه، والله أعلم.

فهذا شأن القسم، وأما شأن المقسم عليه فهو حال الإنسان، وهو كون الإنسان كنودًا بشهادته على نفسه، أو شهادة ربه عليه، وكونه بخيلًا لحبه المال. والكنود للنعمة.

وفعله كند يكند كنودًا، مثل كفر يكفر كفورًا، والأرض الكنود التي لا تنبت شيئًا، وامرأة كندى أي كفور للمعاشرة، وأصل اللفظ منع الحق والخير، ورجل كنود إذا كان مانعًا لما عليه من الحق. وعبارات المفسرين تدور على هذا المعنى. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وأصحابه ـ رحمهم الله تعالى ـ: هو الكفور، وقيل: هو البخيل الذي يمنع رفده، ويجيع عبده، لا يعطي في النائبة. وقال الحسن: هو اللوام لربه، يعد المصائب، وينسى النعم.

***

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝ ﴾.

[(١)] لو علم هذا الظالم الجاهل أن بلاءه من نفسه ومصابه منها. وأنه أولى بكل ذم وظلم، وأنها مأوى كل سوء. ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝ ﴾ [العاديات: ٦] قال ابن

(١) ١٩١ مدارج جـ١.

عباس ومجاهد وقتادة: «كفور جحود لنعم الله». وقال أبو عبيدة: «هو قليل الخير» والأرض «الكنود» التي لا نبت بها. وقيل: التي لا تنبت شيئًا من المنافع. وقال الفضل بن عباس: «الكنود: الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإساءة الخصال الكثيرة من الإحسان».

(١)وأما قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات: ٧] فقال ابن عباس: يريد أن ربه على ذلك لشهيد. وقيل: إن الإنسان لشهيد على ذلك، إن أنكر بلسانه أشهد ربه عليه حاله.

ويؤيد هذا القول سياق الضمائر، فإن قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝﴾ [العاديات: ٨] للإنسان فافتتح الخبر عن الإنسان بكونه كنودًا، ثم ثناه بكونه شهيدًا على ذلك، ثم ختمه بكونه بخيلًا بماله لحبه وإياه.

ويؤيد قول ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه أتى بـ(على)، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ أي: مطلع عالم به. كقوله: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦] ولو أريد شهادة الإنسان لأتى بالباء. فقيل وإنه بذلك لشهيد. كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧] فلو أراد شهادة الإنسان لقال: وإنه على نفسه لشهيد. فإن كنوده المشهود به، ونفسه هي المشهود عليها.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ والخير هنا المال باتفاق المفسرين. والشديد البخيل من أحب حب المال، فحب المال هو الذي حمله على البخل. هذا قول الأكثرين. وقال ابن قتيبة: بل المعنى: إنه لشديد الحب للخير، فتكون اللام في قوله: ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ متعلقة بقوله: ﴿لَشَدِيدٌ﴾ على حد تعلق قولك: إنه لزيد لضارب. ومنعت طائفة من النحاة أن يعمل ما بعد اللام فيما قبلها، وهذه الآيات

---

(١) ٥١ التبيان.

حجة على الجواز، فإن قوله: ﴿ لِرَبِّهِۦ ﴾ معمول ﴿ لَكَنُودٌ ﴾، وقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ ﴾ معمول ﴿ لَشَهِيدٌ ﴾.

ولا وجه للتكلف البارد في تقدير عامل مقدم محذوف يفسره هذا المذكور. فالحق جواز أن لزيد لضارب، فوصف سبحانه الإنسان بكفران نعم ربه، وبخله بما آتاه من الخير فلا هو شكور للنعم، ولا محسن إلى خلقه، بل بخيل بشكره، بخيل بماله، وهذا ضد المؤمن الكريم، فإنه مخلص لربه، محسن إلى خلقه. فالمؤمن له الإخلاص والإحسان، والفاجر له الكفر والبخل.

وقد ذم الله سبحانه هذين الخلقين المهلكين في غير موضع من كتابه. كقوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ [الماعون: ٤، ٧] فالرياء ضد الإخلاص. ومنع الماعون ضد الإحسان. وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء: ٣٦، ٣٧] فاختياله وفخره من كفره وكنوده، وهذا ضد قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ ﴾ [البقرة: ٣] وقوله: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [النساء: ٣٦] وكذلك ذكر الخلقين الذميمين في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ [النساء: ٣٨] ونظيره ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [النساء: ٣٩].

ونظيره ما تقدم في سورة الليل من ذم المستغني البخيل، ومدح المعطي المصدق بالحسنى. ونظيره قوله: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴾ [الهمزة: ١، ٢] فإن الهمزة واللمزة من الفخر، والكبر، وجمع المال وتعديده من البخل. وذلك مناف لسر الصلاة والزكاة ومقصودهما.

ثم خوف سبحانه الإنسان الذي هذا وصفه حين يبعثر ما في القبور، ويحصل ما في الصدور، أي ميز، وجمع، وبين، وأظهر، ونحو ذلك، وجمع سبحانه بين القبور والصدور، كما جمع بينهما النبي ﷺ في قوله: «ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارًا»(١). فإن الإنسان يواري صدره ما فيه من الخير والشر، ويواري قبره جسمه، فيخرج الرب جسمه من قبره وسره من صدره، فيصير جسمه بارزًا على الأرض، وسره باديًا على وجهه. كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١] وقال: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٦].

ومفعول العلم «إن» علمت فيه، وكسرت لمكان اللام. وقيد سبحانه كونه خبيرًا بهم ذلك اليوم وهو خبير بهم في كل وقت إيذانًا بالجزاء، وأنه يجازيهم في ذلك اليوم بما يعلمه منهم، فذكر العلم والمراد لازمه، والله ﷻ أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة العاديات

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٥٣٣) ومسلم (رقم ٦٢٧) وانظر: فتح الباري (٨/ ١٩٨).

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ﴾.

[(١)]قوله تعالى: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ [التكاثر: ١] إلى آخرها، أخلصت هذه السورة للوعد والوعيد والتهديد، وكفى بها موعظة لمن عقلها.

فقوله تعالى: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ﴾؛ أي شغلكم على وجه لا تعذرون فيه، فإن الإلهاء عن الشيء هو الاشتغال عنه، فإن كان بقصد، فهو محل التكليف، وإن كان بغير قصد، كقوله ﷺ في الخميصة: «إنها ألهتني آنفًا عن صلاتي»[(٢)]، كان صاحبه معذورًا، وهو نوع من النسيان.

وفي الحديث: «فلها ﷺ عن الصبي»[(٣)] أي: ذهل عنه، ويقال، لها بالشيء؛ أي اشتغل به، ولها عنه؛ إذا انصرف عنه.

واللهو للقلب، واللعب للجوارح، ولهذا يجمع بينهما، ولهذا كان قوله: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ أبلغ في الذم من شغلكم، فإن العامل قد يستعمل جوارحه بما يعمل، وقلبه غير لاه به. فاللهو هو ذهول وإعراض.

والتكاثر تفاعل من الكثرة: أي مكاثرة بعضكم لبعض. وأعرض عن ذكر المتكاثر به إرادة لإطلاقه وعمومه، وإن كل ما يكاثر به العبد غير سوى طاعة الله ورسوله، وما

---

(١) ٣٠ الفوائد.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٧٣) ومسلم (رقم ٥٥٦) وانظر: فتح الباري (١/ ٤٨٣) وشرح النووي (٥/ ٤٣-٤٤).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (رقم ٨١٦) والروياني (رقم ١٠٣٧) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥٧٦).

يعود عليه بنفع معاده، فهو داخل في هذا التكاثر.

فالتكاثر في كل شيء من مال أو جاه أو رياسة أو نسوة أو حديث أو علم، ولاسيما إذا لم يحتج إليه.

والتكاثر في الكتب والتصانيف وكثرة المسائل وتفريعها وتوليدها.

والتكاثر أن يطلب الرجل أن يكون أكثر من غيره، وهذا مذموم إلا فيما يقرب إلى الله. فالتكاثر فيه منافسة في الخيرات ومسابقة إليها.

(١) إنه سبحانه أخبر أن التكاثر في جمع المال وغيره ألهى الناس وشغلهم عن الآخرة والاستعداد لها وتوعدهم على ذلك، فقال تعالى: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ﴾ [التكاثر: ١-٤].

فأخبر سبحانه أن التكاثر شغل أهل الدنيا وألهاهم عن الله والدار الآخرة، حتى حضرهم الموت، فزاروا المقابر، ولم يفيقوا من رقدة من ألهاهم التكاثر، وجعل الغاية زيارة المقابر دون الموت إيذانًا بأنهم غير مستوطنين ولا مستقرين في القبور، وأنهم فيها بمنزلة الزائرين يحضرونها مدة ثم يظعنون عنها، كما كانوا في الدنيا، كذلك زائرين لها غير مستقرين فيها، ودار القرار هي الجنة أو النار، ولم يعين سبحانه المتكاثر به، بل ترك ذكره: إما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشيء لا المتكاثر به، كما يقال شغلك اللعب واللهو، ولم يذكر ما يعلب ويلهو به.

وأما إرادة الإطلاق وهو كل ما يكاثر به العبد غيره من أسباب الدنيا من مال أو جاه أو عبيد أو إماء أو بناء أو غراس أو علم لا يبتغى به وجه الله أو عمل لا يقربه إلى الله، فكل هذا من التكاثر الملهي عن الله والدار الآخرة.

وفي صحيح مسلم من حديث عبدالله بن الشخير أنه قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ قال: يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما

(١) ١٩٦ عدة الصابرين.

تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو ليست فأبليت[(١)].

ثم أوعد سبحانه من ألهاه التكاثر وعيدًا مؤكدًا إذا عاين تكاثره هباءً منثورًا، وعلم دنياه التي كاثر بها إنما كانت خدعًا وغرورًا فوجد عاقبة تكاثره عليه لا له، وخسر هنالك تكاثره كما خسره أمثاله، وبدا له من الله ما لم يكن في حسابه، وصار تكاثره الذي شغله عن الله والدار الآخرة من أعظم أسباب عذابه، فعذب بتكاثره في دنياه، ثم عذب به في البرزخ، ثم يعذب به يوم القيامة، فكان أشقى بتكاثره إذ أفاد منه العطب دون الغنيمة والسلامة، فلم يفز من تكاثره إلا بأن صار من الأقلين، ولم يحظ به من علوه به في الدنيا إلا بأن حصل مع الأسفلين.

فيا له تكاثرًا ما أقله ورزءًا ما أجله، وغنى جالبًا لكل فقر، وخيرًا توصل به إلى كل شر، يقول صاحبه إذا انكشف عنه غطاؤه: ياليتني قدمت لحياتي، وعملت فيه بطاعة الله قبل وفاتي: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠] تلك كلمة يقوله فلا يعول عليها، ورجعة يسألها فلا يجاب إليها. وتأمل قوله أو لا «رب» استغاث بربه، ثم التفت إلى الملائكة الذين أمروا بإحضاره بين يدي ربه ـ تبارك وتعالى ـ فقال: ﴿ٱرْجِعُونِ﴾.

ثم ذكر سبب سؤال الرجعة، وهو أن يستقبل العمل الصالح فيما ترك خلفه من ماله وجاهه وسلطانه وقوته وأسبابه، فيقال له: كلا، لا سبيل لك إلى الرجعى، وقد عمرت ما يتذكر فيه من تذكر.

ولما كان شأن الكريم الرحيم أن يجيب من استقاله، وأن يفسح له في المهلة ليتذكر ما فاته، أخبر سبحانه أن سؤال هذا المفرط الرجعة كلمة هو قائلها لا حقيقة تحتها، وأن سجيته وطبيعته تأبى أن تعمل صالحًا لو أجيب، وإنما ذلك شيء يقوله بلسانه، وأنه لو رُدّ لعاد لما نهي عنه، وأنه من الكاذبين، فحكمة أحكم الحاكمين

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٩٥٨).

وعزته وعلمه وحمده يأبى إجابته إلى ما سأل، فإنه لا فائدة في ذلك ولو رُدّ لكانت حالته الثانية مثل حالته الأولى...

***

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝ ﴾.

[1] وقوله: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [التكاثر: ٥] جوابه محذوف دل عليه ما تقدم، أي: لما ألهاكم التكاثر، وإنما وجد هذا التكاثر وألهاؤه عما هو أولى بكم لما فقد منكم علم اليقين، وهو العلم الذي يصل به صاحبه إلى حد الضروريات التي لا يشك ولا يماري في صحتها وثبوتها، ولو وصلت حقيقة هذا العلم إلى القلب وباشرته لما ألهاه عن موجبه وترتب أثره عليه، فإن مجرد العلم بقبح الشيء وسوء عواقبه، قد لا يكفي في تركه، فإذا صار له علم اليقين كان اقتضاء هذا العلم لتركه أشد، فإذا صار عين يقين كجملة المشاهدات كان تخلف موجبه عنه من أندر شيء. وفي هذا المعنى قال حسان بن ثابت ﷺ في أهل بدر:

سرنا وساروا إلى بدر لحتفهم   لو يعلمون يقين العلم ما ساروا[2]

وقوله: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر: ٣، ٤].

قيل: تأكيد لحصول العلم كقوله: ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ [النبأ: ٤، ٥]. وقيل: ليس تأكيدًا بل العلم الأول عند المعاينة ونزول الموت، والعلم الثاني: في القبر. هذا قول الحسن ومقاتل، ورواه عطاء عن ابن عباس.

---

(١) ٢٠١ عدة الصابرين.

(٢) هذا البيت من بحر البسيط، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٢٩٥) والمقدسي في البدء والتاريخ (٤/ ١٩٣) والشنقيطي في أضواء البيان (٢/ ١٠٣) (٩/ ٨٢).

ويدل على صحة هذا القول عدة أوجه:

أحدها: أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل، وقد أمكن اعتباره مع فخامة المعنى وجلالته وعدم الإخلال بالفصاحة.

الثاني: توسط «ثم» بين العلمين، وهي مؤذنة بتراخي ما بين المرتبتين زمانًا وخطرًا.

الثالث: أن هذا القول مطابق للواقع، فإن المحتضر يعلم عند المعاينة حقيقة ما كان عليه ثم يعلم في القبر وما بعده ذلك علمًا هو فوق العلم الأول.

الرابع: أن علي بن أبي طالب ﷺ وغيره من السلف فهموا من الآية عذاب القبر.

قال الترمذي: حدثنا أبو كريب حدثنا حكام بن سليم الرازي عن عمرو بن أبي قيس عن الحجاج بن المنهال بن عمر عن زر عن علي ﷺ قال: ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[1].

قال الواحدي: يعني أن معنى قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في القبر.

الخامس: أن هذا مطابق لما بعده من قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٦، ٧] فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين: إطلاق الأولى وتقييد الثانية بعين اليقين. وتقدم الأولى وتراخي الثانية عنها، ثم ختم السورة بالإخبار المؤكد: بواو القسم، ولام التأكيد، والنون الثقيلة، عن سؤال النعيم، فكل أحد يسأل عن نعيمه الذي كان فيه في الدنيا هل ناله من حلاله ووجهه أم لا؟ فإذا تخلص من هذا السؤال سئل سؤالًا آخر: هل شكر الله تعالى عليه فاستعان به على طاعته أم لا؟

فالأول: سؤال عن سبب استخراجه، والثاني: عن محل صرفه.

كما في جامع الترمذي من حديث عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر عن النبي ﷺ

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٥٥) وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٤٢٤ رقم ٨٧٧) والبيهقي في إثبات عذاب القبر (رقم ٢٢٤) وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٦) وتحفة الأحوذي (٩/ ٢٠١).

قال: «**لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس، عن: عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وفي ماذا عمل فيما علم**»(١).

وفيه أيضًا عن أبي برزة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أبلاه**»(٢) قال: هذا حديث صحيح.

وفيه أيضًا من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة. يعني من النعم أن يقال له: ألم نصح جسمك، ونرويك من الماء البارد**»(٣).

وفيه أيضًا من حديث الزبير بن العوام ﷺ قال: لما نزلت ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨] قال الزبير: يا رسول الله فأي النعيم نسأل عنه، وإنما هو الأسودان: التمر والماء. قال: «**أما إنه سيكون**»(٤) قال: هذا حديث حسن.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٤١٦) والطبراني في الكبير (١٠/٨/ رقم ٩٧٧٢) وأبو يعلى (٩/١٧٨ رقم ٥٢٧١) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٨٣٩ رقم ٨٤٦) وأبو الشيخ الأصفهاني في طبقات المحدثين بأصبهان (٤/١٤٦ رقم ٥٨٩) وابن عساكر في تاريخه (١٥/٣١٦) قال المنذري في الترغيب (١/ ٧٣ رقم ٢١١): هذا الحديث حسن في المتابعات إذا أضيف إلى ما قبله.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٤١٧) والدارمي (رقم ٥٣٧) والطبراني في الأوسط (٢/ ٣٤٨ رقم ٢١٩١) وأبو يعلى (١٣/ ٤٢٨ رقم ٧٤٣٤) والروياني (٢/ ٣٣٧ رقم ١٣١٣) والخطيب البغدادي في اقتضاء العلم والعمل (رقم ١) قال الترمذي: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وانظر: فتح الباري (١١/ ٤١٤).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٥٨) وابن حبان (١٦/ ٣٦٤ رقم ٧٣٦٤) والهيثمي في موارد الظمآن (رقم ٢٥٨٥) والديلمي في الفردوس (١/ ١٨ رقم ١٩) وابن عساكر في تاريخه (٢٤/ ٢٧٠) والحاكم (٤/ ١٥٣ رقم ٧٢٠٣) والطبراني في الأوسط (١/ ٢٦ رقم ٦٢).

(٤) أخرجه الترمذي رقم (٣٣٥٦) وابن ماجه (رقم ٤١٥٨) والضياء في المختارة (٣/ ٥٤ رقم ٨٥٧) وأحمد (١/ ١٦٤) والحميدي في مسنده (١/ ٣٣ رقم ٦١) والبزار (٣/ ١٧٨ رقم ٩٦٣) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٩٣) وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

وعن أبي هريرة نحوه وقال: إنما هو الأسودان: العدو حاضر سيوفنا على عواتقنا، قال: «إن ذلك سيكون»(١) وقوله: «إن ذلك سيكون» إما أن يكون المراد به أن النعيم سكون ويحدث لكم. وإما أن يرجع إلى السؤال أي: أن السؤال يقع عن ذلك، وإن كان تمرًا وماء، فإنه من النعيم.

ويدل عليه قوله ﷺ في الحديث الصحيح، وقد أكلوا معه رطبًا ولحمًا، وشربوا من الماء البارد: «هذا من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة»(٢) فهذا سؤال عن شكره والقيام بحقه.

وفي الترمذي من حديث أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «يجاء بالعبد يوم القيامة كأنه بذج، فيوقف بين يدي الله تعالى، فيقول الله: أعطيتك، وخولتك، وأنعمت عليك، فماذا صنعت؟ فيقول: يا رب جمعته وثمرته فتركته أوفر ما كان، فارجعني آتك به، فإذا عبيد لم يقدم خيرًا، فيمضى به إلى النار»(٣).

وفيه من حديث أبي سعيد وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ قالا: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله: ألم أجعل لك سمعًا وبصرًا ومالًا وولدًا، وسخرت لك الأنعام والحرث، وتركتك ترأس وترتع، أفكنت تظن أنك ملاقي يومك

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٥٧) وابن أبي شيبة (٧/ ٨٠ رقم ٣٤٣٤٥) وأحمد (٥/ ٤٢٩) والبيهقي في الشعب (٤/ ١٤٢ رقم ٤٥٩٨) وهناد في الزهد (٢/ ٣٩٥ رقم ٧٦٨) قال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٤٢): رواه أحمد وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وحديثه حسن، وفيه ضعف لسوء حفظه، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه ابن حبان (١٢/ ١٦-١٨ رقم ٥٢١٦) والهيثمي في الموارد (رقم ٢٥٣٦) والترمذي (رقم ٢٣٦٩) والطبراني في الأوسط (٢/ ٣٦٥-٣٦٦ رقم ٢٢٤٧) وفي الصغير (رقم ١٨٥) وفي الكبير (١٩/ ٢٥١-٢٥٢ رقم ٥٦٧) قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣١٨): رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه عبدالله بن كيسان المروزي وقد وثقه ابن حبان وضعفه غيره، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٢٤٢٧) وابن المبارك في مسنده (رقم ٩٨) وفي الزهد (رقم ٣٩٤).

هذا؟ فيقول: لا. فيقول له اليوم: أنساك كما نسيتني»(١) قال: هذا حديث صحيح.

وقدم زعم الطائفة من المفسرين: أن هذا الخطاب خاص بالكفار،وهم المسئولون عن النعيم، وذكروا ذلك عن الحسن ومقاتل واختار الواحدي ذلك واحتج بحديث أبي بكر: لما نزلت هذه الآية قال: يا رسول الله أرأيت أكلة أكلتها معك ببيت أبي الهيثم بن التيهان من خبز شعير ولحم وبسر قد ذنب وماء عذاب، أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذي نسأل عنه؟ فقال رسول الله ﷺ: **«إنما ذلك لكفار»** ثم قرأ: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧].

قال الواحدي: والظاهر يشهد بهذا القول، لأن السورة كلها خطاب للمشركين وتهديد لهم.

والمعنى: أيضًا يشهد بهذا القول، وهو أن الكفار لم يؤدوا حق النعيم عليهم، حيث أشركوا به وعبدوا غيره، فاستحقوا أن يسألوا عما أنعم به عليهم توبيخًا لهم: هل قاموا بالواجب فيه أم ضيعوا حق النعمة؟ ثم يعذبون على ترك الشكر بتوحيد المنعم، قال: وهذا معنى قول مقاتل، وهو قول الحسن، قال: لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار.

قلت: ليس في اللفظ ولا في السنة الصحيحة ولا في أدلة العقل ما يقتضي اختصاص الخطاب بالكفار، بل ظاهر اللفظ وصريح السنة والاعتبار يدل على عموم الخطاب لكل من اتصف بإلهاء التكاثر له، فلا وجه لتخصيص الخطاب ببعض المتصفين بذلك.

ويدل على ذلك قول النبي ﷺ عند قراءة هذه السورة، يقول ابن آدم: مالي مالي. وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت؟ الحديث وهو في صحيح مسلم. وقائل ذلك قد يكون مسلمًا، وقد يكون كافرًا.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٩٦٨) والترمذي (رقم ٢٤٢٨).

ويدل عليه أيضًا الأحاديث التي تقدمت وسؤال الصحابة النبي ﷺ وفهمهم العموم، حتى قالوا له: وأي نعيم نسأل عنه وإنما هو الأسودان؟ فلو كان الخطاب مختصًا بالكفار لبين لهم ذلك، وقال: ما لكم ولها إنما هي للكفار؟ فالصحابة فهموا التعميم والأحاديث صريحة في التعميم، والذي أنزل عليه القرآن أقرهم على فهمم العموم.

وأما حديث أبي بكر الذي احتج به أرباب هذا القول فحديث لا يصح.

والحديث الصحيح في تلك القصة يشهد ببطلانه ونحن نسوقه بلفظه، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال: «**ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟**» قالا: الجوع يا رسول الله. قال: «**وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوما**» فقاما معه فأتى رجلًا من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته امرأته قالت: مرحبا وأهلًا. فقال لها رسول الله: «**وأين فلان؟**» قال: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه فقال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافًا مني. قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذا، فأخذ المدية، فقال له رسول الله ﷺ: «**إياك والحلوبة**» فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «**والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم**»(١) فهذا الحديث الصحيح صريح في تعميم الخطاب، وأنه غير مختص بالكفار.

وأيضًا فالواقع يشهد بعدم اختصاصه، وأن الإلهاء بالتكاثر وقع من المسلمين كثيرًا، بل أكثرهم قد ألهاه التكاثر. وخطاب القرآن عام لمن بلغه، وإن كان أول من دخل فيه المعاصرين لرسول الله ﷺ، فهو متناول لمن بعدهم، وهذا معلوم بضرورة

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٠٣٨) وانظر: شرح النووي (١٣/ ٢١٠-٢١٢).

الدين، وإن نازع فيه من لا يعتد بقوله من المستأخرين، فنحن اليوم ومن قبلنا ومن بعدنا داخلون تحت قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقرة: ١٨٣] ونظائره، كما دخل تحته الصحابة بالضرورة المعلومة من الدين، فقوله: ﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف، وهم في الإلهاء والتكاثر درجات لا يحصيها إلا الله.

فإن قيل: فالمؤمنون لم يلههم التكاثر، ولهذا لم يدخلوا في الوعيد المذكور لمن ألهاه.

قيل: هذا: هو الذي أوجب لأرباب هذا القول تخصيصه بالكفار، لأنه لم يمكنهم حمله على العموم، ورأوا أن الكفار أحق بالوعيد فخصوهم به.

وجواب هذا أن الخطاب للإنسان من حيث هو إنسان على طريقة القرآن في تناول الذم له من حيث هو إنسان كقوله: ﴿ وَكَانَ ٱلۡإِنسَـٰنُ عَجُولاً ﴾ [الإسراء: ١١] ﴿ وَكَانَ ٱلۡإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٠] ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات: ١١] ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ [الأحزاب: ٧٢] ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ ﴾ [الحج: ٦٦]. ونظائره كثيرة، فالإنسان من حيث هو عار عن كل خير من العلم النافع والعمل الصالح، وإنما الله سبحانه هو الذي يكمله بذلك، ويعطيه إياه، وليس له ذلك من نفسه، بل ليس له من نفسه إلا الجهل المضاد للعلم، والظلم المضاد للعدل، وكل علم وعدل وخير فيه فمن ربه لا من نفسه، فإلهاء التكاثر طبيعته وسجيته التي هي له من نفسه، ولا خروج له عن ذلك إلا بتزكية الله له، وجعله مريدًا للآخرة مؤثرًا لها على التكاثر بالدنيا، فإن أعطاه ذلك وإلا فهو ملتهٍ بالتكاثر في الدنيا ولابد.

وأما احتجاجه بالوعيد على اختصاص الخطاب بالكفار، فيقال: الوعيد المذكور مشترك،وهو العلم عند معاينة الآخرة، فهذا أمر يحصل لكل أحد لم يكن حاصلًا له في الدنيا، وليس في قوله: ﴿ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾ ما يقتضي دخول النار فضلًا عن التخليد

فيها، وكذلك رؤية الجحيم لا يستلزم دخولها لكل من رآها، فإن أهل الموقف يرونها ويشاهدونها عيانًا.

وقد أقسم الرب ـ تبارك وتعالى ـ أن لا بد أن يراها الخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم وبرهم وفاجرهم، فليس في جملة هذه السورة ما ينفي عموم خطابها.

وأما ما ذكره عن الحسن أنه لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار، فباطل قطعًا إما عليه وأما منه، والأحاديث الصحيحة الصريحة ترده، وبالله التوفيق.

ولا يخفى أن مثل هذه السورة مع عظم شأنها وشدة تخويفها وما تضمنته من تحذير التكاثر الملهي وانطباق معناها على أكثر الخلق يأبى اختصاصها من أولها إلى آخرها بالكفار، ولا يليق ذلك بها، ويكفي في ذلك تأمل الأحاديث المرفوعة فيها والله أعلم.

وتأمل ما في هذا العتاب الموجع لمن استمر على إلهاء التكاثر له مدة حياته كلها إلى أن زار القبور، ولم يستيقظ من نوم الإلهاء، بل أرقد التكاثر قلبه فلم يستفق منه إلا وهو في عسكر الأموات، وطابق بين هذا وبين حال أكثر الخلق يتبين لك أن العموم مقصود.

وتأمل تعليقه سبحانه الذم والوعيد على مطلق التكاثر من غير تقييد بمتكاثر به، ليدخل فيه التكاثر بجميع أسباب الدنيا على اختلاف أجناسها وأنواعها.

وأيضًا: فإن التكاثر تفاعل وهو طلب كل من المتكاثرين أن يكثر صاحبه، فيكون أكثر منه فيما يكاثره به، والحامل له على ذلك توهمه أن العزة للكاثر كما قيل:

ولست بالأكثر منهم حصى ... وإنما العزة للكاثر[1]

فلو حصلت له الكثرة من غير تكاثر لم تضره، كما كانت الكثرة حاصلة لجماعة من الصحابة ولم تضرهم، إذ لم يتكاثروا بها، وكل من كاثر إنسانًا في دنياه أو جاهه أو غير

(١) هذا البيت من بحر السريع، وينسب إلى الأعشى، وذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (١/ ١٢) وابن منظور في اللسان (٥/ ١٨٣) (١٤/ ١٨٣)، والزرقاني في شرحه على الموطأ (٢/ ٥٢).

ذلك شغلته مكاثرته عن مكاثرة أهل الآخرة.

فالنفوس الشريفة العلوية ذات الهمم العالية إنما تكاثر بما يدوم عليها نفعه، وتكمل به، وتزكو، وتصير مفلحة، فلا تحب أن يكثرها غيرها في ذلك، وينافسها في هذه المكاثرة، ويسابقها إليها، فهذا هو التكاثر الذي هو غاية سعادة العبد.

وضده تكاثر أهل الدنيا بأسباب دنياهم، فهذا تكاثر ملهٍ عن الله والدار الآخرة، وهو صائر إلىٰ غاية القلة، فعاقبة هذا التكاثر قل وفقر وحرمان.

والتكاثر بأسباب السعادة الأخروية تكاثر لا يزال يذكر بالله ولقائه، وعاقبته الكثرة الدائمة التي لا تزول ولا تفنىٰ، وصاحب هذا التكاثر لا يهون عليه أن يرىٰ غيره أفضل منه قولًا وأحسن عملًا وأغزر علما، وإذا رأىٰ غيره أكثر منه في خصلة من خصال الخير يعجز عن لحاقه فيها كاثره بخصلة أخرىٰ هو قادر علىٰ المكاثرة بها، وليس هذا التكاثر مذمومًا ولا قادحًا في إخلاص العبد، بل هو حقيقة المنافسة واستباق الخيرات، وقد كانت هذه حال الأوس مع الخزرج ﷺ في تصاولهم بين يدي رسول الله ﷺ، ومكاثرة بعضهم لبعض في أسباب مرضاته ونصره، وكذلك كانت حال عمر مع أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ فلما تبين له مدىٰ سبقه له قال: والله لا أسابقك إلىٰ شيء أبدًا[1].

ومن تأمل حسن موقع «كلا» في هذا الموضع، فإنها تضمنت ردعا لهم وزجرًا عن التكاثر، ونفيًا وإبطالًا لما يؤملونه من نفع التكاثر لهم وعزتهم وكمالهم به.

فتضمنت اللفظة نهيًا ونفيًا، وأخبرهم سبحانه أنهم لا بد أن يعلموا عاقبة تكاثرهم

---

(١) أخرجه الضياء في المختارة (١/ ١٧٢-١٧٣ رقم ٨٠) والحاكم (٠١/ ٥٧٤ رقم ١٥١٠) وأبو داود (رقم ١٦٧٨) والبيهقي في الكبرىٰ (٤/ ١٨٠ رقم ٧٥٦٣) والترمذي (رقم ٣٦٧٥) والدارمي (رقم ١٦٦٠) وعبد بن حميد (رقم ١٤) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٢٤٢٩) وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥٧٩ رقم ١٢٤٠) وقال الترمذي: حسن صحيح. وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٩٥) وعمدة القاري (٨/ ٢٩٣).

علمًا بعد علم، وأنهم لا بد أن يروا دار المكاثرين بالدنيا التي ألهتهم عن الآخرة رؤية، بعد رؤية، وأنه سبحانه لا بد أن يسألهم عن أسباب تكاثرهم من أين استخرجوها وفيما صرفوها.

فلله ما أعظمها من سورة وأجلها وأعظمها فائدة وأبلغها موعظة وتحذيرًا وأشدها ترغيبًا في الآخرة وتزهيدًا في الدنيا على غاية اختصارها وجزالة ألفاظها وحسن نظمها، فتبارك من تكلم بها حقًا وبلغها رسوله عنه وحيا.

وتأمل كيف جعلهم عند وصولهم إلى غاية كل حي زائرين غير مستوطنين، بل هم مستودعون في المقابر مدة، وبين أيديهم دار القرار، فإذا كانوا عند وصولهم إلى الغاية زائرين، فكيف بهم وهم في الطريق في هذا الدار، فهم فيها عابرو سبيل إلى محل الزيارة، ثم منتقلون من محل الزيارة إلى المستقر. فهاهنا ثلاثة أمور: عبور السبيل في هذه الدنيا وغايته زيارة القبور، وبعدها النقلة إلى دار القرار...[1]

الفرق بين علم اليقين وعين اليقين: كالفرق بين الخبر الصادق والعيان، وحق اليقين: فوق هذا. وقد مثلت المراتب الثلاثة بمن أخبرك: أن عنده عسلًا، وأنت لا تشك في صدقه، ثم أراك إياه، فازددت يقينًا، ثم ذقت منه.

فالأول: علم اليقين.والثاني: عين اليقين.والثالث: حق اليقين.

فعلمنا الآن بالجنة والنار: علم يقين. فإذا أزلفت الجنة في الموقف للمتقين. وشاهدها الخلائق.وبرزت الجحيم للغاوين، وعاينها الخلائق. فذلك: عين اليقين. فإذا أدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار: فذلك حينئذ حق اليقين[2].

قال قتادة: كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ فيسأل عن المعبود وعن العبادة.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر: ٨]. قال محمد بن جرير:

(١) ٤٠٣ مدارج جـ٢.

(٢) تقدم في سورة الحاقة بحث حول مراتب اليقين لمن أرداه. (ج).

يقول تعالى: ثم ليسألنكم الله ﷻ عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا: ماذا عملتم فيه؟ من أين وصلتم إليه؟ وفيم أصبتموه؟ وماذا عملتم به؟(١)

وقال قتادة: «إن الله سائل كل عبد عما استودعه من نعمه وحقه»(٢).

والنعيم المسئول عنه نوعان: نوع أخذ من حله وصرف في حقه، فيسأل عن شكره. ونوع أخذ بغير حله وصرف في غير حقه، فيسأل عن مستخرجه ومصرفه.

فإذا كان العبد مسئولًا ومحاسبًا على كل شيء، حتى على سمعه وبصره وقلبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]؛ فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن يناقش الحساب.

وقد دل على وجوب محاسبة النفس قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٩] يقول تعالى: لينظر أحدكم ما قدم ليوم القيامة من الأعمال: أمن الصالحات التي تنجيه، أم من السيئات التي توبقه؟

قال قتادة: «ما زال ربكم يقرب الساعة حتى جعلها كغد»(٣).

والمقصود أن صلاح القلب بمحاسبة النفس، وفساده بإهمالها والاسترسال معها.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة التكاثر

والحمد لله رب العالمين

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري (٣٠/ ٢٨٥).

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في الورع (ص ١٨٩).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٨/ ٥٢).

سُورَةُ العَصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.

(١)قال الشافعي ﷺ: لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم(٢).

وبيان ذلك: أن المراتب أربع وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله.

إحداها: معرفة الحق. الثانية: عمله به. الثالثة: تعليمه من لا يحسنه. الرابعة: صبره على تعلمه والعمل به، وتعليمه، فذكر تعالى المراتب الأربع في هذه السورة.

وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر: أن كل أحد في خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم الذين عرفوا الحق، وصدقوا به، فهذه مرتبة.

وعملوا الصالحات، وهم الذين عملوا بما علموه من الحق، فهذه مرتبة أخرى.

وتواصلوا بالحق، وصى به بعضهم بعضًا: تعليمًا وإرشادًا، فهذه مرتبة ثالثة.

وتواصلوا بالصبر، صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضًا بالصبر عليه والثبات، فهذه مرتبة رابعة.

وهذا نهاية الكمال، فإن الكمال أن يكون الشخص كاملًا في نفسه مكملًا لغيره، وكماله بإصلاح قوتيه العلمية والعملية، فصلاح القوة العلمية بالإيمان، وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات، وتكميله غيره بتعليمه إياه وصبره عليه، وتوصيته بالصبر على العلم والعمل.

فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره، والحمد لله الذي جعل كتابه كافيًا عن كل ما سواه، شافيًا من كل داء هاديًا إلى كل خير.

---

(١) ٥٦ مفتاح جـ١.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٦٣).

(١)...وبعد، فلما كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع، والعمل الصالح. وهما الهدىٰ ودين الحق، وبتكميله لغيره في هذين الأمرين.

كما قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾.

أقسم سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وكمل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يتمان إلا بالصبر عليهما، والتواصي بهما ـ كان حقيقًا بالإنسان أن ينفق ساعات عمره ـ بل أنفاسه ـ فيما ينال به المطالب العالية ويخلص به من الخسران. وليس ذلك إلا بالإقبال علىٰ القرآن وتفهمه وتدبره، واستخراج كنوزه وإثاره دفائنه وصرف العناية إليه والعكوف بالهمة عليه، فإن الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد. والموصل لهم إلىٰ سبيل الرشاد، فالحقيقة والطريقة والأذواق والمواجيد الصحيحة كلها لا تقتبس إلا من مشكاته، ولا تستثمر إلا من شجرته.

(٢)قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١ - ٣]. فأقسم ﷻ بالدهر الذي هو زمن الأعمال الرابحة والخاسرة، علىٰ أن كل واحد في خسر، إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان بالله، وقوته العلمية بالعمل بطاعته. فهذا كماله في نفسه، ثم كمل غيره بوصيته له بذلك، وأمره إياه به، وبملاك ذلك، وهو الصبر. فكمل نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وكمل غيره بتعليمه إياه ذلك، ووصيته له بالصبر عليه، ولهذا قال الشافعي ـ رحمه الله ـ: «لو فكر الناس في سورة: والعصر، لكفتهم».

وهذا المعنىٰ في القرآن في مواضع كثيرة: يخبر سبحانه أن أهل السعادة هم الذين

---

(١) ٦ مدارج جـ١.

(٢) ٢٥ إغاثة جـ١.

عرفوا الحق واتبعوه، وأن أهل الشقاوة هم الذين جهلوا الحق وضلوا عنه، أو علموه وخالفوه، واتبعوا غيره.

وينبغي أن تعرف أن هاتين القوتين لا تتعطلان في القلب، بل إن استعمل قوته العلمية في معرفة الحق وإدراكه، وإلا استعملها في معرفة ما يليق به ويناسبه من الباطل، وإن استعمل قوته الإرادية العملية في العمل به، وإلا استعملها في ضده، فالإنسان حارث همام بالطبع، كما قال النبي ﷺ: «**أصدق الأسماء: حارث وهمام**»[(١)].

فالحارث الكاسب العامل، والهمام المريد، فإن النفس متحركة بالإرادة. وحركتها الإرادية لها من لوازم ذاتها، والإرادة تستلزم مرادًا يكون متصورًا لها، متميزًا عندها، فإن لم تتصور الحق وتطلبه وتريده تصورت الباطل وطلبته، وأرادته ولابد...

الاجتماع بالإخوان قسمان:

أحدهما: اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت، فهذا مضرته أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب ويضيع الوقت.

الثاني: الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر؛ فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها.

ولكن فيه ثلاث آفات: إحداها: تزين بعضهم لبعض، الثانية: الكلام والخلطة أكثر من الحاجة. الثالثة: أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود.

وبالجملة فالاجتماع والخلطة لقاح، إما للنفس الأمارة وإما للقلب والنفس المطمئنة، والنتيجة مستفادة من اللقاح، فمن طاب لقاحه طابت ثمرته. وهكذا الأرواح الطيبة لقاحها من الملك، والخبيثة لقاحها من الشيطان، وقد جعل الله سبحانه بحكمته الطيبات للطيبين، والطيبين للطيبات وعكس ذلك.

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٩٥٠) والبيهقي في الكبرى (٩/ ٣٠٦ رقم ١٩٠٩٠) وأحمد ٤/ ٣٤٥) وأبو يعلى (١٣/ ١١١-١١٢ رقم ٧١٦٩) والطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٨٠ رقم ٩٤٩) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٨١٤) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥٧٨).

(١) ومن ذلك إقسامه (بالعصر) على حال الإنسان في الآخرة. هذه السورة على غاية اختصارها لها شأن عظيم. حتى قال الشافعي رحمه الله: لو فكر الناس كلهم فيها لكفتهم.

والعصر المقسم به، قيل: هو أول الوقت الذي يلي المغرب من النهار. وقيل: هو آخر ساعة من ساعاته. وقيل: المراد صلاة العصر. وأكثر المفسرين على أن الدهر. وهذا هو الراجح. وتسمية الدهر عصرًا أمر معروف في لغتهم. قال:

ولن يلبث العصران يوم وليلة ... إذا طلبا أن يدركا ما تيمما(٢)

ويوم وليلة بدل من العصران، فأقسم سبحانه بالعصر لمكان العبرة والآية فيه. فإن مرور الليل والنهار على تقدير قدره العزيز العليم منتظم لمصالح العالم على أكمل ترتيب ونظام. وتعاقبهما واعتدالهما تارة، وأخذ أحدهما من صاحبة تارة، واختلافهما في الضوء، والظلام، والحر، والبرد، وانتشار الحيوان، وسكونه، وانقسام العصر إلى القرون، والسنين، والأشهر، والأيام، والساعات وما دونها ـ آية من آيات الرب تعالى، وبرهان من براهين قدرته وحكمته.

فأقسم بالعصر الذي هو زمان أفعال الإنسان ومحلها على عاقبة تلك الأفعال وجزائها. ونبه بالمبدأ وهو خلق الزمان، والفاعلين وأفعالهم على المعاد.

وأن قدرته كما لم تقصر عن المبدأ لم تقصر عن المعاد. وأن حكمته التي اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم، وجعلها قسمين خيرًا وشرًا تأبى أن يسوي بينهم، وأن لا يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين، بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر، إلا من رحمه الله، فهداه

---

(١) ٥٣ التبيان.

(٢) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى حميد بن ثور بن حزن الهلالي العامري شاعر مخضرم شهد حنيناً مع المشركين ثم أسلم ووفد على النبي ﷺ ومات في خلافة عثمان ﷺ سنة ٣٠هـ. و ذكره ابن أبي الدنيا في العمر والشيب (رقم ٤٤) وابن حجر في الفتح (٨/ ٧٢٩) وابن عبد البر في التمهيد (١٩/ ٢٨١) وابن عساكر في تاريخه (١٥/ ٢٧٣) وابن منظور في اللسان (٤/ ٥٧٦).

ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه، وأمر غيره به.

وهذا نظير رده الإنسان إلى أسفل سافلين، واستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هؤلاء المردودين.

وتأمل حكمة القرآن لما قال: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝ ﴾ فإنه ضيق الاستثناء وخصصه، فقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝ ﴾ [العصر: ٣]. ولما قال: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ﴾ [التين: ٥] وسع الاستثناء وعممه،فقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ ولم يقل (وتواصوا) فإن التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح، وهو قدر زائد على مجرد فعله. فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح. فصار في خسر.

ولا يلزم أن يكون في أسفل سافلين. فإن الإنسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة زائدة. وقد تكون فرضًا على الأعيان. وقد تكون فرضًا على الكفاية، وقد تكون مستحبة.

والتواصي بالحق يدخل فيه الحق الذي يجب، والحق الذي يستحب.

والصبر يدخل فيه الصبر الذي يجب، والصبر الذي يستحب.

فهؤلاء إذا تواصوا بالحق وتواصلوا بالصبر حصل لهم من الربح ما خسره أولئك الذين قاموا بما يجب عليهم في أنفسهم ولم يأمروا غيرهم به، وإن كان أولئك لم يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهليهم. فمطلق الخسار شيء والخسار المطلق شيء. وهو سبحانه إنما قال: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢] ومن ربح في سلعة وخسر في غيرها قد يطلق عليه أنه في خسر. وأنه ذو خسر، كما قال عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: لقد فرطنا في قراريط كثيرة[1]. فهذا نوع تفريط، وهو نوع خسر بالنسبة

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٣٢٤) ومسلم (رقم ٩٤٥) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٩٥).

إلى من حصل ربح ذلك.

ولما قال في سورة التين: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥] قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فقسم الناس إلى هذين القسمين فقط.

ولما كان الإنسان له قوتان: قوة العلم وقوة العمل. وله حالتان حالة يأتمر فيها بأمر غيره، وحالة يأمر فيها غيره، استثنى سبحانه من كمل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح وانقاد لأمر غيره له بذلك، وأمر غيره به من الإنسان الذي هو في خسر.

فإن العبد له حالتان حالة كمال في نفسه، وحالة تكميل لغيره، وكماله وتكميله موقوف على أمرين: علم بالحق، وصبر عليه.

فتضمنت الآية جميع مراتب الكمال الإنساني، من العلم النافع، والعمل الصالح، والإحسان إلى نفسه بذلك، وإلى أخيه به، وانقياده وقبوله لمن يأمره بذلك. وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ إرشاد إلى منصب الإمامة في قوة الدين. كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين(١).

والصبر نوعان: نوع إلى المقدور. كالمصائب. ونوع على المشروع.

وهذا النوع أيضًا نوعان: صبر على الأوامر، وصبر عن النواهي. فذاك صبر على الإرادة والفعل. وهذا صبر عن الإرادة والفعل.

فأما النوع الأول من الصبر فمشترك بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، لا يثاب عليه لمجرده إن لم يقترن به إيمان واختيار. قال النبي ﷺ في حق ابنته: «مرها فلتصبر ولتحتسب»(٢).

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٦٤) وتفسير السعدي (ص ٦٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٢٨٤) ومسلم (رقم ٩٢٣) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٥٧).

وقال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [هود: ١١].وقال تعالى: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٢٥]. وقال: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

فالصبر بدون الإيمان والتقوى بمنزلة قوة البدن الخالي عن الإيمان والتقوى، وعلى حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور. وقال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠].

فأمره أن يصبر ولا يتشبه بالذين لا يقين عندهم في عدم الصبر. فإنهم لعدم يقينهم عدم صبرهم وخفوا واستخفوا قومهم، ولو حصل لهم اليقين والحق لصبروا، وما خفوا ولا استخفوا. فمن قل يقينه قل صبره، ومن قل صبره خف واستخف، فالموقن الصابر رزين، لأنه ذو لب وعقل، ومن لا يقين له ولا صبر عنده خفيف طائش تلعب به الأهواء والشهوات، كما تلعب الرياح بالشيء الخفيف. والله المستعان.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة العصر

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

سُورَةُ الهُمَزَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١)وقوله: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ ﴾ فإن الهمزة واللمزة من الفخر، والكبر، وجمع المال وتعديده من البخل. وذلك مناف لسر الصلاة والزكاة ومقصودها.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الهمزة

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

---

(١) ٥٣ التبيان.

سُورَةُ المَاعُونِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧ ﴾.

[(١)] إذا قدر أن قومًا اضطروا إلى السكنى في بيت إنسان، لا يجدون سواه، أو النزول في خان مملوك، أو استعارة ثياب يستدفئون بها، أو رحى للطحن، أو دلو لنزع الماء، أو قدر، أو فأس، أو غير ذلك: وجب على صاحبه بذله بلا نزاع، لكن هل له أن يأخذ عليه أجرًا؟ فيه قولان للعلماء، وهما وجهان لأصحاب أحمد.

ومن جوز له أخذ الأجرة حرم عليه أن يطلب زيادة على أجرة المثل.

قال شيخنا: والصحيح أنه يجب عليه بذل ذلك مجانًا، كما دل عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧ ﴾ [الماعون: ٤- ٧] قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصحابة: «هو إعارة القدر والدلو والفأس ونحوهما»[(٢)].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ - وذكر الخيل - قال: «هي لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر، فأما الذي هي له أجر: فرجل ربطها في سبيل الله، وأما الذي هي له ستر: فرجل ربطها تغنيًا وتعففًا، ولم ينس حق الله في رقابها، ولا في ظهورها»[(٣)]. وفي الصحيحين عنه أيضًا: «من حق الإبل: إعارة دلوها، وإطراق فحلها»[(٤)]. وفي

---

(١) ٢٨٠ الطرق الحكمية.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٣٠/ ٣١٥) والبيهقي في الكبرى (٦/ ٨٨ رقم ١١٢٤٧) وابن أبي شيبة (٢/ ٤٢١ رقم ١٠٦٢٩) والطبراني في الأوسط (٢/ ١٢٩ رقم ١٤٧٢) والشاشي (٢/ ٦٠ رقم ٥٥٧).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٣٧١) ومسلم (رقم ٩٨٧) وانظر: عمدة القاري (٩/ ٣٦-٣٧).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٩٨٨) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٦٩) (٦/ ٦٥) وشرح النووي (٧/ ٦٦، ٧١).

الصحيحين عنه: «**أنه نهى عن عسب الفحل**»[١] أي: عن أخذ الأجرة عليه، والناس يحتاجون إليه، فأوجب بذله مجانًا، ومنع من أخذ الأجرة عليه. وفي الصحيحين عنه أنه قال: «**لا يمنعن جار جاره أن يغرز خشبه في جداره**»[٢].

ولو احتاج إلى إجراء مائه في أرض غيره، من غير ضرر لصاحب الأرض. فهل يجبر على ذلك روايتان عن أحمد يجبر والإجبار قول عمر بن الخطاب وغيره من الصحابة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ.

[٣]الدليل الثالث: قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

فوجه الدلالة أنه سبحانه علق حصول الرحمة لهم بفعل هذه الأمور، فلو كان ترك الصلاة لا يوجب تفكيرهم وخلودهم في النار لكانوا مرحومين بدون فعل الصلاة، والرب تعالى إنما جعلهم على رجاء الرحمة إذا فعلوها.

الدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤- ٥].

وقد اختلف السلف في معنى السهو عنها، فقال سعد بن أبي وقاص ومسروق بن الأجدع وغيرهما: هو تركها حتى يخرج وقتها، وروي في ذلك حديث مرفوع، قال محمد بن نصر المروزي: حدثنا سفيان بن أبي شيبة حدثنا عكرمة بن إبراهيم حدثنا عبدالملك بن عمير عن مصعب بن سعد عن أبيه أنه سأل النبي ﷺ عن: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ قال: «**هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها**»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٢٨٤) وانظر: فتح الباري (٤/ ٤٦١-٤٦٣) وشرح النووي (١٠/ ٢٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٤٦٣) ومسلم (رقم ١٦٠٩) وانظر: فتح الباري (٥/ ١١٠) وشرح النووي (١١/ ٤٧-٤٨).

(٣) ١٦ الصلاة.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤٦٨ رقم ١٩٤٩٦) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٢١٤ رقم ٢٩٨٢) وابن المنذر في الأوسط (٢/ ٣٨٧ رقم ١٠٨١) وأبو يعلى (٢/ ١٤٠ رقم ٨٢٢) قال الهيثمي =

وقال حماد بن زيد: حدثنا عاصم عن مصعب بن سعد قال قلت لأبي: يا أبتاه أرأيت قول الله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أينا لا يسهو؟ أينا لا يحدث نفسه؟ قال: إنه ليس ذلك، ولكنه إضاعة الوقت(١).

وقال حيوة بن شريح: أخبرني أبو صخر أنه سأل محمد بن كعب القرظي عن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، قال: هو تاركها، ثم سأله عن ﴿سَاهُونَ﴾، قال: منع المال عن حقه(٢).

إذا عرف هذا فالوعيد بالويل اطرد في القرآن للكفار كقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ٦، ٧].

وقوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ إلى قوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الجاثية: ٧-٩].

وقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٢] إلا في موضعين، وهما ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١١] فعلق الويل بالتطفيف والهمز واللمز. وهذا لا يكفر به بمجرده.

فويل تارك الصلاة إما أن يكون ملحقًا بويل الكفار أو بويل الفساق. فإلحاقه بويل الكفار أولى لوجهين:

أحدهما: أنه قد صح عن سعد بن أبي وقاص في هذه الآية أنه قال: لو تركوها

= في المجمع (١/ ٣٢٥): رواه البزار وأبو يعلى مرفوعا بنحو هذا، وموقوفاً، وفيه عكرمة بن إبراهيم ضعفه ابن حبان وغيره، وقال البزار: رواه الحفاظ موقوفا، ولم يرفعه غيره. وانظر: الترغيب (١/ ٢١٨).

(١) أخرجه أبو يعلى (٢/ ٦٣ رقم ٧٠٤) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٢٥ رقم ٤٣) وحسنه المنذري في الترغيب (١/ ٢١٨ رقم ٨٣٤) والهيثمي في المجمع (١/ ٣٢٥).

(٢) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٢٦ رقم ٤٥).

لكانوا كفارًا ولكن ضيعوا وقتها(١).

الثاني: ما سنذكره من الأدلة على كفره.

(٢)الدليل السادس: قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [التوبة: ١١] فعلق إخوتهم للمؤمنين بفعل الصلاة، فإذا لم يفعلوا لم يكونوا إخوة، فلا يكونون مؤمنين لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠].

الدليل السابع: قوله تعالى: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢] فلما كان الإسلام وتصديق الخبر والانقياد للأمر جعل سبحانه له ضدين: عدم التصديق، وعدم الصلاة، وقابل التصديق بالتكذيب، والصلاة بالتولي فقال: ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ فكما أن المكذب كافر، فالمتولي عن الصلاة كافر، فكما يزول الإسلام بالتكذيب، يزول بالتولي عن الصلاة.

قال سعيد عن قتادة: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴾ لا صدق بكتاب الله ولا صلى لله، ولكن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته: ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴾ [القيامة: ٣٤، ٣٥] وعيد على إثر وعيد.

الدليل الثامن: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩].

قال ابن جريج: سمعت عطاء بن أبي رباح يقوله: هي الصلاة المكتوبة.

ووجه الاستدلال بالآية أن الله حكم بالخسران المطلق لمن ألهاه ماله وولده عن الصلاة، والخسران المطلق لا يحصل إلا للكفار، فإن المسلم ولو خسر بذنوبه

---

(١) لم أجد هذا القول عن سعد ﷺ، ولكن ورد عن القاسم بن مخيمرة، أخرجه عنه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٨٠) والطبري في تفسيره (١٦/ ٩٨) وورد أيضاً عن عمر بن عبدالعزيز، أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٨/ ١٨٤) وانظر: الاستذكار (١/ ٨٢) والمحلى (٢/ ٢٤١).

(٢) ١٨ الصلاة.

ومعاصيه فآخر أمره إلى الربح. يوضحه أنه ﷺ أكد خسران تارك الصلاة في هذه الآية بأنواع من التأكيد:

أحدها: إتيانه بلفظ الاسم الدال على ثبوت الخسران ولزومه، دون الفعل الدال على التجدد والحدوث.

الثاني: تصدير الاسم بالألف واللام المؤدية لحصول كمال المسمى لهم، فإنك إذا قلت: زيد العالم الصالح. أفاد ذلك إثبات كمال ذلك له، بخلاف قولك عالم صالح.

الثالث: إتيانه سبحانه بالمبتدأ والخبر معرفتين، وذلك من علامات انحصار الخبر في المبتدأ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٥] وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال: ٤] ونظائره.

الرابع: إدخال ضمير الفصل. بين المبتدأ والخبر، وهو يفيد مع الفصل فائدتين أخريين: قوة الإسناد، واختصاص المسند إليه بالمسند كقوله: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الحج: ٦٤] وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [المائدة: ٧٦] وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشورى: ٥] ونظائر ذلك.

الدليل التاسع: قوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾ [السجدة: ١٥].

ووجه الاستدلال بالآية أنه سبحانه نفى الإيمان عمن إذا ذكروا بآيات الله لم يخروا سجدًا مسبحين بحمد ربهم.

ومن أعظم التذكير بآيات الله التذكير بآيات الصلاة، فمن ذكر بها ولم يتذكر ولم يصل لم يؤمن بها؛ لأنه سبحانه خص المؤمنين بها بأنهم أهل السجود، وهذا من أحسن الاستدلال وأقربه: فلم يؤمن بقوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [البقرة: ٤٣] إلا من التزم وإقامتها.

[(١)]... فالمؤمن له الإخلاص والإحسان، والفاجر له الكفر والبخل، وقدم ذم الله سبحانه هذين الخلقين المهلكين في غير موضع من كتابه. كقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝﴾ [الماعون: ٤-٧] فالرياء ضد الإخلاص. ومنع الماعون ضد الإحسان.

[(٢)]الدليل العاشر: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٤٨، ٤٩] ذكر هذا بعد قوله: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦] ثم توعدهم على ترك الركوع وهو الصلاة إذا دعوا إليها، ولا يقال: إنما توعدهم على التكذيب، فإنه ﷺ إنما أخبر عن تركهم لها وعليه وقع الوعيد.

على أنا نقول: لا يصر على ترك الصلاة إصرارًا مستمرًا من يصدق بأن الله أمر بها أصلًا، فإنه يستحيل في العادة والطبيعة أن يكون الرجل مصدقًا تصديقًا جازمًا أن الله فرض عليه كل يوم وليلة خمس صلوات، وأنه يعاقبه على تركها أشد العقاب، وهو مع ذلك مصر على تركها: هذا من المستحيل قطعًا، فلا يحافظ على تركها مصدق بفرضها أبدًا، فإن الإيمان يأمر صاحبه بها، فحيث لم يكن في قلبه ما يأمر بها ليس في قلبه شيء من الإيمان.

ولا تصغ إلى كلام من ليس له خبرة ولا علم بأحكام القلوب وأعمالها.

وتأمل في الطبيعة بأن يقوم بقلب العبد إيمان بالوعد والوعيد والجنة والنار، وأن الله فرض عليه الصلاة، وأن الله يعاقبه معاقبة على تركها، وهو محافظ على الترك في صحته وعافيته وعدم الموانع المانعة له من الفعل، وهذا القدر هو الذي خفي على من جعل الإيمان مجرد التصديق وإن لم يقارنه فعل واجب ولا ترك محرم، وهذا من أمحل المحال أن يقوم بقلب العبد إيمان جازم لا يتقاضاه فعل طاعة ولا ترك معصية.

---

(١) ٥٢ التبيان.

(٢) ١٩ الصلاة.

ونحن نقول: الإيمان هو التصديق، ولكن ليس التصديق مجرد اعتقاد صدق المخبر دون الانقياد له، ولو كان مجرد اعتقاد التصديق إيمانًا لكان إبليس وفرعون وقومه وقوم صالح واليهود الذين عرفوا أن محمدًا رسول الله ﷺ كما يعرفون أبناءهم مؤمنين مصدقين، وقد قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ [الأنعام: ٣٣] أي: يعتقدون أنك صادق ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣] والجحود لا يكون إلا بعد معرفة الحق، قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤]...

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الماعون

والحمد لله رب العالمين

سورة الكوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

[(١)] قال أبو نعيم الفضل: حدثنا أبو جعفر هو الرازي: حدثنا ابن أبي نجيح عن مجاهد: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١] قال: الخير الكثير[(٢)].

وقال أنس بن مالك: نهر في الجنة. وقالت عائشة: هو نهر في الجنة، ليس يدخل أحد إصبعيه في أذنيه إلا سمع خرير ذلك النهر[(٣)]. وهذا معناه والله أعلم: أن خرير ذلك النهر يشبه الخرير الذي يسمعه حين يدخل إصبعيه في أذنيه.

وفي جامع الترمذي من حديث الحريري عن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة: بحر الماء، وبحر العسل، وبحر اللبن، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار بعد»[(٤)] قال: هذا حديث حسن صحيح. وقال الحاكم: حدثنا الأصم حدثنا الربيع بن سليمان حدثنا أسد بن موسى حدثنا ابن ثوبان عن عطاء بن قرة عن عبدالله ابن سمرة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من سره أن يسقيه الله ﷻ من الخمر في الآخرة فليتركه في الدنيا، ومن سره أن يكسيه الله الحرير في الآخرة فليتركه في الدنيا، وأنهار الجنة تفجر من تحت تلال أو تحت جبال المسك، ولو

---

(١) ١٣٠ حادي الأرواح.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٧٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما وانظر: فتح الباري (٨/ ٧٣٢) (١١/ ٤٦٧-٤٧٠).

(٣) انظر: الدر المنثور (٨/ ٦٤٨) وتفسير ابن كثير (٤/ ٥٥٨).

(٤) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥٧١) وابن حبان (١٦/ ٤٢٤ رقم ٧٤٠٩) والهيثمي في موارد الظمآن (رقم ٢٦٢٣) والشيباني في الآحاد والمثاني (٣/ ١٤٧ رقم ١٤٧٥) والطبراني في الكبير (١٩/ ٤٢٤ رقم ١٠٣٢) وعبد بن حميد (رقم ٤١٠).

كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعًا لكان ما يحليه الله به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعًا»[(١)].

وذكر الأعمش عن عمرو بن مرة عن مسروق عن عبدالله قال: «إن أنهار الجنة تفجر من جبل مسك»[(٢)] وهذا موقوف صحيح.

وذكر ابن مردويه في مسنده حدثنا أحمد بن محمد بن عاصم حدثنا عبدالله بن محمد بن النعمان حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا الحرث بن عبيد حدثنا أبو عمران الجوني عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «هذه الأنهار تشخب من جنة عدن في جوبة، ثم تصدع بعد أنهاراً»[(٣)].

وقال ابن أبي الدنيا حدثنا يعقوب بن عبيدة حدثنا يزيد بن هارون حدثنا الحريري عن معاوية بن قرة عن أنس بن مالك قال: «أظنكم تظنون أن أنهار الجنة أخدود في الأرض؟ لا والله أنها لسائحة على وجه الأرض إحدى حافتيها اللؤلؤ والأخرى الياقوت، وطينها المسك الأذفر، قال: قلت ما الأذفر: قال: الذي لا خلط له[(٤)]. ورواه ابن مردويه في تفسيره عن محمد بن أحمد حدثنا محمد بن أحمد بن يحيى حدثنا

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٤٠/ ٤١٣) بهذا اللفظ، بينما أخرجه الطبراني مختصراً إلى قوله: «فليتركه في الدنيا» في المعجم الأوسط (٨/ ٣٦٣ رقم ٨٨٧٩) وقال المنذري في الترغيب (٣/ ٧٤ رقم ٣١٣٤): رواه الطبراني في الأوسط ورواته ثقات إلا شيخه المقدام بن داود وقد وثق وله شواهد، وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٧٦): رواه الطبراني في الأوسط عن شيخه المقدام بن داود وهو ضعيف وبقية رجاله ثقات.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٦١٢ رقم ٣٢٨١) وعبدالرزاق في المصنف (١١/ ٤١٦ رقم ٢٠٨٧٣) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٦٣).

(٣) أخرجه الدارمي (رقم ٢٨٢٢) وأبو عوانة (١/ ١٥٧) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٦٩٧).

(٤) أخرجه أبو نعيم في صفة الجنة (رقم ٣١٦) وابن أبي الدنيا في صفة الجنة (رقم ٦٩) والضياء المقدسي في صفة الجنة بتحقيقي (رقم ٩٣) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٢٨٦ رقم ٥٦٦٦): رواه ابن أبي الدنيا موقوفاً، ورواه غيره مرفوعاً، والموقوف أشبه بالصواب.

مهدي بن حكيم حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا الحريري عن معاوية بن قرة عن أنس ابن مالك قال: قال رسول الله ﷺ فذكره هكذا رواه مرفوعًا.

وقال أبو خيثمة حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أنه قرأ هذه الآية: ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝ ﴾ [الكوثر: ١] فقال رسول الله ﷺ: «أعطيت الكوثر فإذا هو يجري ولم يشق شقا، وإذا حافتاه قباب اللؤلؤ فضربت بيدي إلى تربته فإذا مسك أذفر، وإذا حصباؤه اللؤلؤ»[١]. وذكر سفيان الثوري عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن مسروق في قوله تعالى: ﴿ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ﴾ [الشعراء: ١٤٨] قال: من أصلها إلى فروعها[٢] أو كلمة نحوها.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة»[٣].

وقال عثمان بن سعيد الدارمي حدثنا سعيد بن سابق حدثنا مسلمة بن علي عن مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «أنزل الله من الجنة خمسة أنهار: سيحون وهو نهر الهند، وجيحون وهو نهر بلخ، ودجلة والفرات وهما نهرا العراق، والنيل وهو نهر مصر، أنزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناح جبريل ﷺ فاستودعها الجبال، وأجراها في الأرض، وجعل فيها منافع للناس في أصناف معايشهم، فذلك قوله: ﴿ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٨] فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل جبريل فرفع من الأرض القرآن والعلم كله والحجر الأسود من ركن البيت ومقام إبراهيم وتابوت موسى بما فيه، وهذه الأنهار الخمسة،

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٤٧) وأبو يعلى (٦/ ٢٣٦ رقم ٣٥٢٩) وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٥٨).

(٢) أخرجه الصنعاني في تفسيره (٣/ ٢٦٧) والطبري في تفسيره (١/ ١٧٠).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٣٩) وانظر: فتح الباري (٧/ ٢١٤-٢١٦) وشرح النووي (١٧/ ١٧٦-١٧٧).

فرفع ذلك كله إلى السماء، فذلك قوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض، فقد حرم أهلها خيري الدنيا والآخرة»[(١)] ورواه أحمد بن عدي في ترجمة مسلمة هذا مع أحاديث غيره، وقال: عامة أحاديثه غير محفوظة، وبالجملة فهو من الضعفاء، قال البخاري: منكر الحديث. وقال النسائي: متروك وقال أبو حاتم: لا تشتغل به.

[(٢)]وسئل ﷺ عن الكوثر، فقال: «هو نهر أعطانيه ربي في الجنة، هو أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طيور أعناقها كأعناق الجزر» قيل: يا رسول الله إنها لناعمة، قال: «آكلها أنعم منها»[(٣)].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الكوثر

والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه ابن أبي عدي في الكامل (٦/ ٣١٥-٣١٦) والخطيب البغدادي في تاريخه (١/ ٥٧-٥٨) وأبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن (٦/ ١٢١٨) وانظر: شرح النووي (١٧/ ١٧٦-١٧٧).

(٢) أعلام جـ٤.

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥٤٢) وأبو نعيم في صفة الجنة (رقم ٣٤٢) وابن أبي الدنيا في صفة الجنة (رقم ٣٣٦) وأحمد (٣/ ٢٢٠-٢٢١) والضياء في صفة الجنة بتحقيقي (رقم ١٤٧) وحسنه الترمذي والمنذري والألباني.

سُورَةُ الكَافِرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣
وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾.

(١)﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الرعد: ١٣] لأن للرعد صوتًا عظيمًا من جرم عظيم والمسبح لا محالة أعظم، فاستحقاقه للتسبيح من حيث يستحقه العظيمات من خلقه لا من حيث كان يعلم، ولا تقل العقل في هذا الموضع، فإذا تأملت ما ذكرناه استبان لك قصور من قال: إن ما مع الفعل في هذا كله سوى الأول في تأويل المصدر، وأنه لم يقدر المعنى حق قدره، فلا لصناعة النحو وفق، ولا لفهم التفسير رزق، وأنه تابع الحز وأخطأ المفصل وحام، ولكن ما ورد المنهل. وأما قوله ﷻ: ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ ﴾ فما على بابها، لأنها واقعة على معبوده ﷺ، على الإطلاق، لأن امتناعهم من عبادة الله ليس لذاته، بل كانوا يظنون أنهم يعبدون الله، ولكنهم كانوا جاهلين به، فقوله: ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ ﴾ [الكافرون: ٣] أي: لا أنتم تعبدون معبودي ومعبوده هو ﷺ، كان عارفًا به دونهم، وهم جاهلون به، هذا جواب بعضهم.

وقال آخرون: إنها هنا مصدرية لا موصولة، أي: لا تعبدون عبادتي، ويلزم من تنزيههم عن عبادته تنزيههم عن المعبود، لأن العبادة متعلقة به، وليس هذا بشيء، إذ المقصود براءته من معبوديهم وإعلامه أنهم بريئون من معبوده تعالى، فالمقصود المعبود لا العبادة.

وقيل: إنهم كانوا يقصدون مخالفته ﷺ، حسدًا له وأنفة من اتباعه، فهم لا يعبدون

---

(١) ١٣٣ بدائع جـ١.

معبوده، لا كراهية لذات المعبود، ولكن كراهية لاتباعه ﷺ، وحرصًا على مخالفته في العبادة، وعلى هذا فلا يصح في النظم البديع والمعنى الرفيع إلا لفظ [ما] لإبهامها ومطابقتها الغرض الذي تضمنته الآية.

وقيل في ذلك: وجه رابع، وهو قصد ازدواج الكلام في البلاغة والفصاحة مثل قوله: ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾، ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ ﴾ [البقرة: ١٩٤]، فكذلك ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ومعبودهم لا يعقل، ثم ازدوج مع هذا الكلام قوله: ﴿ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ [الكافرون: ٥]، فاستوى اللفظان وإن اختلف المعنيان، ولهذا لا يجيء في الإفراد مثل هذا، بل لا يجيء إلا (من) كقوله: ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ ﴾ [النمل: ٦٣]، ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم ﴾ [يونس: ٣١] ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ ﴾ [يونس: ٣١] ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ [النمل: ٦٣] ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل: ٦٢] ﴿ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ﴾ [النمل: ٦٤] إلى أمثال ذلك، وعندي فيه وجه خامس أقرب من هذا كله، وهو أن المقصود هنا ذكر المعبود الموصوف بكونه أهلًا للعبادة مستحقًا لها فأتي بما الدالة على هذا المعنى، كأنه قيل: ولا أنتم عابدون معبودي، الموصوف بأنه المعبود الحق، ولو أتى بلفظه [من] لكانت إنما تدل على الذات فقط، ويكون ذكر الصلة تعريفًا لا أنه هو جهة العبادة، ففرق بين أن يكون كونه تعالى أهلًا لأن يعبد تعريف محض أو وصف مقتضى لعبادته فتأمله، فإنه بديع جدًا، وهذا معنى قول محققي النحاة: إن (ما) تأتي لصفات من يعلم ونظيره ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ [النساء: ٣] لما كان المراد الوصف، وأنه هو السبب الداعي إلى الأمر بالنكاح وقصده هو الطيب، فتنكح المرأة الموصوفة به أتى بما دون، من وهذا باب لا ينخرم، وهو من ألطف مسالك العربية. وإذ قد أفضى الكلام بنا إلى هنا، فلنذكر:

فائدة ثانية على ذلك، وهي تكرير الأفعال في هذه السورة.

ثم فائدة ثالثة، وهي كونه كرر الفعل في حق نفسه بلفظ المستقبل في الموضعين،

وأتى في حقهم بالماضي.

ثم فائدة رابعة: وهي أنه جاء في نفي عبادة معبودهم عنه بلفظ الفعل المستقبل، وجاء في نفي عبادتهم معبوده باسم الفاعل.

ثم فائدة خامسة: وهي كون إيراده النفي هنا بـ[لا] دون [لن].

ثم فائدة سادسة: وهي أن طريقة القرآن في مثل هذا أن يقرن النفي بالإثبات، فينفي عبادة ما سوى الله، ويثبت عبادته، وهذا هو حقيقة التوحيد والنفي المحض ليس بتوحيد. وكذلك الإثبات بدون النفي، فلا يكون التوحيد إلا متضمنًا للنفي والإثبات، وهذا حقيقة لا إله إلا الله، فلم جاءت هذه السورة بالنفي المحض، وما سر ذلك.

وفائدة سابعة: وهي ما حكمة تقديم نفي عبادته عن معبودهم، ثم نفي عبادتهم عن معبوده.

وفائدة ثامنة: وهي أن طريقة القرآن إذا خاطب الكفار أن يخاطبهم بالذين كفروا والذين هادوا كقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ ﴾ [التحريم: ٧] ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ ﴾ [الجمعة: ٦] ولم يجيء: يا أيها الكافرون إلا في هذا الموضع، فما وجه هذا الاختصاص؟

وفائدة تاسعة: وهي هل في قوله: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ معنى زائد على النفي المتقدم، فإنه يدل على اختصاص كل بدينه ومعبوده، وقد فهم هذا من النفي فيما أفاد التقسيم المذكور.

وفائدة عاشرة: وهي تقديم ذكرهم ومعبودهم في هذه التقسيم والاختصاص، وتقديم ذكر شأنه وفعله في أول السورة.

وفائدة حادية عشرة: وهي أن هذه السورة قد اشتملت على جنسين من الأخبار:

أحدهما: براءته من معبودهم، وبراءتهم من معبوده، وهذا لازم أبدًا.

الثاني: إخباره بأن له دينه ولهم دينهم! فهل هذا متاركة وسكوت عنهم، فيدخله النسخ بالسيف، أو التخصيص ببعض الكفار أم الآية باقية على عمومها وحكمها غير

منسوخة ولا مخصوصة؟

فهذه عشر مسائل في هذه السورة، فقد ذكرنا منها مسألة واحدة، وهي وقوع [ما] فيها بدل [من] فنذكر المسائل التسع مستمدين من فضل الله مستعينين بحوله وقوته متبرئين إليه من الخطأ، فما كان من صواب فمنه وحده لا شريك له، وما كان من خطأ فمنا ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه.

فأما المسألة الثانية: وهي فائدة تكرار الأفعال، فقيل فيه وجوه:

أحدها: أن قوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ نفي للحال والمستقبل، وقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ مقابلة أي: لا تفعلون ذلك.

وقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ أي: لم يكن مني ذلك قط قبل نزول الوحي، ولهذا أتى في عبادتهم بلفظ الماضي، فقال: ما عبدتم، فكأنه قال: لم أعبد قط ما عبدتم.

وقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ مقابلة أي: لم تعبدوا قط في الماضي ما أعبده أنا دائمًا. وعلى هذا فلا تكرار أصلًا وقد استوفت الآيات أقسام النفي ماضيًا وحالًا ومستقبلًا عن عبادته وعبادتهم بأوجز لفظ وأخصره وأبينه، وهذا إن شاء الله أحسن ما قيل فيها، فلنقتصر عليه ولا نتعداه إلى غيره، فإن الوجوه التي قيلت في مواضعها فعليك بها.

وأما المسألة الثالثة وهي تكرير الأفعال بلفظ المستقبل حين أخبر عن نفسه، وبلفظ الماضي حين أخبر عنهم، ففي ذلك سر، وهو الإشارة والإيماء إلى عصمة الله له عن الزيغ والانحراف عن عبادة معبوده والاستبدال به غيره، وأن معبوده واحد في الحال والمآل على الدوام، لا يرضى به بدلًا، ولا يبغي عنه حولًا بخلاف الكافرين، فإنهم يعبدون أهواءهم، ويتبعون شهواتهم في الدين وأغراضهم، فهم بصدد أن يعبدوا اليوم معبودًا وغدًا غيره، فقال: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ يعني الآن ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أنا الآن أيضًا. ثم قال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ يعني: ولا أنا فيما يستقبل

يصدر مني عبادة لما عبدتم أيها الكافرون.

وأشبهت ما هنا رائحة الشرط، فلذلك وقع بعدها الفعل بلفظ الماضي، وهو مستقبل في المعنى، كما يجيء ذلك بعد حرف الشرط، كأنه يقول: مهما عبدتم من شيء فلا أعبده أنا.

فإن قيل: وكيف يكون فيها الشرط وقد عمل فيها الفعل، والجواب لها وهي موصولة فما أبعد الشرط منها. قلنا: لم نقل إنها شرط نفسها، ولكن فيها رائحة منه، وطرف من معناه لوقوعها على غير معين، وإبهامها في المعبودات وعمومها، وأنت إذا ذقت معنى هذا الكلام وجدت معنى الشرط باديًا على صفحاته.

فإذا قلت لرجل ما تخالفه في كل ما يفعل: أنا لا أفعل ما تفعل. ألست ترى معنى الشرط قائمًا في كلامك وقصدك، وأن روح هذا الكلام مهما فعلت من شيء فإني لا أفعله.

وتأمل ذلك من مثل قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ [مريم: ٢٩] كيف تجد معنى الشرطية فيه حتى وقع الفعل بعد [من] بلفظ الماضي والمراد به المستقبل، وأن المعنى من كان من المهد صبيًا فكيف نكلمه، وهذا هو المعنى الذي حام حوله من قال من المفسرين والمعربين أنه كان هنا بمعنى يكون لكنهم لم يأتوا إليه من بابه، بل ألقوه عطلًا من تقدير وتنزيل وعزب فهم غيرهم عن هذا للطفه ودقته، فقالوا: كان زائدة، والوجه ما أخبرتك فخذه عفوًا، لك غنمه، وعلى سواك غرمه. هل على[1] من الآية قد عمل فيها الفعل، وليس لها جواب، ومعنى الشرطية قائم فيها، فكذلك في قوله: ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ وهذا كله مفهوم من كلام فحول النحاة: كالزجاج وغيره.

فإذا ثبت هذا فقد صحت الحكمة التي من أجلها جاء الفعل بلفظ الماضي في

(١) في المخطوطة: هذا مع أن في الآية. ولعل الصواب: هذا على أن (من) في الآية. (ج).

قوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ بخلاف قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ لبعد [ما] فيها عن معنى الشرط تنبيها من الله على عصمة نبيه أن يكون له معبودا سواه، وأن يتنقل في المعبودات تنقل الكافرين.

وأما المسألة الرابعة: وهي أنه لم يأت النفي في حقهم إلا باسم الفاعل، وفي جهته جاء بالفعل المستقبل تارة وباسم الفاعل أخرى، فذلك والله أعلم لحكمة بديعة. وهي أن المقصود الأعظم براءته من معبوديهم بكل وجه وفي كل وقت، فأتي أولًا بصيغة الفعل الدالة على الحدوث والتجدد، ثم أتى في هذا النفي بعينه بصيغة اسم الفاعل الدالة على الوصف والثبوت، فأفاد في النفي الأول أن هذا لا يقع مني، وأفاد في الثاني أن هذا ليس وصفي ولا شأني، فكأنه قال: عبادة غير الله لا تكون فعلًا لي ولا وصفًا، فأتى بنفيين لمنفيين مقصودين بالنفي.

وأما في حقهم، فإنما أتى بالاسم الدال على الوصف والثبوت دون الفعل، أي إن الوصف الثابت اللازم العائدة لله منتف عنكم، فليس هذا الوصف ثابتًا لكم، وإنما ثبت لمن خص الله وحده بالعبادة لم يشرك معه فيها أحدًا، وأنتم لما عبدتم غيره فلستم من عابديه، وإن عبدوه في بعض الأحيان، فإن المشرك يعبد الله ويعبد معه غيره، كما قال أهل الكهف: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الكهف: ١٦] أي: اعتزلتم معبودهم إلا الله فإنكم لم تعتزلوه، وكذا قال المشركون عن معبودهم: إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى. فهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره، فلم ينتف عنهم الفعل لوقوعه منهم ونفى الوصف، لأن من عبد غير الله لم يكن ثابتًا على عبادة الله موصوفًا بها.

فتأمل هذه النكتة البديعة كيف تجد في طيها أنه لا يوصف بأنه عابد الله وعبده المستقيم على عبادته إلا من انقطع إليه بكليته، وتبتل إليه تبتيلًا، لم يلتفت إلى غيره، ولم يشرك به أحدًا في عبادته، وأنه عبده وأشرك به غيره، فليس عابدًا لله ولا عبدًا له، وهذا من أسرار هذه السورة العظيمة الجليلة التي هي إحدى سورتي الإخلاص، التي تعدل

ربع القرآن(١) كما جاء في بعض السنن، وهذا لا يفهمه كل أحد، ولا يدركه إلا من منحه الله فهما من عنده، فله الحمد والمنة.

وأما المسألة الخامسة: وهي أن النفي في هذه السورة أتى بأداة [لا] دون [لن]، فلما تقدم تحقيقه عن قرب أن النفي بـ[لا] أبلغ منه بـ[لن]، وأنها أدل على دوام النفي وطوله من [لن]، وإنها للطول والمد الذي في نفيها طال النفي بها واشتد، وأن هذا ضد ما فهمته الجهمية والمعتزلة من أن [لن] إنما تنفي المستقبل، ولا تنفي الحال المستمر النفي في الاستقبال. وقد تقدم تقرير ذلك بما لا تكاد نجده في غير هذا التعليق، فالإتيان بـ[لا] متعين هنا، والله أعلم.

وأما المسألة السادسة: وهي اشتمال هذه السورة على النفي المحض، فهذا هو خاصة هذه السورة العظيمة، فإنها سورة براءة من الشرك، كما جاء في وصفها أنها براءة من الشرك، فمقصودها الأعظم هو البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين. ولهذا أتي بالنفي في الجانبين تحقيقًا للبراءة المطلوبة، هذا مع أنها متضمنة للإثبات صريحًا فقوله: ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾ براءة محضة ﴿ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾ إثبات أن له معبودًا يعبده وأنتم بريئون من عبادته، فتضمنت النفي والإثبات. وطابقت قول إمام الحنفاء ﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]. وطابقت قول الفئة الموحدين ﴿ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [الكهف: ١٦].

فانتظمت حقيقة لا إله إلا الله، ولهذا كان النبي ﷺ، يقرنها بسورة ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١] في سنة الفجر وسنة المغرب، فإن هاتين السورتين سورتا الإخلاص، وقد اشتملتا على نوعي التوحيد، الذي لا نجاة للعبد ولا فلاح إلا بهما، وهما توحيد

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٨٩٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما في فضل ﴿ إِذَا زُلۡزِلَتِ ﴾ و﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ وصححه الألباني دون فضل الزلزلة. وذكره عن ابن عمر رضي الله عنهما المنذري في الترغيب والترهيب وقال: رواه أبو يعلى بإسناد حسن والطبراني في الكبير واللفظ له. وقال الألباني: صحيح لغيره (رقم ٥٨٣).

العلم والاعتقاد المتضمن تنزيه الله عما لا يليق به من الشرك والكفر والولد والوالد، وأنه إله أحد صمد، لم يلد فيكون له فرع، ولم يولد فيكون له أصل، ولم يكن له كفوًا أحد، فيكون له نظير، ومع هذا فهو الصمد الذي اجتمعت له صفات الكمال كلها.

فتضمنت السورة إثبات ما يليق بجلاله من صفات الكمال ونفي ما لا يليق به من الشريك أصلًا وفرعًا ونظيرًا، فهذا توحيد العلم والاعتقاد، والثاني توحيد القصد والإرادة، وهو أن لا يعبد إلا إياه فلا يشرك به في عبادته سواه، بل يكون وحده هو المعبود، وسورة ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ مشتملة على هذا التوحيد.

فانتظمت السورتان نوعي التوحيد، وأخلصتا له، فكان ﷺ، يفتتح بهما النهار في سنة الفجر، ويختم بهما في سنة المغرب. وفي السنن أنه كان يوتر بهما، فيكونا خاتمة عمل الليل كما كانا خاتمة عمل النهار، ومن هنا تخريج جواب.

المسألة السابعة: وهي تقديم براءته من معبودهم، ثم اتبعها ببراءتهم من معبوده فتأمله.

وأما المسألة الثامنة: وهي إثباته هنا بلفظ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ دون يا أيها الذين كفروا. فسره والله أعلم إرادة الدلالة على أن من كان الكفر وصفًا ثابتًا له لازمًا لا يفارقه فهو حقيقي أن يتبرأ الله منه، ويكون هو أيضًا بريئًا من الله، فحقيق بالموحد البراءة منه، فكان في معرض البراءة التي هي غاية البعد والمجانبة بحقيقة حاله التي هي غاية الكفر، وهو الكفر الثابت اللازم في غاية المناسبة، فكأنه يقول كما أن الكفر لازم لكم ثابت لا تنتقلون عنه فمجانبتكم والبراءة منكم ثابتة دائمًا أبدًا، ولهذا أتى فيها بالنفي الدال على الاستمرار مقابلة الكفر الثابت المستمر، وهذا واضح.

وأما المسألة التاسعة: وهي ما هي الفائدة في قوله: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ٦]؟ وهل أفاد هذا معنى زائدًا على ما تقدم؟

فيقال في ذلك من الحكمة والله أعلم: إن النفي الأول أفاد البراءة، وإنه لا يتصور منه، ولا ينبغي له أن يعبد معبوديهم، وهم أيضًا لا يكونون عابدين لمعبوده.

وأفاد آخر السورة إثبات ما تضمنه النفي من جهتهم من الشرك والكفر الذي هو حظهم وقسمهم ونصيبهم، فجرىٰ ذلك مجرىٰ من اقتسم هو وغيره أرضًا، فقال له: لا تدخل في حدِّي ولا أدخل في حدِّك، لك أرضك، ولي أرضي.

فتضمنت الآية أن هذه البراءة اقتضت أنا اقتسمنا خطتنا بيننا، فأصابنا التوحيد والإيمان، فهو نصيبنا وقسمنا الذي نختص به، لا تشركونا فيه، وأصابكم الشرك بالله والكفر به، فهو نصيبكم وقسمكم الذي تختصون به، لا نشرككم به.

فتبارك من أحيا قلوب من شاء من عباده بفهم كلامه.

وهذا المعاني ونحوها إذا تجلت لقلوب رافلة في حللها، فإنها تسبي القلوب، وتأخذ بمجامعها، ومن لم يصادف من قلبه حياة، فهي خود تزف إلىٰ ضرير مقعد، فالحمد لله علىٰ مواهبه التي لا منتهىٰ لها، ونسأله إتمام نعمته.

وأما المسألة العاشرة: وهي تقديم قسمهم ونصيبهم علىٰ قسمه ونصيبه، وفي أول السورة قدم ما يختص به علىٰ ما يختص بهم، فهذا من أسرار الكلام وبديع الخطاب الذي لا يدركه إلا فحول البلاغة وفرسانها، فإن السورة لما اقتضت البراءة واقتسام ديني التوحيد والشرك بينه وبينهم، ورضي كل بقسمه، وكان المحق هو صاحب القسمة، وقد برز النصيبين وميز القسمين، وعلم أنهم راضون بقسمهم الدون الذي لا أردىٰ منه، وأنه هو قد استولىٰ علىٰ القسم الأشرف والحظ الأعظم بمنزلة من اقتسم هو وغيره سما وشفاء، فرضي مقاسمه بالسم، فإنه يقول له: لا تشاركني في قسمي، ولا أشاركك في قسمك، لك قسمك، ولي قسمي، فتقديم ذكر قسمه ههنا أحسن وأبلغ، كأنه يقول. هذا هو قسمك الذي آثرته بالتقديم، وزعمت أنه أشرف القسمين وأحقهما بالتقديم.

فكأن في تقديم ذكر قسمه من التهكم به والنداء علىٰ سوء اختياره وقبح ما رضيه لنفسه من الحسن والبيان ما لا يوجد في ذكر تقديم قسم نفسه، والحاكم في هذا هو الذوق، والفطن يكتفي بأدنىٰ إشارة، وأما غليظ الفهم فلا ينجع فيه كثرة البيان. ووجه

ثان وهو أن مقصود السورة براءته ﷺ، من دينهم ومعبودهم، هذا هو لبها ومغزاها.

وجاء ذكر براءتهم من دينه ومعبوده بالقصد الثاني مكملًا لبراءته ومحققًا لها، فلما كان المقصود براءته من دينهم بدأ به في أول السورة ثم جاء قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ مطابقًا لهذا المعنى أي: لا أشارككم في دينكم، ولا أوافقكم عليه، بل هو دين تختصون أنتم به، لا أشرككم فيه أبدًا، فطابق آخر السورة أولها فتأمله.

وأما المسألة الحادية عشرة: وهي أن هذا الإخبار بأن لهم دينهم وله دينه، هل هو إقرار فيكون منسوخًا أو مخصوصًا أو لا نسخ في الآية ولا تخصيص.

فهذه مسألة شريفة من أهم المسائل المذكورة.

وقد غلط في السورة خلائق، وظنوا أنها منسوخة بآية السيف؛ لاعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم.

وظن آخرون أنها مخصوصة بمن يقرون على دينهم، وهم أهل الكتاب، وكلا القولين غلط محض، فلا نسخ في السورة ولا تخصيص، بل هي محكمة عمومها نص محفوظ، هي من السور التي يستحيل دخول النسخ في مضمونها، فإن أحكام التوحيد التي اتفقت عليه دعوة الرسل يستحيل دخول النسخ فيه.

وهذه السورة أخلصت التوحيد، ولهذا تسمى سورة الإخلاص كما تقدم.

ومنشأ الغلط ظنهم أن الآية اقتضت إقرارهم على دينهم، ثم رأوا أن هذا الإقرار زال بالسيف فقالوا: منسوخ. وقالت طائفة: زال عن بعض الكفار، وهم من لا كتاب لهم، فقالوا: هذا مخصوص.

ومعاذ الله أن تكون الآية اقتضت تقريرًا لهم أو إقرارًا على دينهم أبدًا، بل لم يزل رسول الله ﷺ في أول الأمر وأشده عليه وعلى أصحابه أشداء على الإنكار عليهم وعيب دينهم وتقبيحه والنهي عنه والتهديد والوعيد كل وقت وفي كل ناد.

وقد سألوه أن يكف عن ذكر آلهتهم وعيب دينهم، ويتركونه وشأنه، فأبى إلا مضيًا على الإنكار عليهم وعيب دينهم.

فكيف يقال: إن الآية اقتضت تقريره لهم، معاذ الله من هذا الزعم الباطل. وإنما الآية اقتضت البراءة المحضة كما تقدم، وأن ما هم عليه من الدين لا نوافقكم عليه أبدًا، فإنه دين باطل فهو مختص بكم، لا نشرككم فيه، ولا أنتم تشركوننا في ديننا الحق.

فهذا غاية البراءة والتنصل من موافقتهم في دينهم، فأين الإقرار حتى يدعى النسخ أو التخصيص، أفترى إذا جوهدوا بالسيف كما جوهدوا بالحجة لا يصح أن يقال لكم دينكم ولي دين، بل هذه قائمة محكمة ثابتة بين المؤمنين والكافرين إلى أن يطهر الله منهم عباده وبلاده.

وكذلك حكم هذه البراءة بين أتباع الرسل ﷺ، أهل سنته، وبين أهل البدع المخالفين لما جاء به الداعين إلى غير سنته، إذا قال لهم خلفاء الرسول وورثته: لكم دينكم ولنا ديننا، لا يقتضي هذا إقرارهم على بدعتهم، بل يقولون لهم هذه براءة منها، وهم مع هذا منتصبون للرد عليهم ولجهادهم بحسب الإمكان.

فهذا ما فتح الله العظيم به من هذه الكلمات اليسيرة والنبذة المشيرة إلى عظمة هذه السورة وجلالتها ومقصودها وبديع نظمها، من غير استعانة بتفسير ولا تتبع لهذه الكلمات من مظان توجد فيه، بل هي استملاء مما علمه الله وألهمه بفضله وكرمه. والله يعلم أني لو وجدتها في كتاب لأضفتها إلى قائلها، ولبالغت في استحسانها.

وعسى الله المان بفضله الواسع العطاء الذي عطاؤه على غير قياس المخلوقين أن يعين على تعليق تفسير هذا النمط وهذا الأسلوب. وقد كتبت على مواضع متفرقة من القرآن بحسب ما يسنح من هذا النمط وقت مقامي بمكة وبالبيت المقدس، والله المرجو إتمام نعمته.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الكافرون

والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ النَّصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣ ﴾.

(١)«**فو الله إني لأتوب في اليوم أكثر من سبعين مرة**»(٢) وكان أصحابه يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم: «**رب اغفر لي وتب عليَّ، إنك أنت التواب الغفور**»(٣) مائة مرة. وما صلى صلاة قط بعد إذ أنزلت عليه: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ إلى آخرها. إلا قال فيها: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. اللهم اغفر لي**»(٤).

وصح عنه ﷺ، أنه قال: «**لن ينجي أحدًا منكم عمله**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»(٥).

فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه، وعظمته وما يستحقه جلاله من العبودية، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها.

(٦)...وقد قال عمر بن الخطاب للصحابة: ما تقولون في: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾

---

(١) ١٧٨ مدارج جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٣٠٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٠١).

(٣) أخرجه ابن حبان (٣/ ٢٠٦ رقم ٩٢٧) والهيثمي في موارد الظمآن (رقم ٢٤٥٩) والنسائي في الكبرى (٦/ ١١٩ رقم ١٠٢٩٢) وأبو داود (رقم ١٥١٦) وابن ماجه (رقم ٣٨١٤) وأحمد (٢/ ٢١) وعبد بن حميد (رقم ٧٨٦) والبيهقي في الشعب (١/ ٤٣٨ رقم ٦٤١) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٦١٨) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٠١).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٧٩٤) ومسلم (رقم ٤٨٤) واللفظ له، وانظر: فتح الباري (٣/ ٨) وشرح النووي (٤/ ٢٠١-٢٠٢).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٥٦٧٣) ومسلم (رقم ٢٨١٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٩٧) وشرح النووي (١٧/ ١٥٩-١٦٠).

(٦) ٣٥٣ أعلام جـ١.

السورة؟ قالوا: أمر الله نبيه إذا فتح عليه أن يستغفره، فقال لابن عباس: ما تقول أنت؟ قال: هو أجل رسول الله ﷺ، أعلمه إياه، فقال: ما أعلم منها غير ما تعلم[(١)]، وهذا من أدق الفهم وألطفه، ولا يدركه كل أحد، فإنه سبحانه لم يعلق الاستغفار بعمله، بل علقه بما يحدثه هو سبحانه من نعمة فتحه على رسوله ودخول الناس في دينه، وهذا ليس بسبب للاستغفار، فعلم أن سبب الاستغفار غيره، وهو حضور الأجل الذي من تمام نعمة الله على عبده توفيقه للتوبة النصوح والاستغفار بين يديه ليلقى ربه طاهرًا مطهرًا من كل ذنب، فيقدم عليه مسرورًا راضيًا مرضيًا عنه، ويدل عليه أيضًا قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ٣] وهو ﷺ، كان يسبح بحمده دائمًا، فعلم أن المأمور به من ذلك التسبيح بعد الفتح ودخول الناس في هذا الدين أمر أكبر من ذلك المتقدم، وذلك مقدمة بين يدي انتقاله إلى الرفيق الأعلى. وأنه قد بقيت عليه من عبودية التسبيح والاستغفار التي ترقيه إلى ذلك المقام بقية، فأمره بتوفيتها، ويدل عليه أيضًا أنه سبحانه شرع التوبة والاستغفار في خواتيم الأعمال، فشرعها في خاتمة الحج وقيام الليل، وكان النبي ﷺ، إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثًا[(٢)]، شرع للمتوضئ بعد كمال وضوئه أن يقول: «اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين»[(٣)] فعلم أن التوبة مشروعة عقيب الأعمال الصالحة، فأمر رسوله بالاستغفار عقيب توفيته ما عليه، من تبليغ الرسالة والجهاد في سبيله حين دخل الناس في دينه أفواجًا، فكأن التبليغ عبادة قد أكملها وأداها، فشرع له الاستغفار عقيبها.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النصر

والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٢٩٤) وانظر: عمدة القاري (١٦/ ١٥٥).

(٢) أخرجه مسلم (٥٩١) وانظر: شرح النووي (٥/ ٨٩-٩٠).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٥٥) وابن أبي شيبة (١/ ١٣ رقم ٢٠) وعبد الرزاق (١/ ١٨٦ رقم ٧٣١) والطبراني في الكبير (٥/ ١٤٠ر قم ٤٨٩٥) وانظر: فتح الباري (٨/ ٧٣٤) وشرح النووي (٣/ ١٢١).

سُورَةُ المَسَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝ ﴾.

[(١)]سماها امرأته بعقد النكاح الواقع في الشرك، وقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ [التحريم: ١١] فسماها امرأته. والصحابة ﷺ غالبهم إنما ولدوا من نكاح كان قبل الإسلام في حال الشرك، وهم ينسبون إلى آبائهم انتسابًا لا ريب فيه عند أحد من أهل الإسلام، وقد أسلم الجم الغفير في عهد النبي ﷺ، فلم يأمر أحدًا منهم أن يجدد عقده على امرأته، فلو كانت أنكحة الكفار باطلة لأمرهم تجديد أنكحتهم. وقد كان رسول الله ﷺ يدعو أصحابه لآبائهم، وهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام[(٢)].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المسد

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

---

(١) ٣٠٨ أحكام أهل الذمة جـ١.

(٢) تقدم في سورة الأحزاب عند ذكر زوجات النبي ﷺ ما له علاقة بهذا لمن أراده (ج) انظر في هذا الكتاب (٤/٨).

سُورَةُ الإِخْلَاصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾.

(١)ما يجري صفة أو خبرًا على الرب ـ تبارك وتعالى ـ أقسام:

أحدها: ما يرجع إلى نفس الذات: كقولك: ذات، وموجود، وشيء.

الثاني: ما يرجع إلى صفات معنوية: كالعليم، والقدير، والسميع.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله نحو: الخالق والرازق.

الرابع: ما يرجع إلى التنزيه المحض، ولا بد من تضمنه ثبوتًا، إذ لا كمال في العدم المحض: كالقدوس، السلام.

الخامس: ولم يذكره أكثر الناس، وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة، بل هو دال على معناه لا على معنى مفرد نحو: المجيد، العظيم الصمد. فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا، فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة، فمنه: استمجد المرخ والغفار، وأمجد الناقة علفًا، ومنه (رب العرش المجيد) صفة للعرش لسعته وعظمه وشرفه. وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترنًا بطلب الصلاة من الله على رسوله كما علمناه ﷺ، لأنه في مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء وكثرته ودوامه، فأتى في هذا المطلوب باسم تقتضيه، كما تقول: اغفر لي، وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم. ولا يحسن أنك أنت السميع البصير، فهو راجع إلى المتوسل إليه بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه. ومنه الحديث الذي في المسند والترمذي «ألظوا بيا ذا الجلال

---

(١) ١٥٩ بدائع جـ١.

والإكرام»[١] ومنه «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام»[٢] فهذا سؤال له وتوسل إليه وبحمده، وأنه الذي لا إله إلا هو المنان، فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته وما أحق ذلك بالإجابة وأعظمه موقعًا عند المسئول، وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد، أشرنا إليه إشارة، وقد فتح لمن بصره الله.

ولنرجع إلىٰ المقصود، وهو وصفه تعالىٰ بالاسم المتضمن لصفات عديدة.

فالعظيم من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال.

وكذلك الصمد قال ابن عباس: هو السيد الذي كمل في سؤدده، وقال ابن وائل: هو السيد الذي انتهىٰ سؤدده. وقال عكرمة: الذي ليس فوقه أحد، وكذلك قال الزجاج: الذي ينتهي إليه السؤدد، فقد صمد له كل شيء. وقال ابن الأنباري: لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد السيد الذي ليس فوقه أحد الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم. واشتقاقه يدل علىٰ هذا، فإنه من الجمع والقصد الذي اجتمع القصد نحوه، واجتمعت فيه صفات السؤدد، هذا أصله في اللغة، كما قال:

ألا بكـر النـاعي بخيـر بنـي أسـد   بعمرو بن مسعود وبالسيد الـصمد[٣]

---

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٦/ ٧٩-٨٠ رقم ٢٠٦٤) والحاكم (١/ ٦٧٦ رقم ١٨٣٦) والنسائي في الكبرىٰ (٤/ ٤٠٩ رقم ٧٧١٦) والترمذي (رقم ٣٥٢٤) والطبراني في الكبير (٥/ ٦٤ رقم ٤٥٩٤) وأبو يعلىٰ (٦/ ٤٤٥ رقم ٣٨٣٣) وأحمد (٤/ ١٧٧) وصححه الحاكم.

(٢) أخرجه الضياء في المختارة (٥/ ٢٥٧ رقم ١٨٨٥) والحاكم (١/ ٦٨٣ رقم ١٨٥٦) والهيثمي في موارد الظمآن (رقم ٢٣٨٢) والنسائي في الكبرىٰ (١/ ٣٨٦ رقم ١٢٢٣) وأبو داود (رقم ١٤٩٥) وابن ماجه (رقم ٣٨٥٨) والطبراني في الصغير (رقم ١٠٣٨) وفي الكبير (٥/ ١٠١ رقم ٤٧٢٢) وأحمد (٣/ ١٥٨) وصححه الحاكم وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٥٦): رواه أحمد والطبراني في الصغير ورجال أحمد ثقات إلا أن ابن إسحاق مدلس وإن كان ثقة.

(٣) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلىٰ هند بنت معبد شاعرة جاهلية من بني أسد، كان جدها من ندماء النعمان، فسكر ذات يوم فأمر بقتله ومعه عمرو بن مسعود فقتلا، فكان لها في ذلك شعر. والبيت ذكره الطبري في تفسيره (٣٠/ ٣٤٧) ونسبه إلىٰ الشاعر بينما ذكره الطبراني في الكبير (١٠/ ٢٥٥) =

والعرب تسمى أشرافها بالصمد، لاجتماع قصد القاصدين إليه، اجتماع صفات السيادة فيه.

السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو الغني الحميد، العفو القدير، الحميد المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة، والأسماء المزدوجة في القرآن، فإن الغنى صفة كمال، والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر، فله ثناء من غناه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعها، وكذلك العفو القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم، فتأمله، فإنه من أشرف المعارف.

وأما صفات السلب المحض، فلا تدخل في أوصافه ـ تعالى ـ إلا أن تكون متضمنة لثبوت: كالأحد المتضمن لانفراده بالربوبية والإلهية، والسلام المتضمن لبراءته من كل نقص يضاد كماله، وكذلك الإخبار عنه بالسلوب هو لتضمنها ثبوتًا كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فإنه متضمن لكمال حياته وقيوميته، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] متضمن لكمال قدرته، وكذلك قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ [يونس: ٦١] متضمن لكمال علمه، وكذلك قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣] متضمن لكمال صمديته وغناه، وكذلك قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤] متضمن لتفرده بكماله، وأنه لا نظير له، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] متضمن لعظمته، وأن جل عن أن يدرك بحيث يحاط به، وهذا مطرد في كل ما وصف به نفسه من السلوب، ويجب أن يعلم هنا أمور:

= ونسبه إلى الأسدية، وفعل الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ٧٤٠) كما فعل الطبري فنسبه إلى الشاعر. وذكره أيضاً ابن منظور في اللسان (٣/ ٢٥٨).

أحدها: أن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته: كالشيء، والموجود، والقائم بنفسه، فإنه يخبر به عنه، ولا يدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

الثاني: أن الصفة إذا كانت منقسمة إلى كمال ونقص لم تدخل بمطلقها في أسمائه، بل يطلق عليها منها كمالها، وهذا كالمريد والفاعل والصانع، فإن هذه الألفاظ لا تدخل في أسمائه، ولهذا غلط من سماه بالصانع عند الإطلاق، بل هو الفعال لما يريد، فإن الإرادة والفعل والصنع منقسمة، ولهذا إنما أطلق على نفسه من ذلك أكمله فعلًا وخبرًا.

(١) إن من أسمائه الحسنى ما يكون دالًا على عدة صفات، ويكون ذلك الاسم متناولًا لجميعها تناول الاسم الدال على الصفة الواحدة لها، كما تقدم بيانه: كاسمه العظيم، والمجيد، والصمد، كما قال ابن عباس فيما رواه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره: الصمد: السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع شرفه وسؤدده، وهو الله سبحانه، هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفوًا أحد، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار، هذا لفظه، هذا مما خفي على كثير ممن تعاطي الكلام في تفسير الأسماء الحسنى، ففسر الاسم دون معناه ونقصه من حيث لا يعلم، فمن لم يحط بهذا علمًا بخس الاسم الأعظم حقه وهضمه معناه، فتدبره.

(٢) وهو سبحانه قد وصف نفسه بأنه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤] بعد وصفه نفسه بأن الصمد، والصمد السيد الذي كمل في سؤدده، ولهذا كانت العرب

---

(١) ١٦٨ بدائع جـ١.

(٢) ٢١١ مختصر الصواعق جـ١.

تسمى أشرافها بهذا الاسم لكثرة الأوصاف المحمودة للمسمى به. قال شاعرهم:

ألا بكــر النــاعي بخيــر بنــي أســد   بعمرو بن مسعود وبالسيد الـصمد

فإن الصمد من تصمد نحوه القلوب بالرغبة والرهبة، وذلك كثرة خصال الخير فيه. ولهذا قال جمهور السلف، منهم ابن عباس: الصمد الذي كمل سؤدده، وهو العالم الذي كمل علمه، القادر الذي كملت قدرته، الحليم الذي كمل حلمه، الرحيم الذي كملت رحمته، الجواد الذي كمل جوده. ومن قال: إنه الذي لا جوف له فقوله لا يناقض هذا التفسير. فإن اللفظة من الاجتماع، فهو الذي اجتمعت فيه صفات الكمال ولا جوف له، فإن ما لم يكن أحد كفوًا له لما كان صمدًا كاملًا في صمدانيته، فلو لم يكن له صفات كمال ونعوت جلال، ولم يكن له علم ولا قدرة ولا سمع ولا بصر، ولا يقوم به فعل، ولا يفعل شيئًا البتة، ولا له حياة ولا إرادة، ولا كلام ولا وجه، ولا يد،ولا هو فوق عرشه ولا يرضى، ولا يغضب، ولا يحب، ولا يبغض، ولا هو فاعل لما يريد، ولا يرى، ولا يمكن أن يرى، ولا يشار إليه، ولا يمكن أن يشار إليه لكان العدم المحض كفوا له، فإن هذه الصفة منطبقة على المعدوم. فلو كان ما يقوله المعطلون هو الحق لم يكن صمدًا وكان العدم كفوا له..

[1]وقوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[الإخلاص: ٤] وهو سلب عن المخلوق مكافأته ومماثلته للخالق ـ سبحانه ـ ولم يقل: ولم يكن هو كفوًا لأحد، فينفي عن نفسه مشابهته للمخلوق ومكافأته له، إذ كان ذلك أبين وأظهر من أن يحتاج إلى نفيه.

وسر ذلك: أن المقصود أن المخلوق لا يماثله سبحانه في شيء من صفاته وخصائصه، أما كونه سبحانه هو لا يماثل المخلوق، ولا يشابهه، ولا هو ند له ولا كفؤ، فليس فيه مدح له.

فإنه لو مدح بعض الملوك أو غيرهم بأنه لا يشبه الحيوانات، ولا الحجارة، ولا

---

(١) ٢٣١ إغاثة جـ٢.

الخشب، ونحو ذلك، لم يعد هذا مدحًا، ولا ثناء عليه، ولا كمالًا له، بخلاف ما إذا قيل: لا تجعل للملك ندًا ولا كفؤا، ولا شبيها من رعيته، تعظمه كتعظيمه، وتطيعه كطاعته، فإنه ليس في رعيته من يساميه، ولا يماثله، ولا يكافئه: كان هذا غاية المدح.

(١)ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فهو توحيد منه لنفسه وأمر للمخاطب بتوحيده، فإذا قال العبد: قل هو الله أحد. كان قد وحد الله بما وحد به نفسه وأتى بلفظة ﴿ قُلْ ﴾ تحقيقًا لهذا المعنى، وأنه مبلغ محض، قائل لما أمر بقوله، والله أعلم. وهذا بخلاف قوله: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ ، و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ فإن هذا أمر محض بإنشاء الاستعاذة، لا تبليغ لقوله أعوذ برب الناس، فإن الله لا يستعيذ من أحد، وذلك عليه محال، بخلاف قوله: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فإنه خبر عن توحيده، وهو سبحانه يخبر عن نفسه، بأنه الواحد الأحد، فتأمل هذه النكتة البديعة والله المستعان.

(٢)ولما كان القرآن شطرين: شطرًا في الدنيا، وأحكامها ومتعلقاتها، والأمور الواقعة فيها، من أفعال المكلفين وغيرها. وشطرًا في الآخرة، وما يقع فيها، وكانت سورة ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ قد أخلصت من أولها وآخرها لهذا الشطر، فلم يذكر فيها إلا الآخرة، وما يكون فيها من أحوال الأرض وسكانها: كانت تعدل نصف القرآن. فأحرىٰ بهذا الحديث أن يكون صحيحًا. والله أعلم.

ولهذا كان ﷺ، يقرأ بهاتين السورتين في ركعتي الطواف، لأنهما سورتا الإخلاص والتوحيد، وكان يفتتح بهما عمل النهار، ويختمه بهما، ويقرأ بهما في الحج الذي هو شعار التوحيد.

وكان ﷺ، يضطجع بعد سنة الفجر على شقه الأيمن، هذا الذي ثبت عنه في

(١) ١٧٢ بدائع جـ٢.
(٢) ١٧٠ زاد المعاد جـ١.

الصحيحين من حديث عائشة ـ رضي الله عنها[١] ـ وذكر الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ عنه ﷺ، أنه قال: «إذا صلى أحدكم الركعتين قبل صلاة الصبح فليضطجع على جنبه الأيمن»[٢] قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

وسمعت ابن تيمية يقول: هذا باطل، وليس بصحيح. وإنما الصحيح عنه الفعل لا الأمر بها، والأمر تفرد به عبد الواحد بن زياد، وغلط فيه[٣]، انتهى.

وأما ابن حزم ومن تابعه: فإنهم يوجبون هذه الضجعة، ويبطل ابن حزم صلاة من لم يضطجعها بهذا الحديث[٤]. وهذا مما تفرد به عن الأمة. ورأيت مجلدًا لبعض أصحابه قد نصر فيه هذا المذهب، وقد ذكر عبد الرزاق في المنصف عن معمر عن أيوب عن ابن سيرين «أن موسى ورافع بن خديج وأنس بن مالك ﷺ كانوا يضطجعون بعد ركعتي الفجر، ويأمرون بذلك»[٥] وذكر عن معمر عن أيوب عن نافع: أن ابن عمر كان لا يفعله، ويقول: كفى بالتسليم[٦].

[٧]وقد اختلف الفقهاء أي الصلاتين آكد: سنة الفجر، أو الوتر، على قولين: ولا

(١) أخرجه البخاري (رقم ٩٩٤) ومسلم (رقم ٧٣٦) وانظر: فتح الباري (٣/ ٤٤) وشرح النووي (٦/ ١٩).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٤٢٠) وابن حبان (٦/ ٢٢٠ رقم ٢٤٦٨) وابن خزيمة (٢/ ١٦٧ رقم ١١٢٠) والهيثمي في موارد الظمآن (رقم ٦١٢) وأبو داود (رقم ١٢٦١) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٤٥ رقم ٤٦٦٦) وأحمد (٢/ ٤١٥) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب. وقال النووي في رياض الصالحين (ص ٢٦٩): رواه أبو داود والترمذي بأسانيد صحيحة. وقال في شرح النووي (٦/ ١٩): رواه أبو داود والترمذي بإسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم.

(٣) انظر: فيض القدير (١/ ٣٩٠) وتحفة الأحوذي (٢/ ٣٩٥).

(٤) انظر: المحلى (٣/ ١٩٦-٢٠١) وفتح الباري (٣/ ٤٣-٤٤) (١١/ ١٠٩).

(٥) أخرجه عبد الرزاق (٣/ ٤٢ رقم ٤٧١٩) وابن أبي شيبة (٢/ ٥٤ رقم ٦٣٨٠) وانظر: عمدة القاري (٧/ ٢١٨) والمحلى (٣/ ١٩٨-١٩٩).

(٦) أخرجه عبد الرزاق (٣/ ٤٢ رقم ٤٧٢٠)، وانظر: سبل السلام (٢/ ٦).

(٧) ١٦٨ زاد المعاد جـ١.

يمكن الترجيح باختلاف الفقهاء في وجوب الوتر. فقد اختلفوا أيضًا في جوب سنة الفجر.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: سنة الفجر تجري مجرى بداية العمل، والوتر خاتمته. ولذلك كان النبي ﷺ، يصلي سنة الفجر والوتر بسورتي الإخلاص(١)، وهما الجامعتان لتوحيد العلم والعمل، وتوحيد المعرفة والإرادة وتوحيد الاعتقاد والقصد. انتهى.

فسورة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة، وما يجب إثباته للرب تعالى: من الأحدية المنافية لمطلق المشاركة بوجه من الوجوه، والصمدية المثبتة لجميع صفات الكمال التي لا يلحقها نقص بوجه من الوجوه، ونفي الولد والوالد الذي هو من لوازم الصمدية وغناه وأحديته، ونفي الكفء المتضمن لنفي التشبيه والتمثيل والتنظير، فتضمنت هذه السورة إثبات كل كمال له، ونفي كل نقص عنه، ونفي إثبات شبيه أو مثيل له في كماله، ونفي مطلق الشريك عنه.

وهذه الأصول هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي، الذي يباين معتقده جميع فرق الضلال والشرك. ولذلك كانت تعدل ثلث القرآن.

فإن القرآن مداره على الخبر والإنشاء، والإنشاء ثلاثة: أمر، ونهي، وإباحة. والخبر نوعان: خبر عن الخالق تعالى وأسمائه وصفاته وأحكامه، وخبر عن خلقه، فأخلصت سورة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ الخبر عنه وعن أسمائه وصفاته، فعدلت ثلث القرآن، وخلصت قارئها المؤمن بها من الشرك العلمي، كما خلصت سورة ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ من الشرك العملي الإرادي القصدي، ولما كان العلم قبل العمل. وهو إمامه وقائده وسائقه، والحاكم عليه، ومنزله منازله: كانت سورة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ

(١) عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قرأ في ركعتي الفجر: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾، و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾. أخرجه مسلم (رقم ٧٢٦) وانظر: فتح الباري (٣/ ٤٧) وشرح النووي (٦/ ٥).

أَحَدٌ ﴾ تعدل ربع القرآن، و﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ تعدل ربع القرآن، والحديث بذلك في الترمذي من رواية ابن عباس - رضي الله عنهما - يرفعه: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ تعدل نصف القرآن، و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تعدل ثلث القرآن، ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ تعدل ربع القرآن»[1] ورواه الحاكم في المستدرك، وقال: صحيح الإسناد.

ولما كان الشرك العملي الإرادي أغلب على النفوس، لأجل متابعتها هواها، وكثير منها ترتكبه مع علمها بمضرته وبطلانه، لما لها فيه من نيل الأغراض، وإزالته وقلعه منها أصعب، وأشد من قلع الشرك العلمي وإزالته، لأن هذا يزول بالعلم والحجة، ولا يمكن صاحبه أن يعلم الشيء على غير ما هو عليه، بخلاف شرك الإرادة والقصد، فإن صاحبه يرتكب ما يدله العلم على بطلانه وضرره، لأجل غلبة هواه، واستيلاء سلطان الشهوة والغضب على نفسه. فجاء من التأكيد والتكرار في سورة: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ المتضمنة لإزالة الشرك العملي ما لم يجئ مثله في سورة: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الإخلاص

والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٧٥٤ رقم ٢٠٧٨) والترمذي (رقم ٢٨٩٤) والبيهقي في الشعب (٢/ ٤٩٦ رقم ٢٥١٤) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٦٨٦) والضياء المقدسي في فضائل الأعمال (رقم ٥٥٠، ٥٥١) قال المنذري في الترغيب (٢/ ٢٤٨) وإسناده متصل ورواته ثقات مشهورون. وانظر: فتح الباري (٩/ ٦١-٦٢).

سُورَةُ الفَلَقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾.

(١)من المعلوم أن الإعاذة من الشيطان الرجيم ليست بإماتته ولا تعطيل آلات كيده، وإنما هي بأن يعصم المستعيذ من أذاه له، ويحول بينه وبين فعله الاختياري له، فدل على أن فعله مقدور له سبحانه إن شاء سلطه على العبد، وإن شاء حال بينه وبينه، وهذا على أصول القدرية باطل، فلا يثبتون حقيقة الإعاذة، وإن أثبتوا حقيقة الاستعاذة من العبد، وجعلوا الآية ردًا على الجبرية، والجبرية أثبتوا حقيقة الإعاذة ولم يثبتوا حقيقة الاستعاذة من العبد، بل الاستعاذة فعل الرب حقيقة، كما أن الإعاذة فعله، وقد ضل الطائفتان عن الصراط المستقيم، وأصابت كل طائفة منهما فيما أثبتته من الحق.

(٢)...وبالجملة فالكلمة الجامعة لهذا هي الكلمة التي أثنى بها رسول الله ﷺ على ربه حيث يقول: «والشر ليس إليك»(٣) فالشر لا يضاف إلى من الخير بيديه، وإنما ينسب إلى المخلوق: كقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ ﴾.

فأمره أن يستعيذ به من الشر الذي في المخلوق، فهو الذي يعيذ منه وينجي منه.

وإذا أخلى العبد قلبه من محبته والإنابة إليه وطلب مرضاته، وأخلى لسانه من ذكره والثناء عليه، وجوارحه من شكره وطاعته فلم يرد من نفسه ذلك ونسي ربه، ولم يرد الله سبحانه أن يعيذه من ذلك الشر، ونسيه كما نسيه، وقطع الإمداد الواصل إليه منه،

(١) ٦٣ شفاء.

(٢) ٣٥١ مختصر الصواعق.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٧٧١) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٩٩، ٤٢٢) (١٣/ ٥٣٢) وشرح النووي (٦/ ٥٩).

كما قطع العبد العبودية والشكر والتقوىٰ التي تناله من عباده. قال تعالىٰ: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧]، فإذا أمسك العبد عما ينال ربه منه، أمسك الرب عما ينال العبد من توفيقه.

وقد صرح سبحانه بهذا المعنىٰ بعينه في قوله تعالىٰ: ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠]. أي نخلي بينهم وبين نفوسهم التي ليس لهم منها إلا الظلم والجهل، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ [المائدة: ٤١] فعدم إرادته تطهيرهم وتخليته بينهم وبين نفوسهم أوجب لهم من الشر ما أوجبه.

فالذي إلىٰ الرب وبيديه ومنه هو الخير، والشر كان منهم مصدره، وإليهم كان منتهاه، منهم ابتدئت أسبابه بخذلان الله تعالىٰ لهم تارة، وبعقوبته لهم به تارة، وإليهم انتهت غايته ووقوعه.

فتأمل هذا الموضع كما ينبغي، فإنه يحل عنك إشكالات حار فيها أكثر الناس، ولم يهتدوا إلىٰ الجمع بين: الملك، والحمد، والعدل، والحكمة.

[١] روىٰ مسلم في صحيحه من حديث قيس بن أبي حازم عن عقبة بن عامر، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط: أعوذ برب الفلق، وأعوذ برب الناس»**[٢].

وفي لفظ آخر من رواية محمد بن إبراهيم التيمي عن عقبة: «أن رسول الله ﷺ قال له: **«ألا أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعوذون؟»** قلت: بلىٰ. قال: **«قل: أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس»**[٣]. وفي الترمذي: حدثنا قتيبة، نا ابن لهيعة، عن يزيد

---

(١) ١٩٨ بدائع جـ٢.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٨١٤) وانظر: شرح النووي (٦/ ٩٦).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٤/ ٤٤٠ رقم ٧٨٤٧) والشيباني في الآحاد والمثاني (٥/ ٣٥ رقم ٢٥٧٤) وأحمد (٤/ ١٥٢) والبيهقي في الشعب (٢/ ٥١٧ رقم ٢٥٧٤) والطبراني في الدعاء (رقم ٩٨٠).

ابن أبي حبيب عن علي بن رباح عن عقبة بن عامر قال: «**أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذتين في دبر كل صلاة**»[١]. قال: هذا حديث غريب.

وفي الترمذي والنسائي وسنن أبي داود عن عبد الله بن حبيب قال: «خرجنا في ليلة مطر وظلمة نطلب النبي ﷺ ليصلي لنا فأدركناه، فقال: «**قل**» فلم أقل شيئًا، ثم قال: «**قل**»، فلم أقل شيئًا، ثم قال: «**قل**» قلت: يا رسول الله ما أقول؟ قال: «**قل: قل هو الله أحد، والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء**»[٢] قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وفي الترمذي أيضًا من حديث الجريري عن أبي هريرة عن أبي سعيد قال: «كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان فلما نزلتا أخذهما، وترك ما سواهما[٣]، قال: وفي الباب عن أنس وهذا حديث غريب».

وفي الصحيحين عن عائشة: «أن النبي ﷺ كان إذا آوى إلى فراشه نفث في كفيه بـ «قل هو الله أحد، والمعوذتين جميعًا» ثم يمسح بهما وجهه، وما بلغت يداه من جسده. قالت عائشة: فلما اشتكى كان يأمرني أن أفعل ذلك به»[٤].

قلت: هكذا رواه يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة ذكره البخاري، ورواه مالك عن الزهري عن عروة عنها: «أن النبي ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات، وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح عليه بيده رجاء

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٩٠٣) وقال: حديث حسن غريب.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥٧٥) وأبو داود (رقم ٥٠٨٢) والشيباني في الآحاد والمثاني (٥/ ٣٣ رقم ٢٥٧٢) وعبد بن حميد (رقم ٤٩٤).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٢٠٥٨) وحسنه ونقل تحسينه النووي في رياض الصالحين (ص ٢٥٢) والحافظ ابن حجر في الفتح (١٠/ ١٩٥) وانظر: فيض القدير (٥/ ٢٠٢) وتحفة الأحوذي (٦/ ١٨٢).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٥٧٤٨) ومسلم (رقم ٢١٩٢) وانظر: فتح الباري (٨/ ١٣١-١٣٢) (١٠/ ٢١٠) وشرح النووي (١٤/ ١٨٢-١٨٣).

بركتها»[١]، وكذلك: قال معمر عن الزهري عن عروة عنها: «أن النبي ﷺ كان ينفث على نفسه في مرضه الذي قبض فيه بالمعوذات، فلما ثقل كنت أنا أنفث عليه بهن، وأمسح بيده نفسه لبركتها، فسألت ابن شهاب كيف كان ينفث؟ قال: ينفث على يديه ثم يمسح بهما وجهه»[٢]. ذكره البخاري أيضًا، وهذا هو الصواب أن عائشة كانت تفعل ذلك، والنبي ﷺ لم يأمرها ولم يمنعها من ذلك.

وأما أن يكون استرقى وطلب منها أن ترقيه فلا، ولعل بعض الرواة رواه بالمعنى، فظن أنها لما فعلت ذلك وأقرها على رقيته أن يكون مسترقيًا، فليس أحدهما بمعنى الآخر، ولعل الذي كان يأمرها به إنما هو المسح على نفسه بيده، فيكون هو الراقي لنفسه، ويده لما ضعفت عن التنقل على سائر بدنه أمرها أن تنقلها على بدنه، ويكون هذا غير قراءتها هي عليه، ومسحها على يديه، فكانت تفعل هذا وهذا، والذي أمرها به إنما هو تنقل يده لا رقيته، والله أعلم.

والمقصود الكلام على هاتين السورتين وبيان عظيم منفعتهما وشدة الحاجة بل الضرورة إليهما، وأنه لا يستغني عنهما أحد قط، وأن لهما تأثيرًا خاصًا في دفع السحر والعين وسائر الشرور، وأن حاجة العبد إلى الاستعاذة بهاتين السورتين أعظم من حاجته إلى النفس والطعام والشراب واللباس.

فنقول والله المستعان: قد اشتملت السورتان على ثلاثة أصول: وهي أصول الاستعاذة. أحدها: نفس الاستعاذة. والثانية: المستعاذ به. والثالثة: المستعاذ منه.

فبمعرفة ذلك تعرف شدة الحاجة والضرورة إلى هاتين السورتين، فلنعقد لهما ثلاثة فصول: الفصل الأول في الاستعاذة. والفصل الثاني في المستعاذ به. والثالث في المستعاذ منه.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٠١٦) ومسلم (رقم ٢١٩٢) وانظر: فتح الباري (٨/ ١٣٢).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٧٥١) ومسلم (رقم ٢١٩٢) وانظر: عمدة القاري (٢١/ ٢٧٢).

الفصل الأول

اعلم أن لفظ: عاذ، وما تصرف منها تدل على التحرز والتحصن والنجاة وحقيقة معناها الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه، ولهذا يسمى المستعاذ به معاذًا، كما يسمى ملجأ ووزرًا.

وفي الحديث: أن ابنة الجون لما أدخلت على النبي ﷺ فوضع يده عليها قالت: أعوذ بالله منك، فقال لها: «**لقد عذت بمعاذ، الحقي بأهلك**»(١). فمعنى أعوذ ألتجئ وأعتصم وأتحرز.

وفي أصله قولان: أحدهما أنه مأخوذ من الستر. والثاني: أنه مأخوذ من لزوم المجاورة. فأما من قال: إنه من الستر، قال: العرب تقول للبيت الذي في أصل الشجرة التي قد استتر بها عوذ بضم العين وتشديد الواو وفتحها، فكأنه لما عاذ بالشجرة واستتر بأصلها وظلها سموه عوذًا، فكذلك العائذ قد استتر من عدوه بمن استعاذ به منه، واستجن به منه.

ومن قال: هو لزوم المجاورة. فإن العرب تقول: للحم إذا لصق بالعظم فلم يتخلص منه عوذ، لأنه اعتصم به واستمسك به، فكذلك العائذ، قد استمسك بالمستعاذ به واعتصم به ولزمه، والقولان حق والاستعاذة تنتظمهما معًا، فإن المستعيذ مستتر بمعاذه متمسك به معتصم به، قد استمسك قلبه به، ولزمه كما يلزم الولد أباه، إذا أشهر عليه عدوه سيفًا.

وقصده به فهرب منه، فعرض له أبوه في طريق هربه، فإنه يلقى نفسه عليه، ويستمسك به أعظم استمساك، فكذلك العائذ قد هرب من عدوه الذي يبغي هلاكه إلى ربه ومالكه، وفر إليه، وألقى بنفسه بين يديه، واعتصم به، واستجار به، والتجأ إليه.

وبعد فمعنى الاستعاذة القائم بقلبه وراء هذه العبارات، وإنما هي تمثيل وإشارة

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٢٥٤، ٥٢٥٥) وانظر: فتح الباري (٩/ ٣٥٧-٣٥٩).

وتفهيم، وإلا فما يقوم بالقلب حينئذ الالتجاء والاعتصام والانطراح بين يدي الرب والافتقار إليه والتذلل بين يديه أمر لا تحيط به العبارة.

ونظير هذا التعبير عن معنى محبته وخشيته وإجلاله ومهابته، فإن العبارة تقصر عن وصف ذلك، ولا تدرك إلا بالاتصاف بذلك، لا بمجرد الصفة والخبر كما أنك إذا وصفت لذة الوقاع لعنين لم تخلق له شهوة أصلًا فلو قربتها وشبهتها بما عساك أن تشبهها به لم تحصل حقيقة معرفتها في قلبه، فإذا وصفتها لمن خلقت فيه وركبت فيه عرفها بالوجود والذوق.

وأصل هذا الفعل أعوذ بتسكين العين وضم الواو، ثم أعل بنقل حركة الواو إلى العين وتسكين الواو، فقالوا: أعوذ على أصل هذا الباب ثم طردوا إعلاله، فقالوا في اسم الفاعل: عائذ، وأصله عاوذ، فوقعت الواو بعد ألف فاعل، فقلبوها همزة، كما قالوا: قائم، وخائف، وقالوا في المصدر: عياذًا بالله، وأصله عواذًا كلواذ، فقلبوا الواو ياء لكسرة ما قبلها، ولم تحصنها حركتها، إلا أنها قد ضعفت بإعلالها في الفعل، وقالوا: مستعيذ. وأصله مستعوذ: كمستخرج، فنقلوا كسرة الواو إلي العين قبلها، قلبت الواو قبلها كسرة، فقلبت ياء على أصل الباب.

فإن قلت: فلم دخلت السين والتاء في الأمر من هذا الفعل كقوله: فاستعذ بالله، ولم تدخل في الماضي والمضارع، بل الأكثر أن يقال: أعوذ بالله، وعذت بالله، دون أستعيذ واستعذت.

قلت: السين والتاء دالة على الطلب، فقوله: أستعيذ بالله، أي: أطلب العياذ به، كما إذا قلت: أستخير بالله. أي: أطلب خيرته وأستغفره أي: أطلب مغفرته، وأستقيله أي: أطلب إقالته، فدخلت في الفعل إيذانًا لطلب هذا المعنى من المعاذ، فإذا قال المأمور: أعوذ بالله. فقد امتثل ما طلب منه، لأنه طلب منه الالتجاء والاعتصام وفرق بين نفس الالتجاء والاعتصام وبين طلب ذلك، فلما كان المستعيذ هاربًا ملتجئًا معتصمًا بالله أتى بالفعل الدال على ذلك، دون الفعل الدال على طلب ذلك، فتأمله.

وهذا بخلاف ما إذا قيل استغفر الله فقال: أستغفر الله، فإنه طلب منه أن يطلب المغفرة من الله، فإذا قال: أستغفر الله كان ممتثلًا لأن المعنى: أطلب من الله أن يغفر لي. وحيث أراد هذا المعنى في الاستعاذة فلا ضير أن يأتي بالسين، فيقول: أستعيذ بالله، أي: أطلب منه أن يعيذني، ولكن هذا معنى غير نفس الاعتصام والالتجاء والهرب إليه. فالأول مخبر عن حاله وعياذه بربه، وخبره يتضمن سؤاله وطلبه أن يعيذه.

والثاني: طالب سائل من ربه أن يعيذه، كأنه يقول: أطلب منك أن تعيذني؛ فحال الأول أكمل. ولهذا جاء عن النبي ﷺ في امتثال هذا الأمر: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم[(١)] ـ وأعوذ بكلمات الله التامات[(٢)] ـ وأعوذ بعزة الله وقدرته»[(٣)]. دون أستعيذ؛ بل الذي علمه الله إياه أن يقول: ﴿ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ ﴿ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ دون أستعيذ؛ فتأمل هذه الحكمة البديعة.

فإن قلت: فكيف جاء امتثال هذا الأمر بلفظ الأمر والمأمور به، فقال: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾، ومعلوم أنه إذا قيل: قل الحمد لله، وقل: سبحان الله؛ فإن امتثاله أن يقول: الحمد لله، وسبحان الله، ولا يقول: قل سبحان الله.

---

(١) فعن سليمان بن صرد قال: استب رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسب صاحبه مغضباً، قد احمر وجهه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ؟ قال: إني لست بمجنون، أخرجه البخاري (رقم ٦١١٥) ومسلم (رقم ٢٦١٠) وانظر: شرح النووي (١٦/ ١٦٣).

(٢) عن خولة بنت حكيم السلمية قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نزل منزلاً، ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك» أخرجه مسلم (رقم ٢٧٠٨) وانظر: فتح الباري (١٠/ ١٩٦).

(٣) فعن عثمان بن أبي العاص قال: جاءني رسول الله ﷺ يعودني من وجع اشتد بي، فقال: «امسح بيمينك سبع مرات، وقل: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد». ففعلت فأذهب الله ما كان بي، فلم أزل آمر به أهلي وغيرهم. أخرجه مسلم (رقم ٢٢٠٢) وجاء فيه: «أعوذ بالله وقدرته» والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٦٧ رقم ٧٥٤٦) وابن حبان (٧/ ٢٣١ رقم ٢٩٦٥) والحاكم (١/ ٤٩٤ رقم ١٢٧١) وأبو داود (رقم ٣٨٩١) وابن ماجه (رقم ٣٥٢٢).

قلت: هذا هو السؤال الذي أورده أبي بن كعب على النبي ﷺ بعينه، وأجابه عنه رسول الله ﷺ. فقال البخاري في صحيحه: حدثنا قتيبة، ثنا سفيان، عن عاصم، وعبدة عن زر، قال: «سألت أبي بن كعب عن المعوذتين فقال: سألت رسول الله ﷺ فقال: قيل لي: فقلت: فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ»(١).

ثم حدثنا علي بن عبدالله، ثنا سفيان، ثنا عبدة بن أبي لبابة، زر بن حبيش، وحدثنا عاصم عن زر قال: «سألت أبي بن كعب قلت: أبا المنذر، إن أخاك ابن مسعود يقول: كذا وكذا، فقال: إني سألت رسول الله ﷺ فقال قيل لي فقلت قل فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ»(٢).

قلت: مفعول القول محذوف، وتقديره: قيل لي قل، أو قيل لي هذا اللفظ. فقلت كما قيل لي. وتحت هذا من السر أن النبي ﷺ ليس له في القرآن إلا بلاغة، لا أنه هو أنشأه من قبل نفسه، بل هو المبلغ له عن الله.

وقد قال الله له: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ فكان يقتضي البلاغ التام أن يقول: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ كما قال الله. وهذا هو المعنى الذي أشار النبي ﷺ إليه بقوله: «قيل لي فقلت»، أي: أني لست مبتدئًا، بل أنا مبلغ، أقول كما يقال لي: وأبلغ كلام ربي كما أنزله إليّ - فصلوات الله وسلامه عليه -، لقد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وقال كما قيل له، فكفانا وشفانا من المعتزلة والجهمية وإخوانهم ممن يقول هذا القرآن العربي. وهذا النظم كلامه ابتدأ هو به.

ففي هذا الحديث أبين الرد لهذا القول، وأنه ﷺ بلغ القول الذي أمر بتبليغه على وجهه ولفظه، حتى إنه لما قيل له، قل: قال: هو قل. لأنه مبلغ محض، وما على الرسول إلا البلاغ.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٩٧٦) وانظر: فتح الباري (٨/ ٧٤١-٧٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٩٧٧) وانظر: عمدة القاري (٢٠/ ١٠-١١).

الفصل الثاني

في المستعاذ به، وهو الله وحده: رب الفلق، ورب الناس، ملك الناس، إله الناس، الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به، ولا يستعاذ بأحد من خلقه، بل هو الذي يعيذ المستعيذين، ويعصمهم ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره. وقد أخبر تعالى في كتابه عمَّن استعاذ بخلقه أن استعاذته زادته طغيانًا ورهقًا، فقال حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

جاء في التفسير: أنه كان الرجل من العرب في الجاهلية إذا سافر فأمسى في أرض قفر قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه: فيبيت في أمن وجوار منهم حتى يصبح، أي: فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بسادتهم رهقًا، أي: طغيانًا وإثمًا وشرًا يقولون سدنا الإنس والجن.

والرهق في كلام العرب الإثم وغشيان المحارم، فزادوهم بهذه الاستعاذة غشيانًا لما كان محظورًا من الكبر والتعاظم، فظنوا أنهم سادوا الإنس والجن.

واحتج أهل السنة على المعتزلة في أن كلمات الله غير مخلوقة بأن النبي ﷺ استعاذ بقوله: «**أعوذ بكلمات الله التامات**». وهو ﷺ لا يستعيذ بمخلوق أبدًا.

ونظير ذلك قوله: «**أعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك**»(١).

فدل على أن رضاه وعفوه من صفاته، وأنه غير مخلوق. وكذلك قوله: «**أعوذ بعزة الله وقدرته**». وقوله: «**أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات**»(٢)، وما استعاذ به النبي ﷺ غير مخلوق، فإنه لا يستعيذ إلا بالله أو بصفة من صفاته.

وجاءت الاستعاذة في هاتين السورتين باسم الرب والملك والإله، وجاءت

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٦) وانظر: شرح النووي (٤/ ٢٠٣-٢٠٤).

(٢) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة (٩/ ١٨٠-١٨١ رقم ١٦٢) والطبراني في الدعاء (رقم ١٠٣٦) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٩/ ١٥٢).

الربوبية فيها مضافة إلى الفلق وإلى الناس، ولا بد من أن يكون ما وصف به نفسه في هاتين السورتين يناسب الاستعاذة المطلوبة، ويقتضي دفع الشر المستعاذ منه أعظم مناسبة وأبينها.

وقد قررنا في مواضع متعددة أن الله سبحانه يدعى بأسمائه الحسنى، فيسأل لكل مطلوب باسم يناسبه ويقتضيه، قد قال النبي ﷺ في هاتين السورتين: «**إنه ما تعوذ المتعوذون بمثلهما**»(١)، فلابد أن يكون الاسم المستعاذ به مقتضيًا للمطلوب، وهو دفع لشر المستعاذ منه أو رفعه، وإنما يتقرر هذا بالكلام في الفصل الثالث، وهو الشيء المستعاذ منه فتتبين المناسبة المذكورة فنقول.

الفصل الثالث

في أنواع الشرور المستعاذ منها في هاتين السورتين:

الشر الذي يصيب العبد لا يخلو من قسمين:

إما ذنوب وقعت منه يعاقب عليها، فيكون وقوع ذلك بفعله وقصده وسعيه، ويكون هذا الشر هو الذنوب وموجباتها، وهو أعظم الشرين وأدومهما وأشدهما اتصالًا بصاحبه. إما شر واقع به من غيره وذلك الغير. إما مكلف أو غير مكلف، والمكلف إما نظيره وهو الإنسان، أو ليس نظيره وهو الجني، وغير المكلف مثل الهوام وذوات الحمى، وغيرها.

فتضمنت هاتان السورتان الاستعاذة من هذه الشرور كلها بأوجز لفظ وأجمعه وأدله على المراد وأعمه استعاذة بحيث لم يبق شر من الشرور إلا دخل تحت الشر المستعاذ منه فيهما.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٤/ ٤٣٩ رقم ٧٨٤٥) وفي المجتبى (رقم ٥٤٣٢) والشيباني في الآحاد والمثاني (٥/ ٣٥ رقم ٢٥٧٤) والطبراني في الكبير (١٧/ ٣٤٢ رقم ٩٤٣) وأحمد (٣/ ٤١٧) والبيقهي في الشعب (٢/ ٥١٧ رقم ٢٥٧٤).

فإن سورة الفلق تضمنت الاستعاذة من أمور أربعة:

أحدها: شر المخلوقات التي لها شر عمومًا. الثاني: شر الغاسق إذا وقب. الثالث: شر النفاثات في العقد. الرابع: شر الحاسد إذا حسد.

فنتكلم عن هذه الشرور الأربعة، ومواقعها، واتصالها بالعبد، والتحرز منها قبل وقوعها، وبماذا تدفع بعد وقوعها. وقبل الكلام في ذلك لا بد من بيان الشر: ما هو؟ وما حقيقته؟

فنقول: الشر يقال على شيئين: على الألم، وعلى ما يفضي إليه، وليس له مسمى سوى ذلك. فالشرور هي الآلام وأسبابها، فالمعاصي والكفر والشرك وأنواع الظلم هي شرور، وإن كان لصاحبها فيها نوع غرض ولذة، لكنها شرور لأنها أسباب الآلام. ومفضيه إليها كإفضاء سائر الأسباب إلى مسبباتها، فترتب الألم عليها كترتب الموت على تناول السموم القاتلة، وعلى الذبح والإحراق بالنار والخنق بالحبل وغير ذلك من الأسباب التي تصيبه مفضية إلى مسبباتها ولا بد، ما لم يمنع السببية مانع أو يعارض السبب ما هو أقوى منه، وأشد اقتضاء لضده، كما يعارض سبب المعاصي قوة الإيمان وعظمة الحسنات الماحية وكثرتها، فيزيد في كميتها وكيفيتها على أسباب العذاب فيدفع الأقوى للأضعف، وهذا شأن جميع الأسباب المتضادة كأسباب الصحة والمرض، وأسباب الضعف والقوة.

والمقصود أن هذه الأسباب التي فيها لذة ما، هي شر وإن نالت بها النفس مسرة عاجلة، وهي بمنزلة طعام لذيذ شهي لكنه مسموم إذا تناوله الآكل لذ لأكله وطاب له مساغه، وبعد قليل يفعل به ما يفعل، فهكذا المعاصي والذنوب ولا بد، حتى لو لم يخبر الشارع بذلك لكان الواقع والتجربة الخاصة والعامة من أكبر شهوده. وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته!!

فإن الله إذا أنعم على عبد بنعمة حفظها عليه، ولا يغيرها عنه، حتى يكون هو الساعي في تغييرها عن نفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ

﴿أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

ومن تأمل ما قص الله في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال نعمه عنهم وجد سبب ذلك جميعه إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله، وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره، وما أزال الله عنهم من نعمه، وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب، كما قيل:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم[1]

فما حفظت نعمة الله بشيء قط مثل طاعته، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره، ولا زالت عن العبد بمثل معصيته لربه، فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس.

ومن سافر بفكره في أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له.

والمقصود أن هذه الأسباب شرور ولابد. وأما كون مسبباتها شرورًا فلأنها آلام نفسية وبدنية، فيجتمع على صاحبها مع شدة الألم الحسي ألم الروح بالهموم، والغموم، والأحزان، والحسرات.

ولو تفطن العاقل اللبيب لهذا حق التفطن لأعطاه حقه من الحذر والجد في الهرب، ولكن قد ضرب على قلبه حجاب الغفلة، ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

فلو تيقظ حق التيقظ، لتقطعت نفسه في الدنيا حسرات على ما فاته من حظه العاجل والآجل من الله، وإنما يظهر له هذا حقيقة الظهور عند مفارقة هذا العالم والإشراف

(١) هذا البيت من بحر المتقارب، وينسب إلى علي بن أبي طالب ﷺ، وذكره البيهقي في الشعب (٤/ ١٣٢ رقم ٤٥٥٩) ونسبه إلى أبي الحسن الكندي القاضي. وذكره المناوي في فيض القدير (٢/ ١١٠) غير منسوب لأحد. وذكره ابن عساكر في تاريخه في موضعين في الموضع الأول (٥١/ ١٠٣) فقال: قال بشر بن الحارث الحافي: رأيت على باب ناووس مكتوباً. وذكر أبياتاً منها هذا البيت وذكره في موضع آخر (٥٤/ ٧٠) فقال: عن عمرو بن المهاجر قال: كنت أسمع عمر بن عبد العزيز كثيراً يتمثل بهذه الأبيات.

والاطلاع على عالم البقاء، فحينئذ يقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤] و﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

ولما كان الشر هو الآلام وأسبابها كانت استعاذات النبي ﷺ جميعها مدارها على هذين الأصلين، فكل ما استعاذ منه أو أمر بالاستعاذة منه فهو إما مؤلم وإما سبب يفضي إليه. فكان يتعوذ في آخر الصلاة من أربع، وأمر بالاستعاذة منهن، وهي: عذاب القبر، وعذاب النار، فهذان أعظم المؤلمات. وفتنة المحيا والممات وفتنة المسيح الدجال. وهذان سبب العذاب المؤلم، فالفتنة سبب العذاب، وذكر الفتنة خصوصًا وعمومًا. وذكر نوعي الفتنة لأنها إما في الحياة وإما بعد الموت. ففتنة الحياة قد يتراخى عنها العذاب مدة.

وأما فتنة الموت فيتصل بها العذاب من غير تراخ فعادت الاستعاذة إلى الألم والعذاب وأسبابها، وهذا من آكد أدعية الصلاة حتى أوجب بعض السلف والخلف الإعادة على من لم يدع به في التشهد الأخير.

وأوجبه ابن حزم في كل تشهد، فإن لم يأت به فيه بطلت صلاته.

ومن ذلك قوله: «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين وغلبة الرجال**»[1]. فاستعاذ من ثمانية أشياء، كل اثنين منها قرينان.

فالهم والحزن قرينان، وهما من آلام الروح ومعذباتها، والفرق بينهما أن الهم توقع الشر في المستقبل. والحزن التألم على حصول المكروه في الماضي أو فوات المحبوب، وكلاهما تألم وعذاب يرد على الروح، فإن تعلق بالماضي سمى حزنًا، وإن تعلق بالمستقبل سمي همًّا.

والعجز والكسل قرينان؛ وهما من أسباب الألم لأنهما يستلزمان فوات المحبوب،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٤٢٥، ٦٣٦٩) وانظر: عمدة القاري (٢٣/ ٢-٦).

فالعجز يستلزم عدم القدرة، والكسل يستلزم عدم إرادته، فتتألم الروح لفواته بحسب تعلقها به والتذاذها بإدراكه لو حصل.

والجبن والبخل قرينان؛ لأنهما عدم النفع بالمال والبدن، وهما من أسباب الألم، لأن الجبان تفوته محبوبات ومفرحات وملذوذات عظيمة لا تنال إلا بالبذل والشجاعة. والبخل يحول بينه دونها أيضًا، فهذا الخلقان من أعظم أسباب الآلام.

وضلع الدين وقهر الرجال قرينان؛ وهما مؤلمان للنفس، معذبان لها. أحدهما قهر بحق وهو ضلع الدين. والثاني قهر بباطل وهو غلبة الرجال. وأيضًا فضلع الدين قهر بسبب من العبد في الغالب، وغلبة الرجال قهر بغير اختياره.

ومن ذلك تعوذه ﷺ: «**من المأثم والمغرم**»(١)، فإنهما يسببان الألم العاجل.

ومن ذلك قوله: «**أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك**». فالسخط سبب الألم، والعقوبة هي الألم، فاستعاذ من أعظم الآلام وأقوى أسبابها.

والشر المستعاذ منه نوعان: أحدهما: موجود يطلب رفعه، والثاني: معدوم يطلب بقاؤه على العدم، وأن لا يوجد، كما أن الخير المطلق نوعان: أحدهما: موجود فيطلب دوامه وثباته، وأن لا يسلبه. والثاني: معدوم فيطلب وجوده وحصوله، فهذه أربعة هي أمهات مطالب السائلين من رب العالمين، وعليها مدار طلباتهم.

وقد جاءت هذه المطالب الأربعة في قوله تعالى حكاية عن دعاء عباده في آخر آل عمران في قولهم: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾؛ فهذا الطلب لدفع الشر الموجود، فإن الذنوب والسيئات شر كما تقدم بيانه، ثم قال: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ فهذا طلب لدوام الخير الموجود، وهو الإيمان حتى يتوفاهم عليه، فهذان قسمان.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٨٣٢) ومسلم (رقم ٥٨٩) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٧٧-١٧٨) وشرح النووي (٥/ ٨٥-٨٧).

ثم قال: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ فهذا طلب للخير المعدوم أن يؤتيهم إياه، ثم قال: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٩٣، ١٩٤]، فهذا طلب أن لا يوقع بهم الشر المعدوم، وهو خزي يوم القيامة، فانتظمت الآيتان المطالب الأربعة أحسن انتظام، مرتبة أحسن ترتيب قدم فيها النوعان اللذان في الدنيا وهما: المغفرة، ودوام الإسلام إلى الموت، ثم أتبعا بالنوعين اللذين في الآخرة، وهما أن يعطوا ما وعدوه على ألسنة رسله، وأن لا يخزيهم يوم القيامة.

فإذا عرف هذا فقوله ﷺ في تشهد الخطبة: «نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا»[1] يتناول الاستعاذة من شر النفس الذي هو معدوم، لكنه فيها بالقوة، فيسأل دفعه وأن لا يوجد، وأما قوله: «من سيئات أعمالنا» ففيه قولان:

أحدهما: أنه استعاذة من الأعمال السيئة التي قد وجدت، فيكون الحديث قد تناول نوعي الاستعاذة من الشر المعدوم الذي لم يوجد ومن الشر الموجود، فطلب دفع الأول ورفع الثاني.

والقول الثاني: أن سيئات الأعمال هي عقوباتها وموجباتها السيئة التي تسوء صاحبها، وعلى هذا يكون من استعاذة الدفع أيضًا لكنه دفع المسبب، والأول دفع السبب فيكون قد استعاذ من حصول الألم وأسبابه، وعلى الأول يكون إضافة السيئات إلى الأعمال من باب إضافة النوع إلى جنسه، فإن الأعمال جنس وسيئاتها نوع منها، وعلى الثاني يكون من باب إضافة المسبب إلى سببه، والمعلول إلى علته، كأنه قال: من عقوبة عملي، والقولان محتملان، فتأمل أيهما أليق بالحديث وأولى به، فإن مع كل واحد منهما نوعًا من الترجيح، فيترجح الأول بأن منشأ الأعمال السيئة من شر النفس، فشر النفس يولد الأعمال السيئة، فاستعاذ من صفة النفس ومن الأعمال التي

(١) أخرجه الترمذي (رقم ١١٠٥) والنسائي في المجتبى (رقم ١٤٠٤) والطبراني في الكبير (٨/ ٣٠٤ رقم ٨١٤٨) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١١٤ رقم ٢٥٨) وهناد في الزهد (١/ ٢٧٩ رقم ٤٩٢) وحسنه الترمذي.

تحدث عن تلك الصفة، وهذان جماع الشر، وأسباب كل ألم، فمتى عوفي منهما عوفي من الشر بحذافيره، ويترجح الثاني بأن سيئات الأعمال هي العقوبات التي تسوء العامل، وأسبابها شر النفس، فاستعاذ من العقوبات والآلام وأسبابها، والقولان في الحقيقة متلازمان، والاستعاذة من أحدهما تستلزم الاستعاذة من الآخر.

ولما كان الشر له سبب هو مصدره، وله مورد ومنتهى، وكان السبب إما من ذات العبد وإما من خارج، ومورده ومنتهاه إما نفسه وإما غيره، كان هنا أربعة أمور.

شر مصدره من نفسه، ويعود على نفسه تارة، وعلى غيره تارة أخرى.

وشر مصدره من غيره، وهو السبب فيه، ويعود على نفسه تارة، وعلى غيره أخرى.

جمع النبي ﷺ هذه المقامات الأربعة في الدعاء الذي علمه الصديق أن يقوله إذا أصبح وإذا أمسى وإذا أخذ مضجعه: «**اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه، وأن أقترف على نفسي سوءًا أو أجره إلى مسلم**»(١). فذكر مصدري الشر، وهما: النفس، والشيطان، وذكر مورديه ونهايتيه، وهما عوده على النفس أو على أخيه المسلم، فجمع الحديث مصادر الشر وموارده في أوجز لفظ وأخصره وأجمعه وأبينه.

فإذا عرف هذا فلنتكلم على الشرور المستعاذ منها في هاتين السورتين:

الشر الأول العام في قوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وما ههنا موصولة ليس إلا، والشر مسند في الآية إلى المخلوق المفعول لا إلى خلق الرب تعالى الذي هو فعله وتكوينه، فإنه لا شر فيه بوجه ما.

فإن الشر لا يدخل في شيء من صفاته ولا في أفعاله، كما لا يلحق ذاته ـ تبارك

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥٢٩) وأحمد (١/ ١٤) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ١٢٠٤) وفي خلق أفعال العباد (ص ١١٣) والطبراني في مسند الشاميين (٢/ ٢٢ رقم ٨٤٩) وفي الدعاء (رقم ٢٦٣) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وحسنه المنذري في الترغيب (١/ ٢٣٦).

وتعالىٰ ـ فإن ذاته لها الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وأوصافه كذلك لها الكمال المطلق والجلال التام، ولا عيب فيها ولا نقص بوجه ما.

وكذلك أفعاله كلها خيرات محضة لا شر فيها أصلًا، ولو فعل الشر سبحانه لاشتق له منه اسم، ولم تكن أسماؤه كلها حسنىٰ، ولعاد إليه منه حكم ـ تعالىٰ وتقدس عن ذلك ـ وما يفعله من العدل بعباده وعقوبة من يستحق العقوبة منهم هو خير محض، إذ هو محض العدل والحكمة، وإنما يكون شرًا بالنسبة إليهم، فالشر وقع في تعلقه بهم وقيامه بهم، لا في فعله القائم به تعالىٰ.

ونحن لا ننكر أن الشر يكون في مفعولاته المنفصلة، فإنه خالق الخير والشر. ولكن هنا أمران ينبغي أن يكونا منك علىٰ بال:

أحدهما: أن ما هو شر أو متضمن للشر فإنه لا يكون إلا مفعولًا منفصلًا، لا يكون وصفًا له ولا فعلًا من أفعاله.

الثاني: أن كونه شرًا هو أمر نسبي إضافي، فهو خير من جهة تعلق فعل الرب وتكوينه به، وشر من جهة نسبته إلىٰ من هو شر في حقه، فله وجهان هو من أحدهما خير، وهو الوجه الذي نسب منه إلىٰ الخالق ﷻ خلقًا وتكوينًا ومشيئة لما فيه من الحكمة البالغة التي استأثرت بعلمها وأطلع من شاء من خلقه علىٰ ما شاء منها.

وأكثر الناس تضيق عقولهم عن مبادئ معرفتها فضلًا عن حقيقتها، فيكفيهم الإيمان المجمل بأن الله سبحانه هو الغني الحميد، وفاعل الشر لا يفعله لحاجته المنافية لغناه أو لنقصه، وعيبه المنافي لحمده فيستحيل صدور الشر من الغني الحميد فعلًا. وإن كان هو الخالق للخير والشر، فقد عرفت أن كونه شرًّا هو أمر إضافي وهو نفسه خير من جهة نسبته إلىٰ خالقه ومبدعه، فلا تغفل عن هذا الموضع فإنه يفتح لك بابًا عظيمًا من معرفة الرب ومحبته ويزيل عنك شبهات حارت فيها عقول أكثر الفضلاء.

وقد بسطت هذا في كتاب التحفة المكية، كتاب الفتح القدسي، وغيرهما. وإذا

أشكل عليك هذا فأنا أوضحه لك بأمثله. أحدها: أن السارق إذا قطعت يده فقطعها شر بالنسبة إليه، وخير محض بالنسبة إلى عموم الناس لما فيه من حفظ أموالهم، ودفع الضرر عنهم، وخير بالنسبة إلى متولي القطع أمرًا وحكمًا، لما في ذلك من الإحسان إلى عبيده عمومًا بإتلاف هذا العضو المؤذي لهم المضر بهم، فهو محمود على حكمه بذلك وأمره به، مشكور عليه، يستحق عليه الحمد من عباده والثناء عليه والمحبة، وكذلك الحكم بقتل من يصول عليهم في دمائهم وحرماتهم، وجلد من يصول عليهم في أعراضهم، فإذا كان هذا عقوبة من يصول عليهم في دنياهم، فكيف عقوبة من يصول على أديانهم، ويحول بينهم وبين الهدى الذي بعث الله به رسله، وجعل سعادة العباد في معاشهم ومعادهم منوطة به؟! أفليس في عقوبة هذا الصائل خير محض وحكمة وعدل وإحسان إلى العبيد، وهي شر بالنسبة إلى الصائل الباغي، فالشر ما قام به من تلك العقوبة، وأما ما نسب إلى الرب منها من المشيئة والإرادة والفعل، فهو عين الخير والحكمة، فلا يغلظ حجابك عن فهم هذا النبأ العظيم والسر الذي يطلعك على مسألة القدر، ويفتح لك الطريق إلى الله ومعرفة حكمته ورحمته وإحسانه إلى خلقه، وإنه ـ سبحانه ـ كما أنه البر الرحيم الودود المحسن، فهو الحكيم الملك العدل، فلا تناقض حكمته رحمته، بل يضع رحمته وبره وإحسانه موضعه، ويضع عقوبته وعدله وانتقامه وبأسه موضعه؛ وكلاهما مقتضى عزته وحكمته، وهو العزيز الحكيم، فلا يليق بحكمته أن يضع رضاه ورحمته موضع العقوبة والغضب، ولا يضع غضبه وعقوبته موضع رضاه ورحمته، ولا يلتفت إلى قول من غلظ حجابه عن الله أن الأمرين بالنسبة إليه على حد سواء، ولا فرق أصلًا، وإنما هو محض المشيئة بلا سبب ولا حكمة.

وتأمل القرآن من أوله إلى آخره كيف تجده كفيلًا بالرد على هذه المقالة وإنكارها أشد الإنكار وتنزيه نفسه عنها. كقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]. وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ

كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[الجاثية: ٢١].
وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[ص: ٢٨].

فأنكر سبحانه على من ظن هذا الظن، ونزه نفسه عنه، فدل على أنه مستقر في الفطر والعقول السليمة أن هذا لا يكون ولا يليق بحكمته، وعزته وإلهيته: ـ لا إله إلا هو تعالى عما يقول الجاهلون علوًا كبيرًا ـ.

وقد فطر الله عقول عباده على استقباح وضع العقوبة والانتقام في موضع الرحمة والإحسان ومكافأة الصنع الجميل بمثله وزيادة، فإذا وضع العقوبة موضع ذلك استنكرته فطرهم وعقولهم أشد الاستنكار واستهجنته أعظم الاستهجان. وكذلك وضع الإحسان والرحمة والإكرام في موضع العقوبة والانتقام.

كما إذا جاء إلى من يسيء إلى العالم بأنواع الإساءة في كل شيء من أموالهم وحريمهم ودمائهم، فأكرمه غاية الإكرام ورفعه وكرمه، فإن الفطر والعقول تأبى استحسان هذه، وتشهد على سفه من فعله.

هذه فطرة الله التي فطر الناس عليها، فما للعقول والفطر لا تشهد حكمته البالغة وعزته وعدله في وضع عقوبته في أولى المحال بها وأحقها بالعقوبة، وإنها لو أوليت النعم لم تحسن بها ولم تلق، ولظهرت مناقضة الحكمة، كما قال الشاعر:

نعمة الله لا تعاب ولكن ... ربما استقبحت على أقوام[1]

فهكذا نعم الله لا تليق ولا تحسن ولا تجمل بإعدائه الصادين عن سبيله، الساعين في خلاف مرضاته الذين يرضون إذا غضب، ويغضبون إذا رضي، ويعطلون ما حكم

(١) هذا البيت من بحر الخفيف، وينسب إلى العطوي: محمد بن عبد الرحمن بن أبي عطية الكناني من شعراء الدولة العباسية ولد ونشأ بالبصرة وكان على مذهب المعتزلة ومن المتكلمين الحذاق، مات سنة ٢٥٠هـ. وذكر البيت أبو داود الأصفهاني في الزهرة (٢/ ٦٣١) ولكن جاء فيه: «منة الله» بدل: «نعمة الله». وذكره أيضاً ابن المعتز في طبقات الشعراء (ص ٤١٧).

به، ويسعون في أن تكون الدعوة لغيره والحكم لغيره والطاعة لغيره، فهم مضادون في كل ما يريد، يحبون ما يبغضه، ويدعون إليه، ويبغضون ما يحبه، وينفرون عنه، ويوالون أعداءه وأبغض الخلق إليه، ويظاهرونهم عليه وعلى رسوله. كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥]، وقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ [الكهف: ٥٠].

فتأمل ما تحت هذا الخطاب الذي يسلب الأرواح حلاوة وعتابًا وجلالة وتهديدًا، كيف صدره بإخبارنا أنه أمر إبليس بالسجود لأبينا، فأبى ذلك، فطرده، ولعنه وعاداه من أجل إبائه عن السجود لأبينا، ثم أنتم توالونه من دوني، وقد لعنته وطردته إذ لم يجسد لأبيكم، وجعلته عدوًا لكم ولأبيكم فواليتموه وتركتموني، أليس هذا من أعظم الغبن وأشد الحسرة عليكم، ويوم القيامة؟ يقول تعالى: أليس عدلًا مني أن أولى كل رجل منكم ما كان يتولى في دار الدنيا، فليعلمن أولياء الشيطان كيف حالهم يوم القيامة إذا ذهبوا مع أوليائهم وبقي أولياء الرحمن لم يذهبوا مع أحد، فيتجلى لهم ويقول: ألا تذهبون حيث ذهب الناس فيقولون: فارقنا الناس أحوج ما كنا إليهم، وإنما ننتظر ربنا الذي كنا نتولاه ونعبده، فيقول: هل بينكم وبينه علامة تعرفونه بها؟ فيقولون: نعم إنه لا مثل له. فيتجلى لهم، ويكشف عن ساق فيخرون له سجدًا.

فيا قرة عيون أوليائه بتلك الموالاة! ويا فرحهم إذا ذهب الناس مع أوليائهم، وبقوا مع مولاهم الحق! فسيعلم المشركون به الصادون عن سبيله، أنهم ما كانوا أولياءه، إنْ أولياؤه إلا المتقون، ولكن أكثرهم لا يعلمون.

ولا تستطل هذا البساط فما أحوج القلوب إلى معرفته وتعقله ونزولها منه منازلها في الدنيا، لتنزل في جوار ربها في الآخرة، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء الصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

إذا عرف هذا عرف معنى قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «لبيك وسعديك، والخير

في يديك، والشر ليس إليك»(١)، وأن معناه أجل وأعظم من قول من قال: والشر لا يتقرب به إليك، وقول من قال: والشر لا يصعد إليك، وأن هذا الذي قالوه، وإن تضمن تنزيهه عن صعود الشر إليه والتقرب به إليه، فلا يتضمن تنزيهه في ذاته وصفاته وأفعاله عن الشر.

بخلاف لفظ المعصوم الصادق المصدق، فإنه يتضمن تنزيهه في ذاته ـ تبارك وتعالىٰ ـ عن نسبة الشر إليه بوجه ما، لا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في أسمائه، وإن دخل في مخلوقاته، كقوله: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾، وتأمل طريقة القرآن في إضافة الشر تارة إلىٰ سببه ومن قام به، كقوله: ﴿ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤]،وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ [الصف: ٥]، وقوله: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ [النساء: ١٦٠]، وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِبَغْيِهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، وقوله: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الزخرف: ٧٦]، وهو في القرآن أكثر من أن يذكر ههنا عشر معشاره، وإنما المقصود التمثيل.

وتارة يحذف فاعله كقوله تعالىٰ حكاية عن مؤمني الجن: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن: ١٠]، فحذفوا فاعل الشر ومريده، وصرحوا بمريد الرشد.

ونظيره في الفاتحة: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٧]، فذكر النعمة مضافة إليه سبحانه والضلال منسوبًا إلىٰ من قام به، والغضب محذوفًا فاعله.

ومثله قوله الخضر في السفينة: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف: ٧٩]، وفي الغلامين: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [الكهف: ٨٢].

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٧٧١) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٩٩، ٤٢٢) (١٣/ ٥٣٢) وشرح النووي (٦/ ٥٩).

ومثله قوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ﴾ [الحجرات: ٧] فنسب هذا التزيين المحبوب إليه.

وقال: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤]، فحذف الفاعل المزين.

ومثله قول الخليل ﷺ: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٧٨ ـ ٨٢]، فنسب إلى ربه كل كمال من هذه الأفعال، ونسب إلى نفسه النقص منها، وهو المرض والخطيئة، وهذا كثير في القرآن، ذكرنا منه أمثله كثيرة في كتاب الفوائد المكية[1]، وبينا هنا السر في مجيء و﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [البقرة: ١٤٦]، ﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [البقرة: ١٠١]، والفرق بين الموضعين، وأنه حيث ذكر الفاعل كان من آتاه الكتاب واقعًا في سياق المدح. وحيث حذفه كان من أوتيه واقعًا في سياق الذم أو منقسمًا، وذلك من أسرار القرآن.

ومثله: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر: ٣٢] وقال: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [الشورى: ١٤]، وقوله: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٦٩]. وبالجملة فالذي يضاف إلى الله تعالى كله خير وحكمة ومصلحة وعدل، والشر ليس إليه.

وقد دخل في قوله تعالى: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ الاستعاذة من كل شر في أي مخلوق قام به الشر من: حيوان ، أو غيره، إنسيًا، أو جنيًا، أو هامة، أو دابة، أو ريحًا، أو صاعقة أي نوع كان من أنواع البلاء.

فإن قلت: فهل في «ما» ههنا عموم، قلت: فيها عموم تقييدي وصفي لا عموم

---

(١) ذكرنا في المقدمة أن جنس هذه الإحالة تنطبق على مفتاح دار السعادة، حيث ذكر هذا المبحث فيه بتفصيل. (ج).

إطلاقي. والمعنى من شر كل مخلوق فيه شر، فعمومها من هذا الوجه.

وليس المراد الاستعاذة من شر كل ما خلقه الله. فإن الجنة وما فيها ليس فيها شر، وكذلك الملائكة والأنبياء فإنهم خير محض. والخير كله حصل على أيديهم، فالاستعاذة من شر ما خلق تعم شر كل مخلوق فيه شر، وكل شر في الدنيا والآخرة، وشر شياطين الإنس والجن وشر السباع والهوام وشر النار والهواء وغير ذلك.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من نزل منزلًا فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق. لم يضره شيء حتى يرتحل منه**»(١) رواه مسلم.

وروى أبو داود في سننه عن عبدالله بن عمر قال: «كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل الليل قال: «**يا أرض! ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك، وشر ما خلق فيك، وشر ما يدب عليك، أعوذ بالله من أسد وأسود، ومن الحية والعقرب، ومن ساكن البلد ومن والد وما ولد**»(٢). وفي الحديث الآخر: «**أعوذ بكلمات الله التامة التي لا يجاوزها بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر مانزل من السماء وما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض، وما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق إلا طارقًا يطرق بخير يا رحمن**»(٣).

الشر الثاني: شر الغاسق إذا وقب، فهذا خاص بعد عام، وقد قال أكثر المفسرين:

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٠٨) وانظر: فتح الباري (١٠/ ١٩٦).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٢٦٠٣) والحاكم (١/ ٦١٥ رقم ١٦٣٧) وابن خزيمة (٤/ ١٥٢ رقم ٢٥٧٢) والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٤٣ رقم ٧٨٦٢) والبيهقي في الكبرى (٥/ ٢٥٣ رقم ١٠١٠١) وأحمد (٢/ ١٣٢) والطبراني في مسند الشاميين (٢/ ٨٥ رقم ٩٦٢) وفي الدعاء (رقم ٨٣٤).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٢٣٧ رقم ١٠٧٩٢) وابن أبي شيبة (٥/ ٥٠ رقم ٢٣٥٩٩) وعبدالرزاق (١١/ ٣٥ رقم ١٩٨٣١) ومالك (٢/ ٩٥٠ رقم ١٧٠٥) وأحمد (٣/ ٤١٩) والطبراني في الكبير (٤/ ١١٤ رقم ٣٨٣٨) وفي الدعاء (رقم ٢٣٦) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٦٤ رقم ٣٧٢) قال المنذري في الترغيب (٢/ ٣٠٣): رواه أحمد وأبو يعلى ولكل منهما إسناد جيد محتج به. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٢٥): رواه الطبراني وإسناده حسن.

إنه الليل. قال ابن عباس: الليل إذا أقبل بظلمته من الشرق، ودخل في كل شيء وأظلم، والغسق الظلمة يقال: غسق الليل وأغسق إذا ظلم. ومنه قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨].

وكذلك قال الحسن ومجاهد: الغاسق إذا وقب: الليل إذا أقبل ودخل، والوقوب: الدخول، وهو دخول الليل بغروب الشمس. وقال مقاتل: يعني ظلمة الليل إذا دخل سواده في ضوء النهار. وفي تسمية الليل غاسقًا قول آخر: إنه من البرد، والليل أبرد من النهار، والغسق: البرد، وعليه حمل ابن عباس قوله تعالى: ﴿هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: ٥٧]. وقوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: ٢٤، ٢٥]، قال: هو الزمهرير يحرقهم ببرده، كما تحرقهم النار بحرها. وكذلك قال مجاهد ومقاتل: هو الذي انتهى برده.

ولا تنافي بين القولين، فإن الليل بارد مظلم، فمن ذكر برده فقط أو ظلمته فقط اقتصر على أحد وصفيه، والظلمة في الآية أنسب لمكان الاستعاذة، فإن الشر الذي يناسب الظلمة الأولى بالاستعاذة من البرد الذي في الليل، ولهذا استعاذ برب الفلق الذي هو الصبح، والنور، ومن شر الغاسق الذي هو الظلمة، فناسب الوصف المستعاذ به للمعنى المطلوب بالاستعاذة، كما سنزيده تقريرًا عن قريب إن شاء الله.

فإن قيل: فما تقولون فيما رواه الترمذي من حديث ابن أبي ذئب عن الحارث بن عبدالرحمن عن أبي سلمة عن عائشة قالت: أخذ النبي ﷺ بيدي فنظر إلى القمر فقال: «يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب»(١)، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وهذا أولى من كل تفسير، فيتعين المصير إليه.

وقيل: هذا التفسير حق، ولا يناقض التفسير الأول، بل يوافقه، ويشهد بصحته،

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٦٦) والنسائي في الكبرى (٦/ ٨٣ رقم ١٠١٣٧) وأحمد (٦/ ٢١٥) وعبد بن حميد (رقم ١٥١٧) وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ٧٤١).

فإن الله تعالىٰ قال: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء: ١٢] فالقمر هو آية الليل وسلطانه، فهو أيضًا غاسق إذا وقب وهذا خبر صدق، وهو أصدق الخبر، ولم ينف عن الليل اسم الغاسق إذا وقب، وتخصيص النبي ﷺ له بالذكر لا ينفي شمول الاسم لغيره.

ونظيره هذا قوله في المسجد الذي أسس على التقوىٰ، وقد سئل عنه؟ فقال: «هو مسجدي هذا»[١]، ومعلوم أن هذا لا ينفي كون مسجد قباء مؤسسا على التقوىٰ مثل ذاك.

ونظير أيضًا قوله في علي وفاطمة والحسن الحسين ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ: «اللهم هؤلاء أهل بيتي»[٢] فإن هذا لا ينفي دخول غيرهم من أهل بيته في لفظ: أهل البيت، ولكن هؤلاء أحق من دخل في لفظ أهل بيته.

ونظير هذا قوله: «ليس المسكين هذا الطواف الذي ترده اللقمة والقمتان والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس شيئًا، ولا يفطن له فيتصدق عليه»[٣]، وهذا لا ينفي اسم المسكنة عن الطواف، بل ينفي اختصاص الاسم به وتناول المسكين لغير السائل أولىٰ من تناوله له.

ونظير هذا قوله: «ليس الشديد بالصرعة، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب»[٤]،

---

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٣/ ٣٣٩ رقم ١١٣٣) والحاكم (١/ ٦٦٢ رقم ١٧٩١) وابن حبان (٤/ ٤٨٢ رقم ١٦٠٥) والهيثمي في الموارد (رقم ١٠٣٧) والنسائي في الكبرىٰ (١/ ٢٥٧ رقم ٧٧٦) والترمذي (رقم ٣٠٩٩) وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٥١ رقم ٣٥٥٨) والهيثمي في موارد الظمآن (رقم ٢٢٤٥) والنسائي في الكبرىٰ (٥/ ١١٢-١١٣ رقم ٨٤٠٩) والهيثمي في الكبرىٰ (٢/ ١٥٠ رقم ٢٦٨٣) والترمذي (رقم ٣٢٠٥، ٣٧٨٧، ٣٨٧١) وحسنه الأخير منهم، وانظر: فتح الباري (٧/ ١٣٨).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٤٧٩) ومسلم (رقم ١٠٣٩) انظر: فتح الباري (٣/ ٣٤١-٣٤٨) وشرح النووي (٧/ ١٢٩-١٣٠).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٦١١٤) ومسلم (رقم ٢٦٠٩) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٢٤، ٥١٩).

فإنه لا يقتضي نفي الاسم عن الذي يصرع الرجال، ولكن يقتضي أن ثبوته للذي يملك نفسه عند الغضب أولى، ونظيره الغسق والوقوب وأمثال ذلك. فكذلك: قوله في القمر: هذا هو الغاسق إذا وقب لا ينفي أن يكون الليل غاسقًا، بل كلاهما غاسق.

فإن قيل: فما تقولون في القول الذي ذهب إليه بعضهم: إن المراد به القمر إذا خسف وأسود، وقوله: وقب أي: دخل في الخسوف أو غاب خاسفًا.

قيل: هذا القول ضعيف ولا نعلم به سلفًا، والنبي ﷺ لما أشار إلى القمر، وقال: هذا الغاسق إذا وقب. لم يكن خاسفًا إذ ذاك، وإنما كان هو مستنير ولو كان خاسفًا لذكرته عائشة، وإنما قالت: نظر إلى القمر، وقال: «هذا هو الغاسق» ولو كان خاسفًا لم يصح أن يحذف ذلك الوصف منه، فإن ما أطلق عليه اسم الغاسق باعتبار صفة لا يجوز أن يطلق عليه بدونها لما فيه من التلبيس.

وأيضًا فإن اللغة لا تساعد على هذا، فلا نعلم أحدًا قال: الغاسق: القمر في حال خسوفه، وأيضًا فإن الوقوب لا يقول أحد من أهل اللغة: إنه الخسوف، وإنما هو الدخول من قولهم: وقبت العين إذا غارت. وركية وقبا: غار ماؤها. فدخل في أعماق التراب.

ومنه الوقب: للثقب الذي يدخل فيه المحور، وتقول العرب: وقب يقب وقوبًا إذا دخل.

فإن قيل: فما تقولون في القول الذي ذهب إليه بعضهم: إن الغاسق هو الثريا إذا سقطت، فإن الأسقام تكثر عند سقوطها وغروبها، وترتفع عند طلوعها، قيل: إن أراد صاحب هذا القول اختصاص الغاسق بالنجم إذا غرب فباطل، وإن أراد أن اسم الغاسق يتناول ذلك بوجه ما، فهذا يحتمل أن يدل اللفظ عليه بفحواه ومقصوده وتنبيهه، وأما أن يختص اللفظ به فباطل.

والسبب الذي لأجله أمر الله بالاستعاذة من شر الليل وشر القمر إذا وقب هو: أن الليل إذا أقبل فهو محل سلطان الأرواح الشريرة الخبيثة، وفيه تنتشر الشياطين، وفي

الصحيح: أن النبي ﷺ أخبر أن الشمس إذا غربت انتشرت الشياطين، ولهذا قال: «فاكتفوا صبيانكم، واحبسوا مواشيكم حتى تذهب فحمة العشاء»(١). وفي حدث آخر: «فإن الله يبث من خلقه ما يشاء»(٢)، والليل هو محل الظلام، وفيه تتسلط شياطين الإنس والجن ما لا تتسلط بالنهار، فإن النهار نور، والشياطين إنما سلطانهم في الظلمات والمواضع المظلمة على أهل الظلمة. وروي أن سائلًا سأل مسيلمة: كيف يأتيك الذي يأتيك؟ فقال: في ظلماء حندس.

وسأل النبي ﷺ كيف يأتيك؟ فقال: «في مثل ضوء النهار» فاستدل بهذا على نبوته، وإن الذي يأتيه ملك من عند الله،وأن الذي يأتي مسيلمة شيطان، ولهذا كان سلطان السحر وعظم تأثيره إنما هو بالليل دون النهار، فالسحر الليلي عندهم هو السحر القوي التأثير، ولهذا كانت القلوب المظلمة هي محال الشياطين وبيوتهم ومأواهم، والشياطين تجول فيها وتتحكم كما يتحكم ساكن البيت فيه، وكلما كان القلب أظلم كان للشيطان أطوع، وهو فيه أثبت وأمكن.

ومن ههنا تعلم السر في الاستعاذة برب الفلق في هذا الموضع، فإن الفلق: الصبح الذي هو مبدأ ظهور النور، وهو الذي يطرد جيش الظلام وعسكر المفسدين في الليل، فيأوي كل خبيث وكل مفسد وكل لص وكل قاطع طريق إلى سرب، أو كن، أو غار، وتأوي الهوام إلى أحجرتها، والشياطين التي انتشرت بالليل إلى أمكنتها ومحالها، فأمر الله عباده أن يستعيذوا برب النور الذي يقهر الظلمة ويزيلها ويقهر عسكرها وجيشها، ولهذا ذكر سبحانه في كل كتاب أنه يخرج عباده من الظلمات إلى النور، ويدع الكفار في ظلمات كفرهم.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٠١٣) وانظر: شرح النووي (١٣/ ١٨٦).

(٢) أخرجه أبو يعلى (٤/ ٢١٠-٢١١ رقم ٢٣٢٧) والحاكم (٤/ ٣١٦ رقم ٧٧٦٢) وابن خزيمة (٤/ ١٤٨ رقم ٢٥٥٩) وصححه الحاكم.

كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال في أعمال الكفار: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وقد قال قبل ذلك في صفات أهل الإيمان ونورهم: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥] فالإيمان كله نور ومآله إلى نور، ومستقره في القلب المضيء المستنير، والمقترن بأهله الأرواح المستنيرة المضيئة المشرقة، والكفر والشرك كله ظلمة ومآله إلى الظلمات، ومستقره في القلوب المظلمة، والمقترن بها الأرواح المظلمة، فتأمل الاستعاذة برب الفلق من شر الظلمة، ومن شر ما يحدث فيها، ونزل هذا المعنى على الواقع يشهد بأن القرآن، بل هاتان السورتان من أعظم أعلام النبوة وبراهين صدق رسالة محمد ﷺ ومضاده لما جاء به الشياطين من كل وجه، وأن ما جاء به ما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون، فما فعلوه، ولا يليق بهم، ولا يتأتى منهم، ولا يقدرون عليه.

وفي هذا أبين جواب وأشفاه لما يورده أعداء الرسول عليه من الأسئلة الباطلة التي قصر المتكلمون غاية التقصير في دفعها وما شفوا في جوابها، وإنما الله سبحانه هو الذي شفى وكفى في جوابها، فلم يحوجنا إلى متكلم ولا إلى أصولي ولا نظار، فله الحمد والمنة لا نحصي ثناء عليه.

واعلم أن الخلق كله فلق، وذلك أن فلقًا فعل بمعنى مفعول: كقبض وسلب

وقنص بمعنى مقبوض ومسلوب ومقنوص.

والله ﷻ فالق الإصباح، وفالق الحب والنوى، وفالق الأرض عن النبات، والجبال عن العيون، والسحاب عن المطر، والأرحام عن الأجنة، والظلام عن الإصباح، ويسمى الصبح المتصدع عن الظلمة: فلقًا وفرقًا. يقال: هو أبيض من فرق الصبح وفلقه، وكما أن في خلقه فلقًا وفرقًا، فكذلك أمره كله فرقان يفرق بين الحق والباطل، فيفرق ظلام الباطل بالحق، كما يفرق ظلام الليل بالإصباح، ولهذا سمي كتابه الفرقان، ونصره فرقانا لتضمنه الفرق بين أوليائه وأعدائه، ومنه فلقه البحر لموسى، وسماه فلقًا، فظهرت حكمة الاستعاذة برب الفلق في هذه المواضع، وظهر بهذا إعجاز القرآن وعظمته وجلالته وأن العباد لا يقدرون قدره: وأنه ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

الشر الثالث: شر النفاثات في العقد، وهذا الشر هو شر السحر، فإن النفاثات في العقد: هن السواحر اللاتي يعقدن الخيوط، وينفثن على كل عقدة حتى ينعقد ما يردن من السحر النفث هو: النفخ مع ريق وهو دون التفل وهو مرتبة بينهما والنفث فعل الساحر، فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور، ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة، نفخ في تلك العقدة نفخًا معه ريق، فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى مقترن بالريق الممازج لذلك، وقد تساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور، فيقع فيه السحر بإذن الله الكوني القدري لا الأمر الشرعي.

فإن قيل: فالسحر يكون من الذكور والإناث فلم خص الاستعاذة من الإناث دون الذكور؟ قيل في جوابه: إن هذا خرج على السبب الواقع، وهو: أن بنات لبيد بن أعصم سحرن النبي ﷺ، هذا جواب أبي عبيدة وغيره، وليس هذا بسديد، فإن الذي سحر النبي ﷺ هو لبيد بن أعصم كما جاء في الصحيح(١).

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٦٨) ومسلم (رقم ٢١٨٩) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢٢٦-٢٣٦).

والجواب المحقق: أن النفاثات هنا هن الأرواح والأنفس النفاثات لا النساء النفاثات، لأن تأثير السحر إنما هو جهة الأنفس الخبيثة والأرواح الشريرة، وسلطانه إنما يظهر منها، فلهذا ذكرت النفاثات هنا بلفظ التأنيث دون التذكير، والله أعلم.

ففي الصحيح عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: «أن النبي ﷺ طب حتى إنه ليخيل إليه أنه صنع شيئًا وما صنعه، وأنه دعا ربه، ثم قال: «**أشعرت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه**»، فقالت عائشة: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «**جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال: الآخر مطبوب، قال: من طبه، قال: لبيد بن الأعصم، قال: في ماذا؟ قال: في مشط ومشاطة وجف طلع ذكر، قال: فأين هو؟ قال: ذروان بئر في بني زريق**»، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: فأتاها رسول الله ﷺ ثم رجع إلى عائشة فقال: «**والله لكأن ماءها نقاعة الحنا، ولكأن نخلها رءوس الشياطين**»، قال: فقلت له: يا رسول الله هلا أخرجته؟ قال: «**أما أنا فقد شفاني الله، وكرهت أن أثير على الناس شرًا**» فأمر بها فدفنت.

قال البخاري: قال الليث وابن عيينة عن هشام في مشط ومشاطة. ويقال: إن المشاطة ما يخرج من الشعر إذا مشط، والمشاطة من مشاطة الكتان[1]. قلت: هكذا في هذه الرواية إنه لم يخرجه اكتفاء بمعافاة الله له وشفائه إياه.

وقد روى البخاري من حديث ابن عيينة قال: أول من حدثنا به ابن جريج يقول: حدثني آل عروة عن عروة، فسألت هشامًا عنه، فحدثنا عن أبيه عن عائشة: كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن، قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا، فقال يا عائشة: «**أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه ، أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب، قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم رجل من**

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٧٦٣، ٦٣٩١) ومسلم (رقم ٢١٨٩) وانظر: عمدة القاري (١٢/ ٢٨٣-٢٨٥).

بني زريق حليف اليهود، وكان منافقًا، قال: وفيم؟ قال: في مشط ومشاقة، قال: وأين قال؟ في جف طلع ذكر تحت رعوفة في بئر ذروان، قال: فأتى البئر حتى استخرجه فقال: هذه البئر التي أريتها، وكأن ماءها نقاعة الحناء، وكأن نخلها رءوس الشياطين»، قال: فاستخرج، قالت: فقلت: أفلا أي تنشرت، قال: «أما الله فقد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شرًا»[1]. ففي هذا الحديث أنه استخرجه وترجم البخاري عليه باب: هل يستخرج السحر.

وقال قتادة: قلت لسعيد بن المسيب: رجل به طب ويؤخذ عن امرته أيحل عنه وينشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع الناس فلم ينه عنه[2].

فهذان الحديثان قد يظن في الظاهر تعارضهما، فإن حديث عيسى عن هشام عن أبيه الأول فيه أنه لم يستخرجه، وحديث ابن جريج عن هشام فيه أنه استخرجه ولا تنافي بينهما،فإنه استخرجه من البئر حتى رآه وعلمه ثم دفنه بعد أن شفي، وقول عائشة: هلا استخرجته أي: هلا أخرجته للناس حتى يروه ويعاينوه؟ فأخبرها بالمانع له من ذلك، وهو أن المسلمين لم يكونوا ليسكتوا عن ذلك، فيقع الإنكار، ويغضب للساحر قومه، فيحدث الشر، وقد حصل المقصود بالشفاء والمعافاة، فأمر بها فدفنت ولم يستخرجها للناس، فالاستخراج الواقع غير الذي سألته عنه عائشة، والذي يدل عليه أنه ﷺ إنما جاء إلى البئر ليستخرجها منه، ولم يجئ إليه لينظر إليها، ثم ينصرف إذا لا غرض له في ذلك، والله أعلم. وهذا الحديث: ثابت عند أهل العلم بالحديث، متلقى بالقبول بينهم، لا يختلفون في صحته.

وقد اعتاض على كثير من أهل الكلام وغيرهم، وأنكروه أشد الإنكار، وقابلوه بالتكذيب. وصنف بعضهم فيه مصنفًا مفردًا حمل فيه على هشام، وكان غاية ما أحسن

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٧٦٥) ومسلم (رقم ٢١٨٩).

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً في كتاب الطب، باب هل يستخرج السحر؟ (ص ١١٢٩) قبل حديث (رقم ٥٧٦٥).

القول فيه أن قال: غلط واشتبه عليه الأمر، ولم يكن من هذا شيء، قال: لأن النبي ﷺ لا يجوز أن يسحر، فإنه يكون تصديقًا لقول الكفار: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨].

قالوا: وهذا كما قال فرعون لموسى: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١]. وقال قوم صالح له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣]. وقال قوم شعيب له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾.

قالوا: فالأنبياء لا يجوز عليهم أن يسحروا، فإن ذلك ينافي حماية الله لهم وعصمتهم من الشياطين.

وهذا الذي قاله هؤلاء مردود عند أهل العلم، فإن هشامًا من أوثق الناس وأعلمهم، ولم يقدح فيه أحد من الأئمة بما يوجب رد حديثه، فما للمتكلمين؟ وما لهذا الشأن؟ وقد رواه غير هشام عن عائشة.

وقد اتفق أصحاب الصحيحين على تصحيح هذا الحديث، ولم يتكلم فيه أحد من أهل الحديث بكلمة واحدة، والقصة مشهورة عند أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقهاء، وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله ﷺ وأيامه من المتكلمين، قال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد بن حباب عن زيد بن أرقم، قال: سحر النبي ﷺ رجل من اليهود فاشتكى لذلك أيامًا قال: فأتاه جبريل فقال: إن رجلًا من اليهود سحرك، وعقد لذلك عقدًا، فأرسل رسول الله ﷺ عليًا فاستخرجه، فجاء بها فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة، فقام رسول الله ﷺ كأنما أنشط من عقال، فما ذكر ذلك لليهودي ولا رآه في وجهه قط[(١)].

وقال ابن عباس وعائشة: كان غلام من اليهود يخدم رسول الله ﷺ فدنت إليه

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٢/ ٣٠٧ رقم ٣٥٤٣) وفي المجتبى (رقم ٤٠٨٠) وأحمد (٤/ ٣٦٧) والطبراني في الكبير (٥/ ١٨٠ رقم ٥٠١٦) وعبد بن حميد (رقم ٢٧١) وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٨١): رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح. وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢٢٨).

اليهود، فلم يزالوا حتى أخذ مشاطة رأس النبي ﷺ وعدة أسنان من مشطه فأعطاها اليهود فسحروه فيها، وتولي ذلك لبيد بن الاعصم رجل من اليهود، فنزلت هاتان السورتان فيه(١).

قال البغوي: وقيل كانت مغروزة بالإبر، فأنزل الله ﷻ هاتين السورتين، وهما إحدى عشرة آية، سورة الفلق خمس آيات وسورة الناس ست آيات، فكلما قرأ آية انحلت عقدة، حتى انحلت العقد كلها، فقام النبي ﷺ كأنما أنشط من عقال. قال: وروي أنه لبث فيه ستة أشهر، واشتد عليه ثلاثة أيام، فنزلت المعوذتان(٢).

قالوا: والسحر الذي أصابه كان مرضًا من الأمراض عارضًا شفاه الله منه ولا نقص في ذلك، ولا عيب بوجه ما، فإن المرض يجوز على الأنبياء، وكذلك الإغماء فقد أغمي عليه ﷺ في مرضه، ووقع حين انفكت قدمه وجحش شقه(٣) وهذا من البلاء الذي يزيده الله به رفعة في درجاته ونيل كرامته، وأشد الناس بلاء الأنبياء، فابتلوا من أممهم بما ابتلوا به من القتل والضرب والشتم والحبس، فليس ببدع أن يبتلى النبي ﷺ من بعض أعدائه بنوع من السحر، كما ابتلي بالذي رماه فشجه، وابتلي بالذي ألقى على ظهره السلا وهو ساجد وغير ذلك، فلا نقص عليهم، ولا عار في ذلك، بل هذا من كمالهم وعلو درجاتهم عند الله.

قالو: وقد ثبت في الصحيح عن أبي سعيد الخدري أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: «يا محمد اشتكيت؟ فقال: نعم. فقال: باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس، أو عين حاسد، الله شفيك، بسم الله أرقيك»(٤). فعوذه جبريل من شر كل نفس وعين حاسد لما اشتكى، فدل على أن هذا التعوذ مزيل لشكايته ﷺ، وإلا فلا

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٧٥) وعمدة القاري (١٥/ ٩٨).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٧٥) وفتح الباري (١٠/ ٢٣٠) وعمدة القاري (٢١/ ٢٨٢).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٧٣٢) ومسلم (رقم ٤١١) وانظر: فتح الباري (١/ ٤٨٧-٤٨٨) وشرح النووي (٤/ ١٣٠-١٣١).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٢١٨٦) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢٠٧).

يعوذه من شيء وشكايته من غيره.

قالوا: وأما الآيات التي استدللتم بها لا حجة لكم فيها، أما قوله ـ تعالى ـ عن الكفار أنهم قالوا: ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٧]، وقول قوم صالح له: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ [الشعرا: ١٥٣]، فقيل: المراد به من له سحر، وهي الرئة، أي: أنه بشر مثلهم، يأكل ويشرب، ليس بملك، ليس المراد به السحر، وهذا جواب غير مرض، وهو في غاية البعد، فإن الكفار لم يكونوا يعبرون عن البشر بمسحور، ولا يعرف هذا في لغة من اللغات، وحيث أرادوا هذا المعنى أتوا بصريح لفظ البشر فقالوا: ﴿ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [يس: ١٥]، ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، ﴿ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤]. وأما المسحور فلم يريدوا به ذا السحر، وهي الرئة، وأي مناسبة لذكر الرئة في هذا الموضع؟ ثم كيف يقول فرعون لموسى: ﴿ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠١]. أفتراه ما علم أنه له سحرًا، وأنه بشر، ثم كيف يجيبه موسى بقوله: ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٢]. ولو أراد بالمسحور أنه بشر لصدقه موسى، وقال: نعم أنا بشر أرسلني الله إليك، كما قالت الرسل لقومهم، لما قالوا لهم: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [إبراهيم: ١٠]، فقالوا: ﴿ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [إبراهيم: ١١]. ولم ينكروا ذلك، فهذا الجواب في غاية الضعف وأجابت طائفة منهم: ابن جرير وغيره: بأن المسحور هنا هو معلم السحر الذي قد علمه إياه غيره، فالمسحور عنده بمعنى ساحر أي عالم بالسحر، وهذا جيد، إن ساعدت عليه اللغة، وهو أن من علم السحر يقال له: مسحور، ولا يكاد هذا يعرف في الاستعمال ولا في اللغة، وإنما المسحور من سحر غيره: كالمطبوب والمضروب والمقتول (وبابه) وأما من علم السحر فإنه يقال له: ساحر بمعنى أنه عالم بالسحر وإن لم يسحر غيره، كما قال قوم فرعون لموسى: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٠٩]، ففرعون قذفه بكونه مسحورًا، وقومه قذفوه بكونه ساحرًا، فالصواب هو الجواب الثالث، وهو

جواب صاحب الكشاف وغيره: أن المسحور على بابه، وهو من سحر حتى جن، فقالوا: مسحور: مثل مجنون زائل العقل، لا يعقل ما يقول، فإن المسحور الذي لا يتبع هو الذي فسد عقله بحيث لا يدري ما يقول، فهو كالمجنون، ولهذا قالوا فيه: ﴿ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ [الدخان: ١٤]، فأما من أصيب في بدنه بمرض من الأمراض يصاب به الناس، فإنه لا يمنع ذلك من اتباعه، وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض الأبدان، وإنما قذفوهم بما يحذرون به سفهاءهم من أتباعهم، وهو أنهم قد سحروا حتى صاروا لا يعلمون ما يقولون بمنزلة المجانين، ولهذا قال تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٩]، مثلوك بالشاعر مرة، والساحر أخرى، والمجنون مرة، والمسحور أخرى، فضلوا في جميع ذلك ضلال من يطلب في تيهه وتحيره طريقًا يسلكه فلا يقدر عليه، فإن أي طريق أخذها فهي طريق ضلال وحيرة، فهو متحير في أمره لا يهتدي سبيلًا، ولا يقدر على سلوكها.

فهكذا حال أعداء رسول الله ﷺ معه حتى ضربوا له أمثالًا برأه الله منها، وهو أبعد خلق الله منها، وقد علم كل عاقل أنها كذب وافتراء وبهتان.

وأما قولكم: إن سحر الأنبياء ينافي حماية الله لهم، فإنه سبحانه كما يحميهم ويصونهم ويحفظهم ويتولاهم فيبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم، ليستوجبوا كمال كرامته، وليتسلى بهم من بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أوذوا من الناس، فرأوا ما جرى على الرسل والأنبياء، صبروا ورضوا وتأسوا بهم، ولتمتلئ صاع الكفار فيستوجبون ما أعد لهم من النكال العاجل والعقوبة الآجلة، فيمحقهم بسبب بغيهم وعداوتهم، فيعجل تطهير الأرض منهم، فهذا من بعض حكمته تعالى في ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم، وله الحكمة البالغة والنعمة السابغة، لا إله غيره ولا رب سواه.

وقد دل قوله: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ [الفلق: ٤] وحديث عائشة المذكور على تأثير السحر وأن له حقيقة.

وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم، وقالوا: إنه لا تأثير للسحر البتة لا في مرض ولا قتل، ولا حل ولا عقد، قالوا: وإنما ذلك تخييل لأعين الناظرين، لا حقيقة له سوى ذلك، وهذا خلاف ما تواترت به الآثار عن الصحابة والسلف، واتفق عليه الفقهاء وأهل التفسير والحديث وأرباب القلوب من أهل التصوف، وما يعرفه عامة العقلاء.

والسحر الذي يؤثر مرضًا وثقلًا وحلًا وعقدًا وحبًا وبغضًا ونزيفًا، وغير ذلك من الآثار الموجودة تعرفه عامة الناس، وكثير منهم قد علمه ذوقًا بما أصيب به منه.

وقوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ دليل على أن هذا النفث يضر المسحور في حال غيبته عنه، ولو كان الضرر لا يحصل إلا بمباشرة البدن ظاهرًا، كما يقوله هؤلاء لم يكن للنفث ولا للنفاثات شر يستعاذ منه.

وأيضًا: فإذا جاز على الساحر أن يسحر جميع أعين الناظرين مع كثرتهم حتى يروا الشيء بخلاف ما هو به، مع أنه هذا تغير في إحساسهم، فما الذي يحيل تأثيره في تغيير بعض أعراضهم وقواهم وطباعهم، وما الفرق بين التغيير الواقع في الرؤية والتغيير في صفة أخرى من صفات النفس والبدن؟ فإذا غير إحساسه حتى صار يرى الساكن متحركًا، والمتصل منفصلًا، والميت حيًا، فما المحيل لأن يغير صفات نفسه حتى يجعل المحبوب إليه بغيضًا والبغيض إليه محبوبًا، وغير ذلك من التأثيرات.

وقد قال تعالى عن سحرة فرعون: إنهم ﴿ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ١١٦]، فبين سبحانه أن أعينهم سحرت، وذلك إما أن يكون لتغيير حصل في المرئي، وهو الحبال والعصي، مثل أن يكون السحرة استعانت بأرواح حركتها، وهي الشياطين، فظنوا أنها تحركت بأنفسها، وهذا كما إذا جر من لا يراه حصيرًا أو بساطًا فترى الحصير والبساط ينجر، ولا ترى الجار له، مع أنه هو الذي يجره، فهكذا حال الحبال والعصي التبستها الشياطين، فقلبتها كتقلب الحية، فظن الرائي أنها تقلبت بأنفسها، والشياطين هم الذين يقلبونها، وإما أن يكون التغيير

حدث في الرائي حتى رأى الحبال والعصي تتحرك، وهي ساكنة في أنفسها.

ولا ريب أن الساحر يفعل هذا وهذا، فتارة يتصرف في نفس الرأي وإحساسه حتى يرى الشيء بخلاف ما هو به، وتارة يتصرف في المرئي باستعانته بالأرواح الشيطانية حتى يتصرف فيها.

وأما ما يقوله المنكرون من أنهم فعلوا في الحبال والعصي ما أوجب حركتها ومشيها مثل الزئبق وغيره حتى سعت، فهذا باطل من وجوه كثيرة.

فإنه لو كان كذلك لم يكن هذا خيالًا، بل حركة حقيقية، ولم يكن ذلك سحرًا لأعين الناس، ولا يسمى ذلك سحرًا، بل صناعة من الصناعات المشتركة، وقد قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦] ولو كانت تحركت بنوع حيلة كما يقوله المنكرون، لم يكن هذا من السحر في شيء، ومثل هذا لا يخفى.

وأيضًا: لو كان ذلك بحيلة كما قال هؤلاء، لكان طريق إبطالها إخراج ما فيها من الزئبق وبيان ذلك المحال، ولم يحتج إلى إلقاء العصا لابتلاعها.

وأيضًا فمثل هذه الحيلة لا يحتاج فيها إلى الاستعانة بالسحرة، بل يكفي فيها حذاق الصناع، ولا يحتاج في ذلك إلى تعظيم فرعون للسحرة، وخضوعه لهم، ووعدهم بالتقريب والجزاء.

وأيضًا: فإنه لا يقال في ذلك: إنه لكبيركم الذي علمكم السحر، فإن الصناعات يشترك الناس في تعلمها وتعليمها، وبالجملة فبطلان هذا أظهر من أن يتكلف رده فلنرجع إلى المقصود.

الشر الرابع: شر الحاسد، إذا حسد وقد دل القرآن والسنة على أن نفس حسد الحاسد يؤذي المحسود، فنفس حسده شر يتصل بالمحسود من نفسه وعينه، وإن لم يؤذه بيده ولا لسانه، فإن الله تعالى قال: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥] فحقق الشر منه عند صدور الحسد والقرآن ليس فيه لفظة مهملة.

ومعلوم أن الحاسد لا يسمى حاسدًا إلا إذا قام به الحسد كالضارب والشاتم

والقاتل ونحو ذلك، ولكن قد يكون الرجل في طبعه الحسد وهو غافل عن المحسود لاه عنه، فإذا خطر على ذكره وقلبه انبعثت نار الحسد من قلبه إليه ووجهت إليه سهام الحسد من قبله، فيتأذى المحسود بمجرد ذلك، فإن لم يستعذ بالله ويتحصن به ويكون له أوراد من الأذكار والدعوات والتوجه إلى الله والإقبال عليه بحيث يدفع عنه من شره بمقدار توجهه وإقباله على الله وإلا ناله شر الحاسد ولابد، فقوله تعالى: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ بيان لأن شره إنما يتحقق إذا حصل منه الحسد بالفعل.

وقدم تقدم في حديث أبي سعيد الصحيح رقية جبريل النبي ﷺ، وفيها: «**بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك**» فهذا فيه الاستعاذة من شر عين الحاسد، ومعلوم أن عينه لا تؤثر بمجردها، إذ لو نظر إليه نظر ساه عنه، كما ينظر إلى الأرض والجبل وغيره لم يؤثر فيه شيئًا، وإنما إذا نظر إليه نظر من قد تكيفت نفسه الخبيثة وانسمت واحتدت، فصارت نفسًا غضبية خبيثة حاسدة أثرت بها تلك النظرة، فأثرت في المحسود تأثيرًا بحسب صفة ضعفه وقوة نفس الحاسد، فربما أعطبه وأهلكه بمنزلة من فوق سهمًا نحو رجل عريان فأصاب منه مقتلًا، وربما صرعه وأمرضه، والتجارب عند الخاصة والعامة بهذا أكثر من أن تذكر.

وهذه العين إنما تأثيرها بواسطة النفس الخبيثة، وهي في ذلك بمنزلة الحية التي إنما يؤثر سمها إذا عضت واحتدت، فإنها تتكيف بكيفية الغضب والخبث، فتحدث فيها تلك الكيفية السم فتؤثر في الملسوع.

وربما قويت تلك الكيفية واشتدت في نوع منها، حتى تؤثر بمجرد نظرة، فتطمس البصر وتسقط الحبل، كما ذكره النبي ﷺ في الأبتر وذي الطفيتين منها، وقال: «**اقتلوهما فإنهما يطمسان البصر ويسقطان الحبل**»[1]، فإذا كان هذا في الحيات فما الظن في النفوس الشريرة الغضبية الحاسدة إذا تكيفت بكيفيتها الغضبية، وأنسمت

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٩٧) ومسلم (رقم ٢٢٣٣) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٤٨) (١٠/ ٢٠٠).

وتوجهت إلى المحسود بكيفيتها، فلله كم من قتيل وكم من سليب وكم من معافي عاد مضني على فراشه، يقول طبيبه: لا أعلم داءه ما هو، فصدق ليس هذا الداء من علم الطبائع، هذا من علم الأرواح وصفاتها وكيفياتها، ومعرفة تأثيراتها في الإجسام والطبائع وانفعال الأجسام عنها، وهذا علم لا يعرفه إلا خواص الناس، والمحجوبون منكرون له، ولا يعلم تأثير ذلك وارتباطه بالطبيعة وانفعالها عنه إلا من له نصيب من ذوقه، وهل الأجسام إلا كالخشب الملقى، هل الانفعال والتأثر وحدوث ما يحدث عنها من الأفعال العجيبة والآثار الغريبة إلا من الأرواح والأجسام آلتها بمنزلة آلة الصانع، فالصنعة في الحقيقة له والآلات وسائط في وصول أثره إلى الصنع.

ومن له أدنى فطنة، وتأمل أحوال العالم ولطفت روحه وشاهدت أحوال الأرواح وتأثيراتها وتحريكها الأجسام وانفعالها عنها كل ذلك بتقدير العزيز العليم خالق الأسباب والمسببات رأي عجائب في الكون وآيات دالة على وحدانية الله وعظمته وربوبيته، وإن ثم عالمًا آخر تجري عليه أحكام أخر تشهد آثارها وأسبابها غيب عن الإبصار، فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين الذي أتقن ما صنع وأحسن كل شيء خلقه.

ولا نسبة لعالم الأجسام على عالم الأرواح، بل هو أعظم وأوسع وعجائبه أبهر وآياته أعجب.

وتأمل هذا الهيكل الإنساني إذا فارقته الروح كيف يصير بمنزلة الخشبة أو القطعة من اللحم، فأين ذهبت تلك العلوم والمعارف والعقل، وتلك الصنائع الغريبة، وتلك الأفعال العجيبة، وتلك الأفكار والتدبيرات؟! كيف ذهبت كلها مع الروح، وبقى الهيكل سواء هو والتراب؟! وهل يخاطبك من الإنسان أو يراك أو يحبك أو يواليك أو يعاديك ويخف عليك ويثقل ويؤنسك ويوحشك إلا ذلك الأمر الذي وراء الهيكل المشاهد بالبصر، فرب رجل عظيم الهيولا كبير الجثة خفيف على قلبك حلو عندك،

وآخر لطيف الخلقة صغير الجثة أثقل على قلبك من جبل، وما ذاك إلا للطافة روح ذاك وخفتها وحلاوتها، وكثافة هذا وغلظ روحه ومرارتها. وبالجملة فالعلق والوصل التي بين الأشخاص والمنافرات والبعد إنما هي للأرواح أصلًا والأشباح تبعًا.

والعاين والحاسد يشتركان في شيء، ويفترقان في شيء، فيشتركان في أن كل واحد منهما تتكيف نفسه وتتوجه نحو من يريد أذاه، فالعائن تتكيف نفسه عند مقابلة المعين ومعاينته، والحاسد يحصل له ذلك عند غيب المحسود وحضوره أيضًا. ويفترقان في أن العائن قد يصيب من لا يحسد من جماد أو حيوان أو زرع أو مال، وإن كان لا يكاد ينفك من حسد صاحبه، وربما أصابت عينه نفسه، فإن رؤيته للشيء رؤية تعجب وتحديق مع تكيف نفسه بتلك الكيفية تؤثر في المعين. وقد قال غير واحد من المفسرين في قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ ﴾ [القلم: ٥١]، إنه الإصابة بالعين، فأرادوا أن يصيبوا بها رسول الله ﷺ فنظر إليه قوم من العائنين، وقالوا: ما رأينا مثله ولا مثل حجته.

وكان طائفة منهم تمر به الناقة والبقرة السمينة فيعينها، ثم يقول لخادمه: خذ المكتل والدرهم وائتنا بشيء من لحمها، فما تبرح حتى تقع فتنحر.

وقال الكلبي: كان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل، ثم يرفع جانب خبائه فتمر به الإبل فيقول: لم أر كاليوم إبلًا ولا غنمًا أحسن من هذه! فما تذهب إلا قليلًا حتى يسقط منها طائفة، فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله ﷺ بالعين، ويفعله به كفعله في غيره، فعصم الله ورسوله، وحفظه، وأنزل عليه: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ ﴾. هذا قول طائفة.

وقالت طائفة أخرى منهم ابن قتيبة: ليس المراد أنهم يصيبونك بالعين، كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه، وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظرًا شديدًا بالعداوة والبغضاء يكاد يسقطك، قال الزجاج: يعني من شدة العداوة يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك.

وهذا مستعمل في الكلام. يقول القائل: نظر إليَّ نظرًا كاد يصرعني.

قال: ويدل على صحة هذا المعنى أنه قرن هذا النظر بسماع القرآن، وهو كانوا يكرهون ذلك أشد الكراهة، فيحدون إليه النظر بالبغضاء.

قلت: النظر الذي يؤثر في المنظور قد يكون سببه شدة العداوة والحسد، فيؤثر نظره فيه، كما تؤثر نفسه بالحسد، ويقوى تأثير النفس عند المقابلة، فإن العدو إذا غاب عن عدوه قد يشغل نفسه عنه، فإذا عاينه قبلًا اجتمعت الهمة عليه وتوجهت النفس بكليتها إليه، فيتأثر بنظره. حتى إن من الناس من يسقط، ومنهم من يحم، ومنهم من يحمل إلى بيته، وقد شاهد الناس من ذلك كثيرًا.

وقد يكون سببه الإعجاب وهو الذي يسمونه بإصابة العين، وهو أن الناظر يرى الشيء رؤية إعجاب به أو استعظام، فتتكيف روحه بكيفية خاصة تؤثر في المعين، وهذا هو الذي يعرفه الناس من رؤية المعين، فإنهم يستحسنون الشيء ويعجبون منه، فيصاب بذلك. قال عبدالرزاق بن معمر عن هشام بن قتيبة، قال: هذا ما حدثنا أبوهريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**العين حق ونهى عن الوشم**»[1].

وروى سفيان عن عمرو بن دينار عن عروة عن عامر عن عبيد بن رفاعة: أن أسماء بنت عميس قالت: يا رسول الله: إن ابني جعفر تصيبهم العين أفنسترقي لهم؟ قال: «**نعم، فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين**»[2].

فالكفار كانوا ينظرون إليه نظر حاسد شديد العداوة، فهو نظر يكاد يزلقه، ولولا حفظ الله وعصمته، فهذا أشد من نظر العائن، بل هو جنس من نظر العائن، فمن قال:

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٩٤٤) ومسلم (رقم ٢١٨٧) دون ذكر الوشم، وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢٠٠-٢١٤) وشرح النووي (١٤/ ١٧١).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٤/ ٣٦٥ رقم ٧٥٣٧) وابن ماجه (رقم ٣٥١٠) والبيهقي في الكبرى (٩/ ٣٤٨ رقم ١٩٣٧١) والشيباني في الآحاد والمثاني (٥/ ٤٥٦ رقم ٣١٤٦) والحميدي في المسند (١/ ١٥٨ رقم ٣٣٠) وأحمد (٦/ ٤٣٨) والترمذي (رقم ٢٠٥٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

إنه من الإصابة بالعين، أراد هذا المعنىٰ، ومن قال: ليس به، أراد أن نظرهم لم يكن نظر استحسان وإعجاب، فالقرآن حق. وقد روىٰ الترمذي من حديث أبي سعيد: «أن النبي ﷺ كان يتعوذ من عين الإنسان»[١]، فلولا أن العين شر لم يتعوذ منها.

وفي الترمذي من حديث علي بن المبارك عن يحيىٰ بن أبي كثير حدثني حابس بن حبة التميمي، حدثني أبي: «أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لا شيء في الهام، والعين حق**»[٢]. وفيه أيضًا من حديث وهيب عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا**»[٣] وفي الباب عن عبد الله بن عمرو، وهذا حديث صحيح.

والمقصود أن العائن حاسد خاص، وهو أضر من الحاسد، ولهذا ـ والله أعلم ـ إنما جاء في السورة ذكر الحاسد دون العائن لأنه أعم، فكل عائن حاسد ولا بد، وليس كل حاسد عائنًا، فإذا استعاذ من شر الحسد دخل فيه العين، وهذا من شمول القرآن وإعجازه وبلاغته.

وأصل الحسد هو بغض نعمة الله علىٰ المحسود وتمني زوالها، فالحاسد عدو النعم، وهذا الشر هو من نفسه وطبعها[٤] ليس هو شيئًا اكتسبه من غيرها، بل هو من خبثها وشرها، بخلاف السحر، فإنه إنما يكون باكتساب أمور أخرىٰ، واستعانة بالأرواح الشيطانية، فلهذا ـ والله أعلم ـ قرن في السورة بين شر الحاسد وشر الساحر؛ لأن الاستعاذة من شر هذين تعم كل شر يأتي من شياطين الإنس والجن، فالحسد من

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٠٥٨) والنسائي في الكبرىٰ (٤/ ٤٤١ رقم ٧٨٥٣) وفي المجتبىٰ (رقم ٥٤٩٤) والبيهقي في الشعب (٢/ ٥١١ رقم ٢٥٦٢) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٠٦١) وأحمد (٤/ ٦٧) وأبو يعلىٰ (٣/ ١٥٥ رقم ١٥٨٢) والشيباني في الآحاد والمثاني (٢/ ٣٩٠ رقم ١١٨٠) والطبراني في الكبير (٤/ ٣١ رقم ٣٥٦١) وضعفه الألباني خلا قوله: والعين حق.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢١٨٨) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢٠٣) وشرح النووي (١٤/ ١٧٢).

(٤) في نسخة أخرىٰ: هو من نفس الحاسد وطبعها.

شياطين الإنس والجن، والسحر من النوعين.

وبقي قسم ينفرد به شياطين الجن وهو الوسوسة في القلب، فذكره في السورة الأخرى كما سيأتي الكلام عليها إن شاء الله.

فالحاسد والساحر يؤذيان المحسود والمسحور بلا عمل منه، بل هو أذى من أمر خارج عنه، ففرق بينهما في الذكر في سورة الفلق.

والوسواس إنما يؤذي العبد من داخل بواسطة مساكنته له، وقبوله منه، ولهذا يعاقب العبد على الشر الذي يؤذيه به الشيطان من الوساوس التي تقرن بها الأفعال والعزم الجازم، لأن ذلك بسعيه وإرادته، بخلاف شر الحاسد والساحر، فإنه لا يعاقب عليه، إذ لا يضاف إلى كسبه ولا إرادته، فلهذا أفرد شر الشيطان في سورة، وقرن بين شر الساحر والحاسد في سورة، وكثيرًا ما يجتمع في القرآن الحسد والسحر للمناسبة، ولهذا اليهود أسحر الناس وأحسدهم، فإنهم لشدة خبثهم فيهم من السحر والحسد ما ليس في غيرهم، وقد وصفهم الله في كتابه بهذا وهذا، فقال: ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٢]، والكلام على أسرار هذه الآية وأحكامها وما تضمنته من القواعد والرد على من أنكر السحر وما تضمنته من الفرقان بين السحر وبين المعجزات الذي أنكره من أنكر السحر خشية الالتباس، وقد تضمنت الآية أعظم الفرقان بينهما في موضع غير هذا، إذ المقصود الكلام على أسرار هاتين السورتين، وشدة حاجة الخلق إليهما، وإنه لا يقوم غيرهما مقامهما.

وأما وصفهم بالحسد فكثير في القرآن: كقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤]، وفي قوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

والشيطان يقارن الساحر والحاسد، ويحادثهما، ويصاحبهما؛ ولكن الحاسد تعينه الشياطين بلا استدعاء منه للشيطان، لأن الحاسد شبيه بإبليس، وهو في الحقيقة من أتباعه لأنه يطلب ما يحبه الشيطان، من فساد الناس وزوال نعم الله عنهم، كما أن إبليس حسد آدم لشرفه وفضله، وأبي أن يسجد له حسدًا، فالحاسد من جند إبليس، وأما الساحر فهو يطلب من الشيطان أن يعينه ويستعينه، وربما يعبده من دون الله حتى يقضي له حاجته، وربما يسجد له.

وفي كتب: «السحر والسر المكتوم» من هذا عجائب. ولهذا كلما كان الساحر أكفر وأخبث وأشد معاداة لله ولرسوله ولعباده المؤمنين كان سحره أقوى وأنفذ؛ ولهذا سحر عباد الأصنام أقوى من سحر أهل الكتاب، وسحر اليهود أقوى من سحر المنتسبين إلى الإسلام، وهم الذين سحروا رسول الله ﷺ.

وفي الموطأ عن كعب قال: «كلمات أحفظهن من التوراة لولاها لجعلتني يهود حمارًا: أعوذ بوجه الله العظيم الذي لا شيء أعظم منه، وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، وبأسماء الله الحسنى، ما علمت منها، وما لم أعلم، من شر ما خلق وذرأ وبرأ»(١).

والمقصود: أن الساحر والحاسد كل منهما قصد الشر. لكن الحاسد بطبعه ونفسه وبغضه للمحسود، والشيطان يقترن به ويعينه، ويزين له حسده، ويأمره بموجبه، والساحر بعلمه وكسبه وشركه واستعانته بالشياطين.

---

(١) أخرجه مالك (٢/ ٩٥١ رقم ١٧٠٧) وانظر: الاستذكار (٨/ ٤٤٥).

وقوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥] يعم الحاسد من الجن والإنس، فإن الشيطان وحزبه يحسدون المؤمنين على ما أتاهم الله من فضله، كما حسد إبليس أبانا آدم وهو عدو لذريته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] ولكن الوسواس أخص بشياطين الجن، والحسد أخص بشياطين الإنس، والوسواس يعمهما كما سيأتي بيانهما، والحسد يعمها أيضًا، فكلا الشيطانين حاسد موسوس، فالاستعاذة من شر الحاسد تتناولهما جميعًا.

فقد اشتملت السورة على الاستعاذة من كل شر في العالم، وتضمنت شرورًا أربعة يستعاذ منها. شرًا عامًا وهو شر ما خلق، وشر الغاسق إذا وقب. فهذان نوعان.

ثم ذكر شر الساحر والحاسد، وهي نوعان أيضًا، لأنهما من شر النفس الشريرة، أحدهما يستعين بالشيطان، ويعبده، وهو الساحر، وقلما يتأتى السحر بدون نوع عبادة للشيطان، وتقرب إليه: إما بذبح باسمه، أو بذبح يقصده به هو، فيكون ذبحًا لغير الله، وبغير ذلك من أنواع الشرك والفسوق، والساحر وإن لم يسم هذه عبادة الشيطان فهو عبادة له، وإن سماه بما سماه به، فإن الشرك والكفر هو شرك وكفر لحقيقته ومعناه، لا لاسمه ولفظه، فمن سجد لمخلوق وقال: ليس هذا بسجود له، هذا خضوع وتقبيل الأرض بالجبهة، كما أقبلها بالنعم، أو هذا إكرام لم يخرج بهذه الألفاظ عن كونه سجودًا لغير الله، فليسمه بما شاء.

وكذلك من ذبح للشيطان، ودعاه، واستعاذ به، وتقرب إليه بما يحب، فقد عبده وإن لم يسم ذلك عبادة، بل يسميه استخدامًا ما، وصدق هو استخدام من الشيطان له، فيصير من خدم الشيطان وعابديه، وبذلك يخدمه الشيطان، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة، فإن الشيطان لا يخضع له ويعبده، كما يفعل هو به.

والمقصود: أن هذه عبادة منه للشيطان، وإنما سماه استخدامًا، قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]. فهؤلاء وأشباههم عباد الجن والشياطين، وهم أولياؤهم في الدنيا والآخرة ولبئس المولى ولبئس العشير، فهذا أحد النوعين.

والنوع الثاني: من يعينه الشيطان وإن لم يستعن به، وهو الحاسد لأنه نائبه وخليفته، لأن كليهما عدو نعم الله ومنغصها على عباده.

وتأمل تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ لأن الرجل قد يكون عنده حسد، ولكن يخفيه، ولا يرتب عليه أذى بوجه ما، لا بقلبه ولا بلسانه ولا بيده، بل يجد في قلبه شيئًا من ذلك، ولا يعاجل أخاه إلا بما يحب الله، فهذا لا يكاد يخلو منه أحد، إلا من عصمه الله.

وقيل للحسن البصري: أيحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك إخوة يوسف[1]، لكن الفرق بين القوة التي في قلبه من ذلك وهو لا يطيعها ولا يأتمر لها، بل يعصيها طاعة لله وخوفًا وحياء منه وإجلالًا له أن يكره نعمه على عباده، فيرى ذلك مخالفة لله، وبغضًا لما يحبه الله، ومحبة لما يبغضه، فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك، ويلزمها بالدعاء للمحسود، وتمنى زيادة الخير له بخلاف ما إذا حقق ذلك، وحسد، ورتب على حسده مقتضاه من الأذى بالقلب واللسان والجوارح، فهذا الحسد المذموم هذا كله حسد تمني الزوال. وللحسد ثلاث مراتب: أحدها هذه.

الثانية: تمني استصحاب عدم النعمة، فهو يكره أن يحدث الله لعبده نعمة، بل يجب أن يبقى على حاله من جهله أو فقره أو ضعفه أو شتات قلبه عن الله أو قلة دينه، فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب، فهذا حسد على شيء مقدر، والأول حسد على شيء محقق، وكلاهما حاسد عدو نعمة الله، وعدو عباده وممقوت عند الله تعالى

---

(١) أخرجه هناد في الزهد (٢/ ٦٤٢ رقم ١٣٩٤) وانظر: التمهيد (٦/ ١٢٦).

وعند الناس، ولا يسود أبدًا، ولا يواسي، فإن الناس لا يسودون عليهم إلا من يريد الإحسان إليهم، فأما عدو نعمة الله عليهم فلا يسودونه باختيارهم أبدًا إلا قهرًا، يعدونه من البلاء والمصائب التي ابتلاهم الله بها، فهم يبغضونه وهو يبغضهم.

والحسد الثالث: حسد الغبطة وهو تمني أن يكون له مثل حال المحسود من غير أن تزول النعمة عنه، فهذا لا بأس به، ولا يعاب صاحبه، بل هذا قريب من المنافسة، وقد قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا وسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها، ويعلمها الناس**»(١) فهذا حسد غبطة الحامل لصاحبه عليه كبر نفسه، وحب خصال الخير، والتشبه بأهلها، والدخول في جملتهم، وأن يكون من سباقهم وعليتهم ومصلهم لا من فساكلهم، فتحدث له من هذه الهمة المنافسة والمسابقة والمسارعة مع محبته لمن يغبطه، وتمني دوام نعمة الله عليه، فهذا لا يدخل في الآية بوجه ما، فهذه السورة من أكبر أدوية المحسود، فإنها تتضمن التوكل على الله والالتجاء إليه، والاستعاذة به من شر حاسد النعمة، فهو مستعيذ بولي النعم ومُوليها، كأنه يقول: يا من أولاني نعمته وأسداها إليَّ: أنا عائذ بك من شر من يريد أن يستلبها مني، ويزيلها عني، وهو حسب من توكل عليه، وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يؤمن خوف الخائف، ويجير المستجير، وهو نعم المولى ونعم النصير، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه وانقطع بكليته إليه تولاه وحفظه وحرسه وصانه، ومن خافه واتقاه أمنه مما يخاف ويحذر، وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٣) ومسلم (رقم ٨١٦) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٣١) وشرح النووي (٦/ ٩٧).

فلا تستبطئ نصره ورزقه وعافيته، فإن الله بالغ أمره، وقد جعل الله لكل شيء قدراً، لا يتقدم عنه ولا يتأخر، ومن لم يخفه أخافه من كل شيء، وما خاف أحد غير الله إلا لنقص خوفه من الله، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨، ١٠٠] وقال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي: يخوفكم بأوليائه ويعظمهم في صدوركم، فلا تخافوهم، وأفردوني بالمخافة أكفكم إياهم.

ويندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب.

أحدها: التعوذ بالله من شره والتحصن به واللجوء إليه، وهو المقصود بهذه السورة، والله تعالى سميع لاستعاذته عليم بما يستعيذ منه.

والسمع هنا المراد به سمع الإجابة، لا السمع العام، فهو مثل قوله: «سمع الله لمن حمده». وقول الخليل ﷺ: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

ومرة يقرنه بالعلم ومرة بالبصر، لاقتضاء حال المستعيذ ذلك، فإنه يستعيذ به من عدو يعلم أن الله يراه، ويعلم كيده وشره، فأخبر الله تعالى هذا المستعيذ أنه سميع لاستعاذته، أي مجيب عليم بكيد عدوه، يراه، ويبصره لينبسط أمل المستعيذ، ويقبل بقلبه على الدعاء.

وتأمل حكمة القرآن: كيف جاء في الاستعاذة من الشيطان الذي نعلم وجوده، ولا نراه بلفظ السميع العليم في [الأعراف، وحم والسجدة] وجاءت الاستعاذة من شر الإنس الذين يؤنسون، ويرون بالأبصار بلفظ السميع البصير في [سورة حمٓ المؤمن] فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]، لأن أفعال هؤلاء أفعال

معاينة ترىٰ بالبصر. وأما نزع الشيطان فوساوس وخطرات يلقيها في القلب، يتعلق بها العلم، فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها، وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير في باب ما يرىٰ بالبصر ويدرك بالرؤية، والله أعلم(١).

السبب الثاني: تقوىٰ الله وحفظه عند أمره ونهيه، فمن اتقىٰ الله تولىٰ الله حفظه، ولم يكله إلىٰ غيره، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠]. وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس: **«احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك»**(٢) فمن حفظ الله حفظه الله، ووجده أمامه أينما توجه، ومن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف ولمن يحذر؟!

السبب الثالث: الصبر علىٰ عدوه، وأن لا يقاتله ولا يشكوه، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلًا، فما نصر علىٰ حاسده وعدوه بمثل: الصبر عليه، والتوكل علىٰ الله، ولا يستطل تأخيره وبغيه، فإنه كلما بغىٰ عليه كان بغيه جندًا وقوة للمبغي عليه المحسود يقاتل به الباغي نفسه، وهو لا يشعر، فبغيه سهام يرميها من نفسه إلىٰ نفسه، ولو رأىٰ المبغي عليه، ولكن لضعف بصيرته لا يرىٰ إلا صورة البغي دون آخره ومآله. وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠].

فإذا كان الله قد ضمن له النصر مع أنه قد استوفىٰ حقه أولًا، فكيف بمن لم يستوف شيئًا من حقه، بل بُغِيَ عليه وهو صابر.

وما من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم، وقد سبقت سنة الله: أنه لو بغىٰ جبل علىٰ جبل جعل الباغي منهما دكًا.

---

(١) سيأتي لهذا البحث زيادة تحت عنوان: قاعدة نافعة. (ج).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥١٦) والحاكم (٣/ ٦٢٣ رقم ٦٣٠٣) وأحمد (١/ ٢٩٣) وأبو يعلى (٤/ ٤٣٠ رقم ٢٥٥٦) والطبراني في الكبير (١٢/ ٢٣٨ رقم ١٢٩٨٨) وفي الأوسط (٥/ ٣١٦ رقم ٥٤١٧) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٤٣٤ رقم ٧٤٥) وعبد بن حميد (رقم ٦٣٦) قال الترمذي: حسن صحيح. وقال الحاكم: هذا حديث كبير عال. وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٩٢).

السبب الرابع: التوكل على الله: فمن يتوكل على الله فهو حسبه، والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم، وهو من أقوى الأسباب في ذلك، فإن الله حسبه أي كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه ولا يضره إلا أذى، لا بد منه كالحر والبرد والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبدًا، وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء له وهو في الحقيقة إحسان إليه وأضرار بنفسه، وبين الضرر الذي يتشفى به منه، قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] ولم يقل نؤته كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كاف عبده، المتوكل عليه، وحسبه، وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجًا من ذلك، وكفاه، ونصره. وقد ذكرنا حقيقة التوكل وفوائده وعظم منفعته وشدة حاجة العبد إليه في: (كتاب الفتح القدسي) وذكرنا هناك فساد من جعله من المقامات المعلولة، وأنه من مقامات العوام، وأبطلنا قوله من وجوه كثيرة، وبينا أنه من أجل مقامات العارفين، وأنه كلما علا مقام العبد كانت حاجته إلى التوكل أعظم وأشد، وأنه على قدر إيمان العبد يكون توكله، وإنما المقصود هنا ذكر الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر والباغي.

السبب الخامس: فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له فلا يلتفت إليه ولا يخافه ولا يملأ قلبه بالفكر فيه، وهذا من أنفع الأدوية وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره، فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه، فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه، بل انعزل عنه لم يقدر عليه، فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر، وهكذا الأرواح سواء، فإذا علق روحه وشبثها به، وروح الحاسد الباغي متعلقة به يقظة ومنامًا لا يفتر عنه وهو يتمنى أن يتماسك الروحان ويتشبث، فإذا تعلقت كل روح منهما بالأخرى عدم القرار ودام

الشر، حتى يهلك أحدهما فإذا جبذ روحه عنه وصانها عن الفكر فيه والتعلق به، وأن لا يخطره بباله.

فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر والاشتغال بما هو أنفع له وأولى به، بقي الحاسد الباغي يأكل بعضه بعضًا، فإن الحسد كالنار، فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضًا، وهذا باب عظيم النفع لا يلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العلية، وبين الكيس الفطن وبينه حتى يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه، كأنه يرى من أعظم عذاب القلب والروح اشتغاله بعدوه، وتعلق روحه به، ولا يرى شيئًا ألم لروحه من ذلك، ولا يصدق بهذا إلا النفوس المطمئنة الوادعة اللينة التي رضيت بوكالة الله لها، وعلمت أن نصره لها خير من انتصارها هي لنفسها، فوثقت بالله وسكنت إليه، واطمأنت به، وعلمت أن ضمانه حق، ووعده صدق، وأنه لا أوفى بعهده من الله، ولا أصدق منه قيلًا، فعلمت أن نصره لها أقوى وأثبت وأدوم وأعظم فائدة من نصرها هي لنفسها، أو نصر مخلوق مثلها لها ولا يقوى على هذا إلا بالسبب السادس وهو الإقبال على الله والإخلاص له، وجعل محبته وترضيه والإنابة إليه في محل خواطر نفسه وأمانيها، تدب فيها دبيب تلك الخواطر شيئًا فشيئًا، حتى يقهرها ويغمرها ويذهبها بالكلية، فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيه كلها في محاب الرب والتقرب إليه وتملقه وترضيه واستعطافه، وذكره كما يذكر المحب التام المحبة لمحبوبه المحسن إليه، الذي قد امتلأت جوانحه من حبه، فلا يستطيع قلبه انصرافًا عن ذكره، ولا روحه انصرافًا عن محبته. فإذا صار كذلك فكيف يرضى لنفسه أن يجعل بيت أفكاره وقلبه معمورًا بالفكر في حاسده والباغي عليه، والطريق إلى الانتقام منه والتدبير عليه.

هذا ما لا يتسع له إلا قلب خراب، لم تسكن فيه محبة الله وإجلاله وطلب مرضاته، بل إذا مسه طيف من ذلك، واجتاز ببابه من خارج ناداه حرس قلبه: إياك وحمى الملك، اذهب إلى بيوت الخانات التي كل من جاء حل فيها، ونزل بها ما لك ولبيت

السلطان الذي أقام عليه اليزك، وأدار عليه الحرس وأحاطه بالسور؟!

قال تعالى حكاية عن عدوه إبليس أنه قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص:٨٢، ٨٣] وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]. وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠]. وقال في حق الصديق يوسف ﷺ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] فما أعظم سعادة من دخل هذا الحصن، صار داخل اليزك، قد آوى إلى حصن لا خوف على من تحصن به، ولا ضيعة على من آوى إليه، ولا مطمع للعدو في الدنو إليه منه: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

السبب السابع: تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال لخير الخلق وهم أصحاب نبيه دونه ﷺ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها، وما ينساه مما علمه وعمله أضعاف ما يذكره.

وفي الدعاء المشهور: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم»(١). فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف أضعاف ما يعلمه،

(١) أخرجه أبو يعلى (١/ ٦٠ رقم ٥٨) (١/ ٦٢ رقم ٦٠) والديلمي في مسند الفردوس (٢/ ٣٧٥-٣٧٦ رقم ٣٦٧٣) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٤/ ١٤٢) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٧١٦) وهناد في الزهد (٢/ ٤٣٤ رقم ٨٤٩) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٢٨٦) وانظر: فيض القدير (٤/ ١٧٣).

فما سلط عليه مؤذ إلا بذنب.

ولقي بعض السلف رجل، فأغلظ له، ونال منه، فقال له: قف حتى أدخل البيت، ثم أخرج إليك. فدخل، فسجد لله، وتضرع إليه وتاب، وأناب إلى ربه، ثم خرج إليه، فقال له: ما صنعت؟ فقال: تبت إلى الله من الذنب الذي سلطك به عليَّ.

وسنذكر إن شاء الله تعالى أنه ليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها، فإذا عوفي من الذنوب عوفي من موجباتها، فليس للعبد إذا بغي عليه وأوذي وتسلط عليه خصوصه شيء أنفع له من التوبة النصوح.

وعلامة سعادته أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه، فيشتغل بها وبإصلاحها، وبالتوبة منها، فلا يبقى فيه فراغ لتدبر ما نزل به، بل يتولى هو التوبة وإصلاح عيوبه، والله يتولى نصرته وحفظه والدفع عنه ولا بد، فما أسعده من عبد! وما أبركها من نازلة نزلت به! وما أحسن أثرها عليه! ولكن التوفيق والرشد بيد الله، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، فما كل أحد يوفق لهذا، لا معرفة به، ولا إرادة له، ولا قدرة عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

السبب الثامن: الصدقة والإحسان ما أمكنه، فإن لذلك تأثيرًا عجيبًا في دفع البلاء ودفع العين وشر الحاسد، ولو لم يكن في هذا إلا تجارب الأمم قديمًا وحديثًا لكفى به، فما يكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن متصدق، وإن أصابه شيء من ذلك كان معاملًا فيه باللطف والمعونة والتأييد، وكانت له فيه العاقبة الحميدة.

فالمحسن المتصدق في خفارة إحسانه، وصدقته عليه من الله جنة واقية وحصن حصين. وبالجملة فالشكر حارس النعمة من كل ما يكون سببًا لزوالها.

ومن أقوى الأسباب حسد الحاسد والعائن، فإنه لا يفتر ولا يني ولا يبرد قلبه حتى تزول النعمة عن المحسود، فحينئذ يبرد أنينه، وتنطفئ ناره، لا أطفأها الله، فما حرس العبد نعمة الله عليه بمثل شكرها، ولا عرضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصي الله،

وهو كفران النعمة، وهو باب إلى كفران المنعم.

فالمحسن المتصدق يستخدم جندًا وعسكرًا يقاتلون عنه، وهو نائم على فراشه، فمن لم يكن له جند ولا عسكر وله عدو فإنه يوشك أن يظفر به عدوه، وإن تأخرت مدة الظفر، والله المستعان.

السبب التاسع: وهو من أصعب الأسباب على النفس وأشقها عليها، ولا يوفق له إلا من عظم حظه من الله، وهو إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه، فكلما ازداد أذى وشرًا وبغيًا وحسدًا ازددت إليه إحسانًا وله نصيحة وعليه شفقة، وما أظنك تصدق بأن هذا يكون، فضلًا عن أن تتعاطاه.

فاسمع الآن قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤- ٣٦] وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٤] وتأمل حال النبي ﷺ الذي حكى عنه نبينا ﷺ أنه ضربه قومه حتى أدموه، فجعل يسلت الدم عنه، ويقول: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»[1] كيف جمع في هذه الكلمات أربع مقامات من الإحسان قابل بها إساءتهم العظيمة إليه.

أحدها: عفوه عنهم. والثاني: استغفاره لهم. الثالث: اعتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون. الرابع: استعطافه لهم بإضافتهم إليه، فقال: «**اغفر لقومي**» كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به: هذا ولدي، هذا غلامي، هذا صاحبي، فهبه لي.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٧٧) ومسلم (رقم ١٧٩٢) وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٢١) (٧/ ٣٧٢- ٣٧٣) وشرح النووي (١٦/ ١٥٢-١٥٣).

واسمع الآن ما الذي يسهل هذا على النفس ويطيبه إليها وينعمها به، اعلم أن لك ذنوبًا بينك وبين الله، تخاف عواقبها، وترجوه أن يعفو عنها، ويغفرها لك، ويهبها لك. ومع هذا لا يقتصر على مجرد العفو والمسامحة حتى ينعم عليك ويكرمك، ويجلب إليك من المنافع والإحسان فوق ما تؤمله.

فإذا كانت ترجو هذا من ربك أن يقابل به إساءتك، فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه، وتقابل به إساءتهم، ليعاملك الله هذه المعاملة، فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تعمل مع الناس في إساءتهم في حقك، يفعل الله معك في ذنوبك وإساءتك جزاء وفاقًا، فانتقم بعد ذلك أو اعف وأحسن أو اترك، فكما تدين تدان، وكما تفعل مع عباده يفعل معك.

فمن تصور هذا المعنى، وشغل به فكره، هان عليه الإحسان إلى من أساء إليه. هذا مع ما يحصل له بذلك من نصر الله ومعيته الخاصة، كما قال النبي ﷺ للذي شكى إليه قرابته، وأنه يحسن إليهم، وهم يسيئون إليه، فقال: «**لا يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك**»(١).

هذا مع ما يتعجله من ثناء الناس عليه، ويصيرون كلهم معه على خصمه، فإنه كل من سمع أنه محسن إلى ذلك الغير، وهو مسيء إليه، وجد قلبه ودعاءه وهمته مع المحسن على المسيء، وذلك أمر فطري فطر الله عليه عباده، فهو بهذا الإحسان قد استخدم عسكرًا لا يعرفهم ولا يعرفونه، ولا يريدون منه إقطاعًا ولا خبزًا.

هذا مع أنه لا بد له مع عدوه وحاسده من إحدى حالتين.

إما أن يملكه بإحسانه، فيستعبده وينقاد، له ويذل له ويبقى من أحب الناس إليه.

وأما أن يفتت كبده، ويقطع دابره إن أقام على إساءته إليه، فإنه يذيقه بإحسانه أضعاف ما ينال منه بانتقامه.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٥٨) وانظر: شرح النووي (١٦/ ١١٤-١١٥).

ومن جرب هذا عرفه حق المعرفة، والله هو الموفق المعين، بيده الخير كله، لا إله غيره، وهو المسئول أن يستعملنا وإخواننا في ذلك بمنه وكرمه.

وفي الجملة ففي هذا المقام من الفوائد ما يزيد على مائة منفعة للعبد عاجلة وآجلة، سنذكرها في موضع آخر إن شاء الله تعالى.

السبب العاشر: وهو الجامع لذلك كله، وعليه مدار هذه الأسباب، وهو تجريد التوحيد، والترحل بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم، والعلم بأن هذه آلات بمنزلة حركات الرياح، وهي بيد محركها وفاطرها وبارئها، ولا تضر ولا تنفع إلا بإذنه، فهو الذي يحسن عبده بها، وهو الذي يصرفها عنه وحده لا أحد سواه.

قال تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك».

فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه، وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله، بل يفرد الله بالمحبة وقد أمنه منه، وخرج من قلبه اهتمامه به واشتغاله به وفكره فيه، وتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلًا واشتغالًا به من غيره، فيرى أن إعماله فكره في أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده، وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل، والله يتولى حفظه والدفع عنه، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، فإن كان مؤمنًا فالله يدافع عنه ولابد.

وبحسب إيمانه يكون دفاع الله عنه، فإن كمل إيمانه كان دفع الله عنه أتم دفع، وإن مَزَجَ مُزِجَ له، وإن كان مرة ومرة، فالله له مرة ومرة، كما قال بعض السلف: من أقبل على الله بكليته أقبل الله عليه جملة، ومن أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة. ومن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة.

فالتوحيد حصن الله الأعظم، الذي من دخله كان من الآمنين.

قال بعض السلف: من خاف الله خافه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء[١]، فهذه عشرة أسباب يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر، وليس له أنفع من التوجه إلىٰ الله، وإقباله عليه، وتوكله عليه، وثقته به، وأن لا يخاف معه غيره، بل يكون خوفه منه وحده، ولا يرجو سواه، بل يرجوه وحده، فلا يعلق قلبه بغيره، ولا يستغيث بسواه، ولا يرجو إلا إياه.

ومتىٰ علق قلبه بغيره ورجاه وخافه وكل إليه، وخذل من جهته، فمن خاف شيئًا غير الله سلط عليه، ومن رجا شيئًا سوىٰ الله خذل من جهته وحرم خيره، هذه سنة الله في خلقه: ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

فقد عرفت بعض ما اشتملت عليه هذه السورة من القواعد النافعة الهامة التي لا غني للعبد عنها في دينه ودنياه. ودلت علىٰ أن نفوس الحاسدين وأعينهم لها تأثير وعلىٰ أن الأرواح الشيطانية لها تأثير بواسطة السحر والنفث في العقد.

وقد افترق العالم في هذا المقام أربع فرق:

ففرقة أنكرت تأثير هذا وهذا، وهم فرقتان:

فرقة اعترفت بوجود النفوس الناطقة والجن، وأنكرت تأثيرهما البتة، وهذا قول طائفة من المتكلمين ممن أنكر الأسباب والقوىٰ والتأثيرات.

وفرقة أنكرت وجودهما بالكلية، وقالت: لا وجود لنفس الآدمي سوىٰ هذا الهيكل المحسوس وصفاته وأعراضه فقط، ولا وجود للجن والشياطين سوىٰ أعراض قائمة به، وهذا قول كثير من ملاحدة الطبائعيين وغيرهم من الملاحدة المنتسبين إلىٰ الإسلام. وهو قول شذوذ من أهل الكلام الذين ذمهم السلف، وشهدوا عليهم بالبدعة والضلالة.

---

(١) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب مرفوعاً إلىٰ رسول الله ﷺ (١/ ٢٦٥ رقم ٤٢٩) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ١٣٤ رقم ٥١٢٣): رواه أبو الشيخ في كتاب الثواب ورفعه منكر.

الفرقة الثانية أنكرت وجود النفس الإنسانية المفارقة للبدن وأقرت بوجود الجن والشياطين، وهذا قول كثير من المتكلمين من المعتزلة وغيرهم.

الفرقة الثالثة: بالعكس أقرت بوجود النفس الناطقة المفارقة للبدن، وأنكرت وجود الجن والشياطين، وزعمت أنها غير خارجة عن قوى النفس وصفاتها، وهذا قول كثير من الفلاسفة الإسلاميين وغيرهم، وهؤلاء يقولون: إنما يوجد في العالم من التأثيرات الغريبة والحوادث الخارقة، فهي من تأثيرات النفس، ويجعلون السحر والكهانة كله من تأثير النفس وحدها بغير واسطة شيطان منفصل، وابن سينا وأتباعه على هذا القول حتى إنهم يجعلون معجزات الرسل من هذا الباب، ويقولون إنما هي من تأثيرات النفس في هيولي العالم، وهؤلاء كفار بإجماع أهل الملل ليسوا من أتباع الرسل جملة.

الفرقة الرابعة: وهم أتباع الرسل وأهل الحق أقروا بوجود النفس الناطقة المفارقة للبدن، وأقروا بوجود الجن والشياطين، وأثبتوا ما أثبته الله تعالى من صفاتهما وشرهما، واستعاذوا بالله منه، وعلموا أنه لا يعيذهم منه ولا يجيرهم إلا الله، فهؤلاء أهل الحق، ومن عداهم مفرط في الباطل أو معه باطل وحق، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. فهذا ما يسر الله من الكلام سورة الفلق.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الفلق

والحمد الله رب العالمين

سُورَةُ النَّاسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦ ﴾.

أما سورة الناس: فقد تضمنت أيضًا: استعاذة، ومستعاذًا به ومستعاذ منه، فالاستعاذة تقدمت. وأما المستعاذ به فهو الله: ﴿ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ ﴾ فذكر ربوبيته للناس، وملكه إياهم، وإلهيته لهم، ولا بد من مناسبة في ذكر ذلك في الاستعاذة من الشيطان كما تقدم. فنذكر أولًا معنى هذه الإضافات الثلاث، ثم وجه مناسبتها لهذه الاستعاذة.

الإضافة الأولى: إضافة الربوبية المتضمنة لخلقهم وتدبيرهم وتربيتهم وإصلاحهم، وجلب مصالحهم وما يحتاجون إليه، ودفع الشر عنهم، وحفظهم مما يفسدهم، هذا معنى ربوبيته لهم، وذلك يتضمن قدرته التامة، ورحمته الواسعة، وإحسانه، وعلمه بتفاصيل أحوالهم، وإجابة دعواتهم، وكشف كرباتهم.

الإضافة الثانية: إضافة الملك فهو ملكهم المتصرف فيهم، وهم عبيده ومماليكه، وهو المتصرف لهم، المدبر لهم كما يشاء، النافذ القدرة فيهم، الذي له السلطان التام عليهم، فهو ملكهم الحق الذي إليه مفزعهم عند الشدائد والنوائب، وهو مستغاثهم ومعاذهم وملجأهم، فلا صلاح لهم ولا قيام إلا به وبتدبيره، فلس لهم ملك غيره يهربون إليه إذا دهمهم العدو، ويستصرخون به إذا نزل العدو بساحتهم.

الإضافة الثالثة: إضافة الإلهية، فهو إلههم الحق، ومعبودهم الذي لا إله لهم سواه، ولا معبود لهم غيره، فكما أنه وحده هو ربهم ومليكهم لم يشركه في ربوبيته ولا في ملكه أحد، فكذلك هو وحده إلههم ومعبودهم فلا ينبغي أن يجعلوا معه شريكًا في

إلهيته، كما لا شريك معه في ربوبيته وملكه.

وهذه طريقة القرآن يحتج عليهم بإقرارهم بهذا التوحيد على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة.

وإذا كان وحده هو ربنا وملكنا وإلهنا، فلا مفزع لنا في الشدائد سواه، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه، ولا معبود لنا غيره، فلا ينبغي أن يدعى، ولا يخاف، ولا يرجى ولا يحب سواه، ولا يذل لغيره، ولا يخضع لسواه، ولا يتوكل إلا عليه، لأن من ترجوه وتخافه وتدعوه وتتوكل عليه: إما أن يكون مربيك والقيم بأمورك ومتولي شأنك، وهو ربك فلا رب سواه، أو تكون مملوكه وعبده الحق، فهو ملك الناس حقًا وكلهم عبيده ومماليكه.

أو يكون معبودك وإلٰهك الذي لا تستغني عنه طرفة عين، بل حاجتك إليه أعظم من حاجتك إلى حياتك وروحك.

وهو الإله الحق: إله الناس الذي لا إله لهم سواه.

فمن كان ربهم وملكهم وإلههم فهم جديرون أن لا يستعيذوا بغيره، ولا يستنصروا بسواه، ولا يلجأوا إلى غير حماه، فهو كافيهم، وحسبهم، وناصرهم، ووليهم، ومتولي أمورهم جميعًا بربوبيته وملكه وإلهيته لهم، فكيف لا يلتجئ العبد عند النوازل، ونزول عدوه به إلى ربه ومالكه وإلهه، فظهرت مناسبة هذه الإضافات الثلاث للاستعاذة من أعدى الأعداء وأعظمهم عداوة وأشدهم ضررًا وأبلغهم كيدًا.

ثم إنه ـ سبحانه ـ كرر الاسم الظاهر، ولم يوقع المضمر موقعه، فيقول: رب الناس، وملكهم، وإلههم، تحقيقًا لهذا المعنى وتقوية له، فأعاد ذكرهم عند كل اسم من أسمائه، ولم يعطف بالواو لما فيها ممن الإيذان بالمغايرة.

والمقصود الاستعاذة بمجموع هذه الصفات حتى كأنها صفة واحدة.

وقدم الربوبية لعمومها وشمولها لكل مربوب، وأخر الإلهية لخصوصها، لأنه

سبحانه إنما هو إله من عبده ووحده واتخذه دون غيره إلها، فمن لم يعبده ويوحده فليس بإلهه، وإن كان في الحقيقة لا إله له سواه، ولكن ترك إلهه الحق، واتخذ إلهًا غيره.

ووسط صفة الملك بين الربوبية والإلهية، لأن الملك هو المتصرف بقوله وأمره، فهو المطاع إذا أمر، وملكه لهم تابع لخلقه إياهم، فملكه من كمال ربوبيته، وكونه إلههم الحق من كمال ملكه، فربوبيته تستلزم ملكه وتقتضيه، وملكه يستلزم إلهيته ويقتضيها، فهو الرب الحق الملك الحق، الإله الحق، خلقهم بربوبيته، وقهرهم بملكه، واستعبدهم بإلهيته.

فتأمل هذه الجلالة وهذه العظمة التي تضمنتها هذه الألفاظ الثلاثة على أبدع نظام وأحسن سياق: رب الناس، ملك الناس، إله الناس، وقد اشتملت هذه الإضافات الثلاث على جميع قواعد الإيمان، وتضمنت معاني أسمائه الحسنى.

وأما تضمنها لمعاني أسمائه الحسنى، فإن الرب هو: القادر، الخالق، البارئ، المصور، الحي، القيوم، العليم، السميع، البصير، المحسن، المنعم، الجواد، المعطي، المانع، الضار، النافع، المقدم، المؤخر، الذي يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقي من يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، إلى ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى.

وأما الملك فهو الآمر الناهي، المعز المذل، الذي يصرف أمور عباده كما يحب، ويقلبهم كما يشاء، وله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى: كالعزيز، الجبار، المتكبر، الحكم، العدل، الخافض، الرافع، المعز، المذل، العظيم، الجليل، الكبير، الحسيب، المجيد، الوالي، المتعالي، مالك الملك، المقسط الجامع، إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك.

وأما الإله فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، فيدخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى، ولهذا كان القول الصحيح: إن الله أصله الإله، كما هو

قول سيبويه وجمهور أصحابه، إلا من شذ منهم، وإن اسم الله تعالى هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العلى.

فقد تضمنت هذه الأسماء الثلاثة جميع معاني أسمائه الحسنى.

فكان المستعيذ بها جديرًا بأن يعاذ ويحفظ ويمنع من الوسواس الخناس، ولا يسلط عليه. وأسرار كلام الله أجل وأعظم من أن تدركها عقول البشر، وإنما غاية أولي العلم الاستدلال بما ظهر منها على ما وراءه وإن باديه إلى الخافي يسير.

وهذا السورة مشتملة على الاستعاذة من الشر الذي هو سبب الذنوب والمعاصي كلها، وهو الشر الداخل في الإنسان الذي هو منشأ العقوبات في الدنيا والآخرة، فسورة الفلق تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو ظلم الغير له بالسحر والحسد، وهو شر من خارج، وسورة الناس تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو سبب ظلم العبد نفسه، وهو شر من داخل. فالشر الأول لا يدخل تحت التكليف، ولا يطلب منه الكف عنه، لأنه ليس من كسبه، والشر الثاني في سورة الناس يدخل تحت التكليف، ويتعلق به النهي، فهذا شر المعائب والأول شر المصائب، والشر كله يرجع إلى العيوب والمصائب ولا ثالث لهما.

فسورة الفلق تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات، وسورة الناس تتضمن الاستعاذة من العيوب التي أصلها كلها الوسوسة.

إذا عرف هذا فالوسواس فعلال من وسوس وأصل الوسوسة الحركة أو الصوت الخفي لا يحس، فيحترز منه، فالوسواس الإلقاء الخفي في النفس: إما بصوت خفي لا يسمعه إلا من ألقي إليه، وإما بغير صوت، كما يوسوس الشيطان إلى العبد.

ومن هذا وسوسة الحلي، وهو حركته الخفية في الأذن، والظاهر ـ والله أعلم ـ أنها سميت وسوسة لقربها وشدة مجاورتها لمحل الوسوسة من شياطين الإنس وهو الأذن، فقيل وسوسة الحلي، لأنه صوت مجاور للأذن: كوسوسة الكلام الذي يلقيه

الشيطان في أذن من يوسوس له. ولما كانت الوسوسة كلامًا يكرره الموسوس، ويؤكد عند من يلقيه إليه كرروا لفظها بإزاء تكرير معناها، فقالوا: وسوس وسوسة، فراعوا تكرير اللفظ ليفهم منه تكرير مسماه.

ونظير هذا ما تقدم من متابعتهم حركة اللفظ بإزاء متابعة حركة معناه: كالدوران، والغليان والنزوان وبابه.

ونظير ذلك: زلزل، ودكدك، وقلقل، وكبكب الشيء، لأن الزلزلة حركة متكررة، وكذلك الدكدكة والقلقلة، وكذلك كبكب الشيء، إذا كبه في مكان بعيد، فهو يكب فيه كبًا بعد كب كقوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٩٤].

ومثله رضرضه إذا كرر رضه مرة بعد مرة، ومثله ذرذره إذا ذره شيئًا بعد شيء، ومثله صرصر الباب إذا تكرر صريره، ومثله مطمط الكلام إذا مطه شيئًا بعد شيء، ومثله كفكف الشيء إذا كرر كفه، وهو كثير.

وقد علم بهذا أن من جعل هذا الرباعي بمعنى الثلاثي المضاعف لم يصب، لأن الثلاثي لا يدل على تكرار بخلاف الرباعي المكر، فإذا قلت: ذر الشيء، وصر الباب، وكف الثوب، ورض الحب. لم يدل على تكرار الفعل، بخلاف. ذرذر، وصرصر، ورضرض ونحوه، فتأمله فإنه مطابق للقاعدة العربية، في الحذو بالألفاظ حذو المعاني، وقد تقدم التنبيه على ذلك، فلا وجه لإعادته.

وكذلك قولهم: عج العجل، إذا صوت، فإن تابع صوته، قالوا: عجعج، وكذلك: ثج الماء إذا صب، فإن تكرر ذلك قبل تجثج، والمقصود أن الموسوس لما كان يكرر وسوسته ويتابعها قيل وسوس[1].

وأما الخناس: فهو فعال من خنس يخنس إذا توارى واختفى. ومنه قوله أبي هريرة: «لقيني النبي ﷺ في بعض طرق المدينة وأنا جنب، فانخنست منه».

---

(١) ما يلي هذا بحث لغوي مطول اختصرناه (ج).

وحقيقة اللفظ اختفاء بعد ظهور، فليست لمجرد الاختفاء، ولهذا وصفت بها الكواكب في قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴾ [التكوير: ١٥]، قال قتادة: هي النجوم تبدو بالليل، وتخنس بالنهار، فتختفي ولا ترىٰ. وكذلك قال علي ﷺ: هي الكواكب تخنس بالنهار فلا ترىٰ.

وقالت طائفة: الخنس هي الراجعة التي ترجع كل ليلة إلىٰ جهة المشرق، وهي السبعة السيارة، قالوا: وأصل الخنوس الرجوع إلىٰ وراء، والخناس مأخوذ من هذين المعنيين، فهو من الاختفاء والرجوع والتأخير.

فإن العبد إذا غفل عن ذكر الله جثم علىٰ قلبه الشيطان، وانبسط عليه، وبذر فيه أنواع الوساوس التي هي أصل الذنوب كلها، فإذا ذكر العبد ربه، واستعاذ به، انخنس، وانقبض: كما ينخنس الشيء ليتوارىٰ، وذلك الانخناس والانقباض هو أيضًا تجمع ورجوع، وتأخر عن القلب إلىٰ خارج، فهو تأخر ورجوع معه اختفاء. وخنس وانخنس يدل علىٰ الأمرين معًا. قال قتادة: الخناس له خرطوم: كخرطوم الكلب في صدر الإنسان، فإذا ذكر العبد ربه خنس.

ويقال: رأسه كرأس الحية، وهو واضع رأسه علىٰ ثمرة القلب يمنيه، ويحدثه، فإذا ذكر الله خنس، وإذا لم يذكره عاد ووضع رأسه يوسوس إليه ويمنيه وجيء من هذا الفعل بوزن فعال الذي للمبالغة دون الخانس والمنخنس إيذانًا بشدة هروبه ورجوعه وعظم نفوره عند ذكر الله، وأن ذلك دأبه وديدنه، لا أنه يعرض له ذلك عند ذكر الله أحيانًا، بل إذا ذكر الله هرب وانخنس وتأخر، فإن ذكر الله هو مقمعته التي يقمع بها: كما يقمع المفسد والشرير بالمقامع التي تردعه من سياط وحديد وعصي ونحوها.

فذكر الله يقمع الشيطان ويؤلمه ويؤذيه: كالسياط والمقامع التي تؤذي من يضرب بها. ولهذا يكون شيطان المؤمن هزيلًا ضئيلًا مضنىً مما يعذبه المؤمن ويقمعه به من ذكر الله وطاعته.

وفي أثر عن بعض السلف: إن المؤمن ينضي شيطانه كما ينضي الرجل بعيره في السفر[(١)]، لأنه كلما اعترضه صب عليه سياط الذكر والتوجه والاستغفار والطاعة، فشيطانه معه في عذاب شديد، وليس بمنزلة شيطان الفاجر الذي هو معه في راحة ودعة، ولهذا يكون قويًا عاتيًا شديدًا، فمن لم يعذب شيطانه في هذه الدار بذكر الله - تعالى - وتوحيده واستغفاره وطاعته عذبه شيطانه في الآخرة بعذاب النار، فلا بد لكل أحد أن يعذب شيطانه أو يعذبه شيطانه.

وتأمل كيف جاء بناء الوسواس مكررًا لتكريره الوسوسة الواحدة مرارًا، حتى يعزم عليها العبد، وجاء بناء الخناس على وزن الفعال الذي يتكرر منه نوع الفعل، لأنه كلما ذكر الله انخنس، ثم إذا غفل العبد عاوده بالوسوسة، فجاء بناء اللفظين مطابقًا لمعنييهما.

وقوله: ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس: ٥] صفة ثالثة للشيطان، فذكر وسوسته أولًا، ثم ذكر محلها ثانيًا، وأنها في صدور الناس.

وقد جعل الله للشيطان دخولًا في جوف العبد، ونفوذًا إلى قلبه وصدره، فهو يجري منه مجرى الدم، وقد وكل بالعبد، فلا يفارقه إلى الممات.

وفي الصحيحين من حديث الزهري عن علي بن حسين عن صفية بنت حيي قالت: «كان رسول الله ﷺ معتكفًا فأتيته أزوره ليلًا، فحدثته، ثم قمت فانقلبت، فقام معي ليقلبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: «على رسلكما، إنها صفية بنت حيي» فقالا: سبحان الله! يا رسول الله! فقال: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف

---

(١) أخرجه أحمد مرفوعاً (٢/ ٣٨٠) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١١٦): رواه أحمد وفيه ابن لهيعة. وانظر: فيض القدير (٢/ ٣٨٥).

في قلوبكما سوءًا - أو قال - شيئًا»[(١)].

وفي الصحيح أيضًا عن أبي سلمة بن عبدالرحمن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط، فإذا قضي أقبل، فإذا ثوب بها أدبر، فإذا قضي أقبل، حتى يخطر بين الإنسان وقلبه فيقول: اذكر كذا اذكر كذا. حتى لا يدري أثلاثًا صلى أم أربعًا؟ فإذا لم يدر أثلاثًا صلى أم أربعًا سجد سجدتي السهو»[(٢)].

ومن وسوسته ما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق الله؟ فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته»[(٣)].

وفي الصحيح أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: «يا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به، قال: « «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة»[(٤)].

ومن وسوسته أيضًا أن يشغل القلب بحديثه حتى ينسيه ما يريد أن يفعله، ولهذا يضاف النسيان إليه إضافته إلى سببه، قال تعالى حكاية عن صاحب موسى أنه قال: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٠٣٥) ومسلم (رقم ٢١٧٥) وانظر: فتح الباري (٤/ ٢٧٩) وشرح النووي (١٤/ ١٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٢٣١) ومسلم (رقم ٣٨٩) وانظر: فتح الباري (٢/ ٨٥)، وشرح النووي (٤/ ٩٠-٩٢).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٧٦) ومسلم (رقم ١٣٤) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٤٠-٣٤١) (١٣/ ٢٧٢-٢٧٣) وشرح النووي (٢/ ١٥٤-١٥٥).

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ١٧١ رقم ١٠٥٠٣) وأبو داود (رقم ٥١١٢) وأحمد (١/ ٢٣٥) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٧٢٣ رقم ٧٧٩) أما لفظ الصحيح فعن أبي هريرة ﷺ قال: جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال: «وقد وجدتموه؟» قالوا: نعم. قال: «ذاك صريح الإيمان» أخرجه مسلم (رقم ١٣٢).

وتأمل حكمة القرآن وجلالته كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس، ولم يقل من شر وسوسته لتعم الاستعاذة شره جميعه، فإن قوله: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ﴾ يعم كل شره، ووصفه بأعظم صفاته وأشدها شرًا وأقواها تأثيرًا وأعمها فسادًا، وهي الوسوسة التي هي مبادئ الإرادة، فإن القلب يكون فارغًا من الشر والمعصية فيوسوس إليه، ويخطر الذنب بباله، فيصوره لنفسه، ويمنيه، ويشهيه، فيصير شهوة ويزينها لها، ويحسنها، ويخيلها له في خيال تميل نفسه إليه، فيصير إرادة، ثم لا يزال يمثل ويخيل ويمني ويشهي وينسي علمه بضررها، ويطوي عنه سوء عاقبتها، فيحول بينه وبين مطالعته، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط، وينسى ما وراء ذلك، فتصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتد الحرص عليها من القلب، فيبعث الجنود في الطلب، فيبعث الشيطان معهم مددًا لهم وعونًا، فإن فتروا حركهم، وإن ونوا أزعجهم. كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣]، أي تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا، كلما فتروا أو ونوا أزعجتهم الشياطين وأزتهم وأثارتهم، فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب، وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة وأتم مكيدة، قد رضي لنفسه بالقيادة لفجرة بني آدم، وهو الذي استكبر وأبى أن يسجد لأبيهم، فلا بتلك النخوة والكبر ولا برضاه أن يصير قوادًا لكل من عصى الله، كما قال بعضهم:

عجبت من إبليس في تيهه ... وقبح ما أظهر من نخوته
تاه على آدم في سجدة ... وصار قوادًا لذريته[1]

فأصل كل معصية وبلاء إنما هو الوسوسة، فلهذا وصفه بها لتكون الاستعاذة من

(١) هذان البيتان من بحر السريع، وينسبان إلى أبي نواس المتوفى سنة ١٩٨هـ. وجاء عجز البيت الأول: وخبث ما أظهر من نيته. وذكرهما ابن الجوزي في أخبار الحمقى والمغفلين (ص ٩١) وأبو منصور الثعالبي في التمثيل والمحاضرة (ص ٤٣٧).

شرها، أهم من كل مستعاذ منه، وإلا فشره بغير الوسوسة حاصل أيضًا. فمن شره: أنه لص سارق لأموال الناس. فكل طعام أو شراب لم يذكر اسم الله عليه، فله فيه حظ بالسرقة والخطف.

وكذلك يبيت في البيت إذا لم يذكر فيه اسم الله، فيأكل طعام الإنس بغير إذنهم، ويبيت في بيوتهم بغير أمرهم، فيدخل سارقًا ويخرج مغيرًا، ويدل على عوراتهم فيأمر العبد بالمعصية، ثم يلقي في قلوب الناس يقظة ومنامًا أنه فعل كذا وكذا.

ومن هذا: أن العبد يفعل الذنب لا يطلع عليه أحد من الناس فيصبح والناس يتحدثون به. وما ذاك إلا أن الشيطان زينه له وألقاه في قلبه، ثم وسوس إلى الناس بما فعل، وألقاه إليهم، فأوقعه في الذنب، ثم فضحه به، فالرب تعالى يستره، والشيطان يجهد في كشف ستره وفضيحته، فيغتر العبد ويقول: هذا ذنب لم يره إلا الله، ولم يشعر بأن عدوه ساع في إذاعته وفضيحته، وقل من يتفطن من الناس لهذه الدقيقة. ومن شره أنه إذا نام العبد عقد على رأسه عقد تمنعه من اليقظة.

كما في صحيح البخاري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام: ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة مكانها: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقده كلها، فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»**(١).

ومن شره أنه يبول في أذن العبد حتى ينام إلى الصباح، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه ذكر عنده رجل نام ليله حتى أصبح، قال: **«ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه أو قال: في أذنه»**(٢) رواه البخاري.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١١٤٢) ومسلم (رقم ٧٧٦) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٧) وشرح النووي (٦/ ٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٧٠) ومسلم (رقم ٧٧٤) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٨-٢٩) وشرح النووي (٦/ ٦٣-٦٤).

ومن شره أنه قعد لابن آدم بطرق الخير كلها، فما من طريق من طرق الخير إلا والشيطان مرصد عليه يمنعه بجهده أن يسلكه، فإن خالفه وسلكه ثبطه فيه وعوقه وشوش عليه بالمعارضات والقواطع فإن عمله وفرغ منه قيض له ما يبطل أثره ويرده على حافرته.

ويكفي من شره أنه أقسم بالله ليقعدن لبني آدم صراطه المستقيم.

وأقسم ليأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم.

ولقد بلغ شره أن أعمل المكيدة وبالغ في الحيلة حتى أخرج آدم من الجنة.

ثم لم يكفه ذلك حتى استقطع من أولاده شرطة للنار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين.

ثم لم يكفه ذلك حتى أعمل الحيلة في إبطال دعوة الله من الأرض، وقصد أن تكون الدعوة له، وأن يعبد من دون الله فهو ساع بأقصى جهده على إطفاء نور الله وإبطال دعوته، وإقامة دعوة الكفر والشرك ومحو التوحيد وأعلامه من الأرض. ويكفي من شره أن تصدى لإبراهيم خليل الرحمن حتى رماه قومه بالمنجنيق في النار، فرد الله كيده عليه وجعل النار على خليله بردًا وسلامًا.

وتصدى للمسيح ﷺ حتى أراد اليهود قتله وصلبه، فرد الله كيده، وصان المسيح ورفعه إليه. وتصدى لزكريا ويحيى حتى قتلا.

واستثار فرعون حتى زين له الفساد العظيم في الأرض ودعوى أنه ربهم الأعلى.

وتصدى للنبي ﷺ وظاهر الكفار على قتله بجهده، والله تعالى يكبته ويرده خاسئًا.

وتفلت على النبي ﷺ بشهاب من نار يريد أن يرميه به وهو في الصلاة، فجعل النبي ﷺ يقول: «ألعنك بلعنة الله»(١).

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٥٤٢) وانظر: شرح النووي (٥/ ٣٠).

وأعان اليهود على سحرهم للنبي ﷺ. فإذا كان هذا شأنه وهمته في الشر فكيف الخلاص منه إلا بمعونة الله وتأييده وإعاذته.

ولا يمكن حصر أجناس شره فضلًا عن آحادها، إذا كل شر في العالم فهو السبب فيه، ولكن ينحصر شره في ستة أجناس، لا يزال بابن آدم حتى ينال منه واحدًا منها أو أكثر.

الشر الأول: شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه واستراح من تعبه معه، وهو أول ما يريد من العبد فلا يزال به حتى ينال منه، فإذا نال ذلك صيره من جنده وعسكره واستنابه على أمثاله وأشكاله، فصار من دعاة إبليس ونوابه، فإن يأس منه من ذلك وكان ممن سبق له الإسلام في بطن أمه نقله إلى.

المرتبة الثانية من الشر وهي البدعة، وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي، لأن ضررها في نفس الدين، وهو ضرر متعد، وهي ذنب لا يتاب منه، وهي مخالفة لدعوة الرسل، ودعاء إلى خلاف ما جاءوا به، وهي باب الكفر والشرك، فإذا نال منه البدعة وجعله من أهلها بقي أيضًا نائبه وداعيًا من دعائه، فإن أعجزه من هذه المرتبة وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنة ومعاداة أهل البدع الضلال نقله إلى.

المرتبة الثالثة: من الشر وهي الكبائر على اختلاف أنواعها، فهو أشد حرصًا على أن يوقعه فيها، ولاسيما إن كان عالمًا متبوعًا، فهو حريص على ذلك لينفر الناس عنه، ثم يشيع، من ذنوبه ومعاصيه في الناس ويستنيب منهم من يشيعها ويذيعها تدينًا وتقربًا بزعمه إلى الله تعالى، وهو نائب إبليس ولا يشعر و﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ١٩]. هذا إذا أحبوا إشاعتها وإذاعتها فكيف إذا تولوا هم إشاعتها وإذاعتها لا نصيحة منهم، ولكن طاعة لإبليس ونيابة عنه، كل ذلك لينفر الناس عنه وعن الانتفاع به.

وذنوب هذا ولو بلغت عنان السماء أهون عند الله من ذنوب هؤلاء، فإنها ظلم منه لنفسه إذا استغفر الله وتاب إليه قبل الله توبته وبدل سيئاته حسنات.

وأما ذنوب أولئك فظلم للمؤمنين وتتبع لعورتهم وقصد لفضيحتهم، والله سبحانه بالمرصاد، لا تخفى عليه كمائن الصدور ودسائس النفوس، فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلى.

المرتبة الرابعة: وهي الصغائر التي إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها، كما قال النبي ﷺ: «**إياكم ومحقرات الذنوب، فإن مثل ذلك مثل قوم نزلوا بفلاة من الأرض**»(١) وذكر حديثًا معناه أن كل واحد منهم جاء بعود حطب حتى أوقدوا نارًا عظيمة فطبخوا واشتووا. ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتى يستهين بها، فيكون صاحب الكبيرة الخائف منها أحسن حالًا منه، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى.

المرتبة الخامسة: وهي إشغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب بل عاقبتها فوت الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة وكان حافظًا لوقته شحيحًا به يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب نقله إلي.

المرتبة السادسة: وهو أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل، فيأمره بفعل الخير المفضول ويخصه عليه ويحسنه له إذا تضمن ترك ما هو أفضل وأعلى منه، وقل من يتنبه لهذا من الناس، فإنه إذا رأى فيه داعيًا قويًا ومحركًا إلى نوع من الطاعة لا يشك أنه طاعة وقربة، فإنه لا يكاد يقول إن هذا الداعي من الشيطان، فإن الشيطان لا يأمر بخير، ويرى أن هذا خير،

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٠/ ١٨٧ رقم ٢٠٥٥١) وأحمد (١/ ٤٠٢) والطبراني في الأوسط (٣/ ٧٤ رقم ٢٥٢٩) وفي الصغير (رقم ٩٠٤) وفي الكبير (٦/ ١٦٥ رقم ٥٨٧٢) والروياني (٢/ ٢١٦ رقم ١٠٦٥) والطيالسي (رقم ٤٠٠) وقال المنذري في الترغيب (٣/ ٢١٣ر قم ٣٧٣٠): رواه أحمد ورواته محتج بهم في الصحيح. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٨٩): رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجالهما رجال الصحيح غير عمران بن داور القطان وقد وثق. وحسنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٣٢٩).

فيقول هذا الداعي: من الله وهو معذور، ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين بابًا من أبواب الخير، إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر، وإما ليفوت بها خيرًا أعظم من تلك السبعين بابًا وأجل وأفضل.

وهذا لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفه في قلب العبد يكون سببه تجريد متابعة الرسول ﷺ، وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله وأحبها إليه، وأرضاها له، وأنفعها للعبد، وأعمها نصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين خاصتهم وعامتهم.

ولا يعرف هذا إلا من كان من ورثة الرسول ﷺ ونوابه في الأمة وخلفائه في الأرض. وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك، فلا يخطر بقلوبهم، والله يمن بفضله على من يشاء من عباده.

فإذا أعجزه العبد من هذه المراتب الست وأعى عليه سلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع والتحذير منه وقصد إخماله وإطفائه، ليشوش عليه قلبه، ويشغل بحربه فكره، وليمنع الناس من الانتفاع به، فيبقى سعيه في تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه، لا يفتر ولا يني، فحينئذ يلبس المؤمن لأمة الحرب ولا يضعها عنه إلا الموت. ومتى وضعها أسر أو أصيب، فلا يزال في جهاد حتى يلقى الله.

فتأمل هذا الفصل وتدبر موقعه وعظيم منفعته واجعله ميزانك تزن به الناس وتزن به الأعمال، فإن طلعك على حقائق الوجود ومراتب الخلق والله المستعان وعليه التكلان، ولو لم يكن في هذا التعليق إلا هذا الفصل لكان نافعًا لمن تدبره ووعاه.

وتأمل السر في قوله تعالى: ﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥] ولم يقل في قلوبهم، والصدر هو ساحة القلب وبيته، فمنه تدخل الواردات إليه، فتجتمع في الصدر ثم تلج في القلب فهو بمنزلة الدهليز له، ومن القلب تخرج الأوامر والإرادات إلى

الصدر، ثم تتفوق على الجنود، ومن فهم هذا فهم قوله تعالى: ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فالشيطان يدخل إلى ساحة القلب وبيته فيلقي ما يريد إلقاءه إلى القلب فهو موسوس في الصدر ووسوسته واصلة إلى القلب، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ [طه: ١٢٠]. ولم يقل فيه، لأن المعنى أنه ألقى إليه ذلك وأوصله فيه، فدخل في قلبه.

وقوله تعالى: ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ [الناس: ٦]. اختلف المفسرون في هذا الجار والمجرور بم يتعلق؟ فقال الفراء، وجماعة: هو بيان للناس الموسوس في صدورهم. والمعنى يوسوس في صدور الناس الذين هم من الجن والإنس، أي الموسوس في صدورهم قسمان، إنس وجن، فالوسواس يوسوس للجني كما يوسوس للإنسي.

وعلى هذا القول فيكون من الجنة والناس نصب على الحال لأنه مجرور بعد معرفة على قول البصريين، وعلى قول الكوفيين نصب بالخروج من المعرفة هذه عبارتهم. ومعناها أنه لما لم يصلح أن يكون نعتًا للمعرفة انقطع عنها فكان موضعه نصبًا، والبصريون يقدرونه حالًا أي كائنين من الجنة والناس، وهذا القول ضعيف جدًا لوجوه:

أحدها: أنه لم يقم دليل على أن الجني يوسوس في صدور الجني، ويدخل فيه كما يدخل في الإنسي، ويجري منه مجراه من الإنسي، فأي دليل يدل على هذا حتى يصح حمل الآية عليه.

الثاني: أنه فاسد من جهة اللفظ أيضًا، فإنه قال: الذي يوسوس في صدور الناس، فكيف يبين الناس بالناس. فإن معنى الكلام على قوله يوسوس في صدور الناس الذين هم أو كائنين من الجنة والناس، أفيجوز أن يقال في صدور الناس، الذين هم من الناس وغيرهم، وهذا ما لا يجوز، ولا هو استعمال فصيح.

الثالث: أن يكون قد قسم الناس إلى قسمين: جنة وناس، وهذا غير صحيح، فإن

الشيء لا يكون قسيم نفسه.

الرابع: أن الجنة لا يطلق عليهم اسم الناس بوجه لا أصلًا واشتقاقًا ولا استعمالًا، ولفظهما يأبى ذلك. فإن الجن إنما سموا جنًا من الاجتنان وهو الاستتار، فهم مستترون عن أعين البشر، فسموا جنًا لذلك من قولهم: جنّه الليل وأجنه إذا ستره وأجن الميت إذا ستره في الأرض، قال:

ولا تبـك ميتًـا بعـد ميـت أجنـه ... علـي وعبـاس وآل أبـي بكـر[1]

يريد النبي ﷺ، ومنه الجنين لاستتاره في بطن أمه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾ [القصص: ٢٩]، ومنه المجن لاستتار المحارب به من سلاح خصمه، ومنه الجنة لاستتار داخلها وبالأشجار، ومنه الجُنة بالضم لما يقي الإنسان من السهام والسلاح، ومنه المجنون لاستتار عقله.

وأما الناس فبينه وبين الإنس مناسبة في اللفظ والمعنى، وبينهما اشتقاق أوسط وهو عقد تقاليب الكلمة إلى معنى واحد.

والإنس والإنسان مشتق من الإيناس، وهو الرؤية والإحساس.

ومنه قوله: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩] أي: رآها. ومنه ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦] أي: أحسستموه ورأيتموه فالإنسان سمي إنسانًا لأنه يونس أي يري بالعين، والناس فيه قولان أحدهما: أنه مقلوب من أنس وهو بعيد، والأصل عدم القلب، والثاني: وهو الصحيح أنه من النوس وهو الحركة المتابعة، فسمي الناس ناسًا للحركة الظاهرة والباطنة، كما سمي الرجل حارث وهمام وهما

---

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى الحُطيئة: جرول بن أوس بن مالك العبسي شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، كان هجّاءً عنيفاً، لم يكد يسلم من لسانه أحد، مات سنة ٤٥هـ. والبيت ذكره القرطبي في تفسيره (٤/ ٦٣) والزمخشري في الفائق (٢/ ١٢٣) والخطابي في غريب الحديث (١/ ٣١٨) إلا أنه قال بعد أن ذكره: يريد أبا بكر نفسه. وهو غير المذكور هنا: يريد النبي ﷺ.

أصدق الأسماء، كما قال النبي ﷺ، لأن كل أحد له هم وإرادة، وهي مبدأ، وحرث وعمل هو منتهى، فكل أحد حارث وهمام والحرث والهم حركتا الظاهر والباطن، وهو حقيقة النوس، وأصل ناس نوس تحركت الواو وقبلها فتحة فصارت ألفًا، هذان هما القولان المشهوران في اشتقاق الناس، وأما قول بعضهم إنه من النسيان، وسمي الإنسان إنسانًا لنسيانه.

وكذلك الناس سموا ناسًا لنسيانهم، فليس هذا القول بشيء، وأين النسيان الذي مادته [ن س ى] إلى الناس الذي ماته [ن و س]، وكذلك أين هو من الإنس الذي مادته [ا ن س و]. وكذلك أين هو من الإنس الذي مادته [ا ن س و].

وأما إنسان فهو فعلان من [أ ن س] والألف والنون في آخره زائدتان لا يجوز فيه غير هذه البتة، إذ ليس في كلامهم أنس حتى يكون إنسانًا إفعالًا منه، ولا يجوز أن يكون الألف والنون في أوله زائدتين، إذا ليس في كلامهم انفعل، فيتعين أنه فعلان من الإنس، ولو كان مشتقًا من نسي لكان نسيانًا لا إنسانًا.

فإن قلت: فهلا جعلته إفعلالًا، وأصله إنسيان كليلة إصحيان، ثم حذفت الياء تخفيفًا، فصار إنسانًا.

قلت: يأبى ذلك عدم إفعلال في كلامهم، وحذف الياء بغير سبب ودعوى ما لا نظير له، وذلك كله فاسد.

على أن الناس قد قيل إن أصله الأناس، فحذفت الهمزة فقيل الناس. واستدل بقول الشاعر:

إن المنايا يطلعن على الأناس الغافلينا

ولا ريب أن أناسًا فعالًا، ولا يجوز فيه غير ذلك البتة، فإن كان أصل ناس أناسًا فهو أقوى الأدلة على أنه من أنس، ويكون الناس كالإنسان سواء في الاشتقاق، ويكون وزن ناس على هذا القول عال، لأن المحذوف فاؤه، وعلى القول الأول يكون وزنه فعل، لأنه من النوس.

وعلى القول الضعيف يكون وزنه فلع، لأنه من نسي، فقلبت لامه إلى موضع العين، فصار ناسًا ووزنه فلعًا.

والمقصود: أن الناس اسم لبني آدم، فلا يدخل الجن في مسماهم، فلا يصح أن يكون من الجنة والناس بيانًا لقوله: ﴿ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس: ٥]. وهذا واضح لا خفاء فيه.

فإن قيل: لا محذور في ذلك، فقد أطلق على الجن اسم الرجال، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ [الجن: ٦]. فإذا أطلق عليهم اسم الرجال لم يمتنع أن يطلق عليهم اسم الناس.

قلت: هذا هو الذي غر من قال: إن الناس اسم للجن والإنس في هذه الآية.

وجواب ذلك: أن اسم الرجال إنما وقع عليهم وقوعًا مقيدًا في مقابلة ذكر الرجال من الإنس، ولا يلزم من هذا أن يقع اسم الناس والرجال عليهم مطلقًا.

وأنت إذا قلت إنسان من حجارة أو رجل من خشب ونحو ذلك لم يلزم من ذلك وقوع اسم الرجل والإنسان عند الإطلاق على الحجر والخشب.

وأيضًا فلا يلزم من إطلاق اسم الرجل على الجني أن يطلق عليه اسم الناس، وذلك لأن الناس والجنة متقابلان.

وكذلك الإنس والجن، فالله سبحانه يقابل بين اللفظين كقوله: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وهو كثير في القرآن.

وكذلك قوله: ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ يقتضي أنهما متقابلان، فلا يدخل أحدهما في الآخر بخلاف الرجال والجن، فإنهما لم يستعملا متقابلين، فلا يقال: الجن والرجال، كما يقال الجن والإنس، وحينئذ فالآية أبين حجة عليهم في أن الجن لا يدخلون في لفظ الناس، لأنه قابل بين الجنة والناس، فعلم أن أحدهما لا يدخل في الآخر.

فالصواب القول الثاني، وهو أن قوله: ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ بيان للذي يوسوس.

وأنهم نوعان إنس، وجن، فالجني يوسوس في صدور الإنس، والإنسي أيضًا يوسوس إلى الإنسي، فالموسوس نوعان: إنس وجن، فإن الوسوسة هي الإلقاء الخفي في القلب، وهذا مشترك بين الجن والإنس، وإن كان إلقاء الإنسي ووسوسته إنما هي بواسطة الأذن، والجني لا يحتاج إلى تلك الواسطة، لأنه يدخل في ابن آدم ويجري منه مجرى الدم، على أن الجني قد يتمثل له ويوسوس إليه في أذنه كالإنسي. كما في البخاري عن عروة عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الملائكة تحدث في العنان - والعنان الغمام - بالأمر يكون في الأرض، فتستمع الشياطين الكلمة، فتقرها في أذن الكاهن، كما تقر القارورة، فيزيدون معها مائة كذبة من عند أنفسهم**»[1]. فهذه وسوسة وإلقاء من الشيطان بواسطة الأذن.

ونظير اشتراكهما في هذه الوسوسة اشتراكهما في الوحي الشيطاني، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

فالشيطان يوحي إلى الإنسي باطله ويوحيه الإنس إلى إنسي مثله، فشياطين الإنس والجن يشتركان في الوحي الشيطاني، ويشتركان في الوسوسة.

وعلى هذا فتزول تلك الإشكالات والتعسفات التي ارتكبها أصحاب القول الأول. وتدل الآية على الاستعاذة من شر نوعي الشياطين: شياطين الإنس، والجن.

وعلى هذا القول الأول إنما تكون الاستعاذة من شر شياطين الجن فقط فتأمله، فإنه بديع جدًا. فهذا ما من الله به من الكلام على بعض أسرار هاتين السورتين وله الحمد والمنة، وعسى الله أن يساعد بتفسير على هذا النمط، فما ذلك على الله بعزيز، والحمد لله رب العالمين، ونختم الكلام على السورتين بذكر قاعدة نافعة فيما يعتصم به العبد من الشيطان ويستدفع به شره ويحترز به منه. وذلك عشرة أسباب:

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٨٨) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢٢٠) وشرح النووي (١٤/ ٢٢٦).

أحدها:

الاستعاذة بالله من الشيطان. قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٦]، وفي موضع آخر: ﴿ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وقد تقدم أن السمع المراد به ههنا سمع الإجابة لا مجرد السمع العام. وتأمل سر القرآن كيف أكد الوصف بالسميع العليم بذكر صيغة (هو) الدال على تأكيد النسبة واختصاصها، وعرف الوصف بالألف واللام في سورة (حمٓ) لاقتضاء المقام لهذا التأكيد، وتركه في سورة الأعراف لاستغناء المقام عنه، فإن الأمر بالاستعاذة في سورة (حمٓ) وقع بعد الأمر بأشق الأشياء على النفس، وهو مقابلة إساءة المسيء بالإحسان إليه، وهذا أمر لا يقدر عليه إلا الصابرون، ولا يلقاه إلا ذو حظ عظيم، كما قال الله تعالى.

والشيطان لا يدع العبد يفعل هذا، بل يريه أن هذا ذل وعجز، ويسلط عليه عدوه فيدعوه إلى الانتقام ويزينه له، فإن عجز عنه دعاه إلى الإعراض عنه، وأن لا يسيء إليه ولا يحسن، فلا يؤثر الإحسان إلى المسيء إلا من خالفه، وآثر الله وما عنده على حظه العاجل، فكان المقام مقام تأكيد وتحريض، فقال فيه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

وأما في سورة الأعراف فإنه أمره أن يعرض عن الجاهلين، وليس فيها الأمر بمقابلة إساءتهم بالإحسان، بل بالإعراض، وهذا سهل على النفوس غير مستعصي عليها، فليس حرص الشيطان وسعيه في دفع هذا كحرصه على دفع المقابلة بالإحسان، فقال: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وقدم تقدم ذكر الفرق بين هذين الموضعين وبين قوله في (حم المؤمن). ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]. وفي صحيح البخاري عن عدي بن ثابت عن سليمان بن صرد قال: «كنت جالسًا مع النبي ﷺ ورجلان يستبان، فأحدهما أحمر وجهه

وانتفخت أوداجه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. ذهب عنه ما يجد»(١).

الحرز الثاني:

قراءة هاتين السورتين، فإن لهما تأثيرًا عجيبًا في الاستعاذة بالله من شره ودفعه والتحصن منه. ولهذا قال النبي ﷺ: «ما تعوذ المتعوذون بمثلهما»(٢). وقد تقدم أنه كان يتعوذ بهما كل ليلة عند النوم، وأمر عقبة أن يقرأ بهما دبر كل صلاة وتقدم قوله ﷺ: «إن من قرأهما مع سورة الإخلاص ثلاثًا حين يمسي وثلاثًا حين يصبح كفته من كل شيء»(٣).

الحرز الثالث:

قراءة آية الكرسي، ففي الصحيح من حديث محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: «وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان فأتى آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ. فذكر الحديث، فقال: «إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي ﷺ: «صدقك وهو كذوب، ذاك الشيطان»(٤). وسنذكر - إن شاء الله تعالى - السر الذي لأجله كان لهذه الآية العظيمة هذا التأثير العظيم في التحرز من الشيطان واعتصام قارئها بها في كلام مفرد عليها وعلى أسرارها وكنوزها بعون الله وتأييده.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦١١٥) ومسلم (رقم ٢٦١٠) وانظر: شرح النووي (١٦/ ١٦٣).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٤/ ٤٣٩ رقم ٧٨٤٥) وفي المجتبى (رقم ٥٤٣٢) والشيباني في الآحاد والمثاني (٥/ ٣٥ رقم ٢٥٧٤) والطبراني في ا لكبير (١٧/ ٣٤٢ رقم ٩٤٣) وأحمد (٣/ ٤١٧) والبيهقي في الشعب (٢/ ٥١٧ رقم ٢٥٧٤).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥٧٥) وأبو داود (رقم ٥٠٨٢) والشيباني في الآحاد والمثاني (٥/ ٣٣ رقم ٢٥٧٢) وعبد بن حميد (رقم ٤٩٤).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٣١١) وانظر: فتح الباري (٤/ ٤٨٨-٤٨٩).

الحرز الرابع:

قراءة سورة البقرة، ففي الصحيح من حديث سهل عن عبدالله عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، وأن البيت الذي تقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان»[(١)].

الحرز الخامس:

قراءة خاتمة سورة البقرة، فقد ثبت في الصحيح من حديث أبي مسعود الأنصاري قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»[(٢)].

وفي الترمذي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق الخلق بألفي عام، أنزل منه آيتين، ختم بهما سورة البقرة، فلا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان»[(٣)].

الحرز السادس:

أول سورة حمٓ المؤمن إلى قوله: ﴿ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [غافر: ٣]، مع آية الكرسي في الترمذي من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر عن ابن أبي مليكة عن زرارة بن مصعب عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ: «من قرأ: حمٓ المؤمن إلى: ﴿ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يسمي، ومن قرأهما حين يمسي

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٧٨٠) وانظر: فتح الباري (١/ ٥٢٩-٥٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٠٠٩) ومسلم (رقم ٨٠٧) وانظر: فتح الباري (٩/ ٥٦، ٩٥) وشرح النووي (٢/ ١٥٢-١٥٣).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٢٨٨٢) والحاكم (١/ ٧٥٠ رقم ٢٠٦٥) (٢/ ٢٨٦ رقم ٣٠٣١) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٤٠ رقم ١٠٨٠٢) والدارمي (رقم ٣٣٨٧) وأحمد (٤/ ٢٧٤) والبزار (٨/ ٢٣٦ رقم ٣٢٩٦) والطبراني في الأوسط (٢/ ٩٣-٩٤ رقم ١٣٦٠) وفي الكبير (٧/ ٢٨٥ رقم ٧١٤٦) والبيهقي في الشعب (٢/ ٤٦٠ رقم ٢٤٠٠) حسنه الترمذي وصححه الحاكم، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٣١٢): رواه الطبراني ورجاله ثقات.

حفظ بهما حتى يصبح»[١]. وعبدالرحمن المليكي وإن كان قد تلكم فيه من قبل حفظه، فالحديث له شواهد في قراءة آية الكرسي، وهو محتمل على غرابته.

الحرز السابع:

«**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مائة مرة**». ففي الصحيحين من حديث سمي مولى أبي بكر عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك**»[٢]. فهذا حرز عظيم النفع جليل الفائدة يسير سهل على من يسره الله عليه.

الحرز الثامن:

وهو من أنفع الحروز من الشيطان: كثرة ذكر الله ﷻ، ففي الترمذي من حديث الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال: «**إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات: أن يعمل بها، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وأنه كاد أن يبطئ بها، فقال عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم، وإما أن آمرهم. فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب. فجمع الناس في بيت المقدس فامتلأ وقعدوا على الشرف، فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن: أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وأن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بذهب أو ورق، فقال: هذه داري**

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٨٧٩) والضياء المقدسي في فضائل الأعمال (رقم ٥٣٧) وانظر: تحفة الأحوذي (٦/ ١٤٧-١٤٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٩٣) ومسلم (رقم ٢٦٩١) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٤٣) وشرح النووي (١٧/ ١٨).

وهذا عملي، فاعمل وأدّ إليَّ، فكان يعمل ويؤدي إلىٰ غير سيده، فأيكم يرضىٰ أن يكون عبده كذلك، وأن الله أمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفتوا، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت، وأمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وأمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فأوثقوا يده إلىٰ عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال: أنا أفديه منكم بالقليل والكثير، ففدىٰ نفسه منهم. وأمركم أن تذكروا الله، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعًا، حتىٰ أتىٰ علىٰ حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله» قال النبي ﷺ: «وأنا آمركم بخمس، الله أمرني بهن: السمع، والطاعة، والجهاد، والهجرة، والجماعة، فإن من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، إلا أن يراجع، ومن ادعىٰ دعوىٰ الجاهلية فإنه من جثاء جهنم»، فقال: رجل يا رسول الله وإن صلىٰ وصام قال: «وإن صلىٰ وصام فادعوا بدعوي الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله»(١). قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح. وقال البخاري: الحارث الأشعري له صحبة، وله غير هذا الحديث.

فقد أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث أن العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله، وهذا بعينه هو الذي عليه سورة: قل أعوذ برب الناس فإنه وصف الشيطان فيها بأنه الخناس. والخناس الذي إذا ذكر العبد الله انخنس وتجمع وانقبض، وإذا غفل عن ذكر الله التقم القلب وألقىٰ إليه الوساوس التي هي مبادئ الشر كله فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله ﷻ.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٨٦٣) وابن حبان (١٤/ ١٢٤-١٢٦ رقم ٦٢٣٣) وابن خزيمة (٢/ ٦٤ رقم ٩٣٠) وعبد الرزاق (١١/ ٣٣٩ رقم ٢٠٧٠٩) وأحمد (٤/ ١٣٠) وأبو يعلىٰ (٣/ ١٤٠-١٤١ رقم ١٥٧١) والطبراني في الكبير (٣/ ٢٨٦ رقم ٣٤٢٧) وابن منده في الإيمان (١/ ٣٧٥-٣٧٦ رقم ٢١٢).

الحرز التاسع:

الوضوء والصلاة، وهذا من أعظم ما يتحرز به منه، ولاسيما عند توارد قوة الغضب والشهوة، فإنها نار تغلي في قلب ابن آدم، كما في الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه، فمن أحس بشيء من ذلك فليلصق بالأرض**»[(١)].

وفي أثر آخر: «**إن الشيطان خلق من نار، وإنما تطفأ النار بالماء**»[(٢)]. فما أطفأ العبد جمرة الغضب والشهوة بمثل الوضوء والصلاة، فإنها نار والوضوء يطفئها، والصلاة إذا وقعت بخشوعها والإقبال فيها على الله أذهبت أثر ذلك كله، وهذا أمر تجربته تغني عن إقامة الدليل عليه.

الحرز العاشر:

إمساك فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الناس، فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم، وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة. فإن فضول النظر يدعو إلى الاستحسان ووقوع صورة المنظور إليه في القلب والاشتغال به والفكرة في الظفر به، فمبدأ الفتنة من فضول النظر، كما في المسند عن النبي ﷺ أنه قال: «**النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غض بصره لله أورثه الله حلاوة يجدها في قلبه إلى يوم**

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢١٩١) والحاكم (٤/ ٥٥١ رقم ٨٥٤٣) وعبد الرزاق (١١/ ٣٤٦-٣٤٧ رقم ٢٠٧٢٠) وأحمد (٣/ ٦١) وأبو يعلى (٢/ ٣٥٢-٣٥٣ رقم ١١٠١) والطيالسي (رقم ٢١٥٦) وعبد بن حميد (رقم ٨٦٤) والبيهقي في الشعب (٦/ ٣٠٩-٣١٠ رقم ٨٢٨٩) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود مرفوعاً (رقم ٤٧٨٤) وابن المنذر في الأوسط (١/ ٢٤٠-٢٤١ رقم ١٤٧) والشيباني في الآحاد والمثاني (٢/ ٤٦٤ رقم ١٢٦٧) وأحمد (٤/ ٢٢٦) والطبراني في الكبير (١٧/ ١٦٧ رقم ٤٣٣) والديلمي في الفردوس (٣/ ١١٣ رقم ٤٣١٤).

يلقاه»[(١)]، أو كما قال ﷺ. فالحوادث العظام إنما كلها من فضول النظر، فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة، كما قال الشاعر:

كل الحوادث مبدأها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فتكت في قلب صاحبها ... فتك السهام بلا قوس ولا وتر[(٢)]

وقال الآخر:

وكنت متى أرسلت طرفك رائدًا ... لقلبك يومًا أتبعتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر ... عليه ولا عن بعضه أنت صابر[(٣)]

وقال المتنبي:

وأنا الذي جلب المنية طرفه ... فمن المطالب والقتيل القاتل[(٤)]

ولي من أبيات:

يا راميًا بسهام اللحظ مجتهدًا ... أنت القتيل بما ترمي فلا تصب
وباعث الطرف يرتاد الشفاء له ... توقه إنه يرتد بالعطب
ترجو الشفاء بأحداق بها مرض ... فهل سمعت ببرء جاء من عطب
ومفنيًا نفسه في إثر أقبحهم ... وصفا للطخ جمال فيه مستلب

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/ ١٧٣ رقم ١٠٣٦٢) والقضاعي في الشهاب (١/ ١٩٥ رقم ٢٩٢) والديلمي في الفردوس (٤/ ٢٩٧ رقم ٦٨٧٢) والحكيم الترمذي (١/ ١٩٨) (٣/ ١٨١) وهناد في الزهد (٢/ ٦٥١ رقم ١٤٢٥) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١٠١) والحاكم (٤/ ٣٤٩ رقم ٧٨٧٥) وصححه. قال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٤٣٧ رقم ٢٨٦٤): رواه ا لحاكم وصححه وأقره العراقي وضعفه المنذري. وانظر: الترغيب والترهيب (٣/ ٢٣رقم ٢٩٢٣).

(٢) البيتان ذكرهما الذهبي في الكبائر (ص ٥٩) والبيت الأول ذكره أبو بكر الدمياطي في إعانة الطالبين (٣/ ٢٥٨).

(٣) ذكر البيتين المناوي في فيض القدير (٢/ ٢٤٧) ونسبهما إلى الحارث المحاسبي رحمه الله وكذا ذكره الشنقيطي في أضواء البيان (٥/ ٥١٠).

(٤) هذا البيت من بحر الكامل، وكذا ذكره الشنقيطي في أضواء البيان (٥/ ٥١٠).

وواهبًا عمره في مثل ذا سفهًا   لو كنت تعرف قدر العمر لم تهب
وبائعًا طيب عيش ماله خطر   بطيف عيش من الآلام منتهب
غبنت والله غبنًا فاحشًا فلو اسـ   ـترجعت ذا العقد لم تغبن ولم تخب
وواردًا صفو عيش كله كدر   أمامك الورد صفوًا ليس بالكذب
وحاطب الليل في الظلماء منتصبًا   لكل داهية تدن من العطب
شاب الصبا والتصابي بعد ما يشب   وضاع وقتك بين اللهو واللعب
وشمس عمرك قد حان الغروب لها   والضي في الأفق الشرقي لم يغب
وفاز بالوصل من قد فاز وانقشعت   عن أفقه ظلمات الليل والسحب
كم ذا التخلف والدنيا قد ارتحلت   ورسل ربك قد وافتك في الطلب
ما في الديار وقد سارت ركائب من   تهواه للصب من سكنى ولا أرب
فأفرش الخد ذياك التراب وقل   ما قاله صاحب الأشواق في الحقب
ما ربع مية محفوفًا يطوف به   غيلان أشهى له من ربعك الخرب
ولاالخدود إن أدمين من ضرج   أشهى إلى ناظري من خدك الترب
منازلًا كان يهواها ويألفها   أيام كان منال الوصل عن كثب
فكلما جليت تلك الربوع له   يهوي إليها هوى الماء في صبب
أحيا له الشوق تذكار العهود بها   فلو دعا القلب للسلوان لم يجب
هذا وكم منزل في الأرض يألفه   وما له في سواها الدهر من رغب
ما في الخيام أخو وجد يريحك إن   بثثته بعض شأن الحب فاغترب
وأسر في غمرات الليل مهتديًا   بنفخة الطيب لا بالنار والحطب
وعاد كل أخي جبن ومعجزة   وحارب النفس لأتلقيك في الحرب
وخذ لنفسك نورًا تستضيء به   يوم اقتسام الورى الأنوار بالرتب
فالجسر ذو ظلمات ليس يقطعه   إلا بنور ينجي العبد في الكرب

والمقصود أن فضول النظر أصل البلاء.

وأما فضول الكلام فإنها تفتح للعبد أبوابًا من الشر كلها مداخل للشيطان، فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها، وكم من حرب جرتها كلمة واحدة، وقد قال النبي ﷺ لمعاذ: «وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم»(١). وفي الترمذي أن رجلًا من الأنصار توفي فقال بعض الصحابة: «طوبى له فقال النبي ﷺ: «فما يدريك فلعله تكلم بما لا يعنيه أو بخل بما لا ينقصه»(٢).

وأكثر المعاصي إنما تولدها من فضول الكلام والنظر، وهما أوسع مداخل الشيطان، فإن جارحتيهما لا يملان ولا يسئمان بخلاف شهوة البطن، فإنه إذا امتلئ لم يبق فيه إرادة للطعام وأما العين واللسان فلو تركا لم يفترا من النظر والكلام، فجنايتهما متسعة الأطراف كثيرة الشعب عظيمة الآفات، وكان السلف يحذرون من فضول النظر، كما يحذرون من فضول الكلام، وكانوا يقولون: ما شيء أحوج إلى طول السجن من اللسان.

وأما فضول الطعام فهو داع إلى أنواع كثيرة من الشر، فإنه يحرك الجوارح إلى المعاصي، ويثقلها عن الطاعات وحسبك بهذين شرًا، فكم من معصية جلبها الشبع وفضول الطعام، وكم من طاعة حال دونها، فمن وقي شر بطنه فقد وقي شرًا عظيمًا، والشيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٦١٦) وابن أبي شيبة (٥/ ٣٢٠ رقم ٢٦٤٩٨) وعبدالرزاق (١١/ ١٩٤ رقم ٢٠٣٠٣) والطبراني في الأوسط (٧/ ٢٨٣ رقم ٧٥٠٣) والكبير (٢٠/ ٦٤ رقم ١١٦) وأحمد (٥/ ٢٣١) والبزار (٦/ ٢٧٣ رقم ٢٣٠٢) والطيالسي (رقم ٥٦٠) وعبد بن حميد (رقم ١١٢) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٩٩) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير عمرو بن مالك الجنبي وهو ثقة.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٣١٦) والبيهقي في الشعب (٧/ ٤٢٥ رقم ١٠٨٣٥) وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٥٦)، وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٦/ ٤٩٩): قال في المرقاة: ورجاله رجال الصحيحين إلا سليمان بن عبدالجبار البغدادي شيخ الترمذي، و قد ذكره ابن حبان في الثقات، كذا في الصحيح، انتهى، وقال المنذري في الترغيب (٣/ ٣٤٥ رقم ٤٣٦٧): رواته ثقات، وفي محمد بن يزيد كلام قريب لا يقدح، وهو شيخ صالح.

ولهذا جاء في بعض الآثار: ضيقوا مجاري الشيطان بالصوم. وقال ﷺ: «ما ملأ آدمي وعاء شرًّا من بطن»(١). ولو لم يكن في الامتلاء من الطعام إلا أنه يدعو إلى الغفلة عن ذكر الله ﷻ، وإذا غفل القلب عن الذكر ساعة واحدة جثم عليه الشيطان ووعده ومناه وشهاه وهام به في كل واد. فإن النفس إذا شبعت تحركت وجالت وطافت على أبواب الشهوات، وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلت.

وأما فضول المخالطة فهي الداء العضال الجالب لكل شر، وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة، وكم زرعت عن عداوة، وكم غرست في القلب من حزازات تزول الجبال الراسيات، وهي في القلوب لا تزول. فضول المخالطة فيه خسارة الدنيا والآخرة، وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة. ويجعل الناس فيها أربعة أقسام متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميز بينهما دخل عليه الشر.

أحدها: من مخالطته كالغذاء، لا يستغني عنه في اليوم والليلة، فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة، ثم إذا احتاج إليه خالطه، هكذا على الدوام، وهذا الضرب أعز من الكبريت الأحمر، وهم العلماء بالله وأمره ومكايد عدوه وأمراض القلوب وأدويتها، الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولخلقه، فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كله.

القسم الثاني: من مخالطته كالدواء، يحتاج إليه عند المرض، فما دمت صحيحًا فلا حاجة لك في خلطته، وهم من لا يستغني عن مخالطتهم في مصلحة المعاش وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها، فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم من.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٣٨٠) والحاكم (٤/ ٣٦٧ رقم ٧٩٤٥) وابن حبان (٢/ ٤٤٩ رقم ٦٧٤) والنسائي في الكبرى (٤/ ١٧٧ رقم ٦٧٦٨) وابن ماجه (رقم ٣٣٤٩) والطبري في تهذيب الآثار (٢/ ٧١٨ رقم ١٠٣٧) وأحمد (٤/ ١٣٢) والطبراني في مسند الشاميين (٢/ ٢٩٦ رقم ١٣٧٥) والبيهقي في الشعب (٥/ ٢٨ رقم ٥٦٤٨) وابن المبارك في الزهد (رقم ٦٠٣) وابن أبي الدنيا في إصلاح المال (رقم ٣٥٠) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الحاكم. وحسنه ابن حجر في فتح الباري (٩/ ٥٢٨).

القسم الثالث: وهم من مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه.

فمنهم من مخالطته كالداء العضال والمرض المزمن، وهو من لا تربح عليه في دين ولا دنيا، ومع ذلك فلا بد من أن تخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما، فهذا إذا تمكنت مخالطته واتصلت، فهي مرض الموت المخوف.

ومنهم من مخالطته كوجع الضرس يشتد ضربًا عليك، فإذا فارقك سكن الألم.

ومنهم من مخالطته حمى الروح، وهو الثقيل البغيض العقل، الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها، بل إن تكلم فكلامه كالعصى تنزل على قلوب السامعين، مع إعجابه بكلامه وفرحه به، فهو يحدث من فيه كلمات تحدث ويظن أنه مسك، يطيب به المجلس، وإن سكت فأثقل من نصف الرحا العظيمة، التي لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض.

ويذكر عن الشافعي ـ رحمه الله ـ أنه قال: ما جلس إلى جانبي ثقيل إلا وجدت الجانب الذي هو فيه أنزل من الجانب الآخر.

ورأيت يومًا عند شيخنا ـ قدس الله روحه ـ رجلًا من هذا الضرب، والشيخ يحمله وقد ضعفت القوى عن حمله، فالتفت إليَّ وقال: مجالسة الثقيل حمى الربع، ثم قال: لكن قد أدمنت أرواحنا على الحمى، فصارت لها عادة أو كما قال.

وبالجملة فمخالطة كل مخالف حمى للروح فعرضية ولازمة. ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلى بواحد من هذا الضرب، وليس له بد من معاشرته ومخالطته، فليعاشره بالمعروف حتى يجعل الله له فرجًا ومخرجًا.

القسم الرابع: من مخالطته الهلك كله، ومخالطته بمنزلة أكل السم، فإن اتفق لآكله ترياق وإلا فأحسن الله فيه العزاء وما أكثر هذا الضرب في الناس لا كثرهم الله، وهم أهل البدع والضلالة الصادون عن سنة رسول الله ﷺ، الداعون إلى خلافها،

الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا، فيجعلون البدعة سنة والسنة بدعة، والمعروف منكرًا والمنكر معروفًا، إن جردت التوحيد بينهم قالوا: تنقصت جناب الأولياء والصالحين، وإن جردت المتابعة لرسول الله ﷺ قالوا: أهدرت الأئمة المتبوعين. وإن وصفت الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير غلو ولا تقصير قالوا: أنت من المشبهين.

وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر قالوا: أنت من المفتنين. وإن اتبعت السنة وتركت ما خالفها قالوا: أنت من أهل البدع المضلين. وإن انقطعت إلى الله ـ تعالى ـ وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا قالوا: أنت من الملبسين. وإن تركت ما أنت عليه واتبعت أهواءهم فأنت عند الله من الخاسرين وعندهم من المنافقين، فالحزم كل الحزم التماس مرضات الله تعالى ورسوله بإغضابهم، وأن لا تشتغل بإعتابهم ولا باستعتابهم، ولا تبالي بذمهم ولا بغضهم، فإنه عين كمالك كما قال:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص ... فهي الشهادة لي بأني فاضل(١)

وقال آخر:

وقد زادني حبًا لنفسي أنني ... بغيض إلى كل امرئ غير طائل(٢)

فمن كان بواب قلبه وحارسه من هذه المداخل الأربعة التي هي أصل بلاء العالم،

---

(١) هذا البيت من بحر الكامل، وينسب إلى المتنبي، وفيه: (بأني كامل) بدل: (فاضل) ذكره أبو منصور الثعالبي في التمثيل والمحاضرة (ص ١٥٤) وابن كثير في البداية والنهاية (١١/ ٢٥٨) وابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب (٣/ ٢٨٢).

(٢) هذا البيت من بحر الطويل وينسب إلى الطرماح بن حكيم، شاعر إسلامي فحل، اعتنق مذهب الأزارقة من الخوارج، مات سنة ١٢٥هـ. وذكر البيت أبو بكر الأصبهاني في الزهرة (٢/ ٦٢٧) والثعالبي في التمثيل والمحاضرة (ص ٩٦) والمناوي في فيض القدير (٦/ ٤٥٤) والزمخشري في الفائق (٢/ ٣٧٠).

وهي فضول النظر والكلام والطعام والمخالطة، واستعمل ما ذكرناه من الأسباب التسعة التي تحرزه من الشيطان، فقد أخذ بنصيبه من التوفيق، وسد على نفسه أبواب جهنم، وفتح عليها أبواب الرحمة، وانغمر ظاهره وباطنه، ويوشك أن يحمد عند الممات عاقبة هذا الدواء، فعند الممات يحمد القوم التقى، وفي الصباح يحمد القوم السرى، والله الموفق لا رب غيره ولا إله سواه.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الناس

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

كلمة لابد منها*

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، الذي بلغ البلاغ المبين، وأرشد السائرين، وأنار السبيل، وأوضح المحجة وأقام الحجة، اللهم صلِّ وسلِّم وبارك عليه وعلىٰ آله وصحبه ومن اقتفىٰ أثره إلىٰ يوم الدين.

أما بعد:

فيقول الله تعالىٰ: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٤]. وقال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»(١).

وقال أيضًا ﷺ: «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علمًا علمه ونشره، وولدًا صالحًا تركه...»(٢).

وغير خاف ما لابن القيم ـ رحمه الله ـ من جهود مباركة، ووقفات سديدة رشيدة، وغوص في بحور الأحاديث والآيات، ينتقي درر المعاني وجواهر الدلالات، ولما كان هذا الكنز الدفين حول تفسير كلام رب العالمين مبثوثًا في بطون كتب هذه الإمام

(*) هذه الكلمة كتبت للطبعة الأولىٰ سنة ١٤١٥هـ عندما عملت في هذا الكتاب مصححًا ومدققًا لغويًا فقط. أما هذه الطبعة المحققة فقد صنعت حواشيها كلها بجهدي الفردي الخاص ولم يشاركني بحمد الله أحد في حاشية واحدة، وهذا فضل الله عليَّ ومنته ﷻ وكذلك في جميع تحقيقاتي وتأليفاتي لم أستعن بأحدٍ كائنًا ما كان، وهذا من باب التحدث بنعمة الله ﷻ، فهو المان بفضله وحده لا شريك له أما الحواشي التي كانت في الطبعة الأولىٰ فقد حذفتها كلها إلا ما كان مذيلًا بحرف (ج) لأنها من صنع فضيلة الشيخ الصالحي رحمه الله.

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٦٣١).

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ٢٤٢) وحسنه المنذري والألباني، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (رقم ٧٤).

الرباني والعلامة السلفي، وكان من العسير على طالب العلم الوقوف عليها كلها أو أكثرها والاسترشاد بها، وظلت هذه الفوائد والأبحاث والفرائد ردحًا من الزمن لا يطلع عليها كثير من الناس، فقد قيض الله ﷻ لانجاز هذا العمل، وإخراج هذه المكنونات وجمع شتاتها ولم شعثها وتأليف مبعثرها في سلك واحد، وانتظامها في عقد بديع طريف فريد، ألا وهو الشيخ الفاضل علي الحمد المحمد الصالحي ـ غفر الله له ورحمه رحمة واسعة ـ فقد عكف الشيخ على مؤلفات ابن القيم أكثر من خمس عشرة سنة يقرأ وينقب ويلتقط ويجمع كل شاردة وواردة، ويرتب ويضع كل بحث في موضعه من السورة على حسب ترتيب المصحف، فكان هذا المجموع الذي بين يديك ـ أيها القارئ الكريم ـ كما تراه في ثوب قشيب وحلة زاهية.

ومما ينبغي التنبيه عليه ولفت النظر إليه أن أكثر حواشي الكتاب من التعليقات والتخريجات ليست من صنيع الشيخ ـ رحمه الله ـ بل هو أخذها ممن حققوا وعلقوا على كتب ابن القيم من الطبعات التي أشار إليها الشيخ في المقدمة، فإذا كان للشيخ ـ رحمه الله ـ تعليق أو حاشية كتب في نهايتها (ج) دلالة عليه.

ومما ينبغي أن يشار إليه أيضًا أن الشيخ ـ رحمه الله ـ وقد كان كبر سنه وأدركته الشيخوخة فكان كلما وقف على بحث أو فائدة أو نادرة صورها من هنا ومن هناك وكان في بعض الأحيان يختلط عليه الأمر، فينسى أن يعزو بعض ما نقله إلى مصدره، فقد تجد أيها القارئ الكريم نقلًا ثم لا تجد عزوه في الحاشية، فهذا إما نسيان من الشيخ أو خطأ غير مقصود.

وممن شارك معنا في إنجاز هذا العمل الأخ أبو عبد الرحمن عزت الروبي والأخ أبو عبد الله فكري محمود ـ حفظهما الله ـ وكان الشيخ علي بين الحين والآخر يتابع معنا حتى أخرجنا الجزءين الأول والثاني إلى حيز الوجود وانشرح صدر الشيخ وقرت عينه برؤية ثمرة جهوده، ولكن المرض ظل يعاود الشيخ بين الفينة والأخرى فأسند الشيخ إليَّ عمل فهارس الكتاب: الأجزاء الأربعة المتبقية وعندما انتهينا من الجزئين الثالث

والرابع وراجعهما الشيخ ووقع على الموافقة بالطباعة، ولما كان الجزءان في المطبعة أوشكا على الانتهاء كان الشيخ يعاني من آلام المرض وسكرات الموت وغربت شمس حياته في يوم الأربعاء: ٢١/ ٥/ ١٤١٥هـ.

وانتهينا من الجزءين الخامس والسادس بعد وفاة الشيخ وقد أصبح رهين اللحد عند رب رحيم، فعسى أن يكون هذا العمل له نورًا وبرهانًا وفوزًا وفلاحًا في يوم يجزي الله الصادقين بصدقهم، سائلين الله ﷻ للشيخين الفاضلين ابن القيم وعلي الصالحي أن يتغمدهما بوافر رحمته وعميم كرمه وجوده وإحسانه وأن يحشرنا وإياهما في زمرة رسوله الأمين محمد بن عبد الله ﷺ، كما نسأله ـ سبحانه ـ أن ينفعنا بما علمنا، ويعلمنا ما ينفعنا، ويرزقنا العمل بالعلم النافع وأن يختم لنا ولكم بخاتمة الخير والسعادة، ويوفقنا إلى محبته ومرضاته، إنه ولي ذلك والقادر عليه. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبها

صبري بن سلامة شاهين

مكتبة دار السلام بالرياض

في اليوم الثاني من شهر رجب ١٤١٥هـ

خاتمة هذه الطبعة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، فلقد وفقني ربي وأعانني على الانتهاء من عملي هذا في هذا الكتاب المبارك تحقيقًا ومراجعة وتدقيقًا في يوم الثلاثاء يوم الحج الأكبر عيد الأضحى المبارك ١٠/ ١٢/ ١٤٣١ الموافق ١٦/ ١١/ ٢٠١٠م.

بمدينة الرياض راجيًا الله ﷻ ـ وهو المان بفضله ـ أن يتقبله بقبول حسن وأن ينفع به كل من قام به، وأن يجعله من العلم النافع والعمل الصالح والذكر الجميل لنا جميعًا في الدارين، وأن يحشرنا تحت لواء سيد الأولين والآخرين وأن يدخلنا جنة النعيم، ويرينا وجهه الكريم ويشملنا بعفوه وكرمه وجوده وإحسانه ويفيض علينا برضوانه فإنه أهل لذلك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

❁❁❁

الفهـــرس

الصفحة الموضـــوع

سُورَةُ المنَافِقُونَ

٥ بحث عن طبقة الزنادقة من هم؟ وما حكمهم؟
٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾.
٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾.
٩ بحث عن العزة ولمن تكون؟
١٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾.

سُورَةُ التَّغَابُنِ

١٢ بحث في الطمأنينة إلى أسماء العرب ـ تعالى ـ وصفاته نوعان.
١٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾.
١٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾.
١٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾.

سُورَةُ الطَّلَاقِ

١٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾.
١٦ بحث في معنى التوكل والاستعانة.
١٨ جعل الله لكل عمل جزاء، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده.
٢٠ فصل في الفرق بين التوكل والعجز.

الصفحة الموضوع
٢٢ فصل في عدة الآيسة والتي لم تحض.
٢٩ فصل في أن عدة الوفاة تجب بالموت، سواء داخل بها أو لم يدخل اتفاقًا.
٣٠ فصل في عدة الطلاق.
٣٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾.
٣٥ بحث في جواز إجارة الظئر.
٣٦ فصل في فتواه ﷺ في نفقة المعتدة وكسوتها.
٣٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾.
٣٩ بحث في أن طلب العلم والبحث عنه من عمل القلب والجوارح وهو من أهم الأعمال.

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

٤١ بحث في حكم رسول الله ﷺ الذي بينه عن ربه فيمن حرم أمته أو زوجته أو متاعه.
٤١ بحث حول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾.
٤٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.
٤٥ بحث في وجوب تأديب الأولاد وتعليمهم والعدل بينهم.
٤٨ فصل في حقوق الأولاد والعدل بينهم في العطاء والمنع.
٥٠ بحث في أن الطفل يحتاج إلى الرعاية والعناية بأمر تنشئته وتربيته.
٥٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾.
٥٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾.

الصفحة الموضوع
٥٦ تفسير قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ الآيات.
٥٧ بحث عن المقصود من خيانة امرأة نوح وامرأة لوط.
٦٠ بحث عن المثلين اللذين للمؤمنين: امرأة فرعون ومريم ابنة عمران.

سُورَةُ المُلْكِ

٦٢ بحث حول معنى البركة وقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾.
٦٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾.
٦٦ اعتراف العبد بقيام حجة الله عليه من لوازم الإيمان سواء أطاع أم عصى.
٦٧ بحث حول وصف أهل النار بالجهل، وأنه ـ سبحانه ـ سد عليهم طرق العلم.
٦٧ حسن التوحيد وقبح الشرك مستقر في الفطر معلوم بالعقول، ولو لم يكن كذلك فلا وثوق بشيء من قضايا العقل.
٦٨ الأدلة على قبح الشرك والكفر.
٦٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.
٧١ بحث في أن الله نبه على إثبات صفاته وأفعاله بطريق المعقول فاستيقظت لتنبيهه العقول الحية.
٧٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾.
٧٤ بحث في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.
٧٤ بحث في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾.

سُورَةُ القَلَمِ

٧٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾.
٧٦ بحث في أن الحرف الذي به تكون المخلوقات شأنه أعلى وأجل.

الصفحة الموضـــوع

٧٨ بحث في الأقلام وأقسامها ورتبها وتفاوتها.
٨٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ﴾.
٨٦ عود على قوله تعالى: ﴿ نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴾ الآيات.
٨٧ بحث في أن الخير بمجموعه ثمرة شجرة العلم والشر بمجموعه ثمرة شجرة الجهل.
٨٨ بحث في أن العقل عقلان: عقل غريزة وعقل مكتسب.
٨٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴾.
٨٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ﴾.
٩١ بحث في أن المداراة صفة مدح والمداهنة صفة ذم.
٩١ بحث في قوله تعالى: ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾.
٩٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ١٧ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ﴾.
٩٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾.
٩٢ أنكرسبحانه على من يسوي بين المختلفين كما في قوله: ﴿ أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾.
٩٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ ﴾.
٩٦ الإجابة عن سؤال كيف يمتحن البعض في الآخرة وهي ليست دار تكليف؟!
٩٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾.
٩٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴾.
٩٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ ﴾.
١٠٠ العلاج النبوي من العين.
١٠٢ الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد عن المحسود وهي عشرة.
١٠٥ بحث في أن الله أخبر عن القرآن بأنه ذكر للعالمين وتذكرة للمتقين.

الصفحة الموضوع

سورة الحاقة

١٠٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾.
١٠٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾.
١٠٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾.
١١١ مناظرة بين العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ وبين بعض اليهود.
١١٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴾ الآيات.
١١٥ القول بأن الله لو شاء لأنساك القرآن وقطع عنك الوحي أقوى من الأول لوجوه.
١١٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴾.
١٢٠ بحث في مراتب اليقين الثلاث: حق اليقين وعلم اليقين وعين اليقين.
١٢١ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾.
١٢٢ بحث في الفائدة من دخول الباء في قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ وعدم دخولها في قوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾.

سورة المعارج

١٢٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ الآيات.
١٢٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴾ الآيات.
١٢٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴾.
١٢٧ بحث في الأدب وبيان أنه الدين كله.
١٣٠ بحث في أن الله نبه الإنسان على مبدأ خلقه الضعيف من الماء المهين، ثم نقله في أطباق خلقه وأطواره.

الصفحة الموضـوع

١٣٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴾.
١٣٢ فصل في أن الله أخبر عن قدرته على تبديلهم بخير منهم تارة وتبديل أمثالهم
١٣٥ فصل في قيام حجة الله على العباد وقطع عنهم المعذرة، فقال سبحانه: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾.
١٣٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾.
١٣٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾

سُورَةُ نُوحٍ

١٣٨ بحث في أن أعظم الظلم والجهل أن تطلب من الناس توقيرك وقلبك خال من توقير الله وتعظيمه.
١٤١ بحث في أن الخوف مستلزم للرجاء، وكذلك الرجاء مستلزم للخوف.
١٤٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾.
١٤٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴾.
١٤٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾.
١٤٥ بحث في بعض الأصنام التي كانت تعبد من دون الله.

سُورَةُ الجِنِّ

١٤٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ... ﴾.
١٤٨ بحث عن الطبقة الثامنة عشرة: طبقة الجن وأن منهم المؤمن والكافر والبر والفاجر.
١٥٠ هل يدخل مؤمنو الجن الجنة ويدخل المسيء منهم النار أم لا؟.
١٥٠ هل الجن مكلفون بشرائع الأنبياء أم لا؟.

الصفحة الموضوع
١٥٢ مذاهب الناس في أحكام الجن في الدنيا والصواب في ذلك.
١٥٥ الأدلة على تكليف الجن بالأوامر والنواهي.
١٦٣ عود على إثبات أن مؤمني الجن في الجنة.

سُورَةُ الْمُزَّمِّلِ

١٦٩ بحث عن قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾.
١٧٠ بحث عن ناشئة الليل وبيان المقصود بذلك.
١٧١ بحث عن قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾.
١٧٢ ذكر المشرق والمغرب بلفظ الإفراد في سورة المزمل.
١٧٣ بحث في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا ...﴾.

سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ

١٧٤ فصل في تريب الدعوة وبيان مراتبها.
١٧٤ بحث في ترتيب سياق هديه ﷺ مع الكفار والمنافقين.
١٧٤ فصل في مبعثه ﷺ وأول ما نزل عليه.
١٧٦ بحث في بيان أن أكمل الخلق عند الله من كمل مراتب الجهاد.
١٧٦ سئل ﷺ متى وجبت لك النبوة؟.
١٧٨ كمل الله ـ سبحانه ـ لرسوله ﷺ من مراتب الوحي مراتب عديدة.
١٧٩ بحث في قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾.
١٨١ بحث في طهارة القلب أدرانه وأنجاسه.
١٨٥ بحث في إخباره ـ سبحانه ـ بأن عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر.
١٨٥ بحث في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

الصفحة الموضــــوع

١٨٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ الآيات.
١٨٦ فصل في إقسامه سبحانه بـ﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴾.
١٨٩ بحث في إقسام الله سبحانه بـ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ .
١٩٢ بحث في أن الله ـ سبحانه ـ صرف الآيات الدالة على صدق رسله ونوعها.
١٩٤ فصل في أن لله على العبد في كل عضو من أعضائه أمر، وعليه فيه نهي.
١٩٤ بحث في بيان أن إضاعة الوقت يدعو إلى درك النقيصة.
١٩٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴾ .
١٩٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾.

سُورَةُ القِيَامَةِ

١٩٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾.
١٩٨ بحث في كلام الناس حول الأنفس الثلاث: مطمئنة ولوامة وأمارة.
٢٠٠ بحث في بيان المقصود من النفس اللوامة.
٢٠٤ بحث في إنكار الرب سبحانه على الإنسان ظنه وحسبانه أن الله لا يجمع عظامه.
٢٠٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾.
٢٠٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾.
٢١١ من أسرار هذه السورة أن جمع الله لأوليائه بين جمال الظاهر والباطن.
٢١٢ ومن أسرارها أيضًا إثبات قدرة الرب سبحانه على ما علم أنه لا يكون ولا يفعله.
٢١٣ بحث في ذم الله سبحانه من يؤثر العاجلة على الآجلة.
٢١٣ ومن أسرارها أيضًا أنها تضمنت التأني والتثبت في تلقي العلم.
٢١٤ ومن أسرارها أيضًا إثبات النبوة والمعاد يعلم بالعقل.
٢١٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً ﴾.

الصفحة الموضوع

سُورَةُ الإِنسَانِ

٢١٦ بحث في أن من نصر هواه فسد عقله ورأيه.
٢١٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾.
٢١٧ بحث في أين يشوى اللحم في الجنة وليس فيها نار؟
٢١٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴾.
٢٢٠ بحث في ذكر خدم أهل الجنة وغلمانهم.
٢٢٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾.
٢٢٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾.
٢٢٥ قاعدة: للعبد بين يدي الله موقفان: موقف في الصلاة وموقف يوم القيامة.
٢٢٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾.

سُورَةُ المُرْسَلَاتِ

٢٢٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴾ الآيات.
٢٣٠ بحث في أن موقع القسم في هذه السورة على المعاد والحياة الدائمة الباقية.
٢٣٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾.

سُورَةُ النَّبَإِ

٢٣٢ فائدتان للنوم.
٢٣٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾.
٢٣٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾.
٢٣٣ معنى قوله تعالى: ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾.
٢٣٣ بحث في بيان الأدلة على حشر الوحوش.

الصفحة الموضوع

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

٢٣٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا ﴾ الآيات.
٢٣٥ اختلاف الناس في معنى النازعات.
٢٣٧ بحث في قسم الرب سبحانه بطوائف الملائكة وأصنافهم.
٢٣٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبْقًا ﴾.
٢٤٠ بحث في أن الملائكة موكلة بالعالم العلوي والسفلي.
٢٤٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾.
٢٤٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾.
٢٤٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ۝٢٦ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾.
٢٤٦ بحث في اتفاق السالكين إلى الله على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الله.
٢٤٧ بحث في اختلاف الناس في معنى النفس.
٢٤٨ بحث في بيان اعتناء القرآن والسنة بذكر الشيطان وكيده ومحاربته أكثر من ذكر النفس.
٢٤٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ ...﴾.
٢٤٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾.
٢٥٠ بحث في بيان أن أعدى عدو للمرء شيطانه وهواه.
٢٥١ بحث في أن الله لم يجعل طريقًا للجنة غير مخالفة الهوى.
٢٥١ كتاب لعسر الولادة.

سُورَةُ عَبَسَ

٢٥٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴾.
٢٥٤ بحث في أن الله سبحانه دعا عباده إلى الفكر فيه وفي صفاته وقدرته وحكمته وآياته.

الصفحة الموضوع

٢٥٥ بحث في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾.
٢٥٦ بحث في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ الآيات.

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

٢٥٧ بحث في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾.
٢٥٧ بحث في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾.
٢٥٨ بحث في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ ...﴾.
٢٦١ فصل في الاختلاف في عسعسة الليل.
٢٦٢ فصل في المقصود بـ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ من الرسول هنا؟
٢٦٤ بحث في الثناء على جبريل عليه السلام ووصفه بأجل الصفات.
٢٦٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾.
٢٦٥ بحث في تنزيه رسول الله ﷺ فقال سبحانه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾.
٢٦٦ بحث في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾.
٢٦٨ بحث في قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾.
٢٦٩ فصل في بيان أن القرآن ذكر للعالمين وتذكرة للمتقين.
٢٧٠ بحث في قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾.
٢٧٠ بحث في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.
٢٧٠ بحث في الرد على الجبرية والقدرية.

سُورَةُ الانفِطَارِ

٢٧٣ بحث في أن العبد الموحد إذا أذنب دعا له الملك واستغفر له حملة العرش.
٢٧٣ بحث في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ﴾.

الصفحة الموضـوع

٢٧٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝ ﴾.

٢٧٥ قلوب أهل البدع والمعرضين وأهل الغفلة والمعاصي في جحيم قبل الجحيم الأكبر.

٢٧٦ بحث في أن يوم المعاد الأكبر يوم مظهر الأسماء والصفات وأحكامها.

سُورَةُ المُطَفِّفِينَ

٢٧٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾.

٢٧٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾.

٢٧٩ بحث في بيان الحجب التي تحجب العبد عن ربه ﷻ.

٢٨٠ بحث في بيان العناصر التي تنشأ هذه الحجب.

٢٨١ بحث في قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾.

٢٨٢ بحث في بيان أن أفضل النعيم النظر إلى وجه الرب ﷻ وسماع كلامه.

٢٨٤ بحث في إثبات أن المعاصي تضعف الإيمان، كما أن الحسنات تزيد نور القلب.

٢٨٥ بحث في إثبات الفوائد من تجنب القبائح.

٢٨٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ الآيات.

٢٨٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴾.

٢٨٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾.

٢٨٩ بحث بيان الفرق بين المنافسة والحسد.

سُورَةُ الانْشِقَاقِ

٢٩٢ بحث في إقسامه تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴾.

٢٩٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾.

٢٩٦ بحث في بيان أن الخطاب للإنسان أو لجملة الناس فمعناه واحد.

٢٩٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الآيات.

الصفحة الموضوع

سُورَةُ البُرُوجِ

٢٩٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾.
٣٠٠ بحث في تنويع الخليقة إلى شاهد ومشهود.
٣٠١ بحث في قوله تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾.
٣٠٣ بحث في بيان الرب ـ سبحانه ـ يفرح بتوبة عبده ورجوعه إليه.
٣٠٤ بحث في بيان أن الله يجازي أولياء المؤمنين بالحسنى ويعاقب أعداءه بشدة بطشه.
٣٠٥ بحث في اسم الله ـ تعالى ـ الودود.
٣٠٥ بحث في قول تعالى: ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴾.
٣٠٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾.
٣٠٨ بحث في بيان أن هذه السورة اشتملت على التوحيد وأصول الدين.
٣٠٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ۝ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾.
٣٠٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴾.

سُورَةُ الطَّارِقِ

٣١١ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴾.
٣١٢ فصل في بيان حال النفس الإنسانية والاعتناء بها وإقامة الحفظة عليها.
٣١٤ بحث في بيان دلالة القرآن على إثبات المعاد بما يراه الإنسان من مبدئه.
٣١٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ الآيات.
٣١٦ تفسير معنى الترائب.
٣١٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴾.
٣١٦ عود على تفسير قوله: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾.
٣١٩ بحث في قسم الرب سبحانه بـ ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴾.
٣٢٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴾ .

الصفحة المـــوضـــوع

سُورَةُ الأَعْلَىٰ

٣٢٢ بحث في بيان مراتب الهداية.
٣٢٤ بحث في بيان ماهية الهداية.
٣٢٦ بحث في بيان مراتب الهدىٰ والضلال المقدور للخلق وغير المقدور.
٣٢٦ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ الآيات.
٣٢٨ بحث في بيان أن الرغبة في الآخرة لا تتم إلا بالزهد في الدنيا.

سُورَةُ الغَاشِيَةِ

٣٣٠ بحث في بيان الحكمة من خلق الجبال ومنافعها.
٣٣٢ بحث في بيان الله ﷻ دعا عباده إلىٰ النظر في خلق الإبل والسماء والجبال.
٣٣٤ فصل في بيان الحكمة أن جعل الله من الأرض السهل والوعر والجبال والرمل.
٣٣٥ بحث في بيان سبب حدوث الزلازل.

سُورَةُ الفَجْرِ

٣٣٦ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ الآيات.
٣٣٨ بحث في بيان المقصود بالوتر والشفع.
٣٤٠ بحث في بيان تغاير صورة الابتلاء بين نعمة ونقمة.
٣٤٠ بحث في بيان علامات السعادة وعلامات الشقاء.
٣٤١ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾.
٣٤٢ بحث في بيان مجيء الرب ﷻ.
٣٤٤ بحث في بيان هل الروح والنفس شيء واحد أو شيئان متغايران؟.
٣٤٧ بحث في أن الله جعل الطمأنينة في قلوب المؤمنين ونفوسهم.
٣٤٧ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ...﴾.

الصفحة الموضوع

٣٥٠ بحث في الرضا وبيان مرتبته ومنزلته من الدين.
٣٥١ بحث في بيان أن الناس على جناح السفر إلى الله والدار الآخرة.

سُورَةُ الْبَلَدِ

٣٥٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴾.
٣٥٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴾.
٣٥٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ﴾.
٣٥٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ﴾.
٣٥٧ بحث في بيان أن الله أحق بالرؤية وأولى من الإنسان الذي أمده بعينين يبصر بهما.
٣٥٧ بحث في بيان أصول الإيمان التي تقوم بها الحجة على العباد.
٣٥٨ بحث في بيان أن الناس قسمان: ناج وهالك.
٣٥٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴾.
٣٦٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾.
٣٦٠ بحث في اختلاف الناس في معنى العقبة.

سُورَةُ الشَّمْسِ

٣٦٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾ الآيات.
٣٦٣ بحث في القسم بالنفس وما سواها وألهمها فجورها وتقواها.
٣٦٤ بحث في تزكية النفس.
٣٦٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾.
٣٦٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾.
٣٦٩ بحث في بيان أن عقوبة المعصية أن تصغر النفس وتقمعها.
٣٧٠ فصل في بيان أن الله ـ سبحانه ـ هو الذي يلهم العبد فجوره وتقواه.
٣٧١ الحكمة في ذكر قوم ثمود في هذه السورة دون غيرها من الأمم المكذبة.

الصفحة الموضـــوع

سُورَةُ اللَّيْلِ

٣٧٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾.
٣٧٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾ الآيات.
٣٧٥ بحث في بيان ما ضمنه الله سبحانه لعباده المتقين.
٣٧٧ بحث في بيان قوى النفس الثلاث، وأن بصلاحها تسعد وبفسادها تشقى.
٣٧٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴾.
٣٧٨ بحث في بيان أن التيسير للعسرى يكون بأمرين.
٣٧٩ بحث في بيان فصل الخطاب في مسألة القدر.
٣٨٢ الإجابة عن سؤال من يسر للعبد أسباب الخير والشر؟
٣٨٢ بحث في بيان أن سبق المقادير بالشقاوة والسعادة لا يقتضي ترك الأعمال بل يقتضي الاجتهاد والحرص.
٣٨٥ بحث في بيان أن الله فطر العباد على الحرص على الأسباب التي فيها سعادتهم في الدنيا والآخرة.
٣٨٦ الرد على سؤال: لم جعل الله هذا العبد لا يليق به إلا الكرامة وذاك العبد لا يليق به إلا الإهانة؟!
٣٨٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ۝ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ﴾.
٣٨٨ بحث في بيان حقيقة الهدى التام وما يتضمنه.
٣٨٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۝ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾.

سُورَةُ الضُّحَىٰ

٣٩١ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾.
٣٩٢ الرد على من فهم من قوله تعالى: ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾ أن رسول الله ﷺ لا يرضى أن يكون في النار أحد من أمته.

الصفحة الموضوع
٣٩٣ الرد على من يغتر ببعض النوافل التي يفهم مغفرة الذنوب كصوم يوم عاشوراء أو يوم عرفة وغيرها.
٣٩٦ بحث في بيان أن عقل رسول الله ﷺ أكمل عقول أهل الأرض قاطبة.
٣٩٦ بحث في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾.
٣٩٧ بحث في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾.
٣٩٨ الفرق بين التحدث بالنعمة والفخر بها.
٣٩٨ بحث في الثناء على المنعم.

سُورَةُ الشَّرْحِ

٤٠٠ بحث في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾.
٤٠١ الدليل على مشروعية الصلاة على النبي ﷺ في الخطبة.
٤٠٣ الحكمة في ورود لفظ السلام معرفًا بالألف واللام.
٤٠٣ مقامات رد السلام.

سُورَةُ التِّينِ

٤٠٥ بحث في قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾.
٤٠٨ بحث في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.
٤٠٨ ترجيح القول بأن أسفل سافلين أنه النار من وجوه.
٤١٠ بحث في قوله تعالى: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.
٤١٣ بحث في قوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾.
٤١٥ بحث في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

الصفحة الموضـوع

سُورَةُ العَلَق

٤١٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾.
٤١٧ بحث في بيان نعمة الله على الإنسان بالبيانين: النطقي والخطي.
٤١٨ بحث في بيان أن الخلل الداخل على الإنسان في دينه ودنياه منشأه النسيان.
٤١٨ بحث في بيان نعم الله في التعليم بالقلم.
٤١٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾.
٤٢٠ بحث في وجوب الحذر مهما بلغ العبد من الطاعة.
٤٢١ بحث في قوله تعالى: ﴿ لَنَسۡفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ﴾.

سُورَةُ القَدر

٤٢٣ بحث في ليلة القدر هل هي في رمضان أم في غيره وهل هي باقية إلى يوم القيامة أم لا؟ وماذا يقال فيها؟

سُورَةُ البَيِّنَة

٤٢٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾.
٤٢٧ بحث في بيان إخلاص النية.
٤٢٨ بحث في إخلاص العمل من الشرك والرياء.

سُورَةُ الزَلزَلة

٤٣٠ إذا غصب مال واستعمل في طاعة هل ثواب العمل يعود على صاحب المال أم على الغاصب؟
٤٣١ بحث في قوله: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾.

الصفحة الموضوع

سُورَةُ العَادِيَاتِ

٤٣٣ بحث في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾.
٤٣٨ بحث في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾.
٤٣٩ بحث في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾.
٤٣٩ بحث في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾.
٤٤٠ بحث في ذم الله سبحانه للرياء ومنع الماعون.
٤٤١ بحث في الحكم في جمع الصدور والقبور في كلام الله سبحانه وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

٤٤٣ بحث في قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾.
٤٤٤ بحث في بيان أن التكاثر في جمع المال ألهى عن الآخرة والاستعداد لها.
٤٤٦ بحث في قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾.
٤٤٧ بحث في قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾.
٤٥٠ الرد من زعم أن هذا الخطاب خاص بالكفار فلا يتناول المسلمين.
٤٥٣ بحث في بيان أن النفوس الشريفة العلوية تتكاثر بما يدوم عليها نفعه وتكمل به.
٤٥٤ بحث في حسن موقع [كلا] التي تضمنت الردع والزجر عن التكاثر ونفيه وإبطاله.
٤٥٥ فصل في أن الله سبحانه جعل أهل المقابر زائرين فقط غير مستوطنين.
٤٥٥ بحث في الفرق بين علم اليقين وعين اليقين.
٤٥٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

الصفحة المــــوضــــوع

سُورَةُ العَصْرِ

٤٥٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ الآيات.
٤٥٨ بحث في بيان أن كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع والعمل الصالح.
٤٥٩ بحث في بيان درجات الاجتماع النافع وغيره.
٤٦٠ بحث في بيان المقصود من العصر المقسم به.
٤٦١ الحكمة في تضييق الاستثناء وتخصيصه في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾.
٤٦٢ بحث في بيان أن الإنسان له حالتان: حالة كمال له، وحالة تكميل لغيره.
٤٦٢ علاقة الصبر بالإيمان والتقوى.

سُورَةُ الهُمَزَةِ

٤٦٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ ﴾.

سُورَةُ المَاعُونِ

٤٦٥ هل تؤخذ الأجرة ممن سكن دارًا مضطرًا أو استعار ثوبًا أو رحى أو دلوًا أو فأسًا أم لا؟
٤٦٦ بحث في أن الله سبحانه علق حصول الرحمة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول ﷺ.
٤٦٧ هل تارك الصلاة يلحق بويل الكفار أم بويل الفساق؟
٤٦٩ بحث في إيضاح أن تارك الصلاة في خسران وتأكيد ذلك.

الصفحة الموضوع
٤٧٠ بحث في بيان أن المؤمن له الإخلاص والإحسان، والفاجر له الكفر والبخل
٤٧٠ الرد على من زعم أن الإيمان هو التصديق المجرد.

سُورَةُ الكَوْثَرِ

٤٧٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾.
٤٧٥ سئل ﷺ عن الكوثر ما هو؟

سُورَةُ الكَافِرُونَ

٤٧٦ بحث في دلالة [ما] في قوله تعالى: ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾.
٤٧٧ بحث في الفائدة من تكرار الأفعال: ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾.
٤٧٨ بحث في بيان أن هذه السورة براءة من الشرك.
٤٨٢ بحث في انتظام هذه السورة وسورة الإخلاص نوعي التوحيد.
٤٨٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ هل أفاد معنى زائدًا على ما تقدم.
٤٨٥ بحث في بيان أن هذا الإخبار بأن لهم دينهم وله دينه هل هو إقرار فيكون منسوخًا أو لا نسخ في الآية ولا تخصيص.

سُورَةُ النَّصْرِ

٤٨٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾.
٤٨٨ بحث في بيان الدلالة على أن هذ السورة إعلان على أجل رسول الله ﷺ.

سُورَةُ المَسَدِ

٤٨٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾.

الصفحة الموضـــوع

سُورَةُ الإِخْلَاصِ

٤٩٠ بحث في بيان أن ما يجري صفة أو خبرًا عن الرب ـ تبارك وتعالى ـ أقسام.
٤٩٢ بحث في بيان أن صفات السلب المحض لا تدخل في أوصافه ـ تعالى ـ إلا أن تكون متضمنة لثبوت.
٤٩٣ بحث في بيان أن من أسمائه الحسنى ما يكون دالًا على عدة صفات.
٤٩٣ بحث في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.
٤٩٥ بحث في بيان أن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ توحيد لله سبحانه لنفسه وأمر للمخاطب بتوحيده.
٤٩٥ بحث في اضطجاع النبي ﷺ بعد سنة الفجر على شقه الأيمن، وهل يجب ذلك أم لا؟
٤٩٦ بحث في اختلاف الفقهاء في أي الصلاتين آكد: سنة الفجر أو الوتر؟
٤٩٧ بحث في بيان أن هذه السورة متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة.

سُورَةُ الفَلَقِ

٤٩٩ بحث في بيان أن المقصود من الإعاذة من الشيطان ليس إماتته ولا تعطيل آلات كيده.
٥٠٠ بحث في بيان أفضل ما يتعوذ به المتعوذون.
٥٠٢ بحث في بيان هل استرقى النبي ﷺ أم لا؟
٥٠٣ الفصل الأول بحث في معنى لفظ عاذ وما تصرف منه.
٥٠٧ الفصل الثاني في المستعاذ به وهو الله وحده: رب الفلق ورب الناس وملك الناس وإله الناس.
٥٠٨ الفصل الثالث في أنواع الشرور المستعاذ منها في هاتين السورتين.

الصفحة الموضوع

٥١٠ بحث في بيان أن المعاصي هي سبب زوال النعم، وتغيير الله لا يقع إلا بعد أن يغير العباد.
٥١١ الاستعاذة من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال هل واجبة في التشهد في الصلاة أم لا؟
٥١٢ فصل في بيان الشر المستعاذ منه، وأنه نوعان: موجود ومعدوم.
٥١٤ فصل في بيان الشر ومصدره ومنتهاه.
٥١٤ فصل في بيان الشرور والمستعاذ منها: الشر الأول العام في قوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.
٥١٧ بحث في أن الله فطر عقول عباده على استقباح وضع العقوبة في موضع الرحمة.
٥١٨ فصل في الكلام على قوله ﷺ: «لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس إليك».
٥٢٠ فصل في قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ دلالة على العموم التقييدي الوصفي.
٥٢٠ فصل في بيان الشر الثاني: شر الغاسق إذا وقب.
٥٢٤ فصل في بيان السبب الذي لأجله أمر الله بالاستعاذة من شر الليل وشر القمر إذا وقب.
٥٢٥ فصل في بيان السر في الاستعاذة برب الفلق في هذا الموضع.
٥٢٦ فصل في بيان أن الخلق كله فلق.
٥٢٧ فصل في بيان الشر الثالث شر النفاثات في العقد.
٥٢٨ بحث في بيان كيف سحر النبي ﷺ سحره لبيد بن الأعصم اليهودي عليه لعنة الله.
٥٣٣ فصل في قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ﴾ يدل على تأثير السحر وأن له حقيقة.
٥٣٥ فصل في بيان الشر الرابع: شر الحاسد إذا حسد.
٥٣٨ فصل في بيان أن العاين والحاسد يشتركان في شيء ويفترقان في شيء.
٥٤٣ فصل في قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ يعم الحاسد من الجن والإنس.

الصفحة الموضـوع
٥٤٣ بحث في اشتمال هذه السورة على الاستعاذة من الشرور الأربعة: من شر ما خلق، وشر الغاسق، وشر الساحر، وشر الحاسد.
٥٤٤ فصل في تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله: ﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾.
٥٤٦ فصل في بيان الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد عن المحسود.
٥٥٠ بحث في بيان أن تجريد التوحيد حصن الله الأعظم الذي يدخله يكون من الآمنين.
٥٥٥ فصل في بيان ما اشتملت عليه هذه السورة من القواعد النافعة الهامة.

سُورَةُ النَّاسِ

٥٥٧ بحث في بيان المستعاذ به أنه هو الله (رب الناس، ملك الناس، إله الناس).
٥٥٩ بحث في بيان الحكمة من توسط صفة الملك بين صفتي الربوبية والإلهية.
٥٦٠ فصل في بيان أن هذه السورة مشتملة على الاستعاذة من الشر الذي هو سبب الذنوب والمعاصي.
٥٦٠ فصل في بيان أصل الوسوسة.
٥٦١ فصل في بيان معنى الخناس وحقيقة اللفظ.
٥٦٣ فصل في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾.
٥٦٥ بحث في بيان أن أصل كل معصية وبلاء هو الوسوسة.
٥٦٨ بحث في بيان انحصار الشر في ستة أجناس، وحرص الشيطان على وقوع العبد في آية مرتبة من مراتبها.
٥٧٠ بحث في بيان السر في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ دون قول قلوبهم.
٥٧١ فصل في قوله تعالى: ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾.
٥٧٥ قاعدة نافعة فيما يعتصم به العبد من الشيطان ويستدفع شره، وذلك بعشرة أسباب.

الصفحة الموضوع

٥٨١ بحث في بيان أن فضول الكلام والنظر هما أوسع مداخل الشيطان.

٥٨٥ بحث في بيان أن فضول المخالطة هو الداء العضال الجالب لكل شر.

بهذا ينتهي المجلد السابع والأخير

من كتاب الضوء المنير على التفسير

والحمد لله رب العالمين[(١)]

---

(١) يقول العبد الفقير إلى رحمة مولاه: صبري بن سلامة بن شاهين آل حسين: لقد أنعم الله عليَّ بإتمام تحقيق هذا الكتاب المبارك في يوم الخميس الموافق ٥ من شوال سنة ١٤٣٠ هـ ٢٤ من سبتمبر ٢٠٠٩م راجياً الله ﷻ أن يتقبله مني ويجعله في ميزاني يوم ألقاه وأن يبيض به وجهي، ويدخره لي عنده، وأن ينفع به عباده، وأخص بالذكر مؤلفه رحمه الله الحافظ ابن قيم الجوزية، وجامعه فضيلة الشيخ علي الحمد الصالحي رحمه الله، وكذا أبناءه البررة الكرام سليمان وإبراهيم وغيرهما الذين قاموا على نشر هذا الكتاب وصبروا على إتمامه وخروجه بهذه الصورة الطيبة المباركة، داعياً الله تعالى ألا يحرمنا الأجر والمثوبة في الدارين، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

صبري بن سلامة شاهين بمدينة الرياض

في ٥/ ١٠/ ١٤٣٠هـ ٢٤/ ٩/ ٢٠٠٩م